المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية اللغة العربية

قسم البلاغة والنقد

التناسب في خواتيم السور المدنية

(الطوال نموذجا)

دراسة بلاغية

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه تخصص البلاغة والنقد

إعداد الباحثة/

تغريد بنت عبد العزيز سعد المبارك

المحاضرة في قسم البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية

إشراف/

أ.د. محمود توفيق محمد سعد

أستاذ البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

١٤٣٣-١٤٣٤هـ

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

يتناول البحث علم المناسبة ويطبقه على خواتيم الطوال المدنية بلاغياً وتهدف الدراسة إلى الكشف عن سر من أسرار إعجاز القرآن الكريم، وأسباب صدارته واحتلاله المرتبة العليا في التأليف والأداء مع الوقوف على المرتبة العليا التي يستحقها الجزء بما له من الارتباط بسابقه ولاحقه الذي هو كلحمة النسب ،مع بيان أثر النظم وحسن التجاور في تآليف المعاني وحسن انسجامها، وهذا كله يسهم في إعطاء صورة متكاملة عن معاني الطوال المدنية ؛الذي يفيد في فهم مقاصد الشريعة الإسلامية، كما يفيد في معرفة منهج القرآن الكريم في رعاية ختم الطوال المدنية بما يتناسب مع موضوعها وأغراضها ومطالعها، ويقدم دراسة بلاغية معمقة لخواتيم الطوال المدنية،وهي دراسة قائمة على التصنيف والتحليل والتفسير والتعليل والربط والاستقصاء . وجاء البحث محتويا على المقدمة ثم التمهيد وفيه خلاصة المناسبة القرآنية في القرآن وأنواعها .ومذاهب أهل العلم في ترتيب آيات القرآن وسوره .وجاءت أبوابه كالتالي: الباب الأول: علاقة خواتيم الطوال المدنية بمقاصدها .وفيه فصلان،الأول :نمو المعاني وتآخيها وانسجامها في السورة الواحدة.الثاني: دلالة اسم السورة على مقصودها الأعظم ووجه ارتباط خاتمتها بمقصودها .والباب الثاني: علاقة خواتيم الطوال المدنية بمطالعها .وفيه فصلان،الأول: أنواع المطالع في الطوال المدنية وحسن الانتقال إلى موضوع السورة. والثاني :براعة الاستهلال طريق إلى براعة المقطع في الطوال المدنية .والباب الثالث: السور الطوال (خاتمتها–مدنيتها) على مدرجة السياق الترتيلي للقرآن .وفيه فصلان،الأول: موقع الطوال المدنية على مدرجة السياق الترتيلي للقرآن.الثاني: علاقة خاتمة الطوال المدنية بمطلع ما بعدها وموقع السورة المدنية بين المكي والمدني .والباب الرابع: دلالات التراكيب في خواتيم الطوال المدنية .ثم خاتمة البحث والتوصيات والفهارس و المصادر والمراجع .

ومن أهم ما توصل إليه البحث :

–تتقارب المعاني وتتجاور منسجمة في السورة الواحدة ،وهذا التقارب هيأ له وحدة عضوية للسورة كلها،وهو قائم على علاقات من التماثل والتناظر والتتميم والتكميل والترتيب والتدرج.ويسهم المتشابه من الآيات في السورة في إظهار شيء من هذه العلاقات إن بين المعاني الجزئية في المعنى الكلي الواحد ،وإن بين المعاني الكلية الكبرى .

–الطوال المدنية تتصف بوحدة المقصد التي تهدف إلى كلية من الكليات الكبرى ونجوم السورة ، أو معاقدها مرتبطة بهذه الكلية ومشتقة منها وموصولة بها.

–المطلع في الطوال المدنية قد يطول ويقصر ومن الممكن أن يكون آية أو جزء من آية والمعاني فيه لها وظيفة التمهيد والتصدير لموضوع السورة ومنها تتناسل معاني السورة. والانتقال منه إلى الموضوع يتميز بالحسن دون اقتضاب .

–خاتمة السورة المدنية مركزية في السورة إذ هي مكرسة ومحصلة لما ورد في معاني السورة كلها ،وهي قائمة على استكمال بناء الصورة للموضوع المطروح في السورة وهي مرتبطة بمقصود السورة وعائدة عليه .

–إن دلالة التراكيب والخصائص البيانية في خاتمة الطوال المدنية لا يتضح مدادها ولا يتكامل بيانها باعتبار موقعها من جملتها الصغرى أو الكبرى ما لم يكن هناك اعتبار لموقعها من النص كله .

–بيان أثر خاتمة الطوال المدنية في اختيار الخصائص التركيبية والتصويرية المناسبة لما جاء في مطلعها مع اختلاف موقع كل ووظيفته من الإخبارية والإقناعية .

–التناسب بين الطوال المدنية تناسب مقاصد ،والسور المدنية تعتمد في معانيها على المكية فهي إما مفصلة لما أجمل في المكي أو مكملة لها أو مبينة لها بوجه من الوجوه .

Abstract

This research deals with proportionality in Quran & applies it to the last parts of the long Medinan chapters from rhetorical perspective. It aims to reveal one of the Quran's numerous miracles, & the reasons for its lead & being regarded widely as the finest piece of literature among all other texts; religious & non-religious. It shows as well how decently all parts of one particular chapter are linked together. All that contributes to give a comprehensive idea of the long Medinan chapters which is useful in understanding the purposes of the Islamic Law. It also gives an understanding of how the sealing of those long Medinan chapters in Quran is done in respect to their central theme, objectives & beginnings. This research shows a deep rhetorical study related to the Long Medinan chapters in regards to classifications, analysis, explication, reasoning, connectivity & survey.

Important findings of this research are;

- In one chapter, meanings are homogeneous & convergent. This convergence has created a contextual unit resulting from the organic unity of the whole chapter, & it is based on relations of similarity, symmetry arrangement & gradation. The similarity of verses in one chapter helps show some of those relations; in both partial & complete sense.
- The long Medinan chapters are characterized by the unity of purpose which serves to describe the whole idea and the minor supporting details.
- Every part of one chapter, alongside its name, demonstrates the main purpose and aspect it revolves around.
- The length of the beginnings of the long Medinan chapters might vary. One verse, or even a portion of it, could be considered as an opening to the main aspect of the chapter. The transition between several subjects is logical without truncation or curtness.
- The opening and middle parts, in addition to the name of the chapters, are preliminary to understand the Quranic meaning at the end of one Chapter.
- The closure of the long Medinan chapters is significant as it holds the outcome of what has been stated throughout the whole chapter in regard to its main purpose.
- The positioning of the compositional characteristics & the imaginative approach of the last parts of the long Medinan chapters is considered decently in order to reflect their significance.
- Although the beginning parts are considered declarative, and the last parts are persuasive, the compositional characteristics of the sentences are common.
- The last parts of the long Medinan chapters are properly sealed in a way not having readers/audience looking for more explanations in regard to what has been stated.
- The aspects of the Medinan chapters are based on the Meccan ones. The Medinan chapters either explain in details what have been stated in the Meccan ones, or they could be considered as complementary.
- An exposure of exegetes & critics contributions in discussing the inner meaning of Quran, and the superiority of exegesis in revealing yet deeper meanings has contributed to the development of the Quranic rhetoric.

المقدمة :

الحمد لله تعددت نعماؤه تعدداً فاق تطلعنا ، وتوالت أفضاله تواليا تجاوز تصورنا ، سبحانه أنعم علينا بتنزيل الكتاب المبين ، وتفضل علينا ببعث خير المرسلين ، فبلغ لنا آيات ربه تبليغاً حسنا كاملاً ، منزها عن النقص أو التزيد ، مُبرّأ من التغيير والتبديل ، عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة و التسليم .

وبعد ...

فالقرآن الكريم جاء بلغة العرب وبأساليبها ؛ إلا أنه تميز عنهما وفاقهما بجودة رصفه ، وبديع ترتيبه ، وحسن نسقه ، وإحكام تأليفه ، وصحة تركيبه ، فكان نظمه سابقا لكل نظم ، ومانعا لكل لحق ، وكان ترتيبه وتأليفه وتركيبه على استواء واحد في كل سوره وآياته التي قامت بمقاصده ومعانيه ، و كان ذلك قاهرا لكل فذ وبليغ .

والمتدبر للسورة القرآنية يلحظ هذه البلاغة العالية في الجملة الصغرى ابتداء فالكبرى منها فيعمق نظرته ليدرك اجتماع الجمل الصغرى و الكبرى لتكون فصلا من فصول السورة ، ويزداد التأمل حتى تُستبصر نجوم السورة مكوِّنة للمعنى الكلي ، وإذا المعاني الكلية الرئيسة تتناسق وتنسجم للوصول للمقصود الأعظم من السورة . وفي كل حركة وسكنة إن على نطاق الآية ، وإن على نطاق السورة ؛ يُلحظ هذا الاتصال التام و الترابط الوثيق بين الجمل و الفصول و المعاقد الذي يؤكد على القول بتناسب القرآن كله .

ومنزلة التناسب من الإعجاز البياني للقرآن منزلة الدر من العقد فهو أصل له ، وإبراز العلاقات بين الآيات وبين السور عمل كريم ضمنه العديد من المفسرين تفاسيرهم ، ثم صار النظر في العلاقات علما مستقلاً اصطلح العلماء على تسميته بعلم (المناسبة) وكان أول من أفرد مصنفا مفصلا في مناسبات الآيات والسور البقاعي ت(٨٥٥) .

واستبصار أوجه التناسب و التعلق قائم على الاجتهاد، وضابطه هو الاستنباط وفق الأصول العلمية للاستنباط، مما هو متلائم مع المعنى الأصلي للآية غير مضاد له، و غير متعارض مع مقتضى الشرع و اللسان العربي ،و مما هو متلائم مع السياق و السباق واللحاق خال من التمحل و التكلف .

و دراسة خواتيم السور القرآنية ركيزة في علم التناسب ،لأن فيها بيانا لمقاصد السور،وبروزا للنسب بين خواتم السورة و مطلع ما بعدها ،مع تعانق بين المطالع والخواتم في السورة الواحدة ،وظهورا للانسجام بين موضوعاتها،وللتآلف بين آياتها .

و القرآن الكريم جاء على التمام و الكمال في معانيه و ألفاظه،و في مقاصده وموضوعاته،و في تأليفه و نظمه،وفي استهلاله و اختتامه . وبلاغة المطالع والاستهلالات عالية، وفضل الخواتيم كبير نصّ الرسول ﷺ على بعضها فقال:"وأعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش." ([١]) وقال كذلك:"من حفظ عشر آيات من خواتيم سورة الكهف عصم من الدجال. و في رواية من أول سورة الكهف ." ([٢]) و تنوع الرواية فيه دلالة على أن العشر في الخاتمة من باب العشر في الفاتحة للسورة ، وهذا يعني شدة الاتصال والتعانق بين خاتمة السورة و مطلعها .

وتخصيص الطوال المدنية بالدراسة يسهم في بيان المقاصد بين السور؛لأن السياق المقامي الذي يبرز الضوابط والأحوال والقرائن والأزمنة الملازمة لنزول السورة له أثر كبير في حصول فقه المعنى القرآني المتضمن في الآية خاصة والسورة

---

(١) المستدرك على الصحيحين محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النسابوري.تحقيق :مصطفى عبد القادر عطا . كتاب فضائل القرآن.رقم الحديث (٢٠٦٧) أخبار فضائل سورة البقرة . ٧٥٠/١ . ط ١ ١٤١١ — ١٩٩٠م — دار الكتاب العلمية — بيروت .

(٢) صحيح مسلم .مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري .تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي .كتاب فضائل القرآن.رقم الحديث (٨٠٩)باب فضل سورة الكهف و آية الكرسي ٥٥٥/١-٥٥٦ .ط٣ .١٤٠٧-١٩٨٧م. دار ابن كثير —اليمامة/بيروت .

عامة ،كما أن معرفة أحوال المخاطبين و المنزل إليهم ،والوقائع والأحداث تسهم في ربط الأفكار و تسلسلها .

ومعرفة المكي و المدني ([1]) من السور وثيقة الصلة بتشكيل النص و توجيه دلالاته .

أهمية الموضوع وبواعث اختياره :

يرتكز موضوع البحث على ركيزتين :

الأولى : دراسة صلة خاتمة الطوال المدنية بثلاثة محاور؛ مقصد السورة، ومطلع السورة ومطلع السورة التي تليها .

الثانية :دراسة البنية الترتيبية و التركيبية لخاتمة الطوال المدنية .

ولأهمية معرفة الغرض من السورة ،ومعرفة الروابط بين معاقد السورة الواحدة ومعرفة أنواع العلاقات بين المطالع والخواتم في إعطاء صورة حية متكاملة للكيفية التي تناول فيها القرآن معانيه ،و للحيثية التي آخى فيها بين موضوعاته، وعلى الجملة للمنهج القرآني الكريم في ختم الطوال المدنية ختما يتناسب مع السورة ومقصودها الأعظم ومع السورة ومعطياتها،ومع السورة وجاراتها من السور- جاء هذا البحث لدراسة خواتيم الطوال المدنية .

أسباب اختيار الموضوع :

- أن هذا اللون من الدراسات البلاغية القرآنية فيه إسهام في بيان طريق يوصل إلى وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم .

(١) الذي عليه المعوّل في معرفة المكي من المدني هو أن كل مانزل بعد الهجرة فهو مدني ولو نزل بمكة .

– أن معرفة علل الترتيب بين أجزاء الكلام مرتبة عليا ،وبغية فاضلة ،و هي عظيمة النفع كثيرة الجدوى، لأنها تبرز العلاقات الكامنة بين موضوعات السورة الواحدة من جهة وبين مطلع السورة و خاتمتها من جهة أخرى، وبين خاتمة السورة ومطلع التي تليها من جهة ثالثة . وهذه العلاقات هي التي تجمع المعاني وتجعلها واضحة في الذهن ،راسخة في القلب وذلك يفيد في فقه المعنى القرآني للآية خاصة والسورة عامة .

– أن هذه الدراسة تندرج في باب السياق و بناء لغة النص الذي يتجاوز بناء لغة الجملة والفقرة ،ودراسة بلاغة النص باب وسيع قلّت فيه الدراسات العلمية ،و الدرس البلاغي شديد الافتقار إلى مثل هذا .

– أن تخصيص السور المدنية والطوال منها بالدرس البلاغي التناسبي فيه استبصار للمقاصد في سورها الذي يرمي بإثره إلى بيان العلاقات بين هذه المقاصد والذي يعد جزء من دراسة القرآن الكريم كله كبنية واحدة ،وهو من جهة أخرى يقدم نموذجا لنسق السور المدنية عامة .

– أن هذه الدراسة تسعى إلى أن تقدّم إضافة إلى مكتبة الدراسات القرآنية البلاغية،وستضرب الباحثة بسهم في دفع الدعاوى الإلحادية التي تشكك في ترتيب القرآن.
–أن دراسة خواتيم الطوال المدنية تركيبا وترتيبا ،ودراسة صلتها بمقصود السورة وبمطلعها وبمطلع ما بعدها من السور لم تنل حظا من الدراسة في رسالة جامعية – حسب علم الباحثة – وأرادت الباحثة أن يكون لها شرف سبق البحث في هذا الموضوع .

<u>أهداف دراسة الموضوع :</u>

– الكشف عن سرّ من أسرار إعجاز القرآن الكريم ،وأسباب صدارته،واحتلاله المرتبة العليا في التأليف والأداء .

– الوقوف على المرتبة العليا التي يستحقها الجزء بما له من الارتباط بسابقه ولاحقه الذي هو كلحمة النسب([1]).

– بيان أثر النظم وحسن التجاور في تآلف المعاني وحسن انسجامها مع التمييز بين مشتبه النظم في السور، ومعرفة أثر الوجوه والنظائر في المعاني .

– التمييز بين التفكير التفسيري وحسّه والتفكير البلاغي وحسّه في دراسة النصوص .

– إعطاء صورة متكاملة عن معاني الطوال المدنية وذلك يسعى حثيثا إلى فهم مقاصد الشريعة الإسلامية، وهي ضرورة يجب على كل مسلم العلم بها.

– التعرف على منهج القرآن الكريم في رعاية ختم السور المدنية بما يتناسب مع موضوعها وأغراضها و مطالعها.

– تقديم دراسة بلاغية علمية لخواتيم الطوال المدنية، وهي دراسة قائمة على التصنيف والتحليل والتفسير والتعليل والربط والاستقصاء .

الدراسات السابقة :

لم تحظ الخواتيم بالدراسة العلمية التفصيلية مثل ما حظيت به المقدمات والمطالع بصفة عامة ؛إذ النظر في الخواتيم أدق وأغمض منه في المطالع والافتتاحات؛لأن العمدة في تحديد نوع الفاتحة أو المطلع هي أول آية في السورة ،أما الخواتيم فلا يمكن القول بأننا سننظر إلى آخر لفظة في السورة أو أول لفظة في آخر آية،إذ لابد من توسيع النظر مع الاجتهاد في استخراج الخاتمة،وخصوصا غير المنصوص عليها،وهي تحتاج إلى مراجعة وعمق نظر،وإعمال فكر وروية،واستقراء واستنتاج ؛تسبقها مرحلة يقيم فيها الباحث فيما كتبه المفسرون في تفسير الآيات والسور .

(١) تنظر مقدمة نظم الدرر في تناسب الآيات و السور.برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي .خرّج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه :عبد الرزاق غالب المهدي ٥/١ . ط٢ .٢٠٠٣م–١٤٢٤هـ .دار الكتب العلمية /بيروت– لبنان .

وخواتيم الطوال خصوصا لم تدرس ولم يسلط الضوء عليها ولا على بنيتها التركيبية التي تظهر مركزيتها للسورة،و تبرز اعتلاقها بمعاني السورة كلها،ور جوعها على مطلعها ؛غير أن هناك دراسات متفرقة للتناسب بصفة عامة في الطوال مثل :

-القرآن في نظام القرآن في الفاتحة و البقرة وآل عمران .محمد عناية الله أسد سبحاني.قدّم له :محمد أديب الصالح و أبو الحسن علي الندوي و مصطفى مسلم . ط١. ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م دار عمار للنشر و التوزيع-عمان .

وجاء الكتاب في تمهيد لمنهج تفسير البقاعي وبيان الفرق بينه و بين منهج صاحب الكتاب.

وموضوع البحث احتوى على ثلاثة أبواب :

الباب الأول:نظام سورة الفاتحة .وجعل فصولا تحته هي :على هامش السورة -عمود السورة-وجوه الارتباط بين الآيات -ارتباط السورة بالتي بعدها -موقع السورة من جملة القرآن- المناسبة بين فاتحة الكتاب و خواتيمه .

الباب الثاني :نظام سورة البقرة .و الباب الثالث: نظام سورة آل عمران،و أشار الكاتب إلى أن هذين الفصلين لم يقسمهما إلى فصول كما الأول للفرق في الحجم بين الفاتحة والزهراوين؛ فتناول مجموعة من الآيات ،وبيّن مناسبتها فيما بينها ولما قبلها ،مع الوقوف على الآيات التي قد يلتبس على الناس أمرها .وبعد وقوفه على بيان المناسبة في آيات السورة وفي أجزائها في كل من البابين يعود إلى السورة مرة أخرى ليبين عمودها .و في نهاية الباب الثالث بين وجوه المناسبة بين البقرة وآل عمران .

-نمو المعاني .دراسة تحليلية لسورة آل عمران .عادل حسني شكري يوسف. تقديم :محمد خير البقاعي.ط١. ١٤٢٤ هـ -٢٠٠٤م. مكتبة ودار ابن حزم-الرياض .

قام الباحث بتتبع حركة المعنى الرئيس في السورة ،ونموه من أول السورة إلى منتهاها مستعينا بما تشابه من الآيات .وكان يعتمد على العنونة المفردة دون تقسيم الموضوع إلى أبواب أو فصول ،ومن أبرز عناوين البحث ما يلي:دلائل التوحيد و العزة في فاتحة السورة

—النظر في حركة المعاني في السورة — تغير طفيف في حركة المعنى — بيان لنمو المعاني بالمقارنة مع ما جاء في سورة المائدة —أثر تفريق الآيات المتشابهة في نمو المعنى .

– أسرار التناسب والنظم في الأسماء الحسنى والصفات العلا في فواصل سورة الأنفال .رسالة ماجستير ١٤١٦هـ –الباحثة: عواطف حمزة خياط .إشراف :علي العماري .

تناول البحث دراسة تناسبية بين الأسماء التسعة والتسعين وغيرها من الصفات العلا الواردة في فواصل سورة الأنفال مع آياتها.

وجاء البحث تحت بابين دون تسمية لهما ؛الأول يحتوي على فصلين :

الفصل الأول /ويشمل أربعة أجزاء كما أسمتها الباحثة وهي :(نعم عظيمة وآيات مبينة . –توجيهات تربوية– مكائد الكافرين –أسباب النصر)

الفصل الثاني /ويشمل ثلاثة أجزاء :(مصارع الكافرين–أحكام قتالية– أحكام الهجرة والجهاد درجات السبق إليهما .)

الباب الثاني :ويشمل فصلان ؛الأول وتحته ثلاثة مباحث :(دراسة الفواصل الحسنى المقترنة في سورة الأنفال و مقارنتها بغيرها من سور أخر– دراسة التقديم و التأخير في الفواصل الحسنى في سورة الأنفال و مقارنتها بغيرها من السور —دراسة الفواصل الحسنى المفردة في سورة الأنفال ومقارنتها بغيرها من سور أخر).

الفصل الثاني :ويشمل ثلاثة مباحث:(دراسة الفواصل العليا في سورة الأنفال ومقارنتها بغيرها من سور أخر–مقارنة بين بعض آيات الفواصل الحسنى والعليا في سورة الأنفال بمايليها في آيات أخر —مقارنة سورة الأنفال بسورتي التوبة ومحمد).

–فواتح السور وخواتيمها (أنواعها ، دلالاتها ، مناسباتها) .رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه بكلية أصول الدين بالرياض .إعداد الطالب / عبد العزيز بن عبد الله بن عبدالعزيز الخضيري .إشراف الدكتور / مصطفى مسلم . ١٤١٧هـ .

وتقع الرسالة تحت قسمين كبيرين — كما سماهما الباحث —

القسم الأول : فواتح السور وخواتيمها (دراسة منهجية) .وفيه بابان :

الباب الأول :أنواع فواتح السور و خواتيمها ؛معتمدا في تقسيمه لهما على الإخبار والإنشاء.

الباب الثاني :أنواع المناسبات بين الفواتح و الخواتيم ؛معتمدا المناسبات اللفظية والمعنوية .

القسم الثاني :فواتح السور وخواتيمها (دراسة تطبيقية لسور القرآن) وتحدث فيها عن أسماء السور دون التعرض لعلاقتها بمقاصدها ،مع سرد لفضائلها ونوعها من حيث المكي و المدني،وذكر عدد آياتها كما وردت عن الرواة ،وسرد أسباب النزول الخاصة بما جاء في المطلع والختام،مع التعريج على محور السورة ،والنص على فاتحة السورة وخاتمتها وذكر ما بينهما من صلات .

وبالنظر إلى ما ورد في السابق من موضوعات مدروسة،يتضح أن هذا البحث سيتفرّد بدراسة تفصيلية للطوال المدنية خصوصا، وبيان أثر الخاتمة في هذه الدراسة ركيزة فيها،يسبقها تتبع لحركة المعاني ونموها في السورة ،مع استنتاج الصلات والعلاقات بين معانيها الجزئية والكلية التي يسهم المتشابه في الكشف عنها . كما سيتفرّد بإلقاء الضوء على وظائف المعاني في مطالع السور ،وإبراز براعة استهلال السورة وسيرها إلى ختامها،مع استبصار علاقة خاتمة السورة المدنية بمطلع ما بعدها .

ودراسة دلالات التراكيب في خاتمة الطوال المدنية ركن عظيم في هذه الدراسة التناسبية لم يكن للدراسات السابقة نصيب فيها .

منهج البحث و حدوده :

تقوم الدراسة – بمشيئة الله تعالى — على المنهج البلاغي (البياني) في تحليل النصوص الذي يعتمد على المقومات الآتية: استقراء الظاهرة ووصفها ،وتحليلها ،وتأويلها وتعليلها، وتحصيلها باستخراج القواعد والكليات الضابطة للجزئيات .

هذه الأصول الخمسة تتمثل فيما نصّ عليه عبد القاهر الجرجاني في دلائله حين قال: "لا يكفي في علم الفصاحة أن تنصب لها قياسا ما، وأن تصفها وصفا مجملا، وتقول فيها قولا مرسلا ،بل لا تكون من معرفتها في شيء حتى تفصّل القول وتحصل ،وتضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلم ،وتعدها واحدة واحدة، وتسميها شيئا شيئا، وتكون معرفتك معرفة الصنيع الحاذق الذي يعلم علم كل خيط من الإبريسم الذي في الديباج ،وكل قطعة من القطع المنجورة في باب المقطّع ،وكل آجرة من الآجر الذي في البناء البديع ."(1)

وتتمثل في قوله كذلك: " لا بد لكل كلام تستحسنه، و لفظ تستجيده، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة ،وعلة معقولة، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذاك سبيل وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل ".(2)

وقوله: " واعلم أنك لا تشفى العلّة ،ولا تنتهي إلى ثَلَج اليقين، حتى تتجاوز حد العلم بالشيء مجملا، إلى العلم به مفصلا، وحتى لا يقنعك إلا النظر في زواياه ،و التغلغل في مكامنه ،و حتى تكون كمن تتبع الماء حتى عرف منبعه، و انتهى في البحث عن جوهر العود الذي يصنع فيه إلى أن يعرف منبته ،ومجرى عروق الشجر الذي هو منه."(3)

---

(١) كتاب دلائل الإعجاز.أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي .قرأه و علّق عليه: أبوفهر محمود محمد شاكر صـ ٣٧ .ط٣. ١٤١٣–١٩٩٢م . مكتبة الخانجي — القاهرة . مطبعة المدني — جدة .

(٢) السابق صـ٤١ .

(٣) السابق صـ٢٦٠ .

أما حدوده فهي محصورة في دراسة خواتيم الطوال المدنية . وتحديد السور المدنية لا يقصد إلى خصائصها في جوهرها؛ و لكنه يقصد إلى النظر في السياق المقامي المحيط بالآيات أو السورة عامة لأثره في فقه المعنى القرآني .وتخصيص الطوال منها تخصيص اقتضاه الدرس لما بينها من التجاور الذي يوسع النظر، ويصعّد التدبر في مقاصدها .ولما فيها من الرحابة والبسط و الإطناب الذي يعطي مجالا للنظر والتأمل في نسق السورة .

وجاء البحث محتويا على التالي :

أولا: المقدمة و فيها :نبذة عن الموضوع و بيان أهميته وأسباب اختياره و أهدافه، مع بيان منهج البحث وحدوده والدراسات السابقة .

ثانيا: التمهيد و فيه :

أولا: خلاصة المناسبة القرآنية وأنواعها .

ثانيا :مذاهب أهل العلم في ترتيب آيات القرآن وسوره .

وجاء موضوع البحث مشتملا على أربعة أبواب :

الباب الأول : علاقة خواتيم الطوال المدنية بمقاصدها .

وجاء في فصلين :

الفصل الأول : نمو المعاني و تآخيها وانسجامها في السورة الواحدة .

الفصل الثاني : دلالة اسم السورة على مقصودها الأعظم ووجه ارتباط خاتمتها بمقصودها.

وآثرت الباحثة دراسة محور السورة و عمودها ابتداء ؛بعرض سير معاقدها عرضا واحدا يكشف عن حلقات المعاني ،كيف ترابطت الآيات بداخلها ؟ثم كيف كونت مع بعضها معنى جزئيا ،وكيف تنامت المعاني الجزئية للوصول إلى المقاصد الكلية،مع بيان أثر

المتشابه من الآيات في الكشف عن العلاقات بين المعاني ،ثم كيف تآخت الكليات للوصول للمقصود الأعظم من جهة أخرى. وإنما كان الابتداء بهذا الباب ؛لأن فقه معنى السورة يكون بفهمها إجمالا فلا "ينظر في أولها دون آخرها،ولا في آخرها دون أولها،فإن القضية وإن اشتملت على جمل فبعضها متعلق بالبعض... فلا محيص للمتفهم عن رد الكلام على أوله،و أوله على آخره ...فإن فرّق النظر في أجزائه فلا يتوصل به إلى مراده فلا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض."(1) .

ولما كان اسم السورة مترجما عن مقصودها -كما ذكر البقاعي-(2) حسن ضم هذا الفصل تكميلا لاستيضاح مقصود السورة ،و ليكون تمهيدا لذكر علاقة خاتمة السورة بمقصودها.

الباب الثاني: علاقة خواتيم الطوال المدنية بمطالعها .

وجاء في فصلين :

الفصل الأول : أنواع المطالع في الطوال المدنية و حسن الانتقال إلى موضوع السورة .

الفصل الثاني :براعة الاستهلال طريق لبراعة المقطع في الطوال المدنية .

وقامت الباحثة بتقديم الفصل الأول على الثاني لأنه بمعرفة الأول يتحصل الكلام في الثاني،فتحديد المطلع و الموضوع أصل لبيان البراعة في الاستهلال .

وفيه تصور لموقع مطلع السورة و بيان وظائف المعاني فيها وما تحويه من صنوف التعبير مع تتبع سيرها حتى وصولها لموضوع السورة .ولما كان افتتاح القرآن كله براعة تتبعت الباحثة المعنى الذي يومئ إلى موضوع السورة من افتتاحيتها إلى ختامها و ترقبت دلالاته مع ما يكتنف الموضوع من التعبير المباشر أو التعبير بمقتضيات المعنى .

---

(١) الموافقات في أصول الشريعة .أبو إسحاق الشاطبي تحقيق:عبد المنعم إبراهيم ٣/٨٥٥-٨٥٦ .ط١ .١٤١٨-١٩٩٧م المملكة العربية السعودية/ مكتبة نزار مصطفى الباز- مكة المكرمة .ولعل لفظ (بعض) أصح بدون (أل) .

(٢) نظم الدرر ١/١٢ .

الباب الثالث : السور الطوال (خاتمتها – مدنيتها)على مدرجة السياق الترتيلي للقرآن

وجاء في فصلين :

الفصل الأول :موقع الطوال المدنية على مدرجة السياق الترتيلي للقرآن .

الفصل الثاني :علاقة خاتمة الطوال المدنية بمطلع ما بعدها و موقع السورة المدنية بين المكي و المدني .

وقُدّم الفصل الأول على الثاني لأن تتبع السياق المقامي للسورة بصورة كلية خطوة أولية للهداية للفصل الثاني .

و قامت الباحثة في دراسة موقع السورة المدنية بالنظر إلى قربها وبعدها من فاتحة الكتاب أي تناسلها منها ،مع توجيه المقاصد على إثر ترتيب السور و الاستعانة في ذلك بالمتشابه بين الآي في السور .

ولما كان ربط آخر موضوع في السورة بمطلع ما بعدها هو ربط مقصود بمقصود اقتصر البحث على وجه اتصال خاتمة السورة بمطلع مابعدها – مع تعدد جوانب الاتصال– مضموما إليه موقع هذه الخاتمة بين المكي و المدني .

الباب الرابع : دراسة دلالات التراكيب في خواتيم الطوال المدنية .

ولما كان بيان صلة خاتمة السورة المدنية بالمحاور الثلاثة يحقق جانبا من التناسب؛سُلط الضوء على خاتمة الطوال المدنية من جانب تراكيبها حتى ينظر في التناسب بين هيئاتها وصورها ،مع وصف لدلالتها ومدخلها ،ثم نظر في كليات أساليب الدلالة في خواتيم الطوال مع مقارنتها بما كان في مطلعها .

الخاتمة و فيها : نتائج البحث والتوصيات .

الفهارس و تشمل :

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث الشريفة

فهرس الموضوعات

المصادر و المراجع

وبعد فهذا جهد يعتريه النقص والقصور،وحسبي أني اجتهدت في إبراز أوجه الارتباط والتناسب بين خاتمة الطوال المدنية والسورة نفسها بكل أنحائها من المطلع والوسط والمقصود والسورة التالية لها ؛بقدر الطاقة وحسب الاستطاعة،فإن وُفقت فما توفيقي إلا بالله ،وإن كان غير ذلك فمن نفسي و الشيطان .

وفي الختام يطيب لي التوجه لله شاكرة فضله الجم بتوفيقي لدراسة موضوع له تعلق بالقرآن الكريم ،وشاكرة أستاذي المشرف أ.د /محمود توفيق محمد سعد ؛على ما قدمه من عون ورعاية .

كما أشكر لجنة المناقشة التي تفضلت بإثراء البحث بملحوظاتها .والشكر موصول لجامعة أم القرى وعلى رأسها كلية اللغة العربية وقسم الدراسات العليا ،وإلى كل من أعان على هذا العمل .

فهرس الموضوعات

التمهيد

أولا : خلاصة المناسبة القرآنية في القرآن وأنواعها

التناسب بين الكلام،و تعلق بعضه ببعض،وارتباط أجزائه ؛حتى لتفضي الجملة الأولى إلى الثانية،و يتعلق المعنى الثاني بالأول، و يشير أول الحديث إلى آخره،و يصير آخره قاعدة لما جاء في ثناياه، ثم يدل بمطلعه على مقصده، و يؤكد بمقطعه على معناه ؛لهو من أهم الأوجه التي عليها مدار الإعجاز البياني للقرآن الكريم، ذلك البيان الذي اختار الفصحاء و البلغاء و البيانيون التنحي عن معارضته و التسليم له بالفصل والمزيّة .

التناسب مطلب من مطالب الجودة في التآلف عند النقاد والبلاغيين،و لعل مِنْ أوائل مَنْ التفت إليه أبو هلال العسكري ت(٣٩٥) حين قال :"و ينبغي أن تجعل كلامك مشتبها أوله بآخره،ومطابقا هاديه لعجزه،ولا تتخالف أطرافه،و لا تتنافر أطراره ،(١) وتكون الكلمة منه موضوعة مع أختها ،ومقرونة بلفقها."(٢) والاقتران بين الألفاظ هو أكثر مدار التناسب عند القدماء، فكانت النقدات والمناظرات تقوم على اللفظة واختيار لفقها،و هل وُفق الشاعر في قرنها مع أخواتها أم مع بنات عمها ؟ (٣)

(١) عدّل المحقق كلمة (أطراره) إلى (أطرافه) و قد ذُكرتْ في الجملة السابقة ،فظهر أن المؤلف لا يقصدها إنما يريد غيرها ،و الصحيح أن قصده حدوده و مداده ؛ لأن "(طر) :الطاء والراء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على حِدّة في الشيء واستطالةٍ وامتدادٍ من ذلك قولهم: طرَّ السِّنان، إذا حدّده. وهذا سنان مطرور، أي محدَّد. (معجم مقاييس اللغة،أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا ،تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون ، مادة (طرّ) بدون ط. دار الجيل– بيروت.)

(٢) كتاب الصناعتين.الكتابة والشعر .تحقيق:علي محمد البجاوي.و محمد أبو الفضل إبراهيم صـ١٤١–١٤٢ .بدون ط. ١٤١٩هـ–١٩٩٨م. المكتبة العصرية /صيدا –بيروت).

(٣) يرجع في قصص الشعراء و نقدهم إلى المصادر مثل:كتاب الصناعتين صـ١٤٢– ١٤٦ .وكتاب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر .ابن الأثير .تحقيق:محمد محيي الدين عبد الحميد ٢٧٦/٢–٢٧٨ .بدون ط .١٤١٦هـ–١٩٩٥م.المكتبة العصرية /صيدا– بيروت .

والمناسبة القرآنية علم يضرب بجذوره إلى أزمنة بعيدة " فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أمره أن يخرج ينادي في الناس أن لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب ."([1])وفيه من التناسب بين اسم السورة و مكانها من آيات القرآن كله. و فيه دلالةأيضا على مكان السورة من السياق الكلي للقرآن .

وتَنَبُّه الصحابة لجمع الرسول ﷺ لبعض السور في القراءة دون غيرها([2])فيه دلالة على أن نظرة التناسب بين السور و موضوعاتها قائمة في ذواتهم،ومحل نظر عندهم .

والروايات التي تذكر وقوف الأعراب ([3]) على أخطاء سمعوا قرّاء بالقرآن يقرؤون بها مع عدم معرفة الأعراب أنفسهم بالقرآن ،تدل على أن للسليقة العربية و خلوص اللغة أثرا في

---

(١) المستدرك على الصحيحين . كتاب الطهارة رقم الحديث (٨٧٢) .باب التأمين ١/ ٣٦٥

"وعن أبي هُرَيْرَةَ عن النبي ﷺ قال من صلى صَلَاةً لم يَقْرَأْ فيها بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ ثَلَاثًا غَيْرُ تَمَامٍ فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ فقال اقْرَأْ بها في نَفْسِكَ فَإِنِّي سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: قال الله تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ..."(صحيح مسلم .كتاب الصلاة .رقم الحديث (٣٩٥) بَاب وُجُوبِ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ في كل رَكْعَةٍ وَإِنَّهُ إذا لم يُحْسِنْ الْفَاتِحَةَ ولا أَمْكَنَهُ تَعَلُّمَهَا قَرَأَ ما تَيَسَّرَ له من غَيْرِهَا ٢٩٦/١)وعن عبادة بن الصامت قال :قال رسول الله ﷺ:" إني لأراكم تقرؤون من وراء إمامكم قلنا :أجل والله يا رسول الله هذا قال: فلا تفعلوا إلا بأم القرآن فإنه لا صلاة لمن لا يقرؤها" (المستدرك على الصحيحين . كتاب الطهارة .رقم الحديث(٨٦٨) . باب التأمين ٣٦٤/١).

(٢) "عن حذيفة بن اليمان قال صليت مع رسول الله ﷺ ليلة من رمضان في حجرة من جريد النخل قال فقام فكبر فقال الله أكبر ذو الجبروت والملكوت وذو الكبرياء والعظمة ثم افتتح البقرة فقرأ فقلت يبلغ رأس المائة ثم قلت يبلغ رأس المائتين قال ثم افتتح آل عمران فقرأها ثم افتتح النساء فقرأها لا يمر بآية التخويف إلا وقف فتعوذ ثم ركع مثل ما قام يقول سبحان ربي العظيم يرددهن ثم رفع رأسه فقال سمع الله لمن حمده اللهم ربنا لك الحمد مثل ما ركع ثم سجد مثل ما قام يقول سبحان ربي الأعلى ويقول بين السجدتين رب اغفر لي فما صلى إلا أربع ركعات من صلاة العتمة من أول الليل إلى آخره حتى جاء بلال فأذنه بصلاة الغداة "(المستدرك على الصحيحين.كتاب الوتر .رقم الحديث (١٢٠١). من كتاب صلاة التطوع ٤٦٧/١)

(٣) "حكي أن أعرابيا سمع قارئا يقرأ :فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله غفور رحيم ،و لم يكن يقرأ القرآن ،فقال :إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا ،الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل لأنه إغراء عليه "الإتقان في علوم القرآن.جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكرالسيوطي .قدّم له و علّق عليه :محمد شريف سكر السيوطي ٢٨٠/٢ راجعه: مصطفى القصاص .ط٢ .١٤١٦هـ-١٩٩٦م .دار إحياء العلوم -بيروت /مكتبة المعارف - الرياض) .

الكشف عن مناسبة الكلم لبعضه بعضا ،و فيه دلالة على أن التناسب في الكلام مطلب من مطالب الفصاحة و البلاغة .

وقيل :"أول من أظهر ببغداد علم المناسبة و لم نكن سمعناه من غيره هو الشيخ الإمام أبوبكر النيسابوري(1)،و كان غزير العلم في الشريعة و الأدب ،و كان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه الآية :لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه ؟و ما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة ؟و كان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة . "(2)

وأشار الباقلانيّ ت(٤٠٣هـ) إلى التناسب في قوله :"واعلم أن هذا علم شريف المحل ،عظيم المكان،قليل الطلاب ...وهو أدق من السحر، وأهول من البحر،وأعجب من الشعر وكيف لا يكون كذلك وأنت تحسب أن وضع الصبح في موضع الفجر يحسن في كل كلام ؛إلا أن يكون شعرا أو سجعا، وليس كذلك؛فإن إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع،وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى؛بل تتمكن فيه وتضرب بجرانها وتراها في مظانها، وتجدها فيه غير منازعة إلى أوطانها وتجد الأخرى –لو وضعت موضعها– في محل نفار، ومرمى شراد،ونابية عن استقرار ."(3) وجهوده في التناسب تشير إلى معرفته به إن على نطاق السورة الواحدة،مثل نظراته في سورة النمل ،وإن على نطاق السور مثل:قوله في

(١) " أبو بكر النيسابوري هو عبد الله بن محمد بن زياد الأموي الشافعي ،إمام الشافعين في عصره ببغداد .توفي عام(٣٢٤هـ) ." (سير أعلام النبلاء .محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي .أبو عبد الله .تحقيق: شعيب الأرناؤوط و محمد نعيم العرقسوسي١٥/ ٦٥–٦٧ .ط٩ . ١٤١٣هـ مؤسسة الرسالة –بيروت) .

(٢) البرهان في علوم القرآن: للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي .شرح حديثه وقدم وعلق عليه: مصطفى عبدالقادر عطا .٦٢/١ .بدون طبعة. ١٤٢٢هـ–٢٠٠١م. دار الكتب العلمية– بيروت/لبنان. .و مثله في الإتقان في علوم القرآن .السيوطي ٢٩٨/٢ .و تعتبر الدراسات المقدمة في الآيات المتشابهات دراسة للتناسب في وجه من وجوهه ،مثل كتاب: درة التنزيل و غرة التأويل للخطيب الإسكافي، وأسرار التكرار للكرماني ،و ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي.

(٣) إعجاز القرآن .أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني .قدّم له و شرحه و علق عليه: محمد شريف سكر .صـ ٢٤٤ ط٣. ١٤١٥هـ –١٩٩٤م .دار إحياء العلوم –بيروت .

نظم سورة غافر وفصلت،وقوله في تصريف قصة موسى في سورة النمل وسورة طه والقصص .([1])

وقال ابن العربي([2])ت(٥٤٣هـ) في كتاب (سراج المريدين): "ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسعة المعاني،منتظمة المباني،علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ،ثم فتح الله لنا فيه،فلما لم نجد له حملة ،ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه،وجعلناه بيننا وبين الله،ورددناه إليه ."([3])

ثم كانت بداية انتشار فكرة التناسب الفعلية إشارات على ملتقى طريق التفسير تهدي وترشد إلى تحقق التناسب في القرآن بأكمله،آيات وسور .ولعل الزمخشري ت(٥٣٨هـ) أدرك التناسب؛ولكن لم يأت في تفسيره بالتطبيق الشافي،و من كلامه فيه: "التفصيل سبب تلاحق الأشكال و النظائر و ملاءمة بعضها لبعض ،و بذلك تتلاحظ المعاني،و يتجاوب النظم."([4])

و يعد تفسير الفخر الرازي ت(٦٠٤هـ) من أهم التفاسير التي عنيت بالتناسب،حيث قال في تفسيره لسورة البقرة:" و من تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها ؛علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه و شرف معانيه ،فهو أيضا معجز بحسب

---

(١) ينظر الحديث في نظم السورتين (غافر و فصلت) صـ٣١-٣٥ وينظر الحديث في سورة النمل و معه تصريف القصص صـ٢٥٠-٢٥٢ من كتاب إعجاز القرآن . الباقلاني .

(٢) " محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد أبو بكر بن العربي المعافري الأندلسي .ولد في شعبان سنة ٤٦٨هـ .صنف التفسير و أحكام القرآن و شرح الموطأ وشرح الترمذي .توفي سنة ٥٤٣ هـ ."(تذكرة الحفاظ .أبوعبد الله شمس الدين محمد الذهبي ١٢٩٤/٤-١٢٩٧ ط١ .دار الكتب العلمية-بيروت).

(٣) البرهان في علوم القرآن ٦٢/١ . ومثله في الإتقان في علوم القرآن ٢٩٨/٢ .

راجعه: مصطفى القصاص .ط٢ .١٤١٦هـ-١٩٩٦م .دار إحياء العلوم -بيروت /مكتبة المعارف - الرياض .

(٤) الكشاف عن غوامض التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل .جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري . تحقيق و تعليق و دراسة :عادل أحمد عبد الموجود .و علي محمد معوض .٢٢٠/١. ط١ .١٤١٨هـ- ١٩٩٨م مكتبة العبيكان -الرياض .

ترتيبه و نظم آياته ."([1]) و لا نبالغ إن قلنا إن تفسيره يعد بداية حقيقية لتأصيل علم التناسب.

كما يعد تفسير الحرالّي ت(٦٣٨) أساسا لفهم التناسب ،فقد أقام منظومة الحياة كلها وبعث الرسول ﷺ خاتما للأنبياء ومعه القرآن الكريم ختما على أساس من التناسب،وقال في بيان موقع البسملة من القرآن وموقع الآيات من الفهم:" استفتح أم القرآن بالبسملة لما كانت نسبتها من متلو الصحف و الكتب الماضية نسبة أم القرآن من القرآن...كما تضمنت أم القرآن سر ظهور الأفعال بالعناية من الحميد المجيد في آية: {إياك نعبد وإياك نستعين}."([2])

ويعد ابن الزبير الغرناطي ت(٧٠٨) أول من أفرد مصنفا في ترتيب سور القرآن،ولم يتعرض لتناسب الآيات في كتابه،وسمّاه (البرهان في ترتيب سور القرآن) .وتظهر فيه النظرة الكلية للقرآن الكريم على أساس مقاصده ،وهو كتاب نفيس ؛لدقة مسلكه .

والتناسب لم يُعرف كعلم له أصول وقواعد إلاعلى يد الإمام برهان الدين البقاعي ت(٨٨٥هـ) حيث أفرد له كتابين:(نظم الدرر في تناسب الآيات و السور) و (مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور) وحكى استفادته من المتقدمين أمثال الحرالّي وابن الزبير. وأسّس لعلم المناسبات فقال : " وعلم المناسبات الأهم من مناسبات القرآن وغيره؛علم تعرف منه علل الترتيب. وموضوعه أجزاء الشيء المطلوب علم مناسبته من حيث الترتيب."([3])

---

(١) التفسير الكبير.المجلد الرابع ١١٢/٧ .

(٢) تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي في التفسير .من سلسلة تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي .تصدير:محمد ابن شريفة .تقديم و تحقيق :محمادي بن عبد السلام الخياطي صـ١٤٥ .ط١ .١٤١٨هـ-١٩٩٧م .بدون دار .

(٣)نظم الدرر ٥/١ .

ثـم فُتـح البـاب المغـلق ،و تـوالت المـؤلفـات بين مـا ضُمّن في التفـاسيـر ([1]) و بين مـا أفـرد في المصنفـات المستقلـة. ([2]) و عظم أمر التنـاسب ،و تتابعت الدراسات حوله إلى هذا الحين.

التعريف بالتناسب :

التنـاسب من النسـب و معنـاه في دلالتـه الوضعيـة : " اتصـال الشـيءِ بالشـيء ،و منـه النّسَب، سمي لاتّصـاله وللاتِّصـال به ."([3])والنسب هو :"نسـب القرابات... ونَسَبَهُ ينسُبُـه ويَنْسِبُه نَسَبَا : عزاه ... وتقول: ليس بينهمـا منـاسبة أي :مشـاكلَة ."([4])

وإذا كان أصل النسب يدل على القرابات، فمعنى ذلـك أن تلـك القرابـات يمكـن اسـتعارتها على ما بين الكلم من صلات معنوية وارتباطات لفظية ومقاربات صوتية، وفيه تضمين معنـى قـوة تلـك العـلائق بين أفـراد الشيء الـواحـد حتى تبدو لحمتهـا كلحمة النسـب، فالاتصال إذاً اتصال جوهري يـؤثر علـى شـكل الحـروف داخـل الكلمـات ،والكلمـات داخـل الجمـل الصغرى والجمل الصغرى داخل المعقد ،والمعاقد كلها داخل النص بأكمله ،فإذا الـنص كلـه ينعطف على بعضه جوهريا وظاهريا .

---

(١) مثل تفسير التحرير والتنوير لابن عـاشور .و البحر المحيط لأبي حيـان .و روح المعـاني للألوسي .و إرشـاد العقل السليم لأبي السعود ،وفي ظلال القرآن لسيد قطب .و التفسير البياني لعائشة عبد الرحمن .و تفسير المنار لمحمد رشيد رضا .و تفسير القرآن العظيم محمد شلتوت .و الأساس في التفسير لسعيد حوى... و غيرها كثير .

(٢) مثل :كتب السيوطي: أسـرار ترتيب القرآن المسمى (تناسق الدرر في تناسب السور) و مراصد المطـالع في تناسب المقـاطع . و قطف الأزهـار في كشف الأسـرار المسمى (أسرار التنزيل) . و دلائل النظام للفراهي .والنبـأ العظيـم لمحمد عبدالله درّاز .و جواهر البيان في تناسب سور القرآن لأبي الفضل عبد الله الغُماري .و التناسب البياني في القرآن أحمد أبو زيد ...و غيرها كثير .

(٣) معجم مقاييس اللغة.ابن فارس.مادة (نسب).

(٤) لسان العرب.أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم.ابن منظور الأفريقـي المصـري.مادة (نسـب) ط٣ .١٤١٤هـ– ١٩٩٤م .دار صادر /لبنان– بيروت .

و علم مناسبات القرآن في الاصطلاح هو ماذكره البقاعي : " علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه ."(1) و أدرك صلته الوثيقة بالبلاغة فأتبع بقوله : " وهو سرّ البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال ." (2) والعلم هو الإدراك والتبيين وإثبات المعرفة، و خير ما قيل فيه : صفة يتجلى به، والتجلي الانكشاف التام .(3) فلما ذكر البقاعي أنه علم أبان عن ثبات قدم ماهو آت ذكره و انكشافه بحيث يدركه كل من كان ذا بصر وبصيرة ، وبسببه تعرف أسباب ترتيب أجزاء الشيء الواحد .

وإذا توافر نص تُلمّس فيه ظروف نزوله و بيئته المنسوب إليها مكانية كانت أو زمانية، مع معرفة طبيعة المخاطبين به و أحوالهم فإن انكشاف علل ترتيبه تصبح قريبة المنال؛ لبيان الأساس الذي وافق به الكلام مقتضى الحال .و مطابقة المقال لما اقتضاه من الحال هو المناط الذي تناط به أقطاب البلاغة، وهو المآل الذي تؤول إليه في كل علومها، و لذلك كانت المعرفة بتناسب الآيات و السور طريقا لمعرفة إعجاز القرآن الكريم .

و مناسبة الكلام و تناسبه يدلان على المفاعلة و التفاعل، فلذلك لا يكون التناسب إلا بين طرفين أو عدة أطراف تربط بينها وشائج ؛ تنتج نتاجا مقصودا يبين عن قصد المتكلم، و عن قدرته على تأليف الكلام و عن براعته في سلكه في نسق واحد ، وعن تجويده على مستوى عال في كل ضروبه و موضوعاته .و هذا التجويد في كل ضروبه هو التناسب في الجودة التي اختصت بها آيات القرآن الكريم وسوره على التفصيل والإجمال

---

(1) نظم الدرر ١/٥ .

(2) السابق ١/٥ .

(3) ينظر أبجد العلوم .الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم . صديق بن حسن القنّوجي .أعده للطبع و وضع فهارسه : عبد الجبار زكار ١/٢٦-٣١ . بدون ط. ١٩٧٨م .منشورات وزارة الثقافة و الإرشاد القومي — دمشق.

دون أن يكون هناك من يقارعها أو يناظرها، و هو ما عبّر عنه الباقلاّني بقوله :غير القرآن يتفاوت، و غير القرآن كثير التلون و التغير .([1])

وعرّف الخطيب القزويني ت(٦٤٣) مراعاة النظير بقوله: "و تسمى التناسب، والائتلاف والتوفيق أيضا، وهي أن يجمع في الكلام بين أمر و ما يناسبه لا بالتضاد ."([2])

وجاءت المناسبة عند ابن أبي الإصبع ت(٦٥٤) على ضربين : مناسبة في المعاني، ومناسبة في الألفاظ ،فالمعنوية هي أن يبتدئ المتكلم بمعنى، ثم يتم كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ . والمناسبة اللفظية هي: الإتيان بلفظات متزنات مقفاة و غير مقفاة .([3])

وأقول: إن باب التناسب أصل لكل ما تقدّم ذكره من مراعاة النظير و الائتلاف والتوفيق، فهو باب وسيع يضم بين دفتيه معاني كثيرة ؛من أبرزها- مع ما تقدّم: المشاكلة و المقاربة والمشابهة و الموافقة و التلاؤم و المؤاخاة، بل يشمل أوسع من تلك المدلولات و ذينك الضربين، فهو مجال عظيم لمن نظر إليه من وجهه الكائن في كل كلام فصيح، فقد أطبق العلماء على أن التناسب شرط من شروط فصاحة الكلمة والكلام ،ومن أهم السمات البارزة في نظم القرآن الكريم و نظامه و الدالة على بلاغته وإعجازه .

---

(١) إعجاز القرآن صـ٢٧٢-٢٧٣ . هذه الخاصة سمّاها محمد الحافظ الروسي خاصة الاستواء (مجلة الدارة .مفهوم التناسب عند نقاد القرن الرابع الهجري صـ٤٣ .السنة العاشرة .شوال ١٤٠٤هـ-رجب ١٤٠٥هـ /يونيه ١٩٨٤- مارس ١٩٨٥م) .

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة .الخطيب القزويني .شرح وتعليق وتنقيح : محمد عبد المنعم خفاجي ١٩/٢. ط٣ . ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م .دار الجيل - بيروت .

(٣) ينظر بديع القرآن .ابن أبي الاصبع المصري .تقديم و تحقيق :حفني محمد شرف.صـ ١٤٥-١٥٠ ط٢ .دار طباعة مصر للطبع و النشر /الفجالة -القاهرة .

وبالتـدبر تتجلـى المناسـبات ،و تنـتج المعـاني الثانويـة الـتي لا يتنبّـه لهـا صـاحب النظـرة العجلى؛لأن الآيات القرآنيـة لها معان أولى (أصل المعنى) يفهمهـا كل قارئ للقرآن،ومعـان ثانوية لا تظهر لغـير متـدبر ،وهـي مـع ذلـك متغـازرة لا تحـدّ كثـرة مهمـا نقّـب المتـدبرون دفينها،ومن العجب أن هذه المعاني الأخيرة –أقصد الثانوية –لا يمكن الجزم بأنها مراد الله مع إمكان ورودها.

والإحساس والفطنة للتناسب بمعناه العام ؛أقصد ما يحتويه النص من ألفاظ و جمل وفواصـل و مقاطع ومعانٍ جزئية تفضي إلى الكلية و مقصود أعظم تلتف حولـه المعـاني الكليـة وفـواتح ومقاطع – ذلك الإحساس هو نتاج التدبر والاستبصار ؛لذلك يتفاوت الناس في مقدار تفطـنهم للتناسب،قال الرماني ت(٣٨٦هـ) في ذلك: " والمتلائم في الطبقة العليـا القـرآن كلّـه([١])،وذلك بيّـن لمن تأملـه ... وبعض النـاس أشد إحسـاسا بذلك وفطنـة له من بعض ."([٢])

والمتدبـر للمعنى لا يحصل له تدبر باقتطـاع النصـوص القـرآنيـــة عـن سوابقهـــا و لواحقهـــا سواء على مستوى الآيات ،وعلى مستوى السور في القرآن بأكمله ،فالسياق هـو محـل النظـر في الدراسة التناسبية، وهو متنامٍ و متوالد عن بعضه " فتكـون السـورة كمـا الشـجرة النضـير العالية،و الدوحة البهيجة الأنيقة الخالية المزينـة بـأنواع الزينـة المنظومـة بعـد أنيـق الـورق بأفنان الدرر،وأفنانها منعطفة إلى تلك المقاطع كالدوائر، و كل دائرة منها لهـا شـعبة متصـلة بما قبلها وشعبة ملتحمة بما بعدها،وآخر السورة قد واصل أولها كما لاحم انتهاؤهـا و عـانق

(١) حديث الرماني عن التلاؤم يخص تلاؤم الحروف في الكلمة؛ و لكنه يرى لهذا التلاؤم أثرا في حسن الصور وطريقة الدلالة .

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم:الرماني و الخطابي و عبد القـاهر الجرجـاني .حققهـا و علّـق عليهـا محمـد خلف الله أحمد و محمد زغلول سلام صـ٩٥ .ط٤ .بدون ت .دار المعارف – القاهرة .

ابتداؤها ماقبلها ،فصارت كل سورة دائرة كبرى،و مشتملة على دوائـر الآيـات الغـر البديعـة النظم ."(1) هذا و السياق هو المعين على الفهم و الاستنباط .

ومن هنا يتضح أن فقه المعنى القرآني لا يقوم دائما على التجاور بين الآيات،فقد تراه أحيانا يضم طائفة من الآيات ذات المعاني التي يُظن أنهـا مختلفـة وهـي في حقيقتهـا تـرتبط بربـاط خفي ليعود إلى تحقيق القول في المعنى الذي ابتدأه ،فبراعة القـرآن الكـريم تظهـر في الجمـع بين الأجناس المتعددة التي يتفرع عنها أشكال و أنماط فيلفها و ينسقها و يجمعهـا في وئـام والتئام و امتزاج شديد ،والجمع بين العناصر الكثيرة أصعب مراسـا منـه في أشـكال العنصـر الواحد .و من هنـا يتضـح أن الشـيخ عـز الـدين بـن عبـد السـلام (2) ت(٦٦٠) لم يوفـق في قوله :"المناسبـة عـلم حسـن؛و لكـن يشتـرط في حسـن ارتبـاط الكـلام أن يقـع في أمـر متحـد مرتبـط أولـه بآخره،فـإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيـه ارتبـاط أحدهمـا بالآخـر."(3)

وقال الشيخ ولـي الله الملـوي (ت٧٧٤هــ) :" قـد وهـم مـن قـال :لا يطلـب لـلآي الكريمـة مناسبة؛لأنها على حسب الوقائع المتفرقة،و فصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنـزيلا

---

(١) مصـاعد النظر للإشـراف على مقـاصد السور.برهـان الدين أبو الحسـن إبراهيم بن عمـر البقـاعي الشـافعـي .قدّم له وحققه و علـق عليه و خرّج أحـاديثه : عبد السميع محمد أحمد حسنين ١ /١٤٩ ط١. ١٤٠٨هـ–١٩٨٧م .مكتبـة المعارف –الرياض .

و يـوضح الأستـاذ محمـود توفيـق مقـالة البقاعي بقولـه :" في سيـاق التـلاوة أربـع دوائـر يحيط بعضهـا ببعض وفقا لاتسـاع كل دائـرة ،فكـل دائرة منهـا هـي أقـل اتساعـا تقـوم في رحـم الدائـرة الأوسـع . تلـك الـدوائر هـي: دائـرة الآية ،فالمعقد، فالسورة، فالقـرآن الكريم . ويمكنك أن تقـول :هـي خمس دوائـر بجعلك الجمـلة دائرة تحيط بها دائرة الآية. " (العزف على أنوار الذكر.معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآني في سياق السورة صـ ١٤. ط١. ١٤٢٤هـ . الحقوق محفوظة للمؤلف .)

(٢) "عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي .فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهاد .تـوفي عام ٦٦٠ " (طبقات الشافعية .أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة.تحقيق :د.الحافظ عبد العليم خـان ١٠٩/٢ .ط١ .١٤٠٧. عالم الكتب– بيروت .)

(٣) البرهان في علوم القرآن ٦٣/١ .

وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتفصيلا، فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون مرتبة سوره كلها و آياته بالتوقيف ."([1])

لكل ذلك كان تدبر القرآن يفيد في استقرار الإيمان ،فكلما انكشف شيء من تناسبه ،كان ذلك أشفى للصدر وأدعى لحصول اليقين به، قال الأصبهاني([2]) ت(٧٤٩) عن فضل المناسبات و الترتيب : " فإن القرآن معجز ،و الركن الأبين للإعجاز يتعلق بالنظم والترتيب ."([3])

و بذلك عُلم أن " المقصود بالترتيب معان جليلة الوصف، بديعة الرصف، عالية الأمر، عظيمة القدر، مباعدة لمعاني الكلام على أنها منها أُخذت ."([4])

أنواع المناسبة القرآنية :

- المناسبة بين آيات السورة الواحدة :

لمعرفة المناسبات بين الآيات قال أبو الفضل المشدالي([5]) ت(٨٦٥) :"الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة و تنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٦٣/١ .

(٢) " الأصبهاني: هو الإمام المفسر محمود بن عبد الرحمن الشافعي الأصفهاني .ولد بأصبهان ٦٧٤ هـ كان إماما بارعا في الفنون، توفي ٧٤٩ ."(ينظر تاريخ جرجان .حمزة بن يوسف أبو القاسم الجرجاني .تحقيق :محمد عبد المعين خان ٤٣٥/١ .ط٣ ١٤٠١-١٩٨١ عالم الكتب -بيروت .)

(٣) نظم الدرر ١٩/١ .

(٤) السابق ٨/١ .

(٥) محمد بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن عبد الصمد بن حسن بن عبد المحسن المشدالي البخاري المالكي ، مات سنة ٨٦٥هـ .(ينظر نظم العقيان في أعيان الأعيان .جلال الدين السيوطي .تحقيق:فيليب حتي صـ١٦٠ . المكتبة العلمية - بيروت .)

والبعد من المطلوب،وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام و اللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء العليل يدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها."(١)

وكلامه هذا يعني الابتداء بالنظر في مقصد السورة و غرضها الذي سيقت له لاستبصار جميع خطوطها و طريقة سيرها ،و تتضح هذه المعالم بترديد البصر بين مطلع السورة و انتهائها،ثم متابعة خط نقطة الولوج إلى موضوع السورة ،و استبصار المعاني الجزئية والمعاقد التي تمثلها،و كيف تسير مجتمعة للوصول لمعنى كلي ينسجم مع غيره من المعاني الكلية للسورة نفسها ،ثم تدبر المعاني الكلية التي اُستخرجت من السورة و ربطها بمقصود السورة الأعظم ،ثم ردّ خاتمة السورة على مطلعها،و ربط اسم السورة بمقصودها، كل ذلك يتم دون تكلف أو تمحّل ،وإذا خفي شيء من تلك المناسبات فالقصور راجع للمتدبر لا محالة؛ لأن القرآن على درجة عظيمة من التناسب .

ويتعدد نوع ارتباط الآيات القرآنية ؛لما يتسم به القرآن من تعدد وجوه بيانه المتحقق في نظمه الترتيبي،وهي على أصناف لا يمكن حصرها ،فالقرآن كله متناسب ،سواء في آياته أو في سوره؛و لكن هذه المناسبة على درجات من الظهور والخفاء، فمن تناسب القرآن تناسب ظاهر الارتباط ؛يتعلق فيه الكلام ببعضه،فلا يتم المعنى بالجملة الأولى دون الثانية ،أو لعل الجملة الثانية تنزل من الأولى منزلة التأكيد أوالتفسير أو البيان أو البدل .

ومنه كذلك تناسب غير ظاهر الارتباط ؛ كأن تبدو كل جملة مستقلة عن الأخرى،أو خلاف النوع المبدوء به،و هذا القسم على نوعين: إما أن تكون الجملة معطوفة على ما قبلها وبينهما جهة جامعة فيكونان كالنظيرين ،أو الشريكين، أو المتضادين، وقد يشكل وجه

---

(١) نظم الدرر ١١/١ .

ارتباطهما. و إما ألا تكون الجملة معطوفة،و تنزل الثانية من الأولى منزلة جزئها الثاني بسبب إلحاق النظير بالنظير، أو بسبب المضادة ،أو بسبب الاستطراد .

وصنفت الروابط في فواتح الآي و خواتمها ؛فمنها العام أوالخاص، ومنها العقلي أو الحسي أوالخيالي،ومنها كذلك علاقات التلازم الذهني كالسبب والمسبب .والعلة والمعلول والنظيرين والضدين ونحوه .(1)

ولعل أفضل من نظر إلى التناسب نظرة شمولية مستوفية الأرجاء هو الإمام البقاعي في (نظم الدرر)،و درجات المناسبة بين الآيات عنده بين ظاهر الارتباط و خفي مما أشكلت مناسبته أودقت، فنظر إلى تناسب النظم التركيبي للجملة من كل جوانبها المعنوية و اللفظية والإيقاعية،و إلى تناسب النظم الترتيبي للجمل؛ بل شملت نظرته النص بأكمله، فأبان عن مناسبة مطلع السورة لمقصدها ،وعلاقة أوائل السور بأواخرها ،و مناسبة نجوم السورة و معاقدها ،وزاد فأبان عن مناسبة أسماء السور لسورها .و لم يكتف بعلائق الآيات ببعضها وارتباطها، و بيان لحمتها، و حسن نسقها؛بل رمى بنظره كذلك إلى تناسب السور لجاراتها،و مناسبتها لاتحاد موضوعها،و ترتيب كل سورة ووضعها على مدرجة السياق القرآني، و هو بذلك جمع القول بين تناسب الآيات وتناسب السور في مؤلف غاية في الضخامة العلمية،و العظمة المعرفية، ففتح الباب لمن جاء بعده — على مصراعيه — للقول في التناسب بعد أن أصّل قواعده،و أرسى دعائمه .

-المناسبة بين سور القرآن (السورة وحدة مستقلة):

لا تُدرك المناسبة بين سور القرآن كل سورة وحدة مستقلة إلا بعد أن ينُظر في مناسبات آيات كل سورة فمن المحال فهم المناسبة بين سور القرآن دون الوقوف على قوام آيات كل و" كل سورة من سور القرآن ذات شخصية متفردة، وذات ملامح متميزة، وذات منهج

(١) ينظر البرهان في علوم القرآن ٦٢/١–٧٨ . و مثله في الإتقان في علوم ا لقرآن ٣٠١/٢– ٣٠٣.

خاص، وذات أسلوب معين، وذات مجال متخصص في علاج هذا الموضوع الواحد، وهذه القضية الكبيرة، إنها كلها تتجمع على الموضوع والغاية، ثم تأخذ بعد ذلك سماتها المستقلة وطرائقها المتميزة،و مجالها المتخصص في علاج هذا الموضوع،وتحقيق هذه الغاية."(1) فموضوع العقيدة مثلا موضوع كلي بين سور القرآن كله ،كل سورة تعالجه بطريقتها وشخصيتها،فتوظفه وفقا لقضاياها،فتبرز قضاياها من جهة ،وتجمل القول فيه من جهة أخرى .

ومما يفيد في هذا الباب والباب السابق له : "أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها ؛لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه و بين مسماه عنوانه الدال إجمالا على تفصيل ما فيه. "(2) و التناسب بين السور كذلك منه ظاهر وخفي،و لعل خير من أفرد له مصنفا هو ابن الزبير في (البرهان في تناسب سور القرآن)،و السيوطي في (أسرار ترتيب القرآن).

-المناسبة بين سور القرآن (سور القرآن وحدة واحدة):

هذا النوع أعلاها؛لوعورة مسلكه وحاجته إلى الممارسة والمدارسة اللازمتين وضرورة قيامه على فهم النوعين السابقين كمرحلة مسبقة ،ثم لقيامه على فهم نظام القرآن كله كما سمّاه الفراهي .(3) و هذا النوع يقوم على ما يكون بين مقاصد السور

من ترابط ،وكأن القرآن كله وحدة موضوعية واحدة ،و هو يحتاج إلى تدبر و تأمل مسبق لكل سورة من سور القرآن ؛حتى يتم استبصار عمودها،و استظهار مقصودها الأعظم، ثم معرفة صلة كل سورة بما بعدها ،و موقع كل سورة على مدرجة السياق القرآني الترتيلي،مع ما يكون بينها من علائق ؛إذا تم كل ذلك أمكن استنباط ما بين السور من مقاصد ،وإذا كان ذلك أمكن اعتبار مقصد كل سورة فصلا،ثم تجتمع الفصول المكونة من

(1) في ظلال القرآن .سيد قطب المجلد الثالث.١٢٤٣/٨ .ط٩ .١٤٠٠هـ -١٩٨٠م.دار الشروق – بيروت .

(2) نظم الدرر ١٢/١. و مثله في مصاعد النظر ٢٩/١ .

(3) دلائل النظام .عبد الحميد الفراهي الهندي .قدّم له :بدر الدين الإصلاحي صـ٥.ط١ .١٣٨٨ .المطبعة الحميدية .

مقاصد السور فيما بينها فتؤول إلى مقصد كلي يلف شملها ،و يجعل مقصد كل سورة يعود إليه فيبدو القرآن كله سورة واحدة أو كلمة واحدة . وهذا المعنى سمّاه الرافعي (روح التركيب) حين قال :"(روح التركيب)لم تُعرف قط في كلام عربي غير القرآن،وبها انفرد نظمه وخرج مما يطيقه الناس،ولولاها لم يكن هو كأنما وُضع جملة واحدة ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين ."(1)

و لعل كتاب البقاعي :(مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور) خير ما يمثل هذا النوع من المناسبة ،و إن كان كتاب (نظم الدرر) لا يخلو منه أيضا .

و عن فضل هذا النوع من المناسبة أو النظام يقول الفراهي :" فمن تدبّر القرآن في ضوء النظام ؛فلا شك أنه لا يُخطّأ في فهم معانيه؛وذلك لأن النظام قد يبين له سمت الكلام،وينفي عنه تشاكس المعاني،و يرد الأمور إلى الوحدة ،و يسد أبواب الدخول فيه للأهواء؛حتى يجبره أن لا يأخذ إلا بصحيح التأويل ،ولا يعتمد إلا عليه،وهو أعظم مطلوب."(2)

---

(١) إعجاز القرآن و البلاغة النبوية .مصطفى صادق الرافعي ص٢٣٦-٢٣٧ .ط٨ . ١٤١٦هـ -١٩٩٥م .دار الفكر العربي — القاهرة .

(٢) دلائل النظام ص٥ .

منزلة الترتيب و التركيب من التناسب ،وعلاقتهما بالإعجاز :

البحث في التنـاسب في أول درجـاتـه نظـر في نظم الجملـة التركـيبي بمعنـى علاقـة الإسناد والتبعيـة أو التضـايف أو التعلـق ثـم يرقـى النظـر إلى التأمـل في أحـوال الجمـل وعلاقـاتهـا الكـائنـة في الوصـل والفصـل،و في علاقـات المعـاقد ببعضهـا ،و يصعد النظـر بعد ذلك،ويشتد التأمل،ويزداد التبصّر بالنظـر في أحـوال النـص كـله وعـلاقـاتـه ،ومنـه إلى ترتيـب السـور بعضهـا من بعـض،و تركيـب مقـاصدها فـوق بعضهـا، حتى نصـل إلى تنـاسب القـرآن بـأكملـه .

وجهـود الجرجـاني في نظريـة النظـم شقّت الطـريق و وضعت لبنـات نظريـة التناسب(1) وهما قائمتـان على الترتيب " إذ لا يكون الإتيان بالأشيـاء بعضـها إثـر بعـض علـى التـوالي نسقا وترتيبـا حتى تكون الأشياء مختلفة في أنفسـها، ثـم يكـون للـذي يجـيء بهـا مضـموما بعضها إلى بعض غرض فيها و مقصود ؛لايتم ذلك الغـرض و ذاك المقصـود إلا بـأن يتخيـّر لها مواضع، فيجعل هذا أولا و ذاك ثانيا ."(2) في حين يتصاعد النظـر في نظريـة التنـاسب إلى ما هو أبعد من الضم و الترتيب ،يتصاعد إلى التأليف و التركيب . هذا النظر أبان الشـيخ عبد القاهر الجرجاني عن منزلته مبيّنـا درجته مـن منـازل علاقـات الكلـم فقـال:"ووجـدت المعـوّل علـى أن ههنـا نظمـا وترتيبـا، و تأليفـا و تركيبـا، و صيـاغة وتصويرا،ونسجـا وتحبيـرا."(3)

---

(1) مما دقّ وصفه قول:" فنظرية النظم لفت في ثناياها باب المناسبات، و طوتـه في أحشـائها ،فتـداخل مـع أصـولها حتى ظُن أنه منها مع الضرب الذي يتحد في الوضع و يدق في الصنع الذي ذكره عبد القـاهر ."(التنـاسب في تفسيـر الإمـام الـرازي .دراسـة في أسـرار الاقـتران. منـال مبطـي المسـعودي صـ71 .ط1. 1431هـ–2010م .رسـالة دكتوراة.إشراف: محمد محمد أبوموسى. مكتبة وهبة – القاهرة .)

(2) كتاب دلائل الإعجاز صـ 473 .

(3) السابق صـ 34 .

و ترتيبه هذا يبين عن بصره بمواضع الكلام ،و صوره الحاملةله، وهيئاتها[1] فالنظم أصل كل ترتيب،و التركيب لا يتكون دون ترتيب وتأليف .فكأن الترتيب و التركيب قطبان رئيسان لمنازل الكلم .

وبقراءة التركيب و الترتيب في القرآن نتوصل إلى ذروة معنى الإعجاز البياني .و التفصيل والتحصيل دعامتان مهمتان لمعرفة قيمة التأليف و مرتبته .و التفصيل يحصل بتفحص التركيب بمعنى (بناء الجملة)،و هو مبدأ معرفة الإعجاز البياني،ثم باستبصار أوجه التعلق المودعة في الترتيب .و التحصيل يتحقق بتأمل الالتئام و الجمع الكائن بالتأليف،ثم ببيان أوجه التركيب و التصعد .

و لعل هذا يذكرنا بقول البقاعي " إن للإعجاز طريقين :

أحدهما :نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب .

الثاني: نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب .و الأول أقرب تناولا ،و أسهل ذوقا ."[2]

وإذا وقع يقين في القلب بما سبق ؛حصل العُجْبُ بتشبيه العلماء للقرآن في تناسق آياته وسوره بالشجرة التي تنبت أوراقها من أغصانها ،وتعتمد فيها أغصانها على سيقانها وينتهي الأمر كله إلى الجذر الأم الثابت الأصل الذي فرعه في السماء . فقوام الشجرة لا يستغني بعضه عن بعض حتى تبدو الهيئة كما هي للناظر ،و حتى تخرج الفائدة كما يجب للساعي إليها .[3]

---

(١) "فهذه ثمان نسقها الإمام في هذا الموضع نسقا عجيبا دالا على تصاعدها ،فمبدأ مراحل البناء (النظم) و منتهاها (التركيب). ومبدأ مراحل الهيئة (التصوير) الصياغة،و منتهاها التحبير .(الإمام البقاعي .جهاده و منهاج تأويله بلاغة القرآن الكريم.محمود توفيق صـ١٤١ .ط١ . ١٤٢٤هـ.بدون دار .)

(٢) نظم الدرر ٧/١ .

(٣) ينظر مصاعد النظر ٤٩/١ .

و أشد من الشجرة تلاحما ووئاما هو التحام أعضاء جسم الإنسان[1]،و ارتباط أعضائه ومفاصله ،و امتداد شراينه و عروقه و أعصابه ،و تكوّن كل ذلك في تناسق تام،وتكامل عظيم في الهيئة والوظيفة .

(١) ينظر النبأ العظيم .نظرات جديدة في القرآن .محمد عبد الله درازص٥٥.بدون ط .بدون ت.بدون دار .

ثانيا :

مذاهب أهل العلم في ترتيب الآيات و السور

ترتيب آيات القرآن وسوره :

أجمعت الأمة على أن ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيف من النبي ﷺ،فكان جبريل – عليه السلام – يراجع النبي ﷺ فيما عنده من الآيات في كل سنة ،ويدله على مواضعها من السور،و في السنة التي توفي فيها الرسول ﷺ عارضه جبريل – عليه السلام– بالقرآن مرتين . ووجود آيات مدنية في سور مكية أو العكس من الدلالات على أن هذا الترتيب توقيفي .ومما يقرّ معنى حصول ترتيب الآيات بتوقيف من المصطفى ﷺ: وجود روايات عنه ﷺ تثبت قراءته لسور بتمامها مع نزولها مفرقة .([1])

قال الزركشي في برهانه: " فأما الآيات في كل سورة ،ووضع البسملة أوائلها؛ فترتيبها توقيفي – بلا شك ولا خلاف فيه– ولهذا لا يجوز تعكيسها ."([2])

وتفصيل السور القرآنية إلى آيات لحِكم لطيفة عند الباري ،و قد وصفت من قِبَله بالإحكام والإتقان،فقال تعالى في ذلك: ﴿الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ هود (١) وذكر المفسرون آراء في شرح هذه الآية ،رجح الطبري قول مَن قال:"معناه :أحكم الله آياته من الدخل والخلل و الباطل،ثم فصلها بالأمر و النهي،و ذلك أن إحكام الشيء: إصلاحه وإتقانه . و إحكام آيات القرآن: إحكامها من خلل يكون فيها أو باطل يقدر ذو زيغ أن يطعن فيها من قبله. و أما تفصيل آياته فإنه تمييز بعضها من بعض بالبيان عما فيها من حلال وحرام ،وأمر و نهي."([3])

---

(١) ينظر المستدرك على الصحيحين .رقم الحديث (١٢٠١) كتاب الوتر من كتاب صلاة التطوع .٤٦٧/١)

(٢) البرهان في علوم القرآن ٣٢٣/١ .

(٣)جامع البيان عن تأويل آي القرآن . محمد بن جرير بن يزيد خالد الطبري أبو جعفر ١٨٠/١١ .بدون ط .١٤٠٥هـ دار الفكر – بيروت .

وإذا كـان تعـالى يـثني علـى آيـاتـه فمعنـى ذلـك أنهـا بلغـت الغايـة في العلـو والرفعـة وحسـن الصنـع، مـع الكمـال المطلـق المـؤدي إلى الإعجـاز، هـذا الإحكـام لا يستطيـع كائـن مـن كـان الطعـن فيـه في أي جهـة مـن جهاتـه ولا أي جـزء مـن أجزائـه إلى قيـام السـاعـة .

و إنما كان تفصيلها في السـور ذا دلالـة عظيمـة؛ لأن الآيـة في أصـل الدلالـة الوضعيـة هي"النَّظَر ...و قالوا:الآيـة العلامـة.(١) و هذه آيـةٌ مَأْيَـاةٌ، كقولك:عَلامَة مَعْلَمَة... ومنه آية القرآن؛ لأنَّها جماعةُ حـروفٍ،و الجمـعُ آيٌ."(٢)

"و سميت الآيـة من القرآن ؛لأنهـا علامـة لانقطـاع كـلام من كلام،و يقـال :سميت الآية آيـة لأنها جماعة من حروف القرآن ،و آيـات اللـه:عجائبه، قـال ابـن حمـزة :الآيـة مـن القـرآن كأنهـا العلامـة الـتي يفضـي منهـا إلى غيرهـا كأعـلام الطريـق المنصوبـة للهدايـة،والآيـة:العبـرة (٣)."(٤)

وعلى ذلك فآيات الله علامات ودلالات على عظمته وقدرته، وهي التي تدلنا علـى عجائـب صنعه، كما أنها عِبَر لمن استبصر العبر، وهي مجتمعة معالم لطريق الهداية والرشاد يستضيء بها المؤمن ليسلك سبل النجاة والصلاح .

وفيـه دلالـة علـى عظـم فضـل الآيـة الواحـدة مـن القـرآن، وبيـان لسـر مـن أسـرار تفصيلها، فـإذا كانـت الآيـة هـي العلامـة الـتي يُفضى منهـا إلى غيرها؛كـان ذلـك حقيقـا بتنـاسب الآيـات بعضهـا لبعض،مـع شـدة تعـلق إحداهـا بـالأخرى، فـالأولى توصـل في المعنـى إلى الثانيـة، ولا يسـتغنى عـن إحداهمـا في اعتبـار المعنـى

---

(١) مثل قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ. . . ﴾ البقرة (٢٤٨)

(٢) مقاييس اللغة.مادة (أيي).

(٣) مثل قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾ يوسف(٧).

(٤) ينظر لسان العرب .مادة (أيي).

الصحيح، بل في فهم المعنى الكامل، وإذا كانت قراءة كل آية ترفع منزلة العبد في الجنة كما جاء عن الرسول ﷺ (1)، وتصعّده بين درجاتها التي قيل: إن"ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ؛هذا التفاوت إما بحسب الصورة ؛كطبقات السماء، أو بحسب المعنى أي: باعتبار التفاوت إلى الله ،ولا مانع من الجمع."(2) إذا كانت تلك القراءة تعلي منزلته على مدرجة الجنة، ولن يتحقق الوصول للدرجة الأعلى حتى يصل إلى الأدنى الموصلة لها مباشرة، فهي سلسلة متكاملة متصلة لا تصل إلى حلقة حتى تكون قد أمسكت بسابقتها ؛فذلك دليل على تحقق لزوم كون الآيات مرتبة على مدرجة السياق القرآني ،ففي مقدار الآيات ارتفاع في شأن منازل الجنة، و فيه كذلك بيان أن للترتيب معنى قائما به ،وهدفا أسمى و أكمل .

و الآية في الاصطلاح كما وردت عند ابن عاشور: " هي مقدار من القرآن مركب ولو تقديرا أو الحاقا، فقَولي: ولو تقديرا؛ لإدخال قوله تعالى : {مدهامتان } ؛ إذ التقدير: هما مدهامتان ... و قَولي: ولو إلحاقا: لإدخال بعض فواتح السور من الحروف المقطعة ،فقد عدّ أكثرها في المصاحف آيات ماعدا: الر، و آلمر، و طس~ ." (3)

والعبرة في تحديد مقدار الآية هي فاصلتها، وللفواصل المتقاربة أو المتماثلة فضل التأثير في نفس المتلقي؛ حيث يسير مع المعنى جنبا إلى جنب؛ لإيصاله إلى القلب والعقل معاً، و ذلك يشير إلى أن التقارب أو التماثل بين أصوات فواصل الآيات إنما

---

(1) " عن عبد الله بن عمرو –رضي الله عنهما– قال: قال رسول الله ﷺ :يقال لصاحب القرآن يوم القيامة: اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في دار الدنيا ؛فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها " (صحيح ابن حبان .ذكر البيان بأن آخر منزلة القارئ في الجنة تكون عند آخر آية كان يقرؤها في الدنيا.رقم الحديث (٦٧٧) ٤٣/٣).

(٢) فيض القدير بشرح الجامع الصغير. عبد الرؤوف المناوي ٣٦١/٣ . ط١. ١٣٥٦هـ المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر.

(٣) تفسير التحرير و التنوير. تأليف الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور.المجلد الأول ٧٤/١ بدون طبعه. ١٩٨٤ الدار التونسية للنشر– تونس .

هـو مـن مقصـودات المعنـى. واتفـق العلمـاء علـى أغلـب فواصـل الآيـات،واختلفوا في قليـل منهـا،و ورد أن الصـحابة كـانوا يعتمـدون في تقـدير الوقـت أحيانـا علـى تقـدير عـدد الآيـات ،و مـن ذلـك :مـا جـاء عـن زيـد بـن ثابـت – رضـي الله عنـه – قـال:"تسـحرنا مـع الـنبي ﷺ ثـم قـام إلى الصـلاة، قلـت :كـم كـان بـين الأذان و السـحور؟ قال:قـدر خمسين آية ."(1)

وآيات القرآن هي من مبتكرات القرآن (2)؛ لذلك فهي معجزة في نفسها وإن لم يقع التحدي بها، فالتحدي يراه جمهور العلماء يقع بالسورة طويلة كانت أو قصيرة ،و ما كـان كالسـورة في مقدارها الكمي (أي ثلاث آيات فأكثر يقع به التحدي)، فلـم يقـع التحـدي بالآيـة رغـم إعجازها، وأمر الإعجاز في الآية التامة المعنى والسـورة سـواء. وفيـه بيـان أن السـورة تكـون مستوفية الدلالة والمقاصد والمطالب؛حيث تنعطـف أجزاؤهـا علـى بعضـها مجتمعـة ،سـاعية لتحقيـق غرض يؤم ،و مقصد يطلـب .أمـا الآيـة فـإن لم تكن تـامة المعنى (3) فهي بحاجـة إلى غيرها ليتم معناهـا ،كما أن الآية وإن تم معناها فلا يُنظر إليها مقطوعة عن سـلك نظمهـا الذي نظمت فيه .ويرى البقاعي أن الآية الواحـدة القائمـة بتمـام المعنـى يقـع بهـا التحـدي ويتحقق فيها الإعجاز .

(1) صحيح البخاري. كتاب الصوم .رقم الحديث (١٨٢١) باب قدر كم بين السحور وصلاة الفجر ٢ /٦٧٨.

(2) هي ماتميز به نظم القرآن الكريم عن كلام العرب ؛ مثل:إتيانه بالجمل العلمية و القواعـد التشـريعية ،والأسـلوب القصصي في حكـاية أحوال النعيم و العـذاب و الآخـرة ،و تصـريفه حكايـة أقـوال المحكـي عـنهم ،وإبـداع تركيـب أمثـاله،و إيجـازه وإطنـابه ...وغير ذلك .

(3) مثل قوله تعالى : " مدهامتان " سورة الرحمن (٦٤) .

وإذا كان ترتيب الآيات قد أجمعت الأمة على أنه بتوقيف من الرسول ﷺ فإن ترتيب سور القرآن قد اختلف فيه العلماء على ثلاثة أقوال :

الأول : أنه بتوقيف من النبي ﷺ .

الثاني : أنه باجتهاد الصحابة – رضي الله عنهم – .

الثالث : أن كثيرا من السور علم ترتيبها بالتوقيف ،والبعض كان باجتهاد الصحابة .

واستدل كل فريق بأدلته،ولعل قولهم :إن ترتيب القرآن بتوقيف من النبي ﷺ دلّه جبريل على موضع كل سورة فيه هو ما يسلم به الفكر،و يطمئن إليه القلب، وينشرح له الصدر. والأدلة والأقوال على صحة ذلك كثيرة جمعها الزركشي في برهانه. ([1])

وفيما ذهب إليه أهل العلم من أن للقرآن ثلاثة تنزلات ([2])دلالة مبينة على أن ترتيب سور القرآن توقيفي؛ فيستحيل أن يكون نزوله الأول والثاني غير مرتب السور، ويستحيل أن يكون ترتيبها في النزولين (الأول و الثاني)توقيفيا،و في الثالث اجتهاديا؛لابد أن يكون في التنزّلات كلها سواء.

---

(١) ينظر البرهان في علوم القرآن ١/٣٢٤ –٣٣١ .

(٢) الأول: أن القرآن الكريم نزل إلى السماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة ،ثم نجّم نزوله على الرسول–ﷺ– على مدى نيف و عشرين سنة.

الثاني: أنه نزل إلى السماء الدنيا في عشرين ليلة قدر من عشرين سنة، أو ثلاث و عشرين ليلة قدر من ثلاث و عشرين سنة، في كل ليلة قدر ينزل الله ما يقدّر إنزاله في جميع السنة، ثم يفرق نجوما في أثنائها .

الثالث: أن نزوله بدأ في ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك منجما في أوقات مختلفة من سائر الأوقات .

والقول الأول هو أصح الأقوال و أشهرها، و يستدل عليه بقول ابن عباس:" أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ،ثم أنزل بعد ذلك بعشرين سنة، قال تعالى:" ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق و أحسن تفسيرا" "وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث و نزلناه تنزيلا" (المستدرك على الصحيحين. كتاب التفسير. باب نزول القرآن (٢٤٢))

وألّف الصحابة – رضوان الله عليهم – القرآن الكريم زمن الرسول ﷺ و بعده،وجمعوه وهو على هذا الترتيب .([1])

ومما يدل على أن ترتيب سور القرآن الكريم واقع بتوقيف النبي ﷺ :تسمية الفاتحة بأم القرآن ،و فاتحة الكتاب، و السبع المثاني ،و القرآن العظيم ، ووضعها في أول القرآن،وعدم قبول الصلاة دونها ." فلولا أنه – صلى الله عليه و على آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا– أمر الصحابة أن يرتبوا هذا الترتيب عن أمر جبريل –عليه السلام– عن الله– عزو جل – لما كان لتسمية هذه السورة فاتحة الكتاب معنى؛إذ قد ثبت بالإجماع أن هذه السورة ليست بفاتحة سور القرآن نزولا، فثبت أنها فاتحته نظما و ترتيبا و تكلما."([2])

ولعل وضعها في افتتاح القرآن يبين عن كونها الأساس الذي تتناسل منه مقاصد القرآن في جميع سوره وتعود إليه .ومن دلائل القول بالتوقيف عن النبي في ترتيب السور تسمية سورة البقرة وآل عمران بالزهراوين ([3])فجمع المصطفىﷺ بين كل

(١) حديث زيد بن ثابت – رضي الله عنه –يبين عن اطلاع الرسول ﷺ على ترتيب سور القرآن ،و أنه ارتضاه وأقرّه، فقال :" كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع إذ قال رسول الله ﷺ :طوبى للشام! فقلنا :لأي شيء ذاك؟ فقال :لأن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليهم " (المستدرك على الصحيحين – النسيابوري .(كتاب التفسير ٢٤٩/٢ .) وعلّق النيسابوري على هذا الحديث فقال :" وفيه البيان الواضح أن جمع القرآن لم يكن مرة واحدة،فقد جمع بعضه بحضرة رسول الله ﷺ ،ثم جمع بعضه بحضرة أبي بكر الصديق ، والجمع الثالث هو في ترتيب السورة كان في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان– رضي الله عنهم أجمعين– " انتهى كلامه.

وفي كلام النيسابوري بيان أن ترتيب الآيات كان بتوقيف من المصطفى ﷺ وأن اجتهاد الصحابة في الجمع قائم تحت إشراف ونظر ؛ وليس اجتهادا محضًا .

(٢) مقدمتان في علوم القرآن ؛وهما: مقدمة كتاب المباني ،و مقدمة ابن عطية ص٤٠-٤١ .نشرها من المخطوطات المحفوظة في دار الكتب ببرلين ،و دار الكتب المصرية .ووقف على تصحيحها وطبعها :آرثر جفري .١٩٥٤م. مكتبة الخانجي –مصر.و مكتبة المثنى ببغداد.و مطبعة السنة المحمدية .

(٣) ينظر صحيح مسلم.للإمام مسلم.كتاب صلاة المسافرين ومصرها.رقم الحديث(٨٠٤) باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة ١ / ٥٥٣)

سورة وما تقاربها من حيث التناظر أو التماثل أو التشاكل يؤيد ترتيب السور بالتوقيف، ومنه تسمية السبع التي في ابتداء القرآن بالطوال (1)، فلا ريب أن تفصيل القرآن إلى سور بجوار بعضها ليس عبثا ؛وإنما هي ملاءمة ومناسبة بين السور ،وهو يشير إلى أن كل سورة تختص بآيات معينة مرتبة مع بعضها تتلاحم وتترابط وتكوّن معنى السورة، وتسعى لتقدم المقصود الأعظم منها؛ذلك أن لكل سورة غرضها الأصلي الذي تمتاز فيه عن غيرها .

والمعنى الدلالي للفظ (سورة) يسهم في إجلاء قضية ترتيب السور و تناسبها؛ فهي: " كل منزلة من البناء ." (2) و" يقول ابن سيده: سميت السورة من القرآن سورة لأنها درجة إلى غيرها، ومن همزها جعلها بمعنى بقية من القرآن وقطعة ... الأزهري : و السور عند العرب حائط المدينة وهو أشرف الحيطان ... ابن الأعرابي: سورة كل شيء: حدّه ."(3)
وعلى ذلك فالسورة تضم بين جوانبها آيات شريفة تحوي صنوفا من العلم ،وفنونا من القول يحتويان على أغراض ومقاصد خاصة بالسورة نفسها، فكل سورة لها حدّ يميزها عن غيرها وذلك يتضح في مطالعها ومقاطعها، تلك المطالع والمقاطع هي في جوهرها بمثابة سور الحائط يحيط بالسورة بأكملها، فيخصها بمعان خاصة بها، ويميزها عن السورة التي قبلها والتي بعدها .

والسورة كذلك منزلة ورتبة ورفعة، وهي درجة إلى غيرها؛حيث إن كل سورة توصل إلى التي تليها وترتبط بها بوجه من الوجوه، وكل سورة تسعى حثيثة إلى

---

(1) ينظر صحيح ابن خزيمة. محمد بن إسحاق بن خزيمة.أبو بكر السلمي النيسابوري،تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي.رقم الحديث (1136).باب قيام الليل وإن كان المرء وجعا مريضا إذا قدر على القيام مع الوجع والمرض 177/2. بدون ط . 1390 — 1970 — المكتب الإسلامي — بيروت .)

(2) معجم مقاييس اللغة . ابن فارس مادة (سور) .

(3) لسان العرب . ابن منظور مادة (سور) .

تحقيق مقاصدها الخاصة بآياتها، و في ذلك الاتصال والارتباط ما يؤكد أن ترتيب سور القرآن حاصل بتوقيف من النبي ﷺ ،ولعل الناظر إلى ترتيب القرآن لا يدرك فقط العلاقات بين السور، بل كذلك يرى أنه رُتب ترتيبا مقصودا ؛فبدأ بالطوال من السور،ثم الأوساط ،ثم القصار .و المتأمل في وضع السور على مدرجة السياق القرآني يستشف بعض المناظرات والتقابلات بين مواقع السور . (١)

و على معنى(السورة) بالهمز ،أي:بقية القرآن ،وقطعة من قطعه ما يؤكد معاني الترابط والتواصل بين الشيء وجزئه؛ أي بين القرآن ككل وسورة منه، فالسورة قطعة من قطع القرآن، كما الآية قطعة من السورة ،فالسورة من القرآن على صورة من صوره ،وهيئة من هيئاته،لا تبتعد عنه وإن استقلت كل واحدة بشخصيتها و مداها و ظلالها .

والسورة في الاصطلاح :" قطعة من القرآن معينة بمبدأ ونهاية لا يتغيران، مسماة باسم مخصوص، تشتمل على ثلاث آيات فأكثر، في غرض تام ترتكز عليه معاني آيات تلك السورة ... والسورة من القرآن بمنزلة خطبة الخطيب،و قصيدة الشاعر، لا يحكم لها بالتفوق إلا باعتبارات مجموعها بعد اعتبار أجزائها ."(٢)

ولا يكون الكتاب محكما ولا متقنا إلا إذا كان مرتبا و منسقا، ليس يداخله خلل أوفساد؛ بحيث ترتبط أجزاؤه بعضها ببعض، فيفضي قسمه الأول إلى الثاني، و الثاني إلى الثالث، والثالث إلى الرابع،و هكذا ... وبحيث يشمل أوله الدلالة اللطيفة على جميع أجزائه،ويدل آخره على أوله،فلا يخرج المؤلف كتابه حتى ينسق أبوابه وفصوله، وإن لم يبدأ تأليفها مرتبة، وكذلك كتاب الله تعالى — وله المثل الأعلى — نزلت آياته على حسب

---

(١) للبقاعي نظراته في هذا الشأن في كتابه نظم الدرر .

(٢) تفسير التحرير والتنوير.المجلد الأول ٨٤/١ .

الأحداث والوقائع ثم رتب كل منها في موضعها المناسب، فحاشا لله أن يقدم كتابا للناس يعجزهم به و يقطع أطماعهم عنه إلا وهو محكم البيان، متقن الترتيب في كل أجزائه من آيات وسور! و في معنى الكتاب و القرآن ما يخدم دلالة ترتيبه و تنسيقه؛ لأن مادتي (كتب)و (قرأ) تدوران حول معنى الجمع و الضم.([1])و الجمع و الضم لا يكونان إلا عن حكمة و تدبير ؛لئلا يدخل الخطل والفساد والتناقض هذا العمل، وهذا مستقرأ من قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ النساء (٨٢) و كما تمتدح القصيدة بوحدة موضوعها، و ائتلاف أبياتها، و تناسقها وترابطها؛ بحيث ينهض كل بيت بالمعنى المجمل فيها، و تدل بمطلعها على غرضها ،ويعود عجزها على صدرها، وكما تمتدح الخطبة بتناسب مقدمتها مع موضوعها ،وسير جزئياتها نحو كلياتها، وائتلاف خاتمتها مع موضوعها؛ كذلك هو القرآن كله لا تفهم مقاصده إلا بالنظر في أجزائه المكونة لمجموعه و هي السور القائمة على ترابط آياته، و تآخي معانيه وانسجامها، ولابد فيه من ردّ الكلام أوله على آخره و العكس؛ حتى يكون القرآن كله كالكلمة الواحدة .

وليس للريب سبيل إلى تناسب وتجانس آيات القرآن وسوره؛ لأن الله تعالى امتدحه ووصفه بالكمال فقال: ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ البقرة (٢)فإذا كان الله تعالى بذاته وجلاله قد قال ذلك عن كتابه؛ فمعناه النفي الآكد لكل خلل وزيغ وفساد يمكن أن يدخل على القرآن الكريم بأي وجه من وجوه ذلك الخلل مثل قولهم بانتفاء وحدة الموضوع أوالمقصد في السورة، أو القول بعدم الترابط بين الآيات ،أو بعدم حصول فائدة وراء تنسيق سور القرآن

(١)" كتب: الكاف والتاء والباء أصلٌ صحيح واحد يدلُّ على جمع شيءٍ إلى شيءٍ. من ذلك الكِتَابُ والكتابة. يقال: كتبت الكتابَ أكْتبه كَتْباً. " و " قرن: القاف والراء والنون أصلانِ صحيحان، أحدهما يدلُّ على جَمعِ شيءٍ إلى شيء، و الآخَر شيءٌ ينْتَأ بقُوّة و شِدّة."(مقاييس اللغة.مادة (كتب) و (قرأ) .

على هذا الترتيب الذي بين أيدينا(١)، و لعل من أفضل ما قيل بهذا الصدد: "إن عدم القصد لشيء ربما يكون صحيحا؛ و لكن سوء التدبير لذلك الغرض منقصة ظاهرة ."(٢)

والنظر في خواتيم الطوال المدنية وثيق الصلة بعلم المقاصد، فلا تظهر خصائص التناسب في خواتيم الطوال المدنية قبل خوض غمار السورة بأكملها ،والحل والارتحال (٣) بين معانيها الجزئية والكلية، والتأمل في مطلعها وخاتمتها، والمعايشة التامة لأحوال سياقها الزماني والمكاني والبنائي؛ فيستبصر مقصود السورة ،ويتأمل شكله ومضمونه، فتلتحم المعاني، و يشتد الترابط حتى تبدو السورة كحلقة مفرغة لا يُعرف طرفاها .

وخاتمة الشيء: آخر ما يكون فيه، و هي كما يقول العلوي: " أن يختتم [البليغ] كلامه في أي مقصد كان بأحسن الخواتيم ؛ فإنها آخر ما يبقى في الأسماع ،وربما حفظت من بين سائر الكلام لقرب العهد بها ."(٤) و اشترطوا للحسن فيه: "أن يكون الاختتام في كل غرض بما يناسبه، و ينبغي أن يكون اللفظ فيه

---

(١) تولى عبد الحميد الفراهي الرد على شبه القائلين بعدم ترتيب سور القرآن في كتابه (دلائل النظام) .و ناقش هذه الشبه بالتفصيل محمد أحمد القاسم في كتابه (الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره صـ٢٤٠وما بعدها. ط١ ١٣٩٩ هـ -١٩٧٩م .)

(٢) دلائل النظام صـ٩ .

(٣) عن ابن عباس- رضي الله عنهما -أن رجلا قال: يا رسول الله ،أي الأعمال أفضل؟ قال: الحال المرتحل. قال: يارسول الله ،وما الحال المرتحل ؟ قال: يضرب من أول القرآن إلى آخره، ومن آخره إلى أوله"(المستدرك على الصحيحين .كتاب فضائل القرآن . رقم الحديث(٢٠٨٨).ذكر فضائل سور وآي متفرقة ٧٥٧/١ .)

(٤) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للإمام يحيى بن حمزه بن على بن إبراهيم العلوي اليمني ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي ١٠٤/٢ . ط١ ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢ م المكتبة العصرية صيدا - بيروت .

مستعذبا،والتأليف جزلا متناسبا ؛فإن النفس عن منقطع الكلام تكون متفرغة لتفقد ما وقع فيه،غير مشتغلة باستئناف شيء آخر ."([1])

و وصفت خواتيم السور القرآنية بأنها مختومة بأحسن ختام فقيل: " فإن الله تعالى ختم كل سورة من سوره بأحسن ختام وأتمها ،وبأعجب إتمام ،ختاما يطابق مقاصدها، ويؤدي معناها ." ([2])

و تقسيم القرآن على السور دلالة ظاهرة على مقاصد القرآن،و تمييز سور القرآن بين مكي ومدني كذلك من أعظم الدلائل على مقاصد السور؛لأن كل مرحلة من المرحلتين المكية و المدنية تتميز بمقاصد معينة تجتمع فيما بينها لتسير نحو تحقيق مقصود أعظم واحد؛هو عبودية الله . والتبصر بالخطاب وأنواعه من أهم مخرجات معرفة المكي والمدني من السور .

*   *   *

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء .أبو الحسن حازم القرطاجني صـ ٣٠٦ بدون ط بدون ت . بدون د .

(٢) السابق ١٠٤/٢ .

الباب الأول/

عـلاقـة خواتيم الطــوال المدنيـة بمقاصدهـا

الفصل الأول /

نمو المعاني و تآخيها وانسجامها في السورة الواحدة

النظر و التأمل في جزئيات الكلام يفيد في معرفة مدى ما يتسم به النص كليّا من التماسك والتآلف ،أو الاضطراب والتفكك.و تآلف النص وتلاحم أجزائه مما يُمتدح به القول ؛لأن جميع الأجزاء فيه تترابط وتتجاذب نحو مقصد عظيم أوغرض كلي؛ولذلك قال الجاحظ :"و أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء،سهل المخارج؛فتعلم بذلك أنه أُفرغ إفراغا واحدا،و سبك سبكا واحدا ، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان." (1)

فجري الكلام على اللسان الذي ذكره الجاحظ يسبقه قصد إليه بالقلب،و متى ماكانت الفِكَر مرتبة في الذهن ؛جرت على اللسان كالدهان يسرا وسرعة وتمازجا وتماسكا وتفننا .

والالتحام وتماسك الأجزاء من أبرز ما اهتم به النقاد وسموه بأسماء؛منها :القرن والالتئام ،والاتحاد، والترابط . وعُرف هذا المعنى عند النقاد خصوصا بالوحدة العضوية ،وهذا الالتحام والتماسك هو نتاج الأغراض والمقاصد في الكلام .

والمعاني في النص تنقسم قسمين :معان مستقاة من الأبنية الصغرى للكلام،و معان مستقاة من الأبنية الكبرى للكلام،والأبنية الصغرى تتماسك وتتلاحم بما يهيئه لها تركيب بنيتها وصورته ؛فتسعى الأبنية الصغرى حثيثة لتكوين الأبنية الكبرى للنص،وقد تختلف النظرة إلى الأبنية الصغرى من الأهمية والتجاذب من شخص لآخر حسب التأمل والتدبر؛ولكن الذي يجب أن لا يُختلف فيه هو النظرة إلى الأبنية الكبرى المكوَّنة من الصغرى ، وهذه الأبنية الكبرى قد تصير صغرى مقارنة بغيرها التي هي أكبر منها .

---

(١) البيان والتبيين . الجاحظ.حققه وشرحه: حسن السندوبي . ٧٠/١.بدون ط.١٩٩٠م.دار المعارف – سوسة/تونس .

والأبنية الصغرى في القرآن الكريم هي:الآيات المتتاليات بما تحمله من معان تتآخى وتتآزر لتكوين الأبنية الكبرى التي هي السورة بما تحويه من جوهر أو قطب عليه مدار الأبنية الصغرى،وبالنظر إلى السياق الكلي للقرآن وموقع سوره على مدرجته يتضح لنا أن الأبنية الكبرى قد أصبحت صغرى مقارنة بسور القرآن على الجملة،وهذا تفسير ما سبق ذكره من تحول الأبنية الكبرى إلى صغرى حسب مجال النظر .

ومما يعين على استخراج الأبنية الكبرى للنص وخاصة في السور الطوال التي تتعدد فيها المعاني وتتكاثر؛ تأمل حركة المعنى ونموه في السورة الذي يبرز من حلقات المعاني متجاورة أو متباعدة ،فينظر في أمر المعاني كيف تختلف وتتفق ،ومن أين تجتمع وتفترق كما ذكر عبد القاهر الجرجاني(1)،و تحديد فاتحة السورة وخاتمتها ومقصدها،حيث ييسر كل ذلك للذهن أن يجول بين معاني السورة، فيدرك حقائق خفية ولطائف فريدة لم يكن ليقف عندها من قبل،يرى المعنى الواحد يتصرّف حسب الأحوال والسياق ،ويتأمل القصص ليعرف الرباط الدقيق الذي يجمعها ،و يعرف صلة هذا المعنى بذاك،وانعطاف كله على جزئه،فيدرك الذهن حينها أن كل سورة من سور القرآن الكريم بين آياتها من التآلف والتلاحم ما شأنها كشأن الباني يضع لبنة بيمينه هنا وأخرى بيساره هناك،كما أشار شيخ البلاغة العربية عبد القاهر الجرجاني .(2) ومعنى ذلك أن كل سورة لها قطب أو محور تنشق عنه جميع معاني آياتها وتعود إليه بوجه من الوجوه .

وفقه المعنى القرآني هو فهم مقاصده ،والنظرة الكلية للنص هي القادرة على سبر أغواره ،وإدراك جزيئاته بما بينها من وشائج ورحم ،وهذا المعنى أدركه علماؤنا الأوائل مثل:الشاطبي،حيث قال:" اعتبار جهة النظم مثلا في السورة لا تتم به فائدة إلا بعد استيفاء

(1) ينظر أسرار البلاغة.عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي .قرأه وعلق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر ص٢٦ .ط١ .١٤١٢هـ-١٩٩١م .مطبعة المدني – جدة . دار المدني – جدة .

(2) ينظر دلائل الإعجاز صـ٩٣.

جميعها بالنظر، فالاقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود،كما أن الاقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما لا يفيد إلا بعد كمال النظر في جميعها ." ([1])

و المعنى القصدي في القرآن هو المقصود بالفهم والإفهام؛لأن مقاصد الشريعة تنبثق عنه،ولأنه المعين على فهم القرآن فهما ينأى به عن الانحراف في تفسيره ،و هو المقصود بالدراسة في هذا الباب ،وعليه يكون مدار سير المعاقد وتفصيلها في السورة .

---

(١) الموافقات ٣/٨٥٥-٨٥٦ .ويقول صلاح فضل عن أهمية النظرة الكلية للنص:" هذه البنية الكبرى التي تلح على تأكيد ضرورة البحث عنها في التحلل لا تؤدي فحسب إلى التماسك الكلي،بل تؤدي إلى التماسك الجزئي المحلي في المستوى الكامن تحت متتاليات الجمل " (ينظر بلاغة الخطاب وعلم النص.صلاح فضل صـ٣٤٤ بدون ط. بدون تاريخ – مكتبة لبنان . الشركة المصرية العالمية للنشر – لو نجمان .)

أولا :

نمو المعـــاني وتآخيها و انسجـــامهـــا في ســــــورة البـــقرة

سورة البقرة على امتداد نزول آياتها مع طولها تلتحم فيها المعاني التحاما شديدا، فتتعلق فيها المعاني الجزئية ببعضها مكوّنة لمعانيها الكلية التي ترمي في مضمونها إلى المقصود الأعظم للسورة .

عرض كثير من العلماء إلى دراسة مقصود سورة البقرة ،فكانت قراءة بعضهم أقرب إلى التفصيل من التحديد.(1) وللشيخ سيد قطب شأن في بيان حركة القول ومساقه في السورة ؛فذكر أن محورها يترابط فيه خطان رئيسيان؛الخط الأول: موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية . والثاني :موقف الجماعة المسلمة في أول نشأتها وإعدادها لحمل أمانة الدعوة و الخلافة.(2)

و لتحليل الدكتور دراز نوع من التميّز؛ حيث صنّف معاقد سورة البقرة أو معانيها الكلية إلى أربعة معاقد و سماها: مقاصد (3)،و تميّزت نظرته بالكلية،مع رد المعاني على بعضها. و لسعيد حوّى جهده في بيان موضوعات سورة البقرة ؛فجعل السورة في ثلاثة أقسام(4)

---

(1) ينظر بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. مجد محمد بن يعقوب الفيروز أبادي.تحقيق: محمد علي النجار ١/١٣٤.بدون ط. بدون ت. المكتبة العلمية / بيروت– لبنان . و ينظر النظم الفني في القرآن. عبد المتعال الصعيدي صـ٤٣–٤٤.بدون ط.بدون ت.مكتبة الآداب– القاهرة.

(2) ينظر في ظلال القرآن ١/٨ .

(3) المقصد الأول: دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام من آية(٢١–٢٥)، ثم عود على بدء من آية(٢٦–٣٩). والثاني: دعوة أهل الكتاب خاصة إلى الدين الحق من آية(٤٠–١٦٢). و الثالث: يعنى بعرض شرائع الدين الحق . ومدخله من آية(١٦٣–١٧٧) والمقصد نفسه من آية (١٧٨–٢٨٣). و الرابع :في ذكر الوازع والنازع الديني الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع في آية واحدة (٢٨٤) (ينظر النبأ العظيم صـ١٦٣).

(4) القسم الأول: من آية (٢١) إلى (١٦٧) ،وبه ستة مقاطع؛الأول: دعوة الناس جميعا لسلك طريق التوحيد. الثاني: قصة آدم . الثالث: قصة بني إسرائيل .الرابع :قصة إبراهيم — عليه السلام – الخامس: قبلة المسلمين ودروس ذلك . السادس: توجيهات مباشرة للمسلمين لها صلة بكل مامر قبل ذلك .

القسم الثاني : من آية (١٦٨)إلى (٢٠٧) ،وبه ثلاثة مقاطع ،الأول: أكل الحلال،و كتمان ماأنزل الله ،وتعريف البر. الثاني: القصاص،والوصية .الثالث: الصوم ،والقتال،والإنفاق، والحج ،والعمرة وأصناف الناس وصلة كل ذلك بالتقوى.

القسم الثالث: من آية (٢٠٨) إلى (٢٨٤) وبه مقطعان،الأول: الدخول في الإسلام والتمهيد لفريضة القتال وتصفية الحياة الزوجية .وموضوعات لها صلة بالإنفاق .الثاني: الأمر بالإنفاق والنظام الإسلامي زكوي لا ربوي وضبط التعامل

و أطنب في بيان أوجه المناسبات بين الأقسام الكبرى و مكوناتها ،ويظهر تأثره بسيد قطب .

و من خلال تتبع سير المعاني في سورة البقرة يتضح أن لها مقدمة في عشرين آية تبين عن حال الناس من القبول و الرد و المراوغة في تقبّلهم الدعوة الإسلامية (1) و هم على ثلاثة أصناف على الراجح من أقوال العلماء؛المؤمنون والكفار و المنافقون،و حرر الخطاب القرآني القول في هذا الأخير؛حتى يكشف أسرارهم ونياتهم للمؤمنين،و آيات سورة البقرة أول مانزل في شأن المنافقين ،وكان ما ذكر في سورة التوبة من آخر ما نزل في شأنهم.

وسورة البقرة — والله أعلم — لها معقدان كبيران ؛و هما :

المعقد الكلي الأول :دعوة الناس كافة إلى الالتفاف نحو عبادة ربهم،وبيان مواقفهم من الخطاب الرباني .

المعقد الكلي الثاني :دعوة الذين تحقق لهم المقصد الأول خصوصا والناس عامة إلى الانقياد بالطاعة،وإقامة تشريعات الله .

ومقصود السورة : " إقامة الدليل على أن الكتاب هدى؛ليتبع في كل ما قال،و أعظم ما يهدي إليه الإيمان بالغيب،و مجمعه الإيمان بالآخرة ،فمداره الإيمان بالبعث الذي أعربت عنه قصة البقرة ."(2)

و يكتنف هذين المعقدين ثلاث ركائز عظيمة ؛هي:ذكر الكتاب،و ذكر الإيمان بالغيب ،و ذكر التقوى بصيغها و اشتقاقاتها و دلالاتها المختلفة؛بين الظهور

==بين الناس في الديون والبيوع . (ينظر الأساس في التفسير ١/٦٥٩-٦٧٤ ط١ . ١٤١٤هـ١٩٩٣هـ دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع —الغورية .)

(١) لتفصيل القول في معاني مطلع السورة ينظر فصل أنواع المطالع (المطلع في سورة البقرة) .

(٢) نظم الدرر ١/٢٤ .

والانـزواء، و بـين الـدلالات الصـريحة و غـير الصـريحة، وهي تنتشـر في السـورة بشـكل ظاهر من أولها إلى آخرها. ([1])

سير معاقد المعاني في سورة البقرة :

المعقد الكلي الأول في سورة البقرة :

دعوة الناس كافة إلى الالتفاف نحو عبادة ربهم، و بيان مواقفهم من الخطاب الرباني: و ذلك من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ (٢١) إلى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم . . .﴾ (١٤١).

ويقوم به معنيان جزئيان :

المعنى الجزئي الأول من المعقد الكلي الأول :

موقف بني إسرائيل من الدعوة إلى توحيد الألوهية: من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ . . .﴾ البقرة (٢١) إلى قوله: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ . . .﴾ البقرة (١٢٣) .

ابتدأ موضوع السورة بنداء الناس كافة. ودعوتهم إلى عبادة الله و الالتفاف حوله دون شريك، و هو أعظم مقاصد الشريعة في القرآن الكريم ؛لأن عبادة الله هي الغاية من خلق الثقلين، وهي دعوة قائمة على الاستدلال بالأدلة القطعية التي تبين عن استحقاقه تعالى للعبودية، و توحيد الربوبية هو أعظم مااستدل به على توحيد الألوهية، من أول تذكيرهم بالخلق و الإيجاد من العدم ،وتسخير المخلوقات لهم، إلى بيان القدرة الهائلة على إنزال القرآن الكريم المعجز بآياته، و القدرة على البعث .

---

(١) ينظر لتتبع ذلك في فصل براعة الاستهلال في سورة البقرة .

واتخذت الدعوة إلى الله أشكالا وطرائق في هذا المعنى الجزئي؛ بين محاجة المعاندين بإقامة الحجة، وإظهار المحجة، وضرب المثل لتقريب الأفكار وتيسير المعاني، والتذكير بالنعم مع الترغيب حينا ،والترهيب حينا آخر، وسيقت تلك الأغراض محبوكة من خلال استعراض مواقف بني اسرائيل .

ومُهد لذكر بني إسرائيل بذكر قصة آدم — عليه السلام — وفيه التنبيه إلى أنه المقصود من الوجود الذي خلقه الله وأحسن صنعه، استدلالا على ربوبيته المدللة على ألوهيته. و فيه أيضا بيان تكريم الله لجنسه –عليه السلام– حيث التفضيل بالعلم، و سجود الملائكة ،وسكنى الجنة ثم بقبول التوبة .

والواضح من الحوار المسوق بين الله وملائكته الغيبية المطلقة لله تعالى ؛لأن خلق آدم من مكنون الغيب بما يستتبعه من استخلافه لعمارة الأرض، ثم الصراع الأزلي الكائن بين ذريته وبين إبليس، و معرفة أن مَنْ هداه الله اهتدى، ومن أضلّه ضلّ . كل ذلك غاب عمن سواه — عز شأنه — و اعتراف الملائكة بقصور علمهم إلا بما يطلعهم عليه المولى ذاته أدل على ذلك .

فمركز المعنى من ذكر قصة آدم؛ بيان علم الله الشامل للكون؛ عظائمه و نفائسه وصغائره، ما كانت و ما لم تكن، ما ظهرت و ما خفيت، ما أبديت وما كتمت ،و هذا يقتضي القدرة المتناهية لله وحده لا شريك له، المستلزمة توحيده بالعبادة .

ولما كان العلم من الغيب برز مجيء معنى(العلم) في هذا المقام ،وجاء بعدة صيغ فقال: {أعلم — لا تعلمون — علَّم — عِلْمَ — علَّمتنا — العليم }

و عُقِّب هذا التمهيد بذكر بني إسرائيل، و ابتدر الحديث و الخطاب إليهم قبل أي أحد آخر؛ فقال : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ البقرة (٤٠) ؛لأنه" لما انتظم إقبال الخطاب على العرب التي لم يتقدم لها هدى بما تقدمه من الخطاب للنبي ﷺ انتظم بخطاب العرب خطاب

بني إسرائيل بما تقدم لهــا مـن هـدى في وقتهـا{إنـا أنزلنـا التـوراة فيهـا هـدى ونـور } المـائدة(٤٤)،و بما عهد إليها من تضاعف الهدى؛بما تقدم لها في ارتقائه مـن كمـال الهـدى بمحمد ﷺ وبهذا القرآن،فكان لذلك الأولى مبادرتهم إليه حتى يهتدي بهم العـرب ؛ليكونـوا أول مؤمن بمـا عندهم من علمه السـابق ."(١) ففي خطـاب الله للنـاس عــامة قصد إلى بـني إسماعيل خصوصـا و إن كانت الدعوة تشمل غيرهم ؛لذلك كـان ذكـر بـني اسرائيــل ابتـداء فيه هداية للعـرب،و هو نظـر في رأس الخطـاب و مناسبته لرأس الخطـاب الآخر،و هـو من نفـائس نظرات الحرالّـي في انتظـام الكلم و ضمّ بعضه إلى بعض .

وبعـد أن أجمل تعـالى ذكر حـال الكتاب من الكمـال في مطلـع السـورة بيـّن وجـه كمالــه في خطـابه لبني إسرائيل بالدليل الذي يصلح لحال اليهود،و هو كونـه مصدقـا لمــا معهــم مـن التوراة ،و بمـا يبين عن هداه الذي سيكون زادا للعرب .

و بعد أن أشار البيـان القرآني في مطلع السـورة إلى زمـرة المتقين إخبارا عن صـفاتهم جـاء في قصة بني إسرائيل ودلّهم على الطريق الذي يكونون به متقين .

فامتدّ حديث القرآن عن اليهود ثلاثا و ثمانين آيـة مـن (٤٠-١٢٣) بـيّن فيهـا تـاريخهم وحــالهم؛ مـن العنـاد والكفـر والتكـذيب والاعتـداء و التحريـف وكـتم العلـم مـع الجـدال العقيم،فذكر قصص بني إسرائيل ابتداء من نجاتهم من آل فرعون ،و نقضهم العهد المبرم مع موسى-عليه السلام- و طلبهم الآيات،والعفو عنهم،و رزقهم المن والسلوى،و تبديلهم أمر الله حين دخول بيت المقدس،و استسقـاء موسى لقومه،و استبدال قـوم موسـى الـذي هــو أدنـى بالذي هو خيـر من الطعـام،و رفع جبــل الطــور ،و أخـذ العهــد علـيهم ،و اعتدائهــم في السبـت،و المماطلـة في قصة البقرة ،ونقض العهد بعدم الإشراك بالله مـع عـدم سـفك الـدماء وعدم الاعتداء،واتباع السحرة و الشياطين .

---

(١) قاله الحرالّي في نظم الدرر ١١٤/١ .

ومركـز المعنـى في جميـع القصـص المذكـورة عـن بـني إسرائيـل هـو بيـان إنعـام الله عليهـم ،و مقابلـة ذلـك الإنعـام بـالكفر و التكـذيب والجحـود ونقـض العهـود .وهـذا سـلك انتظامهـا سـويا .فأسـهب الخطـاب الربـاني الكـلام عـنهم ؛حتـى دلّ بسـياقه المقـامي علـى خبايـاهم حيـث ينتظمـون في سـلك المنافقين،فالمنـافقون يكتمـون الكفـر ويظهـرون الإسـلام ،واليهـود يكتمـون العلـم ويظهـرون عـدم العلـم،و المسـلمون في المدينـة في أشـد الحاجـة إلى معرفـة مَـنْ يشـاطرهم حيـاتهم في المدينـة ؛لـذا وسـع مجـال الحـديث عنهم و مـدّه .

و للبحث وقفـة مع قصة البقرة خصوصا مـن بـين القصـص المـذكورة عـن بـني إسـرائيل لاتصالها بمقصود السورة اتصالا مباشرا،و المتلقي للقصة لا يسعه إلا الانتظام في سـلك عـرض القصة وكأنها مشهد مصوّر أمامـه، فـإذا تنبّـه أدرك أنهـا تُـروى علـى سـبيل الحكايـة،لأن الحبكة عمادها .فإمهالا لليهود ولكونهم أمة مادية هيّأ الله لقـوم موسـى قصـة البقـرة حتـى يريهم الآيات رأي العين ؛طلبا لإيمانهم بالغيب الذي يعد ركيزة في مقصود السورة،و لكـنهم مع رؤيتهم الآيات الدالة كانت قلوبهم أبعد ما تكون عـن التقـوى ممـا يشـي بسـبب تسـمية السورة بها . (١) ولذلك خُتم الحديـث عن قصة البقرة بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ البقـرة (٧٤) وصفـا لحال بني إسرائيل من العناد والمكابرة عن سمـاع داعـي الحـق ،و هـذا المعنـى أقـامه النظـم الكريـم على طريـق التشبيـه المرسل و هـو من تصريـف القـول في وصف القلوب

(١) ينظر لفصل دلالة اسم السورة على مقصودها في سورة البقرة .

المريضة .(1)

و كُثِّف الكـلام عن التقوى المنشودة في هذا المعنى الجزئي،و قوبل بتكثيف المعنى المنـافي لها من الظلم و الاعتداء وتبديل القـول و الفسـق و الفسـاد و القتـل و العصـيان وعـدم الوفـاء بالعهد و القسوة و تحريف الكتاب و الاستكبار و التكـذيب و السـماع مـع العصيان و اتبـاع الشياطين و الضرر و عدم النفع والحسد .و كان للتقابل أثر في بيان مخالفة بني إسرائيل لما أُمروا به.

ومن أهم القضايا التي أُثبتت في جدال أهل الكتاب؛كراهية أهل الكتاب لخير ينزله الله على المسلمين يخصهم به .وإثبات القدرة الإلهية على نسخ الآيات وإنسائها وأن يستبدل بها خير منها،فقال: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ

(١) عقد البيان القرآني مشابهة بين قلوب الكفار و الحجارة على سبيل التشبيه المرسل ،ووجه الشبه : شدة الصلابة وعدم التقبل لأي مؤثر و من لطيف هذا التشبيه تقابل الصفات والخصائص فيه؛فالحالة الأولى تمثل الانـدفاع القـوي الذي ينتج عنه تفكيك قوي مفاجئ للحجارة تحت ضغط الماء العالي الداخلي ،فتسيل على إثره الأنهار ،و التعبير بالتفجر و بالأنهار أدل دليل على ذلك الاندفاع القوي.والحالة الثانية تمثل تصدّع و تكسر للحجارة تحت ضغط خفيف للماء الداخلي فيخرج منه الماء و يتدفق برفق ،و التعبير بفعل الخروج و بالماء أدل دليل على التدفق المرن . فالتقابل بين الحالتين بيّن لكل متبصر ،و أتبع بالثالثة و تمثل الحركة أو التحول من الأعلى إلى الأسفل خشية لله ، بسبب انخفاض مستوى الماء الداخلي للحجر مما يسهم في خفته ثم تقبله لأي مؤثر . و الملحوظ أن المؤثر يزداد تراجعا ؛حيث ابتدأ بمؤثر عال ثم أقل ثم أقل ؛و فيها جميعها يحقق الحجر استجابة عظيمة ،و لعل الماء في الحجر يمثل التقوى في القلوب ؛فإن زادت التقوى في القلب زاد الخير كما كان في تفجّر الأنهار ،وإن قلت قلّ معها الخير كما في خروج الماء و إن قلّت لم تعدم الاستجابة .وهذا التأثر لم يكن لقلوب بني إسرائيل نصيب منه، فهي شديدة الصلابة ،صلابة لا توجد حتى في الحجر . و كان الخطاب القرآني قد أراهم آية تفجّر الحجارة حين كانوا مع موسى –عليه السلام– فوقع هذا التشبيه موقعه من الصدق و مطابقة الواقع فاتصف بحسن الدلالة .

و في هذا المعنى تعريض بالكفار الذين لم يعملوا عقولهم ،و بيان للاستجابة السريعة لله عند الجمادات التي لا تعقل،فزاد ذمهم .و لو وسعنا مجال النظر لوجدنا أن هذا التشبيه له أصل تكلّم عنه تعالى في أول السورة حين وصف قلوب المنافقين على أرجح الآراء بالمرض فانتظم هذا التشبيه مع ذاك الأصل؛ليبين أن قلوب المنافقين المريضة وقلوب الكافرين القاسية تتشابه ،و هي بعضها من بعض،لا يجدي معها طب ،فهي لا خير فيها .وهو من انعطاف المعاني بعضها على بعض عن طريق التصوير البياني.

شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾البقرة(١٠٧-١٠٦) و هذا أصل في معنى توحيد الألوهية؛ لأنه قائم على بيان القدرة والعظمة لله تعالى اللتين لا ينازعه فيهما أحد .و إرداف معنى القدرة على النسخ بالاستفهام التقريري الذي يقرر ملك الله للسماوات والأرض هي من عادات القرآن الكريم التي تؤكد بالبرهان القاطع على ملك الله للأعلى و التصرف فيه ؛مما يبين عن حصول ملك الأدنى والتصرف فيه بطريق التبع .

وبيان أن الطريق لدخول الجنة هو الإذعان و الانقياد لله بإسلام الوجه مع الإحسان ولا غير،مع الإشارة إلى كذب اليهود والنصارى في حصر دخول الجنة على متبعيهم ؛من أهم القضايا التي جادل فيها البيان القرآني أهل الكتاب .

وأثبت الحق -تبارك و تعالى- ظلم من منع مساجده أن يذكر فيها اسمه، و توعد الفاعلين بالخزي في الدنيا و العذاب العظيم في الآخرة . و لما شنّع أفعالهم قابل ذلك بأشنع أقوالهم، فقال : ﴿ وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ البقرة (١١٦-١١٧) و هذا نمو عظيم لمعنى توحيد الألوهية ؛لأن من كان واحدا يستحيل في حقه الولد،واستدل النظم الكريم بما يؤكد فساد مقالهم بالإضراب بـ (بل)و إثبات خلقه تعالى لما في السماوات والأرض بما فيهن من عيسى وعزير – عليهما السلام –وغيرهما ،و القفل بقوله : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ متمكن في محلّه ؛لأن المعنى :"منقادون لا يمتنعون عن مشيئته وتكوينه ،وكل ما كان بهذه الصفة لم يجانس مكونه الواجب لذاته ،فلا يكون له ولد ؛"[1]

(١) تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل .ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي ٨٣/١.ط١ .١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م. دار الكتب العلمية –بيروت /لبنان .

للزوم مجانسة الولد لوالده. ولما كان ذلك كذلك؛أتبع هذا المقال ببيان أن الله تعالى مبدع الأشياء كلها ومخترعها، فلا عجب من إيجاد عيسى —عليه السلام— دون أب ؛لأنه إذا أراد شيئا إنما يقول له :كن فيكون . و هذا المعنى يمد يدا لما جاء في أول السورة من إثبات قدرة الله على الخلق اختراعا و عناية .

وختم البيان القرآني قصة بني إسرائيل بتحذيرهم بنفس ما قدّم من حديثه إليهم فقال: ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ سورة البقرة (١٢٣)وكان قد قال قبله: ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ سورة البقرة (٤٨)،و هاتان الآيتان من المتشابه في السورة (١) الذي قُدّم فيه لفظ على لفظ ،وعبر بلفظ دون آخر ،كل

(١) يخلص النظر في آراء العلماء إلى أن سبب تقديم الشفاعة في الآية الأولى: أن اليهود لما كانوا يظنون بحظوتهم عند ربهم، و يعتقدون من أنفسهم خيرا وبرا كما ورد في الآيات السابقة لهذه الآية — لما كانوا كذلك؛أيئسهم تعالى من بلوغهم تلك الحظوة ،فقدّم نفي شفاعتهم ؛ذلك أن الشفيع لا يجرؤ على الشفاعة إلا بمظنة حظوة ومكانة له ،فنفى تلك الشفاعة عنهم، و عقّب بنفي أخذ الفدية بعد ذلك ؛لتأكيد عدم قبول شفاعتهم ؛يستوي في ذلك ما إذا كان الضمير عائدا على النفس الشافعة أو المشفوع فيها .ثم لما كان ختام قصة بني إسرائيل،و قد أبان في سلسلة طويلة أعمالهم الشنيعة التي استحقوا بها الغضب والذلة، و سوء المآل ؛قدّم نفي القبول،ولكن هذه المرة أسنده إلى الفدية،و معنى ذلك أن الأمر استغلظ عليهم ؛لأن الفدية تعقب الشفاعة في حال عدم قبول الشفاعة، و نفي قبول العدل فيهم يستلزم نفي الشفاعة أصلا ،لذلك لم يقل: و لا يقبل فيها شفاعة،إنما قال: ﴿ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾ فحتى لو كانت هناك شفاعة لن تنفعهم ،و عدم النفع يستلزم عدم القبول أصلا.و ذلك مبالغة في تبكيتهم وزجرهم .(ينظر الكشاف١ /٢٦٥-٢٦٦ . وينظر البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان .الإمام محمود بن حمزة الكرماني صـ١٢١.ط١ .١٤١١هـ-١٩٩١م .دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع —المنصورة . و ينظر التفسير الكبير ٣/٥١-٦٢ .وينظر ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل .الإمام الحافظ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي . تحقيق: سعيد الفلاح١/١٩٦-١٩٧ ط١ .١٤٠٣هـ-١٩٨٣ .دار المغرب الإسلامي- بيروت/لبنان .و ينظر من بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم . محمد بن علي بن محمد الصامل صـ١٨٣- ٢٠٤.ط١ ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م دار إشبيليا – المملكة العربية السعودية / الرياض.)

آية بحسب سياقها ، فكل آية تحتوي على أربعة أشياء متراتبة؛ غير أن الأولى فيها بيان لحال الوسائل التي قد تغني عن المجرمين شيئا من العقاب في الدنيا ،و الثانية فيها بيان أن هذه الوسائل لن تغني شيئا عن عقابه تعالى للكافرين في الآخرة ،فإن فاتهم العذاب في الدنيا فلن يجدوا مفرا منه في الآخرة .

ووردت الآيتان في معنى جزئي واحد مع كثرة ما بينهما من أحداث " فلبعده بالتقدم كرّره تعالى؛إظهارا لمقصد التئام آخر الخطاب بأوله،و ليتخذ هذا الإفصاح والتعليم أصلا لما يمكن أن يرد من نحوه في سائر القرآن؛حتى كأن الخطاب إذا انتهى إلى غاية خاتمة يجب أن يلحظ القلب بداية تلك الغاية ، فيتلوها ليكون في تلاوته جامعا لطرفي البناء و في تفهمه جامعا لمعاني طرفي المعنى ."(1) و هذا النظر في الآيتين بما بينهما من بعد وأحداث نظر في السياق الترتيبي للآيات وأثره المعنوي من وصل طرفي المعنى الواحد ببعضه مما يعين على الفهم والتدبر للمعنى بجمع طرفيه .

و مركز المعنى في هذا الجزء: هو بيان جليل التفضل و الإنعام على العباد عموما،و على بني إسرائيل خصوصا؛و هو إنعامٌ يقتضي استدلالا على الألوهية.

و لما كان بنو إسرائيل معطلين لعقولهم ،و كان الاستكبار و العناد و عدم سماع الحق هو نتاجهم ؛كثر التذكير بالإنعام بتسخير المخلوقات ،و بمغفرة الذنوب وبالبعث بعد الموت ،و برزقهم الطيب من الطعام .كما كثر الأمر بالإيمان والتقوى وأخذ العظة والعبرة ،مع استنكار البيان القرآني لكفرهم ،و لاستبدالهم الأدنى بالأعلى ،و لتكذيبهم الأنبياء و قتلهم ،و لنقض المواثيق ،و لتعليق أعمالهم بعمل إبراهيم — عليه السلام – ولادعائهم قصر دخول الجنة على اليهود .

---

(1) قاله الحرالي في نظم الدرر ٢٣٦/١ .

المعنى الجزئي الثـاني من المعقد الكلي الأول:

موقف إبراهيم –عليه السلام –من أوامر الله له :من قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ البقرة (١٢٤) إلى قوله : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ البقر (١٤١).

لما كان اليهود مثالا يعجّ بالأخطاء والمفاسد؛نبّه القرآن على أعمالهم اعتبارا واتعاظا،وأردف بذكر نظيره ومقابله،وهو الأنموذج للاستخلاف الذي تجسد في إبراهيم – عليه السلام– فانصرف الخطاب عن اليهود إلى " ذكر صاحب الملة التي يرضاها،و افتتح بابتداء أمره في ابتلائه ؛ليجتمع عليهم الحجتان؛السابقة بحسب الملة الحنيفية الإبراهيمية،و اللاحقة بحسب الدين المحمدي ."([1]) وهذا نظر من البقاعي في انتظام المعنى الجزئي الأول بالثاني ،و في اتفاق المعنيين وإن كانا في الظاهر مختلفين .و فيه كذلك حسن الانتقال من موضوع إلى آخر، و من مخاطبين إلى آخرين على وجه من التلاؤم والاقتران .

و كان ذكر إبراهيم – عليه السلام – في ست عشرة آية مبينا عن حسن إسلامه و إيمانه مع طاعته لله،و وصيته لأولاده من بعده بالثبات على الإسلام أدل دليل على ذلك، فكان النجاح حليفهم ،و التوفيق ديدنهم ،و الهدى مآلهم. كما كان ذكره مبينا عن آداب الدعاء مع الذات الإلهية ،و فيه إرصاد لما جاء في خاتمة السورة من الدعاء .([2]) و فيه بيان الخضوع مع الإذعان ،و يعززه تكثيف

---

(١) نظم الدرر. البقاعي ٢٣٧/١ .

(٢)الإرصاد في التناسب تتسع دائرته عن تلك التي ضيقها البلاغيون في قولهم :" أن يجعل قبل العجز أو الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إذا عُرف الروي ،و يسمى التسهيم " (الإيضاح .القزويني ٢٤/٦–٢٥)لأن هذا الفن فيه من دلالة بعضه على بعض ،و هذا يعني أن تلك الدلالة لا يمكن حدّها ببيت أو جملة ؛إنما يدخل فيها ما كان دالا من أول النص على آخره ، و هذا أصل في باب التناسب .

ورود لفظ (الرب) حيث ورد تسع مرات،و يسهم في بيان ذلك الخضوع تكثيف مجيء لفظ (الإسلام) الدال على الاستسلام باشتقاقاته حيث ورد سبع مرات .

ومع تلك النبرات الإيمانية الخاضعة المتذللة تتصاعد قضية توحيد الألوهية ،ويتصاعد معها كمال اعتقاد إبراهيم -عليه السلام- بها بقوة و صدارة من جوانب عدة:

أولها: إيمانه- عليه السلام - بالله و باليوم الآخر الظاهر من قوله تعالى: ﴿ وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ . . . ﴾ البقرة (١٢٦) .

ثانيها: التدليل على صدق دعوة محمد ﷺ وأهميتها، وبيان صدق كتابه المنزل عليه عن طريق التبشير بقدومه في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ . . . ﴾ البقرة (١٢٩) ،وهذا نمو بارز لمعنى التوحيد .

ثالثها: محاجة اليهود والنصارى بنفي ادعاءاتهم في نسبة إبراهيم -عليه السلام- إليهم، و إسلامه الكامل لله تعالى ،ووصيته به لأبنائه من بعده ،وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ البقرة (١٣١-١٣٢-١٣٣) ،ثم قال: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ البقرة (١٤٠) فأقفل الباب في هذه القضية،و أقام الحجة عليهم ، فلا يظل لهم حديث بعده .

رابعها: إثبات توحيد إبراهيم – عليه السلام –بنفي ضده ؛وهو الإشراك بالله ،و قرن الإيمان و الإسلام للقبول فقال : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ*قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ*فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ البقرة(١٣٥–١٣٦–١٣٧)

وهذه ثلاث آيات محورية في قضية التوحيد يتصاعد فيها المعنى فيضيّق الخناق على أهل الكتاب والنصارى والمنافقين كذلك ،أما أهل الكتاب فبالنظر خصوصا إلى قوله : ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ وأما المنافقون فبالنظر خصوصا لقوله : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ لأنه يعني انقيادا بالطاعة كما سبق الاعتقاد القلب .وهذا يعني أن هذا الخطاب مقصود منه اليهود والنصارى والعرب بطريق التبع كذلك .

و لّما كان إبراهيم – عليه السلام – محل نظر ،وصاحب منزلة عند اليهود ؛لِما يظنون من نسبته إليهم ؛جاء البيان القرآني بنفي تلك النسبة خاصة،و بنفي تعليق أعمال اليهود بعمله الصالح عامة،فجاء تكرار قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ سورة البقرة (١٣٤–١٤١) وهذه الآية وثيقة الصلة بما ذُكر من قصة بني إسرائيل ،فأعمالهم الشنيعة لم تنته،وإن ابتدأت قصة إبراهيم– عليه السلام – فأقفل هذا المعنى الجزئي بهذ الآية الكريمة.

وخُتم هذا المعنى الجزئي بالمتشابه من الآيات.(1) ومعنى الآيتين الرئيس منصب على أن كل فرد منوط بعمله، ولا يُسأل عن عمل غيره؛ سواء كان المقصود بالخلو إبراهيم وإسماعيل –عليهما السلام– أو كان المقصود اليهود والنصارى .(2) والنظر في سياق الآية يبين عن أن المخاطبين بهذا الكلام هم اليهود و النصارى ومشركو العرب بطريق التبع، وعليه فيكون المقصود بالأمة : إبراهيم و إسماعيل – عليهما السلام– و الله أعلم بأسرار كتابه– .

---

(1)فقال أولا : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ البقرة (134)، ثم قال: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ البقرة (141)، و هاتان الآيتان من المتشابه في السورة ، فتكرار الآية في موضعين مختلفين يرد على نقطتين رئيستين من أقوال اليهود والنصارى ، وإن تشابه نظم الآيتين كليا ؛فالآية الأولى سيقت بعد إثبات إسلام إبراهيم– عليه السلام–و وصيته لأبنائه من بعده بتوحيد الله وعبادته، فقصد حينها الرد على تعلق اليهود بأعمال الصالحين من آبائهم ،فلا ينفع نفسا إلا إيمانها .والأخرى سيقت بعد محاجة اليهود والنصارى وإثبات أن إبراهيم –عليه السلام– على الحنيفية و لا يمت لدينهم بأية صلة، و لا ينفعهم إلا الإيمان بما أنزل على جميع الرسل دون تخيير، فقصد الرد على إرجاع اليهود جميع الأنبياء إلى دين اليهودية أو النصرانية . (ينظر درة التنزيل وغرة التأويل 1/296–297 .ومثله في ملاك التأويل 1/238) .

(2) أُختلف في تفسير(الأمة)بين من يقول: إن المقصود بهم : إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط. والرأي الثاني يقول: إن المقصود بهم :اليهود والنصارى.(جامع البيان 1/536 .و مثله في المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز.أبو محمد عبد الحق غالب بن عطية الأندلسي .تحقيق: عبد السلام شافي محمد 1/205 .ط1 .1413هـ–1993م .دار الكتب العلمية –لبنان) و رجح الأستاذ حسن باجودة الرأي الأول فقال: "وأنتم أيها المخاطبون اليهود والنصارى ،باعتبار السياق يتحدث عنهم ،المسلمون من أمة محمد ﷺ باعتبارهم المنتفعين الحقيقيين من نور القرآن الكريم لكم ما كسبتم من حسنات، و عليكم ما اكتسبتم من سيئات و لا تسألون عما كانوا يعملون ." (تأملات في سورة البقرة 2/792 . بدون ط. 1410هـ.دار مصر للطباعة .)

و تناول السبحاني الأقوال في تفسير المقصودين بـ (الأمّة) في الآية ورجّح القول الثاني (البرهان في نظام القرآن في الفاتحة و البقرة و آل عمران .محمد عناية الله أسد سبحاني .صـ194. قدّم له :محمد أديب الصالح .و أبو الحسن علي الحسيني الندوي .و مصطفى مسلم .ط1 .1426–2005م دار عمار للنشر و التوزيع / عمان –الأردن) .

وهذه الانعطافات على المعاني تسهم في تلاحم النص ،وتماسك نسيجه؛حتى ليبدو المعنى كتلة واحدة لا انفكاك بين أجزائها،وبهذه اللحمة لا يمكن ترك المعنى الجزئي الأول جانبا؛حتى إذا فُرغ من الثاني و تقادم العهد بالأول رجع المتلقي يتلمس ما قيل فيه ،هذه اللحمة تأخذ بالأجزاء مترابطة كالسلسال .

وختم هذا المعنى الجزئي بالمتشابه يذكرنا بختم المعنى الأول بالمتشابه أيضا،و هذا من التماثل بين ختام المعنيين الجزئيين في المعقد الواحد،و هذا التماثل له أثر في الترتيب الذهني والاتساق المعنوي في نظم حلقات المعاني في السورة .

ومركز المعنى في هذا المعنى الجزئي:هو بيان تحقق الإيمان في إبراهيم – عليه السلام – وبيان توحيده ،وأن محمدا ﷺ على دينه ،مع عدم تعليق أعمال الناس بعضهم على بعض،فكل محاسب على فعله؛و لذلك كثر مجيء ذكر (الإسلام) باشتقاقاته و بمتعلقاته في هذا الجزء مثل قوله: { إماما – البيت – مثابة – أمنا – مقام – مصلى – الطهارة – الطائفون – العاكفون – الركوع – السجود – التزكية – الملّة – الدين – الإله – الرب – الصالحون – الإيمان – الهداية – صبغة الله – العبادة – الإخلاص }.

والعلاقة بين المعنيين علاقة تناظر ؛ فلما ذكر في المعنى الجزئي الأول بني إسرائيل فأبان عن مواقفهم من الخطاب الرباني؛ من العناد و المكابرة و الصدود عن الحق ؛أتبعه في المعنى الجزئي الثاني بما يقابله من ذكر موقف إبراهيم – عليه السلام – من الخضوع و الإيمان فكان ذلك من باب التناظر بين المعاني .

ومما يبين عن هذا التناظر أن أصل الخطاب في ذكر إبراهيم – عليه السلام – لمشركي العرب ،وخطاب اليهود تابع له في هذا المعنى الجزئي ،في حين كان الخطاب في المعنى الجزئي الأول لبني إسرائيل أصلا ويتبعهم العرب .

والقصتان مختلفتان في الحال والمآل،ومتحدتان في المقصد ؛" فإن المقصود من تذكير بني إسرائيل بالنعم والتخويف؛تحريضهم على الإنصاف في تلقي الدعوة الإسلامية،والتجرد من المكابرة والحسد،و ترك الحظوظ الدنيوية لنيل السعادة الأخروية.والمقصود من ذكر قصة إبراهيم موعظة المشركين ابتداء،وبني إسرائيل تبعا له ."(1)

ويشعر القارئ و هو يقرأ قصة بني إسرائيل بالضجيج النفسي، و التوتر الذهني،مع النقمة و السخط على اليهود، فإذا ما انتقل إلى الأنموذج الأمثل هزته الأريحية،وزال التوتر،و بُعثت في النفس لذة مناجاة الرب اقتداء بإبراهيم – عليه السلام – و ذلك من القيم النفسية التي يطبعها أسلوب القرآن الكريم على نفسية المتلقي؛لتحريك وجدانه نحو هدف سام يتصاعد بتصاعد المعاني .

و الذي يظهر في القصص الثلاث (آدم – إسرائيل – إبراهيم) أن البدء فيها محل نظر،و هو بيان النعمة بالتفضيل والاصطفاء،و لكل مقام ،و هذا من التناسق في عرض القصص في القرآن الكريم ؛حيث تنتظم تلك القصص في المعنى الجزئي والمعقد الكلي؛ بل في موقعها من السورة ككل برباط دقيق لا يخفى على المتدبر للمعنى .

ومن جانب آخر فإن القصص الثلاث دالّة على التكامل في المعاني ؛فإن قصة آدم – عليه السلام – طاعة تتخللها معصية،ثم إنابة و توبة،وقصة بني إسرائيل معصية ليس فيها إنابة،وقصة إبراهيم – عليه السلام – طاعة لا معصية فيها ،وفي كلٍ عرف الحال والمآل.

وكأن القصص الثلاث برمتها تمهيد لمطلع المعقد الثاني من المعاقد الكلية للسورة الذي يقصد إلى بيان اصطفاء الأمة المحمدية و تميزها، و كأن قصة إبراهيم – عليه السلام – خاصة بما ورد فيها من ذكر البيت الحرام تقديم للمعنى الجزئي الأول من المعني الكلي الثاني

(1) تفسير التحرير والتنوير .المجلد الأول ١ / ٧٠٠-٦٩٩ .

للسورة الذي ورد فيه ذكر القبلة وتغييرها ،و هذا رباط بين المعقدين في السورة ،و فيه بيان حسن الانتقال من موضوع إلى آخر .

المعقد الكلي الثاني من سورة البقرة :

دعوة الذين تحقق لهم المقصد الأول خصوصا و الناس عامة إلى الانقياد بالطاعة وإقامة تشريعات الله: وذلك من قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ ﴾ (١٤٢)، إلى قوله تعالى: ﴿ لِّلَّهِ ما فِي السَّمَاواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ (٢٨٤) .

وقام به معنيان جزئيان :

المعنى الجزئي الأول من المعقد الكلي الثاني :

تحقق التميّز للأمة المحمدية الموحدة لله: من قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ . . . ﴾ البقرة (١٤٢)، إلى قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ. . . ﴾ البقرة (١٧٧) .

قامت الدعوة إلى الانقياد لله على ركائز متينة ؛منها :بيان تميّز أمة محمد ﷺ وكان ذلك في أربع وثلاثين آية ،و كان تغيير القبلة من المسجد الحرام مما انطوى عليه قلب نبينا ﷺ هو أول تمييز لهذه الأمة ،و هو أول امتحان للطاعة؛ بل و أعظمه .و منها :وصف الأمة بالوسطية مما شرّف الله به أمة محمد ﷺ ،فهي" شريفة خيارا ؛لأن الوسط العدل الذي

نسبة الجوانب كلها إليه سواء."(1) و منه يتضح وصف الأمة بالمنعة و العزة ،لأن وسط الشيء يدل على عمقه وبعده عن الأطراف والجوانب(2)،و أمة محمد ﷺ توسطت بين اليهود المعاندين المستكبرين عن سماع الحق،و بين النصارى الذين غالوا في نبيهم حتى أنزلوه منزلا لا ينبغي لأحد أن يبلغه؛ولذلك استحقت التمييز عن غيرها.

و شدّد البيان القرآني على معنى التميز و عدم التبعية من خلال قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ سورة البقرة (١٤٥) و كان قد قال في المعنى الجزئي الأول من المعنى الكلي الأول: ﴿ وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ البقرة (١٢٠) و هذا المتشابه من النظم الكريم(3) يحذر فيه البيان القرآني من الاتباع لليهود والنصارى،و قيّد الوعيد

(١) نظم الدرر ١ / ٢٦١ .

(٢) ينظر لسان العرب.مادة (وسط) .

(٣) يقول الخطيب الإسكافي ما حاصله: إنه لما ثبت أن (الذي) تزيد في وجوه البيان على(ما)،و كان قوله: ﴿ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ واقعا بعد خبر الله: ﴿ وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى ﴾ و اتباع أحد الملتين في عصر النبي ﷺ كفر ،فمنعه من اتباع الفرقتين بالعلم الذي حصل له بصحة الإيمان و بطلان الكفر ،ولما كان هذا المعنى عظيما؛ وجب أن يختص منهما بالأشهر .و لما كان اتباع أهواء هاتين الفرقتين في أمر القبلة بعض الشرع و كان العلم بصحته بعض الشرع و ليس كله كالآية السابقة؛ لم يشتهر شهرته ،فعبّر عنه باللفظ الأقصر كما خص الأول باللفظ الأشهر .

و لما كان أمر القبلة مخصوصا بفرائض مضيقة و أوقات مخصوصة ؛لم يكن بد من العلم بالوقت الذي نُقل فيه عن القبلة الأولى إلى غيرها ؛أما العلم الذي وقع التوعد معه على اتباع أهواء أهل الكتاب لم يتخصص وجوب العلم به بوقت دون وقت ،فهو واجب في الأوقات كلها (ينظر درة التنزيل و غرة التأويل ١/٢٧٠-٢٨١).و هذا نظر في

بتحقق وصول العلم؛لبيان أن العقاب لا يكون إلا بعد الإعلام والإنذار،و تلك سنّة سماوية. و معنى الآية يؤكد على وجوب تميز المؤمن عن غيره ،وهذا المعنى كان قد أسسه في المعقد الكلي الأول فأكد عليه في هذا المقام،و أسس لمعنى آخر جديد؛وهو أن تميز المسلم عن غيره يؤهله أن يكون متبوعا لا تابعا . فأطبق المعنى الثاني على الأول ،و كمّل الثاني ما بدأه في الأول .

و المتأمل في الخطاب الرباني الموجه إلى النبي ﷺ وإلى المؤمنين يجد قربا ولينا و إن امتلأ الخطاب بالأوامر و النواهي؛ذلك أن كل ما أمرهم به المولى ونهاهم عنه؛ فيه صلاح معاشهم ومآلهم ،ولذلك ترى عنصر التحوّل والتغيّر بارزا في الوجهات والتوجيهات، فذُكر ما كان من تغيير القبلة ثمان مرات، وذُكرت التبعية إحدى عشرة مرة،و ما كان سببا لها من الحب ثلاث مرات،و ما كان نقيضا لها من الانقلاب والتبرؤ أربع مرات .

==سياق الآية يوجب في كل موضع استعمال ما يليق من التعابير المؤدية للمعنى الصحيح .ولعل ماذكره ابن الزبير يحقق اتصالا أكبر بين الآيتين ،وهو حري بالمتشابه من المعاني ،حيث ذكر ما حاصله إنه تعالى بعد ما بيّن في الآية التي في المعنى الكلي الأول أفعال اليهود والنصارى و ما تنطوي عليه قلوب بعضهم للإسلام والمسلمين،أبان الركيزة في ذلك وهي أن كلا من اليهود والنصارى يريد أن يُتبع بأي حال من الأحوال دون اتباع الحق،و ذلك أوضحه مجيء لفظ (أهواءهم) و بعد ذلك البيان قال تعالى : ﴿بَعْدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ ثم توالى الحديث بعد ذلك عن إبراهيم–عليه السلام – وبيّن في أثنائه حسن إسلامه، و حكم من يرغب عن ملته،و عدم تعليق الأعمال بعضها ببعض؛ لأن كل أمة لها حسابها، و كل نفس لها ما كسبت ،وعليها ما اكتسبت . وأكد البيان القرآني الركيزة نفسها حين علّق اليهود والنصارى الهداية على اتباعهم فردّ عليهم قائلا : ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا . . . ﴾البقرة (١٣٥) ثم فصّل في ماهية ملة إبراهيم التي تنحصر فيها الهداية فقال: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ . . . ﴾البقرة (١٣٦) وزاده بيانا فقال: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ . . . ﴾ البقرة (١٣٧) ثم جاء بأول اختلاف بين المسلمين والنصارى واليهود من تغيير القبلة،و وجوب اتباع قبلة محمد ﷺ ،و عدم قبول غيرها،و أتى بالآية الثانية فقال: ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾فأطنب في التحذير بمجيء (من – بعد – ما)مناسبة لإطنابه في البيان السابق الذكر . ولعل هذا النظر في سياق الآيتين يفيد في بيان التكامل بين المعنيين ؛برد الأول على الثاني وتأكيد الثاني للأول وشموله له، ولعله أكثر بيانا لهذا الاتصال من قول الخطيب الإسكافي .

و لما كان الانقياد بتحويل القبلة يتطلب يقينا صادقا جاء الأمر به عدة مرات فقال مرة : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ سورة البقرة (١٤٤)، ثم قال ثانية : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ سورة البقرة (١٤٩)، و قال ثالثة : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ سورة البقرة (١٥٠) و هذا التكرير واقع لتأكيد الأمر و التشديد عليه، و لقطع زيغ المرتابين و دفع حجج المخالفين.(١) و هو يعلل لوقوع التشابه في النظم على نطاق متقارب(٢) و هذا التشابه المتقارب هيّأ للتماسك النصي ،و الالتحام النسيجي في الدائرة الصغرى لنطاق الآيات، و من ثم في الدائرة الأكبر من المعنى الجزئي ،و بالتأكيد لا يعدم أثره في تلاحم النص ككل .

و الخطاب الرباني يساير و يناسب ذلك التميّز، فجاء في خطاب بني إسرائيل في المعقد الأول قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ البقرة (٤٠)، ثم قال كذلك: ﴿ وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ البقرة (٤٥)، ونرى الخطاب مع المؤمنين ينعطف عن

---

(١) ينظر الكشاف ٣٤٦/١ .و مثله في ملاك التأويل ٢٤٢/١ .و مثله في تفسير البيضاوي ٩٤/١ .

(٢) للعلماء في تشابه نظم هذه الآيات آراء عظيمة ؛حيث فسروا الأمر الأول بالتوجّه نحو القبلة، و هو شامل للنبيﷺ ولكل من يصح خطابه، والقبلة المقصود التوجّه إليها: هي الكعبة المشرفة . و أما الأمر الثاني و الثالث فالمعوّل فيهما على الخروج ؛ فإن كان إلى مكان قريب يرى فيه الكعبة فعليه استقبال القبلة، و إن كان من البلد فعليه كذلك توخي استقبال القبلة. (ينظر درة التنزيل وغرة التأويل .الخطيب الإسكافي ١/ ٣٠٦. و مثله في ملاك التأويل.ابن الزبير الغرناطي ١/ ٢٤٢) .

تلك الشدة فيلين ،و يتخذ مسلك المعية الربانية و النصرة استحقاقا لهم فقال: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ البقرة (١٥٢-١٥٣)، فالسياق المقامي للآيات لا يحكي تقابلا بين المعاني فقط ؛بل يبين عن تقابل في الخطاب كذلك .

ومن الركائز كذلك : التميّز بالصفا والمروة ،فأبان الخطاب القرآني ذلك حين وجد المسلمون في أنفسهم حرجا من الطواف بهما نأيا بأنفسهم أن يكونوا مشركين مع الله إلها آخر، فأقصى الله ذلك الحرج ورفعه حين قال: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة (١٥٨).

ولما كان أمر تغيير القبلة عظيما ،و كانت الاستجابة لهذا التحوّل غاية الإذعان وأصلا في الإيمان بالغيب؛أتى النظم الكريم بما يعزز هذا الأمر في نفوس المتلقين تطلعا إلى شفائها مما يمكن أن تعانيه إذا أتى عليها شتات أمرها ؛فقال: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ . . . ﴾ البقرة(١٦٣-١٦٤)،و هذه آية محورية في مقصود السورة فهي أصل في التوحيد،وتمد يدا إلى قوله تعالى قبلها: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ البقرة (٢١)،و في ذلك قال الحرالي: " فلما أظهر لهم تعالى مرجعهم إلى وحدة أبوة آدم – عليه الصلاة و السلام – في جمع الذرية،ووحدة أبوة إبراهيم –عليه الصلاة و السلام– في جمع الإسلام ووحدة أحمدية محمد ﷺ في جمع الدين،فاتضح لهم عيب الشتات و التفرق ،و تحقق لهم شاهد النفع في الجمع إلى وحدات ؛كان ذلك آية على أعظم الانتفاع بالرجوع إلى وحدة الإلهية في أمر

الحق و في إفهام ذلك وحدات ما يظن في ظاهر الوحدات الظاهرة من وحدة الروح ووحدة النفس و العقل."(1) وهذا نظر في انتظام الآية مع المعاني المرتكزة على الوحدة المستقاة من وحدة الإله على نطاق السورة .و كما سبق الحديث ببيان أفعال الله التي تقتضي العبودية في المعقد الأول من السورة ؛فهو ههنا يضيف إلى أفعاله شيئا من صفاته التي ترغب إليه من الرحمة بالعباد ،و هذا تدرج صاعد في معنى التوحيد .

ويكمل بعدها البيان القرآني تميّز المسلمين في عدم تبعيتهم لأحد في دينه ببيان ضلال الضُّلّال في اتخاذهم أندادا لله،فكان المآل بهم أن تبرأ كل واحد من الآخر حين رؤية العذاب .

ومن التميز كذلك: أن شرّف الله الأمة المحمدية حتى في مطعمها؛ فلا يأكلون إلا طيبا،و لم يُحرّم عليهم إلا كل خبيث ؛رجاء جلب النفع لهم، ونأي الضرّ عنهم؛و لذلك قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ البقرة (١٦٨)،و هذا فرع عظيم عن وحدانية الألوهية ،وبه يتسق مع السابق اتساقا حسنا "،فالجهة التي تخلق وترزق هي التي تشرّع فتحرّم و تحلّل،و هكذا يرتبط التشريع بالعقيدة بلا فكاك ."(2) فالتحريم والتحليل إن جاءا من جهة أخرى غير جهة الخالق كان تعديا على خصائص الألوهية. و هذا نمو في معنى التوحيد يبرز ارتباط التشريع بمقصود السورة من إثبات الألوهية ،و هو من وجه آخر يمهد للمعنى الجزئي التالي ،و يعود ليربطه به .

و لما كان نفي التبعية ركيزة في التميّز ؛جاء النهي عن اتباع الشيطان قرين الأمر بالأكل الحلال؛لأنه سبب كل إغواء،و فيه تعريض بإغوائه لآدم – عليه السلام – حين أكل من الشجرة . ثم جاء بيان أمر الله للناس باتباع ما أُنزل إليهم و إضرابهم عن اتباع ماوجدوا عليه آباءهم الذين وصفهم القرآن بالبعد عن التعقل و الهداية أصلا، و مَنْ كان

---

(١) نظم الدرر ٢٩٢/١ .

(٢) الأساس في التفسير ٣٧١/١ .

هذا حاله فكيف يكون حال أتباعه ؟!و لذلك قال بعدها: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ البقرة (١٧١).

و تأوّل العلماء هذا التشبيه على تأويلات عديدة ،(١)و أولاها بالصواب عند الطبري: "أن معنى الآية: و مثل وعظ الكافر و واعظه كمثل الناعق بغنمه و نعيقه؛ فإنه يسمع نعقه و لا يعقل كلامه... و إنما اخترنا هذا التأويل؛ لأن هذه الآية نزلت في اليهود وإياهم عنى الله – تعالى ذكره – بها ،و لم تكن اليهود أهل أوثان يعبدونها و لا أهل أصنام يعظمونها و يرجون نفعها ،أو دفع ضرها ."(٢)

و لبيان أن الاتباع على غير هداية مع الإضراب عن سماع الحق من اختلال العقل أردف التشبيه التمثيلي بآخر بليغ حين قال: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ البقرة (١٧١)،فكان التشبيه التمثيلي مبينا للحال التي عليها هؤلاء الكفار من التبعية الشديدة دون أدنى إعمال للعقول؛حتى بدوا كأنهم بهائم .و بالغ في ذمهم حين أردف بالتشبيه الآخر الذي صوّر الكافرين صورة الصم البكم الذين لا يفقهون ما يقال لهم، فعمل التشبيهان على ذم الإعراض عن سماع الحق ،سواء نتج ذلك عن التبعية، أو التعطيل للعقول .

و هذا من تصريف القول في المعنى الواحد ليكون أبلغ في الوصول، وأرسخ في الذهن وأركز في النفس ؛خاصة و أنه انطبق على مثله في مقدمة السورة حين قال: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ البقرة (١٨).و معنى الآية في المعقد الكلي الثاني يعود على معناها في مقدمة السورة ؛غيرأن التي في المقدمة للمنافقين، وهذه للكافرين ،فوضح مع هذه الصلة وهذا

(١) ينظر جامع البيان ٢/٧٩-٨٢ .

(٢) السابق ٢/٨٢ .

الانتظام سلك المنافقين مع الكفار في سلك واحد من تقرير وصفهم بالمكابرة عن سماع الحق الذي يبعدهم عن الدين ،ويشككهم فيه .وتعد الآية من المتشابه الذي اتفق أوله واختلف آخره.([1])

وهو يذكرنا بسلكهم أيضا في سلك واحد في فساد قلوبهم وعدم تقبلها للإصلاح،وهذا إنما يدل على أن الكافرين والمنافقين على السواء في حال عدم تقبلهم لداعي الحق مما سيجعلهم — بطبيعة الحال —على السواء في المآل ،وهذا التوارد في المعننين من باب التماثل في طرق المعاني ؛والمقصود من هذا التماثل تصريف القول في بيان حالهم ؛حتى لا يخفى على أحد مع قيام الحجة ،ووضوح المحجة .

ولما كان أمر تحويل القبلة عظيما ،وكان الناس فيه بين متقبل وغير متقبل؛جاء وصف هذا التحول بـ(الحق)خمس مرات،وحذر اليهود من كتمانه –لوروده في كتابهم – بزيادة معاني العذاب فقد استحقوا اللعنة سلفا،وورود النار وانتفاء التكريم مع انتفاء التزكية خلفا.

ثم ختم الخطاب القرآني الحديث عن التميّز بتقعيد أساس يُصلح الدين كلّه،ويرد على كل الفرق وأصحاب الضلالات ،فقام برد الفروع إلى أصولها،و اعتبر بالغايات عن الوسائل فليست القبلة هي الغاية إن لم تؤسس لها العقيدة الصحيحة،فقال تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟

(١)هذ المتشابه من أوضح المتشابهات بالنظر إلى سياق كل آية ؛ غير أن ابن الزبير فسّر قوله: ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ متعلقا بالتشبيه السابق له، فهم لا يرجعون بسبب انعدام وجود إضاءة يرجعون إليها ،و لعل الصحيح في تفسير (الرجوع) هو ماذكره الطبري من عناد المنافقين ومكابرتهم وعدم الرجوع إلى الحق .(ينظر جامع البيان ١٤٧/١ و ينظر ملاك التأويل ١٨٠/١–١٨١)، و هذا أولى بالمعنى في سياقه لأن الغرض من ذم المنافقين و الكافرين التيئيس من توبتهم .و هذا يمد يدا إلى ما سبق ذكره من تشبيه قلوب الكافرين بالحجارة الذي سبقه تشبيه قلوب المنافقين في فسادها بفساد الأجسام التي يحل بها المرض .و هذا كله يبين عن عود الكلام على أوله،و ارتباط آخره بأوله ؛حتى تبدو السورة كلها كالحلقة المفرغة التي لا يُعرف طرفاها .

وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ . . . ﴾ البقرة (١٧٧). وهذه الآية محورية في مقصود السورة "،فالمقصود بالذات الإيمان ،فإذا وقع تبعته جميع الطاعات من الصلاة المشترط فيها الاستقبال وغيرها ."(١) و هذا معنى عظيم يختم به هذا المعنى الجزئي ؛لأنه أصل ترد إليه كل الفروع من جهة ،فالإيمان عقيدة وعمل و ثبات عليهما ،وهو نمو لمعنى التوحيد ،وتمهيد لما سيأتي من الأعمال والتكاليف المنوطة بالإيمان في المعنى الجزئي التالي.

ومركز المعنى في هذا الجزء: بيان أن الإيمان بالألوهية يستلزم الإذعان التام في كل الأمور دون أدنى لبس ،هذا الإذعان يهيئ للتميز ؛ولذلك كثرت الدلالات على تفرد المؤمن بخصائص من المعاني ،وفي المقابل كثر النهي بضرورة عدم اتباع غير المؤمنين ،وعدم محبتهم وولائهم .

المعنى الجزئي الثاني من المعقد الكلي الثاني

الدروع الحصينة للدين (التشريع و الجهاد): من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى . . . ﴾ البقرة (١٧٨) ﴿لِّلَّهِ ما فِي السَّمَاوات وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ . . . ﴾ البقرة (٢٨٤) .

بعد أن أُصّلت قاعدة الإيمان بدأت التشريعات في التوالي بنداء المؤمنين بصفة الإيمان ؛هذه التشريعات متنوعة ؛منها : جنائية ،و وراثية ،و فرائض ،و تنظيمات ماليةو أحكام متفرقة في الخمر و الميسر و النكاح و المحيض و الأيمان و الطلاق ،و الخِطبة والصلاة و الذكر . وكان افتتاح التشريعات بأحكام القصاص ،لأن"أعظم شيء من اختلال

---

(١) نظم الدرر ٣٢٢/١-٣٢٣ .

الأحوال اختلال حفظ نفوس الأمة."([1]) وافتتح بنداء المؤمنين بوصف الإيمان في باب القصاص لأنه باب عظيم مما استجد من أمر التشريع، فكان أنسب أن ينبّه إليه ويلفت الأسماع بالنداء الحاثّ على الاجتماع . ولما كان في ذكر القصاص ذكر للموت ؛انتظم به ذكر أحكام الوصية للميت و لم يكن محتاجا إلى هذا النداء؛لأن الوصية مما عُرفت قيمتها قبل الإسلام،فكان ما ذكره من أحكامها مما افترضه تعالى في الكتاب على المؤمنين ([2])، في حين لما جاء بيان كتابة الصيام على الأمة احتيج إلى النداء ثانية؛ لأنه مما أخفاه السابقون حرصا على ضلال العرب، فأطنب في هذا المقام بيانا لفضله و أعذاره وأحكامه مع بيان زمنه . يقول البقاعي عن مناسبة ذكر أحكام الصيام بعد أحكام القصاص :" إن في القصاص قتل النفس حسا،وفي الصوم قتل الشهوة؛السبب للوطء،السبب لإيجاد النفس حسا .وفيه حياة الأجساد معنى وفي الصوم حياة الأرواح بطهارة القلوب."([3]) وبهذا المعنى يكون القصاص والصيام أصلين كبيرين،و تكون الوصية فرعا عن القصاص؛لما سبق بيانه من اتصالهما.وفي الوقت نفسه يبني البقاعي علاقة هذين الأصلين على أساس من التماثل في الأثر حسا ومعنى،وهذا نظر يبين عن رقيٍ في حسّ التناسب عنده .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير.المجلد الأول ١٢٦/٢

(٢) اختلف في آية الوصية منسوخة أم محكمة على أقوال: أولاها بالصواب عند الطبري :" فكل من حضرته منيته وعنده مال – قل ذلك أو كثر – فواجب عليه أن يوصي منه لمن لا يرثه من آبائه و أمهاته و أقربائه الذين لا يرثونه بمعروف كما قال الله – جل ذكره – وأمر به" (جامع البيان٢ /١٢١) .و بهذا التأويل لا يقع تدافع بين حكم هذه الآية والآية المقصودة بالنسخ في سورة النساء –والله أعلم بأسرار كتابه– .

(٣) نظم الدرر ٣٣٧/١ .وللأستاذ حسن باجودة نظر جيد في التدرج في ذكر هذه الأحكام الثلاثة حيث قال:" الجامع بين هذه الأمور الثلاثة المشقة التي تتجلى في القصاص بصورة أشد ،يليها الوصية لأنها متعلقة بالمال و المال عديل الروح،ويليها الحديث عن الصيام وهو أقل الثلاثة صعوبة ومشقة ...و إن مجيء(كتب) في صيغة المبني للمجهول في المواضع الثلاثة يفهم معها أن التكليف حينما يكون شاقا تجيء صيغة المبني للمجهول.أما حينما يكون ثمة إنعام من الله تعالى و فضل فإن صيغة المبني للمعلوم هي التي تجيء."(تأملات في سورة البقرة ١٠٠٠/٢) .

ولما ذكر النظم القرآني أحكام الصيام التي فيها الامتناع عن الأكل والشرب؛أفضى منه إلى ضرورة الامتناع عن أكل أموال الناس بالباطل و بالإثم أيضا ؛ فماثل بين الحالين فانتظم ذكر الصيام عن الأكل بالإقلاع عن أكل أموال الناس بالباطل .

ولما أنهى الكلام عن الركن الرابع من أركان الإسلام أتى بالخامس بعده وهو الحج وعن انتظام تلك الأحكام يقول البقاعي :"لما كانت الأهلة كالحكام توجب أشياء وتنفي غيرها كالصيام والديون والزكوات وتؤكل بها الأموال حقا أو باطلا،وكان ذكر الشهر وإكمال العدة قد حرّك العزم للسؤال عنه ؛بيّن ذلك بقوله تعالى : {يسئلونك} ."(١) فكل مامضى من أحكام يمسك الهلال بزمامه؛لأنه معنيّ بفرض الصيام، ومجيء وقت سداد الديون والزكوات التي يعتبر الحج آخرها ،وهذا وجه في مناسبة الأحكام اختاره البقاعي ولعل تعليقها بما ذكر في آية البر وترتيبها؛من حيث ترتيب أركان الإسلام أظهر ماقيل فيها.(٢)

ومن الحج إلى الجهاد؛لأنه" لما ذكر سبحانه العبادات الموقتة أتبعها بغير الموقتة؛وهي الجهاد الذي لا سلامة لها بدونه التفاتا إلى الظالمين بالمنع عن المسجد الحرام والإخراج منه."(٣)

ولما كان الإنفاق في سبيل الله درعا يقوى به الجهاد ؛وصله به؛وإنما "ذكر تعالى أحكام الصيام،وعطف بذكر الجهاد، وشرع في بيان المناسك، فأمر بإتمام الحج والعمرة، وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما؛ و لهذا قال بعده :(فإن أحصرتم)أي صددتم عن الوصول إلى البيت،ومنعتم من إتمامهما ."(٤)

---

(١) نظم الدرر ٣٥٩/١ .

(٢) ينظر تأملات في سورة البقرة ١٠٦٥/٢ .

(٣) نظم الدرر ٣٦٢/١ .

(٤) تفسير القرآن العظيم .إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء.٢٣١/١ .بدون ط .١٤٠١هـ .دار الفكر –بيروت .

ويعود السياق بعد هذا الشوط الطويل من ذكر الفرائض إلى ذكر أنواع الناس من مؤمنين وكافرين و منافقين، فيقول: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ . . . ﴾ البقرة (٢٠٤-٢٠٥-٢٠٦-٢٠٧) وكأنه ينبّه إلى مواقف الناس من التكاليف الشرعية ؛كما ذكر في مقدمة السورة مواقفهم من الإيمان بالله و باليوم الآخر ،وهو من باب التماثل في عرض الموضوعات ونتائجها .

وتُوّجت تلك الفرائض التي أتمت أركان الإسلام الخمسة بقوله الحق تبارك وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ سورة البقرة(٢٠٨-٢٠٩)،ولعل السياق يشير إلى أن المقصود بالنداء ؛هم المؤمنون و يدخل باقي الناس بطريق التبع معهم ؛خاصة أن هذا النداء وقع بعد ذكر أنواع الناس الثلاثة(١)من حيث موقفهم من الشرع،فدعاهم البيان القرآني إلى الانقياد و الإذعان بقبول جميع التشريعات والفرائض .ولمّا كان الشيطان سببا في عدم الانقياد قُرن الأمر السابق بالنهي عن اتباعه لعداوته لذرية آدم من قديم الأزل ،وكأنه يردّ الكلام إلى أوله من قصة أبينا آدم – عليه السلام – بالتعريض فيردّ الأعجاز على صدورها.(٢)

---

(١) قال الطبري في تفسيره: إن المقصود بالنداء المؤمنون ٣٢٢/٢ . وقاله القرطبي كذلك في الجامع لأحكام القرآن تحقيق: هشام سمير البخاري ٢٣/١ .بدون ط . ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م . دار عالم الكتب/المملكة العربية السعودية-الرياض و قال ابن عطية :المقصود بهم :"جميع الأفراد، المؤمنون و غيرهم بدلالة (كافة) " (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٢٨٢/١) .

(٢) مفهوم رد العجز على الصدر في التناسب أوسع مدلولا مما ذُكر عند البلاغيين من قولهم:" أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بهما في أول الفقرة و آخر في آخرها "(المطوّل شرح تلخيص مفتاح العلوم .سعد الدين التفتازاني.تحقيق:عبد الحميد هنداوي صـ٦٨٩ .ط١. ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م. دار الكتب العلمية / بيروت- لبنان .) لأن ترجيع الشيء كما يتم على مستوى الفِقَر؛ فإنه يتم أيضا على مستوى المعاقد و النصوص كاملة .

والملحوظ أن النهي عن اتباع خطوات الشياطين قد تكرر بنفسه مع الفاصلة في الآيتين وكان قد قال في المعنى الجزئي الأول: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ البقرة (١٦٨) هذا المتشابه وقع في الأولى على سبب خاص ،و في الثانية على سبب عام .(١) وبينهما تكميل أيضا .

ولما كان الجهاد جبهة لوحده،ودرعا يقوم به حفظ الدين ؛مهّد له بذكر إرسال الرسل مبشرين ومنذرين ،وبذكر انقسام الناس إلى مهتدين و ضالين،وعدم نيل المهتدين للجنة إلا بالصبر والاحتساب. ولما كانت مسألة الإنفاق في سبيل الله صلبا في دعم الجهاد ؛جاء ذكره ببيانه عن طريق سؤال الصحابة عنه تثبيتا لأركانه،وأردفه مباشرة بفرض القتال،ثم السؤال عن حكمه في الشهر الحرام، ثم ببيان منزلة المهاجر المجاهد في سبيل الله،وتفرّع منه إلى ذكر حكم الخمر والميسر ،ومنه إلى ذكر أموال اليتامى ،ثم تفرّع إلى أحكام النكاح و الطلاق و أطال الحديث فيهما .

و لّما كانت تلك الأحكام والتشريعات عظيمة عظم مشرّعها؛جاء وصفها بالحدود سبع مرات،و أُسندت إلى الله تعالى فازدادت بذلك هيبة،و جاء الأمر مرتين بعدم التهاون بها؛فقال مرة: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا ﴾ سورة البقرة (١٨٧)،و عاد أخرى في أثناء أحكام الطلاق فقال: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا ﴾ سورة البقرة

(١) لما كان تميز الأمة المحمدية بشخصيتها دون تبعيتها لأحد هو أهم معالمها،وكان تميزها في مطعمها كذلك؛جاء الأمر بالأكل من الحلال الطيب رديف نداء الناس عامة ،و أتبعه بالنهي عن اتباع الشيطان معللا لهذا النهي في الآية بعدها ؛حيث يأمرهم الشيطان بتحريم مطاعم لم يرد تحريمها و تحليل مطاعم لم يرد تحليلها ،و هذا من التدخل في التشريع المفضي إلى التعدي الذي يعد من خوارم التوحيد .ثم إنه في الآية الثانية بعدما أنهى الفرائض والأحكام جاء بالأمر بالدخول في شرائع الإسلام دخول إذعان، ثم نهى عما يفسد ذلك الإذعان من اتباع خطوات الشياطين فتعلّق النهي في الآية الأولى بسبب خاص ،و في الثانية بسبب عام ، وكان المعنى باجتناب طرائق الشيطان وحبائله على الجملة في الآيتين –والله أعلم بأسرار كتابه– .

(٢٢٩) ،وهـذا المتشـابه إنمـا قُصـد منـه تعظـيم حـدود الله وعـدم التهـاون فيهـا ،ولذلك تكرر ذكرهـا والاعتنـاء بهـا بـالنهي عـن المقاربـة فيما كـان محظورا ،وعـن التعـدي فيما كـان حـدا فاصـلا بـين الحـلال والحـرام ،فعـاد المتشـابه علـى الأحكـام في الآيـة الثانيـة بالتكميـل علـى مـا جـاء في الآيـة الأولى .(١) وذكرهما في حلقـة واحـدة مـن حلقات المعاني ييسر النظر في وظيفـة كل آية لوحدها ومقترنـة بشبيهتهـا .

ولما كانت الصلاة سكنا وأمنا ؛تخلل الأمر بها أحكام الطـلاق ومنهـا أفضـى إلى بيـان صـلاة الخوف للمجاهدين تنويها بشأنها فقال: ﴿ حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ * فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة (٢٣٨-٢٣٩)،وأقفل الكلام عن الحيـاة الزوجيـة بـذكر أحـوال المتوفى عنها زوجها . وبه انتقل إلى الأمر بالقتـال ببيـان حتميـة المـوت في الوقـت المكتـوب للعبد سواء كان في داره أوخارجه،و ضرب مثلا لذلك الفارين من الطاعون، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ البقرة (٢٤٣)، ثم تلا ذلـك الأمر بالقتال صراحة، و أردف بالإشارة إلى الإنفاق في سبيله بقوله: ﴿ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ البقرة (٢٤٥) فسمى الإنفاق في سبيله إقراضا ،و ذلك تحقيقا لمعنى الوفاء ،بل الإحسـان في رد الدين؛لأنـه

---

(١) نهـى في الأولى عـن المقاربـة،و في الثانيـة عـن التعـدي ،و إنمـا كـان التغلـيظ و المبالغـة في النهـي عـن المقاربـة أشـد مـن التعـدي؛ لأن النهـي عـن مقاربـة الشـيء يعـني النهـي عـن إتيانـه مـن بـاب أولى. و الملحـوظ أن النهـي عـن المقاربـة قـد ورد في أحكـام معينـة؛ مثـل: مباشـرة النسـاء في الصـيام أو الاعتكـاف؛لأن القـرب مـن تلـك الحـدود الـوارد النهـي عـن مقاربتهـا قـد يُوقـع فيهـا لفـرط حساسيتها،فناسـب النهـي عـن مقاربتهـا أصـلا (ينظـر درة التنزيـل و غـرة التأويـل ٣٢٨/١-٣٢٩ .و مثلـه في الكشـاف .الزمخشـري ٣٨٩/١ . ومثلـه في مـلاك التأويـل. ابن الزبير ٢٥٢/١-٢٥٣. و مثله في تفسير البيضاوي ١٠٧/١)

قال: ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً ﴾ للترغيب في الإنفاق ؛لأنه أصل في تقوية الجهاد. و هو من تصريف القول في المعنى الواحد للتبصير به،و الترغيب فيه .

و لما كان النظم الكريم قد مهّد للصبر في آية البر في السابق،ثم بين عظم البلاء على المؤمنين ورسلهم و مقام الصبر فيهم ؛أورد قصة طالوت— عليه السلام — مع قومه،لبيان أن الصبر أصل في الجهاد ،وكان آخر أخبار بني إسرائيل مما قُصّ على نبينا محمد ﷺ،وفيه إشعار بقرب نهاية المطاف؛لأنه قال بعد ذلك على سبيل الإجمال: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن . . . ﴾ البقرة (٢٥٣) ووصل إلى قلب السورة([1]) بأمر المؤمنين بالإنفاق بأسلوب الترهيب ،وكان قبل ذلك قد رغّب فيه ،فهو من تصريف القول في المعنى الواحد،حيث قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ البقرة (٢٥٤).

وقلب السورة —والله أعلم بأسرار كتابه— في قوله تعالى: ﴿ اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ * لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة (٢٥٥-٢٥٦)،فلما كانت مقاصد السورة قائمة على الإيمان بالغيب ،وكان

---

(١) المقصود بقلب السورة :هو ما تتناسل منه وشائج القربى ،و أسباب التآخي للمعاني الواردة في السورة كلها ،وما تكامل عندها المعنى كذلك .قد يكون في أول السورة ،فيكون كل ما بعده من الآي تصريفا للقول في معناه أو تفصيلا لما أجمل فيه أو تفريعا عنه . وقد يكون في وسط السورة،أو منتهاها .

مناط صفات المتقين المشاد بهم في مطلع السورة هو الإيمان بالغيب،و كان الحق- تبارك وتعالى- هو أعظم الغيبيّات،و جاء قبل ذلك الدعوة إلى عبادته ،و التدليل على ألوهيته بالاستدلال بربوبيته من الخلق و الإيجاد في أول السورة ،ثم جاء التصريح بوحدانيته مع ذكر ما يرغب من صفاته العلا ،مع الاستدلال كذلك بالخلق و الإيجاد وإعادة الخلق مرة ثانية،و جاء بناء السورة كلها على الدعوة إلى توحيده ،و كانت الطاعة والانقياد هي نتاجها- لما كان كل ذلك لزم التعريف بالمعبود العظيم المستحق للتوحيد الذي هو أعظم الغيبيات كلها ،فجاءت صفاته العلا على نحو فريد تُبين في أساس بنائها عن صفات العظمة و القدرة المطلقتين له تعالى دون سواه مع العلم المحيط الشامل ؛فجُمعت في نسق واحد بعد أن كانت مبثوثة في ثنايا السورة هنا و هناك،و بعد أن كانت تذكر على سبيل من التدرج . قال الفراهي عن صفتي الحياة و القيومية : " لابد من حياة دائمة لقيام كليات الخلق، فلو ضعفت ووهنت بنعاس سقطت السماوات و الأرض،و انحلّت عقدة تركيبها ...الحياة التي بها قوام الخلق هي نفسها محتاجة إلى قيوم فهي كلمة وأمر منه."(1) فدلّ بكلامه على أن تتابع الحياة و بقاء عقدتها يستلزم حيًّا قيوما ؛و هذه ركيزة في الحياة كلها ،مما يبين عن جزء من نفائس كون آية الكرسي سيدة آي القرآن . و عن وجه كون هذه الآية قلبا لسورة البقرة التي تقصد إلى إثبات توحيد الألوهية .

وكان مجيء التعريف بصفات الله بعد هذه المسيرة الطويلة من الدعوة ريا لعطش المتلهفين من المؤمنين بالغيب لمعرفة الله تعالى،وصولا بتلك المعرفة إلى اليقين ،وقد جمعت آية الكرسي أصول العقائد ،والتحميد ،والتمجيد ،والتعظيم .فلما دلّ في أول السورة على أنه لامعبود بحق إلا الله؛لثبوت كونه الخالق ،وثبت عقلا ونقلا أن الخالق هو المعبود،وتقرر أنه ليس من يخلق كمن لا يخلق ؛جاء في آخر السورة ليكمل اليقينيات الكبرى، فمن كان معبودا كانت له أسماء وصفات ليس لها نظير أو مثيل أو مقارب،كما قال عزّ ملكوته عن نفسه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ الشورى (١١) .

(١) دلائل النظام صـ ١٢١ .

ولما كان مقصود السورة الدعوة إلى توحيد الله ،و كان عرض الأدلة والبراهين و إقامة الحجج لبيان ذلك ؛جاء بيان أن توحيد الله لا يكون بالإكراه رديف التعريف بـه ،لأن مَنْ تكاملت صفاته وعظمت آلاؤه ليس بحاجة إيمان مَنْ آمن،ولكنه رغّب إلى الإيمان به بالتصوير فقال: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة (٢٥٦) تصريفا للقول في الترغيب في الإيمان والتنفير من الكفر،و بناء عليه فإن قضية التوحيد وصلت ذروتها عند هذه الآية –والله أعلم– .

ولما كان الإيمان باليوم الآخر لا ينفك عن الإيمان بالله، وألصق ما يكون به في أحوال كثيرة وكان الإيمان بالبعث من مقتضيات الإيمان باليوم الآخر،و من أهم البواعث على الطاعة لحصول اليقين بملاقاة الله؛جاء الخطاب القرآني بالقصص الثلاث: (الكافر الذي حاج إبراهيم في ربه،و الذي مرّ على قرية خاوية،و إبراهيم وقصة طلبه معاينة إحياء الموتى) بعد التعريف بشأن المعبود الآمر الناهي ؛طلبا لحصول عين اليقين بعد تحقق اليقين .

ومركز المعنى في القصص الثلاث هو البرهان بالمشاهدة على حصول الإحياء بعد الموت،مع تفرّد الله بهذه القدرة الدالة يقينا على عظمته وجلاله واستحقاقه التوحيد،واعتراف كل من الثلاث: الكافر ،والذي مرّ على قرية خاوية، وإبراهيم –عليه السلام– بهذه القدرة .

ولأن الإنفاق ذو شأن عظيم لرجوعه إلى الإيمان بالغيب تيقنا بحصول الخلف من الرزق،ولأنه من أهم صفات المتقين المشاد بهم في أول السورة،و هو ما يميّز المتقين عن غيرهم من أهل الكتاب الذين كانوا يقدّمون المادة على كل شيء –لكل ذلك أمر الله به في السورة كلها ابتداء من جعله من صفات المتقين، ثم تردد الأمر به حينا ،والترغيب إليه حينا آخر،والتمثيل به تارة ،والتشويق إليه تارة أخرى، حتى وصل به السياق إلى قلب السورة .

وواصل مسيرته بعد ذلك كمثل حي مشاهد على الإحياء و الإنماء معا (١)، فقال: ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة (٢٦١) يقول الطبري عن علاقة هذه الآية بسابقاتها: "وهذه الآية مردودة إلى قوله: {من ذا الذي يقرض الله...} والآيات التي بعدها إلى قوله: { مثل الذين ينفقون أموالهم } من قصص بني إسرائيل، و خبرهم مع طالوت وجالوت، و ما بعد ذلك من نبإ الذي حاج إبراهيم في ربه، و أمر الذي مرّ على القرية الخاوية على عروشها، و قصة إبراهيم و مسألته ربه ما سأل مما قد ذكرناه قبل؛ اعتراض من الله -تعالى ذكره -بما اعترض به من قصصهم بين ذلك احتجاجا منه ببعضه على المشركين...
و حضا منه ببعضه للمؤمنين... وقطعا منه ببعض عذر اليهود...و إعذارا منه به إلى أهل النفاق منهم....ثم عاد تعالى ذكره إلى الخبر عن الذي يقرض الله قرضا حسنا وما عنده له من الثواب على قرضه فقال: {مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل...} ."(٢)
و هذه من النظرات الكلية للمعاني عند الطبري ؛حيث جعل مدار الأمر كله على تعظيم شأن الإنفاق في سبيل الله، وجعل مامر من القصص و المعاني اعتراضا في ذكر الإنفاق ؛ هذا الاعتراض كان لازما لتحقيق مقاصد عظيمة متنوعة شملت فئات المخاطبين الثلاث في السورة

(١) في الآية الكريمة تشبيه التمثيلي ؛حيث شُبّه حال المنفق ماله في سبيل الله، و حال ماله من مضاعفة الأجر إلى سبعمائة ضعف و أكثر ؛بحال حبة الحنطة حين بذرها باذرها فإنها تنتج سبعمائة حبة و أكثر، و الجامع: الهيئة الحاصلة من النماء و الزيادة غير المحدودين للقليل . و هذا التشبيه للتقريب و التصوير، و من فوائده: وصف الزيادة والنماء فهو كثير جدا يصل إلى سبعمائة ضعف و لا يحد كثرة ، مع الترغيب في الإنفاق في سبيل الله، و جيئ هذا التشبيه في هذا المقام تناسبا مع القصص الثلاث الدالة على قدرة الله على الإحياء بعد الإماتة ، مثل: النماء بعد النقصان .و في الآية احتباك أحكم عراها، و إليه أشار الزمخشري حين قال: "ولابد من حذف مضاف أي مثل نفقتهم كمثل حبة، أو مثلهم كمثل باذر حبة.و المنبت هو الله ؛ولكن الحبة لما كانت سببا أسند إليها الإنبات"(الكشاف١/٤٩٤)
(٢)جامع البيان ٣/٦٠ .

كل بما يصلح له . وقوله :" ثم عاد تعالى ذكره إلى الخبر..." نظرة في ردّ المعاني بعضها إلى بعض،و هو ما يسمى برد الأعجاز على الصدور .

و بنفس الاهتمام بشأن الإنفاق واصل البيان القرآني الحديث عنه حتى بين شروط قبوله و عدم بطلانه ،و أمر بالإحسان فيه ،فصرّف القول فيه بين تصريح و تلويح ،و ترهيب و ترغيب ،و تركيز و إشارة ،"و لما كان حال المنفق- لا سيما المبتغي وجه الله سبحانه وتعالى- أفضل الأحوال،و هو الحال الذي دعوا إليه،نظم به أدنى الأحوال،و هو الذي يتوسل به إلى الأموال بالربا ، فأفضل الناس المنفق ،و شر الناس المرابي فنظم به خطاب الربا ."(1) وهذا يبين عن انتظام بسبب التقابل بين أثري الإنفاق و الربا ،و هو ما أورده النظم القرآني بعد ذلك على وجه من التناظر والتقابل فقال: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ البقرة (٢٧٦) وفيه عود لبيان مضاعفة الأجر للمنفق بالإشارة إليه،لأنه فصّل الحديث عنه فيما سبق .

ولما أنهى البيان القرآني الكلام عن الربا؛نظم به أحكام المداينة باعتبار أن المداينة مطية الربا عند المرابين ،فأعلم عن المداينة القائمة على التقوى ،و هو فرع عن الإنفاق ،و هذا يعني أنه انتهى إلى ختام السورة بموضوع الإنفاق و ملابساته؛حتى وصل إلى ختام السورة بالتمهيد له بقوله تعالى: ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ البقرة (٢٨٤)،و هذه الآية أصل في إثبات قضية التوحيد؛ لتواتر معنى القدرة و العلم و الحكمة والبعث و الحساب فيها ،و انتظمت مع سابقاتها في سلك كالدر حتى جرت معاني السورة كلها إلى عمود واحد سماه الفراهي:الوحدانية .(2)

(١) قاله الحرالي في نظم الدرر ٥٣٠/١ .

(٢) دلائل النظام صـ٧٦ .

ومركز المعنى في هذا الجزء قائم على الإذعان بقبول تشريعات الله وأحكامه التي سماها حدودا، هذا التشريع ليس فيه كلفة ولا مشقة،و هو تشريع يسمو بالنفس والأسرة و المجتمع وحفظ حقوقها ؛ولذلك كثر الأمر بتقوى الله والإحسان والمعروف ،كما كان في مقابله نهي عن تعدي حدود الله أو مقاربتها .

والعلاقة بين المعنيين الجزئيين: أن النظم الكريم لما امتحن في المعنى الجزئي الأول المؤمنين في أعظم معتقد لهم و هو القبلة،ولاقى التصديق والإذعان، وعليه حققوا معنى التميز؛هيأ هذا المعنى لتقديم المعنى الجزئي الثاني ،وهو ذكر التشريعات ،فكانت العلاقة بين المعنيين علاقة تفريع على المعنى .

العلاقة بين المعقدين الكليين في سورة البقرة ([1]):

لما دعا النظم الكريم في المعقد الكلي الأول الناس -على اختلاف عقائدهم - إلى عبادة الله، مذكرا إياهم بجليل النعم ،فاستدل بالربوبية على الألوهية، و كان من بينهم المؤمن والكافر فضمّن المعنى عدم أهلية الكافر للاستخلاف في الأرض و عمارتها، و أهلية المؤمن للاستخلاف؛ لما كان كل ذلك أقبل أخرى إلى الناس عامة و إلى المؤمنين خصوصا بدعوتهم إلى الدخول تحت رايته بالانقياد إلى طاعته بتطبيق أوامره التي كان أعظمها تحويل القبلة، فكان تتميما للمعاني بين المعقدين .

وهذان المعنيان الكليان لا يقومان إلا بركيزتين مهمتين ؛الأولى :الإيمان بالغيب .

---

(١) المعنى الكلي الأول: دعوة الناس كافة إلى الالتفاف نحو عبادة ربهم، و بيان مواقفهم من الخطاب الرباني: وذلك من آية (٢١-١٤١)من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم . . .﴾ ويقوم به جزءان:

الأول: موقف بني إسرائيل من الدعوة إلى التوحيد .

الثاني: موقف إبراهيم -عليه السلام- من أوامر الله له .

المعنى الكلي الثاني: دعوة الذين تحقق لهم المقصد الأول خصوصا والناس عامة إلى الانقياد لله من خلال الأوامر والنواهي و إقامة التشريعات: من آية (١٤٢- ٢٨٤) من قوله : ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ . . .﴾ إلى قوله : ﴿لِّلَّهِ ما فِي السَّمَاواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ. . .﴾ ويقوم به جزءان :

الأول: تحقق التميّز للأمة المحمدية الموحدة لله .

الثاني : الدروع الحصينة للدين(التشريع والجهاد) .

خاتمة السورة: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ . . .﴾ البقرة (٢٨٥-٢٨٦) .

و الركيزة الثانية: التقوى . فالإيمان بالغيب قطب عظيم لا يقوم إلا بمجموعة من الأركان؛ هي: الإيمان بالله، وبوجود الملائكة، والإيمان بجميع الرسول و الكتب على السواء،والإيمان بالبعث و النشور . ولأن الإيمان بالغيب هو الركيزة التي تتحقق بها التقوى؛فقد اتخذت الدعوة إليه مسارات كان الأبرز منها ثلاثة :

المسارالأول: التنديد ببني إسرائيل ،وذكر ما كان من أحوالهم و صفاتهم و مواقفهم مع الأنبياء والكتب والنعم من التكذيب والمراوغة والجدال والكفر ونقض العهود مع بيان سعة فضل الله وحلمه عليهم، و لكل ذلك استحقوا الغضب و الذل و العذاب .

المسار الثاني: تقرير معاني الألوهية والربوبية والتنزيه بالأسماء والصفات ،وهي منتشرة في السورة بأكملها،ودالّة- في أكثرها - على عظمة الله وسعة علمه وحلمه مع قدرته على الخلق عناية واختراعا.

المسار الثالث: تشريع العبادات والمعاملات والأحكام و الجهاد؛حيث اشتملت السورة على ذكر الصلاة ،والصيام ،والزكاة ،والحج ،وما يتعلق بها من أحكام ،كما ورد ذكر تغيير القبلة وأحكام الميتة و القصاص والميراث والقتال والإنفاق والطلاق والربا والدين.

ولكل ذلك كانت التقوى مسببة عن الإيمان بالغيب؛و لذلك كثر في المعقد الأول الأمر بالإيمان بالله،و النهي عن الكفر به،في حين كثر الأمر بالتقوى و مقتضياتها في المعقد الكلي الثاني بشكل أغزر من الأول .

*　　　*　　　*

ثانيا/

نمو المعاني و تآخيها وانسجامها في سورة آل عمران

سورة آل هي عمران الثانية من الطوال التي تتكاثر فيها المعاني ،وقد أولاها العلماء اهتماما بالغا، فنظر سيد قطب للسورة نظرة كلية تكاملية كما هو منهجه؛ فجعل السورة على قطاعين كبيرين ؛**الأول:** تصفية التصور الإسلامي ،أو تصور جانب من جوانب الصراع بين العقيدة الإسلامية والعقائد المنحرفة في الجزيرة كلها. **الثاني:** خاص بغزوة أحد .

و رسم خطوطا ثلاثة للسورة كلها (١)تتناثر فتجتمع حينا وتفترق حينا آخر. و أبان عن مكان هذه الخطوط الثلاثة من السورة فقال:"و هذه الخطوط الثلاثة العريضة متناسقة فيما بينها متكاملة في تقرير التصور الإسلامي ،و توضيح حقيقة التوحيد ،و مقتضاه في حياة البشر و في شعورهم بالله،و أثر ذلك في موقفهم من أعداء الله الذي لا موقف لهم سواه ."(٢) و هذا نظر في علاقة المعاني بعضها ببعض،وأثر كل معنى في الآخر بما يبين عن تكاملها و تناسقها ،و هو أصل في معنى التناسب.

وعرض سعيد حوى للمعاني في سورة آل عمران فجعلها على خمسة أقسام(٣)،و نظره هذا يستقيه من سيد قطب ، فهو يسير على منهجه و إن كان يقسم معانيه إلى معانٍ جزئية متفرعة عن الكلية .

وجعل عبد المتعال الصعيدي سورة آل عمران في الرد على مقالات النصارى التي جعلها خمس مقالات بعد أن قدّم للسورة بما يجب لله من الأوصاف، ثم أتبع تلك المقالات إلى

---

(١) الخط الأول: بيان معاني الدين ومعنى الإسلام . والثاني:تصوير حال المسلمين مع ربهم و استسلامهم له. والثالث:التحذير من ولاية غير المؤمنين والتهوين من شأن الكافرين .(ينظر في ظلال القرآن ٣٤٨/١-٣٥٩).

(٢) السابق ٣٥٨/١ .

(٣) الأول: من آية (١-٣٢) يتحدث عن مظاهر وحدانية الله وقيوميته و عزته و حكمته، و القسم الثاني:من آية (٣٣-٦٣) و فيه تصحيح لمفاهيم أهل الكتاب عن عيسى- عليه السلام- و جعل القسم الثالث يمتد من آية (٦٤) إلى آية (٩٩) و فيه دعوة أهل الكتاب إلى محض العبودية لله و توحيده، و مناقشة مواقفهم وأقوالهم . و القسم الرابع يمتد من الآية (١٠٠) إلى آية (١٤٨)و يبدأ بالتحذير من طاعة أهل الكتاب، و يبيّن هذا القسم ما سبقه من معان ويفصّل فيها.و القسم الخامس من آية (١٤٩) إلى الآية (٢٠٠) و يبدأ بالتحذير من طاعة الكافرين مطلقا مع وعد الله بالنصر على الكافرين، و تبرز طريقة التربية من خلال الواقع. (ينظر الأساس في التفسير ٢/ ٦٩٣-٨٩٣ .)

قبل الختام بمقطعين فيهما تثبيت للمؤمنين.(1) و نظر الصعيدي تبرز فيه الوحدة الموضوعية لموضوع السورة ؛إذ جعلها جدلية بأكملها .

ومن خلال تتبع سير المعاقد في السورة ظهر أن سورة آل عمران لها مقدمة في تسع آيات، فيها من الحجاج ما يُستدل به على التوحيد.(2)و لها معقدان كليان تندرج تحتهما معانٍ جزئية تتآزر فيما بينها للقيام بمقصود السورة ؛وهما :

المعقد الكلي الأول : تربية النفوس على التصدي فكريا للتيارات المضادة للإسلام.

المعقد الكلي الثاني: تربية النفوس على التصدي عمليا للتيارات المضادة للإسلام.

ومقصود سورة آل عمران الذي تتبلور حوله هذه المعاقد هو ما ذكره البقاعي: " المقاصد التي سيقت لها هذه السورة :إثبات الوحدانية لله سبحانه و تعالى،و الإخبار بأن رئاسة الدنيا بالأموال و الأولاد و غيرهما مما آثره الكفار على الإسلام غير مغنية عنهم شيئا،وأن ما أُعد للمتقين من الجنة و الرضوان هو الذي ينبغي الإقبال عليه ،و المسارعة إليه ."(3) ثم عقّب البقاعي على كلامه قائلا:" هذا ما كان ظهر لي أولا،و أحسن منه أن نخص القصد الأول وهو التوحيد بالقصد فيها،فإن الأمرين الآخرين يرجعان إليه ."(4) و المتأمل في معاني سورة آل عمران لا يخرج بغير قصد ترسيخ معنى توحيد الألوهية الذي ذكره البقاعي . ويكتنف معنى العزة موضوعات السورة كلها من أولها لآخرها .(5) في حين تسير ثلاث ركائز في السورة جنبا إلى حنب ،تظهر حينا و تنزوي حينا آخر؛وهي: التقوى والإنفاق والصبر ،وهذه المعاني قد تظهر منفردة ،أو مجتمعة ،ومقترنة بغيرها بين دلالات مباشرة

---

(1) ينظر النظم الفني في القرآن ص63-75 بدون ط.بدون ت.مكتبة الآداب-القاهرة .

(2) لمعرفة المعاني في مطلع السورة ينظر فصل أنواع المطالع (سورة آل عمران) .

(3) نظم الدرر 3/2 .

(4) السابق 3/2 .

(5) سيتناول البحث هذا المعنى بالدراسة في فصل براعة الاستهلال في سورة آل عمران .

صريحة، أو إحالات، أو تضمينات، كل في سياقه، و سيتضح مكانها من السورة بالدراسة –إن شاء الله –.

سير معاقد المعاني في سورة آل عمران :

المعقد الكلي الأول من سورة آل عمران :

تربية النفوس على التصدي فكريا للتيارات المضادة للإسلام: من قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا . . . هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ (١٠)، إلى قوله: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْض. . . ﴾ (١٠٩) .

وقام به ثلاثة أجزاء:

المعنى الجزئي الأول من المعقد الكلي الأول :

التبصير بمقتضيات الإقرار بالألوهية ،والتحذير من مقتضيات عدم الإقرار بها: من قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم . . . ﴾ (١٠)، إلى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣٢).

لما ذكر النظم الكريم ماللكفار من العذاب الشديد في مطلع السورة على سبيل الإجمال؛ افتتح موضوع السورة بذكرهم كذلك ؛بيانا لسبب استحقاقهم ذلك العذاب على سبيل التفصيل، فقد ابتغوا العزة من غير مصدرها، ابتغوا العزة من الأموال و الأولاد ولم يدركوا أن الله تعالى هو صاحب العزة ولا غير؛ و لذلك أعلم في صراحة و تأكيد عن عدم إغناء الأموال والأولاد عن الكافرين شيئا من عذابه تعالى ،ثم أبان أن حالهم هذا ليس

مستنكرا ؛إنما هو كحال آل فرعون و الذين من قبلهم ،ولذلك استحقوا من الله عقابا شديدا. وفيه تعريض للمؤمنين باستحباب الزهد في الأموال و الأولاد ؛لعدم إغنائهما عن عذاب الله.

ولما بيّن تعالى عزته وعظمته؛ أبان عن مكان كل من الكافرين و المؤمنين من تلك العزة، فأظهرت الآية حرمان الكافرين من العزة وإحلال الذل والمهانة بهم ،فأوعدوا بكل ما يوجب لهم تلك الذلة من العذاب الشديد، و من كونهم وقود النار، و من شدة العقاب، و الغلبة، والحشر إلى جهنم، و العذاب الأليم، و حبط الأعمال، و عدم النصر .

وفي المقابل أظهرت الآيات اكتساب المؤمنين صفات العزة و العلو و الرقي، فأضفى عليهم تعالى شيئا من عزته وعلو شأنه، فهم الراسخون في العلم، و أولو الألباب، و أصحاب الهداية، و أولو الأبصار . ومما أوضح تلك المقابلة الكائنة بين شأن المؤمنين العالي و شأن الكافرين الوضيع قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾ آل عمران (١٣)، فكان للاحتباك أثر في المقابلة بين الفئتين، و وضوح الفرق بين حالهما من الصلاح، و الفساد، و التأييد، و النصرة ،و الخذلان، و الهزيمة .

ولما كانت التقوى من أهم المعاني التي تكتنف السورة مع الإنفاق والصبر؛ برزت بمعناها الصريح في ابتداء السورة في قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ . . . ﴾ آل عمران(١٤-١٥) إلى قوله: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ آل عمران(٣٢) و شمل بلفظ ﴿ خَيْرٍ ﴾ ضروب النعيم المختلفة التي لا يحيط بها بشر، و مجمعها قوله: ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ ﴾ و خص تعالى بذلك الخير المتقين الذين من أوصافهم ؛اللهج بالإقرار بالإيمان و الدعاء بمغفرة الذنوب، و الوقاية

من العذاب، و من صفاتهم كونهم صابرين و صادقين و قانتين و منفقين و مستغفرين بالأسحار.

فجاء البيان القرآني بالإبانة عن تزيين الشهوات للناس عامة، و أردفه بأفضلية التقوى على اتباع الشهوات؛ لأن النعيم المقدّم للمتقين نعيم دائم وليس منقطعا؛ بل جعل نعيم الآخرة نعيما تصاعديا؛ من الجنان ذوات الأنهار، و الأزواج المطهرة، إلى رضوان الله، فقدّم ذكر الجزاء على ذكر المستحقين لهذا الجزاء ؛ طلبا لإثارة الانتباه مع التشويق، ثم عرّفهم وذكر صفاتهم؛ من الإيمان بالله، وطلب المغفرة، و الوقاية من العذاب، والصبر، والصدق والقنوت، والإنفاق، والاستغفار بالأسحار . والعطف بين تلك الصفات دلالة على كمال الموصوفين في كل واحدة منها.(1) وهذه الصفات التي جمعها النظم الكريم في هذه الآية هي مدار صفات المؤمنين في هذه السورة ،فالصبر من أهم المعاني التي تسير مع التقوى والإنفاق في السورة، والصدق محبة الحقّ الذي تخبر به معاني السورة من استحقاق الله للتوحيد، والقنوت أداء لحق الألوهية المصدّق بها، و الإنفاق سيأتي ذكره كثيرا وهو أصل في التقوى، والاستغفار اعتراف بالتقصير وقصور عن القيومية المثبة لله تعالى .

والخطاب القرآني وصل بهذه المعاني الثلاثة إلى قوله الله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ . . . ﴾ آل عمران (١٨- ١٩) ،وهي آية عظيمة في معنى التوحيد وتفسيرها: "شهد الله أنه لا إله إلا هو وشهدت الملائكة وأولو العلم ... و كان بعض

(١) ينظر الكشاف.الزمخشري ٥٣٤/١. و مثله في علم المعاني.دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني.بسيوني فيّودص ١٣٧.ط١ .١٤١٩هـ-١٩٩٨م .مؤسسة المختار-القاهرة/دار المعالم الثقافية-الهفوف .

البصريين يتأوّل قوله: { شهد الله} :قضى الله و يرفع الملائكة بمعنى الملائكة شهود وأولو العلم ."(1)

و هذه الشهادة تؤكد الخبر المعطى في مطلع السورة حين قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ آل عمران (٢)،فكما أثبت الخطاب القرآني أصول عقيدة التوحيد في أول السورة؛بالإخبار عن صفات كماله تعالى بالأدلة العقلية القطعية على استحقاق ألوهيته من الحياة و القيومية، مع القدرة على تنزيل الكتب السماوية ،والقدرة على المحاسبة مع العدل والإحاطة العلمية، والإنشاء من العدم، وتنزيل الكتاب محكمه ومتشابهه؛أكمل تأصيل تلك العقيدة،و شهد الله تعالى بجلال قدره على وحدانيته،وهي أعظم وأنفع شهادة. وإلى هذا المعنى أشار الحرالي بقوله:" لما أنهى تعالى الفرقان نهايته ببيان المحكمين والمتشابهين في الوحي و الكون ؛انتظمت هذه الشهادة التي هي أعظم شهادة في كتاب الله بآية القيومية التي هي أعظم آية الوجود ؛لينتظم آية الشهود بآية الوجود."(2) فهذه الآية تكمل تأصيل حقيقة التوحيد التي حققها في مطلع السورة ،ولذلك فهي من باب رد الأعجاز على صدورها .

وشهادة الله بكلمة التوحيد من الإخبار الذي هو منهج القرآن الكريم في إثبات أصول الاعتقاد،و شهد بمعنى: أقام الأدلة ونصبها.(3) فالخبر المجرد إذا صدر من الله تعالى كان أحق بصدقه و ثبوته ؛لأنه صادر من الحق الذي قوله و فعله حق،و إذا ما حُقق الخبر بشهادة الله نفسه؛ كان ذلك من العظمة والكمال بمكان مع تحقق صدقه.

---

(١) جامع البيان ٢٠٩/٣ .

(٢) نظم الدرر ٤٢/٢ .

(٣) "الشين والهاء والدال أصل يدل على حضور وعلم وإعلام"(مقاييس اللغة.ابن فارس.مادة (شهد) .

وزاد المعنى تأكيدا ببيان حاله تعالى بقوله: ﴿ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ ﴾ ؛لأن فيه إظهار بيان الكمال لله تعالى في أقواله وأفعاله وصفاته التي تندرج فيها تلك الشهادة .([1])و لعله "حال كل من المذكورين لا المجموع بقيد الجمع."([2])

وقُدمت شهادة الملائكة على أولي العلم؛ بيانا لعظم شأنها عند الله،وخصّ الملائكة و أولي العلم ؛بيانا لفضلهما على غيرهما في معرفة الله و العلم به.و أكد البيان الكريم كلمة التوحيد: ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ بتكريرها في الآية؛ لأنه لما كانت الأولى بمنزلة الإخبار؛جاءت الثانية لتقوم مقام الحكم و القضاء الذي لا يُخالفه إلا هالك.و في تقديم المعطوفين: ﴿ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ ﴾ على الحال: ﴿ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ ﴾ ما يبرز جهة من جهات التوحيد عند الملائكة و أولي العلم ،و يبرز كذلك مكانهما،فهو دال على"علو مرتبتهما،وقرب منزلتهما ،و المسارعة إلى إقامة شهود التوحيد ؛اعتناء بشأنه...مع الإيذان بأصالته تعالى في الشهادة به."([3])

وفي الآية تضمين معنى أن الله هو أهل الشهادة، و يتلوه بمراتب كبيرة الملائكة،و أولو العلم.وفيها تعريض بأن غير المذكورين ليسوا أهلا للشهادة ،ولا تُقبل منهم.

وبهذه الشهادة يتصاعد معنى التوحيد؛ إذ لا شهادة بعد شهادته تعالى، فهي " آية علن التوحيد الذي هو منتهى المقامات وغاية الدرجات في الوصول إلى محل الشهود الذي منه النفوذ إلى الموجود بمقتضى الأعظمية التي في الآية الفاتحة."([4])

---

(١) أشار البقاعي إلى أن هذا الرأي هو الأقرب إلى المعنى،فقال: "ويجوز- وهو الأقرب -أن يكون حالا من الاسم الشريف إشارة إلى أنه ما وحّد الله حق توحيده غيره؛لأنه لا يحيط به أحد علما"(نظم الدرر ٤٣/٢) .

(٢) السابق ٤٣/٢ .

(٣) روح المعاني ١٠٢/٢ .

(٤) قاله الحرالي في نظم الدرر ٤٢/٢-٤٣ .

ولما كانت الشهادة ركنا أصيلا في التوحيد ،و لا تُقبل إلا ممن هم أهل لهـا؛ تـردّد ذكرهـا في السـورة،و تنوّعت سياقاتها بين الترغيب في نيـل منزلتهـا،و بـين الاحتجـاج بها على أهل الكتاب في عصيانهم مع علمهم .

وكما أن التوحيد يقوم في تقريره على الأدلة العقلية فقد جاءت هذه الأدلة أيضا بعد آية الشهادة،فقال الله تعالى مباشرة بعد آية الشهادة: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ آل عمران (١٩)، فأكد في صراحة كون الدين حصرا في الإسلام ولا سبيل للحجاج و اللجاج في هذه القضية؛لأنه تعالى أردف ببيان السبيل في حجاج أهل الكتاب فقال: ﴿ فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ ﴾ سورة آل عمران(٢٠)؛لأن إسلام الوجه معناه: الانقياد الكامل لله تعالى .و هذا القول تعزيز لصدر الآية: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ﴾ آل عمران(١٩) و إنما كان كلامهم على صفة الجدال العقيم (١)،و هذه الآية قرينة سابقتها في بيان تصاعد معنى التوحيد ؛حيث قُرر و أُكد الدين المقبول عند الله؛ و هو الإسلام ،و جاء بيانه الدال على وجوب الانقياد ولا غير .

وسار المعنى بالتبصير بمستلزمات الإقرار بالألوهية من التبصير بصفات المؤمنين الواجب أن يكونوا عليها،و التبصير بدين الله المبتغى،و التبصير بمحاجة أولئك الكافرين؛ حتى وصل إلى التبصير بصفات الكافرين ،فذكر صفاتهم من الكفر بالله،وقتل الأنبياء بغير حق،وقتل الآمرين بالقسط ،كل ذلك عُبّر عنه بالأفعال المضارعة؛حتى يبين عن تجدد فعلهم

---

(١) "لأن من يريد المعرفة الحقّة إنما يعبر عنهم القرآن بأسلوب يبين عن أدبهم في هذه المعرفة بقوله تعالى: {يسألونك – يستفتونك}." (ينظر بابة في البلاغة والبيان .نمو المعاني .دراسة تحليلية لسورة آل عمران .عادل حسني شكري . قدّم له: محمد خير البقاعي صـ٣٤–٣٥ .ط١ .١٤٢٤هـ–٢٠٠٤م .مكتبة ودار ابن حزم للنشر والتوزيع –المملكة العربية السعودية /الرياض) .

مرة بعد مرة؛دون استقباحٍ منهم لأفعالهم . و لما ذُكرت صفاتهم ذُكر مآلهم من البشارة بالعذاب وحبط الأعمال،و عدم النصرة ،فجرت الآيات مجرى التحذير للكافرين من عدم الإقرار بالألوهية .

وكان ذكر صفات المؤمنين و مآلهم ضمنا ،ثم إن ذكر صفات الكافرين و مآلهم من باب التناظر بين المعاني في المعنى الجزئي الواحد؛مما يسهم في بيان حال كل منهما من العزة المكتسبة من الإيمان بالله ،والذلة الحاصلة من عدم الإيمان به ؛كل ذلك حتى يؤكد محل العزة ومكانها من التوحيد .

و سار البيان القرآني بالمعنى حتى وصل إلى الأدلة العقلية التي نصبها بعد آية الشهادة لتزيد الحجة عليهم فقال: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ . . . ﴾آل عمران(٢٦-٢٧)، و معنى"تولج الليل في النهار: تدخل ما نقصت من ساعات الليل في ساعات النهار فتزيد من نقصان هذا في زيادة هذا. وتولج النهار في الليل :و تدخل ما نقصت من ساعات النهار في ساعات الليل فتزيد في ساعات الليل ما نقصت من ساعات النهار ."(١) و معنى تخرج الحي من الميت: "يخرج الإنسان الحي و الأنعام و البهائم و الأحياء من النطف الميتة وذلك إخراج الحي من الميت. و يخرج النطفة الميتة من الإنسان الحي و الأنعام و البهائم والأحياء وذلك إخراج الميت من الحي."(٢) وحسن موقع هذه الآية بعد آية الشهادة و بيان الدين المقبول عند الله ،لأنها تبين عن جلال الله؛ فتحفّز على طاعته ،و الإقبال عليه ؛خاصة أن من أسباب عدم الإيمان بمحمد ﷺ :حسد

---

(١) جامع البيان ٢٢٣/٣ .

(٢) السابق ٢٢٦/٣ . وحمل الشريف الرضي معنى الإيلاج و الإخراج على الاستعارة ،و الأسلم أن أفعال الله لا تشبيه فيها ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تكييف ولا تأويل . (تلخيص البيان في مجازات القرآن.الشريف الرضي ص٢٦.ط١. ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.مكتبة النهضة العربية/عالم الكتب-بيروت) .

أهل الكتاب للعرب أن يكون نبي من جنسهم فيؤول الملك إليهم .وعن موقع هذه الآيات يقول الحرالي :"و لما كان هذا الأمر نبوة ثم خلافة ثم ملكا،فانتظم بما تقدّم من أول السورة أمر النبوة في التنزيل والإنزال و أمر الخلافة في ذكر الراسخين في العلم ... انتظم برؤوس تلك المعاني ذكر الملك الذي آتى الله هذه الأمة،و خصّ به من لاق به الملك كما خصّ بالخلافة من صلحت له الخلافة ،كما تعين للنبوة الخاتمة من لا يحملها سواه ."(1) وهذا نظر في المعاني كيف تجتمع و تفترق ،ثم تعود لتجتمع من جديد دون ملال أو تكرار ،و هو من تصريف القول في التوحيد .

و من جهة أخرى فإن في ذكر الإيتاء و النزع ،و الإذلال و الإعزاز؛ ما يشير إلى محكم آيات الله في كونه ،كما أشار هناك إلى محكم آياته في كتابه . و لما كان من المتشابه إيلاج العزّ في الذّل،و إيلاج الذّل في العزّ ؛صرّح بذكر ما يُعايَن من الولوج في الليل والنهار وفي الكائن القائم ،كما أشار هناك إلى المتشابه من آياته ." فهو سبحانه وتعالى يجعل كل واحد من المتقابلين بطانة للآخر، والجامع فيه على وجه لا يصل إليه منال العقول لما في المعقول من افتراق المتقابلات، فكان في القدرة إيلاج المتقابلات بعضها في بعض وإيداع بعضها في بعض على وجه لا يتكيف بمعقول ولا يُنال بفكر ." (2)

وهذا نظر آخر في تعلق المعاني بعضها ببعض؛نظر قائم على التقابل بين المحكم والمتشابه من وجه ،ونظر قائم على التماثل بين المعاني في ذكر المحكم و إعقابه بالمتشابه. وكله يصب في معنى التوحيد ،و يصرّف القول في معناه .

وكمالا في الثبات في وجه أعداء الدين بيّن البيان القرآني طريق التصدي بالأفعال، فنهى عن اتخاذ المؤمنين للكافرين أولياء من دون المؤمنين إلا إذا كان على طريق التقيا،و ارتفع صوت التهديد الذي نادرا ما نراه موجها للمؤمنين فقال تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ

(1) نظم الدرر ٥٦/٢ .

(2) السابق ٥٦/٢ .

﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ آل عمران (٢٨)، و لما كان ذلك مما يكون في القلوب؛ ذكّرهم تعالى بعلمه بما يخفى في صدورهم مع علمه بما يظهر .و دائرة علمه تعالى لا تتوقف عند هذا الحد، بل تحيط بما في السموات والأرض، فأظهر بذكر المتقابلات من الإخفاء و الإبداء،والسموات والأرض عظيم علمه و قدرته،و ختم الآية بقوله: ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ آل عمران (٢٩). ولمجيء المظهر ﴿ وَاللَّهُ ﴾ بدلا من المضمر معان عظيمة من الجلال والعزة يتلاءم مع ما ذُكر من عزته وجلاله تعالى .

ولما أبان تعالى عن علمه وقدرته المطلقين ؛ذكّر باليوم الذي يجب اتقاؤه؛لأن أعمال العباد كلها مقيدة على التمام والكمال دون نقصان،و كرر تحذيره لعباده بقوله: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ آل عمران (٣٠)؛رفعا لقيمة المعنى المحذر منه،وتأكيدا عليه.ولما كان ذلك التحذير في السابق و اللاحق مما يوقع الرعب الشديد ختم بقوله: ﴿ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ ،فأوقع قلوب المؤمنين موقعها الصحيح بين الرغبة و الرهبة،وذلك حتى يكون أمنع عن فعل المعاصي،و أقدر على فعل الطاعات،و هذا هو الأسلوب المتبع في الخطاب القرآني الموجّه إلى العباد الذي يقصد إلى تربيتهم نفسيا.

وفي الآية من الأدلة على توحيد الله الكثير من مثل: دلائل القدرة و العظمة من الإنشاء والإيجاد و الإيتاء و النزع و إدخال الأشياء في بعضها ونسلها من بعضها دون إخلال بنظامها. و لما كانت المشيئة من مقتضيات القدرة كثّف ذكرها في هذه الآية خمس مرات . ومعاني التقوى تلفها وتشملها .وكان للمقابلة و التقسيم نصيب في إبراز ذلك النظام العجيب مع بيان القدرة من جهة ،وفي خروج الكلام على هيئة المتوازن المنسجم من العبارات من جهة ثانية.

وختم هذا المعنى بما يدل على التبصير و التحذير معا في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ آل عمران (٣١-٣٢) ؛فهو تبصير للمؤمنين بما يحقق محبة الله و مغفرة الذنوب ،وتحذير للكافرين من الكذب والاحتيال ؛لأنهم يدّعون محبة الله دون العمل بها .

ولما كان الأصل في المحبة الاتباع والطاعة؛نبّه الخطاب القرآني على أن اتباع الرسول ﷺ أصل في محبة الله تعالى ،و فيه تعريض بالكفار لعدم صدقهم في محبتهم لله؛ لعدم اتباعهم الرسول ﷺ ،و فيه من الترغيب الكثير؛ لأن محبة الله لهم حاصلة باتباعهم الرسول ﷺ و ذلك فضل من الله عظيم .و للتعقيب بالفاء في قوله: ﴿ فَاتَّبِعُونِي ﴾ أثر في الدلالة على المسارعة المطلوبة في الاتباع،أي: الطاعة .و ساند إشراك الجملة الثانية مع الأولى في قوله: ﴿ يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ آل عمران (٣١) في بلوغ الترغيب أعلى درجاته ؛لبيان عظيم الثواب مع حصول التغاضي عما سلف من الأعمال المشينة .

ثم أردف تعالى الآية السابقة أمرا صريحا بلزوم طاعة الله ورسوله فقال: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ آل عمران(٣٢)؛و ذلك لأنه" لما كانت رتبة الاتباع عليا ؛وليتها رتبة الائتمار ،فهو إما متبع على حب ،و إما مؤتمر على طاعة ،فمَنْ لم يكن من أهل الاتباع فليكن من أهل الطاعة، فكأن الخطاب يفهم {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني} فإن لم تستطيعوا أن تتبعوني فأطيعوني ."(١) و هذا نظر في تراتب الأوامر بعضها على بعض ،أي تراتب المعاني في الذكر ببيان سبب تقدم هذا على ذاك .و فيه نمو لمعنى التوحيد و تصاعد،وبه أقفل هذا المعنى الجزئي .

(١) قاله الحرالّي في نظم الدرر ٢/ ٦٤ .

و مركز المعنى في هذا الجزء :بيان استحقاق الله للتوحيد بلا منازع ،و بسط الأدلة العقلية المنبثة عن هذا المعنى ؛من القدرة والعظمة والإنشاء والإيجاد والتصوير في الأرحام و النزع والإيتاء وإدخال الأشياء في بعضها ونسلها دون إخلال ،مع الحث على التبصر والاستبصار في الملكوت بما يوجب التوحيد لزاما ،و التحذير من الكفر و ولاية غير المؤمنين .ولذلك جاء معنى التبصير والتحذير مكثفا في هذا المعنى بين التصريح والتضمين، فقال في التبصير بلفظه وبما يدل عليه :(الأبصار–بصير (مرتين)–ترى –قد كان لكم آية –قل أؤنبئكم –فإن حاجوك فقل– لا يتخذ المؤمنون).

و قال في التحذير بلفظه وبما يدل عليه :(وقود النار–ستغلبون وتحشرون– –سريع الحساب– –فبشرهم بعذاب أليم–حبطت أعمالهم–ما لهم من ناصرين– يحذركم الله(مرتين)–فاتبعوني).

المعنى الجزئي الثاني من المعقد الكلي الأول :

إثبات بشرية عيسى – عليه السلام – :من قوله: ﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٣٣)،إلى قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (٦٣) .

بعد ذكر الأدلة العقلية على توحيد الله انتقل النظم الكريم إلى لب قضية التوحيد عند النصارى؛و هو ما يتعلق بعيسى – عليه السلام – فافتتح هذا المعنى بذكر قصة آل عمران وبيان توحيدهم ؛من أول قصة امرأة عمران و زكريا و مريم و عيسى [1] –عليهم السلام– و افتتح ذلك ببيان تفضيل آدم و نوح و آل إبراهيم و آل عمران على الناس

(١) سيأتي بيان قصصهم في فصل دلالة اسم سورة آل عمران على مقصودها .

جميعا ؛تربطهم رابطة أقوى من رابطـة النسـب،تربطهم رابطـة الاصـطفاء فقـال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ آل عمران (٣٣) .

و ابتدر بقصة ولادة امرأة عمران لمريم الطاهرة ،و قصة وهبها لخدمة بيت المقدس ،و تقبّل الله لمريم و تكفّله بها ،ثم ذكر تَنَبُّه زكريا — عليه السلام — لتلك الخـوارق ،ودعـاءه بغيـة الولد،و الاستجابة له برزقه يحيى —عليه السـلام– كـل تلـك القصـص إرهاصـات لمجـيء المعجزة المقصودة بالنظر ؛و هي ولادة عيسى — عليه السلام – بدون أب . و فصّل الخطاب القرآني القول في عيسى تفصيلا لم يدع معه شكا في أمره،وجادل أهل الكتاب حتى حـاجّهم بالقول السديد في أسلوب قصصي يعتمد علـى الحـوار المفعـم بالإيمان؛وكـأن فيـه تنبيهـا إلى السلوك الواجـب اتباعـه في الحـوار،ومنه تعريض بأهل الكتـاب و بيـان سوء أدبهم مع سوء معتقدهم، وعطب قلوبهم بالبغضاء والحقد على المؤمنين .

ومركز المعنى في تلك القصص : بيان أن عيسى —عليه السلام — و أمه من البشـر يعتريهمـا ما يعتري البشرية جمعاء مما يكون الإله منزها عنه .و مـا كـان ذلـك إلا لـيُحكِم علـى أهـل الكتـــاب الحجـــة، و يُغلـــق علـيهم دائـــرة الجـــدال ،و هنـــا يتصـــاعد بيـــان قضيـــة التوحيـد؛حتى لا يبقى جدل فيها إلا لمتعنت .

و بعد ذلك جاء ذكر عيسى نبيا يملك من المعجزات ما يقهـر بهـا قومـه، و ذكـر إيمـان البعض به وكفر الآخرين .و الملحوظ أن ذكر تلك المعجزات قـد دعـم بقولـه : ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فقال تعالى: ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ . . . ﴾آل عمـران (٤٩)،و إنمـا كـان ذلـك بيانـا لقصـور عيسى —عليه السلام– عن الألوهية لاقتضائها قيومية ،فجاء مطلع السورة مبينا عنها.

و هـذه المشـيئة تمـد يـدا للمشـيئة المـذكورة في آيـة إيتـاء الملـك ونزعـه في المعنـى الجزئـي الأول،وتعود إليها فهي من باب رد الأعجاز على صدورها ،و هذا المعنى من تصريف القـول في بيان القدرة الإلهية الذي يصب في قلب قضية التوحيد .

وتلا ذكر المعجزات تصريح عيسى –عليه السلام– ذاته بالعبودية فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ آل عمـران (٥١)، وهـذا أصـل في قضـية التوحيد؛فإذا كان من تجعلونه إلها يقر بعبوديتـه لله تعـالى، و يـأمر بعبـادة الإلـه المسـتحق للعبادة ،و يختم قوله بالإشارة إلى أن هذا هو الصراط المستقيم الأحق أن يتبع ؛فإن مـن عـدم إعمال العقول إكمال الطريق في تأليهه ،و إشراكه مع الإله الواحد .

و أردف هذا كله ببيان جزاء المؤمنين ومن يقابلهم من الكافرين .و خرج من كل ذلك بنتيجة قاهرة للجدليات القائمة في ذلك الزمان فقال: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ آل عمران(٥٩) ،و هذا يعني أن خلق عيسى من غير أب مثل خلق آدم من غير أب وأم ،و هو صلب المحاجّـة؛لأن هـذه المقارنـة تـدل علـى بطـلان حجة النصارى، فآدم – عليه السلام– لا أب له ولا أم،ولم يقـل أهـل الأرض قاطبـة ببنـوّة آدم،ولو قـال أحد بذلك فهذا يعني أن آدم أحق بالبنوّة من عيسى.و طالما أن العقـل والنقـل لم يثبتا ذلك؛فهو أوضح دليل على بطلان كلامهم، و حاصـله:أنه لمـا اعترفـتم أن آدم لـيس ابنا لله فاعترفوا أن عيسى كذلك ليس ابنا لله . و سيق هذا المعنى بطريق التشـبيه ؛تحقيقـا للمقصود من المقارنة بغاية الوضوح والظهور،و" إفحاما للخصم وقطعا لمواد الشبهة ."(1) ولمـا سيق التشبيه بطريق التأكيـد بـ(إن) والجملة الاسمية أدى المعنى المطلوب بقـوة مـن بيـان أن خلـق عيسى– عليـه السـلام – لا يختلـف عـن خلـق آدم – عليـه السـلام – فلِمَ كـان الجـدل في عيسى فقط ؟!و لِمَ كـان التأليه لعيسى فقط ؟!

(١) تفسير البيضاوي ١٦٢/١ .

قال الحرالي :جعل سبحانه وتعالى آدم — عليه الصلاة والسلام – مثلا مبدؤه السلالة الطينية و غايته النفخة الآمرية .و كان عيسى — عليه الصلاة والسلام– مثلا مبدؤه الروحية والكلمة ،وغايته التكمل بملابسة السلالة الطينية ."(١) و هذا نظر في انتظام القصص في القرآن الكريم بعضها ببعض،و منه نظر في تناسبها وترتيب ذكرها بما يمد يدا إلى حكمة ترتيب سور القرآن الكريم .

ثم قويت هذه المحاجة بقول الحق تبارك و تعالى بعدها مباشرة: ﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ آل عمران (٦٠)، فالخطاب للرسول ﷺ و لكل من يصح خطابه"على طريقة الإلهاب والتهييج لزيادة التثبيت،و الإشعار بأن الامتراء في المحذورية بحيث ينبغي أن يُنهى عنه مَنْ لا يكاد يمكن صدوره عنه، فكيف بمن هو بصدد الامتراء؟! "(٢) وازدادت هذه الحجة قوة بذكر المباهلة بعدها مباشرة؛لأنها ذات شأن عظيم في وقتهم . ثم أغلق الباب على كل أحد حين قال بعدها: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ آل عمران (٦٢–٦٣) فلما كان القوم مبالغين في الإنكار؛كثّف المؤكدات في العبارة المسوقة فأكدها بـ(إن) والجملة الاسمية ولام التأكيد مع دلالة لفظ ﴿ الحق ﴾ والعطف بالنفي والإثبات الذي يفيد معنى قصر الألوهية على الله تعالى دون غيره،ثم إثبات العزة والحكمة لله بالتأكيد بـ(إن) والجملة الاسمية ولام التأكيد تعقيبا على معنى الآية . والإرداف بالوعيد للمعرضين مع التأكيد ووضع المضمر موضع المظهر؛يرفع درجة الترهيب من الصد والإعراض عن الحجج على توحيد الله . و هذا كله ظهور وبروز لمعنى التوحيد الذي يتغازر في السورة بأكملها .

---

(١) نظم الدرر ١٠١/٢ .

(٢) تفسير أبي السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم .القاضي أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي .وضع حواشيه:عبد اللطيف عبد الرحمن ٣٧٨/١ .ط١ .١٤١٩هـ–١٩٩٩م. دار الكتب العلمية — بيروت/لبنان .

وهذه الآية مع آية الشهادة تعود على الآية الأم في مطلع السورة التي فيها ذكر كلمة التوحيد صراحة ،فهي من باب رد الأعجاز على صدورها .وبهذا الموضوع أقفل هذا المعنى الجزئي الذي اهتم بقضية عيسى – عليه السلام– كأصل في قضية التوحيد .

و مركز المعنى فيه : إثبات بشرية عيسى – عليه السلام– لعدم قيومته بنفسه؛و لذلك جاء تكثيف ما يدل على البشرية التي مهّد بإيحاءاتها في القصص التي تسبق ذكره ،من ذكر الذرية و البطن و الوضع و الذكورية و الأنثوية و الكبر و العقر ،و الحاجة إلى الرعاية و التكفل و الرزق و التطهير،و ما يحصل من البشر؛ من النذر و الاستعاذة من الشيطان والصلاة و التسبيح و القنوت و الركوع و السجود .
و أخيرا نُصّ على الوفاة و الرفع و التطهير و الخلق من التراب .وجاء نسب فعلها إلى الله تعالى تأكيدا لبشرية عيسى– عليه السلام – و قصوره عن الألوهية لفقده أسباب القيومية و الحياة الكاملة الدائمة، وهما من أهم صفات الألوهية .

المعنى الجزئي الثالث من المعقد الكلي الأول :

بيان أن الإسلام أساس الدين: من قوله : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ . . . ﴾ (٦٥) ،إلى قوله : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ (٩٧) .

ابتدأ هذا المعنى الجزئي بالدعوة إلى الاتفاق على كلمة عدل تجمع بين المسلمين و أهل الكتاب من الإيمان بالله وعدم الإشراك به، فقوي المعنى بوصف الكلمة بالسواء([1])التي تعني

---

(١)"السين والواو أصل يدل على استقامة واعتدال بين شيئين،يُقال:هذا لايساوي كذا: أي لا يعدله"(مقاييس اللغة.ابن فارس.مادة (سوى). قال الفخر الرازي:" والسواء هو العدل و الإنصاف ،و ذلك لأن حقيقة الإنصاف: إعطاء النصف...فإذا أنصف و ترك ظلمه أعطاه النصف ،فقد سوى بين نفسه وبين غيره ،وحصل الاعتدال ...فلما كان من لوازم العدل والإنصاف التسوية ؛جعل لفظ (التسوية)عبارة عن العدل ." (التفسير الكبير .المجلد الرابع ٧٦/٨ .)

العدل،و ببيانها بعد إبهامها بقوله: ﴿ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ ﴾ ،ثم بتأكيدها بقوله: ﴿ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ﴾ ؛لأن معنى (ألا نعبد إلا الله) هو عدم الإشراك به .

و لما فصّل النظم القرآني الكريم القول في قضية التوحيد من جهة مايدعيه أهل الكتاب من تأليه عيسى– عليه السلام– تناول القضية من جهة أخرى ،هي جهة إبراهيم — عليه السلام – الذي يدعون نسبته إليهم ،فجاء ذكره وبيان زمنه الذي يسبقهم بكثير،فكيف يكون على دينهم ؟!و أبان أن دينه الذي كان عليه هو الحنيفية السمحة.و اُختص إبراهيم — عليه السلام– بالذكر دون غيره من الأنبياء لمكانه عند أهل الكتاب،و زعمهم أنه منهم،فكأن البيان القرآني يقول: هذا العبد الصالح الذي تنسبونه إليكم مفخرة منكم به كان على التوحيد الذي تكذبون به،و إذا كان ذلك كذلك فإن المؤمنين هم أحق الناس بالانتساب إلى إبراهيم لاتباعهم له،يتقدمهم محمد ﷺ فقال: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران (٦٨) . وذُكر محمد ﷺ؛ لبيان علو قدره وارتفاع شأنه،و بيان أن دينه هو دين إبراهيم– عليه السلام– و المعنى:فإذا قبلتم بإبراهيم و عظمتموه؛ فكذلك الشأن الواجب في محمد ﷺ ، فأغلق دائرة الجدل عليهم في هذه القضية . و بذلك تكون هذه الحجة من ركائز التوحيد التي أسهمت في إثباته و هي من القوة و الظهور بمكان .

وتتابع ورود الاستنكارات على النصارى في أفعالهم من الكفر بآيات الله مع شهادتهم بأنها حق،و من إلباس الحق بالباطل ،و كتمان الحق مع العلم به،و التواطؤ على خداع المؤمنين والتواصي بعدم التصديق إلا لمن تبع دينهم ،ركيزة في الإلماح إلى عدم إعمال النصارى لعقولهم،و في كل مرة كان يوجه إليهم نداء بوصفهم بـ(أهل الكتاب)؛تذكيرا بقيمة هذا الوصف ،و تعريضا بعلمهم الذي لم يستفيدوا منه .وفي كل مرة يخرج الاستفهام عن أفعالهم مخرج استنكار أن تكون صادرة عنهم وهم أهل الكتاب . ومع كل ذلك استل البيان القرآني

بعضا من أهل الكتاب الذين ليسوا على تلك الصفات التي ذكرها فيهم، وكان ذلك ببيان حالهم مع غيرهم حال استدانتهم الأموال فقال: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ﴾ آل عمران (٧٥). و لعل هذا الطريق في بيان حالهم إنما هو لدعم بيان وصف النصارى بمحبة المادة التي جاءت السورة في غير موضع تندد بعدم إغناء المال عنهم شيئا من العذاب، و هو من التناسب في طرق الموضوعات و انعطاف بعضها على بعض . و يعزز ذلك تسمية استبدال عهود الله وأيمانه شراء، و وصف الثمن بالقلة، فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ . . . ﴾ آل عمران (٧٧) ،وذلك تصويرا لحقيقة الخسارة الحاصلة من استبدال الثمين بالخسيس ؛مبالغة في بيان مقدار حقارة العوض للشيء المعوض عنه، وأدل ما يدل عليه تراتب العقاب الحاصل لهم من استبدال الثمين بالخسيس من عدم تكليم الله لهم بما يسرهم، و عدم النظر إليهم نظر تعطف، وعدم تطهيرهم من ذنوبهم مع ما ينتظرهم من العذاب الأليم .

ثم كانت الركيزة الثالثة ؛و هي تربية الله لجميع رسله حين قال: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ آل عمران(٧٩) فليس للأنبياء حق بعد أن رزقهم الله العلم والحكمة، و بعد أن نزّل عليهم الكتاب أن يتجرؤوا عليه تعالى فينادوا بعبادتهم دون الله ؛و لكنه ربّاهم أن يدعوا إلى العلم به تعالى، وأن يأمروا الناس بأن يكونوا ربانيين .([1]) و ما كان للأنبياء كذلك أن يأمروا الناس باتخاذ

(١) الرباني هو: "الحَبْر، ورب العلم.و قيل :الرباني الذي يعبد الرب، زيدت الألف والنون للمبالغة في النسب (لسان العرب. مادة(ربب) .

الملائكة والنبيين أربابا؛لأنه ارتداد بعد التوحيد حيث قال: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ آل عمران(٨٠)

وإنما كان ذلك ردا على النصارى الذين زعموا أن عيسى- عليه السلام – أمرهم بعبادته،فنفى تعالى عن أصفيائه العمل بما يخالفه، و أثبت لهم العمل بما يحقق العلم به.

وأردف البيان القرآني بالركيزة الرابعة ،و هي تقرير الرسل، و أخذ العهد عليهم باتباع محمد ﷺ و نصرته إذا ظهر في زمانهم ،فقال: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ آل عمران (٨١)،و رفع مكانة هذا الإقرار مجيئه مؤكدا باللام و النون المؤكدتين {لتؤمنن-لتنصرنه}،ثم التلفظ به بطريق الاستفهام التقريري،و حضور الجواب معه،ثم أمر الله لهم بالشهادة، وبيان معيته لهم ،كل تلك المعاني أُديت بأسلوب الحوار الذي يشير في خفاء إلى القرب و التواصل .و في المعنى دليل على علو مكان الإسلام على جميع الأديان الأخرى ،و هو من الأمور التي أقامت شأن الإسلام وأكدت أنه أساس الدين .

ووصل المعنى بركائزه الأربع إلى قلب السورة باستنكار ابتغاء غير دين الله بعد هذا البيان، مع استنكار عناد البشر عن الانقياد ،وقد انقادت مخلوقات أقوى منه وأكبر لله رب العالمين، فقال: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ * قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ . . . ﴾ آل عمران(٨٣-٨٤-٨٥)

فالانقياد حاصل من المخلوقات طائعين "بالنظر و اتباع الحجة،و كارهين بالسيف ،و معاينة

ما يلجئ إلى الإسلام ،كنتق الجبل ،وإدراك الغرق، و الإشراف على الموت ."(1) ولذلك جاءت الآيات تطالب بإيمان الخلق بجميع الرسل دون تفريق؛لأن دعواهم واحدة؛هي الانقياد لله،و هو بهذا المعنى يضع قاعدة لا يزحزح عنها ،فلا دين إلا دين الإسلام وإلا فلا قبول، مع إثبات تحقق خسران من جاء بغيره دينا ."و المعنى أن المعرض عن الإسلام،والطالب لغيره ،فاقد للنفع ،واقع في الخسران بإبطال الفطرة السليمة التي فطر الناس عليها ."(2)

و هذا نمو لمعنى التوحيد و تصاعد وصل به الذروة ؛إذ المعاني بعده تنعطف عليه،و هو من جهة أخرى خرج من رحم معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ﴾ آل عمران (١٩) في المعنى الجزئي الأول الذي مهّد لمعنى عدم القبول ببيان الدين المقبول حتى جاء في هذا المعنى و أعلن في صراحة عن عدم قبول غير الإسلام دينا . "و القصد الأعظم بهذا أهل الكتاب مع العموم لغيرهم لإقرارهم بهذا النبي الكريم ،و توقعهم له،عالمين قطعا بصدقه ؛لما في كتبهم من البشارة به."(3)

ولما بيّن البيان القرآني أن الدين المقبول هو الإسلام ولا غير ؛بيّن أن من يمت على غير الإسلام مستحق للعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين،مع الخلود في جهنم دون تخفيف للعذاب،و دون إمهال أيضا،و توبتهم غير مقبولة،و فديتهم مردودة ،و قد ضلوا الطريق،فانتفى وجود الناصر لهم .

واستأنف البيان القرآني المحاجة في إبراهيم – عليه السلام – بعد أن ذكّر المؤمنين بأن الإنفاق مما عزّ على النفس أصل في البرّ؛ و إنما ذكر الإنفاق هنا مقابلة لما ذكر من عدم نفع إنفاق الكفار فداء لأنفسهم – ولو عظم ثمنه – ما لو ماتوا على الكفر، فبيّن أمرين:

---

(١) تفسير البيضاوي ١٦٨/١ .

(٢) السابق ١٦٨/١ .

(٣) نظم الدرر ١٢١/٢ .

الأول: أن الطعام كلّه كان حلالا لبني إسرائيل، و لم يكن شيء منه محرّما إلا ما حرّم يعقوب – عليه السلام– على نفسه خاصة(1)، و الطعام كلّه كان حلالا في الحنيفية، ولم يحرّم شيء فيها – كما صح في النقل– و لو كان بنو إسرائيل على دين إبراهيم – كما يزعمون – لما حرّموا شيئا من الطعام على أنفسهم .

والأمر الثاني: أن البيت الحرام هو أول بيت وضع لعبادة الله في الأرض وبناه إبراهيم – عليه السلام – وقصده الناس للحج، وهذا دليل على صحة نبوة محمدﷺ لأن الإسلام امتداد للحنيفية، فإذا صدّقتم بإبراهيم فكذلك الحال مع محمد ﷺ .

و مما يسهم في محاجة أهل الكتاب تقريرهم بشهادة الله عليهم وشهادة أنفسهم على كفرهم بالآيات، و بأمر محمد ﷺ مما يومئ إلى شناعة فعلهم وسوء تقديرهم. و كل أنواع المحاجة السابق منها و اللاحق إنما ليُفهمهم في أناة انتفاء العلم الذي كانوا قد شُهروا به؛ لأن عدم الانتفاع بالعلم يقتضي عدم العلم أصلا.

و مركز المعنى في هذا الجزء: بيان أن الإسلام هو دين الحق ولا غير، و لن يقبل غيره عند الله، و لذلك كثّف ذكر ما يدل على معنى الإسلام في هذا المعنى من قوله: ﴿ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ﴾، وقوله: ﴿ وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾، وقوله: ﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾، و ذكر {الإسلام} بلفظه ثماني مرات، و ذكر {الإيمان} ست مرات. مع ذكر {نفي الشرك} ثلاث مرات، و ذكر {الكفر} اثنتي عشرة مرة .

(1) عن ابن عباس–رضي الله عنهما– أن إسرائيل أخذه عرق النساء، فطار ببيت فجعل أن شفاه الله أن لا يأكل لحما فيه عروق، قال: فحرمته اليهود فنزلت ﴿كُلُّ الطَّعَامِ ﴾ (المستدرك على الصحيحين. كتاب التفسير. رقم الحديث(٣١٥٢) تفسير سورة آل عمران ٢/٣٢٠) . و (ينظر الدر المنثور. عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي ٢/ ٢٣٦ .١٩٩٣ .دار النشر – بيروت) .

وبالنظر إلى العلاقة الرابطة بين الأجزاء الثلاثة نجدها علاقة تسلسلية منطقية، فلما كان المعنى الجزئي الأول يبين بالأدلة القطعية استحقاق الله للتوحيد عن طريق إدراك شيء من كنه الحياتية و القيومية بذكر بعض أفعاله تعالى؛ جاء المعنى الجزئي الثاني ليثبت أن الله هو المستحق ،مع عدم استحقاق عيسى– عليه السلام – للتأليه لانقطاعه عن الحياتية والقيومية اللازمة للمعبود المستحق للتوحيد، و إثبات ذلك كان عن طريق إثبات الضد والعكس أي عن طريق إثبات البشرية له – عليه السلام – و فيه نوع من التقابل .

ولما أثبت في المعنى الأول أن الله هو المستحق للعبادة لتوافر صفات الألوهية فيه ،وجاء المعنى الثاني يبين عدم إمكان وجود شريك معه بإثبات بشرية عيسى – عليه السلام– ؛وجب التسليم و الانقياد أن لا إله إلا واحد ،ولا دين غير دينه كما أبان عن ذلك المعنى الجزئي الثالث .فبين المعاني الثلاثة تتميم لقضية التوحيد .

المعقد الكلي الثاني من سورة آل عمران :

تربية النفوس على التصدي عمليا للتيارات المضادة للإسلام: من قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى . . . ﴾ (٩٨) ، إلى قوله : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ . . . ﴾ (١٨٩) .

وقام به ثلاثة أجزاء :

المعنى الجزئي الأول من المعقد الكلي الثاني :

كيفية التصدي للتيارات المضادة من خلال العمل بمقتضى تميّز المسلمين عن الأمم الأخرى و أهل الكتاب خاصة : من قوله : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٩٨)، إلى قوله : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ . . . ﴾ (١٢٠) .

افتتح هذا المعقد بخطاب أهل الكتاب باستنكار كفرهم بآيات الله الواضحات، و استنكار صدهم من آمن عن سبيل الله، و كرر الخطاب مع كل استنكار لهم ؛ "مبالغة في التقريع ونفي العذر لهم ، و إشعارا بأن كل واحد من الأمرين مستقبح في نفسه مستقل باستجلاب العذاب." (1) وقرن بهم مباشرة خطاب المؤمنين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ آل عمران (١٠٠)، وأقام البيان القرآني خطابه مع المؤمنين على ركائز عديدة ؛ تحقيقا لحصول الاجتماع وعدم التفرق من جهة، وتحقيقا لمعنى تميّزهم عن أهل الكتاب ؛ فحذرهم من طاعة بعض أهل الكتاب لما تنطوي عليه نفوسهم من الحسد والكره، واحترس بقوله: ﴿فَرِيقاً﴾ كي لا يشمل أهل الكتاب كلهم، لما ذُكر من حسن إيمان بعضهم . ثم ثنّى بأمرهم بتقوى الله، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ آل عمران(١٠٢) ووصف التقوى بقوله: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ فبلغ بمعنى التقوى الغاية والقمة ؛ "وهو استفراغ الوسع في القيام بالواجب والاجتناب عن المحارم ." (2) كما نهاهم عن الموت إلا على الإسلام تتميما للتقوى. وأمرهم بالتمسك بدين الإسلام و عدم التفرق فيه، وأقام هذا المعنى بطريق الاستعارة التصريحية الأصلية ؛ ترغيبا في التمسك بالدين و الالتجاء إليه فقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ . . .﴾ آل عمران (١٠٣) .

---

(١) تفسير البيضاوي ١٧٢/١ .

(٢) السابق ١٧٣/١ .

و لما كان النهـي عن التفرق أقـوى مـن الأمـر الصـريح بالاجتمـاع([1]) ؛عقـب بـه بعـد الأمـر بالاعتصام بالدين ،فكان تأكيدا للأمر بالاعتصام .

ويقع هذا النهي وذلك الأمر موقعهما ذكّر المؤمنين بنعمة الاجتماع والألفة والأخوة بعد العـداء والتناحر،وساقه بطريق الاستعارة التمثيلية ؛بيانا لعظم الفضـل،وجلل الخطـر دون الهدايـة. والصورة في الآية "صورة من ذلك الكيد الذي تكيده يهود دائما للجماعة المسلمة...فهي تشي – مع ما قبلها في السياق ومـا بعدها – بأنه كانت هناك حركة دائبـة مـن اليهـود لتمزيـق شمل الصـف المسلم في المديـنة، و إثـارة الفتنـة و الفرقـة بكـل الوسائـل . و التحـذيرات القرآنية المتوالية من إطاعة أهل الكتاب، و من الاستماع إلى كيدهـم ودسهم ومـن التفرق كمـا تفرقـوا ... هـذه التحذيرات تشي بشدة ما كانت تلقاه الجمـاعة المسلمـة من كيـد اليهـود في المدينة ."([2])

وهـذه نظرة تكامليـة بين الصـورة في مـوقعهـا من الآيـة و في موقعها مـن الـنص ،و هـو سـر اتصالها بما قبلها من الاستنكارات المذكورة في حق أهل الكتاب و أعمالهم .

ولمـا قـال بعـده: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ . . . ﴾ آل عمـران (١٠٤) أعلـم أن قضـية الاجتمـاع هـذه يلـزم أن تكـون بفائـدة وهـي عمـارة الأرض بـالخير والقضـاء علـى الشـرّ.وأقـام المعنـى علـى التجريد؛مبالغـة في كمـال المخاطبين،وكـأن ذلـك الوصـف قـد تمكـن مـنهم ،و كمـل فـيهم حتـى أصـبحوا يفيضـوا بأمثـالهم ،وهـذا سمـوٌ بمعنـى التميـّز .وأسـهمت المقابلـة بـين

---

(١) قال عادل حسني:كلمة {تفرقوا} تحضر إلى ذهنك هيئة التشعث و التمزق، وهما منفّرتان، وتجلب صورة الضعف والذلة إلى العين .وهي كذلك تحضر صورة الفرقة و الاختلاف التي كان عليها أهل الكتاب مما يسهم في التنفير منهـا. (بابة في البلاغة والبيان.نمو المعاني .دراسة تحليلية لسورة آل عمران صـ١٥٢) .

(٢) في ظلال القرآن ٤٤٣/١ .

معنى الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر في ظهور الوصف الذي يجب على المؤمنين التخلق به .

و لما كان قد نهى عن التفرق على سبيل الإجمال ؛فصّل القول فقال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ . . . ﴾ آل عمران (١٠٥)، وإنما كرر النهي عن التفرق لأنه مطية الاختلاف الذي اتسم به أهل الكتاب، وهذا المعنى يدعم قضية الاجتماع التي جاء البيان القرآني يؤسس لها مع المؤمنين . ولما أبان النظم الكريم عن مواصفات الأمة الإسلامية من الدعوة إلى الخير بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ؛أعلم أن من فاز بالفلاح المذكور هم أمة محمد ﷺ ،فقد تميزت بالخيرية على باقي الأمم؛لأن العمل من شأنها؛ فهي آمرة بالمعروف،ناهية عن المنكر. و فيه إشارة إلى عزّتهم، حيث أردف مباشرة ببيان عدم قدرة أهل الكتاب على مضرّة المؤمنين إلا ما وقع منهم من دعوة المؤمنين إلى الضلال،أما على صعيد التطبيق ،فقد وعد الله المؤمنين النصرة ،و أوعد الكافرين الهزيمة و عدم النصرة ،فقال: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ سورة آل عمران (١١١)،ثم أكد تعالى على ذلة المشركين،وزاد المعنى ببيان استحقاقهم للغضب و المسكنة،و ما كان ذلك إلا مجانسة لأعمالهم .و هو يمد يدا إلى المعنى الجزئي الأول من المعنى الكلي الأول الذي ذكر فيه مآل الكافرين من التبشير بدخول النار ،و حبط الأعمال، فكان من رد الأعجاز على صدورها .

ولما كان الإسلام دين الحق و الأساس ؛كان من شأنه أن تكون نظرته منصفة،فاستل البيان القرآني بعضا من أهل الكتاب حسنت أفعالهم وحسن إسلامهم من دائرة العذاب؛بل وأدخلهم في زمرة المؤمنين الآمرين بالمعروف،والناهين عن المنكر فقال: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ

﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ آل عمران (١١٣-١١٤-١١٥)

ولما كانت المعاني الثلاثة ؛التقوى والصبر والإنفاق تسير جنبا إلى جنب في السورة، فتلتقي حينا، وتفترق حينا آخر ،و تظهر مرة ،وتنزوي أخرى ؛جاءت في بداية المعقد الثاني لتجتمع مرة أخرى،و ذلك حين أكد تعالى عدم إغناء الأموال والأولاد شيئا من العذاب، فكان بروزا لمعنى الإنفاق مع التقوى ،في حين يأتي معنى الصبر متواريا في جنبات المعنى المذكور، فأكد النظم الكريم معنى كان أسسه فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئاً وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ آل عمران (١١٦) وكان قد قال في المعنى الكلي الأول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئاً وَأُولَـئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ آل عمران (١٠) وهاتان الآيتان من المتشابه في السورة[1]الذي يقصد إلى تتميم المعاني .

(١) لما قرر تعالى أن الذين كفروا لن تفيدهم الأموال ولا الأولاد حين الحساب،وهم وقود النار أي:حطبها الذي يزيدها استعارا واتقادا فقال: : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئاً وَأُولَـئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ عاد ثانية في المعنى الكلي الثاني وقرر خلودهم في النار؛تأكيدا على عدم خروجهم منها فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئاً وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لأنه لما كان الحطب يُحرَق والجمر يرمد إذا استعملا لاتقاد النار فيُبعَدا بعدها ولا يُستفاد منهما مرة أخرى،وربما يُظن أن حال الكفار مثل الوقود؛أكد على خلودهم في النار واستحالة خروجهم منها على الدوام-والله أعلم- فكانت الآية الثانية متممة لمعنى الآية الأولى .

ويسير عنصر الإنفاق ظاهرا ببيان ضياع أعمال الكافرين الخيّرة من الإنفاق والتصدق بتشبيه تمثيلي(١) فقال: ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَـٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ آل عمران (١١٧) ترهيبا من الكفر المسبب لضياع الأعمال "و المراد تشبيه ماأنفقوا في ضياعه بحرث كفار ضربته صر فاستأصلته ولم يبق لهم فيه منفعة ما في الدنيا و الآخرة ."(٢)

ووضع النظم الكريم في بداية هذا المعقد الحد الفاصل بين المسلمين و أهل الكتاب في الحال والمآل، فأبدى خفايا نفوس أهل الكتاب، و أطلع المؤمنين عليها، فخاطب المؤمنين بتحذيرهم من طاعة أهل الكتاب، و من تصديقهم، وأعلمهم بمقدار البغضاء الذي يكنه أهل الكتاب للمؤمنين، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ آل عمران (١١٨). فنهاهم عن اتخاذ أهل الكتاب أصدقاء وأولياء، وحذّرهم أن يُحلّوا من أهل الكتاب مَنْ يكون

---

(١) شبه حال إنفاق الكفار وإعجابهم بما أنفقوا ،وضياع أعمالهم وعدم تقبّلها بحال إنفاق قوم على حرث لهم وإعجابهم بما فيه من الثمر والجنى ،وإصابة حرثهم بريح باردة أهلكت زرعهم وحصادهم، وذلك على سبيل التشبيه التمثيلي ،والجامع :الهيئة الحاصلة من الجهد المبذول و الإعجاب به مع ضياع فائدته وعدم الاستفادة .و من بلاغة التشبيه تصوير الأعمال والجهد المبذول لتحسينها صورة الأرض التي يقام على بذرها وغرسها وريها وزرعها والعناية بها حتى إذا جاء وقت الحصاد وتشوّف أهلها لجني ثمرها ،فإذا ريح باردة تعصف بأكلها فلا يستفيدون منها؛ ترهيبا من الكفر بالله و ترغيبا في الإيمان به . ويزيد الاحتباك من سمو هذا التشبيه ووجازته وقوته فحذف من المثل الأول ضياع أجر أعمال الكفار لدلالة الريح عليه في المثل الثاني .وحذف الحرث من الثاني لدلالة ما ينفق عليه في الأول .وهذا المعنى يمد يدا إلى معنى الحبط المذكور في قوله تعالى : ﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ آل عمران(٢٢) في المعقد الكلي الأول ويؤكد عليه، فاستعار الحبط لضياع الأعمال؛ فشبه ضياع أعمال الكفار في الدنيا و الآخرة بسبب الرياء بضياع الفائدة من الطعام الذي تأكله الماشية بسبب النكس أو الداء الذي يصيبها في بطنها عند إكثارها من الأكل على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية. و ذكر هذا المعنى بطريق التشبيه التمثيلي ومن قبل بطريق الاستعارة من باب تصريف القول في المعنى الواحد بطرق مختلفة .

(٢) تفسير البيضاوي ١٧٦/١ .

مطلعا على أسرارهم ،وأبان عن سبب هذا النهي من عدم تقصيرهم في الإفساد،ومن محبتهم لعنت المؤمنين، ومن إيذائهم لهم بالقول الذي يعد قليلا بالنسبة لما تخفيه صدورهم التي لا يعلمها إلا الله .ولم يكتف البيان القرآني بتحذير المؤمنين من اتخاذ أهل الكتاب أصدقاء، بل نبّههم إلى معنى سيذكره ،فقال: ﴿ هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ آل عمران(١١٩)،و هو خطاب للمؤمنين الذين أحبوا أهل الكتاب، و تنبيه لهم على خطئهم في صرف المحبة لهم ؛بسبب أن أهل الكتاب لا يحبون المؤمنين،بل و يحقدون عليهم ،وأسهم الطباق السلبي بين قوله: ﴿ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ ﴾ في ظهور المعنى و رسوخه.

ووصل بمعنى غيظهم لأعلى غاياتة بالكناية بقوله: ﴿ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ومما زاد هذا التصوير بعدا في الغاية وتوغلا في الصدور؛ مجيء (إذا) المحققة لحصول ندمهم وقهرهم من المؤمنين،وإردافه تعالى بالدعاء عليهم بالهلاك حين قال: ﴿ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ﴾ ، وأكد البيان القرآني على معنى كان أسسه في بداية هذا الجزء،وهو عدم مقدرة الكفار على مضرة المسلمين وذلك حين قال: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ آل عمران(١١١)، ولكنه هذه المرة اشترط لها قرن الصبر مع التقوى ،فقال: ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ آل عمران (١٢٠)،وهما من المعاني التي ستسير مقترنة في هذا المعقد خصوصا .

ومركز المعنى في هذا الجزء: تثبيت قلوب المؤمنين ببيـان عدم مقدرة الكفار على مضرتهم وبالأمر بالاجتماع وعدم التفرق ،وبالأمر بموالاة المؤمنين ،والنهي عن اتخاذ غيرهم بطانة وبالأمر بالدعوة إلى الخير،والنهي عن المنكر،وبكشف خبايا أعدائهم ،وبيان شدة عدائهم للمؤمنين .

وإنما جاء هذا المعنى تمهيدا لما سيذكره من طلب الثبات وعدم الخوف من الأعداء في ساحة المعركة في المعنى التالي له .

المعنى الجزئي الثاني من المعقد الكلي الثاني :

كيفية التصدي للتيارات المضادة من خلال معرفة أسباب الفشل في غزوة أحد :من قولـه تعـالى: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٢١)،إلى قـوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ (١٥٥) .

يفتتح المولى هذا المعنى بالتذكير بالانتصارات المحققة في غزوة بدر، و بالتذكير بالنعم من عصمة الطائفتين (بني حارثة وبني سلمة) من الفشل،ومن العزة بعد المذلة، والتبشير والاطمئنان بالإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة، ثم بخمسة آلاف؛ليهيئ المؤمنيـن ويثبتهـم حين مواجهة الكافرين،و كان التأكيد بضرورة قرن الصبر و التقوى لحصول النصر من الله مرغبـا في الثبـات كذلك،فقال الله تعـالى: ﴿بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ . . . ﴾آل عمران (١٢٥)،وأردف ذلك الوعـد ببيـان السبب؛ فالفـوز ببدر آية على نصرة الله لعبـاده دون فضـل منهم –إن ساروا على الطريق المستقيم– وهي البشارة للمؤمنين حتى تُثلج صدورهم بالنصر على الكافرين، وهي التأديب للكافرين بحصول الخزي والذلة.

وانتقل النظم القرآني من غزوة بدر ليدخل في غزوة أحد و الدروس المستفادة منها، وكأن ذكر غزوة بدر تمهيد لتفصيل البيان في غزوة أحد، فأبان عن أسباب النصر الذي لن يكون

إلا من عند الله تعالى دون فضل للنفس البشرية فيه .فابتدر البيان القرآني بما حقه الشرف من الذكر فقال: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ سورة آل عمران (١٢٨)، فكان عتابا للرسول ﷺ لدعائه في الصلاة على الأعداء باللعن .و بذلك نُزع تصرف المخلوق في ملك الله حتى لو كان ذا مقامٍ شريفٍ؛و لذلك أردف بقوله: ﴿وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ سورة آل عمران (١٢٩)،فوقعت موقعها من النفس،و ساعدت على ترسيخ المعنى .ثم عقّب بالدرس الثاني وهو خاص بالمؤمنين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ آل عمران (١٣٠)،ووجه كون هذه الآية درسا من الدروس المستفادة من غزوة أحد رغم أن ظاهرها تشريعي بحت:" أنه لما .. كان أعظم المقتضيات للخذلان تضييعهم للثغر الذي أمرهم النبي ﷺ بحفظه بسبب إقبالهم قبل إتمام هزيمة العدو على الغنائم ؛للزيادة في الأعراض الدنيوية التي هي معنى الربا في اللغة،إذ هو مطلق الزيادة أقبل تعالى عليهم بقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ} ."(١) و مما يُعزّز هذا النظر؛أن آية النهي عن أكل الربا أُردفت بأمرين ،الأول: الأمر باتقاء النار .و الثاني: الأمر بطاعة الله ورسوله . ومعلوم أن فشل غزوة أحد إنما كان بسبب عصيان بعض المسلمين أوامر الرسول ﷺ بعدم براح أماكنهم ،و إذا ما حصلت التخلية بهذين الأمرين ؛جاءت التحلية بعد ذلك بالأمر الثالث،و هو المسارعة إلى المغفرة من الرب وإلى الجنة الواسعة جدا التي رغب إليها بالتشبيه فقال: ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ

---

(١) نظم الدرر البقاعي ٢ / ١٥٢. تكلم العلماء عن مناسبة اتصال هذه الآية بما قبلها؛فذكروا ما قاله القفّال -رحمه الله-:" يحتمل أن يكون ذلك متصلا بما تقدم من جهة أن المشركين إنما أنفقوا على تلك العساكر أموالا جمعوها بسبب الربا، فلعل ذلك يصير داعيا للمسلمين إلى الإقدام على الربا حتى يجمعوا المال و ينفقوه على العسكر فيتمكنون من الانتقام منهم فلا جرم نهاهم عن ذلك " (التفسير الكبير ٩ / ٣. و مثله في التحرير والتنوير ٨٤/٤. ومثله في روح المعاني ٢٦٩/٢)

أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾آل عمران (١٣٣)،ولعل في هذا الأمر الأخير ما يُشير إلى نوع المسارعة الواجب مراعاتها من قِبَل المؤمنين،ولعله تعريض بمسارعة المؤمنين إلى الغنائم،و فيه بيان أنها من عرض الدنيا ولا طائل من ورائها.

وتتابعت دلالات معنى التقوى والإنفاق والصبر فاتحدت مرة أخرى في سياق واحد،فبيّن تعالى أن هذه الجنة أعدت للمتقين، ووصفهم بأنهم المنفقون في السراء و الضراء،أي الذين لم ينل المال حظا من أنفسهم؛ تعريضا لمن أقبل منهم على مغانم الدنيا.

ومن صفاتهم كذلك :أنهم الكاظمون الغيظ إذا ماأُغضبوا ،ولعل فيه إشارة إلى مغبّة كظم غيظ الذين قُتل أهلوهم أو جرحوا في أحد، ومنها أنهم العافون عن الناس المتجاوزون عمن ظلمهم،وفيه كذلك بيان فضل العافين عمن مثّل بأهل المسلمين يوم أحد، و لا يخفى معنى الصبر المضمّن في كل تلك الصفات المكنونة في المتقين .

فصفات المتقين – كما رأينا – ذات علاقة وطيدة بالثبات في وجه الأعداء،وهذا هو سر اتصالها بالمقاصد الكبرى في السورة .

ومن الدروس المستفادة أيضا التي من شأنها تثبيت قلوب المؤمنين:رؤية وقائع الأقوام السابقة وآثارهم لتتجلى نصرة الله للمسلمين،فقال: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ*هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾آل عمران (١٣٧-١٣٨)، فجعل حصول الاتعاظ منوطا بالتقوى،و كأنها من باقي صفات المتقين التي ذكرها قبل قليل . و الإشارة إلى ما سبق إشارة تعظيم ،والإتيان بالمصادر {بيان– هدى– موعظة }دون التقييد بزمن معين فيه دلالة على تعظيمها،و كأن هذه الآية تعقيب على كل ما سبق بيانه ببيان موقع و مكان ما سبق ذكره من الدروس المقدمة للمؤمنين من الأهمية . يقول البقاعي عن هذه الآيات:"و لما فرغ من بيان الزلل الذي وقع لهم به الخلل،و الترهيب مما يوقع فيه،و الترغيب فيما ينجّي منه في تلك الأساليب التي هي أحلى من رائق الزلل،و لذيذ الوصال،بعد طول المطال؛ أخذ يشجعهم على الجهاد لذوي

الفساد ،فبدأ بالسبب الأقوى ؛و هو الأمر بمشاهدة مصارع مَنْ مضى من المكذبين برؤية ديارهم ،وتتبع آثارهم ."(1) فكأن مامرّ من الامتنان بنعمة غزوة بدر ،والتذكير بأخطاء يوم أحد ،و الترغيب في صفات المتقين — كأن كل ذلك تحفيز على الجهاد الذي سيتلو ذكره حين قال: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ آل عمران (١٣٩–١٤٠) .و من دواعي التثبيت: أن أردف الحق –تبارك و تعالى– ذلك البيان بوصف المؤمنين بأنهم الأعلون الغالبون بإذن الله و إن أُصيب منهم مَنْ أُصيب،و إن بادرتهم الهزائم حينا من الدهر؛ لأن ذلك إنما يكون ابتلاء من الرب تعالى . و تُوّج هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ آل عمران (١٤٢) وفيه بروز لمعنى الصبر الذي ينبغي أن يتحلى به المؤمنون ؛ليحصل لهم دخول الجنة .

وكأن كل ما سبق من دروس إنما هي تمهيدية أوهي انتقالية تدريجية من تربية النفسيات والعزائم إلى التربية العملية ، فبدأ الخطاب يواجه المسلمين بهفواتهم واحدة تلو الأخرى موضحا الموقف السليم المنشود منهم . ولأنهم الأعزة فقد عاتبهم على اهتزاز نفسياتهم وعدم استقرارها حين شاع بين المسلمين مقتل الرسول ﷺ . و لما كان صحابة رسول الله ﷺ يعتقدون في محمد ﷺ الجمع بين صفتي الرسالة و الخلود؛جاء البيان القرآني ليقصره على صفة واحدة هي الرسالة بدلالة القصر فقال: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ . . . ﴾ آل عمران (١٤٤) تعليما للمؤمنين بانتفاء خلود النبي ﷺ بين ظهرانيهم ،و هو يُمهد لهم من جانب

(١) نظم الدرر ٢ / ١٥٨.

آخر حتى يخوضوا معترك الحياة الإسلامية من غيره لأنه رسول فقط ،ودين الله باق إلى قيام الساعـة .

ولما بين لهم ذلك ،دلّهم بعدها على المبتغى فقال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ آل عمران(١٤٦ – ١٤٧) ،وضمّن كل ما سبق معنى التقوى الذي يُعتبر ركيزة أساسية في هـذه السورة ،و صرّح بالصبر. و الملحوظ أن ذكر الصبر تـلازم مـع التقـوى في هذا المعقـد نتيجـة لأنـه المعقد العملـي التطبيقي التعليـمي في سـاحة القتـال، و التقـوى أصـل في الصبر،و لا يكون الصبـر إلا بهـا.

هذا كلـه تعليـم بأخذ العظة و العبرة من الأمم السابقة،و بالتعريض بمواقفهم التي مـروا بهـا من الضعـف والـوهن،و ببيـان الموقـف البـديل السـليم الـذي أردفـه مباشـرة بثوابـه مـن الله فقال: ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ . . . ﴾ آل عمـران (١٤٨). و لمـا كـان موضوع المداهنة للكفار قد ينتج عنه تأثر بآرائهم ،ثم طاعة لهم ؛ وجه البيان القرآني النـداء إلى المؤمنين و حذرّهم ثانيـة من طاعـة الـذين كفـروا ؛لعودهـا علـيهم بالخسـران . و عقـب بذكر ولايته تعالى للمؤمنين التي تغنيهم عن كل ولاية ،ودلل عليها بتذكيرهم بالنعم في أُحـد الواحدة تلو الأخرى، كما ذكّرهم قبل ذلك بنعمـه في بـدر،فكان تـذكيرا علـى تـذكير لإفـادة تأكيـد كـون النعـم مناطها الطاعـة وعـدم العصيـان على إطلاقهمـا ، فكانت النعمـة الأولـى و هـي إلقـاء الرعـب في قلــوب الكفـار،و قتـل الكفـار الـذي عبــر عنـه بقولـه: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ﴾ و العفو عمن ضعف و تراخى إلى الغنـائم وعمن تنازع منهم فقصه بوصف ممثـل للعـين فقـال: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غُمّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا

﴿ أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾آل عمران(١٥٣) فصوّر صعود المؤمنين و إبعادهم في الأرض،و انشغال كل بنفسه ؛حتى أن أحدا لا يقف لأحد و لا ينتظره ،و الرسول من خلفهم يدعوهم : إلي عباد الله، فما اجتمع إليه إلا نفر قليل – صوّر ذلك كله و كأنه مشهد حصل في التو واللحظة ،و تلك براعة في التصوير يمتاز بها أسلوب القرآن الكريم .

ومن نعمه تعالى على عباده المؤمنين :أن أثابهم غما بغم، كل ذلك صُوّر حتى بدا للمتلقي مشهدا ممثلا.و من فضله تعالى:أن امتن على المؤمنين بإلقاء النعاس عليهم ليسكن روع قلوبهم.ومن نعمه: فضح أقوال المنافقين . ومنها كذلك:العفو عمن انهزم وفرّ يوم لقاء المسلمين مع المشركين بأحد .

وأقفل هذا المعنى الجزئي بتأسيس معنى مهم يضرب بالترغيب في الجهاد؛وهو أن الموت إذا كُتب على قوم خرجوا إليه لأي سبب سواء رغبوا فيه ،أو رغبوا عنه .

ومركز المعنى في هذا الجزء: بيان أن النصرة بيد الله يهبها لمن يشاء،وفيه تثبيت للمؤمنين خاصة بعد تعداد أخطائهم في أحد. وفيه بيان حصول المغفرة والعفو من الله،حيث ذكرت المغفرة ست مرات ،والعفو ثلاث مرات ،وجاء ذكر التمحيص مرتين .

المعنى الجزئي الثالث من المعقد الكلي الثاني :

كيفية التصدي للتيارات المضادة من خلال معرفة الحد الفاصل بين المؤمنين والمنافقين ومن يشابههم من اليهود :من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى . . . ﴾(١٥٦) إلى قوله: ﴿ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ . . . ﴾(١٨٩) .

افتتح هذا المعنى بنداء المؤمنين لتنبيههم إلى معنى مهم ؛هو نهيهم عن التشبه بالمنافقين الذين يعتقدون أن الموت مقرون بالخروج من الديار؛وذلك لأن الحياة و الممات بيد الله وهو كائن لا محالة، فلأن يكون موت في سبيل الله خيرا من جمع حطام الدنيا .و تُوّج هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ آل عمران (١٥٨) فعلى أي وجه كان الهلاك فإن المصير إلى الله كائن لا غير ،وأسهم تقديم الجار والمجرور في بيان اختصاص الله بمحشر الناس إليه .وفيه بروز لمعنى التقوى مع تضمن معنى الصبر والإنفاق . وفيه حث على الجهاد والموت في سبيل الله،و الطمع في المغانم الأخروية بدلا من المغانم الدنيوية.

ولما حبّب البيان القرآني إلى المؤمنين الموت في سبيل الله ؛ذكّرهم بأفضل النعم ،و هي إيداع الرحمة في قلب محمد ﷺ،و الليونة لأصحابه،و رغبهم في الجهاد ثانية بحصر حصول النصرة في التوكل على الله وحده ،و الخذلان في نقيضه .وأسهم تقديم الجار والمجرور في بيان معنى اختصاص الله بالتوكل عليه في النصرة المنشودة .ثم أتبعه بتنزيه نبيه من الخيانة في الغنيمة فقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ آل عمران (١٦١)؛لأنه " لما كان الغلول من أعظم موجبات الخذلان أو أعظمها ،والنزاهة عنه من أعظم موجبات النصر؛ كان أنسب الأشياء تعقيب هذه الآية بآية الغلول بيانا؛لأنه كان سبب هزيمتهم في هذه الغزوة ."(١) وهذا يعني زهده في الحظوظ الدنيوية،و تحمله الأذى في سبيل الله،وهو يرمي في معانيه الثانية إلى اتخاذه ﷺ قدوة في منهجه.ولما كان ذلك كذلك ؛ذكر المنة على العباد ببعث الرسول ﷺ يتلو عليهم آيات الله،و يعلمهم الكتاب والحكمة من بعد الجهل والضلال الذي كانوا يركنون إليه"وتخصيصهم مع أن نعمة البعثة عامة لزيادة انتفاعهم بها ."(٢)

---

(١) نظم الدرر ١٧٤/٢ .

(٢) تفسير البيضاوي ١٨٨/١ .

و لما كانت الطاعة وعدم العصيان من أهم ما يميّز المؤمنين عن غيرهم شدّد على هذا المعنى بتذكيرهم بخطئهم يوم أحد، فقال: ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ . . . ﴾ آل عمران (١٦٥-١٦٦-١٦٧)

فلا يجب التعويل على الانضمام تحت راية الإسلام في ابتغاء النتائج ؛إنما المعوّل على السمع و الطاعة ؛ليتم تمييز المؤمنين من المنافقين .

و لما كانت قضية الموت والخروج له من أهم السموم التي يغذي بها المنافقون بعضهم بعضا وغيرهم من المؤمنين ؛جاء بيان أن هذا الموت إذا جاء وقته لا يقدمه أو يؤخره خروج أومكوث و لو حصل الموت لكانت شهادة في سبيل الله،و لكانت أرواح الأموات حية متنعمة ،و لكانوا فرحين مستبشرين بالذين من خلفهم؛ولذلك قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران (١٦٩-١٧٠-١٧١)، ففصّل فيما سيلقاه المؤمنون حين الشهادة في سبيل الله من الأجر و النعيم، و كان قبل ذلك قد أجمله حين قال: ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ آل عمران (١٥٧) .

و عزز البيان القرآني استجابة الصحابة لرسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد بعد أحد، فأشاد بهم وبصنيعهم ،و حذّر مما يضعف الاستجابة و الطاعة من الاستماع لتخويف الشيطان .

و هذا كله تضامن بين معنيي التقوى و الصبر، في حين يتوارى معنى الإنفاق قليلا.

ولما أبان ما يكون عليه المنافقون من الكفر و التكذيب جاء نهي الرسول ﷺ عن الحزن عليهم، و أومأ إليهم بعملهم ولم يذكر اسمهم فقال: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ آل عمران (١٧٦)، فأقام وصفهم على المجاز المرسل ؛مبالغة في بيان مقدار سرعة استجابتهم إلى دواعي الكفر ،مع بطء استجابتهم إلى دواعي الإسلام بطريق التبع ،وتشنيعا لموقفهم من الدين مع التنفير منه . ولما أبان النظم الكريم عن ارتدادهم و نهى النبي عن الحزن عليهم ؛صرّح بعدم مضرة الله بهذا الكفر، وصوّر رجوعهم بالخسران و المضرة على أنفسهم بالاستعارة ،و عزز هذا المعنى التأكيد في صدر الجملة. وهذان المعنيان يضربان من قريب بسهم في التمييز بين المؤمنين والمنافقين الذي عُني به هذا المعنى الجزئي؛حتى قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ آل عمران (١٧٩)

و لما كانت أفعال أهل الكتاب تتشابه مع أفعال المنافقين ؛أردف بتذكيرهم بفعلهم الدال عليهم ولم يذكرهم صراحة، مع تهديدهم من رذيلة البخل ،لأن كل ما بخلوا به سيكون طوقا عليهم في أعناقهم يوم القيامة ،ثم أردف بما يدل عليهم من الأقوال السيئة التي تتضامن مع أفعالهم فقال: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ . . . ﴾ آل عمران(١٨١)، و قال: ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي

﴿ ...قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ آل عمـران(١٨٣)، فعـاد معنـى الإنفـاق إلى الظهور ثانية ؛ بذكر أفعال أهل الكتاب وأقوالهم مصاحبا لمعنى التقوى .

و لما كان الثبات ضد التيارات المضادة أساسه الصبر و التقوى ،وكـان الإنفـاق في سـبيل الله أصـلا في التقوى ؛ جـاء تكـريس الكـلام علـى هـذه المعـاني في آخـر السـورة : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ * وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ * لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ آل عمران (١٨٦–١٨٧–١٨٨)

ومركز المعنى في هذا الجزء: بيان تداعي فكرة تزامن حصول الموت مع الخروج من البيوت لأجل الجهاد ،مع التحضيض على الجهاد ببيان منزلة المجاهدين والشهداء والأجر المترتب على الشهادة خصوصا .

والعلاقة بين المعاني الثلاثة في هذا المعقد: أنه لما كان الثبات عنصرا مهما في خوض المعارك؛ عزّز في المعنى الجزئي الأول ما يجعل المؤمنين يستشعرونه؛ ببيان تميّزهم عن غيرهم من الأمم بالخيرية ،وبيـان ضعف أعدائهم و تقاصرهم عن مضرة المؤمنـين بفضل الله. ثم جاء في المعنى الجزئي الثاني فبين أسباب الفشل في ساحة الحرب خصوصا، فكان تتميما لما جاء مـن التثبيت في المعنى الجزئي الأول . و بعد التخلية بذكر أسباب الفشل حضّ على الجهاد والصبر ،وبشر المؤمنين بالأجر العظيم ،فكان من باب التحلية بعد التخلية،وكـان تكميـلا للمعنييـن الأول و الثـاني .

العلاقة بين المعقدين الكليين في سورة آل عمران ([1]) :

لما كـان المعقد الكلي الأول بجزئيه يطرح قضـية التوحيـد ،و يبسـط الكـلام فيهـا بـذكر الأدلـة العقلية على استحقـاق الله للتوحـيد من خلال بيان إثبات الصفات والأفعـال الدالـة على تفرده ،و من خلال إثبات بشـرية عيسـى- عليـه السـلام — و الخـروج مـن كـل ذلـك بالانقياد والتسليم بألوهية الله تعالى دون منـازع ،فهيّـأ النفـوس و رباهـا مـن خـلال المعنـى الكلي الأول بمعانيه الثلاثة على خوض المعركة الجدلية مع أهل الكتـاب و الخـروج بالغلبـة والنصر؛ شـرع يعدهـم لخـوض المعركـة العمليـة مـن خـلال المعنـى الكلـي الثـاني بمعانيـه الثلاثـة، فعمل على تثبيت قلوبهم، وكشف خبايـا أعـدائهم ،وحـثهم علـى الجهـاد ببيـان أجـره،و بيـان منـاط كـل ذلـك مـن التقـوى و الصـبر، فكمـل مـا أسسـه في المعقـد الكلـي الأول،فالعـلاقة بين المعنيـين علاقـة تكميل .

---

(١) المعقد الكلي الأول: تربية النفوس فكريا على مواجهة التيارات المضادة للإسلام :

من آية(١٠-١٠٩) من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا . . . ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ. . . ﴾ وقام به ثلاثة أجزاء:

الأول: التبصير بمستلزمات الإقرار بالألوهية ،والتحذير من مقتضيات عدم الإقرار بها .

الثاني: إثبات بشرية عيسى —عليه السلام .

الثالث: بيان أن الإسلام أساس الدين .

المعقد الكلي الثاني: تربية النفوس على التصدي عمليا للتيارات المضادة للإسلام :

من آية(٩٨-١٨٩)من قوله: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ ﴾ ،إلى قوله: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ . . . ﴾ وقام به ثلاثة أجزاء :

الأول: كيفية التصدي للتيارات المضادة من خلال العمل بمقتضى تميّز المسلمين عن الأمم الأخرى و أهل الكتاب خاصة.

الثاني: كيفية التصدي للتيارات المضادة من خلال معرفة أسباب الفشل في غزوة أحد .

الثالث: كيفية التصدي للتيارات المضادة من خلال معرفة الحد الفاصل بين المؤمنين والمنافقين ومن يشابههم من اليهود.

و الناظر في السورة من أولها إلى آخرها يجد بروزا للمسائل الأربع التي أوصى الشيخ محمد ابن عبد الوهاب بتعلّمها من العلم ،والعمل به ،والدعوة إليه، والصبر على الأذى فيه .([1]) و كلها في صلب التوحيد،وتعمل على تثبيته،ومعنى ذلك:أن المقصود يهيمن على السورة كلها،وأنه عموده الذي إليه تجري المعاني كلها .

* * *

(١) ينظر شرح الثلاثة الأصول للإمام محمد بن عبد الوهاب.شرح أصحاب الفضيلة:عبد العزيز بن عبد الله بن باز وعبد الرحمن بن محمد بن قاسم ومحمد بن صالح العثيمين وصالح بن فوزان الفوزان وصالح بن عبد العزيز آل الشيخ. وبهامشه تعليقات للشيخ:محمد منير الدمشقي صـ٩.ط١. ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.دار ابن حزم.جمهورية مصر العربية- القاهرة .

ثـالثـا /

نمـوالمعاني و تآخيـها و انسجامها في سورة النساء

سورة النساء سورة الأحكام، الثالثة من الطوال، نظر سيد قطب إلى معانيها ،فجعلها على دروس و أفكار جزئية عديدة ([1]) تبين عن أثر المنهج الرباني على المجتمع فردا وجماعة .وصورة التقوى حاضرة عنده في التعامل مع كل منهما؛و لكن المنهج الرباني وأثره في حماية الأفراد، وقيام الأسر ،و تطهير المجتمع، و ترابطه ،و تراحمه، ثم وضوحه في بيان المعنى الحقيقي للإسلام والدين؛ هو المسيطر عنده في صياغة فكره، و خرج من كل المعاني المسوقة ببيان أن منهج الإسلام هو منهج العزة ولا غير، وهو منهج الهداية، وغيره من المناهج هي الضلال .ونظر سعيد حوى إلى معاني سورة النساء وجعلها على ثلاثة عشر مقطعا([2])، فركز على معنى التقوى كمحور رئيس في السورة ،وأدار المعاني كلها

---

(١) الأول: بقية من تنظيم شؤون الأسرة وإقامتها على أساس ثابت من موحيات الفطرة، وحمايتها من تأثير الملابسات العارضة في جو الحياة الزوجية وحمايتها وحماية المجتمع معها من انتشار الفاحشة والاستهتار . الدرس الثاني: عودة إلى تقرير أصول التصور الإسلامي تبيّن حد الإيمان و شرط الإسلام. الدرس الثالث: كشف مواقف أهل الكتاب ونيّاتهم الماكرة بالجماعة المسلمة . الدرس الرابع: بيان معنى الدين، وشرط الإيمان، وحدّ الإسلام . الدرس الخامس: توجيه الجماعة المسلمة لحماية هذا المنهج بالقتال دونه. الدرس السادس: بيان قواعد المعاملات الدولية بين المعسكر الإسلامي وشتى المعسكرات المناوئة له. الدرس السابع: الحديث عن الجهاد والأنفس في صور التنديد بالقاعدين عن الهجرة في دار الكفر . الدرس الثامن: العدل الإسلامي الذي لا يتأثر بالمودة أو الشنآن . الدرس التاسع: جولة مع الشرك والمشركين، وخرافات الشرك وإثارة الضالة . الدرس العاشر: ويعود إلى النساء وحقوقهن؛و بخاصة اليتامى منهن .

الدرس الأخير: التنديد بالنفاق والمنافقين، ودعوة المؤمنين إلى الإيمان الجاد الواضح المستقيم، وتحذيرهم من الولاء لغير الجماعة المسلمة.(ينظر في ظلال القرآن ٢/٦١٥ — ٦١٨ .)

(٢) الأول: تربية الإنسان على تقوى الله في معرفة الله، وصلة الأرحام ،وحفظ أموال اليتامى .الثاني: معانٍ جديدة في قضية التقوى من زواج وإرث. الثالث: تحدد قضايا هي من الأهمية بمكان مثل: اشتراكية الأموال مساواة الرجال بالنساء .الرابع: يضيف للتقوى قضيتين رئيسيتين؛هما: أداء الأمانة إلى أهلها والحكم بالعدل .الخامس: طاعة الله والرسول والاهتداء بهما .السادس: الحركة الجهادية وعلاقتها بالتقوى .السابع: قضايا خاصة بالقتال .الثامن: مظاهر العدل .التاسع والعاشر: طريق التقوى الذي هو العبادة والتوحيد والإيمان والعمل الصالح .الحادي عشر: تقرير أن الإيمان بما أُنزل على محمد حق وواجب وشهادة الله بذلك كفاية وولاية .الثاني عشر: دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان والعمل الصالح .الثالث عشر والأخير: صورة من صور الإرث.(ينظر الأساس في التفسير ٢/ ١٠٢٠-١٢٦١) .

عليه،فمن قضايا التقوى:العدل مع الأقوياء،والرحمة بالضعفاء؛مثل اليتامى و النساء .
ومن قضايا التقوى :بناء الأسر على أساس من التراحم و الترابط .و من قضايا التقوى:الدعوة باللين. و يخرج من كل ذلك بأن التقوى طريق للعبادة ،و تلك غاية الإيمان بالألوهية و الربوبية،و هي أساس بناء المجتمع المسلم .

فالنظرة عند سيد قطب أوسع منها عند سعيد حوى،أو هي أعم عند الأول وأخص عند الثاني؛و إن كانا يجتمعان في ضرورة بناء المجتمع المسلم على أساس ثابت راسخ ،و لن يكون ذلك إلاباتباع المنهج الرباني في التعامل كما عبّر سيد قطب،أو بتقوى الله في المعاملات خاصها وعامها كما أوضح سعيد حوى . و المعاني عند سعيد حوى أقرب منالا عنها عند سيد قطب لتميّز الأخير بالنظرة التكاملية لمعاني السورة .

و سورة النساء لها مطلع كائن في الآية الأولى منها(1)في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ النساء (1)
ولما كان وحدات الناس هي المكونة للمجتمع ؛جاء الاهتمام بهم فردا و جماعة،فأُصّلت أواصر التراحم و التعاطف و التواصل فيما بينهم ؛مجسدا ذلك في التعامل على أساس من الرحمة مع الضعفاء، والعدل مع الأشداء .ولما كان المستضعفون قبل الإسلام يعانون من الظلم والعدوان وأكل الأموال؛جاء الإسلام لينفض تلك المحرمات ويخلعها من جذورها؛ليبني أواصر محبة ورحمة بين الناس، تلك الرحمة بُعثت من الرحم؛لأن أصل البشرية واحد،فيلزم منه التراحم و التواصل.

---

(1) لتفصيل القول في معاني مطلع السورة ينظر(المطلع في سورة النساء) .

و تدور آيات سورة النساء حول الاجتماع على التوحيد كما أعلم بذلك البقاعي حين قال عن مقصودها :" الاجتماع على التوحيد الذي هدت إليه آل عمران ،و الكتاب الذي حدّت عليه البقرة لأجل الدين الذي جمعته الفاتحة ."(1)

و سورة النساء لها ثلاثة معاقد هي :

المعقد الأول : بناء المجتمع المسلم داخليا على أساس من التراحم الناشئ من الرحم.

المعقد الثاني : تحصين المجتمع المسلم خارجيا ضد أعدائه .

المعقد الثالث: طريق العزة و الكفاية بالانقياد لله والرسول لا بالاستنكاف والمكابرة .

هذه المعاقد الثلاثة يكتنفها معنى التقوى بمعنى الإحسان وهو ماظهر من أول آية في السورة .(2)

سير معاقد المعاني في سورة النساء:

المعقد الكلي الأول من سورة النساء :

بناء المجتمع المسلم داخليا على أساس من التراحم الناشئ عن الرحم: من قوله تعالى: ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ . . . ﴾(٢) إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً . . . ﴾ (٣٥)

وقام به جزءان :

(١) نظم الدرر ٢/٢٠٤ .

(٢) ينظر فصل براعة الاستهلال لتتبع سير معنى التقوى في السورة .

المعنى الجزئي الأول من المعقد الكلي الأول :

التعامل مع اليتامى على أساس من الرحمة : من قوله تعالى: ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ . . . ﴾ (٢) إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ﴾ (١٠) .

جاءت الآيات لتتحدث عن صنفين من المستضعفين في المجتمع قبل الإسلام؛ وهما: اليتامى و النساء، و لما كان الختم في الآية الأولى بذكر الأرحام ؛ بدأت الآية الثانية بمن هو أحق بالرحم والصلة ؛ و هو الولد- كما ذكر البقاعي- ([1]) فجاء الحديث عن اليتامى ثماني مرات في سبع آيات من السورة .([2]) وركز البيان القرآني على تسميتهم (يتامى) في كل مواضع السورة مع أنهم في مواضع منها ليسوا يتامى ؛ لما له من أثر في در العواطف ، و إثارة الرحمات ، و لما تُشعر به صيغة (فَعالى) من الضعف والانكسار.([3]) فيكون ذلك مناسبا مع كل ما جاء في شأنهم من وجوب الرحمة بهم ، و توفيتهم حقوقهم، وعدم التعرض لأموالهم ، مع الإحسان إليهم .

وجاء الأمر الكريم بإيتاء اليتامى أموالهم حين قال: ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ ﴾ النساء (٢) بمعنى: " هيئوها بحسن التصرف فيها ؛ لأن تؤتوهم إياها بعد البلوغ ."([4]) فعبّر بالإيتاء بدل الإعطاء "لأن الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله ؛ لأن الإعطاء له مطاوع تقول: أعطاني فعطوت، ولا يُقال: آتاني فأتيت، وإنما يُقال: فأخذت ."([5]) وجاء التعبير بالإيتاء على سبيل

---

(١) نظم الدرر ٢/ ٢٠٧ .

(٢) تنظر الآيات (٢-٣-٦-٨-١٠-٣٦-١٢٧) .

(٣) جمع على يتمى كأسرى ، لأن اليتيم من وادي الآفات والأوجاع ، ثم جمع فعلى على فعالى كأسارى(الكشاف ٩/٢. ومثله في روح المعاني ٣٩٧/٢) .

(٤) نظم الدرر ٢٠٧/٢ .

(٥) قاله الجويني في الإتقان في علوم القرآن ٥٢٩/١ .

المجاز المرسل؛ترغيبا في حفظ أموال اليتامى و اعتبارها لازمة ؛حتى أنها تفهم دون الذكر . وتبع هذا الأمر نهيان فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ والمعنى: "ولا تتبدلوا الحرام عليكم من أموالهم بأموالكم الحلال لكم ... ولا تخلطوا أموالهم – يعني أموال اليتامى– بأموالكم ؛فتأكلوها مع أموالكم ."(١) و لما كان الخبيث يجلب الضرر، و الطيب يجلب النفع ؛حرّم الله الخبيث وأحل الطيب على عمومهما ؛رعاية للنفس الإنسانية. فلما قال: ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ﴾ عدى الفعل بـ (إلى) ؛لأن فعل الأكل يتضمن ضم الشيء إلى بعضه، أي:لا تضموا أموالهم إلى أموالكم (٢)أو مع أموالكم .(٣)

و تناصر المجاز المرسل في الآيات ترغيبا في حفظ أموال اليتامى، و تنفيرا من التصرف المهلك لأموالهم ،ومن استغلالها بغير وجه حق .فالعلاقة بين معنيي المجاز علاقة تتميم.(٤) و لما

---

(١) جامع البيان ٢٢٨/٤ .

(٢) ينظر الكشاف ١٢/٢ .و مثله في التفسير الكبير ١٣٨/٩ .و مثله في تفسير البحر المحيط .محمد بن يوسف الشهير بأبي حيّان الأندلسي .دراسة وتحقيق وتعليق:الشيخ عادل أحمد عبد الموجود .الشيخ علي محمد معوض. شارك في تحقيقه زكريا عبد المجيد النوتي .وأحمد النجولي الجمل ١٦٨/٣. ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.دار الكتب العلمية- بيروت /لبنان.

(٣) ومثله قوله: " {من أنصاري إلى الله} " أي مع الله." (تأويل مشكل القرآن . تأليف أبي عبد الله بن مسلم بن قتية الدينوري .شرحه ونشره:السيد أحمد صقر صـ ٥٧١ . بدون ط . بدون ت المكتبة العلمية .) مع علو هذا المقام عن الأول.

(٤) لما قال: ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ﴾ عبّر بالأكل عن التصرف المهلك على سبيل المجاز المرسل والعلاقة اعتبار ما يؤول إليه .و في هذا بيان أن التصرف المقصود هو تصرف مهلك لا سبيل لإرجاعه .و هذا المجاز يمد يدا إلى سابقه حين قال: ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ﴾ ،فذكر الإيتاء ؛و هو الإعطاء اللازم لحفظ المال و عدم التعرض له على سبيل المجاز المرسل لعلاقة اللازمية ؛لأن حفظ المال لازم لإيتائه اليتامى إذا بلغوا سن الرشد . ترغيبا في حفظ أموال اليتامى واعتبارها لازمة لإيتائهم إياها ؛حتى أنها تفهم دون الذكر . و يجوز أن يكون قول:(اليتامى) مجازا مرسلا باعتبار ما كان؛ لأن اليتيم لا يُعطى ماله إلا إذا بلغ سن الرشد .

قال: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ النساء(٣)
خرج إلى الحديث عن اليتامى من النساء (١) قال ابن عباس :" كانوا في الجاهلية ينكحون عشرا من النساء الأيامى،و كانوا يعظمون شأن اليتيم ،فتفقدوا من دينهم شأن اليتيم وتركوا ما كانوا ينكحون في الجاهلية. " (٢) ومعنى الآية :" أي:إن خفتم أن لا تعدلوا في مهورهن وفي النفقة عليهن{فانكحوا ما طاب لكم} أي: غيرهن ."(٣)

و لما كان الأمر في الآيات السابقة بإيتاء الأيتام أموالهم دون بخسها ؛ذكر في الآيات بعدها أنه من الإحسان إلى بعضهم عدم إتيانهم أموالهم لسفاهتهم .(٤) فكان من ذكر الخاص بعد العام فقال: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾ النساء (٥) و عدل عن قول: {أموالهم } إلى قول: ﴿ أَمْوَالَكُمُ ﴾ مع أنها أموال اليتامى لبيان التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع ،و أن المال دولة بين الجميع حتى سُمي ما كان لهم باسم الجميع ؛تحفيزا لرعاية

فلما أمر بحفظ أموال اليتامى بطريق المجاز الأول أتم المعنى بالأمر بعدم خلطها مع أموال القائمين عليها عن طريق المجاز كذلك ،فظهر أن من الحفظ عدم الخلط كذلك .

(١) "عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة – رضي الله عنها – :" وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء ، قالت :هي اليتيمة تكون في حَجْر وليها فيرغب في جمالها ومالها ويريد أن يتزوجها بأدنى من سنة نسائها فنهوا عن نكاحهن إلا أن يقسطوا لهن في إكمال الصداق ،و أمروا بنكاح من سواهن من النساء.قالت عائشة:ثم استفتى الناس رسول الله ﷺ بعد فأنزل الله عز وجل {ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن}قالت: فبين الله في هذه أن اليتيمة إذا كانت ذات جمال ومال ورغبوا في نكاحها ولم يلحقوها بسنتها بإكمال الصداق؛ فإذا كانت مرغوبة عنها في قلة المال والجمال تركوها والتمسوا غيرها من النساء ، قال : فكما يتركونها حين يرغبون عنها؛فليس لهم أن ينكحوها إذا رغبوا فيها إلا أن يقسطوا لها الأوفى من الصداق ويعطوها حقها " (صحيح البخاري. كتاب الوصايا .رقم الحديث (٢٦١٢) باب قول الله تعالى:(و ابتلوا اليتامى) ١٠١٥/٣ .)

(٢) تفسير القرآن الكريم عن ابن عباس (صحيفة علي بن أبي طلحة) اعتنى بها وحققها وخرجها: راشدعبد المنعم الرجال صـ١٣٢ .ط١ ١٤١١هـ١٩٩١م. مكتبة السنة– عابدين .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١١/٥ .

(٤) لأن " السفيه:الجاهل الضعيف الرأي القليل المعرفة بمواضع المنافع والمضار " (جامع البيان ١٢٨/١) .

الأموال و الحرص عليها من قبل الكل.([1]) و الآية عامة في عدم إعطاء السفهاء أموالهم؛ سواء كانوا يتامى أو غير ذلك .

و لما كان النساء مهضومة حقوقهن في الجاهلية؛ جاء الأمر الكريم بإيتاء النساء صدقاتهن نحلة([2]) دون أخذ شيء منهن؛ سواء كان الخطاب للأولياء أو للأزواج . و لما كانت المرأة تُورَث ولا تُورِّث ،جاء الإسلام بإثبات حقّها في الميراث فقال: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً ﴾ النساء (٧). وإنما ذكر حكم النساء على الاستقلال دون إدراجه في تضاعيف حكم الرجال" للاعتناء بأمرهن ،و الإيذان بأصالتهن في استحقاق الإرث ،و الإشارة من أن الأمر إلى تفاوت ما بين نصيبي الفريقين، و المبالغة في إبطال حكم الجاهلية فإنهم لم يكونوا يورثون النساء والأطفال و يقولون: إنما يرث مَنْ يحارب و يذب عن الحوزة ."([3]) و كأن هذه الآية تمهد لأن يكون للمرأة نصيب من الميراث، وذلك شيء غير معهود؛ ولذلك سيق هذا التمهيد الذي حمل على وجه الإجمال، ثم أتى التفصيل بعد الإجمال في آية المواريث التي تبين أن " أقسام الورثة ثلاثة: قسم لا يسقط بحال؛ وهو الآباء، و الأولاد ،و الأزواج، فهؤلاء قسمان، و الثالث: الكلالة ."([4])

---

(١) قال الأستاذ باجودة عن سبب عدول النظم الكريم :" تنبيها لأولئك الأولياء إلى أن هذه الأموال في الحقيقة هي أموالهم ،فعليهم أن يصونوها ويعنوا بها كما يصونون أموالهم ويعنون بها ." (تأملات في سورة النساء .حسن محمد باجودة صـ٣٨ .ط١ .١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م .دار الاتحاد التعاوني للطباعة .)

(٢)نحلتُ المرأة مهرها نِحلة: أي عن طيب نفس من غير مطالبة " (مقاييس اللغة مادة (نحل) .

(٣) تفسير أبي السعود ٢/١٠١ .

(٤) السابق ٢/١٠٣ .

ولما ذكرالبيان القرآني الميراث للرجال والنساء فبين "المفروض أتبعه المندوب"(١)

فقال: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً * وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً ﴾ النساء (٨-٩)، وذلك قمة الإحسان؛ فيُعطى الأيتام من المال حتى ولو لم يكن لهم حق فيه؛ لما هم عليه من انكسار . و كان للأمر بالخشية موقعه حيث يحاول كل مستغن أن ينظر إلى هؤلاء اليتامى نظرة ما لو كانوا أولاده هو .

"و لما طال التحذير و الزجر و التهويل في شأن اليتامى ،و كان ذلك ربما أوجب النفرة من مخالطتهم رأسا ،فتضيع مصالحهم ؛وصل بذلك ما بين أن ذلك خاص بالظالم في سياق موجب لزيادة التحذير"(٢)، فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ﴾ النساء (١٠)، وعبّر بقوله: ﴿ ظُلْماً ﴾ احتراسا وبيانا؛ لأنه سبق أن ذكر قوله: ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ ؛ حتى يبين أن الإيعاد المذكور هو لصنف معين من الولاة الظالمين ؛وليس لكل والٍ ،و لما كان الأكل إليه يؤول أغلب تصرف الأموال و هلاكها ؛جاء التعبير به ثماني مرات في السورة مجاورا للأموال.(٣)و أكد هذا التهديد و الوعيد حين أقفل بقوله: ﴿ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ﴾ أي :نار شديدة الحرارة مستعرة .

---

(١) نظم الدرر ٢١٨/٢ .

(٢) السابق ٢١٩/٢ .

(٣) تنظر الآيات (٢ - ٤- ٦- ١٠- ٢٩ -١٦١) .

و مركز المعنى في هذا الجزء هو: ضرورة الإحسان إلى اليتامى مع تحريم أكل أموالهم بالباطل . و لذلك حفل هذا الجزء بالأوامر و النواهي ،و الإقفال بالفواصل الداعية إلى الإحسان أو المحذرة من التعدي . و لذلك نجد العبارات التوجيهية في هذه الآيات تركز على أسلوب الرفق في التعليم مع وضوح عنصر الإصلاح وعنصر الجماعة،و ذلك مثل قوله تعالى: {لاتتبدلوا الخبيث بالطيب – ذلك أدنى أن لا تعولوا – فكلوه هنيئا مريئا –قولوا لهم قولا معروفا – وليقولوا قولا سديدا } .

المعنى الجزئي الثاني من المعقد الكلي الأول :

التعامل مع النساء على أساس من الرحمة : من قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ . . . ﴾(١١)، إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً . . . ﴾(٣٥) .

لما مهد الحديث عن حق اليتامى من النساء في الميراث في المعنى الجزئي الأول ؛جاء في بداية هذا الجزء يبين حق المرأة في المال عن طريق تفصيل أحكام الميراث فقال: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ . . . ﴾النساء(١١-١٢)،وختم هذه الإرشادات والوصايا بقوله: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾النساء (١٣-١٤)، فأعلم بطريق التقابل عن الثواب حال طاعة الله وطاعة رسوله و عن العقاب حال عصيان الله ورسوله،وتسمية الأوامر والنواهي حدودا يبين عن أهمية الأخذ بها . وهو ظهور لمعنى ضرورة

الاجتماع على التوحيد وعلى الكتاب ؛لأن مؤدي هذه الالتزامات لا يكون فردا بمفرده ؛إنما هو تكافل وتضامن على طاعة الله ورسوله في الاعتبار الأول .

و لما كانت المرأة عماد المجتمع و نصيفه، و مخرجة الأجيال،و ركيزة في الأسرة إن صلحت صلح نتاجها ؛جاء بيان زجرها عند الخطأ بإتيان الفاحشة بعد التأكد من صحة نسبة الخبر إليها وبيان الحكم فيها . ولما كان الآمر عدلا انتظم الحكم على الرجال إن فعلوا الأمر نفسه ؛ليبين عن المثلية في الأهمية ،و في العقاب للنوعين معا .

و لما " كان الرجل إذا مات وترك جارية ألقى عليها حميمة ثوبه فمنعها من الناس،فإن كانت جميلة زوجها،وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها"(١)؛جاء الإسلام بتحريم هذه العادة السيئة،و جاء الأمر بحسن معاشرتهن والنهي عن عضلهن ،ولم يترك الأمر عند هذا الحد؛إنما أتاح الخيار للأزواج إذا كرهوا نساءهم أن يستبدلوا غيرهن؛ بشرط عدم أخذ ما آتوا نساءهن من مال؛ لأن أخذ شيء منه يُعد بهتانا وإثما مبينا ، واستنكر على الذين يريدون أخذ المال و قد كان بينه وبين امرأته ما يكون بين المرء وزوجه من المعاشرة، و قد تعاهدا عند النكاح على الإمساك بمعروف أو التسريح بإحسان. ومنها انتقل إلى أحكام النكاح ما يحل من النساء وما يحرم .

و لما أبان النظم الكريم عن طرق التعامل مع عنصرين مهمين في المجتمع باعتبار اليتامى سواعد المستقبل،و باعتبار النساء لبنة الأسرة؛ذكر قضيتين مهمتين تقابلان هذين العنصرين من الأهمية؛ هما أكل أموال الناس، وقتل النفس .

و لما كان تعزيز موقف اليتيم و المرأة مما يبني المجتمع و يصلحه،و كان أكل أموال الناس وقتل النفس مما يهدمها و يفسدها ؛جاء ذكرهما على سبيل من التناظر والتقابل . ويصح كذلك أن نقول لما كان الكلام في أول الأمر عن حفظ المال ؛أتم المعنى بما يضمن حفظ النفس

---

(١)تفسير القرآن الكريم عن ابن عباس صـ ١٤٠ .

المنمية لهذا المال فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ النساء(٢٩)، و العدول بذكر ضمير (الكاف) يسهم في تعزيز معنى الجماعة الذي تسعى آيات السورة لبيان مكانه .وعلى هذا المعنى الثاني تكون الآية مكملة لما جاء في ثنايا المعنيين ،وتشد من أزرهما .

ولما كان أكل أموال الناس بالباطل وقتل النفس من المحرمات ومن الأمور العظيمة المؤثرة في المجتمع ؛عقبه بقول: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً* إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً﴾ النساء(٣٠-٣١)، فأعلا درجة الوعيد والترهيب من أكل أموال الناس وقتل النفس بإصلاء النار، و ختم بما يساعد على ذلك من القدرة ،ثم رغّب في اجتنابها بتسميتها كبائر ،و بالوعد بتكفير السيئات، مع إدخال الجنة وفيه كرامة ،وهو يقابل الإدخال الأول؛ لأن فيه إهانة ؛مما جعل المعاني أكثر وضوحا وظهورا وأثرا .

و لما توعدهم في الآية السابقة أبان عما يسهّل عليهم ترك هذه المنهيات من ترك التحاسد في الأموال و الأنفس مع سؤال الله من فضله فقال: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ النساء(٣٢) .

و لما كان الاهتمام بالنساء في هذه السورة بالغا ؛جاء النص على بيان أن النساء مع كونهن ركائز يقوم عليها المجتمع ويصلح بصلاحها؛إلا أن الرجال يقمن عليهن قيام الولاية على الرعية بأمرين :وهبي وكسبي؛الوهبي كمال العقل وحسن التدبير ومزيد القوة

والكسبي بما أنفقوا في نكاحهن والنفقة عليهن[1]، فقال: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ النساء (٣٤). ولما أبان تعالى عن فضل الرجال على النساء أتبعه بما يجب على النساء نحو الرجال؛ من حفظهن لأزواجهن بالغيب، ومن رخصة الرجال في تأديب الناشز منهن .ولما كان كيان الأسرة من الأهمية بمكان ؛ أتبعه بما يهدي إلى الإصلاح بين الطرفين لو حصل نزاع بينهما .

وختم المعقد بهذا المعنى دلالة على أهمية صلاح الأسرة؛ لأنها البذرة المكونة للمجتمع .

ومركز المعنى في هذا الجزء: هو ضرورة الإحسان إلى المرأة مع الحرص على حفظ حقوقها والقيام بواجباتها التي تضمن كيانها داخل أسرتها و داخل مجتمعها . والتركيز على الرحمة بالمرأة و العدل في التعامل معها لهو من أهم المواطن التي تربي النفس البشرية على إصلاح ذاتها أولا والمجتمع ثانيا في محيطها الضيق ،أو القريب منها ابتداء؛حتى تستطيع أن تعبر منه إلى المحيط الأوسع أو الأبعد من عناصر المجتمع،وإذا ما تمّ ذلك حصل المبتغى،وقوي المجتمع المسلم، وصلبت أرضيته .

والعلاقة بين هذين المعنيين الجزئيين في هذا المعقد علاقة تتميم، فاليتامى و النساء استضعفا قبل الإسلام ،وجاء الإسلام بقواعده وركائزه الجديدة ليثبت لهما عيشة كريمة وسط مجتمع حانٍ متحاب ،فذكر النساء بعد اليتامى أتم البيان عن فئتين مهمتين من حيث بناء الأسرة . وكثرت العبارات الدالة على ضرورة إنصافهن والإحسان إليهن؛مثل قوله: {يوصيكم الله– غير مضار – وصية من الله — وعاشروهن بالمعروف – فعسى أن تكرهوا شيئا و يجعل

---

(١) ينظر تفسير البيضاوي ٢١٣/١ .

الله فيه خيرا كثيرا – أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا– إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا – يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم – يريد الله أن يخفف عنكم – إن يريدا إصلاحا يوفق الله) .

المعقد الكلي الثاني من سورة النساء :

بناء المجتمع المسلم خارجيا بتحصينه ضد أعدائه :من قوله تعالى: ﴿ وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ . . . ﴾ (٣٦) إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ ﴾ (١٢٤).

وقام به جزءان :

المعنى الجزئي الأول من المعقد الكلي الثاني:

حال أهل الكتاب وبيان ضلال منهجهم : من قوله تعالى: ﴿ وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ . . . ﴾ (٣٦)إلى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ . . . ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ (٥٩).

لما كانت الآيات السابقة تتحدث عن اليتامى والنساء وضروب الإحسان إليهما تفصيلا؛ جاء قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ النساء (٣٦)

يبين قيمة الإحسان و أنه قرين عبادة الله و عدم الإشراك به،ثم إنه كما فصّل في أمر الإحسان إلى اليتامى و النساء؛أجمل في غيرهم من بقيه علاقات المجتمع واستوعبها،فذكر المساكين والجار ذا القربى، والجار الجنب ،والصاحب بالجنب ،وابن السبيل ،وما ملكت الأيمان. وختم الآيات بما يضاد هذا الإحسان من الكبر و الفخر، و سلكهم في سلك واحد من عدم محبة الله لهما .وهذا نمو لمعنى الاجتماع على التوحيد؛حيث قرن تعالى عبادته وعدم الإشراك به بالإحسان بطبقات المجتمع ابتداء من الأسرة،و هذا يعلي شأن الاجتماع والتكافل و الإحسان .

ولما ذكر قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً ﴾النساء(٣٧) أتى بالبيان بعد الإبهام ،فعرّف بصفات المختالين من البخل وأمر الناس به،و المقصود به: كتمان أمر محمد ﷺ،ورجحه الطبري فقال:"لأن الله جل ثناؤه وصفهم بأنهم يأمرون الناس بالبخل،ولم يبلغنا عن أمة من الأمم أنها كانت تأمر الناس بالبخل ديانة ولا تخلقا ؛بل ترى ذلك قبيحا،ويذم فاعله ولا يمتدح وإن هي تخلقت بالبخل واستعملته في أنفسها، فالسخاء والجود تعده من مكارم الأفعال وتحث عليه،و لذلك قلنا: إن بخلهم الذي وصفهم الله به إنما كان بخلا بالعلم الذي كان الله آتاهموه فبخلوا بتبيينه للناس ،وكتموه دون البخل بالأموال ."(1)

وعرّف بعقابهم فقال: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً ﴾النساء (٣٧)وعطف على الذين يبخلون بالعلم الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس فقال: ﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قِرِيناً ﴾النساء(٣٨)، "وإنما شاركهم في الذم والوعيد لأن البخل والسرف الذي هو الإنفاق لا

(١) جامع البيان ٥/٨٦ .

على من ينبغي من حيث إنهما طرفا إفراط وتفريط ؛سواء في القبح واستجلاب الذم."([1]) وهذا نظر يبين عن اتحاد الفريقين في المنقصة والمذمة ،وتقابلهما ؛إذ هما طرفا نقيض للآخر .
وأقفل الآية بمقت هذه الفئة ،و بيان سوء حالهم من الوصف بمقارنة الشيطان ومصاحبته على طريق الكناية عن محبتهم ؛تنفيرا من عمل أعمال تخلّف سوء عاقبة مثل اتخاذ الشيطان قرينا . وأنكر البيان القرآني على هؤلاء عدم الإيمان مع إبانة أن ذلك لن يكلفهم مشقة فأشار إلى تفريطهم مع سوء الاختيار وعدم تقدير الأمور .

و لما كان عدم الإيمان من الظلم أبان تعالى عن نفي الظلم عنه نفسه على سبيل من التأكيد ،فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ﴾ النساء (٤٠) ،وحسنت الكناية في موقعها ؛حيث كنى عن صفة العدالة المتناهية بنفي الظلم عن نفسه مثقال ذرة ،وذلك قمة العدل ،مع القدرة العجيبة المتناهية على الإحصاء والحساب ،و ثبوت الإحاطة العلمية .
ولما قال بعدها : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾ النساء(٤١) أقر برسالة محمد ﷺ عن طريق التحذير من اليوم الآخر ؛فأقر باليوم الآخر كذلك .و في نفي الظلم عن الله تعالى ترغيب إلى توحيده ،و في إيلاء هذا الترغيب ما يدل على الترهيب من عدم الإيمان برسوله الذي جاء بكتابه والذي سيكون شهيدا على كل الأمم يوم القيامة ؛فيه ما يبين عن تصاعد معنى الاجتماع على توحيد الله و كتابه الذي جاء بالجمع بين الترغيب و الترهيب .
وانتقل النظم القرآني من معنى الإقرار باليوم الآخر ليعود إلى الحديث عن أهل الكتاب ببيان أعمالهم التي تبين عن ضلالهم و عن محبتهم إضلال المؤمنين.وهذا الحديث عن أهل الكتاب اكتنز بالنكات البلاغية التي نهضت بالمعنى وساعدته

---
(١) تفسير البيضاوي ٢١٥/١ .

علـى تحقيـق مغازيـه ؛من اسـتعارة شـراء الضلالـة لاختـيارها ،و مـن التعـبير بـالإرادة عـن المحبـة علـى سـبيل المجـاز المرسـل، و مـن اسـتعارة تحريـف الكلـم عـن مواضـعه لتقليـب الكـلام وتغـييره ،و اسـتعارة اللّـي باللسـان لصـرف الكـلام إلى مـا يشـبهه مـن السـبّ. و اسـتعارة الطعـن في الـدين لاسـتعيابه والإنقـاص مـن شـأنه. كـل تلـك الصـور تسـاندت للإبانـة عـن كراهيـة أهـل الكتـاب للمـؤمنين وعـن رغبـتهم في أن يشـاركوهم الضـلال .وإنمـا كـان هـذا الحـديث عـنهم تصـويرا لخطـرهم الـذي يفضـي إلى وجـوب التحصـن لـه بالاجتمـاع علـى توحيـد الله وعلـى كتابـه ضـد المسـتهدفين للـدين ،وهـذا نمو للمعنى و تصاعد .

و لمـا كـان مـن مـنهج سـورة النسـاء تأصـيل القاعـدات جـاء قـول الله تعـالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً ﴾النسـاء (٤٨) في مقـام الحـديث عـن أهـل الكتـاب؛ لأنهـم لمـا " كـانوا مـع ارتكـابهم العظـائم يقولـون: سـيُغفر لنـا وكـان امتثـالهم لتحريـف أحبـارهم و رهبـانهم شركا بالله ... قـال معلـلا لتحقيـق وعيـدهم معلمـا أن مـا أشـير إليـه مـن تحـريفهم أدّاهـم إلى الشـرك . "(١) فأبـان عـن صـحة المعتقـد إن خـلا مـن الإشـراك بـالله الـذي قـد تؤدي إليه كـثير مـن طـرقهم ،وهـذا أصـل في معنـى الاجتمـاع علـى التوحيـد لأنـه يـومئ بنقيضـه عنـد أهـل الكتـاب؛أي الاجتمـاع علـى مـا يوجـب أو يـؤدي إلى الإشـراك بـالله باتباعهم لأحبارهم .

---

(١) نظم الدرر ٢ / ٢٦٥ .

و لكل تلك المعاني ختم مقام الحديث عن أهل الكتاب ببيان جماع الأمور كلها معتقدا وعملا، فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ... ﴾ النساء (٥٨ –٥٩) فإن أداء الأمانة وعدم الخيانة يتضمن عدم كتمان العلم، و ثمرة أداء الأمانة العدل بين الناس، و باعثها كما جاء في مطلع السورة تقوى الله تعالى.[1]

ثم أردف ذلك بنداء المؤمنين وأمرهم بالانقياد إلى الله والرسول في كل أمورهم، وجاءت الاستعارة تصوّر سوء الاختلاف ،و تنفّر منه ،و تصوّر حسن إرجاع الشيء إلى أصحابه الذين هم أكثر دراية به، فقال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ النساء (٥٩)، و هذا نمو عظيم لمعنى الاجتماع على توحيد الله و كتابه ،فهي قيادة ربانية لا بشرية؛ كقيادة أهل الكتاب لغيرهم ،وهي آية عظيمة تبين عن أصول التشريع، وبها ختم هذا المعنى الجزئي .

وهذه الآية تمهيد للكلام عن المنافقين الذين تركوا طاعة رسول الله ﷺ والذين سترد سالفتهم بعد أهل الكتاب مباشرة .

<u>و مركز المعنى في هذا الجزء</u>: هو إثبات ضلال منهج أهل الكتاب ببيان سوء أعمالهم، وكشف خباياهم ،والتعقيب على كل ذلك ببيان المنهج الصحيح من طاعة الله ورسوله ﷺ .

---

(١) جمع البيان القرآني بين الاثنين معا في صراحة في سورة البقرة حين قال تعالى: ﴿ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ (٢٨٣) .

ولما كان الحديث عن أعمال أهل الكتاب يبين نكارتها ؛جاء الاستفهام الإنكاري والتعجبي يعضد هذا البيان عنهم،فقال: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ} (مرتين)- {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ}-{أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ} {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ }.

المعنى الجزئي الثاني من المعقد الكلي الثاني :

حال المنافقين وبيان ضلال منهجهم : من قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا . . . ﴾ (٦٠)، إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ . . . ﴾ (١٢٤) .

ابتدر النظم الكريم الحديث عن المنافقين بالتعجب من حالهم من الكذب على محمد ﷺ وعدم طاعته فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ . . . ﴾ النساء (٦٠)، وهو خطاب ينتظم مع ما كان يخاطب به أهل الكتاب من إنكار أفعالهم عن طريق الاستفهام .
ويمضي الخطاب القرآني مخاطبا الرسول ﷺ متعجبا من حال المنافقين في صدهم عنه[1] ورغبتهم في حكم الطاغوت عن حكمه ﷺ ،وتبريرهم عند افتضاحهم بإرادة التوفيق والإحسان والله أعلم بسرائرهم .

(١) نزلت في رجل من المنافقين يقال له: بشر خاصم يهوديا فدعاه اليهودي إلى النبي ﷺ ،ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف ،ثم إنهما احتكما إلى النبي ﷺ فقضى لليهودي،فلم يرض المنافق وقال: تعال نتحاكم إلى عمر بن الخطاب، فقال اليهودي لعمر: قضى لنا رسول الله ﷺ فلم يرض بقضائه،فقال للمنافق: أكذلك؟ قال: نعم. فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما،فدخل عمر فاشتمل على سيفه،ثم خرج فضرب عنق المنافق حتى برد ثم قال:هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله. فنزلت الآية (ينظر جامع البيان ٥ /١٥٥. وينظر الدر المنثور ٥٨٢/٢)

ولما قال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً ﴾ النساء (٦٤)؛ احتج على المنافقين ببيان أن الطاعة يعني القبول لمحمد ﷺ وتفسيره: "أن إرسال الرسول لما لم يكن إلا ليطاع كان من لم يطعه ولم يرض بحكمه لم يقبل رسالته ،ومن كان كذلك كان كافرا مستوجب القتل."(١) ثم أطلق هذا الحكم مؤكدا له فقال: ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾ النساء (٦٥)،و ساعد على بيان هذا المعنى مجيء (حتى) لإفادة انتهاء الغاية في التحاكم إلى المصطفى ﷺ ورسخ هذا المعنى وأعلا درجته حين عطف بذكر عدم الضيق من حكم رسول الله ﷺ ولو في النفس ،و حين أبان الانقياد التام بالعطف بفعل التسليم وإتيان المصدر منه. و لما كان الأمر بطاعة الرسول ﷺ مسوقا بأسلوب الترهيب من نقيضه أردفه بالترغيب فيه بذكر منزلة المطيعين لله ورسوله؛ من صحبة المنعم عليهم في الجنة من النبيين و الصديقين والشهداء والصالحين ،وختم بما يحفّز على صحبتهم من الثناء والإشادة ،فقال: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً *ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ عَلِيماً ﴾ النساء (٦٩ –٧٠) ،و هما موضعان يتصاعد فيهما معنى الاجتماع على توحيد الله وكتابه ؛لأنه أفهم في الأول أن الرضى والتسليم بحكم الرسول ﷺ أصل في الإيمان و ركيزة لا يتم إلا بها ،ثم حفّز عليه بذكر الرغائب من مصاحبة الأخيار في الجنة و التنعم معهم ،و الإشارة ببعد المكانة لكل ذلك،ثم استغراق هذا النعيم لأجناس الفضل كلها .

---

(١) تفسير البيضاوي ٢٢٢/١ .

"ولما دلّ على درجة الشهادة بعد ما ذكر من ثواب مَنْ قبل موعظته ولو في قتل نفسه([1])وذم من أبى ذلك بعد ما حذر من الأعداء من أهل الكتاب و المشركين و المنافقين المخادعين فتوافرت دواعي الراغبين في المكارم على ارتقابها ؛التفت إلى المؤمنين ملذذا لهم بحسن خطابه نادبا إلى الجهاد ،مع الإرشاد إلى الاستعداد مما يروع الأضداد"([2])،فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً﴾ النساء(٧١) فالنفرة للجهاد تكون إما بالجماعات المتفرقة أو الجماعة الكبيرة تلبية لنداء الداعي الذي يفضي إلى الحيطة والحذر اللازمين للمؤمنين ."و الآية وإن نزلت في الحرب لكن يقتضي إطلاق لفظها وجوب المبادرة إلى الخيرات كلها كيفما أمكن قبل الفوات."([3]) والآية على معنييها الخاص و العام تعزز معنى الاجتماع على التوحيد وتدل على أهميته.

ولما قال: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً﴾النساء (٧٢) أعلم عن حال المنافقين في الحروب فهم يبطئون في الخروج عن غيرهم ،و إن أصاب المؤمنين هزيمة أو قتل وجراح قالوا: قد أنعم الله علينا إذ لم نكن معهم وقعة القتال،وإن أصاب المؤمنين نصر وغنيمة قالوا:يا ليتنا كنا معهم فنصيب من الغنيمة!وجاء بالتشبيه التمثيلي ليبين عن محبة المنافقين لأنفسهم دون المؤمنين، وليبين عن محبة المادة و المصلحة لهم خاصة.وفيه كشف لحقيقة ضمائرهم،وسوء أخلاقهم وكراهتهم للمؤمنين.و فيه تصوير لحرصهم على العائد المادي .وزاد قيمة هذا التشبيه اعتراضه بين فعل القول ومقوله،بيانا لأهمية معرفة حالهم قبل قولهم،حيث قال: ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيتَنِي كُنتُ

---

(١) حين قال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً﴾ النساء (٦٦) .

(٢) نظم الدرر ٢٧٨/٢ .

(٣) تفسير البيضاوي ٢٢٤/١ .

مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ النساء (٧٣) . "و لعله خص الحالة الثانية بالتشبيه لأن ما نسب إليه فيها لا يقتصر عليه محب ،وأما الحالة الأولى(١) فربما اقتصر المحب فيها على ذلك قصدا للبقاء لأخذ الثأر و نكال الكفار. و ذكر المودة ؛لأن المنافقين كانوا يبالغون في إظهار الود والشفقة والنصيحة للمؤمنين ." (٢)

و لما سبق ذم المنافقين على إبطائهم في الخروج في سبيل الله؛أردف بأمر المؤمنين المخلصين بالخروج للقتال في سبيله،والاستنكار على المنافقين في عدم قتالهم. و لما أبان أن المقاتلين فئتان ؛فئة تقاتل في سبيل الله ،و أخرى في سبيل الطاغوت، و جعل المقاتلين في سبيل الطاغوت أولياء للشيطان ؛أقفل بقوله: ﴿ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ النساء (٧٦)؛لأنه لما كان الشيطان ذا أثر في ضعاف النفوس من المنافقين؛أبان النظم الكريم ضعف كيد الشيطان تثبيتا للمؤمنين، و نصرة لأقدامهم، و قهرا وغلبة لغيرهم من المنافقين .

وساق البيان القرآني أعمال المنافقين مخاطبا للرسول ﷺ بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ مستنكرا عليهم أعمالهم التي منها: خشيتهم من الكفار في القتال خشية تبلغ خشيتهم لله ،ونسبة السيئة إلى الرسول ﷺ و الحسنة إلى الله،و إعلانهم الطاعة للرسول ﷺ ثم تغيير أقوالهم زعزعة للمسلمين،و من أعمالهم:أنهم إذا جاءهم خبر عن سرية للمسلمين بانتصارها أوانهزامها أفشوا ذلك الأمر بين الناس إفشاء مفسدة .و يفصل ذلك كله ببيان المنهج المنيع وهو رد الأمر إلى الرسول وإلى أولي الأمر،و هو نفس الأمر الذي أُمر به أهل الكتاب ، فكان من باب التماثل بين المعاني بين المعنيين الجزئيين في المعقد الواحد .

---

(١) الحالة الأولى في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً ﴾ النساء (٧٢) .

(٢) نظم الدرر ٢٧٩/٢ .

و لما كان أمر الجهاد عظيما، وكان البيان القرآني قد أمر بالنفرة جماعات متفرقة أوجماعة كبيرة ،و كان قد كشف أسرار المنافقين،وأبان أنهم لا خير فيهم ؛قال بعدها: ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ . . . ﴾ النساء(٨٤) ،فمن الاجتماع على التوحيد :الاجتماع على القتال في سبيل الله وقوله: ﴿ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ دلالة صريحة على معنى ضرورة اجتماع المؤمنين،لا يضرهم تخلف المتخلفين ولا قعودهم ،و لما قال: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أعلم عن ثمرة الاجتماع على القتال من كف بأس الكفار عنهم،و ختم بما يناسب ذلك من قوة الله وقهره النازل بالكفار ،و إنما كانت الدعوة إلى الاجتماع دعوة إلى الامتثال . وكان هذا المعنى من تصريف القول بالأمر بالاجتماع على التوحيد .

ولما كان أمر المنافقين قد أصبح من الظهور بمكان ؛أنكر البيان القرآني على المؤمنين الاختلاف في أمرهم(١)،فذكّرهم بمحبة المنافقين لرجوع المؤمنين عن الإيمان ونهاهم عن اتخاذهم أولياء ؛حتى يبرهن المنافقون على صدقهم بالهجرة؛وإلا فلهم القتل أينما كانوا .و استثنى من المنافقين فريقين،فريق يتصلون وينتهون إلى قوم عاهدوا المؤمنين ،و فريق جاؤوا للمؤمنين وقد كفوهم وكفوا قومهم القتال فلحقوا بالمعاهدين .

ثم كشف البيان القرآني عن فريق آخر من المنافقين يظهرون الإسلام للمؤمنين ليأمنوهم،وإذا لقوا قومهم عبدوا معهم ما يعبدون من دون الله ليأمنوا على أنفسهم ،وأمر بقتالهم .

(١)عن زَيْدِ بن ثابتٍ– رضي الله عنه– فما لَكُمْ في الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ: رَجَعَ نَاسٌ من أَصْحَابِ النبي ﷺ من أُحُدٍ ،وكان الناس فِيهِمْ فِرْقَتَيْنِ ؛فَرِيقٌ يقول: اقْتُلْهُمْ ،وَفَرِيقٌ يقول: لَا ،فَنَزَلَتْ فما لَكُمْ في الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ. وقال: إِنَّهَا طَيْبَةُ تَنْفِي الْخَبَثَ كما تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الْفِضَّةِ (صحيح البخاري .كتاب التفسير .رقم الحديث(٤٣١٤) باب قوله تعالى : {مالكم في المنافقين ...} ٤/١٦٧٦ .

كل ذلك يبين عن المنهج المتبع في التعامل معهم على أساس من العدل الذي مناطه تقوى الله. و لما كان المنافقون مندسين بين المسلمين، وكان القتل الخطأ مظنة الوقوع؛ حذّرتعالى بعدها من قتل المؤمنين بعضهم لبعض إلا ما كان خطأ، ومع الخطأ لا بد أن تكون هناك كفارات، فهدد وتوعد من القتل العمد.

كل ما مرّ معنا من إرشادات هو منهج وُضع للتعامل مع المنافقين على أساس من التقوى، فكل أمر أو نهي لم يكن للظلم طريق إليه ؛ولذلك نادى المؤمنين و أمر هم بالتبيّن والتأكد قبل قتل النفس، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . . ﴾ النساء(٩٤)، "ولما ناسبت هذه الآية ما قبلها من آية القتل العمد، والتفتت إلى: {وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ}، وإلى آية التحية ،فاشتد اعتناقها لهما، وعلم أن في الضرب في سبيل الله هذا الخطر ،فكان ربما فتر عنه ؛بين فضله لمن كأنه قال: فحينئذ نقعد عن الجهاد لنسلم بقوله: { لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} "(١)، فالالتفات الذي قُصد هنا هو حصول معنى انقياد المؤمنين للرسول ﷺ من التحريض للقتال الذي حرّضهم عليه .وتكميل معنى آية التحية السابقة بهذه الآية التي تنبئ بضرورة التبيّن، فالتفتت المعاني في هذه الآية إلى أجزائها في الآيات السابقة ،فاشتد عناقها لها، وارتباطها بها، وكانت تسعى إلى تكميل بعضها .

و لما كانت الرحمة مطلوبة بين الناس؛ كان الآمر بها أرحم الراحمين، وكان من الرحمة بالمسلمين أن جوّز تعالى قصر الصلوات وقت الخوف في الحروب، و أبان عن كيفيتها .

و استمرت نفحات الرحمة بعد ذكر الصلاة من تثبيت قلوب المسلمين أمام الأعداء، ومن الأمر بتجنب الخائنين وعدم جدالهم ،ومن فضح حالهم ؛حيث يخافون الناس ولا يخافون الله ويبيّتون مالا يرضي من القول، و يرمون الأبرياء بالإثم .

---

(١) نظم الدرر ٢/٣٠٠ .

و لما كـان هذا المعقد يقوم على عنصرين:الأول : يتحدّث عن أهل الكتاب ،وعدم تصديقهم بمحمد ﷺ ،و بيان ضلال منهجهم . الثاني: يتحدث عن المنافقين و خداعهم للمسلمين، و بيان ضلال منهجهم، لما كان ذلك كذلك ؛ختم الحديث في هذا المعقد بقاعدة وركيزة لمن ضلّ الطريق بسبب عدم الانقياد للرسول ﷺ ووصل بالمعنى إلى قلب السورة الكائن –والله أعلم– في قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً * إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً ﴾ النساء(١١٥–١١٦) فلما كان الإيمان ركيزة في التعامل على أساس من التراحم والتعاطف ؛أعلم عن أن هذا المكان لا يكون إلا لمن كان طائعا لرسول الله ﷺ غير مشاقّ له،و عطف على المشاقة اتباع غير سبيل المؤمنين تتميما للمعنى؛لأنه " لما كان المخالف للإجماع لا يكفر إلا بمنابذة المعلوم بالضرورة ؛عبّر بعد التبين بالاتباع فقال: { وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ }."(١)،فأعلم أن المشاقّة هي اتباع غير طريق المؤمنين . وبنى الكلام على الشرط وأتى بالجواب: ﴿ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ﴾ ،فأعلا درجة الترهيب؛لأن معنى الكلام :"نجعل ناصره ما استنصره واستعان به من الأوثان والأصنام ،وهي لا تغنيه ولا تدفع عنه من عذاب الله شيئا ولا تنفعه." (٢) وزاد الوعيد إيلاما بإردافه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً ﴾ فرغب في التوبة إليه ،والعودة إلى الصواب ،ورهب من الشرك به في آن معا على سبيل التأكيد،وأقفل الآية بجملة الشرط التي تفيد إثبات الضلال لمن يشرك بالله ،وأكده بمصدر الفعل ،وزاده سوء بوصفه بالبعد عن الحق . ولما كان الشـرك أعظم أنواع الضلال وأبعدها عن الصواب كانت فاصلة الآية متمكنة في محلها فَوَصْفُه بكونه بعيدا معناه :أن صاحبه لا يُرجى رشاده .

---

(١) نظم الدرر ٢/ ٣١٨ .

(٢) جامع البيان ٥/ ٢٧٧ .

و بهاتين الآيتين بلغ النظم الكريم بمعنى الاجتماع على التوحيد الذروة لأن الآية الأولى تدل على "حرمة مخالفة الإجماع "(١) الذي هو المنهج القويم ،والآية الثانية تبين عن طريق الضلال الذي ينتظر كل من يبعد عن المنهج الأول ،والذي لا مغفرة فيه ولا هوادة .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ النساء(١١٦) من المتشابه في السورة (٢)بين معنيين جزئيين في معقد كلي واحد ،مما جعل النظر في سياقهما قريبا جدا، فالآيتان مكملتان لمعنى كليهما من حيث سلك المنافقين والكافرين في سلك واحد من الوعيد ؛لاتفاق عقيدتهما المنطوية على الشرك بالله .

ثم أصّل البيان القرآني قاعدة مهمة تجمع أهل الكتاب والمنافقين في سلك واحد -كما هو أسلوب السورة- فإن مَنْ يشرك بالله،يتبع الشيطان،و يتخذه وليا ،وهو من الغرور والأماني،و المتبعون له مأواهم جهنم لا محيص عنها، وفي المقابل فإن الذين آمنوا لهم

---

(١) تفسير البيضاوي ٢٣٧/١ .

(٢) لما كان حال أهل الكتاب من الافتراء والكذب وإلباس الحق باطلا والباطل حقا فقال في الأول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ النساء (٤٨)؛ ختم بما يتناسب مع جرمهم الذي اقترفوه .و لما كان حال المنافقين من التمويه والتضليل للمؤمنين ،و قد جاءهم الرسول بالهدى والبيان ؛ختم بما يتناسب مع جرمهم،فقال: ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ فأُعيد بيان عظم الشرك توعدا لصنف آخر من الكفار الذين لم يدخلوا في جملة مَنْ تقدم ذكرهم ليعلم عن موافقة المنافقين لهم في دينهم .(بتصرف درة التنزيل ٤٠٤/١-٤٠٥)

قال الرازي عن فائدة تكرار الآية ما حاصله: إن فيها فائدتين ؛الأولى :أن الآية مشتملة على وعد ووعيد ،وأنه تعالى ماأعادآية من آيات الوعيد بلفظ واحد مرتين ؛ولكنه أعاد هذه الآية الدالة على العفو بلفظ واحد في سورة واحدة ،وقد اتفقوا على أنه لا فائدة في التكريرإلا التأكيد ،وهذا يدل على أنه تعالى خص جانب الوعد و الرحمة بمزيد التأكيد فرجح وعده على وعيده .

الثانية: أن الآيات المتقدمة في النظم الكريم نزلت في سارق الدرع، وهذه نزلت في ارتداده ،و هذه الآية يحسن اتصالها بما قبلها لو كان المراد أن ذلك السارق لو لم يرتد لم يصر محروما عن رحمة الله ،و لكنه لما ارتد وأشرك صار محروما قطعا .(ينظر التفسير الكبير .المجلد السادس ٣٦/١١ .) وهذا نظر يبين أن المعاني يتجاذب بعضها إلى بعض و يتكامل الفقه بها برد بعضها على بعض .

الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، وذلك وعد من الله،ومن أصدق من الله قيلا ؟! فلا غرور ولا أماني .و هذا تقابل بين المعنيين .

و مركز المعنى في هذا الجزء: إثبات ضلال المنافقين بفضح خفايا أفعالهم وخبايا نفوسهم المنطوية على سوء معتقدهم واتخاذهم الشيطان قرينا ،مع بيان المنهج السليم من طاعة الله ورسوله وعدم المشاقة والعصيان .

و العلاقة في هذا المعقد بين جزئيه بارزة جدا ؛ فكما بدأ الحديث عن أهل الكتاب والمنافقين بتوجيه الخطاب إلى النبي بقوله: { ألم تر } وكما افتتح الحديث عنهما بتقديم يشمل وصفهما بما يشير إلى حالهما، من اتخاذهما الشيطان قرينا،و بتساويهما في ذنب الإشراك مع عظمه؛اختتم الكلام عنهما بتكرار خسارتهما لاتخاذهما الشيطان وليا،و ببيان مصيرهما مع نفي الولاية و النصرة من الله ،و نفي وقوع الظلم عليهم .

وذكر الصلاة في مقام الحديث عن المنافقين يذكرنا بذكرها أيضا في مقام الحديث عن أهل الكتاب ،وهو من التماثل في المعاني .

و في المعنيين بيان عدم الاكتراث بتكذيب أهل الكتاب و المنافقين ،وبيان أن هناك مَنْ استجابوا لداعي الإسلام،و مكتفى بهم ؛إلا أنه لما كانت الدعوة عامة ،و كان الباب مفتوحا للتوبة؛ كان الحرص على إيمان الناس جميعا؛رغبة في إيمانهم . فلما تشابهت قلوب الكفار والمنافقين من الكفر بالله ؛تماثلت المعاني المطروقة بشأنهم وتبعتها أساليبها ،وهذا يدل على انسجام بين المعنيين الجزئيين .

المعقد الكلي الثالث في سورة النساء :

العزة والكفاية بالانقياد لله ورسوله لا بالاستنكاف والمكابرة: من قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً . . . ﴾ (١٢٥)، إلى قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ . . . ﴾ (١٧٥) .

ويقوم به معنيان جزئيان :

المعنى الجزئي الأول من المعقد الكلي الثالث :

بيان أصل الدين وتقرير مصائر العباد حسب قربهم أو بعدهم من هذا الأصل : من قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ . . . ﴾ (١٢٥) ، إلى قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ . . . ﴾ (١٥٢).

افتتح هذا المعقد الكلي ببيان أصل الدين عند الله اعتقادا وعملا ،فالدين عند الله الانقياد،و عبّر عن هذا الانقياد – كعادة القرآن –بإسلام الوجه،أي: انقياده . و لما كان منهج الذين أوتوا الكتاب و المنافقين قائما على الاستكبار و الاستنكاف،و قائدا إلى جهنم ولا محيص عنها ؛أوضح البيان القرآني المنهج الحق الذي يقود إلى العزة والكفاية،وهما مستمدان منه تعالى ولا غير،و هذه العزة أول ما تبرز في أحكام الله تعالى التي فرضها على عباده ،فحفظ الإسلام للمرأة حقوقها في إرثها بعد أن كانت مسلوبة الحق في الجاهلية وأصلح حالها بالنظر إلى وضعها مع زوجها إن خافت منه استعلاء بنفسه عنها. وأمر الرجال بالعدل مع التقوى والإصلاح حال تعدد النساء .

و لما كان شأن الأسرة عظيما،وكان الأمر بالتقوى قرين الحديث عن أحكامها؛أردف بما يدل على القدرة مع الغنى ؛ليكون ذلك أقدر على الطاعة، وأمنع عن المعصية فقال: ﴿ وَلِلّهِ

مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ غَنِيّاً حَمِيداً ﴾ النساء (١٣١)، وختم بما يناسب تلك القدرة من الاستغناء، فتمكنت الفاصلة في مكانها. وإذا كان تعالى هو القادر فلابد أن يكون هو الكافي؛ إذ يلزم من القدرة الكفاية؛ لذلك كرر فقال: ﴿ وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً ﴾ النساء (١٣٢).

وأتى بدلائل القدرة مباشرة؛ فمن دلائل قدرته: الإنشاء و الإعدام، فكما خلق الناس كلهم من نفس واحدة يعودون إليها؛ فهو قادر على إعدامهم و الإتيان بآخرين بصفات غير تلك التي عليها هؤلاء من الكفر والجحود والنكران. و هذا الكلام فيه من ردّ الأعجاز على صدورها حين ذكر تعالى فضله على عباده في الخلق من نفس واحدة، وبث من هذه النفس أناسا في أول آية من السورة.

فالعزة و الجلال، و الولاية و الكفاية بيد الله لا غير لأنه الملك. و إذا كان ذلك كذلك فطريق العزة هو الانقياد لصاحبها سبحانه -عز وجل- و هو ما صرّح به تعالى قبل ذلك حين قال: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ النساء (١٢٥).

و لما كان موضوع السورة قائما على الاجتماع على التوحيد، و كان لاجتماع الناس بواعث؛ من أهمها: العدل و الرحمة الذي حرّض لوجودهما تقوى الله؛ جاء الأمر بالعدل ولو على النفس أو الوالدين والأقربين، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ . . . ﴾ سورة النساء (١٣٥)، ورتبها ترتيبا تصاعديا، مما يعز على الفرد. يقول الفخر الرازي عن هذه الآية: " لما تقدم ذكر النساء و النشوز و المصالحة بينهن وبين الأزواج؛ عقبه بالأمر

بالقيام بأداء حقوق الله تعالى ،و بالشهادة لإحياء حقوق الله ،و بالجملة فكأنه قيل: إن اشتغلت بتحصيل مشتهياتك؛كنت لنفسك لا لله،وإن اشتغلت بتحصيل مأمورات الله كنت لله لا لنفسك. و لا شك أن هذا المقام أعلى و أشرف،فكانت هذه الآية تأكيدا لما تقدم من التكاليف " ([1]).و هذا نظر في تناسب الآية في موقعها من معناها الجزئي وفي موقعها الكلي من السورة كلها .

و ثنى البيان القرآني بأمر المؤمنين بالإيمان بالله ورسوله والكتاب الذي أنزل من قبل فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ. . .﴾ النساء (١٣٦) ،" و إنما وصفهم بأنهم آمنوا وذلك وصف لهم بخصوص من التصديق، و ذلك أنهم كانوا صنفين :أهل توراة مصدقون بها ،و بمن جاء بها، وهم مكذبون بالإنجيل و القرآن و عيسى و محمد – صلوات الله عليهما – و صنف أهل إنجيل، و هم مصدقون به و بالتوراة و سائر الكتب ،مكذبون بمحمد ﷺ و الفرقان ."([2])و ذكر الكتاب الذي أنزل من قبل فيه مراعاة حال أهل الكتاب؛و إلا فإن قوله: (وكتبه) كاف للإبانة عن اشتراط الإيمان بجميع الكتب حتى يتحقق الإيمان .

فالذين آمنوا ليسوا حصرا على المسلمين في هذه الآية؛إنما يشمل كل من آمن بالتوراة والإنجيل؛لذلك أمرهم تعالى بالإيمان بالله و بمحمد ﷺ و بالقرآن،فهو خطاب عام توعد فيه

([1]) التفسير الكبير .المجلد السادس ١١/ ٥٨ .

([2]) جامع البيان ٣٢٦/٥ . وتوسع ابن عطية فذكر آراء الفرق فقال :" فقالت فرقة: الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى من أهل الكتابين،أي: يا من قد آمن بنبي من الأنبياء،آمن بمحمد ﷺ ، ورجح الطبري هذا القول.وقيل :الخطاب للمؤمنين على معنى: ليكن إيمانكم هكذا على الكمال و التوفية بالله تعالى وبمحمد ﷺ وبالقرآن وسائر الكتب المنزلة،ومضمن هذا الأمر الثبوت والدوام. وقيل: الخطاب للمنافقين أي :يا أيها الذين أظهروا الإيمان بألسنتهم ،ليكن إيمانكم حقيقة على هذه الصورة " (المحرر الوجيز ٢٣٥/٢) .

المولى الكافرين به و بملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر بالضلال البعيد، و الضياع والميلان عن القصد .

وبعد تقرير هذا المبدأ و تأصيله بين الله تعالى مصير الكفار من اليهود الذين آمنوا بموسى ثم ارتدوا حين عبدوا العجل ،ثم آمنوا أخرى حين عاد إليهم ،ثم كفروا بعيسى –عليه السلام– و كفروا بمحمد ﷺ من نفي المغفرة، و نفي الهداية .ثم أردف بذكر مصير المنافقين الذين اتخذوا من الكافرين أولياء من دون المؤمنين من البشارة بالعذاب الأليم ،و الحرمان من العزّة التي ابتغوها عند الكافرين .و هذا التفات إلى المعقد السابق بمعنييه الجزئيين وكأنه طي مرتب لما نشر قبل ذلك في المعقد السابق ،ولما أفرد لكل فئة حديثا جمعهم صراحة فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً ﴾النساء (١٤٠) .

و الذي يظهر أن الحديث في هذا المقام عن المنافقين كان أوسع وأطول ،و لم يخل فيه عن الكفار؛و لكن لما كان أمر الكفار أقرب إلى الوضوح ،وأمر المنافقين أقرب إلى المراوغة ؛فصّل الحديث عن المنافقين وأشبعه، فكثّف وصفهم بلفظ (الكفر) على اختلاف اشتقاقاته، فذكره ثلاث عشرة مرة ؛بيانا لكون المنافقين من زمرة الكفار، فلا يشفع لهم إظهارهم الإيمان و هو عند الله أكبر ذنبا ؛لقوله : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾النساء (١٤٢) .

و لما كانت هذه السورة قائمة على العدل ؛أبان البيان القرآني أن المنافقين هي فرقة مذبذبة بين المؤمنين و الكافرين ،قائمة في أسلوب حياتها على الخداع و المراوغة، وربط ذلك بالصلاة، و قد سبق أن ربط الحديث عن أهل الكتاب بالصلاة ،ثم الحديث عن المنافقين بالصلاة كذلك، فكان تماثلا في طرق المعاني يبين عن مكان الصلاة من الدين .

و لأن المنافقين فاقوا الكفرة خبثا من حيث جمعهم بين الكفر بآيات الله ،والاستهزاء بها والخداع للمؤمنين ؛توعدهم الله بالدرك الأسفل من النار .

و لما كان تعالى رحيما بعباده؛ ظهر ذلك جليا في السورة على صعيد المعاني الجزئية كلها حتى قال في هذا السياق بعد ترغيب الكافرين في التوبة: ﴿ مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً ﴾ النساء (١٤٧) .

ثم إنه في السياق الذي يليه سيتناول في جزء كبير منه حديثا عن الكفار؛لذلك اقتصر الإطناب على المنافقين في بيان أفعالهم في هذا المقام ،وسيتلوه الحديث عن الكفار .

وكان ختام الحديث عن المنافقين والكفار مقابلة بين حالهم وبين حال المؤمنين فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً * وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ النساء (١٥٠-١٥١-١٥٢) . و هذا تصريف للقول بضرورة تحقيق الاجتماع على التوحيد بين الناس جميعا،ومن يتول فهو كافر ولا غير ذلك.

و مركز المعنى في هذا الجزء هو بيان أصل الدين وبعد الكفرة و المنافقين عن الطريق القويم ؛أي ضلالهم و بعدهم عن كل مقومات العزة والكفاية التي لا توهب إلا لمؤمن ؛و لذلك كُثّف مايدل على الإسلام والكفر ،وما يسوق إليهما من الأعمال .

المعنى الجزئي الثاني من المعقد الكلي الثالث :

بيان مصائر الأمم السابقة من الكافرين (قوم موسى–قوم عيسى)و بعدهم عن أصل الدين :من قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ. . . ﴾ (١٥٣)، إلى قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ . . . ﴾ (١٧٥) .

في هذا المعنى الجزئي بيان آخر لبعد الكافرين عن المنهج الحق و ضلالهم و استكبارهم واقتضاء ذلك نفي العزة عنهم ،فخاطب النظم الكريم الرسول ﷺ خطاب تسلية ،ومعناه: إن كان هذا حال الكفار و المنافقين معك،و إن كان هذا حال اليهود من التحدي والاستكبار؛أن سألوك أن تنزّل عليهم كتابا من السماء جملة ،فقد سألوا موسى– عليه السلام – أكبر من ذلك،و قد جازاهم الله على استكبارهم بالصعق ثم أحياهم،ثم تمادوا باتخاذهم العجل،ثم عفا الله عنهم .

ثم ذكر تعالى رفع الطور، وأخذ الميثاق، ونقضهم له، وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء وقولهم البهتان على مريم،و قولهم بقتل المسيح . و أبان عن مجازاته لهم ؛فجازاهم بظلمهم وبصدهم عن سبيل الله ،و أخذهم الربا و قد نهوا عنه، و أكلهم أموال الناس بالباطل ،فأعدّ لهم العذاب الأليم . ولما كان هذا الحال لا ينطبق على كل أهل الكتاب؛لأن فيهم من آمن بالله قال تعالى: ﴿ لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً ﴾ سورة النساء (١٦٢)،وتبعها بما يبين عن اتحاد رسالة الرسل،و معناه: أنه متى كانت دعوى الرسل واحدة ؛كانت معاناتهم مع أقوامهم واردة،و الأنبياء من الكثرة بمكان حتى إن بعضهم قد قصّهم الله تعالى على محمد ﷺ ،و بعضهم لم يقصصهم .و المذكورون من الأنبياء وغير المذكورين يشتركون في وظيفة الإنذار والتبشير حتى تقام الحجة على

الناس، وقوي الحديث الذي يسلي به الرسول ﷺ بقوله: ﴿لَّكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ النساء (١٦٦) ،فشهادة الله هي العزة والكفاية، والكفار ليس لهم إلا الذلة و المهانة،و هو ما عبّر عنه بالضلال البعيد، وعدم الهداية إلى طريق صالح ،إنما هو طريق واحد أمامهم يسلك بهم إلى جهنم.

ثم زاد الكلام يقينا و تأكيدا و منعة و قوة حين نادى الناس نداء عاما،و وصف مجيء الرسول ﷺ بالحق من عند الله،ثم ألحق بذلك أمرهم بالإيمان و وصفه بالخير العائد عليهم حين قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُواْ خَيْراً لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ النساء(١٧٠)
و لما ذكر البيان القرآني ما كان من قوم موسى مع نبيهم تسلية لمحمد ﷺ ؛ذكر ما كان من قوم عيسى — عليه السلام — من الغلو في الدين وتقديسهم لعيسى -عليه السلام- .
ولما كان حال النصارى لا يختلف عن حال اليهود من الاستنكاف عن عبادة الله ؛أوضح حال عيسى مع ربه ابتداء فقال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً﴾ النساء(١٧٢)،فأصّل اعتراف عيسى-عليه السلام- بعبوديته لله، و فيه تبكيت وتعنيف و تعريض بالنصارى الذين يزعمون أن عيسى دعاهم لعبوديته من دون الله. وأصّل في صراحة مصائر العباد الطائعين له والمستنكفين عن عبادته تعالى ،فأثنى على المطيعين له،و توعد المستكبرين عن عبادته بالعذاب الأليم مع انتفاء النصرة و الولاية ،وهذا معناه الذلة و المهانة .
وقبل الوصول إلى ختام السورة نادى الله تعالى الناس عامة نداء آخر يخبرهم على سبيل الإنذار بأن الرسول ﷺ هو الحجة ،و معه النور المبين ؛و هو القرآن الكريم ،وقد بلغتهم

الحجة فلا مجال للاعتذار في يوم القيامة فقال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴾ النساء (١٧٤) فلما " أزاح شبه جميع المخالفين من سائر الفرق: اليهود والنصارى و المنافقين وأقام الحجة عليهم، وأقام الأدلة القاطعة على حشر جميع المخلوقات؛ فثبت أن كلهم عبيده عم في الإرشاد لطفا منه بهم ." (١)

وهذا نظر في سياق الآية الكريمة من السورة كلها .

ثم لما قال تعالى بعدها : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ النساء (١٧٥) ؛ قرر حقيقة في نهاية السورة ؛ وهي أن لمتبعي منهج الرسول جزاء عظيما ، فعبّر عنه بقوله: {رحمة} ، و عطف عليها قوله: {فضل} ، وذلك فيه من عموم الجزاء ما لا يوصف، و ساعد عليه تنكير كل من اللفظين السابقين ، و فيهما من الوجازة ما لا يُحد بحد .

ومركز المعنى في هذا الجزء هو تقرير العزة المكتسبة من الإيمان بالله المقتضية للهداية، ونقيضها من الذلّة المكتسبة من الكفر بالله المقتضي للضلال؛ ولذلك كُثّف الحديث عن جزاء المسلمين من الولاية، و الكفاية، و الوكالة، و الإحسان، و النصرة، و توفية الأجور، مع بيان معرفتهم للطريق والسبيل وحصول الهداية .وعلى النقيض من ذلك جاء ذكر الكفار وكُثّف وصفهم بالكفر، وجاء ذكر جزائهم من العذاب الأليم، و انتفاء النصرة و الولاية، و المغفرة، و الهداية، مع فتح طريق واحد لا غيره أمامهم ؛ وهو طريق جهنم .

والعلاقة بين المعنيين الجزئيين علاقة تسلسل موضوعي هرمي؛ بدأ من أسمى المعاني وآصلها وهو بيان المنهج الرباني الصحيح، وسخّر بقية المعاني خدما لهذا المعنى الجليل؛ فبيان ضلال منهج أهل الكتاب و المنافقين، و معرفة مصائرهم مما يعزز المعنى

(١) نظم الدرر ٣٧٩/٢ .

الأصلي الأول،والكشف عن حقيقة عدم انقياد جميع الناس للرسل وبيان مصائرهم،ومقابلتها بمصائر المتبعين مما يدعم المعنى الأول. فالمعنى الأول محور المعقد الكلي الثالث وصلبه .

العلاقة بين المعاقد الكلية في سورة النساء(1):

لما أعدّ النظم الكريم الفرد في المعقد الكلي الأول للتعامل مع محيطه الضيق الذي يتساوى معه في المعتقد و المنزلة والمسئولية؛إعدادا يقوم على العدل،وعدم الظلم ،مع الإحسان في مجتمعه الداخلي؛أعده للتعامل مع محيطه الأوسع الذي يخالفه دينا وعملا إعدادا يقوم على الإحسان في كل شيء؛حتى في القتل وأخذ الحق؛و يقوم كذلك على العدل مع الحيطة والحذر ،وذلك امتثالا لأوامر المحسن الأعظم و العادل الأوفى –سبحانه و تعالى– .

فالتأسيس انطلق تدريجيا من الضيق إلى الواسع حتى يُعدّ الفرد للمواجهة و المجابهة ، فكثُفت الأوامر الصريحة في المعقد الأول فيما يخص الأيتام و النساء

---

(١) المعقد الكلي الأول :بناء المجتمع المسلم داخليا على أساس من التراحم الناشئ من الرحم:من قوله تعالى: ﴿ وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ . . . ﴾ النساء (٢) إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً . . . ﴾ النساء(٣٥) .

وقام به جزءان: الأول : التعامل مع اليتامى . و الثاني : التعامل مع النساء .

المعقد الكلي الثاني : بناء المجتمع المسلم خارجياً ضد أعدائه .من قوله :﴿ وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى . . . ﴾النساء (٣٦) إلى قوله : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً ﴾ النساء (١٢٤) .

وقام به جزءان:الأول :حال أهل الكتاب وبيان ضلال منهجهم . الثاني :حال المنافقين وبيان ضلال منهجهم .

المعقد الكلي الثالث: طريق العزة والكفاية بالانقياد لله والرسول لا بالاستنكاف والمكابرة ،من قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ النساء(١٢٥) إلى قوله: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ... ﴾النساء(١٧٥) .

وقام به جزءان :

الأول : بيان أصل الدين وذكرمصير العباد حسب قربهم أوبعدهم من هذا الأصل .

الثالث: ذكر مصير الأمم السابقة من الكافرين (قوم موسى– قوم عيسى).

في حين كُثِّف كشف حال أهل الكتاب و المنافقين و بيان مصائرهم في المعقد الثاني بأسلوب الحكاية حينا ،و الاستفهام الإنكاري حينا آخر ،و بالمقابلة بين مصائرهم ومصائر الذين آمنوا حينا ثالثا ،و تخلل ذلك أوامر وُجهت إلى الذين آمنوا خاصة ،فتوجه النداء إليهم ثلاث مرات ،وكل ذلك ليخبر في أناة عن الجبهة المضادة وليعلم بالتدريج عن الطريق المتبع في مواجهتها ،فيبين عن ضعفها ،ويكشف عن سبيل التعامل معها .

ولما حصن المجتمع المسلم ضد أعدائه داخليا ببنائه على أساس من القوة والرحمة ، وحصنه ضد أعدائه خارجيا بكشف أعمال الكفار والمنافقين وبيان ضلالهم ؛أبان عن طريق العزة والكفاية من الانقياد والإذعان لله تعالى ولا غير .

وفي هذا المعقد الأخير لم يكن هناك تكثيف للأوامر كما في المعقدين الأولين ،إنما كان هناك تكثيف لعنصر التقرير باستخدام (إن) حينا ، والجملة الاسمية حينا آخر ،والنفي في المستقبل حينا ثالثا ،وإنما كان ذلك كذلك ؛لأن المعقد الثالث جاء و قد انتهى المعقدان الأولان من مرحلة التأسيس ،فجاء بالتكميل ،ووضع النتائج التي لا يُشكك فيها . فطبيعة المعاني سيقت مساق التقرير والتأكيد ؛حتى يحصل الترسيخ والتثبيت لما كان تأسيسا .

*　　　*　　　*

رابعا :

نمو المعاني وتآخيها وانسجامها في سورة المائدة

سورة المائدة من السور المدنية التي تكثر فيها المعاني ،فيطول النظر فيها،ويجول الفكر بين صفحاتها؛ليتأمل أتخدم تلك المعاني والأفكار بعضها بعضا فتتواصل و تتنامى أم أنها تتدابر وتتقاطع ؟!

اجتهد العلماء في تفصيل معاني سورة المائدة (١)؛إلا أن نظرتهم لتلك المعاني نظرة غير تفصيلية،ماعدا سيد قطب ويليه سعيد حوى . يرى سيد قطب أن سورة المائدة تتناول أفكارا عدة قسمها حسب آيات السورة فجعلها على تسعة دروس.(٢)

و ينظر سعيد حوى كذلك إلى معاني السورة فيربطها — كمنهجه — بسورة البقرة و بالأخص بقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ البقرة (٢٧) و ينتهي إلى تقسيم السورة إلى سبعة مقاطع .(٣) والملحوظ أن تحليل سيد قطب وسعيد حوى

---

(١) مثل:الفيروز أبادي في بصائر ذوي التمييز ٢/٦٥-٦٩ . و محمد رشيد رضا في تفسر المنار ٦/ ٣٧٤-٤٢٠ ..ط٢ .١٣٦٦هـ-١٩٤٧م .دار المنار — شارع الإنشاء بالقاهرة . و ابن عاشور في تفسير التحرير والتنوير ١٧/٧-١٠٥.

و سيد قطب في ظلال القرآن ٢/٨٢٥-١٠٠٣ .و سعيد حوى في الأساس في التفسير٣/١٢٩٥-١٥٥٤ . وعبد المتعال الصعيدي في نظم القرآن ٤٢-٤٦ .

(٢) الأول: من آية (١-١١) تذكير المسلمين بميثاقهم الذي واثقهم به. الثاني :من آية (١٢-٢٦) استعراض مواقف أهل الكتاب من مواثيقهم . الثالث:من آية (٢٧-٤٠) بيان بعض الأحكام التشريعية الأساسية في الحياة البشرية .

الرابع:من آية (٤١-٥٠) قضية الحكم والشريعة والتقاضي ومن ورائها قضية الألوهية والتوحيد والإيمان .

الخامس:من آية (٥١-٦٦) المنهج القرآني في تربية الجماعة المسلمة وإعدادها لدورها الذي قدّره الله لها .

السادس:من آية(٦٧-٨١) بيان حال أهل الكتاب وكشف الانحراف فيما يعتقدون . السابع:من آية (٨٢- ٨٦) بقية من الحديث عن اليهود والنصارى والمشركين وتقرير مواقفهم من الرسولﷺ ومن الأمة المسلمة .

الثامن:من آية (٨٧-١٠٨) قضية التشريع هي قضية الألوهية .التاسع:من آية (١٠٩-١٢٠) حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية كما هي في التصور الإسلامي(ينظر في ظلال القرآن ٢/٨٢٥-١٠٠٣)

(٣) الأول:من آية (١-١١) الأمر بالوفاء بالعقود . الثاني:من آية (١٢-٣٤) تفصيل في نقض العهد . ويتكون من ثلاث فقرات :

الفقرة الأولى : المواثيق التي أخذت على اليهود والنصارى،ودعوة أهل الكتاب للدخول في دين الله .

الفقرة الثانية : نموذج على عهد نقضه اليهود وهو نصرة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- .

متقاربـان،و تظهـر اسـتفادة سـعيد حـوى في عملـه مـن تحليـل سـيد قطـب،و يبـدو ذلـك جليـا في الأجـزاء الصـغرى مـن المعاني،أمـا المعنـى الكلـي الـذي يعرضـه سـيد قطـب فهـو تضـامن الجزئيـات للسـعي للأصـل الكـبير البـارز في هـذه السـورة و هـو الـدين. و عليـه فـالإقرار بـه كلـه هـو الإيمـان،و الحكـم بـه كلـه هـو الإسـلام ،هـذا إلى جانـب تصـحيح التصور الاعتقادي الذي يقوم عليه هذا التصور.

في حين يجعل سعيـد حوى القسـم الأول والثاني والثـالث هـو الـذي يكـوّن المقطـع الأول مـن السورة ،ثم الرابع والخامس يكوّنـان المقطـع الثاني،والسـادس والسـابع يكوّنـان المقطـع الثالث. وهذه المقاطع الثلاثة تتكامل في تبيان طريق الضلال وطريق الهداية .وتوضـيح قضـية الفسوق والخسران التي تقوم على أركان ثلاثة؛ هي:نقض العهد ،وقطـع مـا أمـر الله بـه أن يوصل، والإفساد في الأرض كما جاء في سورة البقرة .

و إدراكهما للتنامي و التصاعد ملحوظ في عملهما دون التصريح منهما بذلك؛بيـد أن المتبصّـر في صنيع كل يمكنه إدراك وعيهما بخصيصة التنامي .

و بـالنظر في سـير معـاني سـورة المائـدة يتضـح أن لهـا مطلعـا يقـع في جـزء مـن الآيـة الأولى(١)في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ﴾ المائدة (١)،ولها معقدان كليان تقـوم بهما معانٍ جزئية ،ويتآزر هذان المعقدان للوصول لمقصود السورة .

المعقد الكلي الأول: أحكام الله و تشريعاته أعظم المواثيق في كل الأديان والواجب الوفاء بها.

==الفقرة الثالثة : قصة ابني آدم ، وما رتّب الله عليها من أحكام .

الثالث : من آية (٣٥-٤٠) حسم مادة الفساد في الأرض بجهاد الكافرين وقطع يد السارق .

الرابع : من آية (٤١-٥٠) بيان أن الحكمة في إنزال التوراة والإنجيل هي أن يُحكم بهما وأن يُحتكم إليهمـا المقطـع. الخامس :من آية (٥١-٦٦)بيان أن من أسباب الضلال قطع ما أمر الله به أن يوصل. السـادس :مـن آيـة (٦٧-٨٦) الأمر بإبلاغ أهل الكتاب مع ذكر موقف بني إسرائيل. السـابع :مـن آيـة (٨٧-١٠٨) اسـتمرار لعمليـة الإبلاغ؛ولكـن الحديث منصب هنا على إبلاغ المؤمنين . (ينظر الأساس في التفسير ٣/١٢٩٥- ١٥٥٤ .)

(١) ينظر لتفصيل الكلام عن المعاني في مطلع السورة في فصل المطلع في سورة المائدة .

المعقد الكلي الثاني: اختصاص الله بالتشريع أصل في معنى الألوهية .

ومقصودها الأعظم كما ذكر البقاعي : "الوفاء بما هدى إليه الكتاب،ودل عليه ميثاق العقل من توحيد الخالق ورحمة الخلائق ؛شكرا لنعمه،واستدفاعا لنقمه ،وقصة المائدة أدل مافيها على ذلك؛فإن مضمونها أن من زاغ عن الطمأنينة بعد الكشف الشافي و الإنعام الوافي؛نوقش الحساب فأخذه العذاب ."(١)

ولما كانت هذه السورة هي سورة العقود؛ اكتنف الوصف بالإيمان والأمر بالوفاء بالمواثيق معاني السورة كلها .(٢)

سير معاقد المعاني في سورة المائدة :

المعقد الكلي الأول من سورة المائدة :

أحكام الله وتشريعاته أعظم المواثيق على مدار الأديان والواجب الوفاء بها : من قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾(١) إلى قوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ. . . ﴾(٥٠)

وقام به جزءان :

(١) نظم الدرر ٢/ ٣٨٤ .

(٢) ينظر تفصيل الكلام في هذا المعنى في فصل براعة الاستهلال في سورة المائدة .

المعنى الجزئي الأول من المعقد الكلي الأول:

تذكير المؤمنين بنعم الله المقتضية الوفاء بمواثيقه كلها مع وجوب الاتعاظ بأحوال الأمم السابقة: من قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ (١)، إلى قوله: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً . . . ﴾ (٢٦) .

افتتح البيان القرآني هذا المعنى بخطاب الله تعالى للمؤمنين ببيان ما أُحل لهم وما حُرّم عليهم ،و هو تفصيل لما أُجمل في جملة المطلع .واختلفوا في بهيمة الأنعام هذه (١)،و المهم فيها التحليل الذي عُبّر عنه بما لم يسم فاعله: ﴿ أُحِلَّتْ ﴾ دلالة على انقضاء الأمر وتمامه من فاعله المعلوم الذي يشرِّع لعباده و لا يُشرَّع له.وإضافة قوله: ﴿ بَهِيمَةُ ﴾ إلى ﴿ الأَنْعَامِ ﴾ للبيان أوهي"لدفع توهم أن يُراد من الأنعام خصوص الإبل ."(٢)

ولما قال: ﴿ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ أتبعه بالبيان بعد ما أبهم فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ . . . ﴾ المائدة (٢)،فنهاهم عن الإخلال بمواثيق الله التي منها شعائره، بعد أن أمر في مطلع السورة بالوفاء بها،ففصّل ما ورد في إجمال الجملة الأولى .

ولما كانت شعائر الحج من أهم شعائر الله وأقدسها ؛خصّها بالذكر بعد ما عمّم ،فكان من ذكر الخاص بعد العام . وقرر حرمة الزمان فقال: ﴿ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ ﴾ ،وقرر حرمة

---

(١) منهم من قال:"الإبل والبقر والغنم ،ومنهم من قال:هي الأنعام كلها،ومنهم من ذكر أنها الأجنّة التي تخرج عند الذبح للأمهات،و قال آخرون:هم وحش البهائم من الظباء وبقر الوحش والحمر،وغير ذلك" (جامع البيان ٤٦/٦ . ومثله في المحرر الوجيز ١٤٤/٢.)

(٢) تفسير التحرير والتنوير.المجلد الثالث ٧٨/٦ .

الذوات عقلاء وغير عقلاء حين قال: ﴿ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ﴾ وتكرار النفي هنا فيه مزيد عناية بنفي كل فرد دخلت عليه خاصة .

ثم إنه تعالى لما أوجز في مطلع السورة فقال: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ جاء تفصيل قوله: ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ بعد ذلك فقال: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ . . . ﴾ المائدة (٣).

وذكر البيان القرآني الأصناف التسعة،و استثنى منها ما اُستلحق بذكاة قبل الممات، ثم عطف عليها نوعين ليسا من المطاعم،" قال القفّال -رحمه الله-: ذكر هذا في جملة المطاعم لأنه مما أبدعه أهل الجاهلية،و كان موافقا لما كانوا فعلوه في المطاعم ؛و ذلك أن الذبح على النصب إنما كان يقع عند البيت ،و كذا الاستسقام بالأزلام كانوا يوقعونه عند البيت إذا كانوا هناك."([1]) فالقصد أن اجتماعهما مع المطاعم من حيث ابتداعها ،وقداسة مكان إيقاعهم إياها .وأشار إلى كل تلك الأنواع بالبعيد تعظيما للنهي بقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ يعني: "من أكل من ذلك كله فهو فسق ."([2])

و الخطاب القرآني بهذه الإشارة يوجز المعاني الكثيرة من جهة،و ينتقل إلى معنى عظيم من جهة أخرى ،و ذلك حين قال: ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ ﴾ المائدة (٣)، "فالانتهاء عن جميع هذه المحارم إنما يكون لمن رسخ في الدين قدمه ،وتمكنت فيه عزائمه وهممه ،فلا التفات له إلى غيره ،ولا همه إلى سواه ،ولا مطمع لمخالفه فيه،فعقب سبحانه النهي عن هذه المناهي كلها بقوله على سبيل النتيجة و التعليل ."([3]) و فيه

---

(١) التفسير الكبير ١٠٧/١١ .

(٢) تفسير القرآن الكريم عن ابن عباس صـ ١٦٩ .

(٣) نظم الدرر ٣٩٢/٢ .

تحضيض على الوفاء بالعقود وتثبيت لأقدام المؤمنين،فقد كتب الله لهذا الدين البقاء عبر الأزمان والخلود رغم تغير الناس وكثرتهم،ولم تعد هناك حاجة للاهتمام بأمر الكافرين لأن الله أظهر دينه و كتابه،و بهذا المعنى وصل البيان القرآني إلى قلب السورة حين قال: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ ﴾ المائدة (٣)،قال ابن عباس: " أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان ،فلا يحتاجون إلى زيادة أبدا،و قد أتمه الله – عز وجل– فلا ينقصه أبدا ،وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدا ...وكان المشركون و المسلمون يحجون جميعاً ،فلما نزلت (براءة) فنُفي المشركون عن البيت الحرام وحج المسلمون؛لا يشاركهم في البيت أحد من المشركين،فكان ذلك من تمام النعمة ."(١)

فكمال الدين يعني: تمام أجزائه.(٢)و تمام النعمة يعني: خلوها من النقص أو العيب،أو هي بلوغ غاية النعم .(٣) ورضا الإسلام يعني اختياره دون غيره من الأديان؛ليكون الدين الشامل لكل الأديان والخاتم لها. و ما ذاك الاختيار إلا لحصول الأهليّة،فالكمال و التمام هما سبب رضا الدين .والكمال والتمام من أسرة واحدة ؛إلا أن الكمال أنسب في إطلاقه على الدين أو وصف الدين به، لأن في صفة الكمال معنى مكملا للتمام ؛وهو التجزئة، فنقول:هو كامل إذا اكتملت أجزاؤه، فالكمال استيفاء في الأصل و الأحوال جميعا ،فلا تمكن الإضافة عليه أبدا. والتمام استيفاء في الأصل،وعظم الأحوال، و يمكن أن يضاف إليه في أحواله،و لذا قيل:الدين كمل،والنعمة تمت في الدنيا،وتكمّل في الآخرة .

(١) تفسير القرآن الكريم عن ابن عباس ص ١٦٩–١٧٠ .

(٢) كمل:" الكاف والميم واللام أصل صحيح يدل على تمام الشيء، يُقال:كَمَل الشيءُ و كَمُل فهو كاملٌ،أي: تامّ." (مقابيس اللغة. ابن فارس (كمل) "و كمل: الكمال:التمام. وقيل: التمام الذي تجزَّأ منه أجزاؤه .. و تكامل الشيء وأكمله أنا، و أكملت الشيء أي : أجملته وأتممته " (لسان العرب مادة (كملَ)) .

(٣) تمّ " التاء والميم أصل واحد منقاس،وهو دليل الكمال،يُقال :تمّ الشيء إذا كمل ،وأتممته أنا" (مقاييس اللغة ابن فارس (تم) ."و تتمة كل شيء: ما يكون تمام غايته؛ كقولك: هذه الدراهم تمام هذه المائة، و تتمة هذه المائة " (لسان العرب مادة (تمم)) .

فمواثيق الله وأحكامه وتشريعاته خير محض محفوفة بالكمال لا يمكن خرمها أو الزيادة عليها . وهي تتضمن توحيد المصدر الذي تتلقى منه هذه الأمّة منهجها، واستقرار هذا الدين بكل جزئياته؛الاعتقادية والتعبدية والتشريعية، فلا تعديل فيها ولا تغيير، وتعديل شيء في الدين كإنكاره كلّه كما ذكر سيد قطب .(١) وهذا الإنكار هو الكفر الذي لا جدال فيه وعليه فإن عدم الوفاء بمواثيق الله وعهوده هو اعتراض على تلك المواثيق وعدم رضا بها،وهو الكفر و الظلم و الفسوق الذي حذّرت منه آيات السورة . فهذه الآية تجسد أعظم النعم التي يذكّر الله بها عباده المؤمنين (٢)؛التي تستلزم الوفاء بعهوده كلها اعترافا بجزيل نعمه،و عظيم كرمه . فتكامل المعنى وتصاعد عند هذه الآية ،وبلغ الذروة ،وكل ماجاء بعدها هو من النمو الأفقي؛أي من تصريف القول ،أومن التفريع أو التفصيل .

وبلوغ المعنى الذروة في أول السورة من التناسب التام للمنهج الذي قام عليه سياقها البياني؛لأنها قائمة – في مجملها – على الإجمال الذي يعقبه تفصيل له ، ومطلع السورة أدل دليل على ذلك .

ولما فصّل النظم الكريم ذكر المحرّمات من الخبائث ،و قيّد إحلالها بالاضطرار؛ فصّل ذكر الحلال مقابلة لتفصيل الحرام ،ثم فصّل من الحلال الصيد المكلّب وما علّموا من الجوارح مما أُدركت ذكاته في الآيات التالية لها. ولما كان إحلال الطيب وتحريم الخبيث،وإحلال طعام أهل الكتاب ونسائهم المحصنات من أهم المواثيق التي واثق عليها الناس؛ختم الآية بما ينفّر من الكفر بالإيمان فقال: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ

(١) ينظر في ظلال القرآن ٨٣٣/٢ .

(٢) " عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب أن رجلا من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا –معشر اليهود– نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً،قال: أي آية؟ قال: :﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ ﴾ . قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم و المكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ وهو قائم بعرفة يوم جمعة "(صحيح البخاري. كتاب الإيمان.رقم الحديث (٤٥) باب زيادة الإيمان ونقصانه. ٢٥/١) .

﴿ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ المائدة(٥)، وبالغ في معنى ضياع أجر العاملين باستعارة الحبط لضياع الأعمال، وأكده بالإقفال ببيان الخسارة المنتظرة في الآخرة .

ولما نادى الله المؤمنين في مطلع السورة بصفة الإيمان، و أمرهم بالوفاء بعقوده ، ثم كرر النداء ثانية، و بدأ يفصل في العقود فنهاهم عن الإخلال بشعائره؛ ناداهم ثالثة بنفس الصفة الملازمة لهم ليذكرهم بأهم العهود المأخوذة عليهم وهو عهد الصلاة ."فلما أتم ما ألزمه نفسه الأقدس من عهد الربوبية فضلا منه أتبعه بعهد العبودية ،و قدم منه الصلاة ؛لأنها أشرفه بعد الإيمان ."([1]) وهذا نظر في ترتيب الخطابات وانتظامها على أسباب من تراتب الألوهية على الربوبية .

وشدد النظم القرآني على هذا الأمر حين أردفه بالأمر بتذكر نعم الله على عباده والميثاق الذي واثقهم به فقال: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ المائدة (٧)؛ "حيث بعث الله النبي ﷺ وأنزل عليه الكتاب، فقالوا: آمنا بالنبي ﷺ و بالكتاب، و أقررنا بما في التوراة ،فذكرهم الله ميثاقه الذي أقروا به على أنفسهم وأمرهم بالوفاء به."([2]) وحض على الالتزام حين ذكّرهم بموقفهم من هذا الميثاق؛ وهو قولهم: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ كناية عن حسن امتثالهم ومسارعة المبادرة لكمال الإيمان واليقين، على عكس أهل الكتاب . فكان محفزًا للوفاء بالميثاق الذي واثق المسلمون ربهم عليه .

ثم إنه تعالى نادى المؤمنين بصفتهم اللازمة مرة رابعة آمرا لهم أن يكونوا قوامين لله شهداء له بالعدل، وثنىّ بنهيهم أن يحملهم البغض والعداوة لأحد على ترك هذا العدل فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا

(١) نظم الدرر ٢/٤٠٠ .

(٢) تفسير القرآن الكريم عن ابن عباس صـ ١٧٣ .

اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ المائدة (٨)، ثم حبّب إلى طاعته وكرّه من معصيته بالمقابلة بين حال المؤمنين وعملهم الصالح و أجرهم العظيم، و بين حال الكافرين وتكذيبهم و جزائهم الأليم .

ولما كان قد عمم بالأمر بتذكر النعمة وقصد بها نعمة الإسلام في الآية ماقبل السابقة ؛خص بتذكير المؤمنين بنعمته عليهم بكفايته شر أعدائهم([1]) الذي عبّر عنه بكفّ الأيدي المبسوطة حين قال: ﴿ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ المائدة (١١)،فعبّر عن معنى إيذاء القوم لهم ببسط اليد على سبيل المجاز المرسل امتنانا بالنعمة .

ولما ذكّر تعالى بنعمه،و أبان عن ضرورة الوفاء بعهوده ؛ذكر نماذج لأقوام أنعم الله عليهم بنعم جليلة لم يرعوها ،و من أجلّ تلك النعم : نعمة إرسال الرسل،فأول ما بدأ ذكر بني إسرائيل و ذكر الميثاق وهو بعث الرسل والنصرة من الله في مقابل إقامتهم الصلاة و إيتائهم الزكاة و إيمانهم بالرسل و نصرتهم و الإنفاق في سبيل الله،فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً . . . ﴾ المائدة (١٢)،ووصل إلى غاية الامتنان بمجيء الأساليب البلاغية الناهضة بالمعنى من مثل:تحقق الخبر بمجيء اللام و (قد)،وإظهار لفظ الجلالة الدال على الفخامة (الله) مع الالتفات من الاسم الظاهر إلى المتكلم في قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ وذلك لإثارة الانتباه أولا إلى مهابة أخذ الميثاق عليهم و هيمنته بما يحمله لفظ الجلالة المسند إليه فعل الأخذ،و لإثارة الانتباه ثانيا إلى وثاقة وفخامة معنى إرسال الرسل وتأييدهم .

---

(١) اختلف أهل التأويل في صفة النعمة التي ذكر الله –جل ثناؤه– نبيه محمدا ﷺ وأصحابه،فقال بعضهم :هي استنقاذ الله نبيه محمدا وصحابته مما كانت اليهود من بني النضير هموا به يوم أتوهم يستحملونهم دية العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضميري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٤٤/٦) .

وعود السياق إلى الاسم الظاهر الذي نستشعر منه أسلوب القص فيه تنبيه الذهن مرة أخرى إلى كون الله يخبر في تأكيد عن كمال نصرته لعباده حين قال: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ وسياقه على هذا الحال قمة التأكيد .

ولما كان حال بني إسرائيل نقض المواثيق؛ عوقبوا باللعن و غلظة القلوب. وفصل النظم الكريم القول في أفعالهم التي استوجبوا العقاب لأجلها ،فهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ويهملون أوامر الله ونواهيه؛ حتى صور حالهم بالناسين لها على سبيل المجاز المرسل ، فقال: ﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ ،ومع ذلك فالخيانة للمؤمنين تلازم أغلبهم.

ولما أبان تعالى للمؤمنين نقض اليهود لمواثيقه –رغم النعم المسداة –وأبان عن عقابهم؛ ذكر النصارى، وهم نموذج آخر لا يختلف عن اليهود ،و لكنه أوجز في ذكر فعلهم و عقابهم فقال: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ المائدة(١٤)، و تقديم ذكر أخذ الميثاق على النصارى ثم نسيانه، و تأخير فعلهم الذي استوجبوا به العذاب من تأليه المسيح عيسى –عليه السلام– من باب التماثل في المعاني لما ذكر في مقام الحديث عن اليهود .وهذا يدل على تماثل قلوبهم وتشابهها التي أدت إلى تشابه أفعالهم التي على إثرها تشابه السياق في الحديث عنهم .

ولما أفرد لليهود حديثا ومثله للنصارى جمعهم في خطاب واحد؛ مذكّرا إياهم بالنعمة العظمى وهي بعث محمد ﷺ بهدف الإبانة عما أخفوه عن الناس، والعفو عن كثير مما فعلوا.

و لما ذكر البيان القرآني الرسولﷺ وذكر كتابه ،ونوّه ضمنا على أنهما من أجل النعم، وصرّح بأن الهداية تكون بالتمسك بكتاب الله؛ ذكر فعل النصارى في النعمة المسداة إليهم من بعث عيسى– عليه السلام –،فذم تفكيرهم حينما قدسوه و عظموه وأنزلوه منزلة الإله، وصرّح بالحكم عليهم بالكفر ؛لخلطهم بين النعمة ومنجز النعمة .

و لما أجمل الخطاب القرآني نداءهم بـ (أهل الكتاب) فصّل بعده حكاية عنهم شيئا من أقوالهم التي تبين عن تعديهم على الذات الإلهية ،و هذا أصل في معنى السورة فقال: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ المائدة (١٨) وناداهم ثانية يمنّ عليهم بنعمة إرسال محمد ﷺ بعد انقطاع بعثه للرسل مدة دامت خمسمائة وستين سنة تقريبا ،وأثبت عليهم البشارة والنذارة فقال: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَاءنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ . . . ﴾ المائدة (١٩)، فكان ذكر الرسل من التناسب المعنوي ،حتى يبين صنيع الأقوام مع جليل النعم، فكما أجمل أولا ذكر حال بني إسرائيل مع الاثني عشر نقيبا؛عاد وفصّل في فعلهم مع موسى–عليه السلام– كما فصّل حال النصارى في فعلهم مع عيسى–عليه السلام– .

ثم ختم هذا المعنى الجزئي بذكر حكاية على لسان موسى– عليه السلام – وهي نعمة بعث الأنبياء وتسخير مَنْ يخدم بني إسرائيل بعد أن كانوا خدما لفرعون وأتباعه،ولكنهم نقضوا المواثيق والعهود،ولما فُرض عليهم الجهاد قالوا تبجحا له: ﴿ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ المائدة (٢٤)؛ولذلك عاقبهم الله عقابا شديدا على عدم استجابتهم لرسولهم،فحرّم عليهم دخول الأرض المقدسة أربعين سنة .

ومركز المعنى في هذا الجزء هو أن نعم الله تقتضي شكرها، وشكرها يكون بالتزام ماأُحل وما حُرّم ،مع الالتزام بكل ما جاء من المشرّع، فكل مَنْ وفّى بعقده مع الله ؛شكر نعمته ،وربح عمله،وكل مَنْ نكث عقده مع الله ؛كفر نعمته ،وحبط عمله .

و لما كان هذا المعنى الجزئي يذكّر الأمم بالنعم و ضرورة الوفاء بالعقود شكرا لتلك النعم؛ جاء التركيز على الأمر بتذكر النعم ، فتكرر ست مرات على اختلاف اشتقاقاته وجاء ذكر لفظ (النعمة) صراحة ست مرات كذلك على اختلاف اشتقاقاته .

المعنى الجزئي الثاني من المعقد الكلي الأول :

بيان الأثر الناتج عن نكث مواثيق الله و عهوده : من قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا . . . ﴾ (٢٧) ، إلى قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ. . . ﴾ (٥٠) .

تُعد تشريعات الله وأحكامه من أدخل الأمور في المواثيق والعهود التي يأخذها الله على البشر ،وتعد قصة ابني آدم تمهيدا جيدا لما سيأتي من حقيقة قيمة تشريعات الله وأحكامه ،وإنما ورد هذا المعنى على سبيل الحكاية لأن ذلك أدعى للقبول ،وأدخل في الترسيخ .و القصة – في مجملها – تحكي عن ابني آدم –عليه السلام– قابيل و هابيل حين قرّب قابيل قربانا ،و قرب هابيل قربانا ، فتقبل الله قربان هابيل ،و لم يتقبل قربان قابيل ،فحمل الحسد قابيل على قتل أخيه.

فالحوار في القصة يبين في صراحة عن رقي صنيع المتقين وعلو نفسياتهم و هدوئها واطمئنانها. و شنيع صنيع الظالمين و دنو نفسياتهم و تردّدها .و الملحوظ أن التعقيب بقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ المائدة (٣٠)، و قوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ المائدة (٣١) هي ركائز في معاني القصة، إذ الاعتداء و عدم الرضا بحكم الله لا يورث إلا الخسران و الندم وهما حاصلان على وجه من السرعة ليس فيهما تأخير ،والختم بالإصباح من الخاسرين والنادمين أدل دليل عليه ،مما يعلي صوت الترهيب من الاعتداء .

هذه القصة تمهيد لبيان الحكمة من شرائع الله و أحكامه على وجه من الاتعاظ والاعتبار بقصص السابقين ،و لذلك كان مركز المعنى –إضافة إلى ما ذُكر – في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ

﴿ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ المائدة (٣٢) .

فبنى الحكمة على ما سبق من مجمل القصة فقال: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ ﴾ ،وهي عبارة شديدة الإيجاز؛لأنها تعود على كل المعاني السابقة التي منها : إظهار مضرة الحسد بين الأفراد،و بيان أثر عدم الرضا بحكم الله،وأثر التعدي و الظلم من الفساد و الخسران والندم. ولأهمية هذا المعنى الأخير بناه على تشبيهين ؛تصويرا لعظم أثر قتل النفس والإفساد في الأرض على المجتمع،و تصويرا لعظم كف الأذى عن الناس وترك الظلم على المجتمع على وجه من التقابل .و لما كان كف الأذى عن الناس جليلا أقامه على الاستعارة؛ ترغيبا في استبقاء النفس البشرية .

وزاد في البيان حين قال في الآية التالية: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ . . . ﴾ المائدة (٣٣). فلما كانت "المحاربة هي المضادة و المخالفة،وهي صادقة على الكفر،وعلى قطع الطريق، و إخافة السبيل وكذا الإفساد في الأرض"([1]) ؛استعيرت المحاربة لعمل القاتل أو المفسد، فوصل البيان القرآني بالاستعارة غاية المعنى ومنتهاه؛ لأنه بالغ في بيان معنى القتل و الإفساد الذي يقع على الناس من المعتدين، و أوقعه على الله تعالى وعلى رسوله وذلك ذنب لا يطيقه أحد، فرهّب من الاعتداء و الإفساد في الأرض، و رغّب في عدم الإفساد بطريق التبع.

وهذا من تصريف القول في الترهيب من الاعتداء عامة ، فلما كانت تشريعات الله وأحكامه كلها عدل على مر الدهور؛كان كل اعتداء على الحرمات هو اعتداء على المشرِّع .

(١) تفسير القرآن العظيم . ابن كثير ٤٨/٢ .

واستخرج ابن عاشور مناسبات بين قصة قوم موسى الذين رفضوا الجهاد الواردة في نهاية المعنى الجزئي الأول، و بين قصة ابني آدم – عليه السلام – الواردة في بداية المعنى الجزئي الثاني ،فالأولى مناسبة تماثل ؛ فإن في كلتيهما عدم الرضا بما حكم الله تعالى، وجرأة على الله بعد المعصية. والأخرى مناسبة تضاد فإن في إحداهما إقداما مذموما من ابن آدم، وإحجاما مذموما من بني إسرائيل .وإن في إحداهما اتفاق أخوين هما موسى وأخوه على امتثال أمر الله تعالى ،وفي الأخرى اختلاف أخوين بالصلاح والفساد.(1)

وبين القصتين كذلك تقابل بين القتال المأمور به وهو الجهاد؛ اعترافا بالنعمة ووفاء بالمواثيق، وبين القتال المنهي عنه ،وهو الاعتداء المقتضي تغطية النعمة، ونقض المواثيق .

و لما كان حال الكافرين حين طُلب منهم الجهاد في المعنى السابق من الخوف الشديد و عدم الإذعان لأوامر موسى – عليه السلام – وعدم التوكل على الله مع الفسق و سوء الأدب حين قالوا: ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ المائدة (٢٤) لما كان كل ذلك ؛نودي المؤمنون و أمروا بتقوى الله، والتقرب إليه ،والجهاد في سبيله كتجديد للعهد الذي بينهم وبين ربهم فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ المائدة (٣٥) ،فكان تقابلا بين الحالين .

"و لما كان ترك هذه الأوصاف الثلاثة: التقوى و طلب الوسيلة و الجهاد مزيلا للوصف الأول وهو الإيمان؛ ناسب كل المناسبة تحذيرا من تركها ذكر حال الكفار، و أنه لا تنفعهم وسيلة في تلك الدار ."(2) فأتبعه قول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ

(١) تفسير التحرير والتنوير.المجلد الثالث ٦/ ١٦٨.

(٢) نظم الدرر ٤٥٣/٢ .

النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ المائدة (٣٦-٣٧)، و قرر معنى دخول النار دون خروج ،وكان لطباق السلب أثر في زيادة تقرير رغبتهم في الخروج من النار مع نفي خروجهم منها،ورشح له جناس الاشتقاق ؛لأن جرس أصوات الحروف دقّ مرتين في الأذن،فتأكد سماع العبارة،وتقرّر معناها في القلب أكثر .وزاد هذا التأكيد بقوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ ،فأخبر عن رغبتهم في الخروج من النار ثم نفاه عنهم ،فقام مقام رفض طلبهم والتعنت فيه،وأكده بوصفه بالإقامة؛لأن الإقامة في المكان تعني المكوث فيه وعدم الانقطاع عنه.([1]) ثم إن في المعنى تعظيما وتهويلا نلمسه من تنكير لفظ: ﴿ عَذَابٌ ﴾ مع وصفه بالإقامة،و من التجريد الحاصل من سياق الآية . وكل ذلك الوعيد والتهديد تبكيت للذين كفروا .

وقابل البيان القرآني في الآيات السابقة بين حالي المؤمنين و الكفار ،فطوت الآية الأولى التي تأمر المؤمنين بالجهاد معنى إذعانهم لأمر ربهم ؛لعدم الحكاية عنهم بغير ذلك،وذكر النظم الكريم أَمْر الوسيلة خصوصا وأَمَر باتخاذها تقربا إلى الله،وطوى داخل هذا الأمر قبول تلك الوسيلة،ثم جاء بعد ذلك وصرح برفض أي وسيلة يقدمها الكفار ليفتدوا من عذاب يوم القيامة،ولو بلغت الفدية من العظمة منتهاها. فكان من التقابل بين المعنيين،وهو يسعى لبيان أثر الوفاء بمواثيق الله ،وأثر نقض المواثيق، وهو من تصريف القول في معنى الانقياد والرضا بأحكام الله ،ونقيضه من التعنت و عدم الرضا بأحكامه تعالى .

ولما كانت السرقة يلزم منها حالان ؛هما: التعدي على الآخرين،و البغي عليهم ،و كانت من جملة المفاسد و الظلم المنهي عنهما؛ذكر حكم مرتكبيهما ،و نصّ على نوعي الرجال والنساء لبيان عدم سقوطه عنهما معا ،وقدّم الذكور على الإناث لوقوعها منهم أكثر. و لما كان

(١) ينظر المفردات .مادة (قوم) .

هذا العمل يقتضي الظلم و الإفساد؛رغّب في التوبة ،والرجوع بعد الظلم ،والإصلاح بعد الإفساد،فقال : ﴿ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ . . . ﴾ المائدة(٣٩)

ولما ذكر تعالى مجموعة الأحكام من القتل ومحاربة الله والسعي في الأرض بالفساد والسرقة ؛أبان في عظمة و جلال عن تصرفه المطلق في شئون عباده لتملكه إياهم ؛إن شاء عذبهم على ذنوبهم، و إن شاء غفر لهم ،فهو يملك الحالين، و قادر عليهما، و هما يرجعان إليه،فقال: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ المائدة (٤٠) وتفرد الله بالتشريع ،واستحقاقه لهذا التفرد أصل في معنى تقرير كمال العبودية لله دون منازع .

ولما كان الرسول ﷺ واسطة بين الرب و العباد في تطبيق شرعه و حكمه؛ خاطبه النظم الكريم بنهيه عن الحزن على صنفين من الناس جمعهم في وصف واحد؛و هو المسارعة في الكفر فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ المائدة (٤١) فأقام وصفهم على المجاز المرسل ؛مبالغة في بيان سرعة استجابتهم إلى دواعي الكفر ،و إظهار آثاره،ونفي استجابتهم إلى دواعي الإسلام بطريق التبع ،مع تشنيع موقفهم من الدين .ثم لما جمع الفريقين في وصف واحد، فرّق بينهما ؛لأنهما و إن اتحدا في أفعالهم؛فهناك أفعال تخص كل فريق منهم ،فقسّم الحديث بعد ذلك، و بدأ بأسوأ الفريقين،وهم المنافقون فذكرهم بصفتهم من إظهار ما لا يبطنون على طريق الكناية ،ثم ذكر الفريق الثاني صراحة و هم اليهود،وأتبعه بالكناية عن صفتهم من قبولهم الكذب بكثرة السماع .

وأشار البيان القرآني إلى قصة اليهود التي أجمل ذكرها فقال: ﴿ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ . . . ﴾ المائدة (٤١) .

وفصّلت السنة قصتهم .(١) و القصة في مجملها تدل على عدم رضا اليهود بحكم الله ؛سواء ما كان في كتابهم ،أو في كتاب محمد ﷺ ،و ذلك من أكبر النواقض للمواثيق .

ولما قص البيان القرآني للنبي ﷺ حال اليهود مع أحكام الله التي في كتابهم الموصوف بالهدى والنور؛ ناسب ذلك أن يذكر حال النصارى الذي لايختلف كثيرا عن حال اليهود،وكتابهم الإنجيل موصوف كذلك بالهدى والنور والتصديق للتوراة،فلامخالفة بينهما،فقال: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ المائدة (٤٧)،وجاء تكرار التهديد والوعيد ثلاث مرات،مرتان في الدائرة التي تتحدث عن اليهود، ومرة في التي تتحدث عن النصارى، فقال: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ المائدة(٤٤)،ثم قال: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ المائدة (٤٥)،ثم قال: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ المائدة (٤٧) وميّز ابن عباس بين الأوصاف الثلاثة فقال: "من جحد ما أنزل الله فقد كفر، و من أقرّ به و لم يحكم فهو ظالم فاسق."(٢)

وتعدد أوصاف المعرضين عن حكم الله من تصريف القول في الترهيب من عدم الرضا بأحكام الله وشريعته .

ولما ذكر تعالى اليهود و النصارى ختم بذكر المؤمنين، فخاطب الله تعالى الرسول ﷺ آمرا إياه بالحكم بما أنزل الله دون اتباع أهواء الكفار .

---

(١) ينظر صحيح مسلم .كتاب الحدود رقم الحديث (١٧٠٠) كتاب الحدود باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى ١٣٢٧/٣ .

(٢) تفسير القرآن الكريم عن ابن عباس صـ ١٧٩ .

ثم خُتم هذا المعقد الكلي باستفهامين بينهما تماثل و تناظر في حين واحد، حيث يعودان على سابق الكلام كله،فكان كالقاعدة له، فقال: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ المائدة (٥٠) ،فقوله: ﴿ أَفَحُكْمَ ﴾ استفهام إنكار و توبيخ و تعجب من أن يكون حكم الجاهلية هو غايتهم. و قوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ ﴾ استفهام تقريري لكون حكم الله خيرا وأحسن من أي حكم . فتناسب التماثل من حيث إنهما يسعيان معا متعاضدين ليتنبه السامع ؛حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ،و يرتدع و يوقن بثبوت حسن حكم الله في كل الأحوال دون أن ينازعه أحد في عدل حكمه .

وتناسب التناظر من قريب وبعيد،فمن قريب؛أنهما قابلا بين معنيين مهمين هما: حكم الجاهلية المضمّن معنى سوئه لنسبته إلى الجهل ،والذي أشار الاستفهام الإنكاري التوبيخي إلى شيء من معناه .وبين حكم الله المصرح بحسنه .

أما البعيد فإن للاستفهامين أثرا في تثبيت قاعدة هذا المعنى الجزئي و هو راجع إلى المعقد كلّه،فطوى في الاستفهام الأول ما نشره سابقا من حال أثر حكم الجاهلية من الكفر و الظلم والفسق .وطوى في الاستفهام الثاني ما نشره سابقا من حال أثر أحكام الله من القسط والهدى والنور .

و مركز المعنى في هذا الجزء هو ضرورة تطبيق أحكام الله ،مع بيان علو الأثر الناتج عن الوفاء بها، و سوء الأثر الناتج عن نكثها ،و يدل عليه تكرر لفظ :(الحكم) باشتقاقاته أربع عشرة مرة فقال:(احكم بينهم — إن حكمت — فاحكم — يحكمونك — حكم الله — يحكم بها — ومن لم يحكم — وليحكم — ومن لم يحكم— فأحكم— وأن أحكم — أفحكم — حكما)،فكان ذلك عاملاً على تثبيت ما سبق ذكره من قاعدة هذا المعقد الكلي، ومقطعا جيدا لما افتتح من الكلام في أوله .

والعلاقة بين المعنيين الجزئيين علاقة تفريع ؛فلما أمر النظم الكريم المؤمنين بضرورة الوفاء بمواثيق الله تعالى،و أعلم عن نكث أهل الكتاب لهذه المواثيق في المعنى الجزئي الأول؛أبان في المعنى الجزئي الثاني عن الأثر الحسن الناجم عن الوفاء بالمواثيق ،و عكسه من الأثر السيء من نكث هذه المواثيق من الظلم والكفر و الفسوق .

المعقد الكلي الثاني من سورة المائدة :

اختصاص الله بالتشريع أصل في معنى الألوهية : من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ . . . ﴾(٥١) إلى قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ. . . ﴾(١٠٨) .

ويقوم به جزءان :

المعنى الجزئي الأول من المعقد الكلي الثاني :

العمدة في الولاء أو البراء بين الناس على الوفاء بعقود الله و عهوده: من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ . . . ﴾(٥١)إلى قوله: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾(٨٦)

يفتتح البيان القرآني هذا المعقد بنداء يوجهه للذين آمنوا ناهيا إياهم عن ولاية اليهود والنصارى. و لما كان الولاء يعني المحبة قرّر تعالى حقيقة ؛و هي أن ولاء اليهود والنصارى لن يكون للمسلمين،و حكم تعالى على مَنْ يبادلهم هذا الولاء بالانتماء إليهم، و بالتالي فسيكون من الظالمين. و لما كان المنافقون فئة من الظالمين لأنهم والوا اليهود؛جاء الحديث عنهم واصفا حالهم أبلغ وصف،مستندا على المجاز المرسل ،فوصفهم بالمسارعة إلى إظهار آثار الولاء والنصرة فقال: ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ﴾ المائدة (٥٢)

وذلك تصويرا لحال المنافقين المنطوي على الخداع و المراوغة ،و كشفا لسوء تصرفاتهم وشنيع أعمالهم التي ستودي بهم إلى التهلكة .هذا الوصف ينعطف على المعقد السابق حيث التماثل في وصف المنافقين ذاتهم بالتسابق إلى الكفر ،و بالضرورة فهو يصل الحديث بعضه ببعض، و يثبت المعنى عليهم . و يقوي صلة المعاقد الكبرى بعضها ببعض .

ولما قال: ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ ؛دلل على ما هم عليه من شك و حيرة في أمر الدين ؛و لذلك استوجبوا الإصباح على ندم ،و الإصباح على خسارة . و هذا المعنى ينعطف على معنى الاعتداء و الظلم الظاهر من قصة ابني آدم –عليه السلام– الذي استحق فيه الإصباح على ندم و خسارة ،فهو من باب رد الأعجاز على الصدور .

و الظلم والاعتداء من صفات أهل الكتاب الذين نكثوا مواثيق الله، و نكث المواثيق يقتضي عدم الرضا عنها،و هذا كله يبين عن عدم صلاحية المنافقين لولاء المؤمنين .

و لما كان الحديث في جملته عن قضية الولاء ؛ناسب أن يتوعد الله المرتدين عن دينه بأن يستبدل بهم قوما يحبهم و يحبونه،و حب الله للمؤمنين نصرتهم،و حبهم له طاعته و نصرة دينه . وقابل النظم الكريم بين وصفين للمؤمنين فقال: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ المائدة (٥٤)،و أضاف أنهم يجاهدون في سبيل الله ،و لا يخافون لومة لائم. فترك العطف بين تلك الصفات بيانا لاجتماعها في الموصوفين،ثم عطف بين الجهاد و عدم الخشية من قول الحق لأن الأخير يندرج تحت الأول ودرجة من درجاته .والمستبصر لخصوص ذكر تلك الصفات التي وصف بها القوم الذين يحبهم الله و يحبونه يستخلص منها تقابلا بين حالي المنافقين و المؤمنين ،فلما كان ولاء المنافقين لليهود؛جاء ذكر أن ولاء المؤمنين لله و بالتبادل. و أن المنافقين متسرعون في قراراتهم و أعمالهم،و لايعرفون التعامل مع الآخرين بحزم،في حين يفرّق المؤمنون بين التعامل مع المؤمنين ومع الكافرين كل بمايستحقه. والمنافقون كاذبون،و قلوبهم مريضة،والمؤمنون صادقون وثابتون في إيمانهم لأن الجهاد أصدق دليل على قرار الإيمان و ثباته .

واستكمالا لقضية الولاء قصر تعالى النصرة عليه وعلى رسوله والمؤمنين بـ(إنما)فقال: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ المائدة (٥٥)للتنبيه على أن قصر الولاء على المؤمنين أمر لا يجهله المخاطب،ولا يدفع صحته، فهو تذكير للمؤمنين بموجب النصرة من الوفاء بالمواثيق ،ومن وجه آخر تحفيز لغير المؤمنين للحاق بركب المؤمنين .و من القصر أيضا تحضيض على ترك ولاية من لا يستحق الولاية لتلاشي القدرة .و لذلك عطف بالوعد بالنصرة و الغلبة لمن ينال ولاية الله و ولاية رسوله والمؤمنين حين قال: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ المائدة(٥٦) وطوى في استعمال الجملة الاسمية ﴿ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ معنى دوام و ثبات تلك النصرة مع قصرها عليهم قصر حقيقيا تحقيقيا لأنها لن تخرج إلى غيرهم .

وتأكيدا على الحذر من ابتغاء الولاية في أهل الكتاب ؛وجّه تعالى النداء إلى المؤمنين ناهيا لهم عن اتخاذ أهل الكتاب أولياء؛ولكنه غاير في الأسلوب؛حيث استخدم معهم في هذا المقام الأدلة العقلية التي تنفّرهم من موالاة أهل الكتاب بإقناع ،فالذي يحب لا يتخذ دين حبيبه هزوا،بل يحترمه بمقدار احترامه لمن يحب،و هذا يعني أن أهل الكتاب لا يحبون المؤمنين فضلا عن أنهم لا يعتدّون بهم،و هذا كفيل بترك ولايتهم .

وقضية الولاية هذه من المواثيق التي هي صلب في معنى كمال العبودية .

واستكمالا للأدلة العقلية ذكر البيان القرآني سمات الضلالة و البعد عن العقيدة الصحيحة التي اتصف بها أهل الكتاب؛لأن من كان ضالا لا تُرجى ولايته،فلو استطاع النفع لنفع نفسه. وتوالى ذكر سمات الضالين من توغل الكفر في قلوبهم والمسارعة في الإثم والعدوان ،وأكلهم الحرام، وانعدام الائتمار بالمعروف والتناهي عن المنكر، وقولهم الإثم العظيم ،ثم أتبع ذلك كله بذكر جزائهم من زيادة الكفر والطغيان ،وجعل العداوة و البغضاء بينهم إلى يوم القيامة،و رجوعهم بالخيبة عن

كـل فعـل يسـتعدون بـه لعـدوهم . و بهـذا الجـزاء انعطـف الكـلام آخـره علـى أولـه ،فكان من رد الأعجاز على الصدور ؛ لأن الولاء لا يكون إلا لله ولا يكون إلا به.

ولما كان الحكم لله ،و كان من أهم صفات الحـاكم العدل؛قعّـد لهـذا المعنـى الجزئـي ببيـان الطريق لمن ضل عن العقيدة ،فقـال: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا . . . ﴾ المائدة(٦٥) ،ثم تدرّج معهم على قدر عزمهم ،فذكر كتبهم خصوصا التي لـو أقاموهـا لجنـوا خيرا كثيرا ،و هذا من اتصال هذا المعقد بالمعقد السابق ؛لأن فيه إشارة إلى تحـريفهم لكتـبهم الـتي نزلـت علـيهم ،وعـدم أخـذهم بمـا فيهـا مـن أحكـام و مواثيـق ممـا لا يتماشـى مـع أهوائهم ،وأجمل الوعد بالكناية عن انفتـاح البركـات ،وغـدْق الـرزق علـيهم مـن كـل حـدب وصوب بالأكل من فوق رؤوسهم، ومن تحت أرجلهم بيانا لمدى قرب الخـير مـنهم لـو أنهـم أقاموا الأحكام والمواثيق التي عندهم في كتاب التوراة الذي يـدعون التمسك بـه فقـال: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم . . . ﴾ المائدة (٦٦) .

ولما تقدم بيان صفات أهل الكتـاب مـن الظلـم و الاعتـداء ،وأعلـم في الآيـة السـابقة أن المؤمنين منهم قليـل ؛خـاطب النظم الكريـم بمـا يصبر الرسول ﷺعلى التبليـغ ؛مـن وصـفه بالرسالـة ،وفيه تشريف و تكريم للرسول ﷺ، ويساعد عليه (أل)التعريف التي تـدل علـى كونه الكامـل في الرسالة ،ومن بيــان التأييـد و النصـرة بالعصـمة مـن الناس ،فقـال: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ . . . ﴾المائدة (٦٧) .

وأردف بأمره بتبليغ أهل الكتاب انتفاء كونهم علـى الحـق إن لم يقيمـوا شـرائع الله في كـل كتبه ،وذلك قدح في صلب عقيدتهم .وفيه بيان أن عقيدتهم فاسدة إن لم يؤمنوا بكـل مـاأُنزل

من عند الله . ثم لما ذكر تعالى فساد عقيدتهم ؛ذكر نكثهم لمواثيقه من تكذيب الأنبياء وقتلهم، ثم عفو الله عنهم إلا أنهم عادوا و أعرضوا عن قبول الحق فكانوا كالعمي والصمّ .

ولما ذكر الخطاب القرآني أعمال اليهود التي تقدح في عقيدتهم ،و كان قبل ذلك قد أشار إلى قولهم ؛أردف بذكر النصارى ،و ذكر قولهم الذي أفسد عقيدتهم حين قالوا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ و ﴿ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ فنزّه المسيح عن أن يكون قد دعاهم إلى هذا القول، ثم كفّرهم و توعدهم بالعذاب الأليم ،ولم يترك الباب مغلقا وإنما فتح باب التوبة والاستغفار عن طريق التحضيض عليه. ثم توجّه إليهم البيان القرآني بالأدلة العقلية عن طريق إثبات البشرية للمسيح وأمه مستندا في ذلك على الكناية،والتعجب من عمل النصارى وعبادتهم لَنْ لا يملك ضرا ولا نفعا لنفسه أو لغيره،وكل ذلك التعجب والإنكار لتصحيح عقيدة النصارى المبنية على المغالاة في تقديس عيسى – عليه السلام– .

ولما أبان عقائد أهل الكتاب المنطوية على الفساد ؛ذكر ماأعده لهم من الجزاء مبينا السبب من العدوان و العصيان،و عدم التناهي عن المنكر،والموالاة للكفار،و شدة العداوة للذين آمنوا. وانتقل إلى ذكر النصارى حينما قرّر أن أقرب الناس مودة للمؤمنين هم النصارى ووصف بعضهم بالإيمان، وعدم الإعراض عن الحق. ولما ذُكر النصارى المؤمنون بالله ورسوله؛ أطنب في الحديث عنهم ،فذكر أن منهم العلماء والصالحين الذين لا يستكبرون عن الحق،ويتأثرون بسماع القرآن ،ويدعون ربهم بكتابتهم مع الشاهدين .
ولما كان هذا حال مؤمني النصارى وذاك حال الكفار من اليهود والمشركين والنصارى؛ قرّر تعالى جزاء كل منهما على حسب أعمالهم فقال: ﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ. . . ﴾ (المائدة ٨٥-٨٦) .

ومركز المعنى في هذا الجزء بيـان أن سلامة العقيدة تقتضي الإيمان بجميع ما أنزل الله من الكتـب السـماوية مـن التـوراة و الإنجيـل و القـرآن ،ولـذلك كثّـف ذكـر الكفـر و الإيمـان باشتقاقاتهما فقال: (الكـافرين (مـرتين)- كُفْـرا - كَفَـر (مـرتين)- كفـروا (أربـع مـرات) وقال: (آمنوا(ثلاث مـرات)- آمـن — يؤمنـون — نـؤمن -)ثـم جـاء الـنص علـى الإيمـان بماأُنزل على الرسول (أربع مرات) وجاء اجتماع التوراة و الإنجيـل و القـرآن(مـرة واحـدة) وعبّر مرة أخرى عنها بدياناتها فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ المائدة (٦٩).كما نلحظ تركيز الحديث عن الولاية الحقّة فهي لله ولرسوله وللمؤمنين ،ولذلك كثر مجـيء لفـظ الولاية في هذا المعنى الجزئي باشتقاقاته،و بما يدل عليه معنى مثل قوله: (يتولون-أوليـاء- يتولهم - فإنه منهم - معكم - يحبهم - يحبونه - أذلـة علـى المـؤمنين — ولـيكم - يتـول - حـزب الله - أوليـاء) ،ولـما جـاء بيـان ذلـك أثبـت نقيضـه؛فلا خـير في ولايـة غيرها،لـذلك جـاء التـنفير مـن ولايـة غـير الله، ووصـف مـن يتخـذ ذلـك بعـدة أوصـاف مثل: (بالظلم — الندم- الخسران- الفسق — عدم العقل - الضلالة - الإفساد) .

المعنى الجزئي الثاني من المعقد الكلي الثاني :

أحكام الله تعالى تصعد بالبشرية إلى القمة وتبعد بها عن السفول : من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ . . . ﴾ (٨٧) إلى قولـه: ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُواْ بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا . . . ﴾ (١٠٨) .

يُفتتح هذا المعنى بنداء الذين آمنوا ،ثم بنهيهم عن تحريم طيبات ما أحله الله كما فعـل الرهبان والقسيسون ،ثم نهيهم عن تجاوز الحدّ و الاعتـداء كما فعل الكفـار .ثـم إنـه تعـالى

أعلمهم بعدم المؤاخذة على الأيمان الجارية على ألسنتهم دون قصد،و أعلمهم عن كفارات ماجرى منها بقصد ؛ترغيبا في تصحيح ما جاء من التحليل أو التحريم جاريا على ألسنتهم. و كأن البيان القرآني بالجمع بين النهي عن تحريم الطيبات و النهي عن الاعتداء يردّ الأعجاز على صدورها، فجاء في المعنى الجزئي الأول من المعقد الأول بقضية ما أحلّ وماحرّم من الطيبات،وجاء في المعنى الجزئي الثاني بقضية الاعتداء .

ولما كان الحديث عما أُحلّ و حُرِّم من المطعوم، وجاء نداء المؤمنين منبها لهم إلى تشريع مهم وموثق من مواثيقه تعالى، فأبان عن خطر الخمر و الميسر والأنصاب و الأزلام على الجملة ، وكانت الأنصاب و الأزلام من عمل أهل الشرك- لما كان كل ذلك ؛خصّ الخمر والميسر بالذكر في هذه الآية فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ. . . ﴾المائدة (٩١)،و إنما سلكهما في سلك واحد مع الأنصاب والأزلام في الآية السابقة لهذه الآية ؛" لتأكيد تحريم الخمر و الميسر، وإظهار أن ذلك جميعا من أعمال الجاهلية و أهل الشرك ،فوجب اجتنابه بأسره ."([١]) ثم كانت فاصلة الآية قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ متمكنة في موقعها ؛لأنها تحتمل مع معناها الحقيقي معنى"التحذير من انتفاء وقوع المستفهم عنه."([٢]) وهذا المعنى سمّاه ابن عاشور معنى (هل) الكنائي. ([٣]) وفيه تحضيض على ترك الخمر،مع تضمين معنى التعنيف و التوبيخ لكل من لم ينته خاصة ؛لأنه

---

(١) الكشاف. ٢٩١/٢ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير.المجلد الثالث ٢٨/٧ .

(٣) مذهب الطاهر ابن عاشور في (هل) أنها مستعملة في حقيقتها ،فهي لاستفهام مضمن تحقيق الإسناد المستفهم عنه وهو{فهل أنتم منتهون} ، و مع استعمالها في حقيقتها فهي يراد منها معناها الكنائي،وهو التحذير من وقوع المستفهم عنه ،واستدل على صحة كلامه بأن عمر بن الخطاب حينما نزلت قال:انتهينا انتهينا .

عرف خطره ."ولو كان بعد هذا البيان كلّه نهاهم عن تعاطيها لكان قد أنزلهم منزلة الغبي ففي هذا الاستفهام من بديع لطف الخطاب ما بلغ به حد الإعجاز. "(1)

ومما يؤكد كون هذه الفاصلة تحمل معنى النهي إرداف الآيات بالأمر بالطاعة والتحذير من العصيان بقوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ المائدة (٩٢)، وأقفل الحديث على الخمر برفع الحرج عن المؤمن فيما مرّ من سالف شربه لها فقال: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ المائدة (٩٣). يقول الطبري عن سرّ تكرار ذكر الإتقاء مع الإيمان مرتين، ثم ذكر الاتقاء مع الإحسان مرة : " فالاتقاء الأول بتلقي أمر الله بالقبول والتصديق والدينونة به والعمل. و الاتقاء الثاني: الاتقاء الثابت على التصديق ،و ترك التبديل و التغيير . والاتقاء الثالث: هو الاتقاء بالإحسان و التقرب بنوافل الأعمال."(2) و علّق سيد قطب على هذا التكرار بقوله: "إنه توكيد عن طريق التفصيل بعد الإجمال ؛فقد أجمل التقوى و الإيمان والعمل الصالح في الأولى ،ثم جعل التقوى مرة مع الإيمان في الثانية،و مرة مع الإحسان ،و هو العمل الصالح في الثالثة، ذلك التوكيد مقصود هنا ؛للاتكاء على هذا المعنى ."(3)

---

(١) تفسير التحرير والتنوير.المجلد الثالث ٢٨/٧ . وقوله هذا يشير إلى مقامات الخطاب ؛فإنه لما كان المخاطب هم المؤمنين ،و كان النظم الكريم قد أعلمهم عن مفاسد الخمر و الميسر في البقرة ثم النساء؛أتى بالاستفهام المتضمن النهي عن تناولهما ترفيعا لهم لمنزلة الفطن الخبير .

(٢) جامع البيان ٣٦/٧ .

(٣) في ظلال القرآن ٩٧٨/٢. و لعل لفظ (الاتكاء) هذا لا يليق بالنظم الكريم ،والأسلم استخدام ألفاظ مثل: إظهار المعنى أو إبرازه أو تجليته .

وجانب الترقي والصعود في التقوى بارز ؛إذ قُرنت مع الإيمان و عمل الصالحات مرة،ثم مع الإيمان مرة ،ثم مع الإحسان ثالثة .وجاء الثناء على المرتبة الثالثة دلالة على أنها الأعلى و الأرقى. وربما يفسر شيئا من الفرق بين الأولى والثانية إضافة {ما} إلى الأولى ؛لأنها تضعف الاتقاء حيث قال: ﴿ إِذَا مَا اتَّقَواْ ﴾ حيث تشعر أن الاتقاء يحصل مرة دون مرة، أو لعل فيه معنى الاجتهاد والمجاهدة للنفس في التقوى ،أما الثانية فهي أقوى وآكد وأثبت،و الثالثة هي الفضلى –والله أعلم بأسرار كتابه–.

وتتوالى التشريعات في هذا المعقد ،فمن أكل الطيبات ،و تحريم الخبائث ،إلى اليمين وكفارته،ثم إلى تحريم صيد البر مع الإحرام،و تحليل صيد البحر مع الإحرام ،و كلها مواثيق يأخذها الله على عباده يقرر عن طريقها خصائص الألوهية ،و هي التفرد بالحكم وتصريف شئون العباد الذي يقتضي العلم بهم وبأحوالهم و بما في السماوات وما في الأرض ولذلك قال تعالى بعدها : ﴿ جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ المائدة(٩٧). والمقصود أنه يعلم ما في السماوات وما في الأرض قبل وقوعه؛لأنه جعل التعليل متعلقا بجعل الكعبة وما تبعها قياما للناس." وقد كان قيامها للناس حاصلا بعد وقت جعلها بمدة ،وقد حصل بعضه يتلو بعضا في أزمنة متراخية كما هو واضح .وأما كونه يعلم بعد ذلك وقوعه فلا يحتاج للاستدلال ؛لأنه أولى،ولأن كثيرا من الخلائق قد علم تلك الأحوال بعد وقوعه. "(١) ولا يؤخذ من الآية هذا المعنى فقط ؛إنما هو علم بأحوال العباد في لحظة واحدة على كثرتهم واختلاف مكانهم .

ولما قرر الله تعالى علمه لما في السماوات و الأرض ،وأقفل الآية بما يؤكد هذا العلم؛ركز أكثر على صفة العلم فقال: ﴿ اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * مَّا عَلَى الرَّسُولِ

(١) تفسير التحرير والتنوير .المجلد الثالث ٥٩/٧ .

إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ* قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُواْ اللّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ المائدة(٩٨-٩٩) وتشريعات الله و أحكامه ترقى بالبشرية و تصعد بها ،وتلك عظمة المشرّع المربي يختص بها ملك الملوك دون غيره . فقام التضاد المتوالي بين حالي شدة العقاب والرحمة من العذاب،وبين علم الله لحال إبداء العباد أخبارهم أو كتمانها،وبين عدم استواء حالي الخبيث والطيب- قامت مقام التحذير من تحليل الحرام ،وتحريم الحلال؛لأنها من شؤونه تعالى،وهو يعلم كيف يضعها و لمن يضعها .

ولما كان تحليل الحرام،و تحريم الحلال من الاعتداء؛ كان سؤال المؤمن عن أمور إن ظهرت له ساءته جزء من هذا الاعتداء .و لذلك طولب المؤمنون بالكف عن السؤال عنها،وإلا سيكون مصيرهم مثل أقوام سبقوهم سألوا عن أمور و لم يستطيعوا تطبيقها فكفروا بها فقامت عليهم الحجة . وضرب البيان القرآني بالكفار مثلا حين حرّموا البحيرة والسائبة والوصيلة والحام من أنفسهم ،فتركوها دون الانتفاع منها، وقدموها إلى آلهتهم فكانوا مجرمين ومعتدين في آن معا .

و لما ذكر ضلال الكفار و بعدهم عن الهداية استكبارا عن سماع الحق و محبة في تقليد آبائهم؛"أعلم المؤمنين أن مخالفة الغير في قبول الهدى لا تضرهم أصلا "([1]) ،فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾المائدة (١٠٥) .

ولما كان قول الزور حين الوصية من الاعتداء ؛حذّر تعالى منه ،ونسبه إلى الإثم تارة، وإلى الظلم تارة ،وإلى الفسق أخرى،وحث على الشهادة الحقّة . وهو بذكرالاعتداء و الكفر و الظلم و الفسوق يمد يدا إلى المعقد الكلي الأول الذي يرهب من عدم الحكم بما أنزل الله بالنعت بالظلم والكفر والفسوق على التوالي .

---

(١) نظم الدرر ٥٥٣/٢ .

وبهذا المعنى ختم هذا المعقد ،و آذن بانتهاء السورة ،و ناسب مجيء موضوع الوصية عند الموت في آخر السورة الإيذان بانتهائها .

ومركز المعنى في هذا الجزء هو بيان اختصاص الله بالتشريع ،و أن التدخل في التشريع اعتداء على خصائص الألوهية ،و يدل على ذلك ذكر الاعتداء أربع مرات باشتقاقات مختلفة وهي: (لا تعتدوا– المعتدين — اعتدى — اعتدينا) وجاء ذكر نواتجه فقال: (كافرين — ظالمين — فاسقين — الآثمين) .ولما كان الخطاب للمؤمنين ؛كثرت أساليب التحذير من الاعتداء فجاء ذكر التقوى بصيغة الأمر سبع مرات،و جاءت عبارات أخرى تحمل معنى التقوى مثل: (فاجتنبوه– فهل أنتم منتهون– احذروا– عليكم أنفسكم)، وجاءت عبارات التهديد كذلك تؤازر عبارات التحذير مثل: (ومن عاد فينتقم الله منه — اعلموا أن الله شديد العقاب) .

و العلاقة بين المعنيين علاقة تفريع؛ فلما ذكر في المعنى الجزئي الأول أن الوفاء بعهود الله وعقوده عمدة في قضية الولاء والبراء ؛جاء في المعنى الجزئي الثاني حتى يبين أن مواثيق الله كلها خير و فلاح و سعادة، وتصعد بالبشرية وتسمو بها ،فالأَوْلَى الانقياد لها دون جدال أو عناد،و قضية التحليل والتحريم مثال تطبيقي يُفهم الله عباده من خلاله حدود طاقتهم ،لئلا يتعدوها بحال من الأحوال لانعدام علمهم بما يصلح لهم، وارتفاع العلم بما يصلح للعباد لله تعالى وحده دون سواه . فكل تحليل لما حرّم الشارع ،وتحليل لما حرّم الشارع هو اعتداء على خصائص الألوهية .

العلاقة بين المعقدين الكليين في سورة المائدة [1]:

المعقـدان الكليـان في سـورة المـائدة مرتبطـان بعلاقـات داعمـة للمعنـى الأعظـم في السورة،والعلاقة بين المعقد الأول والثاني هي علاقة تفريع ؛لأنه لما ذكّر النظم الكريم المؤمنين بنعم الله المقتضية الوفاء بمواثيقه كلها،فذكر حال الأمم السابقة مع هذه المواثيـق ودلّـل علـى أهمية تلك المواثيق والأحكام، وأبان أنها لم تُفرض عبثا أو تسلطا؛إنما هي لحكم بالغة ترفع الفسـاد المقتضي للخسـران الـلازم للإسـراف،والكفر الـذي يغـطي الإيمـان،والظلم المضـاد للقسط ،والفسوق المضاد للإصلاح ،فثبـت أن أحكامـه تعـالى أعظـم المواثيـق علـى الإطـلاق وتستلزم الوفاء بها،لما كان كل ذلـك – أعلـم في المعقـد الكلـي الثـاني أن العظمـة في المواثيـق تقتضي عظمـة المشـرّع و تفرده بلا منـازع،وإذا كان ذلك كذلك ؛عُلـم أن التشـريع خصيصـة من خصائص الألوهية يجب عدم تعديها ولا التدخل فيها بحال من الأحوال .

---

(١) المقدمة في جزء من الآية الأولى في قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾

المعقد الكلي الأول: أحكام الله وتشريعاته أعظم المواثيق في كل الأديان والواجب الوفاء بها . من قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ . . . ﴾ المائدة (١)إلى قوله : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ المائدة (٥٠) . وقام به جزءان :

الأول: تذكير المؤمنين بنعم الله المقتضية الوفاء بمواثيقه كلها مع وجوب الاتعاظ بأحوال الأمم السابقة.

الثاني: بيان الأثر الناتج عن نكث مواثيق الله وعهوده.

المعقد الكلي الثاني : اختصاص الله بالتشريع أصل في معنى الألوهية .من قوله تعـالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء . . . ﴾ المائدة(٥١) إلى قولـه : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُواْ بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُواْ أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ . . . ﴾ المائدة (١٠٨) .وقام به جزءان :

الأول :العمدة في الولاء والبراء بين الناس على الوفاء بعقود الله وعهوده .

الثاني:أحكام الله تصعد بالبشرية إلى القمة وتبعد به عن السفول .

خامسا :

نمو المعاني و تآخيها وانسجامها في سورة الأنفال

سورة الأنفال سورة التربية والتعليم ،تكلّم عن معاني سورة الأنفال كثير .([1])والتقسيم التفصيلي نراه عند سيد قطب حيث قسم السورة إلى أربعة دروس ([2])،وجعل مسار معاني السورة في خطين رئيسين ،الأول :خط العقيدة. والثاني :خط الجهاد،وبيان قيمته الإيمانية والحركية. ونظر سعيد حوى إلى سورة الأنفال فقسمها قسمين رئيسين يجمعهما علاقة تناظر.([3]) ومن يرجع إلى كتابات سعيد حوى يلحظ تأثرا بالغا بنظرة سيد قطب ،وقد قال عن نفسه أثناء تحليل سورة الأنفال أنه أسير لتحليل سيد قطب،بل ربما كانت أفكار سيد قطب هي الركيزة التي بنى عليها حوى تحليله لسورة الأنفال ،مع تفصيل القول في رجوع معاني سور القرآن إلى معاني سورة البقرة؛حيث أعاد الحديث في سورة الأنفال إلى آيات القتال والسؤال عن الشهر الحرام في سورة البقرة .

وبالنظر لسير المعاقد في سورة الأنفال نجد مقدمة السورة تقع في الخمس آيات الأولى من السورة ([4])،وتنقسم معاني السورة إلى ثلاثة معاقد كلية :

---

(١) ينظر بصائر ذوي التمييز للفيروز أبادي١/٢٢٤-٢٢٥. وينظر فتح القدير محمد رشيد رضا١٠/١٣٩-١٤٤.وينظر تفسير القرآن الكريم لمحمد شلتوت صـ٤٠٠-٤٤٨. -تفسير القرآن الكريم :(الأجزاء العشرة الأولى). محمود شلتوت ص ٤٤-٤٥. ط ١٢,١٤١٤هـ - ٢٠٠٤م . دار الشروق — القاهرة. و ينظر النظم الفني صـ١٢٢-١٢٦.

(٢) الأول : من آية(١-٢٩) بيان حكم الله في الأنفال، وتصوير ما كان عليه موقف المسلمين في مكة من الضعف وقلة المنعة، وما صاروا إليه من الإيواء و العزة . الثاني : من آية (٣٠-٤٠) استعراض الماضي في مواجهة الحاضر . الثالث: من آية (٤١-٥٤) استطراد في أحكام القتال والغنائم .الرابع : من آية (٥٥-٧٥) قواعد التعامل مع المعسكرات المتنوعة في السلم والحرب (ينظر في ظلال القرآن ٣/١٤٧١-١٥٦٣ .)

(٣) القسم الأول : مقدمة من آية (١-٤) ومقطعان :المقطع الأول من آية (٥-١٤) يعرض صفحة من غزوة بدر. المقطع الثاني من آية(١٥-٢٩)نداءات المسلمين . القسم الثاني :المقطع الأول من (٣٠-٤٤) خطاب الرسول ﷺ وأفعال الكافرين برسول الله ﷺ قبل بدر . المقطع الثاني من (٤٥-٧١)مجموعة نداءات متنوعة للمؤمنين والرسول ﷺ.(ينظر الأساس في التفسير ٤/٢١١١-٢٢٠٩ .)

(٤) لتفصيل القول في معاني مطلع السورة ينظر (المطالع في سورة الأنفال) .

المعقد الكلي الأول: ربط الجهاد بترسيخ الاعتقاد بأن مقاليد النصر على الأعداء بيد الله لا غير .

المعقد الكلي الثاني: فقه أسباب النصر بين صفوف المسلمين مناطه تربية القلوب على الحياة والثبات .

المعقد الكلي الثالث: فقه طرق التعامل مع الكفار مناطه تربية القلوب على التوكل على الله والصبر و التخلص مما يزعزعهما .

ومقصود السورة ذكره البقاعي فقال: "و مقصد هذه السورة تبرؤ العباد من الحول و القوة، وحثهم على التسليم لأمر الله، و اعتقاد أن الأمور ليست إلا بيده، و أن الإنسان ليس له فعل، ليثمر ذلك الاعتصام بأمر الله المثمر لاجتماع الكلمة، المثمر لنصر الدين، و إذلال المفسدين المنتج لكل خير ."(١)

والمناط في هذه السورة على تربية القلوب على التعلق بما عند الله ؛ لذلك نجد الحديث عن هذا الموضوع يكتنف معاني السورة كلها .(٢)

سير معاقد المعاني في سورة الأنفال :

المعقد الكلي الأول من سورة الأنفال :

ربط الجهاد بترسيخ الاعتقاد بأن مقاليد النصر على الأعداء بيد الله لا غير: من قوله تعالى: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ . . . ﴾ (٥) إلى قوله: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ . . . وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٩).

مهّد النظم الكريم لذكر غزوة بدر الكبرى ببيان حال خروج فريق من المؤمنين إلى القتال من الكراهية والجدال، وشنّعه حين صوّر قوة ممانعتهم بحال مَنْ يُساق إلى الموت، وبيّن ضعف

---

(١) نظم الدرر ٣/١٨١.

(٢) لتفصيل القول في هذا المعنى ينظر فصل (براعة الاستهلال في سورة الأنفال).

عزائم فريق منهم برغبتهم في نيل الطائفة العارية من السلاح ،ثم إرادة الله أن يكون العدول عن هذا المغنم اليسير الدنيوي إلى المغنم الأصيل الأخروي .

ولما ذكرالبيان القرآني الظروف التي أحاطت بخروج فريق من المسلمين؛ألهبهم ببيان أهداف ومقاصد الإسلام السامية و العظمى من الحروب فقال: ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ الأنفال (٧-٨) وقوله : ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ ليس تكريرا للمعنى الأول " ذلك أن الأول تمييز بين الإرادتين ،وهذا بيان لغرضه فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم،ونصرتهم عليها، وأنه ما نصرهم و لا خذل أولئك إلا لهذا الغرض الذي هو سيد الأغراض."(١)،فإحقاق الحق و إبطال الباطل عمدة و أصل للغرض الأول المذكور و لكل الأغراض الأخرى .

وإحقاق الحق: إثباته . وقطع دابر الكافرين: استئصال آخر مَنْ بقي منهم،وفيه بيان شدة العذاب المقام للكافرين من الله؛لعدم بقاء أثر لهم،مع الترهيب من حصول سبب العذاب وهو الكفر بالله،والتنفير من أن يكون الواحد من الناس من زمرة الكافرين .

ولما كان قطع دابر الكافرين ليس عبثا ولا ظلما؛أبان النظم الكريم عن طريق (لام التعليل) مقاصد الإسلام العظيمة من مشروعيته للجهاد؛من إحقاق الحق و إبطال الباطل ،وأسهمت المقابلة بين الجملتين في إظهار مدى ما بين المعنيين من تفاوت ،مع تأكيد المعنى وتحسينه،لأن معنى إحقاق الحق هو إبطال الباطل بطريق التبع ،وجناس الاشتقاق له أثر في بيان قوة هذا الحقّ المثبت و ذلك الباطل المنكر . ولما قال: ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ؛حقّق وقوعه رغما عن كل القوى، ورفع قيمة التأكيد أكثر .

---

(١) الكشاف ٢/٥٥٧ .

وكأنها مقابلة بين حال المكرهين وتناظر بين المعنيين؛ فكراهة المؤمنين منبعها الخوف من عدم الاستعداد للقاء العدو ،وكراهة الكافرين منبعها محبة الباطل ؛ولذلك جاءت الآيات بعد ذلك تؤمّن المؤمنين ،وتخوّف الكافرين .

ولما كانت هذه هي المقاصد الكبرى للحروب في الإسلام ؛ذكّر تعالى بغزوة بدر،و ذكّرهم بنعمة إمدادهم بالملائكة،وتبشيرهم وتطمين قلوبهم لهذه الغزوة ،وفيه من التثبيت والتحضيض الكثير ،وختم الحديث عن هذه المقاصد بركيزة وعمدة لكل الغزوات حين قال: ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾الأنفال (١٠)،فحصر وقصر أسباب النصر على إرادة الله وهبته قصرا حقيقيا تحقيقيا بأسلوب النفي والاستثناء .واستغرق أفراد النصر بـ(أل) التعريف،فعزّز معنى الحصر وكمّله بذكر العندية،وفخّمه بوضع المظهر موضع المضمر،مع التأكيد بـ (إن) و ذكر صفتي العزة و الحكمة ؛فأبان عن الجلال والعظمة لله تعالى،مع التكفّل و الهيمنة .

وحاصل الأمر كله تأكيد أن أسباب النصر والهزيمة بيد الله تعالى لا غير .وهو إبراز لمعنى اليقين بالله ناصرا ،والتسليم ببراءة الإنسان من كل حول و قوة غير قوة الله تعالى .

ولما كانت هذه الركيزة تحتاج إلى تصديق وترسيخ ؛أثبتها النظم الكريم بذكر قصة غزوة بدر ومنّه تعالى على عباده بأمور لم يكونوا يدركونها،فأمّن قلوبهم بأمور معنوية وأخرى حسية؛من تغشية النعاس لهم،وإنزال ماء السماء لتطهير أجسادهم،وإذهاب وسوسة الشيطان عنهم،والربط على قلوبهم ،وتثبيت أقدامهم ،كل ذلك كان قبيل بدء المعركة. أما أثناءها فامتن بوحيه للملائكة بمعيته للمؤمنين،وأمره للملائكة بتثبيت المؤمنين،مع إلقاء الرعب في قلوب الكافرين،و الأمر بضرب الأعناق والبنان .

ولما ذكر البيان الكريم ما للكافرين من إلقاء الرعب والأمر بضرب أعناقهم وأطرافهم ؛أعلم عن سبب هذا الاستحقاق بعصيانهم لله ورسوله. واستعار المشاقّة لعصيان الله ورسوله لتصوير الأثر الناجم عن إتيانهما صورة الصدع والكسر في البنيان ،ممايجعله قابلا للانهيار؛ترهيبا من عصيان الله ورسوله ﷺ .

ولما كان التولي في الحروب أمرا عظيما ؛نبّه إليه بنداء المؤمنين ،و نهيهم عن الفرار حين لقاء العدو، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴾ الأنفال(١٥)،واستعير الزحف لتقدم الجيش جملة تهويلا لمقدم الكافرين على المؤمنين .

ولما قال: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾الأنفال (١٦) ؛توعد المنهزمين بغضب الله إلا ما كان من المكايد في الحرب،أو الطالب نجدة. ولما حرّم الفرار قال: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ. . . ﴾الأنفال (١٧) "مسببا عن تحريمه الفرار وإن كان العدو كثيرا؛تذكيرا بماصنع لهم في بدر ليجريهم على مثل ذلك ،و منعا لهم من الإعجاب بما كان على أيديهم في ذلك اليوم من الخوارق ."(١) وفيه تجريد المسلمين مع رسولهم من أي قدرة مع إثباتها لله تعالى دون سواه ،فنفى تعالى عن المسلمين أن يكون قتالهم هو سبب نصرهم، أو أن يكون رمي الحصى من قبل الرسول ﷺ في وجوه أعدائه قد طالهم؛إنما هو نصر من الله،وابتلاء للمؤمنين. وأعلم بما يثبت القلوب ويمضي العزائم من إضعاف الله لكيد الكافرين أمام المؤمنين بقوله: ﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾الأنفال(١٨) .

فبعد أن هيّأ الخطاب القرآني لمعنى اليقين بالله ناصرا بذكر النعم في أول السورة أي بما يقتضيه توحيد الربوبية؛ جاء التصريح به بأسلوب القوة و الهيمنة والجلال هنا ،وكان النفي و الإثبات بالاستدراك في قوله: {فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم- و ما رميت إذ رميت ولكن الله رمى} معينا عليه،ودالا على التأكيد في نفس الوقت. وتكرار الأفعال (تقتلوهم- قتلهم) و (رميت–رمى) لها أثر التأكيد كذلك . و هذا نمو لترسيخ اليقين بأن مقاليد النصر بيد الله لاغير .

(١) نظم الدرر ١٩٦/٣ .

وختم هذا المعقد بما يؤكد على نصرة الله للمؤمنين ،و إضعافه للكافرين ،فقال مخاطبا أهل مكة على سبيل التهكم: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الأنفال (١٩)،والمعنى: "إن تستحكموا الله على أقطع الحزبين للرحم ،وأظلم الفئتين، وتستنصروه عليه فقد جاءكم حكم الله ونصره المظلوم على الظالم، والمحق على المبطل ."(١) وهو إبراز لمعنى الولاية والنصرة والمعية لجماعة المؤمنين .

ومركز المعنى في هذا الجزء بيان مقاصد الإسلام من مشروعية الحروب ؛من إحقاق الحق و إبطال الباطل .و التأكيد على أن مقاليد النصر على الأعداء بيد الله تعالى لا غير .و لهذا جاء لفظ {الحق} صراحة ست مرات ،و مضمنا بذكر مقتضياته من الثواب و العقاب ،و ذكر أسباب تمكينه على قرينه الباطل .

المعقد الكلي الثاني من سورة الأنفال :

فقه أسباب النصر بين المسلمين بتربية القلوب على الحياة و الثبات و التخلص مما يزعزعهما : من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ (٢٠) إلى قوله: ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَونَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَالِمِينَ ﴾ (٥٤) .

(١) جامع البيان ٩/ ٢٠٧ .

ويقوم به جزءان :

المعنى الجزئي الأول من المعقد الكلي الثاني :

تربية حياة قلوب المؤمنين،وتخليصها مما يزعزع هذه الحياة: من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. . . ﴾(٢٠) إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ . . . ﴾(٤٢) .

لما كان الأمر بطاعة الله ورسوله قد سبق في المعقد الكلي الأول على سبيل التعريض للمؤمنين ،والتهديد في سياق ذكر عذاب الكافرين ؛أتى به صراحة في افتتاح هذا المعنى فأمر المؤمنين به،ونهاهم عن الإعراض عنه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ وأكمل بيان هذا الأمر بالنهي عن التشبه بالمشركين الذين سمعوا القرآن والوعظ ولم ينتفعوا به، فذمهم،و استعار لهم الدواب الذين لا ينتفعون مما يسمعون. ثم بالغ في ذمهم وأعلم أنهم شر الدواب فاستعار لهم الصمم والخرس؛تصويرا لعناد المشركين واستكبارهم عن سماع الحق ،و تنفيرا من أن يكون المؤمن على هذه الحال .

ونفى البيان القرآني السماع عنهم ؛للعلم بانتفاء الخير في قلوبهم فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ الأنفال (٢٣)،فأعلم بهذه الآيات أن التكذيب والعناد والتولي صفات متأصلة في كفار قريش فلذلك لا يرجى انتفاعهم.

ثم ربط النظم الكريم السمع والطاعة بحياة القلوب فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ . . . ﴾ الأنفال (٢٤)،فأمر المؤمنين بالاستجابة لله وللرسول لأن في الاستجابة لهما حياة القلوب وصحتها وسلامتها، ومعناه:" إذا دعاكم

الرسول لما يحييكم من الحق "([1]) من الأوامر و النواهي، و إنما استعار حياة القلب لصلاحه وسلامة اعتقاده؛ تصويرا للأثر الحسن الذي تحدثه أوامر الله و نواهيه في قلوب المؤمنين، وفيه ترغيب في الاستجابة .و فيه كذلك بيان للوازم حصول النصرة من الله .

ولما كان القلب هو العمدة في الاستجابة الداعية إلى استقرار الإيمان؛ ختمت الآية ببيان قدرته تعالى على الحيلولة بينه وبين صاحبه، فقال: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ الأنفال (٢٤)، فخرج الأمر إلى الترهيب من عدم الثبات على الإيمان لأن الله أملك لقلوب عباده من العباد أنفسهم .وفيه بيان تصرف الله في عباده على الكيفية التي يريدها .

ولما كانت حياة القلوب تستلزم تخليصها مما يعوق هذه الحياة أو يكدرها؛ ذكّر تعالى عباده المؤمنين بقلتهم و ضعفهم و خوفهم حين هاجروا من مكة، و ما آلوا إليه من الكثرة والقوة والنصرة و التأمين في المدينة ،فضمن لهم المأوى و المطعم، و لذلك حسن الختم بقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ الأنفال (٢٦) . ولما كانت خيانة الله([2]) ورسوله ﷺ، وخيانة الأمانة تميتان القلب نهى تعالى عنهما فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ الأنفال(٢٧)، و تكرير العامل هنا "إشارة إلى أن الخيانتين مختلفتان ،فخيانتهم لله حقيقية ،و خيانتهم للأمانة استعارة ؛لأن حاملها لما أخل بها كأنه خانها."([3]) و هذا يعني النهي عن خيانة الله و رسوله ﷺ بإنقاص فرائض

---

(١) جامع البيان ٢١٣/٩ .

(٢) قال ابن عباس :خيانة الله تكون بإنقاص فرائضه .(ينظر صحيفة علي بن أبي طلحة في تفسير القرآن الكريم عن ابن عباس صـ٢٥١) وقال الطبري :"وخيانتهم الله و رسوله كانت بإظهار من أظهر منهم لرسول الله ﷺ والمؤمنين الإيمان في الظاهر و النصيحة، وهو يستر الكفر و الغش لهم في الباطن، يدلون المشركين على عورتهم ويخبرونهم بما خفي عنهم من خبرهم "(جامع البيان ٢٢١/٩ .)

(٣) نظم الدرر ٢٠٧/٣ .و يجوز حملها على المجاز المرسل لعلاقة اللازمية ،إذ يلزم من خيانة الأمانة خيانة ذويها وفيه تصوير الضرر الواقع على صاحب الأمانة ذاته ؛فنقص المخون يعني نقص ذويه .

الله وترك سنته ﷺ و النهي عن خيانة بعضهم بعضا .وإضافة الأمانة إلى (كاف الخطاب) مع (ميم الجمع) رفع قيمة المعنى، فكأن كل من يخون غيره يخون نفسه أيضا، و في ذلك تنفير من الخيانة التي تفسد القلوب، وزادها تشنيعا حين ختم بقوله: ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ لأن عمل القبيح دون العلم به أو بنواتجه أهون من عمله مع العلم و الخبرة .

وفي الأمر بطاعة الله و رسوله في أول هذا المعنى الجزئي انسجام مع الأمر بعدم خيانتهما هنا؛ لأن الأول أمر بطاعتهما وعدم التولي وقد يبدو ذلك في الظاهر، و الثاني نهي عن خيانتهما في الباطن ، فهو من باب التناظر بين المعاني .كما يبين عن ضرورة أن تكون الطاعة عقيدة و عملا عند المؤمن .و هذا طريق من الطرق لحصول النصرة من الله – جل وعلا– الذي لا ناصر سواه .

ثم أعلم تعالى بصيغة الأمر التي تخرج إلى التحذير أن الحرص على الأموال والأولاد تفتن القلب، فتلهيه عن الحياة المطلوبة له؛ وهي التعلق بالله تعالى دون سواه .وهذا إبراز لمعنى تربية القلوب على الزهد في الحياة الدنيا ،وتعليقها بالآخرة .وهو من الطرق الموصلة للنصرة والولاية كذلك .

و لما تقدّم ذكر معوقات حياة القلوب؛ جاء الخطاب القرآني موجها للمؤمنين، ومنبها لهم إلى كيفية التخلص من كل تلك المخاوف التي قد تزعزع حياة قلب المؤمن فقال: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ الأنفال (٢٩) فجاء النداء كوسيلة تنبيه إلى المعنى الجليل الذي سيتلوه ،و أوصى المؤمنين بعده بزاد القلوب تقوى الله التي ستكون سببا في أن تجعل لهم فرقانا بين الحق والباطل مع تكفير السيئات . ولما كانت تقوى الله هي الفرقان بين الحق والباطل ؛وكان المصطفى ﷺ هو أفضل أنموذج للمتقين ؛ذكّر النظم الكريم المؤمنين عامة بنعمه على نبيه ﷺ حين كان بمكة وسط المشركين و تآمرت قريش عليه في دار الندوة بين

من يرجح حبسه ،أو قتله ،أو إخراجه من بلده، فأنقذه تعالى من بينهم فقال: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ الأنفال (٣٠)، فأشارت الآية إلى ما حدث في دار الندوة في إيجاز شديد و بليغ . وفي تكرار فعل المكر مع الصيغة المضارعة (يمكر بك – يمكرون) بيان إصرار المشركين على المكر ،و تجدده ،ويساعد على بيانه ذكر مقاصدهم بعدها : ﴿ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ ، حيث يتضح التصاعد في المكر، و الرغبة في الإطاحة بالرسول الكريم ﷺ ويعززه ما ورد في القصة من أن كل واحد من الزعماء جاء بفكرة للتخلص منه ﷺ .ثم إن أفعال المكر من قِبل الله تعالى وردت في الزمن المضارع " لاستحضار حالة مكر الله في وقت مكرهم ."(١)

ولما كان الصد عن سبيل الله عظيما، وكان المشركون يصدون المسلمين عن المسجد الحرام؛ هددهم بالعذاب، وضياع الأموال، والحسرات، والغلبة ،و المحشر إلى جهنم .وهي عقوبات متراتبة بعضها فوق بعض كتراتب أعمالهم .

وفي ذكر حال المؤمنين وحال الكافرين تقابل معنوي، فحال قلوب المؤمنين حياة ناتجة عن استجابة لله ولرسوله في أوامرهما و نواهيهما ،و اعتراف بفضل الله و نعمه، لأنه نشأ عن إيمان و تعلّق بالآخرة مع زهد في الدنيا، أما حال قلوب الكفار فموت ناتج عن استكبار وعناد في قبول الحق، وصدّ عن سبيل الله بكل الطرق، مع تعطيل للنعم ، فكانوا كالبهائم فنتج عنه تعلّق بالدنيا ،وعدم تصديق بالآخرة . وهو تقابل وتناظر بين المعاني ،فكما أن الطاعة تولد حياة القلب، و بعده عما يزعزعه، مع تقبل الله من أصحاب هؤلاء القلوب؛ فالعصيان يولد موت القلب، مع إحباط أعمال أصحاب هذه القلوب .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير.المجلد الرابع ٣٢٩/٩ ."و المكر من الله هو جزاؤهم بالعذاب على مكرهم من حيث لا يشعرون ." (الجامع لأحكام القرآن ٣٩٧/٧ .)

ولكل ذلك ناسب أن يكون الكلام بعده قوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الأنفال (٣٧) أي : ينزل المؤمنين الجنان الواسعة ،و يجمع الكفار بعضهم إلى بعض في جهنم حتى يكثروا . (١)

ولما أمر النظم الكريم المؤمنين بقتال الكفار حتى لا يظل مشرك،و كانت قضية التمايز بين المؤمنين و الكافرين هي نتيجة الطاعة و العصيان ؛أعلم عن تبعاتها من الولاية أو عدمها.
ولما كان الأمر بالعلم بالولاية يخرج في معانيه الثانية إلى تأكيد تحققها ؛ذكرها في هذا المقام تحقيقا للتمايز،وحسن التأكيد حين ختم الآية بالثناء على صاحب الولاية ،وزاد المعنى بذكر النصرة فقال: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ الأنفال(٤٠).

و لما كانت ولاية الله ونصرته عزيزتين ؛كانت هناك أسباب لتحققها؛من أهمها : الزهد في المغانم الدنيوية، وتعلق القلب بالمغانم الأخروية؛ولذلك أردف آية الولاية و النصرة بذكر الأنفال و تقسيمها،وقد كان السؤال عنها في مفتتح السورة ،ولكن لما كان الشأن تخليص قلب المؤمن من كل متعلقات الدنيا ،وربطه بالآخرة ؛جاء الجواب في الآية الأولى من السورة: ﴿قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ﴾ مقتضيا قصر الأنفال على الله و رسوله؛ليوقع قلب المؤمن على عدم التعلق بالمغنم ،ثم جاءت الآية الحادية والأربعون لتفتح المجال مرة أخرى بعد أن كان البيان القرآني قد أيئسهم من الأنفال،فقال: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى . . . ﴾الأنفال (٤١)، فوقعت موقع الرضا بعد ذلك بأي قسمة. ومن وجه آخر فإن هذه الآية من باب التفصيل بعد الإجمال،أو هي من باب التفريع في المعاني؛لأنه جعل الغنيمة على خمسة أقسام؛ سهم لله ورسوله،وسهم لذي القربى،وسهم

(١) ينظر جامع البيان ٢٤٧/٩ .

لليتامى، و سهم للمساكين ،و سهم لابن السبيل ،و الباقي يوزع على الغانمين. وقوله: ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ "مفتاح كلام، لله الدنيا والآخرة ."(١) و كما عُلّق موضوع الأنفال في بداية السورة بالإيمان عُلّق هنا أيضا، و لكنه شدّد عليه حين قال: ﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ الأنفال (٤١)، فذكّر بالنعمة بقوله: ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ أي يوم بدر الذي فرّق الله به بين الحق والباطل بنصرة المؤمنين على الكافرين غلبة من عنده تعالى دون دخل للعباد في ذلك. وزاد قيمة المعنى إردافه بقوله: ﴿ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ إلهابا للهمم ،و تحضيضا على الرضا بالقسمة، و ترسيخا للإيمان في الصدور؛ لأن التقاء الجمعين كان بتدبير الله تعالى؛ ولذلك حسن الختم بقوله: ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وكان لترك العطف بين الجملتين الظرفيتين ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ أثر في بيان عظمة ذلك اليوم ،وأثر السجع في إضفاء صفة التناغم والانسجام بين الوصفين ليوم بدر .

وتتجلى في سياق قوله: ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ معاني الرحمة، والربوبية، ولطف الله بعباده المؤمنين عامة، وإكرامه لعبده ﷺ خاصة ."و لما ذكر لهم ملتقاهم ؛صور لهم حالتهم الموضحة للأمر المبينة لما كانوا فيه من اعترافهم بالعجز ؛تذكيرا لهم بذلك ،وردعا عن المنازعة ،و ردا إلى المطاوعة ،فقال مبدلا من يوم الفرقان: {إذ أنتم }نزول {بالعدوة الدنيا}."(٢) ومعنى ذلك أن النظم الكريم أبان مراكز الفريقين فأشار إلى ضعف مركز المسلمين من العدوة الدنيا التي تسوخ فيها الأرجل ،وإلى قوة مركز الكافرين من العدوة القصوى ،فتحقق أن النصر كان من عند الله لا غير تدبيرا و تمكينا .

---

(١) جامع البيان ٣/١٠ .

(٢) نظم الدرر ٢٢٠/٣ .

وذلك كله نمو عظيم للمعنى ؛حيث أبان أن الزهد في المغـانم الدنيوية مـن مقتضيات نصرة الله وولايته .

و مركز المعنى في هذا الجزء بيان أن النصرة و الولاية منوطة بتربية القلب على طاعة الله و رسوله في السر و العلن ،مع تطهيره من كل ما ينغص تلك الطاعة،التي من أهمها التعلق بالمغانم الدنيوية .

المعنى الجزئي الثاني من المعقد الكلي الثاني :

تربيـة قلـوب المـؤمنين علـى الثبـات والإقـدام وتخليصـها ممـا يزعزعهمـا :مـن قولـه تعـالى: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ . . . ﴾الأنفـال (٤٣) ،إلى قولـه: ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا . . . ﴾الأنفال (٥٤) .

مهّد النظم الكريم لتربية قلوب المؤمنين على الثبات في هذا المعنى الجزئي بذكر النعم التي تعتبر ركيزة في الثبات؛و هي الرؤيا التي رزقها الله لرسوله حين رأى الأعداء قليلي العدد،و نصّ على الحال المضادة للنعمة لاستشعارها،فقال: ﴿ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾الأنفال (٤٣) إذ الفشل و التنازع يزعزعان ثبات القلب؛و لذلك ردهما تعالى عن عباده .و لما كانت هذه الرؤيا خاصة بالرسول ﷺ أتبعت برؤيا عامة فقال: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ . . . ﴾الأنفال (٤٤)وهي رؤية بصر؛وليست رؤيا منام،فجُعل كلا الفريقين يظن في غريمه القلّة؛لتقوى عزيمة المؤمنين،و يُستهان بالمشركين ،فيثبت المؤمنون – بإذن الله– و ينتصرون،و يجبن الكفار

فينهزموا "وهذا من بديع صنع الله تعالى؛إذ جعل للشيء الواحد أثرين مختلفين،و جعل للأثرين المختلفين أثرا متحدا ."([1])

هذا الثبات كان قد هُيّئ له في المعقد الكلي الأول حين نهى النظم الكريم عن انهزام المؤمنين أمام الكافرين إذا أقبلوا عليهم زحفا ،فكان من رد الأعجاز على الصدور .

ولما قدّم للثبات بالنعم ، جاء الأمر به تاليا صراحة بعد نداء المؤمنين ،فلمّ شعثهم ولفت انتباههم إلى هذا المعنى المذكور بعد النداء، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ ﴾الأنفال(٤٥)،لأنه لما كان ذكر النعم و الفضائل قد يريح النفس إلى أن هناك معينا ونصيرا ،وربما تتخاذل النفس عن القيام بواجباتها؛جاء الأمر به للبيان بلزوم التطبيق،فأمر حين لقاء فئة– أي مقاتلة – بالثبات على سبيل الاستعارة ؛ترغيبا في الصبر حين لقاء العدو .وعطف على الثبات أمرا آخر وهو ذكر الله كثيرا،لأنه طريق الفلاح،ولعله قدّم الأمر بالثبات على الذكر دلالة على أن الذكر مقوٍّ للثبات. وعطف بالأمر بطاعة الله و رسوله،و بالنهي عن التنازع فقال: ﴿ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ الأنفال (٤٦) ونهى عن التنازع لأنه سبب للفشل و الضعف الذي عبّر عنه بالاستعارة ؛تصويرا لقوة اجتماع الكلمة ،وبيانا لأثر الاتفاق ،وعدم الاختلاف .

وعطف الأمر الرابع الذي هو ملاك الأوامر كلها ورأسها وهو أمرهم بالصبر لأنه أصل في الثبات،و أكد معية الله للصابرين تحضيضا عليه .

وهاتان الآيتان أشبه بالتدريب العسكري المسلّح بالإيمان؛قوة روحية تفضي إلى قوة بدنية ، فالله مولى المؤمنين وناصرهم . لذلك كان الوصل بين هذه الأوامر يصور ضرورة

---

(١) تفسير التحرير والتنوير .المجلد الخامس ٢٦/١٠

اجتماع هذه الأسلحة مع كل فرد من المؤمنين في ساحة المعركة، أو هو التطبيق الفعلي لتحقق الولاية و النصرة .

و لما كان المعوّل على القلب في الثبات نهى البيان القرآني المؤمنين عن الخروج للحرب في حال من الزهو والعجب، أو طلبا للثناء والذكر ،كما فعل الكفار حين خرجوا لملاقاة المؤمنين وحماية عير أبي سفيان، فالثبات المنصوص عليه منبعه طاعة الله ورسوله و الصبر في وجه الأعداء .فأشارت الآية الكريمة إلى قول أبي جهل، وفيه رفع لقيم المؤمنين، وتعريض بسوء فعل أبي جهل و ضعف فكره .

وهذا تصاعد للمعنى وتراتب إذ قرن الأمر بالثبات عند لقاء العدو مع الأمر بطاعة الله ورسوله ﷺ ،واجتماع الكلمة ،والصبر لحصول المعية التي هي الولاية .

ثم انتقل البيان القرآني بأسلوب القصّ الهادف إلى نقل صورة من صور الحرب خاصة بالمشركين والمنافقين، فالمشركون خرجوا لملاقاة المؤمنين في بدر وقد وعدهم الشيطان الجوار، وحين تلاقت الفئتان على الحقيقة ؛كان الشيطان أول الفارين، وأول المتبرئين منهم. والمنافقون احتقروا المسلمين لقلة عددهم ،و نسوا أن الله هو سبب النصر و لا دخل لكثرة العدد أو قلته، فنصر الله المؤمنين عليهم .

وهذا بروز لمعنى آخر يستلزم النصرة ،ويعزز الثبات، وهو التوكل على الله الذي ذُكر صراحة في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ الأنفال (٤٩) .

واستكمالا للصورة بيّن تعالى الجزاء المعدّ للمخالفين فقال: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ الأنفال(٥٠)ترهيبا مماأعد للكافرين؛ إذ الملائكة في المعركة تنزع أرواح الكافرين بقوة شديدة، ويضربونهم على وجوههم وأدبارهم ويقولون لهم: ذوقوا عذاب الحريق . فإن قيل: لم خُصت الوجوه و الأدبار بالضرب؟ فالجواب يفسره قول ابن عباس: "إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ؛ضربوا وجوههم

بالسيوف،وإذا ولّوا أدركتهم الملائكة فضربوا أدبارهم ."([1]) و فيه معنى الإهانة و المذلة الحاصلة لهم . و يعلي درجة الترهيب قول الملائكة للكفار : ذوقوا عذاب الحريق على سبيل من الاستعارة التصريحية التبعية .

وخُتم هذا المعنى الجزئي بهذه القصة حتى يبين عن القاعدة و الركيزة في العقاب؛و هي محاسبة كل على عمله،فلما كان الله عدلا ولا يعاقب أحدا بغير ذنب؛أبان أن المشركين عوقبوا لكفرهم،وشأنهم هذا كشأن آل فرعون وأمم قبلهم كفروا بآيات الله فحاسبهم الله بذنوبهم فقال: ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾الأنفال (٥٢)،ثم قال ثانية : ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَونَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَالِمِينَ ﴾الأنفال (٥٤)،و هذا المتشابه من النظم الكريم قوى اللحمة بين الآيات من جهة وروده في معنى جزئي واحد،و من جهة وروده في موضوع واحد لا يفصل بينهما إلا آية واحدة .فدل على شدة العذاب مع تنوعه. و فيه بيان أثر معصية الله و عدم طاعته مما يؤكد على سوء عاقبة الكفر بالآيات و بتكذيبها على السواء .([2])

---

(١) جامع البيان ٢٢/١٠ . و كلام ابن عباس يشير إلى حصول الضرب في عموم الجسد، فعبر النظم الكريم بالبعض وأراد الجسد كله قُبُله و دُبُره على سبيل المجاز المرسل ذي العلاقة الجزئية .

(٢)قال الخطيب الإسكافي عن تكرار الآيتين :" أجاب عنها بعض أهل النظر...ذكر في الآية الأولى عقوبته إياهم عند الموت...ثم ذكر في الثانية ما يفعله بهم من شدة عقابه بعد الموت...والجواب عندي:أنه أخبر في الأولى عما عاقبهم به من العذاب الذي لم يملك الناس إيقاعه...و في الثانية أخبر عما أنزله بهم من العذاب الذي مكّن الناس من فعل مثله و هو الإهلاك و الإغراق"(درة التنزيل وغرة التأويل ٣٦٧/١-٣٦٨). وقال الكرماني :"كدأب آل فرعون فيما فعلوا وكدأب آل فرعون فيما فُعل بهم...والوجه الآخر:أن المراد بالأول كفرهم بالله ،وبالثاني تكذيبهم بالأنبياء...وله وجه آخر:وهو أن يجعل الضمير في (كفروا)لكفار قريش على تقدير:كفرا بآيات الله كدأب آل فرعون،وكذلك الثاني:كذبوا بآيات ربهم كدأب آل فرعون"(البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ١٣٢)

و أقول:إن الكفر بالآيات يشمل التكذيب بها ،فلما ذكر في بداية هذا المعقد كفر مشركي مكة،من مؤامرتهم على الرسول ﷺ و تكذيبهم للقرآن الكريم،وتحديهم بطلب الآيات،مع صدهم عن المسجد الحرام ،وإنفاقهم للصد عن

ولعلـه بذكر آيـة التغييـر الحاصـل من اللـه تبعـا للتغيير الكائـن مـن معتقـد النـاس وصـل إلى قلب السـورة فقـال: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ الأنفـال (٥٣)؛ لأن معـاني سـورة الأنفـال تـدور في فلـك التغيير، و غزوة بدر لب موضوعها ،و هي الـتي غـيرت وجـه التـاريخ الإسـلامي ،و ابتـداء السورة و انتهاؤها قائم على بيان التضاد و التقابل و التناظر بين حـال المؤمنين و المشـركين حين قابل بين حال المكرهين، و حال القلوب من الحيـاة و الممـات، و الطمأنينـة و الخـوف وحال القوة و الوهن، وحـال العدد والعدة ،فغيّر الله نعمتـه علـى المشركيـن لأنهـم غيـروا مابأنفسهم ؛فكفروا بالآيات، وكذبوا بها، وتلك الركيزة العظمى — والله أعلم بأسرار كتابه.

ومركز المعنى في هـذا الجزء بيان أن النصرة و الولاية منوطة بتربية القلب على الثبـات في وجه الأعداء، هـذا الثبات تعززه طاعـة الله ورسوله و اجتماع الكلمة والصبر والتوكل على الله .

==سبيل الله– لما كان كل ذلك ناسب أن يسمي فعلهم كفرا؛لأن مثل هذه الأفعال داخلة في نطاق الكفر ،فقدّم ذكر كفر آل فرعون تناسبا مع كفر مشركي قريش، و لذلك كان الختم في الأولى بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ محققا معنى التهديد و الوعيد.ثم فصل بين هذه الآية وشبيهتها بقوله: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ الأنفال (٥٣) فلما ذكر أن سبب تغيير النعم،أي: زوالها ،هو تغيير مابالنفس، و ختم بما يتناسب مع خفايا النفس من السمع والعلم ؛جاء بالآية الشبيهة بعدها،وذكر تكذيب الآيات دلالة على أن التكذيب كاف لتغيير النعمة، ولذلك قال: ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ ولذكر النعمة ناسب الإتيان باللفظ الدال على الربوبية الذي يقصد الإنعام.

و لما كان أصل الأخذ هو حوز الشيء وتحصيله ،وكان معنى الأخذ بالذنوب المجازاة والمقابلة ،و ربما يظن به في الآية الثانية زوال النعمة فقط ؛جاء النص على الإهلاك ،و ذُكر إغراق آل فرعون نموذجا للإهلاك بدليل الختم بقوله: ﴿ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ – والله تعالى أعلم – .

والعلاقة بين المعنيين الجزئيين علاقة تكامل وتصاعد فلما كان المعنى الجزئي الأول يعمل على تربية القلب على طاعة الله ورسوله استجلابا للنصرة والولاية من الله؛كمّل مقتضيات النصرة فعمل على تربية القلب على الثبات مع طاعة الله ورسوله جنبا إلى جنب.

ولما كان هذا المعقد حاويا معاني التمييز بين المؤمنين والكافرين ؛كثرت الألفاظ الدالة على التمييز و التفريق مثل: (الحق –الباطل – فتنة (ثلاث مرات) – يميز – الخبيث – الطيب –فرقان (مرتين)– يحيى– يهلك – قليلا (مرتين)– كثيرا)،وكلها تشير إلى بعد المسافة بين الحالين؛حال المؤمنين،وحال الكافرين .

المعقد الكلي الثالث من سورة الأنفال :

فقه قوانين التعامل مع الكفار مناطه تربية القلوب على التوكل على الله والصبر والتخلص مما يزعزعهما : من قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٥) إلى قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٧١) .

وقام به ثلاثة أجزاء:

المعنى الجزئي الأول من المعنى الكلي الثالث :

التعامل مع المعاهدين الناقضين عهودهم ومن يتوجس منهم النقض : من قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ . . . ﴾ (٥٥)،إلى قوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً . . . ﴾ (٦٣) .

افتتح البيان القرآني هذا المعنى الجزئي بالمتشابه فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنفال(٥٥) و هو يعود بنا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ

اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ الأنفال (٢٢)، في المعقد الكلي الثاني، وهذا المتشابه(١) يقيم الترابط بين المعقدين الكليين الثاني و الثالث على أساس من التعيين بعد الإبهام، فلما ذكر الكفار بصفتهم في المعقد الكلي الأول؛ نص على ذكرهم في المعقد الكلي الثاني باسمهم؛ ترسيخا و تأكيدا لذمهم .

والملحوظ في التعبير عن هذه الفئة تحقيق القول في حكم نفي الإيمان عنهم؛ لأنه قال في الأول: ﴿ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ الأنفال (٥٥)، ثم قال بعدها: ﴿ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ ﴾ الأنفال(٥٦) فنفى عنهم الإيمان و التقوى ،و أبرز هذا المعنى تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي المنفي.

ولأنهم على هذه الصفات من نقض العهد مرة بعد مرة؛ أمر تعالى نبيه ﷺ عند الظفر بهم بتلقينهم درسا يكون عظة لهم و لمن خلفهم فقال: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ الأنفال (٥٧)، ولما كان أصل التشريد التنفير و الإبعاد؛ كان قوله: ﴿ مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾ كناية عن موصوف وهم الذين يفكرون في التعرض للرسول ﷺ بعدهم.و فيه بيان أن التشريد المأمور به النبي ﷺ والمؤمنين يقوم على التنكيل بهم؛ مما يوقع رهبة يستوي فيها السامع و الرائي .

ولما كان هذا الحكم في التعامل مع الناقضين خاصا ببني قريظة و من نهج نهجهم؛ عطف حكما عاما في التعامل مع مَنْ ظهرت عليهم علامات الخيانة و هي لم تقع

---

(١) لما كان المعقد الكلي الثاني في السورة يتحدث عن ربط السمع و الطاعة لله و رسوله وعصيانهما بأسباب النصر والهزيمة ؛ كان الحديث عن الكفار بصفتهم التي تبين عن انتقاء استجابتهم و طاعتهم لله و رسوله من تعطيل حواسهم عن الإدراك، و ناسب الإقفال بوصفهم بانتفاء العقل لتعطيلهم حواسهم عنادا واستكبارا .و لما كان الحديث في المعقد الكلي الثالث عن فقه التعامل مع الكفار في الحروب، و كانت هذه الآية في مقام الحديث عن المعاهدين الناقضين للعهود ذكر الكفار بوصف انتفاء الإيمان عنهم ،و أردفها بالنصّ على فعلهم من تكرار نقض العهد مرة بعد مرة ،فقال: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ ﴾ الأنفال(٥٥-٥٦) .

بعد، فقال: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ الأنفال (٥٨). و لما كان أصل النبذ الرمي والإلقاء؛ استعاره لعدم الوفاء بالعهد . و لما كان إيقاع النبذ على العهود منقصة و خيانة، و قد نهى تعالى عنه، جاء الأمر بوصف هذا النبذ بالاستواء ؛ أي: يتساوى في العلم به الطرفان؛ أي :انبذ إليهم نبذا واضحا لا يحتمل خفاء ولا غدرا، وحذف مفعول الفعل {انبذ} لينصرف الذهن إلى فعل النبذ دون مايقع عليه ؛ لتعميم النبذ لكل ما يكون بين المؤمنين والكافرين حال توجس الخيفة منهم .لذلك جاء التذييل بعدم محبة الله للخائنين مكملا للمعنى، قال النحاس: " وهذا من معجز ماجاء في القرآن مما لا يوجد في الكلام مثله على اختصاره وكثرة معانيه ."(١)

والأمر بعدم الوفاء بالعهد مع من يُتوجس منهم خيفة تفريع لمعنى الولاية والنصرة للمؤمنين لاقتضائه تكفل الله بعباده .

ولما كان معنى التكفل قد يفضي بالبعض إلى التواكل؛ أمر تعالى بإعداد العدة والقوة لإرهاب العدو، فقال: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ الأنفال(٦٠) فلقاء العدو وتحقيق النصرة يحتاج إضافة إلى العدة المعنوية ؛ من طاعة الله ورسوله والثبات والصبر واجتماع الكلمة؛ يحتاج عدة مادية، فعم بذكر كل ما يتقوى به على مواجهة الأعداء، وساعده تنكير لفظ {قوة} وخصّ ذكر الخيل لأنه أفضل قوة و خير معين على الحروب. و لما كان الإعداد يقوى بالجماعة جاء خطاب الأمر موجها للمؤمنين دون واسطة .ولما كان هذا الإعداد على حال السلم والحرب المستفاد من قوله: ﴿ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ يتضمن سؤالا عن سببه؛ جاء الجواب في الجملة الثانية ببيان المغزى من إيقاع الرعب والإرهاب في قلوب الأعداء، وفي قوله: ﴿ عَدُوَّ اللَّهِ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٨/٣٢ .

وَعَدُوَّكُمْ ﴾ تنشيط وتحفيز للإشارة إلى معية الله للمسلمين، مع تحقق الولاية، ويُبرز هذا المعنى أكثر إردافه بقوله تعالى: ﴿ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ ووعده بحصول الخلف و التوفية حال الإنفاق .

وهذا تفريع على معنى التوكل؛ فمن إعداد نفسي إلى إعداد مادي، إذ التوكل عقيدة وعمل .

ثم جاء التصريح بمعنى التوكل بعد أن كان ذكره ضمنا، فقال: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ الأنفال (٦١) فأبان المولى أن المعاهدين لو مالوا إلى الصلح فلا مانع من الميل لها كذلك، واستعار الجناح للميل؛ بيانا لحال خضوع المعاهدين وحال قوة المسلمين .ولما كان معنى الجنوح يتضمن معنى الذل عُرف أن قوله: ﴿ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ على سبيل المناسبة أو الائتلاف، والمعنى: " فمل إليها وابذل لهم ما مالوا إليه من ذلك وسألوكه. "[1]

فبهذه التوجيهات ضمن البيان القرآني التوجيه النفسي في التعامل مع المعاهدين الناقضين عهودهم، و المعاهدين المتوجس من خيانتهم ،وضمن التوجيه العملي لحربهم وإيقاع الرعب في قلوبهم، و التوجيه المالي حين أمر بالإنفاق في سبيل الله.

ولما كانت المصالحة والمهادنة تحتمل خداعا من الكافرين؛ جاء بيان كفاية الله لنبيه مع التأييد بالنصرة لو حصل خداع و مراوغة من قبل الكافرين ؛فقال: ﴿ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ الأنفال (٦٢) ولما أردف تعالى بقوله : ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ

---

(١) جامع البيان ٣٣/١٠ .

حَكِيمٌ ﴾ الأنفال (٦٣)؛ وقع الاستدراك في قوله: ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ موقع تحقيق القول؛ فرسخ المعنى في القلب وتأكد، و فيه معنى التوكل مع التكفل.

ومركز المعنى في هذا الجزء رسم خطة للتعامل مع الكافرين المعاهدين قائمة على الاستعداد لهم عمليا باتباع أوامر الله النازلة بشأنهم مع الاجتماع والتآلف والإنفاق وإعداد العدة . وعقديا بالتوكل على الله و اعتقاد كفايته .

المعنى الجزئي الثاني من المعنى الكلي الثالث :

التعامل مع المقاتلين الذين يفوقونهم عددا و عدة: من قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦٤) إلى قوله تعالى: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ . . . ﴾ (٦٦) .

افتتاح هذا المعنى بنداء النبي ﷺ وتنبيهه إلى معنى التكفل بالمعية والعصبة المؤمنة يمهد لمعنى سيتلوه، وهو ضرورة عدم الاكتراث بالأعداء المقاتلين، ولو كانوا كثيري العدد، وتفصيله في الآية التالية حين قال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا . . . ﴾ الأنفال (٦٥) وفيه تحريض على الصبر في وجه الكفار؛ إشارة إلى وهنهم و ضعفهم حتى إن الواحد الصابر من المؤمنين يقابل عشرة من الكفار فيهزمهم بأمر الله، و عبّر عن هذا المعنى بطريق القياس كما هو واضح من سياق الآية. والوعد بالنصر يقتضي الشرط بوصف المؤمن بالصبر، فإن لم يكن هناك صبر لم تكن هناك غلبة ،قال الطبري :" وهذه الآية وإن كان مخرجها مخرج الخبر فإن معناها الأمر، يدل على ذلك قوله: {الآن خفف الله عنكم }،

فلـم يكـن التخفيـف إلا بعـد التثقيـل ."[1] وكلامـه يشـير إلى أن هنـاك حكمـا قـد نُسـخ بعده،فأصبح يقابل المئة الصابرة مائتين و الألف ألفين،و هذا يعـني أن الواحـد الصـابر مـن المؤمنين يقابل اثنين،فالأمر بالثبـات أمـام الكفـار جـاء علـى صـيغة الخبر،وصـورته الجملـة الشـرطية،ودلالة العـدد فيهـا دلالـة عظيمـة؛حيث ماثـل بالعـددين المـذكورين العـددين السابقين،"فأبقى مقدار عدد المشركين كما كان عليه في الآية المنسوخة إيمـاء إلى أن موجـب التخفيف كثرة المسلمين؛لا قلة المشركين، و قوبل ثبات عـدد مائـة مـن المسـلمين لألـف مـن المشركين بثبات ألف مـن المسـلمين لألفـين مـن المشـركين إيمـاء إلى أن المسـلمين الـذين كـان جيشهم لا يتجاوز مرتبة المئات صار جيشهم يعد بالآلاف ."[2]

وهذا بيان واضح وصريح لمعنى التوكل على الله والصبر بالتخلص ممايزعزعهما من كثرة عدد الأعداء المسبب للإحجام؛ولذلك ناسب أن توصف المائة المسلمة بالصبر،وأن تختتم الآية بذكر معية الله للصابرين .

ومركز المعنى في هذا الجزء تقوية عقيدة التوكل على الله،واعتقاد كفايته للمؤمنين حتى لو فاقهم الأعداء كثرة وعدة .

---

(١) جامع البيان ٤١/١٠ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير .المجلد الخامس ٧١/١٠ .

المعنى الجزئي الثالث من المعقد الكلي الثالث :

التعامل مع أسرى الأعداء: من قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ . . . ﴾ (٦٧) إلى قوله: ﴿ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا . . . ﴾ (٧١) .

لما أعلم تعالى عن فقه التعامل مع المعاهدين الناقضين من الكفار، ثم مع المقاتلين من الكفار؛أعلم عن فقه التعامل مع أسرى الكفار ؛بأسلوب عاتب فيه تعالى نبيه حين أراد أن يأخذ الفدية من أسرى بدر، فأبان في تلطف أن أخذ الفدية من الأسرى يعتبر من الرغبة في عرض الدنيا التي جاءت سورة الأنفال تزهد فيه،وأوضح تعالى هذا المعنى بالمقابلة بين حالين بقوله: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ الأنفال(٦٧)،فكان تحضيضا على ترك مغانم الدنيا والبحث عما عند الله من المغنم،ثم أتبع العتاب ببيان المغفرة الحاصلة لهم بأسلوب يوقظ العقول والقلوب ويخجل النفوس ،وذلك حين قال:﴿ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ الأنفال (٦٨) .ولما كان بعض الأسرى – مثل العباس عم الرسول ﷺ – قد أخفى إسلامه؛أمر تعالى رسوله أن يخبر الأسرى بأن الله سيبدلهم و يخلف عليهم ما يعوضهم إن كان في قلبهم إسلام وليس خيانة. وفيه بيان معنى التوكل على الله؛لأن الخير أو الخيانة مما يستقر في القلوب وقد يخفى على الناس .كما أن تطبيق الزهد حتى مع مغانم الأسرى يحتاج إلى دربة ومزيد تورع ،مما يبين عن الصبر الذي يجب أن يتحلى به المؤمن الموعود بالجنان .

ومركز المعنى في هذا الجزء تربية القلب على الزهد في المغانم الدنيوية وإن دقّت،والتعلق بالمغانم الآخروية مما يصب في معنى الصبر .

والعلاقة بين المعاني الجزئية علاقة تكامل ؛إذ أبان النظم الكريم عن طرق التعامل مع المعاهدين ،ثم تطرق إلى نوع آخر من الكافرين الذين سيواجههم المؤمنون في حروبهم وهم الذين يفوقون المسلمين عددا و عدة ،وأخيرا وصل إلى طرق التعامل مع أسرى الكافرين،وفي كل يضمن النصر و النصرة ،ماديا أو معنويا ؛بشرط التوكل على الله واعتقاد كفايته مع الصبر،والتخلص مما يزعزعه من التواكل المفضي إلى الخذلان و الهزيمة .فشمل أصناف الكافرين كلهم .

العلاقة بين المعاقد الكلية في سورة الأنفال ([1]) :

لما كـان المعقـد الأول من سـورة الأنفـال يؤصـل لقضيـة الجهـاد بذكـر مقاصـد الحـروب في الإسـلام،ويرسـخ في النفـوس أن أسبـاب النصر والهزيمة بيد اللـه،مع التركيـز فيـه على ذكر الفضل والمنة على المؤمنين ؛بمقابلة كراهتهم بتبشير يفضي إلى ترغيـب،ومقابلة خوفهم بالطمأنينة،ومقابلة ضعفهم بالمدد بالقوة مع إضعاف الخصم .ثم ذكر مايوجب العقاب الشديد من مشاقـة الله و رسوله، وما يوجب غضب الله من التولي يوم الزحـف على سبيل الإجمال — لـما كان كل ذلك؛جـاء في المعقد الثاني ففصّل في الأمرين اللذين ذكرهما بإجمال سابقا،فهيّأ قلوب المؤمنين لخوض المعارك مزودة بالحياة ومبعثها طاعة الله ورسوله ﷺ ، ومزودة بالثبات .

---

(١) المعقـد الكـلي الأول: ربـط الجهـاد بترسيخ الاعتقـاد بأن مقاليـد النصـر على الأعـداء بيـد اللـه لاغير: من قولـه تعالى: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ . . . ﴾(٥)إلى قوله: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ . . . ﴾(١٩)

المعقـد الكـلى الثـاني :فقه أسبـاب النصر في الحروب مناطه تربية القلـوب بين صفـوف المسلمين:من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ الأنفال (٢٠) إلى قوله: ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا . . . ﴾الأنفال (٥٤)

وقام به جزءان : الأول : تربية حياة قلوب المؤمنين، مع تخليصها مما يزعزع هذه الحياة .

الثاني:تربية قلوب المؤمنين على الثبات والإقدام وتخليصها مما يزعزعهما.

المعقـد الكـلي الثـالث : فقه قوانين التعامل مع الكفار مناطه تربية القلوب على التوكل على الله والصبر : من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ . . . ﴾الأنفال (٥٥) إلى قوله: ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ . . . ﴾الأنفال(٧١)

وقام به ثلاثة أجزاء: الأول: التعامل مع المعاهدين الناقضين عهودهم ومن يتوجس منهم النقض .

الثاني :التعامل مع المقاتلين الذين يفوقونهم عددا وعدة .

الثالث: التعامل مع أسرى الأعداء .

و لما زوّد القلوب بما يربيها و يقويها على لقاء الأعداء في المعقد الكلي الثاني؛أخذ يربيها على التوكل على الله مع الصبر، فشمل أصناف الأعداء (المعاهدين الناقضين–المقاتلين الذين يفوقونهم عددا وعدة– أسرى الحرب) و أبان عن فقه التعامل معهم بما يضمن النصرة والولاية .

والتقابل هو ما يميز المعاقد الثلاثة، فمن حال قلة إلى كثرة ،ومن حال ضعف إلى قوة ومن حال خوف إلى إيواء ورزق .فذكر النعم في المعاقد الثلاثة مع استخدام أسلوب التقابل بين ماكان عليه المؤمنون، ومآلوا إليه بفضل من الله ومنّة؛يبين عن انسجام المعاني وسيرها باتجاه واحد لتحقيق المقصود الأعظم من السورة .

* * *

سادساً :

نمو المعاني وتآخيها وانسجامها في سورة التوبة

سورة التوبة قسمها سيد قطب إلى سبعة أقسام(1)، ورأى أن القسم الخامس منها يمثل جسم السورة، و قطاعها الأكبر لأن البيان القرآني فصّل في فضح المنافقين .و تبرز أهمية السورة عنده في بيان طبيعة المنهج الحركي للإسلام ومراحله وخطواته .

وقسم سعيد حوى كذلك السورة إلى ثلاثة مقاطع(2)، ورأى أن سورة التوبة امتداد لسورة الأنفال، وأن محور السورتين واحد ،(3) وهو آية فريضة القتال في سورة البقرة ،والآيتان بعدها. والملحوظ أن التقسيم الجزئي أصل في النظر إلى سورة التوبة عند سيد قطب، وعلى نهجه بنى سعيد حوى كتاباته؛ إلا أنه يجعل كل سورة تتناسل من معاني سورة البقرة بشكل من الأشكال، ولايخفى تأثره بسيد قطب .

وبالنظر إلى سورة براءة نجد مقدمة السورة في الآية الأولى(4) في قوله تعالى: ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ التوبة(1) يعلن الخطاب القرآني فيها براءة الله و رسوله ﷺ والمؤمنين من المشركين .

---

(1) القسم الأول: من آية (1-28): تحديد العلاقات النهائية بين المعسكر الإسلامي والمشركين عامة في الجزيرة . الثاني: من آية(29-35): تحديد العلاقات النهائية بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب عامة .
الثالث: (36-37) إزالة المعوقات التي كانت قائمة في طريق النفرة إلى جهاد الروم .الرابع: من آية(38-41) النعي على المتثاقلين الذين دعوا إلى التجهز.الخامس: من آية(42-96) فضح المنافقين وأفاعيلهم في المجتمع المسلم ووصف أحوالهم النفسية والعملية وكشف حقيقة نياتهم .السادس: من آية(97-110) التصنيف القرآني للجماعات المتنوعة التي كانت تؤلف المجتمع المسلم .السابع: من آية(111- 127)تقرير طبيعة البيعة الإسلامية مع الله على الجهاد في سبيل الله (ينظر في ظلال القرآن 3/1564- 1744) .

(2) المقطع الأول: من آية(1-37) الأمر بقتال المشركين وأهل الكتاب .
المقطع الثاني: النفير وما يتعلق به :من آية(38-122) وبه ثلاثة أجزاء؛ الأول :المقطع الأول من موضوع النفير .
الثاني: فضح المنافقين وبيان صفات المؤمنين من خلال موقف النفير والجهاد والعدو .
الثالث: النموذج الأمثل لنفير الناس وأحكام هؤلاء الناس وحقيقتهم .
المقطع الثالث: من آية (123-129) وهي خاتمة السورة .(ينظر الأساس في التفسير 4/2213-2377) .

(3) ينظر تفصيل القول في هذه المسألة في فصل موقع السورة على مدرجة السياق القرآني .

(4) ينظر تفصيل القول في معاني المطلع في (مطلع سورة براءة) .

ومقصود السورة عند البقاعي : "معاداة من أعرض عما دعت إليه السورة الماضية من اتباع الداعي إلى الله في توحيده، و اتباع ما يرضيه، و موالاة من أقبل عليه، وأدل ما فيها على الإبلاغ في هذا المقصد قصة المخلفين ." (1)

وأقول: لعل مقصود السورة هو إعلان وضع السيف حدا فاصلا بين المؤمنين والكافرين مع البراء من الكافرين، والوعيد و النذير لكل كافر معاند ولكل مؤمن متخاذل .

ومعاني السورة جاءت في معقدين :

الأول : أمر المسلمين بقتال المشركين بالله كافة (مشركي العرب – أهل الكتاب) .

الثاني : أمر المسلمين بالنفير بالجهاد و النصرة للرسول ﷺ والبراءة من المنافقين .

ومعاني السورة يكتنفها معنى البراءة من الكفار من أولها إلى آخرها مع اختلاف طرق التعبير عنها .(2)

---

(1) نظم الدرر ٣ /٢٥٥ .

(2) ينظر فصل (براعة الاستهلال في سورة التوبة) .

سيـر معاقـد المعـاني في سـورة التـوبـة :

المعقد الكلي الأول من سورة التوبـة :

الأمـر بقتـال المشـركين بـالله كافـة (مشـركي العـرب – أهـل الكتـاب): مـن قولـه تعالى: ﴿ فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَأَنَّ اللّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾ التوبـة(٢)، إلى قولـه: ﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ . . . ﴾ (٣٥) .

و يقوم به جزءان:

المعنى الجزئي الأول من المعقد الكلي الأول :

الأمـر بقتـال مشـركي العـرب وبيـان الأسـباب الـتي اسـتحقوا بهـا القتـال : مـن قولـه تعالى: ﴿ فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَأَنَّ اللّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾ التوبة(٢)، إلى قولـه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ . . . ﴾ (٢٨) .

جاء الأمر بعد البراءة بالسياحة في الأرض مدة أربعة أشهر، فقال تعالى: ﴿ فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ التوبـة(٢)، وهـو أمـر خـرج إلى معنـى الإباحـة، ودل علـى حصـول الأمان، وسيق بطريق الالتفات من الغيبة إلى الحضور ليقـع الإنـذار موقعـه بتوجيـه الخطـاب إليهم مباشرة .

ولما كان هذا الإمهال مفرّعا على البراءة ،و ربما يُظن به العجز و العياذ بالله؛قال تعالى: ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَأَنَّ اللّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾ التوبة (٢)، فنفى عجزه تعالى عن الكافرين أي: عن تعذيبهم، وزاد الأمر شدة بالأمر بالعلم بخبر عدم العجز عنهم هذا، ثم أقفل بما يؤكد على نيلهم العذاب فقال: ﴿ وَأَنَّ اللّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾ ؛لأن الخزي مسبب عن العذاب، وفي الجملة الاسمية وتأكيدها ما يدل على تحقق هذا العذاب وثباته، وأسهم مجيء المظهر موضع الضمير في بيان ذلك .

ولما أُعلنت البراءة بما فيها من قوة الصدارة و الشدة و الغلظة؛ بلغت الغاية حين أخبر بها مرادا الإعلام عنها بقوله: ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ . . . ﴾ التوبة (٣)، فإعلانها في ذلك التوقيت الزمني الذي يجتمع فيه الناس؛ سواء قصد به يوم عرفة أو يوم النحر فيه مزيد عناية بالخبر المعلن للقداسة الزمنية، مع ما في الخبر من الهيبة والعظمة لنسبته إلى الله ورسوله ﷺ، و وصف الحج بـ (الأكبر) يزيد معنى القداسة الزمنية .

ولما كان من آداب عهود المسلمين أن لا يكون هناك خون أو نقص ؛تبع الإعلان تأكيد براءة الله ورسوله ﷺ من المشركين في قوله: ﴿ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ ،ثم إن في هذا الموضع أمرا بقتال المشركين إلا أن يؤمنوا ،فعُلم " أن المراد من الكلام الأول البراءة من العهد، و من الكلام الثاني البراءة التي هي نقيض الموالاة الجارية مجرى الزجر والوعيد ."([1]) أي :لا تكرار بين الآيتين .

و قد تكون أيضا من ذكر العام بعد الخاص ، فلما أعلن البراءة في أول السورة وخصصها بكونها براءة من المشركين المعاهدين ،ثم أمهلهم مدة أربعة أشهر ؛عمّم البراءة من المشركين كلهم بعد انسلاخ المدة، وأعلنها أيضا ليس بدلالة السياق فقط ؛بل بمجيء

---

(١) التفسير الكبير ١٧٧/١٥ .

لفظ: ﴿ أَذَانٌ ﴾ ،والأذان: كل ما يصل إلى الأذن عن طريق الإعلام والإعلان،وفيه تناسب مع مشاعر الحج و العبادة.و يعززه قول الزمخشري: " فإن قلت :أي فرق بين معنى الجملة الأولى والثانية ؟ قلت: تلك إخبار ثبوت البراءة، وهذه إخبار بوجوب الإعلان بما ثبت."(1)

ولما كان الأذان بالبراءة على عمومه ؛استثنى البيان القرآني المعاهدين الذين لم ينقضوا من شروط عهدهم شيئا ،ولم يعينوا أحدا على المسلمين بسلاح أو رجال ، ففُهم من ذلك أن البراءة في أول السورة كانت إلى فئة مخصوصة نقضت عهدها مع رسول الله ﷺ ،فكان الإخبار بالأذان بالبراءة – كما ذكر سابقا – من ذكر العام بعد الخاص .و لما أومأ بقتال المشركين في آية الأذان بالبراءة ؛صرّح بها بعد ذلك حين قال: ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ . . . ﴾ التوبة (٥) .

ولما كان الأمر بالقتل والأخذ والحصر من الشدة بمكان ؛عاد ليفتح باب التوبة من جديد مع قرن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ،فقال ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾ التوبة (٥) ولما فتح باب التوبة؛ قال مرغبا فيها غير معرض عمن سيتوب، مجيرا له، مؤمّنا إياه، بقوله : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ التوبة (٦). ولما كان الترغيب في هذه الآية و السابقة لها يغري الجاهل بالمراوغة أو عدم الانضباط ؛وضع حدا وغاية لهذه الجيرة ؛وهي قوله: ﴿ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ﴾ ؛ليحصل التأكيد على تبليغ الدين له،ولتأكيد أن هدف الإجارة ديني بحت ،ثم قال: ﴿ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ أي :" ثم رده بعد سماع كلام الله إن هو أبى أن يسلم ولم يتعظ لما تلوته عليه من كلام الله، فيؤمّن إلى

(١) الكشاف ٣/٩ .

مأمنـه ،يقول :إلى حيـث يـأمن منـك و ممـن في طاعتـك حتـى يلحـق بـداره و قومـه مـن المشركين"([1]) .

و لما أبان من أول السورة عن البراءة و العذاب و القتل و الحصر و الترصد بهم ،و ما لهم من مهلة إتمام عهودهم ،و من التوبة عليهم إن تابوا ،ومن الإجارة إذا طلبوا الجوار،ثم إبلاغهم مأمنهم إن أبوا الإسلام ؛لما أبان كل ذلك أعلم عن الأسباب التي أوجبت البراءة منـهم علـى سـبيل مـن الاسـتفهام المفيـد معنـى الاسـتنكار والاسـتبعاد،فقال: ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ التوبة (٧) .

ولما كان الاستفهام في معنـى النفـي صـح اسـتثناء المعاهـدين عنـد المسـجد الحـرام مـن ذلـك الاستنكار ،وتقدير الكلام :لا ينبغي أن يكون للمشـركين عهـد عنـد الله،وفيـه بيـان قداسـة العهود عند الله وعند رسوله ﷺ،وأنهما مستقران وليسـا ممـا يخالفان،ويسـاعد عليـه تكـرار العندية في قوله: ﴿ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ ﴾ مع العطف بينهما. ثم إن استثناء العهود القائمة عند المسجد الحرام يبين عن زيادة قداسـة تلـك العهـود لقداسـة مكـان انعقادهـا .واسـتعارة الاستقامة لحفظ العهود وحسن المعاملة تؤكد معنـى القداسـة الكائنـة في عهـود المسـلمين مـع المعاهدين عند المسجد الحرام ،وأسهم تقديم جملة : ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ ﴾ في بيان قيمة هذه العهود،وفي إثبات عـدم الخـون مـن جانـب المسـلمين حـال عـدم الخيانـة مـن جانـب الكافرين ،لأن ظاهر الكلام: فاستقيموا لهم مـاداموا مسـتقيمين لكـم ، فـلا يكـون خـون مـن المسلمين أبد الدهر .

ولما كان هذا الاستنكار والاستبعاد يحتـاج إلى بيـان ؛كـرّر الاسـتفهام وحـذف الفعـل لدلالـة السياق عليه ،وأعلم عن خطر المشركين على المسـلمين مـا لـو قـدر المشـركون علـى المسـلمين

(١) جامع البيان ٦ /٦٣ .

فقال : ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ التوبة (٨) أي : " لا يرقبون في مؤمن الله ولا قرابة ولا عهدا ولا ميثاقا. "([1])و هذه غاية التحذير من خون المشركين ،وزاده بيان حالهم بقوله : ﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ فأكد على وجوب الحذر منهم لأنهم يضمرون غير ما يظهرون ،أو لعدم أهليتهم للعهود والمواثيق التي أبان عنها بوصف أكثرهم بالفسق .

ثم إنه قال بعد ذلك : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ التوبة(١٠) و هذه الآية مختلف في عائدها أهو للمشركين أم لليهود ؟([2]) و هي من المتشابه الذي يربط بين المعاني، فيقوي لحمتها و يكمّلها .([3])

---

(١) جامع البيان ٨٣/١٠ .

(٢) من قال:إنها للمشركين استدل بحادثة أكلة أطعمها أبو سفيان بن حرب للناس فصدهم عن سبيل الله؛مثل:الطبري في جامع البيان ٨٦/١ . والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٨٠/٨ . و من قال :إنها لليهود استدل بعدم وجود التكرار المحض في القرآن الكريم لأنه قال أولا: ﴿ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ ؛مثل: الكرماني في البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ١٣٣. و الفخر الرازي في التفسير الكبير ١٨٥/١٥ .

(٣) تأويل تشابه الآيتين:أن الأولى للكفار، و الثانية لليهود (البرهان في متشابه القرآن صـ١٣٣). وقال الرازي :لفظ الشراء في القرآن" كالأمر المختص باليهود ... ولو كان المراد منه المشركين لكان هذا تكرارا محضا." (ينظر التفسير الكبير ١٨٥/١٥)

وأقول:إنه لما تقدم جعله في الآية الأولى جواب الشرط ﴿ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ في حال الفعل : ﴿ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ أي أن عدم مراعاة الكفار للعهود و الذمم مع المسلمين حال ظفرهم بالمسلمين و قدرتهم عليهم جاء قوله في الآية الثانية : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ أشمل وأعم ،فلم يجعل فتك الكفار بالمسلمين مشروطاً بالظفر بهم ،إنما جعله عاما بالتركيز على صفة الإيمان فيهم.و حاصله :أن عداوتهم هذه خاصة للمؤمنين بسبب إيمانهم ،وأسهم تنكير لفظ (مؤمن) مع إفراده في بيان هذا العموم ، وعزا ذلك إلى وسمهم بالاعتداء المسبب عن الظلم المتأصل في كل من كفر بالله والمؤكد بدلالة الفصل بالضمير (هم) – و الله أعلم بأسرار كتابه – .

ولما كان حال أعداء الإسلام الرغبة في الظفر بالمسلم ؛جاء التحذير منهم ،والأمر بالبراء منهم بمقاتلتهم إن نقضوا العهود، وعابوا الدين ،و عبر عن هذين الفعلين باستعارتين الأولى نكث العهد ،والثانية الطعن في الدين؛ تصويرا لقبح أفعالهم وبشاعتها وعدم تمامها .

ولما قال: ﴿ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ التوبة(١٢)؛ حزم الأمر تجاه الكفار بالأمر بقتالهم ،وأبان عن سببه بكونهم على حال مطلق لا إيمان لهم أصلا حتى ينقضوها،وذلك أشد في ذمهم ،ثم قرّعهم حينما جعل القتال سببا في انتهائهم عن أعمالهم السيئة .

ثم حضّ على قتالهم بقول: ﴿ أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ ﴾ التوبة (١٣)ولما ذكر التحضيض على قتال المشركين ؛أردف بتذكير المؤمنين بالأسباب التي استحقوا بها هذا القتال،من نكث الأيمان،و العزم على إخراج الرسول ﷺ من مكة،والبدء بالظلم والقتال .

والاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ﴾ والتوجيه المباشر بقوله: ﴿ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ ﴾ التوبة (١٣) يزيد من معنى التحضيض،وهذه الزيادة هي التثبيت على القتال،فبالاستنكار بالاستفهام،و توجيه فعل الخشية الواجب حصوله الوجهة السليمة،يحصل التثبيت على القتال مصحوبا بعدم الرهبة من العدو .فوقع التثبيت بعد التحضيض موقعه من النفس،وكأنه قضى على وساوس المؤمنين و مخاوفهم التي قد تضعف من عزائمهم على قتال أعداء الله و أعدائهم .

وزاد معنى التثبيت بتعليق فعل الأمر بجوابه حين قال: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ* وَيُذْهِبْ غَيْظَ

قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ التوبة(١٤-١٥)، فبمجرد قتال المؤمنين للكافرين يتولى الله تعذيب الكافرين، و يتولى خزيهم، ونصر المؤمنين عليهم، وشفاء صدورهم، و إذهاب غيظ قلوبهم. ولعل البيان القرآني أراد بذكر شفاء الصدور، وذهاب غيظ القلب المغايرة؛ لأمرين: أن الأصل في الشفاء: الإشراف على الشيء؛ أي المقاربة والمغالبة فتغلب الصحة على المرض، وتقارب الصحة المرض، وتشرف أن تزيله. أما الأصل في الذهاب: المضي. فكان في الأول مقاربة شديدة لزوال ألم صدور المؤمنين مما لاقوه من أعدائهم بالتشفي بهم، وكان في الثاني ذهاب بغيظ قلوبهم؛ أي: ما يكربها، فهو تكميل للأول، أي: لا يعد في القلب ما يحمله على عدوه — والله تعالى أعلم– و هذه الأمور الخمسة التي وُعد بها المسلمون شرف لهم و رفعة. والاهتمام بما يعتري صدور بعض المؤمنين فتشفى، ومايكون في قلوبهم من الغيظ فتذهب يعد منقبة. وكل ذلك يسعى إلى التحضيض من جهة والتثبيت من جهة أخرى. وهذه من معالجات النظم الكريم للنفسيات البشرية وفيها من معاني التحفيز على قتال الأعداء الكثير.

وفي هذه الآيات الثلاث على التوالي ظهور لمعنى وضع السيف حدا بين المؤمنين و المشركين بالأمر بقتالهم صراحة والتحضيض عليه بذكر أسبابه، وهو أصل في معنى البراءة.

ولما كان موضوع صلة المشركين بمكة وبالمسجد الحرام ذا مساس عظيم في أمر القتال المتفرّع عن قضية البراءة؛ نفى البيان القرآني عمارة المشركين للمسجد الحرام بقوله: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾ التوبة(١٧) فشمل أنواع العمارة كلها؛ من القيام على إصلاحها، ومن إحيائها بالزيارة و التواجد، و شمل مساجد الله كلها. و لما ذكر حالهم الموجبة لنفي عمارة مساجد الله من الكفر بالله و الشهادة على ذلك؛ أعلم على سبيل الحصر عن المستحقين لشرف عمارة مساجد الله بقوله: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا

اللّهَ ﴾التوبة(١٨)؛ حيث يجمع المستحقون لهذا الشرف بين الإيمان بالله و اليوم الآخر،وإقامة الصلاة ،و إيتاء الزكاة ،و عدم خشية غير الله .

ولما كان حال المشركين الفخر بسقاية الحاج ،و عمارة المسجد على الإيمان بالله؛أنكر البيان القرآني عليهم افتخارهم بالسقاية و السدانة،و جَعَل مرتبة الإيمان بالله و اليوم الآخر والجهاد في سبيله هي العليا،ولا مجال لمقارنتها بسقاية الحاج وسدانة البيت،وأخرج هذا المعنى بأسلوب الإنكار بإدخال همزة الاستفهام على الفعل {جعلتم}فقال: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَوُونَ. . . ﴾التوبة (١٩)، وأقام المعنى على أسلوب التشبيه المنفي،فنفى الشبه بين عمل السقاية والعمارة والعاملين بهما،وبين عمل الإيمان والجهاد و العاملين بهما .وأقام التشبيه على الاحتباك، فأفاد الإيجاز مع الالتفات إلى الفرق بين العملين والعاملين،وأسهم قوله: ﴿لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللّهِ ﴾في بيان المراتب المتفاوتة بين العملين و العاملين بهما .

ثم زاده بيانا بتفصيله بعدما أجمله؛لأنه قال بعد ذلك : ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ ﴾التوبة(٢٠)،ففصّل في المنازل بعدما أجملها بالاستنكار ونفي التساوي،ثم أفاد بالخبر باسم التفضيل حين قال : ﴿ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ ﴾ ،وأفاد ثانية بالفاصلة حين حقق لهم الفوز بقوله: ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾وبسط الكلام حين قال بعدها يصف حالهم : ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ* خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ التوبة(٢١-٢٢)، ولعل المقصود من هذا البسط :التنويه بشأن الإيمان والهجرة والجهاد

في سبيل الله، والترغيب في المذكور، ورفع قيمته، وتأكيد عدم تساوي المكانة مع خدمة البيت ورفادة الحجيج .

وهذا البسط يمد يدا إلى قوله تعالى في مقدمة السورة : ﴿ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ التوبة(١١)

ولما كان الأمر بقتال الكفار قد يعني قتال بعض آباء المؤمنين أو إخوانهم، جاء الخطاب القرآني يوقظ الأسماع وينبهها بعد أن استغرقت في الاستماع إلى النعيم السابق و الاستمتاع بوصفه، فنادى المؤمنين قائلا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ التوبة (٢٣) فنهى عن اتخاذ الآباء والإخوان أولياء وهم على كفرهم، و عبّر عن كفرهم هذا بالمحبة له على الإيمان ." ونبّه بصيغة الاستفعال على أن الإيمان لكثرة محاسنه، و ظهور دلالته معشوق بالطبع فلا يتركه أحد إلا بنوع معالجة و مكابرة لفعله و مجاهدة ."([1])

ولما كان اختيار الكافر للكفر استحبابا و استجلابا ؛خاطب البيان القرآني المؤمنين بمايتناسب مع ذلك الاستحباب، وعبّر عمّن يوالي قرابته الكافرين بمحبتهم فوق محبة الله، وفصّل فيه بذكر محبة الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن، وقال: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ . . . ﴾ التوبة(٢٤) .

فكانت الآية الأولى واردة على معنى نهي المؤمنين عن موالاة الكافرين ولو كانوا قرابتهم، وعلى معنى وصف من يواليهم بالظلم، ثم زاد الأمر شدة حين فسر موالاة القرابة

---

(١) نظم الدرر ٢٩١/٣ .و لعل لفظ (العشق) لا يليق في هذا المقام يُقال: محبوب أو مرغوب فيه .

الكافرة بمحبتهم على محبة الله ورسوله ،ثم حين هدد بقوله: ﴿ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ ثم بالإقفال بما يتناسب مع خروجهم عن طاعته بوصفهم بالفسق و نفي الهداية عنهم إن فعلوه، فجمع لهم بين الظلم و الفسق، و هي من صفات المعتدين .

و هذا نمو و تصاعد لمعنى البراءة من المشركين و تحضيض عليه كذلك .

وكل ذلك البراء لم يكن بغتة، لأن النظم الكريم مهّد له قبل ذلك حين قال في أول هذا المعنى: ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ التوبة (١٦) .

ولما كان هذا الانقطاع مظنة الخوف من قلة السند و من الجوع عند بعض المؤمنين ؛ذكّر النظم الكريم المؤمنين بنعم الله عليهم من النصر في (بدر و قريظة و قينقاع و الحديبية وحنين)،ولم يكن المؤمنون وقتها ذوي عدة ولا مال ، فأجمل تلك المواضع بقوله: (مواطن) وخصّ يوم حنين بالذكر والتفصيل فقال: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ التوبة(٢٥) ؛حتى يظهر الامتحان بكثرة العدد مع عدم الفائدة فأبان هذا المعنى باستعارة تمثيلية صورت اضطراب قلوب المؤمنين،و زعزعة نفسياتهم،حتى أراحها بعد ذلك فقال: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ التوبة (٢٦)،فذكّر النظم الكريم المؤمنين بأن سبب النصر كان من عنده تعالى لامن غيره . كل ذلك يتناسب مع مقام تثبيتهم على البراءة من المشركين حتى لو كانوا أهليهم ،فلا مجال لزعزعة براءتهم من المشركين بعد إيقانهم أن لا كثرة تنفع إلا بإذن الله . و هذا من تصريف القول في التحضيض على البراءة من المشركين .

وأقفل النظم الشريف هذا المعنى الجزئي بنداء المؤمنين ثانية لتنبيههم إلى خبر مهم سيتلو النداء فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ . . . ﴾ التوبة (٢٨)، فقرر حقيقة وقصر موصوفا على صفة، فقصر المشركين على النجاسة والقذارة مبالغة في استبعادهم ،كأن لا صفة أخرى لهم غير النجاسة. وعدم قربهم من المسجد الحرام معناه " منعهم من دخول الحرم؛ لأنهم إذا دخلوا الحرم فقد قربوا المسجد الحرام ."(١) ونهي المؤمنين عن السماح للمشركين بمقاربة المسجد الحرام أشد من نهيهم عن السماح للمشركين بدخوله. وفيه المبالغة بإبعادهم عن المسجد الحرام .وفيه إيماء للمؤمنين بالبشارة بالسيادة .واختيار لفظ (النجس)دون غيره مما يوجب استبعاده يتناسب مع حرمة الحرم الشريف؛ لأن قربه يوجب الطهارة، فوقع اللفظ موقعه من المعنى .

ولما كانت البراءة وقطع العلاقات مع المشركين توقع قلقا في نفوس المؤمنين بسبب قلة العزوة، وكان البيان القرآني قد عالجها بذكر غزوة حنين وما وقع فيها؛ بدأ يعالج شقا آخر من مخاوفهم من قلة المال وكساد التجارة بعد أن قرر حرمة مكة على الكافرين فقال : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ... ﴾ التوبة (٢٨)، فلِمَ تأخر الحديث عن هذه القضية ولم تُقرن مع الأولى، و فصل بينهما بتأسيس معنى مهم ؛وهو استبعاد المشركين نهائيا عن الحرم المكي؟ ولعل الجواب – والله أعلم- :أنه لما كان انقطاع العزوة من الأهل الكافرين و قلة المال مما يقلق المسلمين قرر قضيتين مهمتين تسعيان إلى تسكين قلوبهم ؛الأولى :قضية التوكل على الله وحده، والثانية: قضية التكفل .ولما كانت الأولى منهما مظنة عدم التحقق؛ أفردها البيان القرآني بالذكر مع الاستدلال على صحتها، فأشار إلى مجموع نعمه، ثم ذكر يوم حنين ومثّل لحال المؤمنين وقتها، وأردف في تراخ بذكر نعمة إنزال السكينة وما تبعها، ثم أردف في

---

(١) جامع البيان ١٠/١٠٥.

تراخ أيضا بنعمة أشمل وهي التوبة على العباد .وهذا التوالي المرتب المتراخي يفيد في تكميل الابتلاء حتى يُتدبر فيكمل كشفه ،ونُبه المؤمنون بندائهم إلى منقبة لهم تحصل بإبعاد المشركين عن الحرم المكي،كل ذلك للوصول إلى تحقيق قضية وهي أن النصر بيد الله ،وأن الرفعة و العزة به و من عنده وحده فهو حقيق بالتوكل .

ولما كانت قضية التكفل من عنده تعالى،وكانت مترتبة على الأولى،وهي متحققة الحصول لأنها من عنده تعالى؛أوجزها وعممها وعظّمها في الوقت نفسه حين قال: ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ﴾ وبتقرير هاتين المسألتين أقفل هذا المعنى . وفيه نمو لمعنى البراءة من المشركين والتحضيض عليها .

ومركز المعنى في هذا الجزء هو التحريض على البراء من الكفار،وتثبيت المؤمنين على هذا البراء مع تربية القلب على خشية الله فقط دون خشية قلة العدد أو العيلة في حروبهم،ومايترتب على كل ذلك من التحفيز على قتال الكفار،وأدل ما يدل على ذلك التحضيض على قتالهم،والأمر به،وبيان عائده النفسي و المعنوي في الدنيا والآخرة،مع تسميته جهادا وبيان فضله وأجره .

المعنى الجزئي الثاني من المعنى الكلي الأول :

الأمر بقتال أهل الكتاب وبيان الأسباب التي استحقوا بها القتال وبيان عقابهم في الآخرة :من قوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ . . . ﴾(٢٩) إلى قوله: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ ﴾(٣٥) .

لما أمر الله تعالى بقتال المشركين،و ذكر الأسباب التي استحقوا بها البراءة و القتال؛قرن إليهم أهل الكتاب في الأمر بالقتال،وأبان عن الأسباب التي استحقوا بها القتال،فافتتح هذا

المعنى بقوله: ﴿ قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ . . . ﴾ التوبة (٢٩)، فعدم إيمان أهل الكتاب بالله واليوم الآخر، وعدم تحريمهم ما حرم الله ورسوله، وتركهم طاعة أهل الإسلام هي أسباب استحقاقهم للقتال، ولكن لما كان دفع الجزية قد يمهلهم بعض الوقت يراجعون فيه أنفسهم قال: ﴿ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ التوبة (٢٩)، فالجزية ليست هي الغاية وإنما يكون بها و عن طريقها الصغار[١] حتى يروا الفضل في الإسلام فيذعنوا .

ولما أبان عن أفعالهم التي تستحق القتال؛ أردف بأقوالهم الشركية الموجبة للقتال أيضا، وهم في أقوالهم ليسوا ببعيد عن الكفار الذين اتخذوا الأوثان آلهة، وهم بأفعالهم وأقوالهم يريدون تضليل العباد، هذا التضليل صوّره البيان القرآني بقوله : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ التوبة (٣٢)، فأتى بالاستعارة التمثيلية ؛ تصويرا لضعف أثر الكفار على الدين، و هذا المعنى أصل في معنى التحضيض على قتالهم ، وقوله: ﴿ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ التوبة(٣٢) ينفي حصول معنى الاستعارة ، لأنه لما كان فاعل الإباء هو الله تعالى؛ تحقق معنى عدم الحصول، مع ما يشير إليه فعل الإباء من النفي في عزة ، لذلك قام مقام النفي، فجاء بعده الاستثناء ليكون إثبات فعل تمام نور الله أقوى و"قوي جانب النفي هنا لوقوعه في مقابلة قوله: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ فكان إباء ما يريدونه في معنى نفي إرادة الله ما أرادوه ... وجيء بهذا التركيب هنا لشدة مماحكة أهل الكتاب وتصلبهم في دينهم ."[٢]

(١) ينظر للقول في هذا المعنى في (فصل براعة الاستهلال) .

(٢) تفسير التحرير و التنوير. المجلد الخامس ١٠/ ١٧٢ .

و لما قال بعدها: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ التوبة(٣٣) ؛ قابل بين هذه الآية في فاصلتها مع الفاصلة السابقة فقال في الأولى: ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾، فلما كان الإطفاء يعني الإزالة، كان الختم بذكر كراهة الكفار أنسب؛ لرغبتهم في إزالة ما يدل على الدين أو نحوه .و لما كان إظهار دين الحق يعني نصرته على كل الأديان؛ كان الختم بذكر الشرك أنسب لرغبة المشركين في المساواة بين دين الإسلام وغيره- والله أعلم - .

ولما كان الأحبار والرهبان هم القادة لشعبهم بحكم ادعائهم العلم؛ جاء بيان أن هؤلاء القادة هم المضيعون لحقوق رعاياهم المادية بأكل أموالهم، و حقوقهم الروحية بصدهم عن سبيل الله، وأعلم أن من أعمال أهل الكتاب التي استحقوا بها البراءة كنز الذهب والفضة وعدم صرفها في سبيل الله. وتوعدهم بالعذاب الأليم، والكي بما يكنزون، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ . . . ﴾ التوبة (٣٤-٣٥)، فقد حمي كنزهم إلى درجة أنه أصبح الوقود الذي يحمى عليه ما يُكتوى به.و من الذل والصغار أن آلة التعذيب في الآخرة هي نفسها آلة الاستمتاع في الدنيا ،لذلك كان أبلغ في الإيلام الجسدي والنفسي .ومن الذل لهم استيعاب مناطق جسدهم كلها بالكي([1]) ومما يمعن في إيقاع الذل التهكم بهم بقوله: ﴿ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ المفيد معنى التحسير على كنزهم الذي سيكون وبالا عليهم وليس ذخرا كما أرادوا في الدنيا.

وذكر أفعال أهل الكتاب التي استحقوا بها العذاب من تصريف القول في معنى البراءة منهم التي تقتضي وضع السيف حدا بينهم وبين المسلمين .

---

(١) اختصاص الجهات المذكورة في الآية بالكي أفاض في ذكر أسبابه و جمع آراء العلماء حولها أبو بكر الرازي (ينظر التفسير الكبير ١٦/٤٠) .

وكان هذا المعنى هو ما خُتم به هذا الجزء،و ما ختم به الكلام عن أهل الكتاب .

ومركز المعنى في هذا الجزء هو التحريض على قتال أهل الكتاب الذين يدخلون في حكمهم مع مشركي قريش؛لأن أفعالهم و أقوالهم كفر بواح ،ولذلك جاء التركيز على وسمهم بالكفرحينا ،و بالشرك حينا آخر .

وعلاقة المعنيين ببعضهما أنه لما كان مقصود السورة إعلان وضع السيف حدا فاصلا بين المؤمنين وأعداء الإسلام؛ ابتدأ المعنى الأول من السورة بالأمر بقتال مشركي العرب،العدو الأول لمحمد ﷺ ،والبراءة منهم ،و قطع الصلات بهم،وذكر أفعالهم ومآلهم ،مع إثبات وجوب التوكل الذي يقتضي التكفل .ثم أتى المعنى الثاني من هذا المعقد بالأمر بقتال أهل الكتاب،وذكر أفعالهم و مآلهم أيضا ؛ليشمل في المعنيين أعداء الإسلام الذين ثبتت معاداتهم للإسلام والمسلمين فكان من باب تتميم المعاني .

ومن علاقة المعنى الجزئي الثاني بالأول؛ أن النظم الكريم لما أمر المسلمين بقطع صلاتهم النسبية والمالية مع مشركي العرب،وكان التكفل حاصلا من الله تعالى؛أبان في المعنى الجزئي الثاني عن طريق من طرق التكفل؛وهو طريق الجزية المأخوذة من أهل الكتاب،وجعل سبب حصوله العزم و الإصرار على القتال. و هذا المعنى أشار إليه الطبري حين قال: " لما نفى الله المشركين عن المسجد الحرام شقّ ذلك على المسلمين ،و كانوا يأتون ببياعات، وينتفع بذلك المسلمون ،فأنزل الله تعالى ذكره {وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله} ،فأغناهم بهذا الخراج الجزية الجارية عليهم ."[1]

---

(١) جامع البيان ١٠/١٠٨ .

المعقد الكلي الثاني من سورة التوبة :

أمر المسلمين بالنفير بالجهاد والنصرة للرسول والبراءة من المنافقين : من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا . . . ﴾ (٣٦) إلى قوله : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ . . . ﴾ (١٢٧)

وقام بهذا المعنى ثلاثة أجزاء :

المعنى الجزئي الأول من المعنى الكلي الثاني :

وضع الأطر للتاريخ الزمني لمعرفة وقت النفير مع التحضيض عليه : من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ . . . ﴾ (٣٦)، إلى قوله : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ . . . ﴾ (٤١)

افتتح البيان القرآني هذا المعقد الكلي بتأسيس قضية مهمة و هي وقت القتال، ذلك أن المشركين كانوا يتلاعبون في عدد الأشهر القمرية، و في الأشهر الحرم ؛ لخدمة مصالحهم فيقدمونها حينا ، و يؤخرونها حينا ، فقرر الخطاب الرباني إقامة الأمة الإسلامية على تاريخ لا تلاعب فيه ؛ تاريخ يحدد فيه عدد الأشهر ، و ترتيبها ، و الحرم منها ، فقال: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ التوبة (٣٦) والمقصود من تلك الإقامة هو قوله بعدها : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ التوبة (٣٦) ؛ لأن العلم

بالأشهر وعدد الحُرُم منها ،وغير الحُرُم، وترتيبها ؛يسهم في تعظيم هذه الأشهر ،واتباع أوامر الله فيها من قتال أو إمساك .

ولما كانت إقامة الأمة على تاريخ زمني من عند بارئها لا يتغير،وفيه إبطال لكل تاريخ غيره؛قال في صراحة : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ التوبة (٣٧) ؛لأن الغرض من النسيء لا يعدو أن يكون خدمة لمصالح الكفار في اعتداءاتهم وانتهاكاتهم للحرمات؛ فلذلك كانت الزيادة في الكفر تشاكل زيادتهم في عدد الشهور .

ولما أسس النظم الكريم للمسلمين تاريخهم الزمني؛ بدأ يحرضهم على قتال الذين كفروا؛سالكا أسلوب معاتبة بعضهم على تخاذلهم و تكاسلهم عن الخروج لغزوة تبوك ضد الروم ،فقال مخاطبا المؤمنين،ومنبها إياهم إلى هذا الخطأ الجسيم عن طريق المجاز المرسل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ التوبة (٣٨) ؛وذلك لتصوير حال المتخاذلين صورة الراكنين إلى الأرض،ومنه كذلك عتاب على التقاعس عن الخروج مع النبي ﷺ،وفيه توبيخ على ترك الجهاد أو التباطؤ في الخروج إليه ،وعزز الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ﴾ الاستفهام الإنكاري التعجبي في أول الآية حين قال: ﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ ﴾ ،فوصل بالعتاب الغاية. ولما قال: ﴿ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ﴾ صرّح بمعنى الميل إلى الأرض،وإلى الحياة وملذاتها،لذلك جاء التعليم المباشر بقوله: ﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ التوبة (٣٨) .

ولما كان هذا المعنى الجزئي يحض على النفير ؛تنوعت فيه الأساليب المستخدمة،فجاء بأسلوب العتاب المعلم كما في الآية السابقة،وأتبعه بأسلوب التهديد والوعيد عن طريق الشرط بقوله: ﴿ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ . . . ﴾ التوبة (٣٩-٤٠) .

وتنوّع الأساليب في الحض على القتال من تصريف القول في معنى التحفيز والتشجيع على النفير أي سرعة الاستجابة و الامتثال ،و هو تصاعد لمعنى البراءة من الكفار وإعلان وضع السيف حدا فاصلا.

وعدم نفير المسلمين يترتب عليه العذاب الأليم،و استبدال قوم آخرين بهم،فصُرّح بعدم حاجة الله تعالى لهؤلاء المؤمنين مع القدرة على استبدالهم،و دلل على عدم الحاجة حين الحديث عن نصرة الله للرسول ﷺ مع صاحبه أبي بكر و هما اثنان . و حاصله:أن النفير والنصرة إنما هما امتثال لأمر الله و انقياد له،و ليسا لتحقيق نصرة،فلا عدد ينفع ولا عدة إلا بأمر الله . و هذا المعنى يعود بنا إلى معنى هزيمة المؤمنين في حنين حين إعجابهم بكثرتهم،ثم امتنان الله عليهم بالنصرة في المعنى الجزئي الأول من المعقد الكلي الأول، فهو من تصريف القول في معنى التوكل على الله واعتقاد النصرة منه تعالى لا غير .

وختم هذا المعنى الجزئي بما يؤسس لحال النفير بعد أن أسس زمنه فقال: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ التوبة (٤١) والمعنى:انفروا على أية حال. أي أن المقصود الامتثال لأمر النفير ،فلا أعذار مقبولة .

ومركز المعنى في هذا الجزء هو وضع الأسس و القواعد العامة لنصرة الدين والجهاد في سبيل الله من التاريخ الزمني للأشهر، و بيان الحرم منها،و من وجوب الاستجابة لأمر النفرة للجهاد على أية حال .

المعنى الجزئي الثاني من المعقد الكلي الثاني :

حال المنافقين وقت النفير والبراء منهم وسلكهم مسلك الكفار : من قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَّاتَّبَعُوكَ . . . ﴾ (٤٢) إلى قوله تعالى: ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ (٨٧)

ابتدأ البيان القرآني هذا المعنى الجزئي بالحديث عن المنافقين مع الإعراض عن ذكر اسمهم،والاكتفاء بذكر فعلهم،وهو ترك النفير إلى غزوة تبوك،و الاعتذار بالحجج الكاذبة،فقال: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَّاتَّبَعُوكَ . . . ﴾ التوبة(٤٢)فهم متخاذلون متكاسلون يريدون مغنما سهل الحصول و المنال،وكنى عن هذا المعنى بقوله: ﴿ قَرِيباً ﴾ ؛لأنه لو أراد قرب المكان لما عطف بعدها قوله : ﴿ وَسَفَراً قَاصِداً ﴾ ثم إنه قابل هذا الحال بالحال الحامل لهم على عدم الخروج فقال: ﴿ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴾ ، فجمع في هذه العبارة بين عذر بعد المكان وحصول المشقة في المغنم،ثم أكد كذبهم في اعتذارهم حين ذكر حلفهم بالله،و حين ختم بالفاصلة: ﴿ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ و لما عرّض بالمنافقين و فعلهم ؛عاتب رسوله على الإذن لهم بالتخلف عن الغزو عتابا غاية في اللطف؛لأنه قدّم له بالدعاء فقال: ﴿ عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ التوبة (٤٣) وزاده لطفا خطابه للرسول ﷺ خطاب حضور مما يوحي بمعنى القرب .

ولما عرّض البيان القرآني بوجوب عدم الاستئذان للتخلف عن الجهاد ؛جاء التعليم المباشر بنفي الإيمان بالله واليوم الآخر عمن يستأذن في التخلف عن الجهاد في سبيل الله، فقال: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ التوبة (٤٤)وأطنب حين أفاد بالحصر بقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ التوبة (٤٥) .

ولما كان المنافقون يدّعون وجود الأعذار التي أقعدتهم عن الجهاد، بسط القول في وصف حالهم ليفضح نياتهم في عدم الخروج -وإلا لاستعدوا له- فقال: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ التوبة(٤٦) و لأنه ربما يظن أن عدم خروج هؤلاء المنافقين مع الرسول ﷺ قد أثّر على المسلمين في سير المعركة، أوأن ذلك خلاف ما أراد الله قال: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ التوبة (٤٦) .فبتقدير الله كان عدم خروجهم، فثقّل عليهم الخروج وحكم عليهم بالقعود مع القاعدين عن الجهاد، تنزيلا لهم منزلة غير القادرين لعجز فيهم، فالغرض من قوله: ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ وإن كان بأسلوب الأمر؛ تبكيت المتخلفين وتعنيفهم، مع الإيماء إلى عدم الرضا بذلك القعود، وأنه مذمة؛ لأن القعود مجاز عن ترك الغزو .

و لما أجمل بذكر الحكم عليهم بعدم الخروج ؛فصّل بعدها في السبب بما لا يدع مجالا للحسرة عليهم ، فقال : ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ التوبة (٤٧)

" و حذف مفعول {زادوكم} لدلالة الخروج عليه ... ثم استثنى من المفعول المحذوف الخبال على طريقة التهكم بتأكيد الشيء بما يشبه ضده؛ فإن الخبال في الحرب بعض من

عدم الزيادة في قوة الجيش ؛بل هو أشد عدما للزيادة ."[1] ،بل هو أشد من عدم الزيادة،إنه نقصان ومذمة و سوء يعتري الجيش،لأن الخبال هو الفساد،و إذا فسد ما بين الجيش فما وراء عطائه ؟!

وتفكيك جيش المسلمين هو غاية المنافقين ؛لذلك استعار وضع البعير لإيقاع الخوف بين المسلمين ،وفيه تصوير جهد المنافق السريع الذي ينوي به الإطاحة بالمسلم ،وصرح به بعد ذلك فقال : ﴿ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ ودلّ بأن بغيتهم الفتنة هذه ليست جديدة عليهم؛لأنه قال بعد ذلك: ﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاء الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾التوبة (٤٨) .

فهذا حال من أحوال المنافقين إذا أمروا بالنفير،ومن أحوالهم كذلك:من يعتذر بخشية الافتتان،و هو كاذب، فخشيته على نفسه أعظم من خشيته الافتتان.

ومن أحوالهم غضبهم لما ينال الرسول ﷺ من حسنات، وفرحهم بما يناله من سيئات،و هم على حال من التربص بالمؤمنين أن يصيبهم مصاب. ومنها إنفاقهم أموالهم طائعين و كارهين مقابل تخلفهم عن الجهاد، فأبان الخطاب القرآني عن عدم تقبل أموالهم في كل أحوالهم،وصرّح بكفرهم، وأكده حين قال بأسلوب النفي والإثبات : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ ﴾التوبة (٥٤) .وأردف كذلك بقوله: ﴿ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾التوبة(٥٤)،وكان البيان القرآني قد ذكر قبل هذه الآية حالي الإنفاق من الطوع والكره،ثم جاء في الآية التالية وقصره على الكره،فعُرف أن ذكر الحالين السابقين لا يتردد بينهما المنافق،إنما هو"إدماج لتعميم أحوال المنافقين في عدم القبول ."[2] وهذا الكلام يشير إلى أن أسلوب الأمر خرج إلى معنى

---

(١) تفسير التحرير والتنوير .المجلد الخامس ٢١٦/١١ .

(٢) السابق ٢٢٥/١١ .

الإخبار بعدم قبول إنفاقهم أي: عدم حصول ثوابه . و لما أُبين عن عدم تقبل نفقاتهم ؛ أردف ببيان الأسباب التي استحقوا بها عدم التقبل من الكفر بالله ورسوله.

ولما كانت كثرة العدد والمال هاجسا عند المسلمين لما فيهما من الإعانة على الجهاد، ولما فيهما من إثارة العجب ؛ الخطاب القرآني عن العجب بكثرة أموال الكفار وكثرة أولادهم.

كل تلك الأحوال التي ذكرها تبين عن عدم خروج المنافقين عن دائرة من سبقوهم من الكفار في فساد معتقداتهم التي تبعها فساد عملهم، فكرر وسمهم بالكفر. وأكد عدم إيمانهم بقوله: ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ التوبة(٥٦) وفيه البراء من المنافقين، وبيان أن سبب حلفهم بالانتماء هو الخوف من المسلمين لا غير.

وإيذاء المنافقين لم يقتصر على الإساءة للإسلام والمسلمين، بل إنهم تعدوا ذلك بالإساءة إلى رسول الله ﷺ من القدح والتعييب في قسمته ﷺ للغنائم . وكان هذا الموضع حقلا جيدا للانتقال منه إلى تحديد مصارف الزكاة الثمانية .

ومن إيذائهم كذلك وصفهم للرسول ﷺ بقولهم : ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ (١) وأيمانهم الفاجرة ، وخوفهم من نزول سورة تفضحهم، و استهزاؤهم بالله وآياته وكتابه ورسوله ؛ ولذلك توعدهم البيان القرآني بالعذاب الأليم والخلود في نار جهنم المشار إليه بالخزي العظيم مع فضح نياتهم .

وتعداد أفعال المنافقين التي استحقوا بها العذاب ، و بسط الكلام فيها من تصريف القول في التحضيض على البراء منهم .

---

(١) و لما قُصد بهذا القول قبول كل ما يُسمع دون رد مذمة، جاء الخطاب الرباني بقلب المعنى والرجوع فقال : ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ ، والمقصود منه عدم مؤاخذته ﷺ للناس وعدم رده لكلامهم .

ولما كانت سورة التوبة قائمة على البراء من كل عدو للإسلام ،كان الفصل في العلاقات مع المنافقين من أهم القضايا التي يجب أن تحسم، لذلك بعد أن ذكر أفعالهم وقت النفير، وأفعالهم و أقوالهم في غير وقت النفير؛ دلّل على استحقاقهم هذا البراء بذكر ولاء بعضهم لبعض على طريق الكناية ،فقال: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ . . . ﴾ التوبة(٦٧) ،فكنى عن البراءة منهم بذكر ولاء بعضهم ،وهذا يعني أنه لا ولاء لهم لغيرهم ،فمن الأحرى البراء منهم .

ولما ذكر البيان القرآني البراءة من المنافقين ؛ذكر قرينهم وهم الكفار وسلكهم في سلك واحد فقال: ﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُواْ . . . ﴾ التوبة (٦٩) ،فأقام المعنى على التشبيه التمثيلي؛ ذما لحال التهائهم بالاستمتاع بنعيم الدنيا دون أمر الآخرة ،ورفع قيمة هذا التشبيه أنه بني على الاستعارة التصريحية؛ تصويرا لحال الاستهتار الذي كان عليها المنافقون .

ولعل الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ثم من الخطاب إلى الغيبة مرة أخرى يعزز قصد الموعظة بالفريقين ،لأنه سلكهما بعد ذلك في سلك واحد حينما قال : ﴿ أُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ التوبة (٦٩) ،و زيادة في الترهيب والتحذير ذكّرهم بأحوال السابقين من قوم نوح و عاد و ثمود و إبراهيم و أصحاب مدين والمؤتفكات بأسلوب الاستفهام التعجبي ،و عُدل عن توجيه الخطاب لهم إلى المخاطب فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ ﴾ تسجيلا عليهم وإشهادا .

ولما قرر البيان القرآني البراء من المنافقين بتقرير ولاء بعضهم بعضا؛ قرر الولاء للمؤمنين بتقرير ولاء بعضهم كذلك .وكأنه بذلك يقابل بين ولاية المنافقين بعضهم بعضا ،وماأوعدهم الله به من نار جهنم واللعن والعذاب المقيم ،وبين ولاية المؤمنين بعضهم بعضا ، وماوعدهم الله

بـه من الجنـات الـتي تجـري مـن تحتهـا الأنهـار، و المسـاكن الطيبـة في جنـات عـدن ورضـوان مـن الله أكبر .

والمقابلة بين حال المنافقين و المؤمنين بذكر ولاء كل نمو لمعنى البراءة بإثبات نقيـضها.

ولـما انقضى الكـلام على حال كل من المنافقين و المؤمنين و مآلهما، وكان المؤمنون هم آخر ما تُحدث عنه ،أعاد الكلام على أحوال المنافقيـن وسلكهم مع الكفار في سلك واحد،ونبـه إلى هذا العود بنداء النبي ﷺ وأمره بمجاهدة الكفار والمنافقين والغلظة عليهم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ التوبة(٧٣)،والخطاب للرسول ﷺ ولأمته بعده،ومعنى الآية : "قيـل: المراد جاهـد بالمؤمنين الكفار.وقال ابن عبـاس: أمر بالجهـاد مـع الكفـار بالسـيف،ومع المنـافقين باللسـان وشدة الزجر و التغليظ . وروي عن ابن مسـعود –رضـي الله عنـه–أنـه قال: جاهـد المنـافقين بيدك،فإن لم تستطع فبلسانك،فإن لم تسـتطع فـاكفهر في وجـوههم . وقـال الحسـن: جاهـد المنافقين بإقامة الحدود عليهم و باللسان."(١)

ولعل التصريح بجهاد الكفار و ضم المنافقين إليهم بعد نطق من نطق بكلمة الكفر،مـع عطـف أمر الغلظة على الفريقين،هو ذروة المعنى في السورة ؛أي قلبها الذي وصل المعنى عنده الغاية فلا ينمـو بعدها ؛إنما كل مابعده من معانٍ عائد عليه بشكل من الأشكـال . فحـظ الكافريـن في الدنيا القتـال بالسيف،وفي الآخرة إلى جهنم و بئس المصير .

وفي التصريح بالأمر للنبي ﷺ بالغلظة إشارة إلى ما فُطر عليه النبي ﷺ من الرأفة، فهو يُحمل على الشـدة حمـلا فيسـتجيب،وهذا غايـة الإقبـال عليـه ثنـاءً،وفي هـذا تعـريض بالكـافرين والمنافقين المعرضين عمن هو بهم رؤوف رحيم .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٨/٢٠٤ .

ومن أحوال المنافقين التي تولت سورة التوبة فضحها؛ أن منهم من عاهد الله على الإنفاق حال الرزق، ولما رُزقوا من فضله بخلوا ولم ينفقوا، ولما كان الكذب وإخلاف الوعود ديدنهم؛ عاقبهم الله بجعل النفاق في قلوبهم إلى يوم لقائه .ومن أحوالهم كذلك إيذاؤهم للمسلمين بالطعن في نياتهم ،وبالسخرية من الذين لا يجدون مايتصدقون به إلا جهدهم، لذلك توعدهم الله بالعذاب الأليم حال توليهم عن التوبة، ونفى عنهم المغفرة نفيا وصل إلى العدم باستخدام فعل الأمر، ونهي الرسول ﷺ عن الاستغفار لهم، فقال: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ التوبة (٨٠)، فأفاد معنى الإخبار بانتفاء قبول الاستغفار على أي حال .

وهذا يمد يدا إلى أمر الرسول ﷺ بالغلظة على الكفار ؛فكان فيه إشارة إلى عظيم رأفته ﷺ وفيه تعريض بمعانديه الكثير .

ولما خاطب البيان القرآني المنافقين ،وبين التولي فالعذاب الأليم ؛أعاد الذاكرة إلى نفس المعنى في مطلع السورة حين خُيِّر الكفار بين التوبة التي هي خير لهم ،و بين التولي فالعذاب الأليم كذلك، فكان من رد الأعجاز على صدورها .ومثل هذا يسميه الزمخشري (تلاحظ المعاني) وهو باب جليل .

وأعاد البيان القرآني الحديث عن أفعال المنافقين ،فذكر أن منهم من أمره الرسول ﷺ بالنفير، فتخلف عن الخروج كراهة للحر، و سمّاهم المخلّفين ،و توعدهم بما يجانس قولهم من حرّ جهنم التي سيصلونها في الآخرة ،و بالحرمان من الخروج للغزو على الدوام في الدنيا مع عدم الصلاة عليهم، وعدم الوقوف على قبورهم . و قرر مع كل ذلك كفرهم بالله ورسوله ﷺ، وموتهم على الفسق و الكفر معا حين قال: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ التوبة (٨٥) وهذا

المتشابه[١] يؤكد المعنى ويقوي لحمته ؛خاصة أنه ورد في جزء واحد والمقصود به فئة واحدة .

و لما كان أمر التخلف عن الجهاد في سبيل الله يعد معصية كبيرة؛جاء تكرار استهجان فعل التخلف،مع التنبيه إلى عدم قبول الأعذار،ومع ذلك فهم على رضا تام بأن يكونوا في

---

(١) جاء في المعنى الجزئي الأول قوله : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾التوبة (٥٥) و حاصل كلام البيضاوي في متشابه هذه الآية ؛أن(الفاء) في الآية الأولى في ترتيب آيات السورة تتضمن معنى الجزاء،و الأفعال قبله مستقبلة تتضمن معنى الشرط مثل:(لا يأتون–لا ينفقون). و (الواو) في الثانية سُبقت بأفعال ماضية لا تتضمن معنى الشرط حين قال :(كفروا– ماتوا) لذلك لم يحتج إلى (الفاء) و كان (الواو)أحسن .ثم إنه في الآية الأولى كرر (لا) فقال: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴾ ،للتوكيد لأنه لما أكد الكلام بالإيجاب بعد النفي،و علّق الثاني بالأول تعليق الجزاء بالشرط ؛اقتضى الكلام الثاني من التأكيد مااقتضاه الأول.أما الآية الثانية فخلت من دواعي التوكيد التي في الأولى فلم يكرر .

وقال في الأولى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا ﴾و في الثانية: ﴿ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا ﴾لأن المعنى في الأولى :أن يزيدهم في الأولاد و الأموال ليعذبهم بها في الدنيا ، أما الأخرى فهي إخبار عن أناس ماتوا و انقرضوا على النفاق .

و قال أيضا في الأولى : ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾و قال في الثانية : ﴿ فِي الدُّنْيَا ﴾ فذكر في الأولى الصفة والموصوف،واكتفى في الثانية بذكر الصفة اكتفاء بذكر الموصوف في الأولى .(ينظر درة التنزيل وغرة التأويل ٢/٧١٢–٧١٨).

وأقول:زاد (لا) في الآية الأولى للتأكيد ؛لأنه لما تقدّم نهي المؤمنين عن اتخاذ الأهل و العشيرة والأولاد الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وتقدّم عُجْب المؤمنين بكثرتهم في حنين و عدم استفادتهم من هذه الكثرة ؛وقع التأكيد بدخول النفي مرتين موقعه في بيان عدم فائدة الأموال و الأولاد ؛لأن القوة تستمد من الإيمان لا غير ،ولما كان دخول (لا) مرة واحدة قد يظن به نهي عن العجب بهما مجتمعين ؛أبان بدخولها مرتين أن النهي عن العجب بهما منفردين. ولما تقدّم في الآية الثانية الحديث عن بخل المنافقين،و عدم وفائهم بعهدهم الذي اشترطوا فيه رزق الله لهم حتى يتمكنوا من الإنفاق، وتقدّم لمز المطوعين من المؤمنين في الصدقات ،لما تقدّم كل ذلك ؛اقتضى المقام الاكتفاء بدخول (لا) على الأموال. و لما كانت كثرة الأموال و الأولاد من الافتتان الذي يفتتن الله به عباده؛كانت هذه الكثرة فتنة للمنافقين،فهي نقمة عليهم وليست نعمة .لذلك جُعلت غاية في حد ذاتها وسببا مباشرا لعذاب المنافقين في الآية الأولى فقال: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا ﴾و يزيد هذا المعنى ظهورا قوله بعد ذلك: ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾؛لأنها توحي بتعجيل العذاب،فيكون المعنى أن ليس كل زيادة بفائدة .

زمرة القاعدين وزمرة الخوالف،ولما رضوا بذلك عاقبهم الله بالطبع على قلوبهم،حتى تكون سجية وطبيعة فيهم أبد الدهر . وبهذا المعنى ختم هذا الجزء .

ومركز المعنى هو بيان أعمال المنافقين التي استحقوا بها البراءة المقتضية للعذاب،ووجوب عدم موالاتهم ،و هذا كله يقتضي سلكهم مع الكفار في سلك واحد من البراءة والعذاب .

المعنى الجزئي الثالث من المعنى الكلي الثاني :

حال المسلمين وقت النفير و الرخص التي يعذرون فيها و رفعة شأنهم عن الكفار :وذلك من قوله تعالى: ﴿ لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ . . . ﴾ (٨٨) إلى قوله : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ . . . ﴾ (١٢٧) .

لما ذكر البيان القرآني أحوال المنافقين مع رسول الله ﷺ ؛قابلهم بأحوال المؤمنين وقت النفير،متخذا سبيل الإضراب عن ذلك الفريق إلى فريق آخر بقوله : ﴿ لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ . . . ﴾ التوبة(٨٨)، فأثنى عليهم وعلى جهادهم بالمال والنفس ،ووصفهم بالفلاح ،ثم ذكر ما أُعدّ لهم من الجنان التي تجري من تحتها الأنهار مع الخلود فيها،ثم بدأ يذكر الحالات التي يُعذر تخلف المؤمنين عن الجهاد فيها، فكان ماتقدّم بمثابة التمهيد لذكرهم .

وأول تلك الأعذار أُناس سماهم (المعذِّرين) ثم ذكر مقابلهم حال المنافقين مع أنه سبق الحديث عنهم؛استحضارا للفرق بين حال الفريقين، فقال: ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(٩٠)، ولما كان قوله: ﴿ الْمُعَذِّرُونَ ﴾ مجملا؛ فصّل في أحوال أصحاب الأعذار المذكورة سابقا، ثم أعاد الكلام على المنافقين بأسلوب القصر، فقصر الحرج على الأغنياء الراضين بالتخلف بعد أن نفاه عن المعذِّرين، فقال: ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ التوبة(٩٣)، وهذه الآية من المتشابه(١)الذي يقوي اللحمة بين المعاني الجزئية وهو يفيد بيان تمام جهل هؤلاء المنافقين لانتفاء الفقه عنهم وانتفاء ماهو أعم منه و هو العلم ،فكان بينهما تتميم للمعنى .

وحاصله بيان سماحة الدين في إعذار أصحاب الأعذار الحقيقية عن الخروج للجهاد .

ولما كان هذا حال المنافقين؛ قرر الخطاب القرآني ضرورة الإعراض عنهم لأنهم رجس. و وسم المنافقين بأنهم رجس يذكرنا بما تقرر في السابق على الكفار من ضرورة عدم اقترابهم من المسجد الحرام لأنهم نجس، و إنما ناسب وصف الكفار بالنجس الذي هو ضد الطهارة لظهور حال كفرهم، ووصف المنافقين بالرجس الذي يدل على الاختلاط (٢)؛ لتظاهرهم بالإيمان و هم على الكفر. ولما كان الكفر والنفاق وجهين لعملة واحدة؛ سلك المنافقين مع الكفار في سلك واحد .

---

(١) قال تعالى في المعنى الجزئي الثاني: ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ التوبة (٨٧) وذكر الخطيب الإسكافي ما حاصله أن الآية الأولى في ترتيب السورة أُسند فعل الطبع فيها إلى ما لم يسم فاعله تناسبا مع فعل الإنزال في الآية السابقة . و كما عُلم أن الله ينزّل عُلم أن الله يطبع ،فهي توفقة بين آخر الآية و أول الثانية ،و إنما سمى الفاعل في الآية الثانية لأنه في موضع التنبيه و التأكيد و التخويف و التحذير . ثم ختم الآية الأولى بقوله: ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ و الثانية : ﴿ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ لأن الأولى نزلت في الذين ذُكروا بالطَول ،وقد مالوا إلى الدعة و لم يفطنوا أن الراحة في تحمّل التعب مع رسول الله ، فطلبوا ما كان مطلوبهم ضده لو فقهوا .وأما الثانية فإن المعنى أن العقاب يتوجه إلى هؤلاء الذين لا يعلمون ما أعدّ الله لكل ذي عمل ما يعمله المؤمنون الذين استجابوا للخروج ،فلما أثبت العلم للمؤمنين بطريق الإيماء لتحقق الاستجابة ؛نفى عن المنافقين العلم لرضاهم بالتخلف .(ينظر درة التنزيل و غرة التأويل ٢/ ٧١٩ إلى ٧٢٣). و كلا الفعلين في الآيتين يتناسب مع الفاصلة المذكورة له " لأن العلم فوق الفقه ،و الفعل المسند إلى الله فوق المسند إلى المجهول "(البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ ١٣٧) .

(٢) ينظر مقاييس اللغة . مادة (رجس) .

ولما كان الأعراب أشد الناس كفرا و جحودا ونفاقا ؛أنصفهم البيان القرآني بتقرير أن منهم الطالح الذي يعد نفقته التي ينفقها غرما يلزمه،لا يرجو له ثوابا ولا يدفع به عقابا،وهو على ذلك يتربص بالمؤمنين الدوائر. ومنهم الصالح المؤمن بالله واليوم الآخر المتقرّب إلى رضاه بالإنفاق،ولن يعدم نفع ذلك؛لأن الله وعده بالدخول في رحمته .

ثم ذكر القدوة الحسنة والأنموذج ؛وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان .

والملحوظ أنه حين ذكر المنافقين وذكر كونهم رجسا أتبعه بذكر حلفهم للمؤمنين وهم كاذبون بغية إرضائهم،وقرر الخطاب الرباني عدم الرضا عنهم،فقال: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾التوبة (٩٦)،وحين ذكر بعدها الأنموذج من المهاجرين والأنصار قرر الرضا المتبادل بين الرب وعباده فقال: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾التوبة (١٠٠)،فكان تقابلا بين المعنيين .

ولما كان التناظر بين أحوال المنافقين والمؤمنين قائما على طريق إيراد أحوال كل فريق؛جمع بينهما بتمثيل،فقارن بين غرض كل من الفريقين وعملهما ومآلهما من خلال استعارة تمثيلية عميقة الفحوى كما بنى على الاستعارة معنى،فقال: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾التوبة (١١٠)،ففضح الله أولئك المنافقين وأبان عن خبايا صدورهم حين بناء مسجدهم فذكر أهدافهم : (ضرارا — كفرا — تفريقا بين المؤمنين — إرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل)،فلا تزال هذه الأغراض

في قلوبهم إلا أن تقطعها حقيقة فيموتوا ،أو مجازا فيندموا ندما عظيما لا يريحهم إلى أن يموتوا .

ولما ذكر المنافقين وعقابهم ذكر المؤمنين وثوابهم ،وأن ذلك حق عليه تعالى في كل الديانات ،فبشرهم بربح عظيم . ولما كان هذا المعنى الجزئي معنيّا بذكر حال المؤمنين وقت النفير؛أثنى تعالى على المؤمنين بالتأكيد على ابتياع الله أموال المؤمنين و أنفسهم مقابل دخول الجنة ،فبشرهم ببيعهم ،وذكر صفاتهم ،وابتدأ بصفة التوبة ،فقال: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ التوبة(١١٢) ،وهذا يتناسب مع ما امتدح به تعالى المؤمنين ومع ماجعله ميزة تميزهم من وجه ،ويتناسب كذلك مع اسم السورة من وجه آخر .

ولما كانت المفارقة بين كل من المؤمن والمنافق شديدة في الحال و المآل؛ بيّن تعالى عدم جواز استغفار المؤمنين للمشركين ولو كانوا ذويهم .

ولما كان إبراهيم –أبو الأنبياء – هو القدوة أبان الخطاب القرآني أن ما فعله من استغفاره لأبيه كان لموعدة وعدها إياه ،فلما تبيّن له أنه عدو الله تبرأ إبراهيم منه ،وهذا يعني تأكيد البراء من المشركين إلى حد البراء من الاستغفار لهم ،وفيه تأكيد لمعنى البراءة من الكفار ،وهو يمد يدا إلى البراء من الآباء والأبناء والإخوان والعشيرة المذكور في المعقد الكلي الأول من السورة .

ولما كانت هذه السورة هي سورة التوبة ،و كانت تدعو إلى التوبة في كل وقت ،و تذكر شيئا منها على الدوام؛قرّر تعالى توبته على رسوله و المهاجرين والأنصار وتوبته على الثلاثة الذين تخلفوا إيذانا بانتهاء السورة .

ولما بين تعالى في أول المعقد الأحوال التي يجوز فيها للمؤمنين التخلف عن الجهاد؛ختم المعقد بما لا ينبغي أن لا يكون من المؤمنين ؛فلا ينبغي أن تكون منهم الرغبة بأنفسهم عن نفس رسول الله ﷺوقت النفير،ولا أن يكون من أعذارهم حصول العطش أو التعب أوالمجاعة،وذلك بأنهم يحصلون على أجر كل مايلاقونه .

ولما افتتح هذا المعقد بتأسيس زمن النفير والتحضيض عليه؛ختمه ببيان الأجر وتأسيس كيفية النفير،فقال: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ التوبة(١٢٢-١٢٣)،فجاء الأمر هنا بعدم النفير كافة،وذكر أسباب ذلك من المقاصد ذات المغزى السامي التي ترفع قدر المجاهد و تهيئه ليقوى عزمه،وتثبت قدمه من التفقّه في الدين وإنذار القوم .ويسهم نفي الشأن في بيان السمو بالمؤمن؛لأن المعنى يصبح :لا ينبغي أن يكون من مؤمن وليس من شأنه أن يكون منه.

وهذا كله داخل تحت الأمر بجهاد الكفار والغلظة عليهم ،وفيه تعليم إتقان النفير،وأن النفير نوعان:نفير للجهاد ونفير لطلب العلم .و وصله بما يكشف عن خطط الحذاق من كيفية السير قدما في قتال الكفار،إذ المعنى:" ابدؤوا بقتال الأقرب فالأقرب إليكم دارا دون الأبعد فالأبعد."(١)

ولما كان المؤمنون ذوي قيمة عالية لا يصل إليها غيرهم و كان قد قرر البيان القرآني افتراق المنافقين عنهم في الحال و المآل ؛وصل إلى ختام السورة بالمفارقات بين المؤمنين والمنافقين في التأثر بالقرآن،فقال: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا

(١) جامع البيان ١١/٧١ .

الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ*وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ التوبة(١٢٤-١٢٥)،و لما كان من حال المنافقين الانصراف عن القرآن الكريم ؛ناسب النظم الكريم انصرافهم هذا بصرف قلوبهم عن الخير والتوفيق والإيمان . وبهذا ختم هذا الجزء من المعنى .

و مركز المعنى في هذا الجزء الوقوف على حال المؤمنين وقت النفير،وبيان الفارق الشاسع بينهم وبين المنافقين من حيث الحال والمآل،والولاء والبراء،وقبول التوبة وعدمها .

وعلاقة المعاني الجزئية ببعضها أنه لما ذكر في المعنى الجزئي الأول من المعقد الكلي الثاني الإطار الزمني للنفير والتحريض عليه ؛كان ذلك تمهيدا للخوض في قضية النفير و ما يجب فيها وما لا يجب،وما يجوز للمؤمن وما لا ينبغي له،من خلال معرفة أحوال المنافقين والمؤمنين وقت النفير،و من خلال معرفة الحكم على كل من حيث المعتقد والمنزلة والثواب أو العقاب ،ومن خلال عتاب الرسول ﷺ على بعض أفعاله مع المنافقين .

ولما جاء في المعنى الجزئي الثاني من المعقد الكلي الثاني ذكر أحوال المنافقين وقت النفير،فصل في أحوالهم بما لا يدع شكا في تشابه أفعالهم مع الكفار .ثم جاء المعنى الجزئي الثالث حتى يبين عن أحوال المؤمنين وقت النفير ،فذكر الأعذار وأصحابها،وأبان عن موقف الإسلام منها؛ليكون ذلك من باب تناظر المعاني وتقابلها في المعذّرين وغير المعذّرين،وحتى يبين أن الإسلام يعذر عن النفير حال كون الأعذار حقيقية ،فهو دين سماحة وليس دين عنت أو مشقة .

ولما ذكر في المعنى الجزئي الثاني قصة المتخلفين عن الجهاد بسبب نفاقهم ،وذكر عدم توبة الله عليهم ونهيه رسوله عن الصلاة على أحد منهم أو القيام على قبره ،لما ذكر قصتهم

قابلها في المعنى الجزئي الثالث بقصة المتخلفين عن الجهاد الذين أخطؤوا وندموا على خطئهم، فتاب الله عليهم ،وأمر نبيه ﷺ بالصلاة عليهم فكان تقابلا من وجه، وتماثلا من وجه آخر .

والتقابل بين المعنى الثاني والثالث حاصل حتى في أحوال كل من المنافقين والمؤمنين وقت النفير، فحينما ذكر في المعنى الثاني المتخلفين المتكاسلين؛ ذكر في المعنى الثالث المتخلفين أصحاب الأعذار الحقيقية (الضعيف — المريض — عدم وجود ركوبة) .ولما ذكر في المعنى الثاني اللمز في الصدقات؛ ذكر في الثالث أصحاب القربات بالصدقات .ولما ذكر المؤذين رسول الله ؛ذكر في المعنى الثالث المهاجرين والأنصار، وفيه إيماء إلى نصرتهم رسول الله ومحبتهم له. ولما ذكر الاعتذار بالكذب عند المنافقين؛ ذكر الاعتراف بالذنب ودفع الصدقات وتزكية الأعمال عند المؤمنين . ومن التقابل كذلك أن المخلفين من المنافقين يفرحون بمقعدهم وعدم جهادهم أي رضاهم بالقعود، في حين أن المؤمنين تفيض أعينهم من الدمع لو لم يجدوا ركوبة تحملهم، وهذا يعني عدم رضاهم بالقعود.

ولما كان هذا المعقد الكلي يحض على النفير في سبيل الله؛ تردد ما يدل على النفير باسمه حينا، وباسم الجهاد حينا آخر، وبتعبيرات ترجع إليهما ،فقال: (انفروا(مرتين) — تنفروا(مرتين)—لينفروا—نفر—جاهَدوا(ثلاث مرات) —جاهِدوا—يجاهدوا(مرتين)— الخروج(مرتين)— خرجوا—تخرجوا— انبعاثهم—تقاتلوا —يقاتلون—فيَقتلون — يُقتلون—قاتلوا) . وتردد ما ينفّر من نقيضه من القعود والتخلف ،فقال: (اثاقلتم — فثبطهم — اقعدوا — القاعدين —مقعدهم — القعود — فاقعدوا — قعد – المخلفون – خلاف — الخوالف(مرتين) – يتخلفوا) .

العلاقة بين المعقدين الكليين في سورة التوبة ([1]):

لما كان المعقد الكلي الأول يتحدث عن أعداء الإسلام (مشركي العرب – أهل الكتاب) وقد وسمهم بالكفر، افتتح المعقد الكلي الثاني بما يقوي الصلة بين المعقدين من الأمر بقتال المشركين كافة، و من كون النسيء زيادة في الكفر .

ولما ذكر في المعقد الكلي الأول حدود علاقة المؤمنين مع أعدائهم المصرِّحين بالعداوة (وهم مشركو العرب وأهل الكتاب)، وأعلم عن كيفية التعامل معهم ، جاء في المعقد الكلي الثاني ليعلم عن حدود علاقة المؤمنين مع أعدائهم المندسّين بينهم غير المصرِّحين بالعداوة (وهم المنافقون)، وذلك حتى يشمل بذكر الفريقين طريقة تعامل المسلمين مع أعداء الإسلام ، و لذلك

---

(١) المعقد الكلي الأول : الأمر بقتال المشركين بالله كافة (مشركي العرب — أهل الكتاب)

من قوله تعالى : ﴿ فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ . . . ﴾ التوبة (٢) إلى قوله: ﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ . . . ﴾ التوبة (٣٥)

و قام به جزءان:

الأول : الأمر بقتال مشركي العرب وبيان الأسباب التي استحقوا بها القتال، و بيان مآلهم.

الثاني: الأمر بقتال أهل الكتاب وبيان الأسباب التي استحقوا بها القتال ،وبيان مآلهم .

المعقد الكلي الثاني : أمر المسلمين بالنفير بالجهاد والنصرة للرسول والبراءة من المنافقين .

من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللّهِ . . . ﴾ التوبة (٣٦) إلى قوله : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ . . . ﴾ التوبة (١٢٧)

وقام بهذا المعنى ثلاثة أجزاء :

الأول : وضع الأطر للتاريخ لوقت النفير مع التحضيض عليه

الثاني : حال المنافقين وقت النفير والبراء منهم وسلكهم مسلك الكفار .

الثالث : حال المسلمين وقت النفير و الرخص التي يعذرون فيها و رفعة شأنهم عن الكفار .

كان بين الفينة والأخرى يصدر أحكاما يبين فيها سلك المنافقين مع الكفار في سلك واحد. فكان ذكر أعداء الإسلام المصرّحين بالعداوة وغير المصرّحين من باب التكميل للمعنى.

ولما كان المعقد الثاني يطنب القول في أحوال المنافقين الدالة على عدم إيمانهم، وبالتالي عدم ولائهم للمؤمنين؛ جاء المعقد الثالث يصرّح بعدائهم للإسلام و المسلمين ويبين عن ضرورة الفصل بينهم وبين المؤمنين، ويبسط القول في الفارق بين الفريقين حال الأمر بالنفرة والتخلف والاستئذان، وحال الولاء والنصرة، والمآل والتوبة والاستغفار لهم .وعلى الجملة فعقيدة المنافقين ضعيفة؛ لارتيابهم في الإسلام، ولا تقارن بالعقيدة الصحيحة القائمة على التقوى عند المؤمنين .

ولما وضح المقال الحاصل من المعاقد الثلاثة في استواء المشركين وأهل الكتاب والمنافقين في عداوتهم للإسلام والمسلمين؛ جاء الأمر الكريم بقتالهم كافة، والغلظة عليهم، وأن يبدأ في قتالهم بالأقرب فالأقرب. وعاد بمعنى الأمر بقتالهم إلى ماذكره من أمر الرسول بمجاهدة الكفار في المعقد الثاني، وإلى الأمر بقتال الكفار في المعقد الكلي الأول، فكان من باب رد الأعجاز على صدورها، وبدت المعاني في السورة كالحلقة المفرغة لا يدرى طرفاها .

وسعت المعاقد الثلاثة في معانيها إلى المقصود الأعظم من السورة التي تجري إليه كل معاقدها من الأمر بوضع السيف حدا فاصلا بين المؤمنين والكافرين، مع البراء منهم .

* * *

الفصل الثاني /

دلالة اسم السورة على مقصودها الأعظم
ووجه ارتباط خاتمتها بمقصودها

لما كانت الأسماء دالة على معانيها ؛كان الرباط بين الاسم والمسمى قويّا،و هذا المعنى يحتم أن يكون الاسم جزءً نفيسا فيها لا يجوز -بحال من الأحوال- أن يكون دخيلا عليها،"و لما كان بين الأسماء والمسميات من الارتباط و التناسب و القرابة،ما بين قوالب الأشياء وحقائقها،وما بين الأرواح و الأجسام،عَبَرَ العقل من كل منهما إلى الآخر"([1])،وهذا معناه أن العقل يكون صورة ذهنية ليدل بها من الاسم على المسمى،و الاسم كما يُعمل العقل فإن له أثرا نفسيا كذلك على المتلقي ؛إذ يقوم ببث إيحاءات أو رموز تولعه بما هو كامن تحت الاسم،أو تصده عنه .([2])وعلى ذلك فالتسمية فن لا يتقنه كل أحد،وليس صالحا للتجريب؛لأن له أثرا في بناء المعنى الذي تحته أو هدمه ،كما أن له أثرا في الإقدام أوالإحجام عن الموضوع ذاته .([3])

وأسماء سور القرآن من أهم الكواشف عن المقاصد والمغازي المضمّنة في الآيات،فهي جزء من السور ودالة عليها،فالنظر في اسم السورة نظر في مقصودها؛فالعلاقة بين اسم السورة والسورة نفسها وطيدة جدا فاسم" كل سورة مترجم عن مقصودها؛لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسمّاه عنوانه الدال إجمالا على تفصيل ما فيه."([4]) وعلى هذا فاسم

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد .ابن قيم الجوزية .حقق نصوصه و خرج أحاديثه وعلّق عليه :شعيب الأرنؤوط – عبد القادر الأرنؤوط ٢/٣٣٧–٣٣٨ .ط ١٥. ١٤٠٧هـ–١٩٨٧م .مؤسسة الرسالة /بيروت–لبنان .مكتبة المنار الإسلامية – الكويت .

(٢) ومما يدل على الأثر النفسي الذي يطبعه الاسم على المتلقي أنه"لما بلغ ابن المعتز قراءة سورة {النازعات}قال مؤدبه :إن سألك أمير المؤمنين في أي شيء أنت ؟ قل:أنا في السورة التي تلي{عم} فقال :من علمك؟قال:مؤدبي،فأمر له بجائزة "(كتاب التبيان في علم المعاني و البديع و البيان .شرف الدين حسين بن محمد الطيبي .تحقيق وتقديم:هادي عطية مطر الهلالي صـ٤٦٠ .ط١ .١٤٠٧–١٩٨٧ م .عالم الكتب –بيروت)

(٣) "فالعنوان ذو تأثير عظيم على المتلقي" كل نص له مفتتحه الذي يتسلط على المتلقي تسلطاً لا يستطيع منه فكاكاً.... فالعنوان يتحول إلى أداة مصاحبة تأخذ بيد القارئ ؛حتى لا يضل في متاهات النص فتنقطع صلته به برغم أنه داخله" (بلاغة السرد. محمد عبدالمطلب صـ١٧–١٨ بدون ط. بدون ت.الهيئة العامة للثقافة .)

(٤) نظم الدرر ١/١٢ .

السورة لا يقل أهمية عن مكونات السورة الأخرى من المطلع والوسط والختام، بل هو ذو علائق مع كل منها، تجتمع تلك العلائق لتكون صورة واضحة عن مقصود السورة .(1)

ومما يبين عن أهمية الأسماء قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ الأعلى (١)، فلو لم يكن في الأسماء مندوحة لما أمر الله عباده أن يختص باسم الرب الأعلى عندهم ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ الأعراف(١٨٠)، ولو لم يكن كذلك لما ألح الرسول ﷺ إلى التماس اسم الله الأعظم الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب .

والاسم من السمو بمعنى الارتفاع والعلو أو من الوسم بمعنى السمة(2)، فهما يلتقيان في كون المسمى أصبح فيه من البروز والظهور ما يكفي لجعله مختلفا عن غيره . والجمع بين الاشتقاقين للظفر بمعنى واحد هو ما اختاره البقاعي نقلا عن الحرالي .(3)

ومما يطمئن له القلب أن هناك روايات واردة عن المصطفى ﷺ في تسميته لكثير من السور.(4) بل إن تعددالأسماء للسورة الواحدة فيه دلالة على شرف المسمى(5) ؛لأن فيه دلالة على كثرة مقاصدها، وتغازر معانيها ، وهذه سورة الفاتحة أعظم دليل على ذلك ؛فهي أم القرآن وفاتحة الكتاب، والسبع المثاني .

---

(١) توصل النقد الحديث إلى أن العنوان من أهم العناصر الفنية المفتاحية، ووصفوه بأنه الموزع و المستقطب في آن معا لبنية القصيدة ولدلالتها الفنية (ينظر المجلة العربية للعلوم الإنسانية . وظيفة العنوان في الشعر العربي الحديث.قراءة تأويلية في نماذج منتخبة.عثمان بدري صـ١١.العدد الواحد والثمانون .شتاء ٢٠٠٣ . السنة الحادية والعشرون .مجلس النشر العلمي .جامعة الكويت) .

(٢)مقاييس اللغة.مادة (سمو/وسم) .

(٣) نظم الدرر ٨٩/١ .

(٤) ينظر صحيح مسلم. كتاب صلاة المسافرين. رقم الحديث (٨٠٤).باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة ٥٥٣/١ . وينظر صحيح ابن حبان . ٦٦/٣ ذكر البيان بأن الآي التي تعصم بقراءتها من الدجال هي آخر سورة الكهف رقم الحديث (٧٨٦). و ينظر المستدرك على الصحيحين. كتاب فضائل القرآن رقم الحديث (٢٠٢٠) ١/ ٥٥٣).

(٥) ينظر بصائر ذوي التمييز . الفيروز أبادي ١٥٠/١ . ومثله في الإتقان في علوم القرآن السيوطي ٨٨/١ .

وعن تخصيص تلك المسميات بأسمائها يقول السيوطي: "و لا شك أن العرب كانت تراعي في كثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب ."(١) وكلامه هذا يعني أن هناك إدراكا للصلة بين الاسم والمسمى مع معرفة بالأثر العقلي والنفسي للاسم من قديم الأزل، إلا أن تلك الصلة القوية بين الاسم والمسمى لم يعبر عنها غير البقاعي حين ربط أسماء سور القرآن بمقاصدها ،وحين أبان أنه ركن رئيس في الكشف عن عمود السورة ومحورها .

وتكلم ابن عاشور عن صلة أسماء سور القرآن بسورها وجعلها في أربع صلات، فهي" إما أن تكون بأوصافها، مثل: الفاتحة والحمد ،وإما أن تكون بالإضافة لشيء اختصت بذكره نحو: سورة لقمان وسورة يوسف وسورة البقرة، وإما بالإضافة لما كان ذكره فيها أوفى نحو: سورة هود(٢) وسورة إبراهيم، وإما بالإضافة لكلمات تقع في السورة نحو: سورة براءة وسورة حم عسق، وسورة حم السجدة ."(٣) ولعل نظر الطاهر ابن عاشور لا يرقى إلى مابين اسم السورة والسورة نفسها من صلات تتصل بمقصودها فتكشف عنه وتعود عليه في آن معا، ومقالته تقصر عن الأثر الحقيقي للاسم، فهذه سورة (يونس) لم يأت فيها ذكر ليونس إلا في آية واحدة ،ولعل ظاهرها يجيز تسميتها سورة (موسى) ،وتلك سورة(القصص) لم تسمَ بسورة (موسى)أو (قارون) مثلا.(٤)

فصلة الاسم بمسماه صلة تكشف عن المرامي والمعاني والأغراض ؛لأن الاسم يلقي إضاءات على ماتحته من معانٍ، فهو وطيد النسب بمسماه ،وهذه المناسبة بين اسم السورة والسورة نفسها هي ما أدركه البقاعي حين نظر في مناسبات السور ومقاصدها .

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ١/١٥٨.

(٢) تفسير التحرير والتنوير ١/ ٩١ .

(٣) ولعل الصواب أن ذكر قصة نوح –عليه السلام- هو الأوفى في سورة هود –عليه السلام- .

(٤)والأجود من قصر الصلات بين أسماء السور وسورها في علاقات بعينها ؛استبصار سبب قيام أسماء سور القرآن على كلمة واحدة ،وهو ما يستوحى من دراسة الأستاذ طارق شلبي التطبيقية على عناوين كتاب فيض الخاطرمن النوع الثالث القائم على الحذف جدل الحضور والغياب (ينظر عنوان المقال بين التحليل البلاغي وجماليات النص.طارق سعد شلبي صـ ٥٤٥–٥٥٢ .ندوة الدراسات البلاغية .الواقع والمأمول .١٤٣٢ هـ) .

وعليه فإن اسم السورة قد يكون مفسِّرا للسورة أي أنه يكون منطلقا لوصف السورة ،أو مفسَّرا بها أي أن يكون هو بذاته محل وصف و تفسير ،و كلاهما لا يتناقضان ؛بل يتكاملان للخروج بدلالة النص وإيحاءاته .([1])

ولما كانت الخواتيم مقعدة ومكرِّسة لمعاني الكلام ؛كانت حاوية للمقاصد الكلية المرادة من الكلام على طوله وتفرق شعبه ،فتبنى على وجه من التصريف والتكميل مع التركيز .و لابد لمستنبط علاقة خواتيم السورة بمقاصدها من استبصار معاني السورة كلها ومقاصدها الكلية ،ويساعد اسمها على الكشف عن مغازيها و مراميها ،ثم لابد له من نظر في موقع الابتداءات و الخواتيم من السورة الكريمة ؛حتى يستطيع تلمس علاقة الخواتيم بمقاصدها .

---

(١) ويرى محمد فكري أن النظر إلى العنوان يكون على مستويين؛" الأول: مستوى ينظر فيه إلى العنوان باعتباره بنية مستقلة لها اشتغالها الدلالي الخاص. والثاني: مستوى تتخطى فيه الإنتاجية الدلالية لهذه البنية حدودها متجهة إلى العمل ،ومشتبكة مع دلائلية دافعة ومحفزة إنتاجيتها الخاصة بها" (العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي .محمد فكري الجزار صـ ٨ .الهيئة العامة للكتاب) .

أولا :

دلالة اسم سورة البقرة على مقصودها الأعظم
ووجه ارتباط خاتمتها بمقصودها

سورة البقرة أطول سور القرآن،لا تعدلها سورة في الطول ،وجدت عناية كبيرة من الصحابة،فأكبوا على حفظها ودرسها سنوات عدة؛وذلك لعظم شأنها وكثرة أخبارها ووفرة وعظها خاصة ما يتعلق بشأن بني إسرائيل ومواقفهم مع أنبيائهم، مع احتوائها دلائل وحدانية الله عناية و إيجادا.كما اشتملت السورة على العديد من التشريعات على صعيد العبادات والمعاملات مما يضمن صلاح المجتمع المسلم،ولكل ذلك سماها المبلّغ الأمين (سنام القرآن) ([1])،وسنام الشيء: أعلاه و أرفعه. ([2]) والعلو والرفعة إنما يدلان على عظم الشأن مع التميّز،و يكفي أن فيها " آية الكرسي سيدة آي القرآن."([3]) وسورة البقرة عظيمة معانيها حتى إن هناك من يعيد معاني سور القرآن كله إليها،ويجعلها تتناسل منها .

دلالة اسم سورة البقرة على مقصودها الأعظم:

تكلّم العلماء عن مقصود سورة البقرة([4]) ،غير أن أدقّها بيانا -والله أعلم- قول البقاعي:"مقصودها إقامة الدليل على أن الكتاب هدى ليُتّبع في كل ما قال،وأعظم ما يهدي إليه الإيمان بالغيب، و مجمعه الإيمان بالآخرة،فمداره الإيمان بالبعث الذي أعربت عنه قصة البقرة التي مدارها الإيمان بالغيب؛فلذلك سميت بها السورة ."([5])

ومن يردد النظر في أرجاء سورة البقرة بتفحص وتأمل؛يستبصر وجه تسمية السورة ودلالة التسمية على المقصود المذكور ؛فقد احتل الحديث عن بني إسرائيل حيزا كبيرا في السورة

(١) عن أبي هريرة -رضي الله عنه -أن رسول الله ﷺ قال:" إن لكل شيء سناما ، وإن سنام القرآن سورة البقرة " (المستدرك على الصحيحين. رقم الحديث (٣٠٢٧) كتاب التفسير ٢٨٥/٢ .)

(٢) ينظر لسان العرب مادة (سنم) .

(٣) المستدرك على الصحيحين .كتاب التفسير .رقم الحديث (٣٠٣٠) من سورة البقرة ٢٨٦/٢ .

(٤) ينظر بصائر ذوي التمييز .الفيروز أبادي ١/ .وينظر التحرير والتنوير . ابن عاشور ١/ ٦٨ . و ينظر النبأ العظيم. محمد درزا صـ ١٦٣.و ينظر تفسير القرآن الكريم.محمود شلتوت ص ٤٤-٤٥ .

(٥) نظم الدرر ٢٤/١ .

حتى ليبدو للمتعجّل أن هذه السورة نزلت في شأنهم ،وأنها من الأَوْلى لو سميت باسمهم ولكنها سميت (البقرة) تحديدا ،و تفرّدت السورة بذكر هذه القصة دون غيرها من سور القرآن .و هي على غرابتها تلامس القلوب و العقول معا ،و تُوقع التصديق في القلب مباشرة بالإيمان بالغيب على الضرورة ،أي تصديق كل ما جاء من عند الله إخبارا ؛و لكن بني إسرائيل كان لهم موقف أشد غرابة من قصتهم مع البقرة التي أمر الله بذبحها حيث قال تعالى واصفا حالهم بعد تلك الآية الدالة على قدرته وعظمته: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ البقرة (٧٤) .

و علل البقاعي تسمية السورة بالبقرة تحديدا بقوله : " و كانت بذلك أحق من قصة إبراهيم – عليه الصلاة السلام – لأنها في نوع البشر ،و مما تقدمها في قصة بني إسرائيل من الإحياء بعد الإماتة بالصعق ،و كذلك ما شاكلها ؛لأن الإحياء في قصة البقرة عن سبب ضعيف في الظاهر بمباشرة من كان من آحاد الناس فهي أدل على القدرة. "(١)

و في كلامه ما يثير أفكارا ؛ فإذا كانت قصة البقرة ليست الوحيدة الدالة على الغيب في السورة؛ من مثل :قصة استخلاف آدم–عليه السلام– و ذكر إحياء الأرض بعد موتها ،وإحياء الطير أمام سيدنا إبراهيم، فلِمَ حُدّدت قصة البقرة على وجه الخصوص بالتسمية ؟ هل هو لأنها في نوع البشر ؟ أو لأنها عن سبب ضعيف في الظاهر كما ذكر البقاعي؟!

إن المتتبع لعواقب تلك القصص يلحظ إقرار أصحابها بقدرة الله بعد رؤية الآيات ؛فما كان من الملائكة في قصة استخلاف آدم – عليه السلام – إلا أن قالوا : ﴿ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ البقرة (٣٢). ثم إن الرجل الذي مرّ على القرية

(١) نظم الدرر ٢٤/١ .

قال بعد رؤية الآيات: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ البقرة(٢٥٩).

و أقرّ إبراهيم بالإيمان في قصته مع الطير في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ البقرة (٢٦٠)، و لكن عاقبة قصة البقرة كانت على النقيض تماما من جميع القصص السابقة ،عاقبة تدل على الجحود والنكران حتى بعد رؤية الآيات حيث قال تعالى واصفا حال قلوب اليهود[1]: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ البقرة (٧٤)؛ لذلك كانت من الغرابة بمكان، وكانت من العظمة كذلك؛ مما جعلها أبرز من غيرها، فهي مع ما تقدّم دالة على سعة علم الله و حلمه على العباد، مع وجود دلائل القدرة و العظمة.و فيها إثبات جحود اليهود لآيات الله الظاهرة فكيف بآياته الغائبة؟! وهذا تيئيس من إيمانهم .

وفيها من إقامة الحجة عليهم بالدليل و البرهان على العناد و المكابرة ،وعلى عدم إعمال العقول فيما تراه الأبصار، فأنّى لهم الإيمان بما غاب عنها ؟!

و لعل في اسم السورة شيئا آخر يبين عن ديمومة التنديد بجحود اليهود للآيات والحجج رغم بيانها ،وأدل ما يكون على ذلك مجيء اسم السورة من جنس مايحبون؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ البقرة(٩٣)، فمن حكمة تسمية السورة بهذا الاسم إبطال عبادة العجل التي أُشربت قلوبهم حبها ،والظاهر من الإجابة عن أسئلتهم عنها يؤيد هذا؛ فكونها صفراء تسر الناظرين يذكرنا باللون الذهبي الذي اتخذوه للعجل المعبود، وكونها بقرة مدللة لا تسقي الحرث ولا تثير الأرض يبين عن أنها تتناسب مع مايتخذه هؤلاء لعبادة العجل، فكأنه بذكر هذه الصفات يصل إلى غاية واحدة ؛وهي إخراج تقديس البقر أو العجل من قلوب أهل الكتاب ،وهذا أصل في تمكين توحيد الألوهية .

---

(١) سبقت الإشارة إلى التشبيه الموجود في السورة في فصل(نمو المعاني و تآخيها و انسجامها في سورة البقرة).

وجه ارتباط خاتمة سورة البقرة بمقصودها :

قبل معرفة وجه اتصال خاتمة السورة بمقصودها للبحث وقفة مع موقع الخاتمة من السورة، و لعلها —والله أعلم بأسرار كتابه – في قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ . . .﴾ سورة البقرة (٢٨٥–٢٨٦) والذي دعا إلى إثبات الآيتين دون الثالثة؛ مع أن هناك روايتين؛ إحداهما تثبت الآيتين وهي من صحيح الحديث([1])، والثانية تثبت الثلاث وهو حديث موقوف على عبد الله بن مسعود([2])، ومن البيّن أن الصحيح يغني عن غيره؛ لا سيما إذا تواترت الروايات على إثبات الآيتين دون الثالثة. ومع هذا السبب الأولي فإن هناك مايدعم كون الخاتمة في الآيتين، وهو اعتبار أن قول الله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تمهيد لانعطاف الكلام آخره على

(١)عن أبي مَسْعُودٍ –رضي الله عنه –قال قال النبي ﷺ: من قَرَأَ بالْآيَتَيْنِ من آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ في لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ " (صحيح البخاري. كتاب فضائل القرآن .رقم الحديث(٤٧٢٢). باب فضل سورة البقرة ٤/١٩١٤ .)

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال:" إن الله – تبارك وتعالى – كتب كتابا قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام وأنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ،ولا تقرآن في دار فيقربها شيطان ثلاث ليال ." (المستدرك على الصحيحين .كتاب في فضائل القرآن.رقم الحديث(٢٠٦٥) أخبار فضل سورة البقرة ١/٧٥٠ .)

وعن أبي ذر عن الرسول ﷺ:" إن الله ختم سورة البقرة بآيتين أعطانيهما من كنزه الذي تحت العرش ،فتعلموهن وعلموهن نساءكم ؛فإنها صلاة وقرآن ودعاء"(المستدرك على الصحيحين. كتاب في فضائل القرآن.رقم الحديث(٢٠٦٦) . أخبار فضل سورة البقرة ١/٧٥٠ .)

(٢) عن ابن مَسْعُودٍ قال :"من قَرَأَ أَرْبَعَ آيَاتٍ من أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَآيَةَ الْكُرْسِيِّ وَآيَتَيْنِ بَعْدَ آيَةِ الْكُرْسِيِّ وَثَلَاثًا من آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لم يَقْرَبْهُ ولا أَهْلَهُ يَوْمَئِذٍ شَيْطَانٌ ولا شَيْءٌ يَكْرَهُهُ ولا يُقْرَأْنَ على مَجْنُونٍ الا أَفَاقَ (سنن الدارمي .عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي .تحقيق:فواز أحمد زمرلي .خالد السبع العلمي.رقم الحديث(٣٣٨٣) باب فَضْلِ أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وأية الْكُرْسِيِّ ٢/٥٤٠ .ط١ .١٤٠٧هـ/دار الكتاب العربي–بيروت) .

أولـه ،و فيـه إيذان بانتهـاء السـورة قياسا على خاتمة سورة آل عمران المثبتة عن الرسول ﷺ فـاعتبر قولـه تعـالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ . . . ﴾ آل عمـران (١٩٠) هي ابتداء خاتمـة سـورة آل عمران ،مـع أن الآيـــة الـتي تسـبقها مباشـرة هـي قولـه تعالى : ﴿ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ . . . ﴾ آل عمران (١٨٩) ،و هي شبيهة بالآيـة الـتي تسبق خاتمة سورة البقرة ،والسورتان هما الزهراوان والغمامتان والغيايتان ،وهذا يعني أنهمـا تشتركان في أمور كثيرة سيأتي بيانها([1])–إن شاء الله — وليس هناك مانع من القياس في هـذا الموضع ،لذا عُدّت الآيتان هما الخاتمة للسورة .

ومما يقوي ماذُكر آنفا من كون الخاتمة محصورة في الآيتين الأخيرتين القول بنسخ([2])قول الله تعالى : ﴿ لِّلَّهِ ما فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ بقوله تعـالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ . . لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ ﴾ ،لأنه لما نزل قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ لِّلَّهِ ما فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ شـق ذلك على الصحابة([3]) ،فجاء قوله : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ . . لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ ﴾ شفاء وراحة للمؤمنين بعدما لقوه من خوف ورهبة من مضمون الآية الأولى ،فاعتبار النسـخ آيـة علـى صـحة حصـر الخاتمة في الآيتين فقط .

---

(١) ينظر باب السورة المدنية (موقعها–خاتمتها)على مدرجة السياق القرآني (سورة آل عمران) .

(٢) "عن علي وابن مسعود وكعب الأحبار والشعبي والنخعي ومحمد بن كعب القرظي وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة أنها منسوخة بالتي بعدها ... وروى ابن جرير عن مجاهد والضحاك نحوه وعن الحسن البصري أنه قال: هي محكمة لم تنسخ .واختار ابن جرير ذلك واحتج على أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة وأنه تعالى قد يحاسب ويغفر وقد يحاسب ويعاقب ..." (تفسير القرآن العظيم ١/٣٤٠ –٣٤١).

(٣) ينظر المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم.أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن مهران الهراني .تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي . كتاب الإيمان. رقم الحديث(٣٢٦) باب قوله :(الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم)١/ ١٩٤.ط١ .١٤١٧هـ. دار الكتب العلمية /بيروت–لبنان. و مثله في الدر المنثور. السيوطي ١٢٧/٢) .

وإذا عُرف موقع خاتمة السورة فإن ذلك يستلزم الولوج منه لاستبصار علاقة تلك الخاتمة بمقصود السورة؛ فالمدار الذي تدور عليه السورة هو الدعوة إلى توحيد الله الذي هو أعظم الغيبيات واتخاذ كتابه تعالى نبراسا للتحقيق ذلك .

فلما كان في قول الله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ . . لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ﴾ بيان أن الدعوة إلى توحيد الله دعوة لا يتلقاها إلا زمرة معينة استعانت بالإيمان بالله و ملائكته وكتبه و رسله؛ أي استعانت بكل ما جاء عن ربها غيبا فصلح معتقدها، وترجمته بكامل الانقياد و الإذعان، وكان قد تقدّم في مطلع السورة وصف الذين آمنوا بماجاء عن الرب غيبا بكونهم من المتقين ،وكون مآل أمرهم إلى الفلاح؛ لما كان كل ذلك؛ رجع بالبيان المكمل على مقصود السورة ببيان تحققه، وبيان الأدوات المعينة عليه إرشادا لمن أراد الوصول إلى توحيد الألوهية ،مع إلماح إلى يسر تحققه و علو كعب محققه .وهذه المعاني اكتملت دلالتها في خاتمة السورة فعادت الخاتمة بمافيها من تكريس للمعاني على مقصود السورة ،وانعطفت عليه .

*　　　*　　　*

ثانيا :

دلالة اسم سورة آل عمران على مقصودها الأعظم

ووجه ارتباط خاتمتها بمقصودها

سورة آل عمران مدنية بإجماع العلماء،وعدد آياتها عند جمهور العلماء مئتان،أما تسميتها فهي واردة عن الحبيب المصطفى ﷺ كما سماها الزهراء،وهي غمامة أو غياية(١)تظل صاحبها وتحفظه .

والمتأمل في سورة آل عمران ؛افتتاحيتها،معاقدها،خاتمتها ؛يجدها تدور حول معنى سام عميق، إنه ترسيخ عقيدة التوحيد المستلزم للعزّة المقتضية للنصرة الإلهية. يقول الإمام البقاعي عن مقصود السورة:"المقاصد التي سيقت لها هذه السورة؛إثبات الوحدانية لله سبحانه وتعالى،و الإخبار بأن رئاسة الدنيا بالأموال و الأولاد و غيرهما مما آثره الكفار على الإسلام غير مغنية عنهم شيئا،و أن ما أُعد للمتقين من الجنة والرضوان هو الذي ينبغي الإقبال عليه والمسارعة إليه. "(٢) ثم عقّب الإمام على كلامه وقال:"هذا ما كان ظهر لي أولا،و أحسن منه أن نخص القصد الأول وهو التوحيد بالقصد فيها،فإن الأمرين الآخرين يرجعان إليه ." (٣)

دلالة اسم سورة آل عمران على مقصودها :

الناظر في اسم السورة (آل عمران) لا يعدم الدلالة على مقصودها؛ فإذا كان مقصود السورة ترسيخ عقيدة التوحيد،فإن من أهم أسباب تأصيلها؛ خلوصها من الشرك الذي نادى به وفد نجران (٤) لمّا قدموا على الرسول ﷺ و جعلوا يحاجّون في عيسى- عليه السلام -ويزعمون

---

(١) قال ﷺ :" اقرؤوا القرآن ،فإنه يأتي شفيعا لأصحابه،اقرؤوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران،فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فِرقان من طير صَوَاف تحاجّان عن أصحابهما" (صحيح مسلم.الإمام مسلم.كتاب صلاة المسافرين وقصرها.رقم الحديث(٨٠٤)باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة ١/ ٥٥٣).

(٢) نظم الدرر ٣/٢ .

(٣) السابق ٣/٢ .

(٤) ينظر المستدرك على الصحيحين، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين ،باب ذكر نبي الله وروحه عيسى ابن مريم .٦٤٩/٢ .و مثله في جامع البيان ٣/ ١٦٩ . ومثله في التفسير العظيم ابن كثير ٣٦٩/١ .

فيه مايزعمون من البنوّة والإلهية فأنزل الله هذه السورة ،ردّا عليهم فكانت الآيات أوضح بيان عن حال عيسى بن مريم بنت عمران – عليهما السلام – من إثبات البشرية لهما، ونفي الألوهية عن عيسى– عليه السلام –

و(آل عمران) المسمى بهم السورة؛ هم أم مريم، وخالتها، وزوج خالتها، زكريا وابنهما يحيى، ومريم وابنها عيسى–عليه السلام– ([1])و جمعيهم قد تحقق اليقين في قلوبهم مع حسن عبادة الله، و تقبّل قدره و قضائه المندرج تحت جوامع التوحيد؛ فأم مريم (امرأة عمران) وهبت ما في بطنها من قبل أن تراه لخدمة بيت الله، ولما كان القادم على غير ما أرادت؛قدمت الأنثى (مريم) لخدمة بيت الله، ولم يعسفها ذلك عن الوفاء بنذرها، فتقبّلها ربها قبولا صفته الحسن، فتكفّل بمريم من منشئها إلى بلوغها، و تكفّل بها ظاهرا و باطنا، فأنبتها نباتا حسنا، فأكمل الله سبحانه مريم لما كمل له الرجال .([2])

وكان من مظاهر تلك الكفالة أن زكريا –وكان كافلا لمريم– كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا، وكان يقول: ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ آل عمران(٣٧)، قال الحرالي: "كلمة (أنى) تشعر باستغرابه وجود ذلك الرزق من وجوه مختلفة؛من جهة الزمان أنه ليس زمانه، ومن جهة المكان أنه ليس مكانه، و من جهة الكيف ووصوله إليها أنه ليس حاله ." ([3]) و في قصة مريم بيان حال الضعف الذي يعتري البشرية من عدم علم

(١) يرى الفيروزأبادي أن "عمران المذكور هو عمران والد موسى وهارون عليهما السلام–وهو ابن يصهر ... وأما عمران والد مريم فهو ابن ماتان..."(بصائر ذوي التمييز ١/ ١٥٨). ولم تجد الباحثة في كتب تفسير الآيات ما يُعزز كون عمران المذكور هو ليس عمران والد مريم، بل إن جميع الشروح لا تذكر غير والد مريم.ثم لو كان ذلك كذلك لوجدنا دلالات من السورة تدل على سبب التسمية بعمران والد موسى وهارون –عليهما السلام– والله أعلم –

(٢) قال ﷺ: "كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساءإلامريم بنت عمران وآسية(امرأة فرعون) "(صحيح البخاري.كتاب الأنبياء.رقم الحديث (٣٢٥٠) باب قوله تعالى: "إذ قالت الملائكة يا مريم .... " ١٢٦٦/٣)

(٣) نظم الدرر ٧٤/٢.

الغيب مع قلة الحيلة،و في ذكر البطن و الوضع و الذرية ما يعزز ذلك،و فيه إثبات وجود الكرامات و خوارق العادات؛ من تقبّل الإناث لخدمة البيت،مع وجود الرزق بأنواعه و أصنافه في غير وقته ودون سبب بشري عند مريم- عليها السلام -

و لما تحقق لزكريا رؤية شيء من الكرامات؛ توجّه إلى ربه طلبا للذرية،و هو على حال من الكِبَر مع زوجته،و لكنه حصول عين اليقين بخوارق العادات،وكانت استجابة الله له بتبشيره بغلامه(يحيى) مصدقا بعيسى بن مريم،و سيدا في قومه،و حَصُورا و نبيا من الصالحين.

كل تلك الخوارق التي أوتيها(آل عمران) كانت تمهيدا و تهيئة لمعجزة عظيمة؛ معجزة ولادة عيسى- عليه السلام - بلا أب،و هو الذي جادل فيه النصارى، فردّ الله عليهم بنزول سورة سمّاها باسم هؤلاء القوم الذين تحقق فيهم التوحيد (آل عمران) وهم من ذرية آدم،وفيه التوجيه إلى البشرية المحضّة التي يتصفون بها.

وعن التهيئة والتمهيد يقول السيوطي عن سرّ تقديم ذكر ولادة يحيى قبل ولادة عيسى - عليهما السلام- في السورة: "ذكر قصة ولادة يحيى لترتبها على ولادة مريم،و فيها نمط من الغرابة الواقعة في ولادة عيسى من حيث الولادة في غير حينها عادة،لكن أمر عيسى أغرب،فقدّم القليل الغرابة تأنيسا بالأكثر غرابة وتمهيدا له ."(1) وتلك التمهيدات لها قيمة نفسية عالية؛لأن الله تعالى يخاطب البشر بما تدركه عقولهم وبما تعلمه،وما يعلو قليلا على مداركهم فإن التهيئة تعد عنصرا فاعلا في تصديقهم ويقينهم،وإن كان المولى الحكيم ليس مجبرا على إقناعهم؛ولكنهم مجبورون على تصديقه .

فأبان الخطاب القرآني عن أحوال (آل عمران) التي يعتريها ما يعتري البشرية من الضعف وعدم القدرة،واسم السورة(آل عمران)أدل دليل على تلك البشرية،لأن آل الرجل: أهله وقرابته.

---

(١) قطف الأزهار في كشف الأسرار.تحقيق ودراسة :أحمد بن محمد الحمادي ٥٤٩/١-٥٥٠ بدون ط.بدون ت.إصدار وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية-دولة قطر .

وكـان (آل عمـران) بجملـتهم قـدوة في الاصـطفاء، والإيمان، ومَثَلا في الرسـالات ومنفـذي الرسالات، أي إن توحيد الله تمكن في قلوبهم، فحسن باسم السورة هذا الإشادة بهم والإشـارة إليهم أنموذجا في تمكن العقيدة .

وجه ارتباط خاتمة سورة آل عمران بمقصودها :

لما كانت خواتيم السورة مكرِّسة لمعاني السورة كلها كانت صلتها بمقصودها على درجة عالية من الأهمية، و حتى نستبصر وجه ارتباط خاتمة السورة بمقصودها، علينا تحديد موقع خاتمة سورة آل عمران ابتداء، فهي تبدأ من قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ . . . ﴾ آل عمران(١٩٠)، وحتى نهاية السورة عند قول الحق – تبارك وتعالى–: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ . . . ﴾ آل عمران(٢٠٠) في حين يكون قول الله تعالى: ﴿ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ . . . ﴾ آل عمران (١٨٩) تمهيدا لانتهاء الكلام وتقديما لانعطاف الكلام آخره على أوله، وأحاديث الرسول ﷺ دالة على ذلك.([1])

---

(١)عن ابن عَبَّاس –رضي الله عنهما –قال بتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ فَتَحَدَّثَ رسول اللَّهِ ﷺ مع أَهْلِهِ سَاعَةً ثُمَّ رَقَدَ فلما كان ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ قَعَدَ فَنَظَرَ إلى السَّمَاءِ فقال: { إِنَّ في خَلْقِ السماوات وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} ثُمَّ قام فَتَوَضَّأَ وَاسْتَنَّ فَصَلَّى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً ثُمَّ أَذَّنَ بِلَالٌ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى الصُّبْحَ"(صحيح البخاري .كتاب التفسير.رقم الحديث (٤٢٩٣) باب تفسير قوله تعالى: {إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار} ٤ / ١٦٦٥ .) "و عن بن عَبَّاس –رضي الله عنهما– قال :بتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ فقلت لَأَنْظُرَنَّ إلى صَلَاةِ رسول اللَّهِ فَطُرِحَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وِسَادَةٌ فَنَامَ رسول اللَّهِ ﷺ في طُولِهَا فَجَعَلَ يَمْسَحُ النَّوْمَ عن وَجْهِهِ ثُمَّ قَرَأَ الْآيَاتِ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ من آلِ عِمْرَانَ حتى خَتَمَ ثُمَّ أتى شَنًّا مُعَلَّقًا فَأَخَذَهُ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ قام يُصَلِّي فَقُمْتُ فَصَنَعْتُ مِثْلَ ما صَنَعَ ثُمَّ جِئْتُ فَقُمْتُ إلى جَنْبِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ على رَأْسِي ثُمَّ أَخَذَ بِأُذُنِي فَجَعَلَ يَفْتِلُهَا ثُمَّ صلى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ صلى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ صلى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ صلى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ صلى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ صلى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ أَوْتَرَ"(صحيح البخاري .كتاب التفسير.رقم الحديث (٤٢٩٤) باب تفسير قوله تعالى: {الذين يذكرون الله قياما وقعودا } ٤ / ١٦٦٦ .)

و إذا كان مقصود السورة ترسيخ عقيدة التوحيد،فإن الله تعالى في خاتمة السورة يوجّه إلى سبيل ترسيخ تلك العقيدة من خلال التفكر والتأمل في مخلوقاته ؛لأنهما سبيلان إلى الوصول و الهداية،و ذلك فيه تعريض بأهل الكتاب؛ لأنهم لم يتدبروا الآيات الدالات و الحجج الواضحات على تفرده تعالى بالألوهية ،مع تعلقهم بما وهن من الأسباب فكانوا بلا ألباب إذ أشركوا مع الله إلها آخر،و لو كان لديهم أدنى تفكّر في الأمور الظاهرة من خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار؛ لأدركوا أن هناك قاهرا واجدا لهما،و مبدعا صانعا،وقائما بنفسه عن كل أحد ،قادرا على الإنشاء من عدم و الإنشاء بلا سبب،ولكنهم عدموا النظر فيما ظهر،فأنى لهم التفكر فيما هو أعظم من ذلك مما خفي،و بذلك انتفى كونهم علماء كما يدّعون،أو كما عُرف عنهم،و وجّه العلم بطريق التضمين إلى المؤمنين بالله،المتفكرين في مخلوقاته،المستدلّين بها على وجوده.

ولما كان حال المؤمنين من الهداية وعدم الغفلة كما وصف تعالى؛أشاد بهم وباهتدائهم إلى وحدانيته؛لإدراكهم قدرته وملكوته الدالين على عظم المالك،فكان اعتبارهم من خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار اعتبار مفكر أجلى قلبه من العناد والمكابرة،فاستدلوا بالحاضر على الغائب،و طبقوا قول الرسول ﷺ المروي عن عائشة–رضي الله عنها:" ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها !"([1]) ولذلك بنى البقاعي العلاقة بين المقصد والخاتمة على ضرورة التفكر الموجبة للتوحيد ،فقال:"ولما ذكر هذا الملك العظيم،وختم بشمول القدرة؛دلّ على ذلك بالتنبيه على التفكر فيه الموجب للتوحيد الذي هو المقصد الأعظم من هذه السورة ،الداعي إلى الإيمان الموجب للمفازة من العذاب ."([2])

فكما كان لاسم السورة نصيب في الدلالة على مقصودها الأعظم؛ كان لخاتمة السورة نصيب آخر،وذلك هو التناسب القرآني المبني على روح الوحدة و التكامل .

* * *

(١) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان(كتاب الرقاق) رقم الحديث(٦٢٠)ذكر البيان بأن المرء إذا تخلى لزوم البكاء على ما ارتكب من الحوبات وإن كان بائنا عنها مجدا في إتيان ضدها"٣٨٦/٢ .

(٢) نظم الدرر ١٩٦/٢ .

ثالثا /

دلالة اسم سورة النساء على مقصودها

ووجه ارتباط خاتمتها بمقصودها

وردت تسمية سورة النساء عن النبي ﷺ وذلك ما ذكره عمر بن الخطاب في خطبته حين قال : " ما راجعت رسول الله ﷺ في شيء ما راجعته في الكلالة ،و ما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي فيه حتى طعن بإصبعه في صدري فقال : يا عمر ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء " ([1]) .

وسماها عبد الله بن مسعود سورة النساء الطولى ،في حين سمى سورة الطلاق النساء القصرى([2]). وأطلق الفيروزأبادي على سورة النساء،النساء الكبرى ،وسورة الطلاق سورة النساء الصغرى([3]). وهذا نظر يبين عن دلالة أسماء سور القرآن على معانيها .

سبب تسمية السورة ودلالتها على مقصودها :

حتى نتبين دلالة اسم السورة على مقصودها لابد أن نضع أيدينا على ذلك المقصود الذي عبّر عنه البقاعي بقوله : " مقصودها الاجتماع على التوحيد الذي هدت إليه آل عمران،والكتاب الذي حدّت عليه البقرة لأجل الدين الذي جمعته الفاتحة ." ([4]) وربط البقاعي سبب تسمية السورة بمقصودها فقال :"ولما كان مقصودها الاجتماع على ما دعت إليه السورتان قبلها من التوحيد،وكان السبب الأعظم في الاجتماع والتواصل عادة الأرحام العاطفة

---

(١) صحيح مسلم .كتاب المساجد ومواضع الصلاة.رقم الحديث (٥٦٧) باب نهي من أكل ثوما أو بصلا أو كراثا أو نحوهما ٣٩٦/١ .

(٢)ينظر صحيح البخاري.كتاب التفسير .رقم الحديث (٤٢٥٨) باب {الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون...} ١٦٤٧/٤ .

(٣) بصائر ذوي التمييز ١٦٩/١ ولم أجد تسمية سورة النساء الكبرى في كتب الحديث أو التفسير، ووجدت تسمية سورة الطلاق بالنساء الصغرى عند الطبراني في المعجم الكبير.تحقيق :حمدي عبد المجيد السلفي . ٣٣١/٩ .ط٢ . ١٤٠٤ –١٩٨٣م.مكتبة الزهراء –الموصل . وعند ابن حجر العسقلاني في المطالب العلية ٣٥٩/١٥.بدون ط .بدون ت. دار العاصمة.دار الغيث. وعند السيوطي في الدر المشور ٢٠٣/٨ .

(٤) نظم الدرر ٢٠٤/٢ .

التي مدارها النساء، سميت (النساء) لذلك. ولأن بالاتقاء فيهن تتحقق العفة والعدل الذي لبابه التوحيد ." (١)

وقال ابن عاشور عن سبب تسمية السورة : " ووجه تسميتها بالإضافة إلى النساء أنها افتتحت بأحكام صلة الرحم ،ثم بأحكام تخص النساء ،وأن بها أحكاما كثيرة من أحكام النساء و الأزواج و البنات، و ختمت بأحكام تخص النساء ."(٢) .

ولما كانت المرأة أساس المجتمع ونصيفه، وكانت مهمة التربية مسندة إليها في أغلب الأحوال لاشتغال الرجال بالجهاد والرزق ؛كانت تسمية السورة باسمهن بيانا لعظم أثرهن في بناء المجتمع المسلم و تكاتفه ،وهو مايفضي إلى الاجتماع على الدين وعدم التفرق فيه، الذي جاءت السورة داعية في معانيها إليه. ولما كانت المرأة من الأهمية بمكان في المجتمع جاءت السورة تعلي من شأنها و ترفع قدرها، حيث جاء ذكر بداية خلقها،وذكر أحكام نكاحها و عشرتها و تأديبها،وعرّف بما يحل من النساء ومايحرم،وما يطيب وما يخبث،وانتهى إلى ذكر ميراثها ونصيبها منه،فكفل لها حياتها كلها من منشئها إلى معادها. وتفرّدت هذه السورة بالتفصيل في أمرها مما جعل اسمها بيانا عليها .

فجاء الإسلام ضاربا للمرأة بسهم في كل مجال،و محررا لها من عبودية الجاهلية ،و ذلك فيه بيان أن النساء من أهم الركائز التي تقوم عليها البشرية جمعاء،ولذلك جاء الأمر باتقاء الله فيهن ،ثم ببيان أحكامهن .

ولما كان من أهم مقاصد السورة تطهير المجتمع المسلم من رواسب الجاهلية، و الرقي به إلى مستوى عال يتميز عن سائر الأمم بأخلاقه و عاداته و نظمه،و كان من أهم تلك الرواسب هضم حقوق المرأة من كل وجه؛جاءت التسمية تتناسب مع مقاصد السورة كلها .

---

(١) نظم الدرر ٢٠٤/٢ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ٢١١/٤ وقال عبد المتعال الصعيدي ما يشبه هذا الكلام في كتابه النظم الفني في القرآن صـ٧٦.

ولما كانت المرأة قوام المجتمع ونصفه وأسّه ؛لأنها منجبة الرجال ومربيتهم ،بل وصانعة الأجيال؛جاء اسم السورة ليشير إلى عظم حقّها مع عظم مسؤوليتها، فسورة النساء "سورة المستضعفين وقد اختار الله نوعا من أنواع المستضعفين وهم النساء ليكونوا اسما لهذه السورة، وكأن الله يقول لك :قبل أن استأمنك على الأرض، أرني عدلك في بيتك، فلو عدلت ورحمت في بيتك فستكون مستأمنا للعدل في المجتمع ." (١)

وجه ارتباط خاتمة سورة النساء بمقصودها :

لما كان ختام السورة تكثيفا لما ورد في السورة كلها؛ جاءت خاتمة السورة دالة على مقصودها ،وخاتمتها -والله أعلم - في آيتها الأخيرة ،في قوله تعالى : ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ النساء(١٧٦).

فلما كان مقصود السورة الاجتماع على توحيد الله الذي يقتضي رعاية أحكامه؛جاء الختم بالأحكام كما افتتح السورة بالأحكام،وكما تخللت ثنايا السورة الأحكام ،حتى عُرفت بمضمونها الحكمي القائم على دعامتي العدل و الرحمة .

وتحدثت آية الخاتمة التي سميت بآية الصيف عن نوع من الميراث كانت قد تحدثت عن نصيفه في أول السورة ،وهو ميراث الكلالة،فكان في أول السورة حديث عن الكلالة رجل أو امرأة وله أخ أو أخت لأم،وكان في آخر السورة حديث عن الكلالة رجل أو امرة وله أخ أو أخت أو أخوة أو أخوات لأب وأم ،أو لأب ،وظاهره أن تُلحق آية الصيف بالآية في أول

(١) خواطر قرآنية.نظرات في أهداف سور القرآن.عمرو خالد صـ٦٦ ط١ ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.أريج للنشر والتوزيع-الدقي .

السورة حتى تُستوفى أحكام الكلالة؛و لكن لما كانت النفس البشرية مجبولة على حب توريث أبنائها دون غيرهم ،و كان توريث الأخ أو الأخت معضلا ؛جاءت الآيات في أول السورة حتى تبين أن للأخ ورث أخيه إن كان يورث كلالة .([1]) وسار البيان القرآني مع النفس البشرية حتى تتقبل ما لم تُجبل عليه على سبيل من التدرج ، فلم يأتِ بالحكم دفعة واحدة ؛إنما تدرج بأن ذكر أولا ما يخص الأخ أو الأخت لأم وذكر نصيبهما، ثم ذكر في آية الصيف آخر السورة ما يخص الأخ أو الأخت لأب وأم أو لأب، وكل ذلك حتى يصل بقلب المتلقي إلى تقبل ما استجد عليه،ثم الاطمئنان له . وتلك طريقة القرآن الكريم في فرض ما استجد أو نزع وتحريم ما اعتاد الناس عليه .

وفصل إحدى الآيتين عن الأخرى أصل في بيان أن ترتيب آيات القرآن الكريم توقيفي .

* * *

(١) "فأما الكلالة فقال محمد:الكلالة هم الرجال الورثة ،كما قال أعرابي: مالي كثير، ويرثني كلالةٌ متراخٍ نسبهم،قال: وهو مصدر من تكلّله النسب ،أي: تعطّف عليه فسموا بالمصدر .. قال المبرّد: والولد خارج من الكلالة. (مقاييس اللغة.ابن فارس مادة (كلَ) و" الكلالة : الرجل الذي لا ولد له ولا والد،وقال الليث :الكلَ الرجل الذي لا ولد له ولا والد .كل الرجل يكل كلالة ،وقيل:مالم يكن من النسب فهو كلالة ،وقالوا :هو ابن عم الكلالة وابن عم كلالة وكلالة وابن عمى كلالة ،وقيل:الكلالة من تكلل نسبه بنسبك كما ابن العم ومن أشبه (لسان العرب مادة (كلل).

رابعا/

دلالة اسم سورة المائدة على مقصودها و وجه ارتباط خاتمتها بمقصودها

سورة المائدة مدنية بالإجماع ،وردت تسميتها عن السيدة عائشة(1)-رضي الله عنها- وعن الصحابة(2)- رضوان الله عليهم- وما كان ذلك إلا نقلاً عن الرسول ﷺ،وقيل:تسمى سورة العقود؛لاحتوائها على العقود والأمر بالوفاء بها.(3) وقيل :تسمى المنقذة .(4)

سبب تسمية السورة ودلالتها على مقصودها :

مقصود السورة أوضحه البقاعي بقوله :"مقصودها الوفاء بما هدى إليه الكتاب ودلّ عليه ميثاق العقل من توحيد الخالق ورحمة الخلائق؛شكرا لنعمه واستدفاعا لنقمه. وقصة المائدة أدلّ ما فيها على ذلك،فإن مضمونها أن من زاغ عن الطمأنينة بعد الكشف الشافي والإنعام الوافي نوقش الحساب فأخذه العذاب ."(5) فكمال العبودية لا يتحقق إلا بتحقق الألوهية ومن كمال عبودية العبد الوفاء بعهد الله و ميثاقه، و يعزّز ذلك حديث الرسول ﷺ الذي يخبر فيه عن سيد الاستغفار؛ فعن شدّاد بن أوس عن النبي ﷺ قال:سيد الاستغفار؛اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت،أعوذ بك من شر ما صنعت،أبوء لك بنعمتك علي،و أبوء لك بذنبي،فاغفر لي،فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت،قال:ومن قالها من النهار موقنا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة،و من قالها من الليل و هو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة ."(6)

---

(١) ينظر المستدرك على الصحيحين. كتاب التفسير .رقم الحديث (٣٢١٠) تفسير سورة المائدة ٣٤٠/٢ .

(٢) ينظر صحيح مسلم .كتاب الفتن وأشراط الساعة .رقم الحديث (٢٧٢) باب المسح على الخفين ٢٢٧/١.و ينظر المستدرك على الصحيحين .كتاب التفسير .رقم الحديث (٣٤٩٣) تفسير سورة النور ٤٢٩/٢ .

(٣) ينظر بصائر ذوي التمييز ١٧٨/١ .و ينظر تفسير التحرير والتنوير.المجلد الثالث ٦٩/٦ و ينظر روح المعاني. ٢٢١/٣. و ينظر تفسير القرآن الكريم .محمد شلتوت ص١٢٦ . و لم أجد ما يعزز هذه التسمية في كتب الحديث.

(٤) ينظر تفسير التحرير والتنوير.المجلد الثالث ٦٩/٦ .و ينظر روح المعاني ٢٢٩/٣ . ولم أجد أيضا ما يعزز هذه التسمية في كتب الحديث .

(٥) نظم الدرر ٣٨٤/٢

(٦) صحيح البخاري. كتاب الدعوات. رقم الحديث (٥٩٤٧) باب أفضل الاستغفار ٢٣٢٣/٥ .

فالألوهية درجة أعلى من الربوبية، وتعلقهما بالعهد والوعد المبرم مع الله تعالى تعلق شديد الصلة، وتترجمه أفعال العباد .واليقين بالله ربا وإلها، خالقا، منعما للنعم، غافرا للذنوب سبب في دخول الجنة.وعليه فسيكون العبد موقنا بعبوديته الكاملة لله تعالى وحده دون سواه.و هذا يعني الخضوع الكامل للأوامر والتشريعات دون أدنى تدخل، وهذا ما يقتضيه مقصود السورة من جهة ،وما تدل عليه تسمية السورة من جهة أخرى .

ومن أسباب تسمية السورة كذلك تفردها بذكر قصة المائدة التي طلبها الحواريون من عيسى– عليه السلام– والذي يعنينا في هذا المقام أن قصة المائدة هذه تشير في مجملها إلى أمور عدة، من أهمها : بيان حسن اختيار الله لعباده ما يعود عليهم بالفلاح و النجاح . مع بيان سوء اختيار العباد لأنفسهم ما يظنونه سر فلاحهم و نجاتهم، و ذلك يتجسد في سوء اختيار الحواريين طلب المائدة من الرب تعالى، فقد قصروا فكرهم في أمر مادي كانوا في غنى عن طلبه، مع الإشارة إلى الفرق بين ما يرتضيه الله للأمة المحمدية وما اختاره الحواريون لأنفسهم، و ذلك كله يومىء إلى كراهة الاختيار فوق اختيار الله تعالى و ذلك صلب في مقصود السورة .

ومن المعاني المهمة التي نفهمها من سياق قصة المائدة، و تترجم لنا جانبا آخر من دلالتها على مقصود السورة؛أنه لما كانت قصة المائدة تجسد لنا عقدا و عهدا و ثيقا أبرمه الله تعالى مع الحواريين– و يتجلى في تلبية حاجاتهم نظير الإيمان المطلق، و إن لم يكن الإيمان فالعذاب الشديد — وكانت قيمة الوفاء بالعهود و الالتزام بالمواثيق التي نادى بها تعالى في ثنايا السورة ظاهرة النفع على العباد؛ناسبت تسمية السورة مقصودها .

ولعل في اشتقاق الكلمة الذي يشير في أحد معانيه إلى الزيغ([1])ما يبين عن زيغ الحواريين عن الحق حين طلبهم المائدة ؛لأن طلب الآيات من التدخل في شؤون الألوهية .وهذا يفسر لنا وجها من سبب التسمية بالمائدة .

---

(١) ينظر لسان العرب .مادة (ميد) .

وجه ارتباط خاتمة السورة بمقصودها:

تحديد موقع الخاتمة من السورة هي مرحلة تسبق استبصار وجه ارتباطها بمقصودها ويبدو– والله أعلم بأسرار كتابه–أنها تبدأ من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . . . ﴾المائدة (١٠٩) إلى نهاية السورة حين قال : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾المائدة (١٢٠).

ووجه ارتباط مقصود السورة بخاتمتها يتضح من جوانب عدة؛ لما كان من أهم مقاصد السورة ضرورة الوفاء بما عاهد الناس خالقهم عليه من الطاعة نظير دخول جنته ، وكان يوم القيامة هو اليوم الذي يتضح فيه خسران من ترك الوفاء بعهد الله وفلاح الوافين به ؛ جاء ذكر اليوم الموعود في خاتمة السورة يجسد وفاء الله تعالى بعهده للناس أجمعين في ذلك اليوم،ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾المائدة(١٠٩). ولما كان من أهم مقاصد السورة بيان المراتب والحلقات التي بين الأمة المحمدية وبين بني إسرائيل خصوصا ،وبين غيرها من الأمم عموما في الوفاء بعهود الله،ذكر تعالى في خاتمة السورة عاقبة من يختار فوق اختياره، وذلك بذكر قصة الحواريين وطلبهم للمائدة، ويُفهم منها؛أن اقتراح الآيات من التعدي الذي لا يرتضيه الحق سبحانه،واستنتج البقاعي مقصودا من قصة المائدة فقال: " ولما كان أجلّ المقاصد تأديب هذه الأمة لنبيها – عليه السلام – لتجلّه عن أن تبدأه بسؤال أو تقترح عليه شيئا في حال من الأحوال،ذكر لهم شأن الحواريين في اقتراحهم بعدما تقدم من امتداحهم بعدِّهم في عداد أولي الوحي ومبادرتهم إلى الإيمان امتثالا للأمر، ثم إلى الإشهاد على سبيل التأكيد بتمام الانقياد وسلب الاختيار ."[1]

* * *

---

(١) نظم الدرر ٥٦٩/٢ .

خامسا /

دلالة اسم سورة الأنفال على مقصودها ووجه ارتباط خاتمتها بمقصودها

سورة الأنفال هي السورة المدنية الخامسة في الترتيب القرآني بين السور المدنية. وردت تسميتها عن الصحابة– رضوان الله عليهم – فسمّوها بالأنفال ،لابتدائها بذكر الأنفال و السؤال عنها .و سمّوها ببدر.(١)

سبب تسمية السورة ودلالتها على مقصودها :

حتى نتبين وجه دلالة السورة على مقصودها ؛لابد أن نحيط علما بمقصود السورة أولا. ومقصودها ذكره البقاعي: " تبرؤ العباد من الحول و القوة ،و حثهم على التسليم لأمر الله،واعتقاد أن الأمور ليست إلا بيده،و أن الإنسان ليس له فعل؛ليثمر ذلك الاعتصام بأمر الله المثمر لاجتماع الكلمة،المثمر لنصر الدين،و إذلال المفسدين المنتج لكل خير ."(٢)

لما كان موضوع سورة الأنفال يدور حول ترسيخ اليقين بالله ناصرا ،وكان ذلك يستلزم التجرد من كل عرض الدنيا مع تعليق القلوب بالآخرة ؛كانت تسمية السورة دالة على العرض الدنيوي الذي يجب أن يزهد فيه،و مطلع السورة يسند هذه الدلالة بشكل مباشر . والأنفال من النفل: و هي الزيادة على الغنيمة .(٣)و هو أولى الأقوال بالصواب على رأي ابن جرير الطبري .(٤) وهناك مَنْ فرّق بين الغنائم و الأنفال و الفيء،و هناك من جعلها بمعنى واحد.(٥)

---

(١) "عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة التوبة؟ قال: التوبة هي: الفاضحة،مازالت تتنزّل ومنهم ومنهم،حتى ظنوا أن لا يبقي منا أحد إلا ذُكر فيها .قال: قلت: سورة الأنفال؟ قال: تلك سورة بدر "صحيح مسلم . كتاب التفسير.رقم الحديث(٣٠٣١)باب في سورة براءة والأنفال والحشر ٢٣٢٢/٤ .

(٢) نظم الدرر ١٨١/٣ .

(٣) مقاييس اللغة.مادة (نفل) .

(٤) جامع البيان ١١/٩ .

(٥) يُرجع للمفردات .مادة(نفل).و تفسير التحرير والتنوير ٢٤٩/٩–٢٥٠ .

والروايات تؤيد دلالة اسم السورة على العرض الدنيوي ؛لأنها تذكّر أن الصحابة اختصموا في أمر الغنائم ،مما أدى إلى طمع كل في النفل فقال عبادة بن الصامت قولته المشهورة :"فينا معشر أصحاب بدر نزلت ."([1]) و كان ذلك سببا في نزول سورة الأنفال، وللمقصود المذكور استفتحت السورة بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ. . . ﴾ الأنفال(١) .

ولما كان تزهيد القلوب المؤمنة في المغانم الدنيوية جزءً مهما من المقصود الأعظم للسورة؛جاء الجواب في الآية الإحدى والأربعين بعد السؤال في الآية الأولى في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ. . . ﴾ الأنفال (٤١) وذلك دليل على الاهتمام بتربية قلوب المؤمنين؛إذ عليها المعوّل في التعلق أو الزهد .

وسميت بسورة بدر لتفصيلها في غزوة بدر تفصيلا يهتم بجوانب عدة: حركية و عقدية ومعنوية و نفسية. وسورة الأنفال رصدت المعركة من أولها إلى آخرها ،من أول التأهب للخروج إلى العير،وكراهة تبديل الوجهة عند فريق من المسلمين،والربط على قلوبهم وإنزال الملائكة تحارب معهم،مرورا بالحالة النفسية التي كانوا عليها،من الخوف والقلة في العدد وبيان فضل الله عليهم في إذهاب روعتهم ،مع نومهم و تثبيتهم،و النيل من الأعداء،وصولا إلى تقسيم الأنفال و معاملة الأسرى و المعاهدين .

(١) المستدرك على الصحيحين. كتاب قسم الفيء. رقم الحديث (٢٦٠٨) ١٤٨/٢. و يرجع كذلك لكتاب التفسير. رقم الحديث (٣٢٥٩) تفسير سورة الأنفال. ٣٥٦/٢)

وجه ارتباط خاتمة السورة بمقصودها:

خاتمة سورة الأنفال تبدأ–والله أعلم بأسرار كتابه– من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ . . . ﴾الأنفال (٧٢)،فلما كان مطلع السورة يتحدث عن سؤال صحابة رسول الله عن الأنفال،ثم جاء الجواب في مطلع السورة تربويا يحملهم على ترك المغانم الدنيوية،والالتفات إلى أمور هي العمدة في الإيمان،و تبع ذلك المطلع بيان صفات المؤمنين إيمانا حقيقيا؛جاء في خاتمة السورة يبين عن النتيجة،وهي ذكر الذين فازوا بوسمهم بالإيمان الحقيقي،وهم الذين آمنوا و هاجروا و جاهدوا ،و الذين آمنوا و آووا و نصروا .

ودلالة هذه الخاتمة على مقصود السورة ؛أنه لما كان ربط الجهاد بالاعتقاد بنصرة الله و ولايته للمؤمنين هو المقصود الأعظم من سورة الأنفال ؛جاءت خاتمة السورة تبيّن فضل المؤمن العامل لنصرة الإسلام عن المؤمن القاعد عن تلك النصرة،وحصر الإيمان الحقيقي فيهم في خاتمة الخاتمة،فأبان عن فضلهم صراحة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾الأنفال(٧٤) فالمنقبة لناصري الإسلام،وليست لغيرهم،و أعظم نصرة للإسلام في ذلك الوقت الجهاد والإيواء،ولذلك خصتا بالذكر .

ولما كانت الهجرة من ديار الشرك إلى ديار الإسلام هي أدل على حقيقة الإيمان نُصّ على ذكرها تؤاخي الجهاد و النصرة،و كان ذلك من أوثق العرى بمقصود السورة الكريمة ومن الدلائل على تناسب أجزائها وتلاحمها .

* * *

سادسا /

دلالة اسم سورة التوبة على مقصودها ووجه ارتباط خاتمتها بمقصودها

سورة التوبة اختصت بين سور القرآن بعدم افتتاحها بالبسملة،وتفيد الروايات أن ترك البسملة في السورة يتناسب مع موضوعاتها التي تحمل معاني التهديد و الوعيد أو كما قال ابن عباس: " إن بسم الله الرحمن الرحيم أمان،وهذه السورة نزلت بالسيف ونبذ العهد."(1) و مفهوم كلامه أن البراءة التي صُدِّرت بها السورة من القوة و القسوة ما يمكن أن يخفف وطأة شدتها الافتتاح بالبسملة الجامعة لصفتي الرحمان والرحيم على التوالي،ومقتضى المقام إيقاع الألم والرعب من نبذ العهد والوعيد الحاصل من أول آية في السورة ،ولذلك لم تصدر بالبسملة وإلا لفات هذا المغزى .

دلالة اسم السورة على مقصودها :

قبل أن ندل على ارتباط اسم السورة بمقصودها؛نعرض لذكر مقصود السورة،و هو كما ورد عند البقاعي: " معاداة من أعرض عما دعت إليه السورة الماضية من اتباع الداعي إلى الله في توحيده،واتباع ما يرضيه،وموالاة من أقبل عليه،وأدل ما فيها على الإبلاغ في هذا المقصد قصة المخلفين. "(2) ويبدو جليا أن البقاعي يربط مقصود سورة الأنفال بمقصود سورة التوبة،وصحيح أن الاتصال بينهما قوي وواضح،ولكن مقصود كل سورة تقوم به معانيها الواردة خلالها،مع تنامي المقاصد تبعا لترتيب السور في القرآن الكريم .

وأسماء السورة تدلنا على مقصودها أو تكشف لنا جانبا مهما منه؛فسميت سورة التوبة(3) بهذا الاسم لدلالتها على حدث عظيم ومهم ذُكر في السورة ،وهو قصة المؤمنين الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك وهم: (كعب بن مالك و هلال بن أمية ومرارة بن ربيعة) وتوبة الله

---

(1) ينظر المستدرك على الصحيحين .كتاب التفسير.رقم الحديث (٣٢٧٣) تفسير سورة التوبة ٢/٣٦٠ .

(2) نظم الدرر ٣ /٢٥٥ . ولعل مقصود السورة هو إعلان وضع السيف حدا فاصلا بين المؤمنين والكافرين ،مع البراء من الكافرين ، والوعيد والنذير لكل كافر معاند و لكل مؤمن متخاذل .

(3) ينظر المستدرك على الصحيحين . كتاب التفسير . تفسير سورة التوبة .رقم الحديث (٣٢٧٤) ٢/٣٦١ .

عليهم،وهذا يمس جانبا من تحذير المؤمن المتخاذل عن الجهاد كما سبق ذكره .وفي اسم السورة كذلك إغراء بالتوبة والإقلاع عن الذنب،وهو خطاب للكافر المعاند داخل فيه المنافق.

وسميت سورة براءة ([1]) لإعلانها البراءة من الشرك و أهله،ونقضها عهود المشركين كما سبق بيانه،وهذا يعني رفع الأمان عنهم ،والإنذار بكل ما سيكون بعد هذه البراءة .

وسميت بالفاضحة([2]) لفضحها خبايا من اندس بين المسلمين من المنافقين،وتصنفيهم من الكفار،وفضحها خبايا بعض المسلمين الذين تخاذلوا عن نصرة الإسلام أو كادوا،وهذا الفضح يعني وضع الكافرين تحت وطأة السيف ،والفصل بينهم و بين المسلمين،أما فضح بعض المسلمين فهو للتعنيف و التأديب و التحذير والعظة والعبرة .

وسميت بالعذاب([3]) لكثرة المعاني الواردة فيه،فبراءة الله من المشركين تعني خروجهم من دائرة رحمته،وخروجهم هذا يعني استحقاقهم العذاب المذكور بلفظه أو لفظ غيره .
فهذه الأسماء وإن تعددت ؛إلا أن الملحوظ فيها سهولة ربط بعضها ببعض،وهذا يعني أن المعاني الواردة في السورة تعود إليها بشكل أو بآخر .

---

(١) ينظر المستدرك على الصحيحين . كتاب التفسير . تفسير سورة التوبة .رقم الحديث (٣٢٧٤) ٣٦١/٢ .
(٢) ينظر صحيح البخاري . كتاب التفسير ١٨٥٢/٤) رقم الحديث (٤٦٠٠) باب تفسير سورة الحشر .
(٣) ينظر المستدرك على الصحيحين . كتاب التفسير . تفسير سورة التوبة .رقم الحديث (٣٢٧٤) ٣٦١/٢ .

وجه ارتباط خاتمة السورة بمقصودها :

خاتمة سورة التوبة تبدأ — والله أعلم بأسرار كتابه— من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ . . . ﴾[1] التوبة(١٢٨ – ١٢٩) و ترتبط هذه الخاتمة بمقصود السورة من عدة وجوه :لما كان إعلان وضع السيف فاصلا بين المؤمن والكافر ضمن البراءة التي تفضي إلى عذاب الكافرين في الدنيا والآخرة؛جاء الختم بالرحمة التي سبقت العذاب،وهي إرسال الرسل المتلائمين في صفاتهم مع المرسل إليهم .

ولما كان إعلان القتال يحمل معنى التهديد والوعيد للكافرين ؛ختم السورة بالترهيب من الإعراض عما جاء به محمد ﷺ من الهدى،وأعلن تكفل الله بالعاصين المعاندين وهو رب الأرباب ،وهذا يعلي درجة الوعيد والتهديد من وجه،ويحمل معنى النصرة والكفاية من الله لرسوله ﷺ وللمؤمنين من وجه آخر .

ولما كان إعلان وضع السيف حدا فاصلا بين المؤمنين والكافرين هو مقصود السورة، ويعني الغلظة والشدة على الكافر فقط ،أما المؤمن فإن الرأفة الرحمة هما مناط التعامل معه،وكان خير من يمثل تلك الرأفة والرحمة القائد المصطفى ﷺ ؛جاء الختم بذكره امتنانا، وعلى ذلك فإن الإنسان ملزوم بإحسان اختيار موقعه في التعامل من الغلظة أو الرحمة .

ولما كان وضع السيف حدا فاصلا بين المؤمن و الكافر هو الأمر بقتال الكافر؛كان هذا القتال يحتاج إلى مقاتلين وعليهم اليقين بأن كل ما جاء عن النبي ﷺ هو من الوحي وكل ما سيأمرهم به هو خير لهم ؛لأنه منهم يشق عليه عنتهم ،يرفق بهم، ويحرص على

---

(١) ولعل من كلام السلف ما يشير إلى ذلك ،حيث قال زيد بن ثابت الأنصاري-رضي الله عنه- و كان يجمع القرآن:" حتى وجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة الأنصاري "و في رواية مع أبي خزيمة الأنصاري(صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن. رقم الحديث (٤٧٠١) باب جمع القرآن ١٩٠٧/٤ .)

هدايتهم، و يرحمهم فيجب عليهم الإذعان لأمره، والمضي قدما لإعلاء راية الإسلام ،فكل ما يأمرهم به خير لهم .

وبذلك يكون اسم السورة متضافرا مع خاتمتها للدلالة على مقصودها الأعظم .

*   *   *

الباب الثاني /

عـلاقـة خواتيم الطـوال المـدنـيـة بمـطـالـعــهـا

الفصل الأول:

أنواع المطالع في الطوال المدنية وحسن الانتقال إلى الموضوع

لما كان الابتداء نقطة انطلاق الكلام ومنه يُعرف مايتلوه من معان؛كان حريا بالإتقان والتجويد،ولذلك جوّد الشعراء مقدماتهم واهتموا بها اهتماما بالغا . ومقدمات الكلام ومطالعه تحتل مكانة عجيبة في نفس المتلقي؛لأنها مفتاح إلى ما بعدها،فإن اتصفت بالجودة والجزالة مع تضمّن معاني ما يتلوها من كلام كان أثرها بالغا حيث تطرب لها الآذان،وتهتز لها القلوب،ويتأكد معناها في النفوس .نقل أبو هلال العسكري عن مكان الابتداء من المعاني عن بعض الكتّاب قولهم:أحسنوا معاشر الكتاب الابتداءات فإنهن دلائل البيان،وسئل بعضهم عن أحذق الشعراء فقال:من يتفقد الابتداء والمقطع .(1)

والدلالة الوضعية للابتداء(2)تدل على الافتتاح. ودلالة المطالع(3)تدل على الظهور والبروز. وفي كلتا الدلالتين بيان أن الابتداء محل نظر وعناية .

ويعد افتتاح الخطاب القرآني بالبسملة في كل السور من حسن الابتداء؛لذلك نجده مهيمنا على سور القرآن،هذا الافتتاح يضفي الطمأنينة والراحة ويتعلق بما بعده من معان لذلك لم تفتتح (براءة)بالبسملة الباعثة على هذا الأمن والأمان .وتصدير القرآن بالبسملة ممايخدم مقاصد الشريعة لأن فيها من إثبات الألوهية.وإثبات الأسماء والصفات مالا يخفى ،وهذا يقتضي إثبات النبوة لمحمد ﷺ بطريق التبع .

وعمل البقاعي على تفسير البسملة في كل سورة بما يتصل بمقاصد السورة نفسها،وهو عمل يحسب له،و غير مسبوق –حسب علم الباحثة – وإن كان من الممكن أن ينظر إلى عمله هذا من وجه آخر يرمي به إلى التكلف .

كما يعد افتتاح سور القرآن بسورة الفاتحة من أحسن الابتداءات؛لأنها كما ورد في الحديث أم القرآن وفاتحة الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم (4)،ومنها تتناسل جميع معاني سور القرآن الكريم و إليها تعود كذلك .

---

(1) ينظر الصناعتين صـ ٣٤١– ٤٣٤ .

(2) ينظر مقاييس اللغة .مادة (بدأ) .

(3) ينظر السابق .مادة (طلع) .

(4) ينظر المستدرك على الصحيحين.كتاب التفسير .رقم الحديث (٣٠١٩) تفسير سورة الفاتحة . ٢٨٣/٢ .

ويعد الفراهي افتتاح القرآن بما نزل آخرا دون ما نزل أولا في ترتيب النزول من أحسن الابتداءات،وهو متناسب مع حال القارئ فقال:" أكثـر ما نـزلت من السـور أولا وضعت في آخر القرآن،حتى كان ترتيب وضع السور على عكس ترتيب نزولها،وذلك لأن القرآن للقراءة والدرس عند تمام النزول أقرب حالا بأوائل القرآن ...فلو قرؤوه على حسب ترتيب النزول بعدوا عما بين أيديهم ،وبدؤوا بأبعد ماكان عنهم ،وهذا يشبه بأن الرجل إذا رقي في سلم فلا يبدأ بأول الدرجات،فـهذا سير دوري ليس فيه انقطاع ،ويسهل فيه التنقل."(١) وهذا نظر في حكمة ترتيب الطوال المدنية الأربع قبل المكية وهو نظر لحال المخاطبين بهذا القرآن على مرّ الدهور و الأزمان .

ويعد الافتتاح بالحروف المقطعة من أحسن الابتداءات كذلك ،وهو من المتشابه الذي كثرت تفاسيره في كتب علوم القرآن،والكلام في تفسير هذه الأحرف على وجوه كثيرة (٢) ولكن المتفحّص لتلك التفسيرات يجد منها ماهو مقنع وما هو متكلف .وعلى الجملة يمكن ردّ آراء العلماء في شأنها إلى رأيين،الأول:اعتبار هذه الحـروف مما استـأثر الله بهـا في علمـه وهي سـر من أسـراره،ومن الـورع عـدم الخـوض في تفسيرهـا .والثاني:أن الـمراد منها معـان جليلـة عظيمـة غيـر أنها تحتاج إلى مزيد تفكر وعظيم تأمل .ولم تنزل هذه الأحرف المقطّعة في الكتب السماوية الأخرى؛ذلك" لأن كتاب كل وقت مطابق بحال الكون فيه،والكون كان بعد لم يكمل فكانت كتبه وصحفه بحسبه ولما كمل الكون في وقت سيدنا محمد كان كتابه كاملا جامعا فوجب ظهور هذه الجوامع فيه ليطابق الختم البدء ."(٣)

(١) دلائل النظام صـ٨٤-٨٥ .

(٢) ينظر جامع البيان ١/٨٦-٩٦ .ومثله في الكشاف ١/١٢٨-١٤١. ومثله في التفسير الكبير. ١/٤-١٢.و مثله في البرهان ١/٢١٣-٢٢٦ ومثله في الإتقان ١/٢٩٢-٢٩٥ . و جمعها و فصّل فيها تفصيلا مطولا حسين نصار في فواتح سور القرآن وقسم كتابه كله على قسمين :الفواتح الحرفية ،والفواتح اللفظية .ط١. ١٤٠٠٤هـ-٢٠٠٢م .مكتبة الخانجي -القاهرة .

(٣) قاله الحرالي في نظم الدرر ١ /٣٢ .

يقول الطبري بعد ذكره للآراء الواردة في تفسير هذه الحروف: "وفي تركه إبانة ذلك أنه مراد به من وجوه تأويله البعض دون البعض[1] أوضح الدليل على أنه مراد به جميع وجوهه التي هو لها محتمل ،إذ لم يكن مستحيلا في العقل وجه منها أن يكون من تأويله و معناه ،كما كان غير مستحيل اجتماع المعاني الكثيرة للكلمة الواحدة باللفظ الواحد في كلام واحد ."[2]
ولعل كلامه هذا يشتم منه تأييده للقول في التناسب —إضافة إلى تصريحه به في مواقع عدة— فمع كونه اجتهادا؛إلا أنه قائم إن لم يكن مستحيلا في العقل وجه منه .
فالمطلع رائد إلى مابعده،مؤثر في قبوله ،وإن كان متّقنا حمل السامع على الإصغاء إليه ،وتلمّس أطرافه ،و الالتفات إلى مابعده،وإن لم يكن كذلك؛كان موصدا عن سماع مابعده،مغلقا الباب دون التعلق به. وقد يحتوي المطلع على مفتتح ثم مقدمة ثم يُتخلص إلى الموضوع ،وقد يكون افتتاحا فقط،ثم تتوالى الموضوعات المبينة للمقصود الأعظم من السورة طويلة كانت أو قصيرة، وفي كل فإن مطالع السور لها جاذبية عظيمة ومقاصد عليا ،وهي تتصف في انتقالها إلى الغرض المراد بالحسن ،أو كما يسميه البعض (حسن الخروج أو الوسيلة)[3]،فليس فيها كلام معقود [4]مطوّل أو معمّى .

(١) ولعل الصواب أن كلمة (بعض)لا تقبل التعريف بأل .
(٢) جامع البيان في تفسير آي القرآن ٩٤/١ .وفي هذا دليل على أن الطبري يذهب إلى استقامة القول بأن المشترك يراد به معانيه في كلام واحد و سياق واحد .وهذا مذهب الشافعي ،و هو مذهب يترتب فيه مذهب آخر في علاقة المعاني المتنوعة بعضها ببعض من جهة ،وسياقها من أخرى،و في مستوى نفود سلطة القرينة الدلالية .ويتصاعد المذهب إلى القول باجتماع الحقيقة والمجاز في كلمة واحدة في كلام واحد وسياق واحد .وهذا يترتب عليه مذهب في علاقة المجاز بالحقيقة ،ومذهب في مدى حاجة الحقيقة للقرينة للدلالة عليها كمثل حاجة المجاز أيضا .
(٣) الخروج هو:الانتقال مما افتتح به الكلام إلى المقصود مع رعاية المناسبة (المطوّل.التفتازاني. ص٧٣٧).وفرق بين ماتتصف به سور القرآن الكريم من حسن الخروج أو الانتقال من غرض إلى آخر ،وبين مايتهمه به المستشرقون من الاقتضاب الذي هو قطع الناظم كلامه الذي هو فيه ،واستئناف كلام آخر غيره دون أن يكون للثاني علاقة بالأول.
(٤) المعقود من الكلام هو أنك تبتدئ مخاطبة ثم لا تنتهي إلى موضع التخلص مما عقدت عليه كلامك .(الصناعتين . صـ٤٤١).

وخصص ابن رشيق في عمدته بابا تحدث فيه عن الابتداءات والتخلص والختام سماه: (باب المبدأ، والخروج، والنهاية) استهله بقول لبعض الحذاق بصناعة الشعر يعلل فيه شهرته فيذكر من العناية بحسن الفواتح والخواتم ولطف الخروج إلى المديح والهجاء، و يعقب عليه ابن رشيق بقوله: "وقد صدق، لأن حسن الافتتاح داعية الانشراح ،ومطية النجاح ،ولطافة الخروج إلى المديح سبب ارتياح الممدوح ،وخاتمة الكلام أبقى في السمع ..."(1) . و هذا يعني أن العلماء قد تنبهوا إلى مواضع العناية في الكلام من الابتداء إلى التخلص إلى الانتهاء، وكلامهم هذا يشير إلى العلاقة التي تربط أول الكلام ووسطه وآخره بعضه ببعض، وهو مايسميه المتأخرون بالتماسك النصي .

وفواتح السور الطُوَل هي ماستتناول بالدرس ،وبإنعام النظر في مواقعها من السور ،مع بيان وظيفتها ،وإلقاء نظرة على سبل الخروج إلى الموضوع في كل سورة من سور القرآن الكريم.

---

(١) العمدة ٢١٧/١ .

أولا:

المطلع في سورة البقرة وحسن الانتقال إلى موضوع السورة

وظائف المعـاني في مطلـع سورة البقرة :

افتتحت سورة البقرة بحروفها المقطعة {الم} وهـذه الأحـرف سـاكنة الأعجـاز موقوفـة فتنطق (ألـف،لام،ميم)([1])،وهـي علـى الجملـة دالـة علـى الإعجـاز لهـذا القـرآن الكـريم، وتخصيص كل سـورة بحروف مقطعـة مخصوصـة له قصـد ضمني ليس فيـه صـدفة أو نـزوع إلى العبث . ولهذه الحروف شأن في إثارة الانتبـاه،وجذب الأسمـاع إليهـا تفطنـا إلى معناها، وإن لم تحصل معرفة معناها؛فإن المتلقي بسـماع مابعـدها قـد يصـل إلى معناهـا،وإن لم يكـن كذلك فإن جرسها الموسيقي قد هزّ أذنه،ولامس شغاف قلبه للإنصات .

وهناك مذهب في تأويل هذه الحروف يقوم على تأمل الخصائص الصوتية لهذه الحروف المقطعة في أدائها {أَلِفْ لَامْ مِيمْ} وعلاقة هذه الخصائص الصوتية بمضامين ومقاصد السور التي استفتحت بها،وهو مذهب جيد،وممن تزعمه السهيلي فكان يجعل الحروف المقطعة تتناسب مع كل معاني السورة ،فرأى أن معنى {المص }أشار بالميم لمحمد وبالصاد للصديـق وفيه إشارة لمصاحبة الصاد الميم،وأنها تابعة لها كمصاحبة الصديق لمحمد ومتابعته له. وزاد في الرعد {راء} لأجل قولـه: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ﴾ الرعـد (٢) لأجـل ذكـر الرعـد والبرق و غيرهما.([2]) ورأيه هذا يكوّن مـع رأي الفراهـي مماثلـة ومشـابهة مـن حيـث إقامـة القاعـدة فقـط ،أمـا التفسـير فمختلف،قـال الفراهـي في عقـد مقارنـة بـين سـورة البقـرة والأعراف: "أرى أن سورة الأعراف تتضمن بيانا لأمور أُجملت في سورة البقرة ،ولذلك سميت باسمها ،وزيدت فيها حرف الصاد،لما أن في أواخرها قصة موسى وقومه ."([3])

(١) بين الزمخشري سبب كونها أسماء لحروف المعجم وأنها من قبيل المعربة وأن سكون أعجازها عند الهجاء لأجل الوقف ،ووجه وقوعها على هذه الصورة فواتح للسور .(ينظر الكشاف ١/١٢٨-١٢٩)

(٢) البرهان في علوم القرآن ١/٢١٩ .

(٣) دلائل النظام صـ١٢١ .

ولاأعلم كيف ربط الشيخ حرف (الصاد) بقصة موسى، غير أني وجهتها وجهة آمل أن تكون هي مراده،وهي أن جذر (قص) ورد في سورة الأعراف أكثر من أي سورة في القرآن الكريم.([1]) وإذا صح هذا التفسير فيكون ما ذهب إليه الفراهي أكثر إقناعا مما ذهب إليه السهيلي . وتابعهم النورسي فأشار إلى ذلك بإيجاز شديد حين قال في كلامه عن {الم} البقرة :" إن الإعجاز قد تنفّس من أُفق {الم} لأن الإعجاز نور يتجلى من امتزاج لمعات لطائف البلاغة. وفي هذا المبحث لطائف كل منها وإن دقّ لكن الكل فجرٌ صادق... و منها :أن النصف المأخوذ أكثر استعمالاً من المتروك."([2]) وكلامه هذا يشير إلى أن المذكور من الحروف أكثر استعمالا في السورة نفسها من غيرها،وهو يصب في الصلة الوثيقة بين الحروف المقطعة ومضامين السورة نفسها،فهناك رحم وتقارب بينهما ،فهي ليست أجنبية عنها؛إنما هي نقطة انطلاق لكل سورة بما يتناسب مع ماورد فيها من مقاصد. وكل ماسبق ذكره من آراء الثلاثة نظر في تناسب الخصائص الصوتية مع مضامين السور .

وافتتاح السورة بالحروف الهجائية هو أحد الطرق المعجزة للقرآن الكريم ،وهو ماقال عنه الفراهي :"ولكن المتكلم الماهر ربما يصرّف في الكلام ما لم ينتظروه ،ويدخل على السامعين من باب جديد ."([3])

وفي مفتتح سورة البقرة يتراءى لنا مطلعها وهو في قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ثم تمتد بعد ذلك مقدمة لموضوع السورة حتى قوله تعالى: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ . . . . ﴾ أي أن المطلع مع المقدمة في عشرين آية .ولو تتبعنا قول القائلين بأن مطلع السور المفتتحة بأحرف التهجي يقع في حروفها المقطّعة فقط ؛لما بانت

(١) تنظر الآيات (٧-٣٥-١٠١-١٧٦)

(٢) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز. بديع الزمان سعيد النورسي .تحقيق :إحسان قاسم الصالحي ٤١/١ . ط٣ . ٢٠٠٢م. شركة سوزلر للنشر – القاهرة

(٣) دلائل النظام صـ٧٣.

أوجه التناسب بين المطالع والمقاصد، و بين المطالع وخواتيم السورة نفسها، وبين المطالع وخواتيم السورة التي تسبقها.

وولي مجيء الحروف المقطعة ذكر الكتاب؛ حيث تصف الآية القرآن الكريم بالكمال والتنزّه عن الريب، مع الإشارة إلى علو المرتبة وحسن الأثر؛ وساعد عليه تعريف الكتاب بـ(أ ل التعريف) التي تُعد من قرائن الربط في التركيب، والمنبّهة إلى المعنى المذكور لاحقا؛ حيث يجوز أن تكون للعهد الذهني فتقصد حينها إلى بيان المشار إليه لعدم مشاهدته فكأنه يقول: هذا الكتاب الذي تعرفونه. أو هي للجنس أي أن كل الكتب داخلة في جنسه فبلغ الغاية في الكمال، فكأنه يقول: هذا القرآن أكمل من أي كتاب .

وفي ائتلاف الكلام بعد أحرف الهجاء بالإشارة سواء قصدت إلى علو مكان الكتاب، أو إلى كون هذه الحروف معجزة قاطعة للأطماع ما يبين عن حسن موضعها، فلو كانت الإشارة إلى الحروف كانت ﴿الم﴾ خبرا لمبتدأ محذوف تقديره: (هذه) ويكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبرا ثانيا أو بدلا، و﴿الْكِتَابُ﴾ صفة، و لوكانت الإشارة إلى الكتاب كانت ﴿الٓمٓ﴾ مبتدأ و ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ ثانيا و﴿الْكِتَابُ﴾ خبره ،والجملة خبر المبتدأ الأول .(1)

تلك الأوجه تبين عن تعانق شديد بين قوله: ﴿الٓمٓ﴾ وقوله: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ وإن أدرنا النظر إلى قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ البقرة (٢)وجدنا ما يبين

---

(١) زاد الزمخشري وجوها أخرى فذكر ما لو عُدّت ﴿الٓمٓ﴾ اسما للسورة أو جُعلت بمنزلة الصوت، فإن كانت اسما كانت مبتدأ و ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ ثانيا و ﴿الْكِتَابُ﴾ خبره ،و الجملة خبر المبتدأ الأول، و هي نفس الصلة ما لو كانت الإشارة إلى الكتاب، و لو جُعلت ﴿الٓمٓ﴾ بمنزلة الصوت كان ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ خبره ﴿الْكِتَابُ﴾ أو ﴿الْكِتَابُ﴾ صفة و الخبر ما بعده، أو قُدِّر مبتدأ محذوفا . أي هو — يعني المؤلَّف من هذه الحروف — ذلك الكتاب .(بتصرف الكشاف ١ / ١٤٢ — ١٤٣) .

عن تأكيد بالغ لمعاني الإعجاز كلها؛فالجملة تامة (١)فإن كان قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ مبتدأ وخبرا و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ مبتدأ وخبرا ،و﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ خبرا لمبتدأ محذوف؛كانت الجملة الثانية مؤكدة لمعنى الأولى؛ لأن المعنى الكتاب العالي المنزلة؛الكامل في فحواه (٢) هو مظنة عدم الريب فيه،وهو تأكيد على تأكيد؛إذ الجملة بحد ذاتها مؤكدة بالقصر مع دلالة (أل التعريف)المفيدة معنى الاستغراق ،والإشارة بالبعيد لبعد المنزلة؛فكان مجيء الجملة الثانية أدخل في التأكيد وأوغل؛ولذلك تحقق ترك العطف بين الجملتين لكمال الاتصال .وبالنظر إلى قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فهي تأكيد للجملة الأولى؛لأن كماله وعلو منزلته مقتضٍ اتباعه المتسبب عن الهدى للمتقين .هذا التعانق بين الجمل هو ما قال عنه الزمخشري: "وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة،وموجب حسن النظم ؛حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق وذلك لمجيئها متآخية آخذا بعضها بعنق بعض ."(٣)
فالكتاب عين الهداية،فكأن الكتاب دليل مرشد يؤدي إلى طريق النور و الهداية ،ويتمكن هذا المعنى أكثر لو وُقف على كلمة ﴿لَا رَيْبَ﴾ لأن الظرفية تسهم في معنى تمكن الهداية

---

(١) على اعتبار ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ خبره ﴿الكتاب﴾ أو عُد ﴿الكتاب﴾ بدلا ويكون ﴿لا ريب فيه﴾ خبر اسم الإشارة أو حالا من ﴿الكتاب﴾ ويكون ﴿هدى﴾ خبرا ثالثا ويجوز أن يكون ﴿لا ريب فيه﴾ مبتدأ وخبرا،و﴿هدى﴾ خبرا لمبتدإ محذوف؛ينظر إعراب القرآن وبيانه.محي الدين بن أحمد درويش ١/٢٥-٢٦-٢٧.ط٤. ١٤١٥هـ.دار الإرشاد للشئون الجامعية — حمص/سورية .

(٢) لفظ (الكتاب) في هذا الموضع فيه إشادة بالقرآن الكريم إذ إن معنى الكتاب: "اسم لما كُتب مجموعا "(ينظر لسان العرب .ابن منظور.مادة (كتب) فهو الجامع الحاوي بين دفتيه ما لا يحويه كتاب آخر .
"وسُمي كتابا لما جُمع فيه من القصص و الأمر والنهي و الأمثال و الشرائع و المواعظ، أو لأنه جُمع فيه مقاصد الكتب المنزلة على سائر الأنبياء" (بصائر ذوي التمييز .الفيروز أبادي٤ /٣٢٩) .

(٣) الكشاف ١/١٤٩ .ومثل ذلك قول النورسي: " اعلم أنه لم يربط بين جمل {الم.. ذلك الكتاب.. لاريب فيه.. هدى للمتقين} بحلقات العطف ؛لشدة الاتصال والتعانق بينها، وأخذِ كلٍ بحجز سابقتها وذيل لاحقتها؛ فإن كل واحدة كما أنها دليلٌ لكلٍ بجهة؛ كذلك نتيجة لكلِ واحدة بجهة أخرى." (إشارات الإعجاز ١/٤٧ .)

منه . ومعنى قوله: ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ "أي: في شيء من معناه ولا نظمه في نفس الأمر عند من تحقق بالنظر، فالمنفي كونه متعلقا للريب ومظنة له،ولم يقدم الظرف لأنه كان يفيد الاختصاص،فيفهم أن غيره من الكتب محل الريب ."(1) وتلك براعة في الخطاب لأن هذا التركيب يسهم في تعزيز معنى أن القرآن الكريم مصدق لما بين يديه من الكتب،لأنه لو قدّم الظرف لكان هناك لمز للكتب الأخرى بالريبة فيها ،وهذا غير مقصود من امتداح الكتاب،فكان القرآن الكريم متميزا عن الكتب السابقة بدون أن يكون غيره فيه ريبة ،ولو كان المعنى أن غيره فيه ريبة لكان ذلك أولى بصدّ بعضهم عن سماع القرآن، وبعدم قبوله وهو غير مطلوب،ومخالف للمقصود ." فإن قلت:كيف نفى الريب على سبيل الاستغراق وكم مرتاب فيه ؟ قلت :ما نفى أن أحدا لا يرتاب فيه،و إنما المنفي كونه متعلقا للريب ومظنة له،لأنه من وضوح الدلالة و سطوع البرهان بحيث لا ينبغي لمرتاب أن يقع فيه."(2) وهذا تعريض ظاهر لكل مرتاب في القرآن الكريم بقلة عقله وذهاب لبه .

وقوله: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وصف لأثر القرآن الذي لا يقتصر على زمان أو مكان أو على مجال دون آخر أو جمع دون جمع، إنما هي هداية شاملة عامة لكل منتفع و لكل متق لعذاب الله؛و تلك دلالة الإتيان بالمصدر دون غيره،و دلالة التنكير كذلك،مع بيان المبالغة الحاصلة من تنكير لفظ {هدى} الدالة على تعظيم أثر القرآن الكريم و الإبلاغ في نعته. "ومعنى ذلك :أنه في الهداية بالغ درجة لا يدرك كنهها حتى كأنه هداية محضة ."(3)

وعد دراز جملة ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ من المفارقات العجيبة ؛إذ كيف لا يتبع هذا القرآن إلا المتقون،ثم يطمع الرسول ﷺ في إيمان الناس جميعا ،ولن يتبعه إلا المتقون؟!(4) لأن معنى

---

(1) نظم الدرر. ١/ ٣٣ .

(2) الكشاف . ١/١٤٥ .

(3) الإيضاح ٣ / ١٠٩ .

(4) النبأ العظيم صـ ١٦٥-١٦٦ .

الآية :" أن غير المتقين ليس هذا القرآن هدى لهم ."(1) وهذا المعنى يقصد إلى القول بالمجاز باعتبار مايؤول إليه.و فيه من الإيجاز لأنه يقصد هدى للذين ينتفعون بالكتاب فيصيرون إلى التقوى . وفيه كذلك تصوير الصائرين إلى التقوى باتباعهم الكتاب صورة الأتقياء حقا؛ترغيبا في اتباع الكتاب وترهيبا من عدم الاتباع .(2)

ولعل معمول قوله: ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ محذوف دلّ عليه ما في آخر سورة الفاتحة؛أي المتقين صراط المغضوب عليهم وصراط الضالين،وهذا ماأومأ إليه ابن عاشور حين حديثه عن المصدر﴿ هُدًى ﴾ فقال: فعله (هدى هديا) يتعدى إلى المفعول الثاني بإلى،وربما تعدى إليه بنفسه على طريقة الحذف المتوسع فيما تقدّم في قوله: ﴿ اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ "(3) ولعل هذا أنسب من معنى المتهيئين للتقوى؛لأن معنى المتقين في هذا الموضع هو المعنى الاصطلاحي للتقوى؛أي: أن تجعل بينك و بين الله و قاية،قال الطبري في ذلك:"وأولى التأويلات بقول الله– جل ثناؤه – : {هدى للمتقين }تأويل من وصف القوم بأنهم الذين اتقوا الله –تبارك وتعالى– في ركوب ما نهاهم عن ركوبه فتجنبوا معاصيه واتقوه فيما أمرهم به من فرائضه فأطاعوه بأدائها ."(4) وهذا يؤيد القول بالحذف المتوسع من جهة،وينبئ عن طريق آخر من طرق تناسل معاني سورة البقرة من سورة الفاتحة، واتصال خاتمة الفاتحة بمطلع البقرة من وجه آخر .

وتعد جملة: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وصلة جيدة للانتقال من الحديث عن وصف الكتاب إلى الحديث عن انقسام الناس في قبولهم لهذا الكتاب؛ولذلك كان من الأجود والأنسب أن

---

(1) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن .محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي .إشراف:بكر عبد الله أبو زيد ط.1 .1426هـ .دار عالم الفوائد .55/1

(2) أشار الزمخشري إلى ذلك في كشافه 148/1 .و عدّه ابن عاشور في تفسيره ضمن وجوه كيفية هداية القرآن وحال المتلقي له 226/1 . و صرّح به النورسي في إشارات إعجازه 48/1 . و كذلك قال به الدويش في إعرابه 25/1 .

(3) تفسير التحرير والتنوير .المجلد الأول 225/1 .

(4) جامع البيان 1/ 100 .

يبتدر الحديث عن المؤمنين الذين اهتدوا بالكتاب ؛بيانا لصفاتهم التي استحقوا التكريم والتشريف بها،فامتدحهم البيان القرآني في ثلاث آيات أبانت عن توافر العقيدة مع العمل جنبا إلى جنب على الدوام و إلى الختام،وذلك ما يقتضيه استخدام الأفعال المضارعة {يؤمنون – يقيمون – ينفقون– يوقنون } . وفيه بيان صدق عقيدتهم؛حيث تترجمها أفعالهم وعبادتهم، فذكر من صفات المتقين الإيمان بالغيب و إقامة الصلاة و الإنفاق من الرزق فخص الإيمان بالغيب بالبدء لأنه رأس كل إيمان . وخصّ من العبادة الصلاة والزكاة؛ لكونهما أول ما شرع من الإسلام،أو لكونهما من أركانه،أو " كما أن الصلاة عماد الدين وبها قوامه؛كذلك الزكاة قنطرة الإسلام وبها التعاون بين أهله."(1)وأشادت الآيات بإيمانهم بالكتاب والكتب السماوية السابقة،غير أنه ابتدر بالإشادة بالإيمان بالقرآن بقوله: ﴿ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ وفيه إشارة إلى أول الكلام الذي يبين عن فضل القرآن الكريم،ويلزم ممن آمن بالقرآن أن يصدّق بالكتب السماوية السابقة ؛لذلك ثنّى بذكرهم،وفي التصديق بكلٍ تصديق بالرسل جميعهم .

ثم أضاف البيان القرآني صفة أخرى؛ وهي الإيمان بالآخرة،وإنما خصّه بالذكر" لأنه ملاك التقوى والخشية التي جعلوا موصوفين بها،لأن هذه الأوصاف كلها جارية على ما أجمله الوصف بالمتقين؛فإن اليقين بدار الثواب والعقاب هو الذي يوجب الحذر،والفكرة فيما ينجي النفس من العقاب وينعمها بالثواب وذلك الذي ساقهم إلى الإيمان بالنبي ﷺ ."(2) وفي هذا القول ما يدل دلالة صريحة على شدة إيجاز قوله تعالى: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ مع إصابتها مفصل البلاغة في موقعها من الآية – على نطاق الآية– وفي موقعها من الافتتاحية – على نطاق السورة .

---

(1) إشارات الإعجاز ٥٣/١ .

(2) تفسير التحرير و التنوير .المجلد الأول ١/ ٢٣٩ .

وخُتم القول عن الفئة الأولى بذكر مآلهم فقال الحق – تبارك و تعالى –: ﴿ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ البقرة (٥)، واختلف في عود اسم الإشارة هل هو على فريق واحد أو على فريقين، فيكون: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ البقرة (٣) غير: ﴿ والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ البقرة (٤)، وأولى التأويلات عند الطبري بالصواب " أن {أولئك} إشارة إلى الفريقين –أعني المتقين والذين يؤمنون بما أنزل إليك – و تكون {أولئك} مرفوعة بالعائد من ذكرهم في قوله : {على هدى من ربهم}، وأن تكون { الذين} الثانية معطوفة على ما قبل من الكلام ... لأن الله – جل ثناؤه – نعت الفريقين بنعتهم المحمود، ثم أثنى عليهم فلم يكن عز وجل ليخص أحد الفريقين بالثناء مع تساويهما فيما استحقا به الثناء من الصفات، كما غير جائز في عدله أن يتساويا فيما يستحقان به الجزاء من الأعمال فيخص أحدهما بالجزاء دون الآخر، ويحرم الآخر جزاء عمله .فكذلك سبيل الثناء بالأعمال لأن الثناء أحد أقسام الجزاء، فنسب الهدى إليهم مرة أخرى."([1]) والهدى هُديان : هدى دلالة، وهو الذي تقدر عليه الرسل وأتباعهم، فأثبت لهم الهدى الذي معناه: الدلالة والدعوة والتنبيه. وتفرّد هو سبحانه بالهدى الذي معناه :التأييد والتوفيق.([2]) وعلى ذلك يكون معنى ﴿ هُدًى ﴾ الأولى الدلالة والرشاد، ويتصل برحم قوله تعالى: ﴿ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ ﴾ الفاتحة(٦)وهو يُعزز ما ذُكر سابقا من أن معنى المتقين هم المتقون صراط المغضوب عليهم وصراط الذين أنعمت عليهم .أما الهدى في قوله: ﴿ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ فهو بمعنى التوفيق والتأييد ؛فالثانية ثناء ومدح و يؤيده تعريف المسند إليه بالإشارة للتنبيه على أن المشار

---

(١) جامع البيان ١/١٠٧ .

(٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١/١٦٠ . و مثله في الكشاف ١/١٦٠ .

إليهم جديرون بما يرد بعده من وصفهم بالتمكن من الهدى([1]) في عاجل أمرهم ،والفلاح في آجل معادهم .وهذا يتساوق مع ما جاء في الخاتمة من الثناء على الرسول ﷺ والمؤمنين لفا ثم نشرا لفعل كل منهما – على اعتبار (الواو) عاطفة – وهو يؤيد ماجاء به الطبري من كون الآية نعتا لفريقين وليس لفريق واحد،وفي هذه الحالة يكون ماجاء في المطلع نشرا ثم لفا عكس ماكان في ختام السورة ،والذي دعا لهذا العكس أن المطلع جاء بالوصفين أولا ؛مايختص بمؤمني العرب وما يختص بمؤمني أهل الكتاب ثم لفهما في ثناء واحد من كونهم تمكنوا من الهدى و أفلحوا،وذلك جيد في بيان تآخي الأديان ،وتكميل بعضها لبعض. ولما كان المقام في الخاتمة مقام ثناء و إشادة لف ذكر المقصودين بالمدح ،ثم نشر عملهما بيانا لاستحقاقهم الثناء المذكور على وجه من السبق .وهذا من التقارب البياني بين مطلع السورة وخاتمتها .

ومجيء ذكر {الهدى } مرتين في مطلع السورة لغرض "التنبيه على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد على طرق شتى ؛و هي :ذكر اسم الإشارة و تكريره ،و تعريف المفلحين وتوسيط الفصل بينه و بين {أؤلئك}. "([2])

و لما انتهى الحديث عن الفئة الأولى؛كان أدعى أن تذكر الفئة المناظرة لها وهم الكفار،و فصل الحديث بينها وبين الفئة الأولى لشبه كمال الاتصال للاستئناف البياني([3])على تقدير سؤال أثارته جملة : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وهو: و هل هناك غير

---

(١) هذا التمكن على وجوه في البلاغة: إما أن يشبه تمسك المتقين بالهدى باعتلاء الراكب في التمكن والاستقرار فتكون استعارة تبعية في حرف الاستعلاء .أو أن يشبه الهدى بالمركوب الموصل للمقصود فيثبت له بعض لوازمه وهو الاعتلاء فتكون استعارة مكنية .أو أن يشبه هيئة مركبة من التقى والهدى وتمسكه به ثابتا مستقرا عليه بهيئة مركبة من الراكب والمركوب واعتلائه عليه متمكنا منه فتكون استعارة تمثيلية .

وفي كل الأحوال أفاد الاستعمال المجازي بيان تمكن المتقين من الهدى، وكأنه أصبح مطية يمتطونها للوصول إلى الفلاح في الآخرة.

(٢) الكشاف ١٦١/١ .

(٣) بيّن التفتازاني أن بين الجملتين تباينا في الغرض و الأسلوب لا مجال فيه للعاطف بينهما ،وأظهر وجه الفرق بين هذا الموضع و قوله : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ (ينظر المطوّل صـ٤٤٨) .

مهتـد بهـذا القـرآن و قـد سـطعت أنـواره و عظمـت آياتـه ؟أو كمـا قـال صـاحب الكشـاف: "ما بـال المـتقين مخصوصـين بـذلك؟"[1] فيكـون الجـواب :أن إعـراض الكفـار هـو سـبب عـدم هـدايتهم ،و هـو مـا ورد في قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ البقـرة (٦).و يؤيـد ذلـك قـول دراز: "هكـذا انتقـل الحـديث عـن المـؤمنين الـذين سـبقت لهـم الحسـنى إلى الكـافرين الـذين حقـت علـيهم كلمـة العـذاب؛ لا علـى وجـه اقـتران الحـديثين مـن أول الأمـر ،إذًا لعطف أحـدهما علـى الآخـر، بـل علـى وجـه يبنـى فيـه بعـض الكـلام علـى بعـض ."[2] و كـان ذكـر الكفـار في آيـتين اثنـتين،و كلتاهمـا ينبعـث منهـا معنـى التحقيـق و التأكيـد علـى عـدم هدايـة هـذه الطائفـة ؛لعـدم قبولهـا الحق؛ابتـداء مـن اسـتخدام (إن) مـع صـلة الموصـول والتسويـة بـين حـالتي الإنـذار وعـدمها،و الإخبـار بنفـي الإيمـان عـن قلـوبهم ثـم ببيـان سـبب اسـتواء الإنـذار و عدمـه لـديهم بـالختم [3]علـى القلـوب و الأسمـاع والأبصار،ثم التنويه بسوء المآل في الآخرة مع تضمين معنى استحقاقهم العذاب.

ثم التفتت الآيات إلى الصنف الثالث بعد أن حققت القول في الصنف الأول والثـاني،و همـا صنفان معروفان منذ العهد الأول للإسلام في مكة،و لما آل الأمر إلى المدينة كـان هنـاك صـنف ثالث من الناس لم يعهده المسلمون وهم المنافقون،ولـذلك فصّـلت الآيـات القـول فيهم؛فجـاء ذكـرهم في ثـلاث عشـرة آيـة متواصـلة،و إنمـا جـاء التطويـل في شـأنهم لبيـان حـالهم

---

(١) الكشاف ١/١٥٨ .

(٢) النبأ العظيم صـ١٦٦ .

(٣) أفعال الله لا تأويل فيها ولا تشبيه ولا تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل .و تناول السيد محمد السيد سلام الفروق الدقيقة بين دلالـة الفعلين :{ختم}و {طبع} في السياقات القرآنية و ما بينهما من عمـوم وخصـوص ،وعـرض ونـاقش الآراء في {الختم} المذكور في آية البقرة ،و وصل إلى القول بورود الحقيقة من معنى الختم لأن المعنى كما جاء عند القرطبي: " التغطية على الشيء والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء" (ينظر الختم و الطبع ودلالتهما البلاغية في القرآن الكريم صـ ١٥٩– ٢١١. بحوث ندوة الدراسات البلاغية . الواقع و المأمول ١٤٣٢ هـ . الرياض ..)فلا سبيل إلى القول بالمجاز في هذه الآية الذي قال به الزمخشري و من تابعه .

وصفاتهم؛حيث كانوا يظهرون الود للإسلام وللمسلمين ويبطنون العداء لهما، ففضح البيان القرآني نياتهم، وأعلن عن مكنون ضمائرهم ،فابتدر بقوله: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا . . . . ﴾البقرة (٨- ١٦)،فعدل عن التصريح بهم إلى التعريض؛تحقيرا لشأنهم، وغضا من قدرهم . وفيه بيان الدقة في أسلوب القرآن الكريم في الإخبار عن كل فئة بما يتلاءم مع عقيدتها ومنهجها ،فأقرّت الآيات عدم إيمانهم وإن ادّعوا ذلك، وهو بيان الجملة الاسمية المصدرة بالضمير{هم}وتسليط النفي على اسم الفاعل دون الفعل وزيادة (الباء) للتأكيد في قوله: ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾كما أقرّت كذلك سوء فكرهم وتدبيرهم حتى ظنوا أنهم ذوو قدرة على خداع الله والمؤمنين،ولم يكن ذلك الظن منهم إلا بسبب مرض يختلج أخلاقهم فيخرجها من الكمال إلى النقص ومن الرفعة إلى السفلة،ولذلك ردّ الله كيدهم في نحرهم وأعاد مضرة خداعهم على أنفسهم،وزاد أخلاقهم نقصانا وتوعدهم بالعذاب الأليم. ثم أثبت إفسادهم في الأرض وقصره عليهم بأبلغ بيان،فقال: ﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ. . . ﴾البقرة (١٢)،وأثبت تعالى سفاهة عقولهم وأحلامهم، وقصر السفاهة عليهم بنفس الطريقة التي قصر فيها الفساد؛حيث جاءت (ألا) الدالة على التنبيه إلى مايعقبها من خبر ،والدالة على الاهتمام به قرينة التأكيد بـ (إن) والقصر بالضمير (هم) مع تعريف (المفسدون — السفهاء) ثم الاستدراك لدفع ماأثبتوه لأنفسهم في شأن الإصلاح،وما أثبتوه للمؤمنين في شأن السفاهة،وماكان ذلك إلا لأنهم ابتدروا الاعتداء بالسب والشتم فاستوجب ذلك الرد عليهم توضيحا ونصرة وتأديبا .

ومع تزايد أحوال هؤلاء المنافقين وتزايد أمراض قلوبهم يتزايد الجزاء لهم حتى صار من جنس عملهم استهزاء بهم و إمهالا لهم في غيهم .

وأشارت الآيات إلى سوء حال المنافقين بقوله : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ البقرة (١٦)، وهو ختم مناظر للختم السابق عندما تحدثت الآيات عن الصنف الأول وهم المتقون بقوله: ﴿ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ البقرة (٥)، فعلّق حال كليهما بالهدى ؛ إلا أن الصنف الأول قد تمكن منه وامتطى صهوته وكان له النصيب الأوفر، والصنف الآخر تركه جانبا واستبدل به بالضلالة، فكان تعليق حال كليهما بالهدى من باب رد الأعجاز على الصدور .

ولمحمد دراز رأي وجيه في عود هذه الآية على فريق الكافرين و المنافقين معا ، وعليه سيكون المثلان بعدها الأول للكافر و الثاني للمنافق(١) ولعله الأليق بنظام الآيات لأنه لما أثنى تعالى على المؤمنين مع ماسبق ذكره من اللف والنشر في بيانه ؛ شنع على الكافرين دون بيان حالهم من الهدى فنشر فقط ، ولما ذكر المنافقين أتى بعد ذكرهم بما يبين عن حالهم من البعد عن الهدى، ووقوعهم في الضلالة فنشر ثم لف. فكيف يترك ذكر حال الكافرين من الضلال دون بيان، ودون اتساق بياني ؟! إلا لأنه لما كان الكافرون والمنافقون وجهين لعملة واحدة من الضلال والكفر؛ جمع بينهما في آية واحدة، فنشر الحديث عنهما ثم لفه في التشنيع عليهما، وهذا المعنى – أقصد الجمع بين المنافقين والكافرين – في الحكم وارد على نطاق السورة كلها ، مما يدعم الجمع بينهما من ابتداء السورة إلماحا.

ويجوز أن نقول: إنه تعالى كما جمع بين فريقي المؤمنين ببيان تمكنهم من الهدى في الدنيا والفلاح في الآخرة ؛ جمع بين فريقي الكافرين ببيان وقوعهم في الضلالة و ابتعادهم من الهدى، فقسّم ثم جمع ، و قسّم ثم جمع ، وحسن التقسيم والجمع لأنه استوفى أصناف الناس كلهم، ولذلك حسن موقع النداء للناس عامة بقوله تعالى بعدها: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ البقرة (٢١) .ويسوّغ

---

(١) ينظر رأيه كاملا مع تعليله في النبأ العظيم صـ١٦٨ .

الجمع بين الفريقين الأخيرين بيان أن الطرق وإن تعددت فالنتيجة إما لإيمان أو لكفر ولا ثالث —و الله أعلم بأسرار كتابه —

حسن الانتقال إلى موضوع سورة البقرة :

ذكر انقسام الناس إلى طوائف ثلاث من حيث قبولها للقرآن الكريم وما ينشأ عنه من الهدى و الضلالة في مقدمة السورة ؛هيّأ للانتقال المتدرج إلى موضوع السورة الذي يدعو فيه جميع الناس إلى عبادة الله وحده المستحق للعبادة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ* الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ البقرة (٢٠-٢١)، فشمل بالخطاب جميع الناس، وانتقل إلى موضوع السورة بهذا الشمول من جهة ،و بما يدعم ما جاء به من أمر بالغ الأهمية سيتلو هذا النداء الجامع من جهة أخرى؛وذلك بالاستدلال على توحيد الألوهية المطالب به بماعرفوه من توحيد الربوبية ، فثبت أنه تعالى المربي عباده بالنعم التي لا يُغفل عنها ظهورا ولا تُحصى عظمة ،وثبت البعث والنشور وإن صمّوا آذانهم عنه. (١)

و هو خطاب ظاهر فيه الرفق، حيث اُبتدر بما يدعو إلى الالتفاف حول المعبود بالنداء أولا، ثم بنسبتهم إليه تعالى ،ونسبة خلقهم و خلق من سبقهم كذلك، قال البقاعي عن تناسب موقع الآية بعد ذكر ما يبين عن سطوته تعالى في ترهيبه في آخر الآيات المتحدثة عن حال

---

(١) أشار الشنقيطي في هذه الآية إلى ثلاثة من براهين البعث بعد الموت؛الأول: الإيجاد و الخلق الأول في قوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فمن قدر على الخلق الأول قادر على الخلق الثاني.
الثاني: ذكر ما هو أعظم من خلق الإنسان، فمَنْ قدر على خلق الأعلى قادر على خلق مَنْ هو دونه .
الثالث: القياس، فالقادر على أن يبعث في الأرض الحياة بعد الموت قادر على أن يبعث في الناس الحياة بعد موتهم.
(ينظر أضواء البيان ١ / ٦٤- ٦٦ .)

الضلاّل: " و ما أحسن الأمر بالعبادة حال الاستدلال على استحقاقها بخلق الأولين والآخرين وما بعده ، عقب إثبات قدرة الداعي المشيرة إلى الترهيب من سطوته !ولقد بدع هذا الاستدلال على التفرد بالاستحقاق عقب أحوال من قرب أنهم في غاية الجحود بأمور مشاهدة يصل إليها كل عاقل بأول وهلة من دحو الأرض وما بعده؛مما به قوام بقائهم من السكن والرزق في سياق منبّه على النعمة،محذر من سلبها،دال على الإله بعد الدلالة بالأنفس ."(1) وبذلك يشير إلى حسن الانتقال من التمهيد إلى موضوع السورة و الولوج فيه بمايهيئ لمكان هذا المعنى من معاني السورة و مكانها من الأنفس كذلك .

وتتسم آيات مطلع السورة بحسن المسموع وذلك ما نلمسه من أصوات حروفها،فقوله تعالى: ﴿ الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ ﴾ جمع بين الهمس والجهر؛فالهمس في الكاف والتاء والهاء،والجهر في اللام والميم و الذال والباء والقاف.كما جمعت أصوات الحروف كذلك بين الشدة و الرخاوة ،و اشتملت على الأحرف الخفيفة على اللسان؛التي هي أكثر امتزاجا بغيرها مثل الفاء والباء والميم والراء والنون واللام .وامتزجت الحركات فيها بين الفتحة والضمة والكسرة دون تتابع إحداها؛مما كان له أثره في يسر النطق وجلاء العبارة.(2)

---

(1) نظم الدرر ١/٥٥-٥٦ .

(١) عزا أحمد أبو زيد مجيء قوله: {لا ريب فيه} بدلا من :لا شك فيه،إلى سبب صوتي فقال: " فهي أحسن من(لا شك فيه)لثقل الإدغام،و لهذا كثر ذكر الريب"(التناسب البياني في القرآن.دراسة في النظم المعنوي والصوتي صـ ٣٠٦ بدون .ط . بدون ت . منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط .) ولعل الصواب أن العلة الصوتية مجردة عن المعنى لاتقنع في القرآن الكريم؛لذلك فسبب العدول — و الله أعلم – في الدلالة الوضعية لمادة الكلمتين،وحاصلهما أن الريب شك في الشيء لا من حيث كونه،بل من جهة أن يتوهم بالشيء أمرا ما فينكشف عما يتوهمه،وهو ناتج عن قلة يقين .أما الشك فهو اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما ،فهو شك من حيث وجوده وهو ناتج عن الجهل بما يشك في تساويهما .(ينظر المفردات .مادتي (ريب– شكك)

وهذا يشير إلى أن القرآن الكريم لاشك فيه من قبل المخاطبين به، وإنما ارتابوا فيه من جهة معينة فلم يصدقوا به ومقتضاه انتفاء جهلهم به ،فكان التعبير ب{لا ريب} أنسب بالمعنى وأليق .

والقارئ لمطلع السورة يبرز له تقسيم و وقف حاصلان فيهما؛فنطق (ألم) ثم (ذلك الكتاب لا ريب فيه)ثم(هدى للمتقين) يُشعر بجمال النغم وجمال التوازن المتصاعد منها، فكل وقف يسبقه حرف مد-لين وقف على قوله:فيه-مع تقارب الفاصلتين (الميم و النون) من حيث الغنة، كما أن التنوين في قوله (هدى) يُشعر بنوع من التأكيد والقوة في الأداء. فرنين المطلع يتناسب مع مقام الإخبار من حيث توسطه بين الشدة واللين"،و الاعتدال مقصد من مقاصد العقلاء يميل إليه الطبع وتتشوق إليه النفس ."(١)

وكما جعل محمد دراز نظام الحديث عن الطوائف الثلاث قائما على ثلاثة عناصر هي:وصف الحقيقة،فبيان السبب فيها،فالإخبار عن نتيجتها المنتظرة(٢)؛فإن تلك الثلاثية يمكن وصف آية المطلع بها كذلك ؛لأن قوله: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ وصف للحقيقة الواقعة من كونه الكتاب الكامل في علومه المستغرق كل أفراد الكتب الأخرى.وقوله: ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ بيان سبب كونه على تلك الصفة التي لا يجهلها أحد.وقوله: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ إخبار عن نتيجة التمسك به من الدلالة و الرشاد .و هذا من حسن نظام الآيات في القرآن الكريم،مع ماسبق ذكره من توافق أسلوب اللف والنشر بين المطلع والخاتمة.(٣)

فالمطلع إخباري كما هو المقطع تماما؛فلما أخبر في المطلع بعلو شأن الكتاب و حسن أثره المقصور على المتقين؛أخبر في المقطع أن الرسول ﷺ والذين آمنوا معه من زمرة أولئك المتقين الذين ذكرهم في أول السورة،و على ذلك يلزمهم الهدى والفلاح الذي استحقه المتقون مشيرا إلى علو مكانهم ،ولما أخبر في الافتتاح ببيان صفات المتقين؛من الإيمان بما أُنزل إلى الرسول وماأُنزل إلى الرسل الأولين من قبل،ومن الإيمان باليوم الآخر،وعلى الجملة الإيمان بكل

---

(١) الطراز ١٣/٣.

(٢) النبأ العظيم صـ١٦٧ .

(٣) ينظر لتفصيل القول في التناسب البياني بين مطلع السورة وخاتمتها باب دلالات التراكيب (خاتمةسورة البقرة .)

الغيبيات، وهم على ذلك يجمعون إلى العقيدة الراسخة العمل ؛من صلاة وزكاة —فلما أخبر بكل ذلك أعلن في الختام عن تحقق تلك الصفات في الرسولﷺ والذين آمنوا معه ،فهم على إيمانهم يقع منهم الحذر والتقوى؛حيث يلهجون بالسمع مع الطاعة،ودوام الاستغفار،علما منهم بتحقق المصير إلى الله .

فكما أدى المطلع وظيفة إخبارية ؛أدى المقطع الوظيفة نفسها .وكانت الخاتمة كالمتممة للمقدمة .فجملة الافتتاحية تنبعث منها أصول الأغراض التي جرت في وسط السورة ودارت عليها مقاصدها لتعود في الختام و تسجل أبرز نتاجها .

*　　　　*　　　　*

ثانيا /

المطلع في سورة آل عمران وحسن الانتقال إلى موضوع السورة

وظائف المعـاني في مطلـع سورة آل عمران :

الابتداء بالحروف المقطعة له بهاء في المطلع([1])؛لأن المجيء بها يتضمن حِكَما جمـة،فقال تعـالى في أول آل عمـران: ﴿ الٓمٓ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ آل عمـران(١-٢) وكـان التعريف باللـه تعـالى في ابتـداء السـورة غـرّة في جبينها،فامتازت افتتـاحية المطلـع بالفخامـة والشرف و الهيبة،ونُبّه إلى التوحيد بقوة من خلال المطلع،من جهة أصوات الحروف المقطعـة التي تدل على العجز،ومن جهة افتتاح الآيات بعـد الحـروف المقطعـة بلفـظ الجلالـة {الله} فهو عَلَم على المعبـود بحق،وهـو خـاص بـالله دون غيره،ومـن جلالـه:أنـه لفـظ تتبعـه كـل النعوت.([2]) وقوله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لازم للتوحيد، ومفتاح للإسـلام ،كمـا أنـه يحـوي اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب،وإذا سُئل به أعطى .([3])

يقـول البقـاعي عـن سـبب تصديـر سـورة آل عمـران بالتوحيـد ماحاصلـه :أن فيـه إشـارة إلى أن الـوارث قـد دنـا زمـان إرثـه ،وأن الحـين الـذي يـتمحض فيـه تفـرد الواحـد قـد حـان ،ففـي ذكـر عيسـى – عليـه السـلام – في السـورة بيـان علـى أن الزيـادة قـد انتهـت،وأن الخلـق أخـذ في النقصـان،وأن العـالم قـد أشـرف علـى الـزوال فلـم يـأت بعـده إلا خـاتم الأنبيـاء المبعـوث في نفـس السـاعة .([4]) وتلـك هيبـة و جـلال للحـي الـذي لايمـوت يبينهـا البقـاعي ويربطهـا بمعـاني السـورة،و مـن وجـه آخـر يسـتدل بهـا علـى قـرب السـاعة . فـدلل الحـق –تبـارك و تعـالى– علـى صدق وحدانيتـه مـن ابتـداء

---

(١) ينظر تفصيل القول في الحروف المقطعة في تأصيل هذا الباب و علاقتها بخواتيم السور .

(٢) لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ الحشر (٢٣-٢٤) .

(٣) ينظر المستدرك على الصحيحين.كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر.رقم الحديث(١٨٦٥) ٦٨٥/١.

(٤) ينظر نظم الدرر ٢/ ١٠ .

السورة ،فلا يستحق العبادة من يموت و يبلى وعيسى-عليه السلام- قد مات،و لا يستحقها من يحتاج إلى غيره وعيسى-عليه السلام -مفتقر إلى ربه،فهي "جامعة لجميع وجوه الدلائل على بطلان قول النصارى في التثليث ."(١) ويعززه توالي صفتي الحياتية و القيومية مع ترك العطف بينهما؛حيث دلّ ذلك على اجتماعها في الله تعالى . وأهمية تصدير معنى الوحدانية بهاتين الصفتين تفسر من وجه آخر سبب كون{الحي القيوم} اسم الله الأعظم كما ذكرت بعض الروايات .(٢)

ولما تمّ التنزيه والتقديس للواحد،الأحد كمّل الخبر فقال: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ آل عمران (٣) وفي الإخبار الفعلي مزيد عناية بالخبر الملقى على الأسماع،وفيه إشمام معنى اختصاص الله دون غيره بالقيام بفعل تنزيل الكتاب الموسوم بكونه حقا و مصدقا؛مما يقوي شأن المحاجة،فالقرآن حق لا كذب فيه؛ لأنه مصدق لما في التوارة و الإنجيل،وأُبرز هذا المعنى بكناية ملائمة حيث قال: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ،فكنى عن صفة شدة القرب و التلازم ،والقرب المقصود قرب معنوي،وهو يعني تطابق المعاني وتآخيها وتوافقها بين القرآن الكريم وما سبقه من الكتب .وهذه الكناية تبلغ بالتصديق أعلى غاياته لإفادتها موافقة المعاني بين القرآن الكريم و الكتب الأخرى،وهذا يعني الأمر باتباع محمد ﷺ.

وأبان البيان القرآني في إجمال عن الهداية الحاصلة من التوراة و الإنجيل في قوله: ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ و في إجمالهما بالهداية دلالة على تساوي فضلهما فلا

(١) التفسير الكبير .المجلد الرابع ١٣٥/٧ .

(٢) عن عبد الله بن العلاء قال سمعت القاسم يحدث عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال :"إن اسم الله الأعظم في ثلاث سور من القرآن في سورة البقرة وآل عمران وطه ، قال القاسم : فالتمستها إنه الحي القيوم "(المستدرك على الصحيحين. كتاب الدعاء والتكبير و التهليل والتسبيح والذكر رقم الحديث(١٨٦١) ٦٤٨/١).

مندوحة لأحدهما على الآخر، و تنكير لفظ : ﴿ هُدًى ﴾ لشمول كل هدى، غير أنه احترس بقوله : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ للدلالة على الزمن الماضي، ومعنى تفرّد حصول الهداية بعد نزول القرآن للقرآن لا غير، فعطف بقوله: ﴿ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ و أشرك الإنزال والتنزيل في حكم واحد وذلك يقصد إلى إشراك الجملة الثانية مع الأولى للدلالة على أن فاعلهما واحد، وذلك يزيد الفاعل جلالا وقوة و ظهورا ، مع مايتضمنه المعنى من بيان أنه إذا كان منزل الكتب السماوية واحدا فلا غرو أنها تتناصر ولا تتناقض .

وللعلماء آراء في تفسيرهم للفرقان؛ فمنهم من رجّح كونه الفارق يفرق الله به بين الهدى والضلال مما بيّنه من الحجج والدلائل(1) ومنهم مَنْ قال بأن المقصود به القرآن الكريم(2) ومنهم من جعله وصفا لجنس الكتب السماوية كلها .(3)

قال ابن عاشور : "المراد بالفرقان هنا القرآن؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، وفي وصفه بذلك تفضيل لهديه على هدي التوراة والإنجيل، لأن التفرقة بين الحق والباطل أعظم أحوال الهدى؛ لما فيها من البرهان و إزالة الشبهة ."(4) وكلامه يُنبئ عن فوائد؛ فإن كان المقصود من وصف القرآن بالفرقان: التفرقة بين الحق والباطل؛ إعلاء لهديه على التوراة و الإنجيل فإن ذلك يتناسب مع تقديم الله – عز وجل – ذكر القرآن عليهما وإن كانا سابقي عهد، كما أن له موافقة مع الاحتراس في قوله: ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ لأن فيه إبانة عن فضل القرآن على غيره؛ لأن التوراة و الإنجيل قبل التحريف ذوا أصل جيد، لذلك كانا هدى، وبعد التحريف

(1) مثل الإمام الطبري وابن كثير وابن عاشور .

(2) مثل قتادة والربيع بن أنس .و ضعفه الطبري "لأن إخبار الله عن تنزيله القرآن التوراة والإنجيل في هذه الآية قد مضى بقوله: "نزّل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه "ولا شك أن ذلك الكتاب هو القرآن لا غيره فلا وجه في تكريره مرة أخرى إذ لا فائدة في تكريره ليست في ذكره إياه وخبره عنه ابتداء"(جامع البيان عن تأويل آي القرآن.٣/١٦٧)

(3) الزمخشري في الكشاف ٥٢٦/١ .

(4) تفسير التحرير والتنوير.المجلد الثاني ٣ / ١٥٠ .

جاء الفرقان وهو القرآن ليفصل بين ما اختلف الناس في أمرهما –و الله أعلم– وهذا المعنى يتآزر مع قوله تعالى في مطلع السورة: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ آل عمران (٢) لأنه جاء ليفصل فيما اختلف فيه الناس من أمر عيسى– عليه السلام–

ولما ذكر النظم الكريم الكتب السماوية ؛توعد الذين كفروا بالعذاب الشديد،وجاء به على سبيل التأكيد فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ آل عمران(٤) فشمل بتعبيره كفار اليهود والنصارى والعرب،وجاءت الفاصلة: ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ تؤكد أن تلك الشدة عالية لأنها معزوّة إلى عزة الله وانتقامه . ولما أعقب الحديث عن التوحيد بذكر العذاب الشديد و الانتقام العزيز؛بالغ في زجر الكافرين و تبكيتهم ،وعزز هذا الزجر مجيء لفظ الجلالة المفخم والإخبار عنه بوصف العزة والانتقام الدال على القدرة مع البطش .

ولما كان الكون أبرز دلائل التوحيد ؛أكد تعالى عزته ببيان قدرته من الإحاطة العلمية لجميع ما في الكون بذكر المتقابلين (السماء و الأرض)،فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ آل عمران(٥) وساق الخبر في قوة بسبب مجيء التأكيد(إن) ولفظ الجلالة (الله) ومجيء لفظ :(شيء) الدال على العموم،مع دخول النفي مرتين؛مرة على الفعل ومرة على السماء؛مما يؤكد على معنى شمول العلم و الإحاطة .

ولما كان هذا شأن المولى من الإحاطة العلمية ؛دلل على دقيق علمه،وعجيب صنعه؛بذكر تصوير الإنسان في رحم أمه على الصورة التي يريدها تعالى،فقال: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ آل عمران (٦) و فيه إشمام معنى خلق عيسى –عليه السلام– على الصفة التي يريدها تعالى دون أن يجري مجرى عادته من اتحاد الجنسين .ونبّه على التصوير في الأرحام خصوصا لدقة أمره مع خفائه،وفيه تبكيت للإنسان . وختم الآية بكلمة التوحيد يوسم بالتمكن في هذا المقام لأنه "لما

تضمنت إلاحة هذه الآية ما تضمنته من الإلباس والتكفير أظهر سبحانه كلمة الإخلاص ليظهر نورها أرجاس تلك الإلباسات وتلك التكفيرات ."(1) وفيه رد العجز على الصدر المفيد تأكيد معنى انتقاء أن يكون ثمة إله غير الله. والآية – في عمومها –دالة على مطلق القدرة؛ابتداء من الإشارة بالضمير إلى الفاعل مع الاسم الموصول لأنهما يدلان على التفخيم،ثم باستخدام الكيفية المطلقة ﴿ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ ثم بحصول القصر بالنفي والاستثناء،وهو من أقوى الطرق التي يقصد فيها المدح والثناء،مع الختم بالعزة و الغلبة والحكمة . والآية تمهيد لذكر عيسى– عليه السلام –

ولما أجمل في مطلع السورة ذكر تنزيل الكتاب ؛فصّل في أمر المنـزّل من المحكم والمتشابه من الآيات،فقال: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ. . . ﴾ آل عمران (٧) واستعار الأم للآيات المحكمات التي تتناسل منها المتشابهات،و فيه بيان أن المرجع و المآب عند انغلاق الفهم في المتشابه للآيات المحكمات . وعبّر عن الجمع بالمفرد فقال: ﴿ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ لأنه"لما كان الإحكام في غاية البيان فكان في تكامله ورد بعض معانيه إلى بعض كالشيء الواحد،وكان رد المتشابه إليه في غاية السهولة ؛لمن رسخ إيمانه وصح قصده واتسع علمه ليصير الكل شيئا واحدا أخبر عن الجمع بالمفرد ."(2) ففي التعبير بالمفرد كذلك رجوع لأصل واحد وأمر جامع و هو المراد .

وفصّل البيان القرآني القول في النوع الثاني وهو المتشابه من الآيات لأنه مما يُشكل،وأبان أن حال الناس معه فريقان:فريق زائغ قلبه يتبّع ما تشابه لابتغاء الفتنة،وفريق يؤمن بالمتشابه كما جاء من عند ربه،وامتدح البيان القرآني الفريق الأخير بوسمه برسوخ القدم وعدم الزلل

(١) قاله الحرالي في نظم الدرر٢/١٤ .

(٢) نظم الدرر ٢/ ١٥ .

على سبيل الاستعارة ؛ترغيبا في الإيمان بآيات الله بنوعيها على السواء.وحسن مقام التقسيم في هذه الآية لأنه تناول جميع أقسام الآيات وفئات الناس في تقبّلها، وفيه بيان تمحيص العباد بالابتلاء،ولذلك قال : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ فـ (واو) الراسخون إن عاطفة أو استئنافية تبين عن مكان الراسخين في العلم من التوحيد وهو مايبرز من قوله : ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾

وكان الختم بالقصر لإفادة معنى حصر العظة على فئة مخصوصة ؛هي المتاملة المتفكرة فقال: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ "واتصال الآية بما قبلها من حيث إنها في تصوير الروح بالعلم وتربيته،وما قبلها في تصوير الجسد وتسويته ." (1) وهذه علاقة قائمة على التناظر بين معنيي الروح والجسد من جهة وعلى التماثل من جهة أن الإصلاح قائم فيهما على السواء . ولعل مجيء هذه الآية بعد آية التصوير فيه كذلك إشارة إلى أن ما كان من الاختلاف في أمر عيسى- عليه السلام- من خلق بدون اتحاد الذكر و الأنثى على ماهو محل العادة؛شأنه شأن المتشابه الذي قد يلتبس على زائغي القلوب و ضعاف الإيمان،فكان هذا التشابه في الأفعال كما كان ذلك تشابها في الأقوال كما عبّر عنه الإمام البقاعي.(2) وهو تناظر بين المعنيين من جهة التقابل بين الأفعال والأقوال .وتماثل من جهة حصول اللبس عند زائغي القلوب .

ولما قال: ﴿ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ . . . ﴾آل عمران (8) علم المؤمنين الدعاء بماينفعهم ويثبتهم ،وفيه إيماء إلى إشعارهم بفضل الله عليهم،وفي الآية إشعار آخر؛هو :" أن أهل الكتاب لمّا قالوا ما قالوه،قد زاغوا بعد أن كانوا مؤمنين ."(3)

(1) تفسير البيضاوي 1/ 149-150 .

(2) نظم الدرر 16/2 .

(3) نمو المعاني صـ 16 .

ولما دعوا بما يثبتهم في الدنيا ليصلوا به إلى بغياهم في الآخرة علّمهم أن يقولوا قوله: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ آل عمران (٩) فبهذا الدعاء "نُبهوا به على أن معظم غرضهم من الطلبتين مايتعلق بالآخرة فإنها المقصد و المآل ."(١) وفيه إقرار من المؤمنين بيوم الحساب "ومقصودهم بهذا عرض كامل افتقارهم إلى الرحمة وأنها المقصد الأسنى. "(٢)

وعقب النظم الكريم الآية بتأكيد جلال الله وتنزيهه عن خلف الميعاد،وساعد عليه مجيء (إن) مع إظهار لفظ الجلالة (الله)، وسمّاه ميعادا لأنه يوم يلقى فيه كل من المؤمن والكافر ماوُعد به،وكان للالتفات من التكلم إلى الغيبة أثر في إثارة الانتباه إلى ذلك الجلال وتلك العزة. ثم إن الله تعالى لما علّم عباده الدعاء بالثبات على الهداية،ومنح الرحمة؛دلّ على قدرته واستغنائه وعزته؛لأنه قادر على منحهم الثبات والرحمة،مستغن عنهم وهم محتاجون إليه،يهبهم العزة وهم متذللون إليه .

حسن الانتقال إلى موضوع سورة آل عمران :

لما كان موضوع السورة يقصد إلى ترسيخ التوحيد ،و كانت هذه السورة هي سورة التوحيد " كان الأليق بخطابها أن يكون الدعاء فيه إلى الزهد أتم من الدعاء في غيرها،و الإشارة فيه إلى ذلك أكثر من الإشارة في غيره،فكانت هذه الآية قاطعة للقلوب النيّرة بما أشارت إليه من فتنة الأموال والأولاد الموجبة للهلاك ."(٣)فقال تعالى منتقلا إلى موضوع السورة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئاً وَأُولَـئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ *

(١) تفسير البيضاوي ١/١٥٠ .

(٢) تفسير أبي السعود ١/٣٣٨ .

(٣) نظم الدرر ٢/٢٨ .

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ * قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى . . . ﴾آل عمران (١٠ – ١١ – ١٢)

ولما كان موضوع السورة يقصد إلى التوحيد كان ذكر الكفار وتضمين شيء من صفاتهم وتوعدهم أصلا في موضوع السورة فانتقل إليه ،و أكد النظم الكريم خلود الكفار في العذاب ،و عدم انتفاعهم بالمال والولد في درء العذاب بإدخال النفي مرتين ، مرة على الفعل ،و مرة على الاسم ، مع تأكيد كونهم وقود النار الحاصل من الإشارة بالضمير المنفصل (هم). و رمز إلى حالهم في الدنيا من التنعم بالمال و الأولاد .

و لما أوعد تعالى الكافرين ؛ دلل على صدق وعيده بذكر أحوال الأمم السابقة الطاغية .ولما كان رابط العزة هو الحكمة أبان عن سبب استحقاقهم العذاب بقوله: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا . . . ﴾آل عمران(١١) فدلل المولى في الآية على عزته من ناحيتين ؛القدرة على تعذيب الكفار من جهة ،وإذلالهم من جهة ثانية. وخصّ (آل فرعون) وعمم ذكر الباقين بقوله : ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾لأن "هلكهم معلوم عند أهل الكتاب بخلاف هلك عاد وثمود فهو عند العرب أشهر، و لأن تحدي موسى إياهم كان بآيات عظيمة فما أغنتهم شيئا تجاه ضلالهم ،ولأنهم كانوا أقرب الأمم عهدا بزمان النبي ﷺ ."(١)

فأقام الخطاب القرآني بالتشبيه التذكير بأن حال الكفار بالله كحال آل فرعون ومن قبلهم ؛من التكذيب و الاستكبار ،ولما كان حالهم واحدا لزم أن يكون مآلهم واحدا ؛من الأخذ بالذنب وشدة العقاب ،ولن يكون هناك إغناء لهم عن عذابه تعالى لا بمال ولا ولد.

وعلوا في وعيد الكفار أظهر الله قهره و غلبته لهم في الوقت القريب . وكما أبان لهم خسرانهم عن طريق ذكر السابقين ممن يشبهونهم في أعمالهم ؛أبان خسرانهم عن طريق اللاحق بهم من الأمور . وفيه بيان الإحاطة العلمية و القدرة الإلهية التي لو فكروا فيها لما

---

(١) تفسير التحرير و التنوير.المجلد الثاني ١٧٤/٣ .

ظـل بيـنهم كافر، فقـال : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ آل عمـران(١٢)قـال الحرالـي عـن خطـاب الله لرسـوله ﷺ في هـذه السـورة بكلمـة {قل}الذي يصح أن يكون خطابا لكل من يصح خطابه : " لعلو منزل هذه السورة كثر الإقبال فيها بالخطاب على النبي ﷺ،وجعل القائل لما كانت المجاورة معه ،لأن منزل القرآن ما كان منه لإصلاح مابين الخلق و ربهم يجيء الخطاب فيه من الله سبحانه وتعالى إلـيهم مواجهـة حتى ينتهي إلى الإعراض عند إباء من يأبى منهم ،وما كان لإصلاح مـا بـين الأمـة ونبيهـا يجري الله الخطاب فيه على لسـانه مـن حيـث تـوجههم بالمجـاورة إليـه ،فإذا قـالوا قـولا يقصدونه به قال الله عزوجل قل لهم ،ولكون القرآن متلوّا ثبت فيه كلمة (قـل)."(١) ولـذلك حسن الخطاب للنبي ﷺ بكلمة : {قل} بعد وقوع التسلية له بذكر شأن الأقوام مع أنبيائهم وخطاب الله لنبيه ﷺ بكلمة {قل} فيما بينه وبين الناس يصب في معنى الفخامة والجلال والهيبة لله تعالى .

ودلّ النظم الكريم على سرعة غلب الكفار بالتعبير بـ(السين) في الفعل﴿ سَتُغْلَبُونَ ﴾ وعطـف عليه قـوله : ﴿ وتُحْشَرُونَ ﴾ فشمل ذل الدنيـا والآخـرة،وخصّ جهنـم بالـذم؛فنــهى عــن اتخـاذهــا مهــادا علـى سبيــل الاستعــارة ؛للتنفيــر مـن سلــك الطــرق الموصلـــة إلى جهنم،والترهيب مما يمكن أن يعد للكفار من العذاب وهوانه على الله.

(١) نظم الدرر ٥٢/٢ .

وتناصرت الأصوات في مطلع سورة آل عمران للدلالة على كثرة المعاني،فكانت المقاطع الممدودة ذات أثر في وفرة المعاني فقال: (الم–الله–لا– إله – القيوم– الكتاب–مصدقا– لما– يديه–التوراة – الإنجيل–الناس– الأرحام–يشاء) وغيرها كثير؛ذلك أن النطق بالمد يحتاج إلى نفس طويل يشير إلى وفرة تلك المعاني وعدم انقطاعها.

كما أن أصوات كلمة{الله} تتماثل أحرفها،فدلت على فخامة في النطق حيث يمتلئ تجويف الفم بالهواء ثم ينفجر بالخروج فيبين عن ضخامة و فخامة في الاسم المنطوق .

و للفعل (نزّل – أنزل) نصيب في بيان تلك العزة والقدرة لاختصاصهما بالله دون غيره،و فيه بيان عظمة المنَزَّل والمنْزَل إليه لعظمة المنَزِّل،و قد ورد ذكرها أربع مرات،مرة بصيغة التضعيف (فَعَّل) و ثلاثا بصيغة أفعل ؛ذلك أن صيغة التضعيف تشير إلى تفصيل حصول الشيء مرة بعد مرة مع تعظيمه و تكثيره،والقرآن الكريم نزل منجما و لم ينزل دفعة واحدة كما أنه أعظم من التوارة و الإنجيل فناسبه المجيء بما يدل على عظمته .

ومطلع سورة آل عمران ذو وظيفة إخبارية علنية ،و هو يتسم بالقوة والصراحة مع الصدارة،فكان أول ما يطالعنا بعد الأحرف المقطعة قول الحق: ﴿اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ فلما أخبر تعالى بمكانه من الكون بأكمله؛أي أنه السيد فيه والملك ،وأنه الحي الذي لا يموت أبدا و القيوم بنفسه و بغيره،و هو صاحب القدرة المتجلية في أعظم صنعه من إنزال الكتب،و الانتقام من الكافرين و الإحاطة العلمية بكل ما يجري في الكون،و التصوير في الأرحام،وإنزال المحكم و المتشابه،وأن كل تلك الأعمال العظيمة كانت محل تقدير من عباده المؤمنين ؛بدليل اعترافهم بالإيمان بما عنده تعالى دون جدال – لما أخبر بكل ذلك في مطلع السورة؛جاء في ختام السورة ليؤكد عن طريق الإخبار أيضا وسائل معرفة الله حق المعرفة من الاستدلال بالشاهد من خلقه عليه تعالى في قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي

الأَلْبَابِ﴾آل عمران (١٩٠) فإن لم يكن للإنسان إدراك لمعنى الحياة و القيومية و إنزال الكتب و الإحاطة العلمية و التصوير في الأرحام و بيان المحكم و المتشابه ؛فليكن عنده بصر و بصيرة بأقرب القريب ؛بالسماوات والأرض و خلْقهن،و هي كافية للإشعار بوحدانية الله ؛لأن خلقها على حال من النظام والتناسق والإحكام و عدم الخلل على مرّ الأزمان؛ بيان على عظيم صانعها بل ووحدانيته ،ولن يدرك ذلك إلا أولو الألباب كما ذكر تعالى في أول السورة . ولأسلوب التأكيد في مطلع السورة وخاتمتها أثر في بيان المعاني وتلاؤمها واعتناقها.([1])

ومطلع السورة مهّد للقضايا التي ناقشتها السورة فتناسلت منه المعاني بالتفصيل والإشباع . وكان أبرزها إثبات استحقاق الله تعالى للتوحيد بالأدلة العقلية ،وإثبات الفضيلة للمتفكرين وذم غيرهم ،وتعليم الدعاء المثبت على الحق دفعا للزيغ بعد الضلال .

*　　　*　　　*

(١) ينظر لتفصيل القول في انعطاف أساليب البيان في خاتمة السورة على مطلعها في باب دلالات التراكيب(خاتمة سورة آل عمران .)

ثالثا /

المطلع في سورة النساء وحسن الانتقال إلى موضوع السورة

وظائف المعاني في مطلع سورة النساء :

سورة النساء لها مطلع مختلف عن سابقتيها (البقرة – آل عمران) ذواتي المطلع الإخباري والأحرف المقطعة، حيث تميزت بمطلعها الإنشائي المتجسد في النداء بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ النساء(١) وذلك يدل على تنوع أساليب الخطاب الرباني في القرآن الكريم .

وبدء السورة بالنداء عامة لا يشكك في مدنيتها لقول عائشة –رضي الله عنها– :" ما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده ."([١]) فإذا كان ما بعد النداء بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أمرا يتعلق بالعقيدة فالمنادى عام، وإن كان أمرا يتعلق بالشريعة فالمنادى خاص .والعموم والخصوص ليسا ضابطا لمكية الآية أو مدنيتها .([٢])

وللابتداء بالنداء بـ (ياء) فوائد منها: تنبيه المخاطب إلى أمر ذي بال سيتلوه، فهو ذو وظيفة تنبيهية تأثيرية يوقظ من الغفلة، ويدق على وتر الإحساس والأهم من ذلك دلالته على "طلب الإقبال لزوما. "([٣]) وكل ذلك حتى يقع الكلام المنطوق به بعد النداء موقعا متمكنا من القلب، و يساعد عليه الامتداد الصوتي في قوله: { يا} ثم في {هاء التنبيه }ثم في قوله: ﴿النَّاسُ﴾ ودخول {يا} على الاسم بواسطة {أي}([٤]) يبين عن خطب المنادى له

(١) صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن رقم الحديث (٤٧٠٧) باب تأليف القرآن ١٩١٠/٤ .

(٢) فصّل الرازي القول في الخصوص والعموم بما يبين عن هذا الموضوع .المجلد الخامس ١٢٨/٩ .

(٣) المطول صـ٤٣١ .وينظر حاشية بغية الإيضاح ٥١/٢ . و علم المعاني بسيوني فيود صـ١١٤ .

(٤) وأداة النداء(يا) لا تدخل على الاسم المعرّف مباشرة وإنما تحتاج إلى واسطة بينها وبين الاسم وهي (أي) وهذه المسألة خلافية فقد ذكر عبد السلام هارون: إن (يا) تدخل على المعرّف في أربعة مواضع :لفظ الجلالة، الجملة المحكية ،اسم الجنس المشبّه به، والضرورة الشعرية (ينظر الأساليب الإنشائية في النحو العربي عبد السلام هارون صـ١٣٩–١٤٠. ط٥. ١٤١٢هـ – ٢٠٠١م . الناشر المكتبة الخانجي – القاهرة) .

ولعل توجيه النداء إلى الناس يقصد إلى عموم المبعوث إليهم النبي ﷺ(١)، ويدل على ذلك استخدام مادة: (نوس) لأنها تدل على اضطراب و تذبذب (٢) فينبئ هذا النداء عن صفة تلازم بني البشر عامة دون اختصاص، فهم في اضطراب دائم بين الخير و الشر وفي حركة دؤوب، لذلك وُجهوا إلى الخير بالأمر باتقاء المولى مرتين، و يساعد على ترجيح معنى العموم إتيان حرف (الياء)لنداء الناس ،فهي كما تسمى أم باب النداء(٣) لأنها تستعمل في كل وجوهه من القريب والبعيد والغافل والمقبل ،وللاستغاثة والتعجب ،وفي الخالص والمشوب بالندبة .

ولما كان النداء مصاحبا للأمر أو النهي غالبا، جاء الأمر في هذه الآية باتقاء الله المنعم على الناس بالربوبية، فلما كان المقام مقام إنعام وتفضل من الخلق و الإيجاد من العدم وإيجاد القرين والشريك، والتنعم بالتكاثر قال: ﴿ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ فرّغب في اتقائه واتباع أوامره واجتناب نواهيه.

ونعمة الخلق هي أول النعم، فقال: ﴿ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ النساء(١) وذكر التقوى وتعقّيبها بذكر الخلق من نفس واحدة "مشعر بأن الأمر بالتقوى معلل بأنه تعالى خلقنا من نفس واحدة ."(٤) وهذا الكلام يستقى من التعريف بالاسم الموصول لأن في التعريف به

---

(١) أشار إلى هذا المعنى الزمخشري حين فسّر قوله تعالى :(يا أيها الناس) أي :يا بني آدم.(الكشاف ٢/٥ . ومثله في التفسير الكبير ١٢٨/٩ . ومثله في تفسير البحر المحيط ١٦٢/٣ .ومثله في تفسير أبي السعود ٩١/٢ .)

(٢) "النون والواو والسين واحدها وجمعها أصل يدل على اضطراب وتذبذُب، وناس الشيءُ تَذَبْذبَ ،يَنُوس"(مقاييس اللغة مادة (نوس) والنوس : تذبذب الشيء ، ناس الشيء ينوس نوسا ونوسانا : تحرك وتذبذب متدليا (لسان العرب.مادة (نوس) .

(٣) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع .الإمام جلال الدين السيوطي. بدون ت. بدون دار ١٨/٢ .و مثله في الأساليب الإنشائية في النحو العربي عبد السلام هارون صـ١٣٧ .ومثله في أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين.قيس إسماعيل الأوسي صـ ٢٢٢. بدون ط ١٩٨٨. المكتبة الوطنية — بغداد .

(٤) التفسير الكبير.المجلد الخامس . ١٢٩/٩- ١٣٠) .

إيماء إلى وجه بناء الخبر. (1) أي: اتقوا ربكم لأنه مستحق للخشية والاتقاء بإنعامه على العباد بالخلق و الإيجاد . والمناسبة بين حكم الأمر بالتقوى ووصف الخلق من نفس واحدة وطيدة جدا، فالقول إن الله تعالى خلقنا من نفس واحدة مشتمل على قيدين: أحدهما: أنه تعالى خلقنا، فالخلق علة للتكليف .وبيانه من وجوه، الأول: أن العبودية توجب الانقياد. والثاني: أن الإيجاد غاية الإنعام .الثالث: لما ثبت أنه تعالى موجد ورب وخالق وجبت عبوديته ثوابا.

أما القيد الثاني فهو: كيفية ذلك التخليق .وبيانه من وجوه ،الأول: أن خلق جميع الأشخاص الإنسانية من الإنسان الواحد أدل على كمال القدرة . الثاني: أن خلقهم من نفس واحدة سبب لزيادة شفقة الخلق بعضهم ببعض . الثالث: أنه أدعى لترك المفاخرة و الكِبْر . الرابع: أن فيه دلالة على المعاد .الخامس :أنه إعجاز لأنه إخبار عن غيب .(2)

ولما كان تعالى متفردا بالخلق ،وهو التقدير على غير مثال(3)؛وفيه بيان قدرة ؛تأكدت تلك العظمة أن كان الخلق من نفس واحدة التي هي نفس آدم — عليه السلام- لأنه أدل على كمال القدرة كما ذكر الرازي .

ثم قال: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ يعني حواء(4)وإنما قال: (زوجها) بيانا لحاجة كل منهما

(1) الإيضاح ١٦/٢ . ومثله في المطول ٢٢٠/١ . و مثله في بغية الإيضاح ٦٦/١ . و علم المعاني .بسيوني فيّود ١٠٥/١ .

(2) ينظر التفسير الكبير .المجلد الخامس . ١٢٩/٩- ١٣٠ .

(3) مقاييس اللغة.مادة (خلق) .

(4) ينظر جامع البيان ٢٢٣/٤. وينظر مفاتيح الغيب ١٣١/٩. وينظر نظم الدرر ٢/ ٢٠٦ . واختلف العلماء في شأن (من) للتبعيض أو لبيان الجنس أو الابتداء ؟ و الجمهور على أنها للتبعيض استنادا إلى حديث :خلق المرأة من ضلع آدم- عليه السلام – و يعززه قول الطاهر ابن عاشور :" ومَنْ قال إنها لبيان الجنس لم يأت بطائل" (تفسير التحرير والتنوير٢١٥/٤)

للآخر لأن الزوج " يقال لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى ."(1) وساعد على ذلك إضافة الهاء العائدة على تلك النفس .واتسع فضل الله لأنه فرّق ونشر من النفس الواحدة وزوجها رجالا كثيرا ونساء وهذا من صحة التقسيم .

وفي تقييد الرجال بالكثرة دون النساء مع العلم أن النساء أكثر أقوال منها: أن أمر الكثرة يتوقف على الاشتهار والشهرة، وهو للرجل، وأمر المرأة محمول على الستر والتكتم. (2) ومنها أن الخطاب القرآني استغنى عن الإعادة فحذف، والتقدير: ونساء كثيرات(3) وبه يشيرون إلى إيجاز الحذف، أو " لأن الحكمة تقتضي أن يكنّ أكثر، إذ للرجل أن يزيد في عصمته على واحدة بخلاف المرأة . "(4)

وقُدّم ذكر الرجال على النساء بيانا للفضل و المنة التي سيذكرها فيما بعد في قوله : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ . . . ﴾ النساء (34)

وكأنه يدخل في باب الأرصاد على مستوى أوسع من الفقرة، وهو مستوى المعقد .

ثم جاء الأمر بالتقوى، ولكنه هذه المرة قيده بالألوهية، فقال: ﴿ وَاتَّقُواْ اللَّهَ ﴾ ولما تقدّم مقام الترغيب؛ جاء مقام الترهيب بعده ، ليكون القلب على وجل دائم بين الرغبة والرهبة، وذلك أدعى لفعل الطاعات وترك المعاصي .

وكما أومأ إلى وجه بناء الخبر في أول الآية أومأ إليه كذلك، فقال: ﴿ وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ﴾ أي الذي تعظمونه في نفوسكم فيسأل بعضكم بعضا به، وقد كانت العرب تقول: أسألك بالله وأنشدك بالله ، والمعنى: "فكما تعظمون أيها الناس ربكم بألسنتكم حتى تروا أن مَنْ أعطاكم عهده فأخفركموه فقد أتى عظيما ، فكذلك فعظموه بطاعتكم إياه فيما

(1) المفردات. مادة (زوج) و ينظر بصائر ذوي التميز 142/3 .

(2) ينظر مفاتيح الغيب 132/9 . و ينظر نظم الدرر 207/2 .

(3) ينظر البحر المحيط 164/3 .

(4) روح المعاني 394/2 .

أمركم واجتنابكم ما نهاكم عنه،و احذروا عقابه من مخالفتكم إياه فيما أمركم به أو نهاكم عنه."[1]

ويسهم مجيء لفظ الجلالة: {الله} مع صوت التفخيم الصادر من ملئ الفم بالنطق باللامين مشددتين مع المد في قوله: {تساءلون} في بيان جانب من ذلك التعظيم،ولعل قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر ويعقوب بالتشديد[2] في قوله: {تسّاءلون }تسهم في بيان جانب من تلك العظمة. ثم إن العطف بقوله: ﴿ وَالْأَرْحَامَ ﴾ مشعر بمكان الأرحام من العظمة وإظهار كمال العناية بها حتى خصّت بالذكر؛ مع أنها داخلة في طاعة الله و اتقائه .

وأقفل هذا المطلع الإنشائي بفاصلة خبرية فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ وذلك يتناسب مع مقام الطلب في أول الآية وآخرها .ففي الفاصلة تحقيق و تأكيد رقابة الله على عباده،و في العبارة من تربية المهابة في صدور العباد مالا يخفى،ومن أبرز ماأبان هذه المهابة؛مجيء التأكيد،ووضع المظهر موضع المضمر في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ ﴾ ومجيء لفظ الجلالة { الله } واقتضاء { كان } لمعنى التجدد و الاستمرار ،وهو مقتضى قول أبي حيان: " لا يُراد بكان تقييد الخبر بالمخبر عنه في الزمن الماضي المنقطع في حق الله تعالى،وإن كان موضوع كان كذلك،بل المعنى على الديمومة ."[3] مع تظاهر دلالة حرف الجر { على} ولفظ {الرقيب} للخروج بمعنى الاستعلاء والحفظ .[4] وفيه دلالة على القدرة ،فلا يكون الحافظ حافظا إلا إذا كان قادرا ،وإذا ثبت أنه قادر ثبت أنه مستعل .

---

(١) جامع البيان. ٢٢٥/٤ .

(٢) الحجة في القراءات السبع .الحسين بن أحمد بن خالويه أبو عبد الله .تحقيق: عبد العال سالم مكرم.١١٨/١.ط٤ ١٤٠١هـ .دار الشروق –بيروت . و مثله في كتاب معاني القراءات .تصنيف:أبي منصور الأزهري محمد بن أحمد . تحقيق و دراسة: د. عبيد مصطفى درويش و د. عوض بن محمد القوزي ٢٨٩/١ . ط٢ . ١٤١٧هـ– ١٩٩٦م. دار المعارف .

(٣) البحر المحيط ١٦٧/٣ .

(٤) ينظر مقاييس اللغة . مادة (رقب) .

حسن الانتقال إلى موضوع سورة النساء :

لما قال تعالى في ختام الآية الأولى : ﴿ وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾النساء(١)مهّد إلى الموضوع المقصود من سورة النساء،فتناسلت معاني السورة منه،من دعوة الأفراد إلى تقوى الله والاجتماع عليه،وصولا بالتقوى من الأفراد إلى الجماعات ؛للقصد إلى ترسيخ قواعد المجتمع المسلم، وتهيئ فاصلة الآية لهذا المعنى كذلك؛فالأفراد تربطهم لحمة في النسب تتسبب عنها رحمة بينهم، فإذا اتقى الناس الله في أوامره ونواهيه ،واتقوا الأرحام بحفظها،كانوا بذلك قد حفظوا حق الله وحق العباد،فينتج في إثره مجتمع قائم على أساس ثابت راسخ متين ،ولن يكون ذلك إلا إذا قام على دعامتي الرحمة والعدل المتضمنة في كل الأحكام الواردة في سورة النساء على وجه الخصوص ،وفي القرآن على وجه العموم .

ولما كان الختم في الآية الأولى بذكر الأرحام ،بدأت الآية الثانية بمن هو أحق بالرحم والصلة وهو الولد ،فعملت فاصلة الآية على الانتقال إلى موضوع السورة .

و تناصرت الأصوات في مطلع سورة النساء لاستدرار العاطفة من الامتداد الصوتي في النداء بـ (ياء)مع (هاء) التنبيه،و من إرجاع الهاء المتبعة بالألف على النفس الواحدة في قوله : ﴿ زَوْجَهَا ﴾ وأصوات الفعل {بث} من (الباء) الانفجارية،و(الثاء) وهي من حروف النفث [1]مع التشديد فيه يقوي معنى الانتشار والتفرق . ويسهم مجيء مايدل

(١) ينظر سر صناعة الإعراب .ابن جني دراسة وتحقيق:حسن هنداوي ١/١٧١.ط٢ .١٤١٣هـ–١٩٩٣م .دار القلم /بيروت .

علـى الربوبيـة والألوهيـة في وضـع القلـب بـين الرجـاء والهيبـة ،كمـا يسـهم مجـيء لفظ{الأرحام}(1) في التأثير على الوجدان .

فمطلع سورة النساء ذو وظيفة تنبيهية تعليمية وجدانية، يتسم بـالقوة مـع اللـين و القـرب من العاطفة، يعلّم الله فيها عباده كيفية الاجتماع عليه وعلـى تقـواه ؛بمـا ذكـّرهم مـن الـنعم والفضل، وبما خوّفهم من المهابة و الجلال، فركز على وتـر الإحسـاس أكثـر من وتـر الإفهام، فكان مطلعا عاطفيا أكثر مما هو عقلاني، وكان الأسلوب الإنشائي عمدة في بناء المطلـع ،مـن استخدام النداء الموقظ من الغفلة، واختياره صالحا للعموم، ومن مجيء أفعال الأمر التي تحمل معنى الوجوب مع الاستعلاء، والتي جمعت بجزالة بين معنيي الترغيب والترهيب؛ استدرارا للعواطف، واستدراجا للتراحم.

وكان الأسلوب الخبري مساندا للإنشائي للنهوض بمعاني المطلع ؛من استخدام الجمل الفعلية الموصول بعضها ببعض المفيدة معنى التجدد والاستمرار، ثم ببيان مكان الله من حاجة النـاس حين قال: { تساءلون به} مع قرن الأرحام به تعـالى، وأخيرا مـن التعقيـب بالتأكيـد بـ(إن) التي "ترى الجملـة إذا هـي دخلـت تـرتبط بمـا قبلـها، وتأتلف معه، وتتحـد بـه، حتى كـأن الكلامين قد أفرغا إفراغا واحدا، وكأن أحدهما قد سُبك في الآخر."(2) والجمع في جزالة بـين معنيي التذكير حينا ،والتخويف حينا آخر من رقابة الله على عباده .

كل تلك الأساليب تظاهرت للخروج بمطلع سورة النساء جـزلا قويـا محققـا لأهدافـه المسـوق لأجلها .

(1) الـرحم : "الرقـة والتعطف، والمرحمـة مثله، وقـد رحمتـه وترحمـت عليـه. وتراحم القـوم :رحـم بعضـهم بعضا. والرحمة: المغفرة ...والرحم أسباب القرابة، وأصلها الرحم التي هي منبت الولـد، وهي الـرَّحِم .الجـوهري: الـرَّحِم القرابة...قال ابن الأثير: ذوو الرَّحِم هم الأقارب، ويقع على كل من يجمع بينك وبينـه نسـب، ويطلق في الفـرائض علـى الأقارب من جهة النساء"(لسان العرب مادة (رحم)).

(2) دلائل الإعجاز صـ316 .

ولما افتتح النظم الكريم هذه السورة بالأمر باتقاء الله في الأرحام ،ختم بما هو أخص من أمر الأرحام الذي هو مظنة غياب تقوى الله من ذكر الميراث ،وخص منه ماهو مشكل من ميراث الكلالة ،وكان قد ذكر شيئا من أمر الكلالة في أول السورة،فكمّل المعنى في ختامها،تحضيضا على استحضار تقوى الله على كل حال،وأدل مافيه ختم السورة بقوله تعالى: ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾النساء(١٧٦)و كان للتفريع أثر في التناسب البياني بين مطلع السورة وخاتمتها .(١)

* * *

(١) ينظر لتفصيل القول في التناسب البياني بين مطلع السورة وخاتمتها في باب دلالات التراكيب (خاتمة سورة النساء).

رابعا /

المطلع في سورة المائدة وحسن الانتقال إلى موضوع السورة

وظائف المعاني في مطلع سورة المائدة :

سورة المائدة من السورة المدنية ذات المطلع الإنشائي، افتتحت بنداء موجّه إلى فريق مخصوص، وهم المؤمنون، فمطلعها في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ المائدة(١) واختصت سورة المائدة بهذا المطلع عن سور القرآن الكريم كلها .

ولم يتكرر النداء الموجه إلى الذين آمنوا خاصة بكثرة في سورة من سور القرآن مثل ما تكرر في سورة المائدة، فورد ست عشرة مرة .(١) وللنداء دلالة تأثيرية(٢) غير دلالته المعنوية، ولذلك هو من الأهمية بمكان لقبول ماسيتلوه من معان، والذي دعا إلى زيادة أهمية هذا النداء أن خُصص بنعت الإيمان، وقد ورد "أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود فقال: اعهد إلي، فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فارعها سمعك فإنه خير يأمر به أو شرّ ينهى عنه ."(٣) وعن الزهري قال: "إذا قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ افعلوا فالنبي ﷺ منهم ."(٤) وإنما يدل ذلك على قيمة نداء الله للمؤمنين بإسباغ هذا النعت عليهم خصوصا ؛ذلك أن وصفهم بالإيمان يعطيهم مكانة خاصة تحرضهم على الاستماع فالامتثال؛ لأن معنى الإيمان: التصديق والإذعان، فإذا افتتح الخطاب بوصفهم بالتصديق والإذعان كان ذلك أوقع في القلوب، وألزم للانقياد، (٥) ولذلك أتبع تعالى نداءهم ونعتهم بالإيمان بالأمر الذي أراده حين قال: ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ . . . ﴾

---

(١) تنظر الآيات : (١- ٢- ٦ – ٨ – ١١ –٣٥- ٥١ – ٥٤ – ٥٧ – ٨٧ – ٩٠ – ٩٤ – ٩٥ – ١٠١- ١٠٥ – ١٠٦) .

(٢) ينظر تفصيل الكلام في أثر النداء في مطالع سورة النساء .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٣ .

(٤) السابق ٢ /٣ .

(٥) سواء في ذلك كان الخطاب في ذلك للمؤمنين خاصة أم أنه يعم فيشمل مؤمني أهل الكتاب الذين بينهم وبين الله عقد في أداء الأمانة فيما كان في كتابهم من أمر محمد ﷺ .

ولما كان نداؤهم بصفة الإيمان يستلزم الوفاء بعقدهم مع الله، وكان أول عقد أخذه تعالى هو إقرارهم بربوبيته (1) ؛جاء الأمر بالوفاء بالعقود تاليا لوصفهم بالإيمان .

ويُبرز الفخر الرازي العلاقة بين وصفهم بالإيمان،ثم أمرهم بالوفاء بالعقود فيقول: "ولما كان الإيمان عبارة عن معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وأحكامه وأفعاله،وكان من جملة أحكامه أنه يجب على جميع الخلق إظهار الانقياد لله تعالى في جميع تكاليفه وأوامره ونواهيه، فكان هذا العقد أحد الأمور المعتبرة في تحقيق ماهية الإيمان،فلهذا قال: {أوفوا بالعقود}".(2)

والعقود هي: العهود (3) واختلفوا في معنى العقود في الآية الكريمة،وخير ما قيل فيها مانقله الألوسي فقال: "العقود باعتبار المعقود والعاقد ثلاثة أضرب،عقد بين الله تعالى وبين العبد،وعقد بين العبد ونفسه،وعقد بينه وبين غيره من البشر،وكل واحد باعتبار الموجب له ضربان: ضرب أوجبه العقل... وضرب أوجبه الشرع ." (4) ولما كان العقد يقتضي معنى الجمع بين أطراف الشيء،و يستعمل في الأجسام كعقد الحبل ؛استعير ذلك للمعاني فصار يقال: عقد العهد،وسمي كل ما كان بين طرفين عقدا. فاستعيرت العقدة أو الربطة التي تكون بين طرفي حبل لكل ما يكون من عهد بين طرفين على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية والجامع: إحكام الشيء مع شدة الوثوق به .

ولعل ذلك يفسر لنا تعريف لفظ ﴿ بِالْعُقُودِ ﴾ بـ(أل) التي تفيد استغراق أفراد العقود كلها على اختلاف أنواعها -كما جاء في الآية الكريمة- و لذلك قال الرازي : " وإنما سمّى الله

---

(1) ورد عن ابن عباس عن النبي ﷺ قوله: "أخذ الله الميثاق من ظهر آدم فأخرج من صلبه ذرية ذراها فنثرها نثرا بين يديه كالذر ثم كلمهم فقال: ألست بربكم ؟ قالوا: بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كان عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون" (المستدرك على الصحيحين .كتاب الإمامة وصلاة الجماعة .رقم الحديث (٧٥) ١ /٨٠).

(2) التفسير الكبير ٦ / ٩٧

(3) تفسير القرآن الكريم عن ابن عباس ص١٦٥ . و مثله في صحيح البخاري كتاب الذبائح والصيد رقم الحديث (٧٥) باب التنمية على الصيد ٥ /٢٠٨٥

(4) روح المعاني ٣ /٢٢٣

تعالى هذه التكاليف عقودا -كما في هذه الآية- لأنه تعالى ربطها بعباده كما يُربط الشيء بالشيء بالحبل الموثق ."(١)

ولما كان العقد شاملا لكل ما يكون بين طرفين؛ كان الأمر بالوفاء به في الآية من باب إيجاز القصر لتحمله معاني كثيرة لا تحدّ، و مَنْ يرجع إلى كتب التفسير يلحظ ذلك التعدد في طَرْق المعاني .

وفي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ إجمال؛لأن تفصيل تلك القعود بدأ فيما يتلوه من قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ المائدة (١) حيث قال بعدها: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ . . . ﴾ المائدة (٣) ذلك الإجمال والتفصيل يفسّر لنا من وجه دواعي الفصل بين الجملتين: ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ و﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ ﴾ إذ التحليل بدل بعض من كل تلك العقود التي أبرمها الله ،أو بدل بعض من كل التكاليف التي أمر الله بها عباده .ومن وجه آخر يبيّن لنا المناسبة بين الجملتين حينما أتى الإجمال أولا وتلاه التفصيل .

وفي الابتداء بالتحليل للعباد على التحريم ،مع اختيار الأطعمة كي تكون أول ما يُتحدث عنه من التكاليف – تلطف بالعباد وتأنيس لهم . وفيه من بلاغة التشريع ليكون ذلك أدعى للقبول وأدعى للانقياد .وساعد على بلوغ هذه المعاني تقديم الجار والمجرور ﴿ لَكُمْ ﴾ على نائب الفاعل .

ثم إن البيان القرآني استثنى من هذا التحليل المجمل فقال: ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ وتفصيله جاء فيما يتلوه من الآيات حين قال تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ . . . ﴾ المائدة (٣) والسؤال الذي يجول في الخاطر،هو ألم يكن بالإمكان أن يأتي

(١) التفسير الكبير ٩٧/٦ .

المستثنى منه مباشرة بعد المستثنى في نفس الآية دون تأخير ؟ وبطريق آخر: ألم يمكن أن يؤخر قوله تعالى: ﴿ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ ويذكر مع المحرّمات ؟

والجواب — والله أعلم بأسرار كتابه — أنه لما كان الصيد داخلا ضمن بهيمة الأنعام ،وكان صيد بهيمة الأنعام محرما في حال مخصوص فقط، وليس على إطلاق المحرمات الباقية مثل: الدم والميتة ولحم الخنزير،وهذا الحال هو حال الإحرام — لما كان كذلك أسرع إلى ذكره تتميما للحكم وتكميلا له ،وترسيخا للمعنى قبل فوات الحكم أو الانقطاع عنه .

وهذا يفسر لنا تأخير ذكر المستثنى منه المحرّم مما حلله الله تعالى وتقديم هذا الحكم المقيّد بالحال ﴿ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ ولذلك أشرك الجملة الثانية مع الأولى ووصل بينهما .ثم إن هذه العبارة موجزة إيجازا بليغا فهي تعني حرمة الزمان وحرمة المكان وحرمة الإحرام ذاته .

ولما كان الأصل في حسن التخلص: "الانتقال مما افتتح به الكلام إلى المقصود مع رعاية المناسبة ."(1)؛كان لزاما أن يكون في أول الكلام طرفان هما (المنتقل منه–المنتقل إليه) فيمهد المنتقل منه لذكر المنتقل إليه وهو مقصود المتن . ومطلع سورة المائدة في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ إجمال وتكريس لموضوع السورة ،فالظاهر من معنى الآية الإجمال والشمول لكل العقود المبرمة من العبد ،وهذا يدور حول مجمل معاني السورة مما جعلها من المطالع التي تومئ إلى مقصد السورة .وكل ما يعقبه تفصيل لهذه العقود،فبين المطلع والمتن إجمال وتفصيل،يقول ابن عاشور عن قيمة الافتتاح بالأمر بالوفاء بالعقود: " تصدير السور بالأمر بالإيفاء بالعقود مؤذن بأن سترد بعده أحكام وعقود كانت عقدت من الله على المؤمنين إجمالا وتفصيلا ."(2) فالظاهر أن مطلع سورة المائدة لا واسطة بينه وبين موضوع السورة،وحسن التخلص يكون حين يراد الانتقال من موضوع المطلع إلى موضوع متن

(1) المطوّل صـ٧٣٧ .

(2) تفسير التحرير والتنوير .المجلد الثالث.٧٤/٦ .

القول؛حيث يكون موضوع المطلع في ظاهره مغايرا لموضوع المتن . ومثل هذا لا يُقال فيه بحسن التخلص أو الانتقال.

ولما كان المقصود من حسن التخلص تهيئة السامعين للإصغاء إلى مابعده،وتحريك أذهانهم وتنشطيها للمتابعة باهتمام؛كان نداء المؤمنين بوصف الإيمان خاصة ثم اتباع ذلك بالأمر بالوفاء بالعقود خير منشط و محرّك للذهن،فاستغنى عن الانتقال في السورة،ولم يكن هناك واسطة إلى موضوع السورة،ويعززه قول عبد الله بن مسعود السابق الذكر .([1])

ولعل خطاب المؤمنين بهذه الخصوصية وترك التمهيد للموضوع على هذا الحال يذكرنا بقول الفراهي عن الأساليب التي تأتي عليها مطالع القرآن الكريم ؛حيث قال في الطريق الرابع : "وربما يترك التمهيد حين يخاطب المنقاد الفاهم ."([2]) وهذا يعني أن ترك التمهيد فيه بيان عن استغناء المؤمنين عنه؛لظهور انقيادهم مع ذكائهم ،فلا يحتاجون إلى التدرج المفضي إلى الإقناع —والله أعلم بأسرار كتابه— .

فاتسم المطلع بسمة التأثيرية من تنبيه القلب والعقل إلى الإصغاء،ولعل مادة (العقد) تسهم في التأثير على المتلقي لما فيها من بيان أهمية الأمر المبرم بين الآمر والمأمور،وفيه إيماء إلى علو شأن المأمور ورفعة قدره .

ولما كانت العلاقة بين المطلع وموضوع السورة علاقة إجمال وتفصيل؛كان ذلك أظهر للقول بتناسل المعاني من جملة المطلع : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ ﴾ المائدة (١)

ولما كان المطلع يبين عن أن هناك عقودا مبرمة بين الخالق والمخلوق متخذا من الإنشاء سبيلا،وكان على المنقاد منهم الوفاء بحق هذه العقود ؛جاء الختام قائما على الإخبار يؤازره الإنشاء مذكرا بأعظم العقود كلها وأشرفها وهو عقد الإله مع الرسل،و على شرف العقد فإنه جيء بأشرف الخلق و أمثلهم للانقياد والاستجابة وهم الرسل فقال: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ

---

(١) ورد "أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود،فقال:اعهد إلي،فقال: إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ }فارعها سمعك فإنه خير يأمر به أو شرّ ينهى عنه " (تفسير ابن كثير ٢/ ٣ .)

(٢) دلائل النظام صـ٧٣

﴿فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ المائدة (١٠٩) و العقد المبرم بين الإله و رسله ؛ دعوة الناس إلى توحيده .ولما كان الرسل هم أوفى الناس بالعقود ؛ أردف بذكر قصة عيسى –عليه السلام– واعترافه بالعبودية الكاملة لله ،و قصوره عن مرتبة الألوهية ؛ تبكيتا للنصارى القائلين بدعوته –عليه السلام– إلى عبادته من دون الله . ولأسلوب التفصيل بعد الإجمال أثر في اعتناق مطلع السورة وخاتمتها وتناسبها معنويا وبيانيا. (١)

*　　　*　　　*

(١)ينظر لتفصيل القول في التناسب البياني بين مطلع السورة وخاتمتها في باب دلالة التراكيب (خاتمة سورة المائدة).

خامساً :

مطلع سورة الأنفال وحسن الانتقال إلى موضوع السورة

وظائف المعاني في مطلع سورة الأنفال :

يتجلى مطلع سورة الأنفال في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الأنفال(١)، ومطلعها خبري افتتح بالفعل المضارع ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ الدال على استمرار السؤال أو تجدد حصوله مرة بعد مرة .ولما اختصّ السؤال في القرآن الكريم بالأمور المجهولة، و الفتيا بالأمور التي تُشكل ؛عُبّر بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ في شأن الأنفال دون {يستفتونك} مثلا .

ولما كان السؤال عن أنفال بدر، و كانت معهودة لدى السامع ؛عرّفت بـ (أل العهدية)، وجاء الأمر الشريف للرسول ﷺ بأن يخبرهم أن هذه الأنفال ملك لله ولرسوله، فالعطف بين المفردتين أفاد اختصاص الله ورسوله ﷺ بملكية الأنفال، مع بيان الشرف المكتسب من عطف لفظ ﴿الرَّسُولِ﴾ على لفظ الجلالة .

ومجيء المظهر موضع المضمر في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ دون قوله: قل هي لله مثلا ،حتى يحقق القول فيها .و لما كانت جملة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ﴾ تحوي سؤالا محققا ؛ترك العطف بينها وبين قوله بعدها: ﴿قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ للاستئناف البياني مما شد من ارتباط الجمل بعضها ببعض و المعاني تبع لها .

وكان لـ(فاء التعقيب) أثر في بيان صلة الأمر بتقوى الله بموضوع الأنفال .فما الذي دعا لمجيء الأمر بتقوى الله بعد ذكر الأنفال و سؤال الصحابة عنها مباشرة ؟ و الجواب –والله أعلم– أنه لما كان الأمر بتقوى الله يقتضي الزهد في مغانم الدنيا، ناسب أن يردف الأمر به مباشرة؛ تحضيضا على التزهد في الأنفال . ثم إنه لما كان موضوع الأنفال محل خلاف بين الصحابة –كما ذكرت الروايات– جاء الأمر بإصلاح ذات البين ثانيا بعد تحقق التقوى .ولما

كانت تقوى الله و إصلاح ذات البين تلزم منها طاعة الله و رسوله ﷺ جاء الأمر بها ثالثا، أوهو لما كان ترك التنازع والشقاق يقتضي طاعة الله و رسوله جاء الأمر به تباعا .

ولو تساءلنا :لِمَ لَمْ يقل: (قل الأنفال لله والرسول فأطيعوهما) ؟ والجواب -والله أعلم بأسرار كتابه- أنه أخّر الأمر بالطاعة فجاء ثالثا ؛ دلالة على عموم الأمر، وأنه لا ينبغي أن يتعلق بخصوص السبب ، فلو جاء الأمر بطاعة الله ورسوله ﷺ مباشرة بعد تقسيم الأنفال لظن بخصوصيته .

ثم ختم بما يحث على انتهاج المنهج واتباعه فقال: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فاتباع هذه الأوامر هي الحيثية التي يُبرهَن فيها على الإيمان .

ولما كانت هذه الآية هي مطلع السورة كان ما بعدها مقدمة للسورة وجاءت في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ الأنفال(٢-٣-٤) فلما ذكر مايُبين عن الحيثية التي يُعرف بها المؤمن من غيره، حصر كمال الإيمان في حاملي الصفات التالية: وجل القلوب عند ذكر الله واليقين عند تلاوة آيات الله، والتوكل على الله، مع إقامة الصلاة والإنفاق من رزق الله حصرا حقيقيا تحقيقيا .

ولما كان وجل قلوب المؤمنين حين ذكر الله، وزيادة تصديقهم بالله عند تلاوة القرآن حاصلا منهم في كل حين وكل وقت يذكر فيه الله وتتلى فيه الآيات ؛ جاءت (إذا) الفجائية حيال هذين الحالين على وجه الخصوص تساعد على تحقيق هذا المعنى مع الأفعال التي لم يسم فاعلها ﴿ ذُكِرَ ﴾ و ﴿ تُلِيَتْ ﴾ .

ولما كان التوكل على الله وإقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله يحصل من المؤمنين مرة بعد مرة باستمرار جاءت الأفعال المضارعة ﴿ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ﴿ يُقِيمُونَ ﴾ ﴿ يُنفِقُونَ ﴾ تحقق هذا المعنى .

ودل بـ(ما) على عموم أنواع ما ينفق من الرزق ودلت (من) على البعضية ،أو لعلها تكون دالة على الجنس ،أي من جنس ما رزقناهم،و نسبة الرزق إلى الله إيماء إلى حصول الامتنان منه تعالى على عباده .

والملحوظ أنه قدّم ذكر الصفات التي تعتمد على الباطن على غيرها الظاهرة،وذلك لأن المعوّل في معاني السورة على القلب،وهو ركيزة في الصفات البواطن.

ثم أتبعت تلك الصفات بقوله: ﴿ أُوْلَٰئِكَ ﴾ فأشار إليهم بالبعيد لبعد مكانهم،لأنهم أصحاب معال .ويجوز أن يكون سبب الإشارة بالبعيد مع قرب المشار إليهم أنه لما عدّ خصالا فاضلة،من وجل القلوب حين ذكر الله، وحصول اليقين حين تلاوة الآيات ،والتوكل على الله،وإقامة الصلاة ،والإنفاق في سبيل الله ؛أشار بالبعيد ﴿ أُوْلَٰئِكَ ﴾ فأفاد أنهم جديرون باتصافهم بما ذكر بعده حين قال: ﴿ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ أي: بحقية الوصف بأنهم أصحاب الإيمان الحقيقي،أي: "برئوا من الكفر." (1) و"حقا: صفة للمصدر المحذوف أي: أولئك هم المؤمنون إيمانا حقا،أو هو مصدر مؤكد للجملة التي هي: {أولئك هم المؤمنون}" (2).

ثم إنه تعالى أخبر عن مكانهم عنده فقال: ﴿ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ فنبّه من أول الأمر بتقديم المسند على أنه خبر لا نعت،حتى يُعلِم عن ثوابهم بعد أن أخبر عن مكانهم .ونكّر قوله: {درجات — ومغفرة — رزق} للتكثير . ولما وصف الرزق بقوله: ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ بلغ الغاية في بيان رفعة قدر هذا الرزق مع رفعة قدر المرزوق ،كل ذلك الجزاء مدخر للواردة صفاتهم آنفا ،و إنما كان ذلك الجزاء تحفيزا على بلوغ منزلة الإيمان الحقيقي،لأن العمل بمقتضياته سيكون طريقا للتعلق بالمغنم الأخروي والزهد في المغنم الدنيوي،و هو صلب في المقصود الأعظم من السورة .

(١) تفسير القرآن الكريم عن ابن عباس صـ ٢٤٦ .

(٢) الكشاف ٥٥٣/٢ .

حسن الانتقال إلى موضوع سورة الأنفال :

لما قدّم تعالى لموضوع السورة بمطلع ثم مقدمة بلغت أربع آيات؛و كان موضوع السورة ربط الجهاد بالعقيدة الراسخة،واليقين بالله ناصرا،مع تعليق القلوب بالمغانم الأخروية، وتزهيدها في المغانم الدنيوية؛تخلّص إلى موضوع السورة بقوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ الأنفال (٥) .

فمُهّد لذكر غزوة بدر ببيان موقف فريق من المؤمنين كره لقاء العدو،وجادلوا رسول الله في هذا اللقاء وظهر كرههم لذلك اللقاء؛حتى بدوا كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وهذه الكاف التي افتتحت بها الآية اختلف العلماء في تأويلها([1])،ويرى الطبري أنها للتشبيه،ويكون المعنى أن هؤلاء كرهوا خروجهم من المدينة للغزو،وكرههم هذا يشبه كرههم وجدالهم في لقاء العدو عند دنو القوم منهم،فمواقفهم متشابهة،ورجّحه بقوله: "فتشبيه بعض ذلك ببعض مع قرب أحدهما من الآخر أولى من تشبيهه بما بعد عنه ."([2]) ويعني بالتشبيه البعيد ما ذكره الزمخشري حيث قال: " فيه وجهان؛أحدهما: أن يرتفع محل الكاف على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره :هذه الحال كحال إخراجك،يعني أن حالهم في كراهة مارأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب .والثاني :أن ينتصب على

---

(١) اختلفت الأقوال في (الكاف) فرأى الزجاج أنها في وضع نصب ويكون المعنى :الأنفال ثابتة لك كماأخرجك ربك . ونقل الفراء رأي أبي عبيدة وهو كون (الكاف) للقسم ،فيكون المعنى :والذي أخرجك ،وتكون (ما) بمعنى الذي . وقال سعد بن مسعدة :أولئك هم المؤمنون حقا كما أخرجك ربك من بيتك ،أي تكون للتشبيه .وقيل :هذا الوعد للمؤمن حق في الآخرة كما أخرجك ربك من بيتك ،أي للتشبيه أيضا ويكون حينها قوله: {كما أخرجك} متعلقا بقوله: { لهم درجات} (ينظر الجامع لأحكام القرآن.القرطبي ٣٦٨/٧) .

(٢) جامع البيان ١٨٢/٩ .

أنـه صـفة مصـدر الفعـل المقـدّر في قولـه : { الأنفـال لله والرسـول} أي الأنفـال اسـتقرت لله والرسول ﷺ،و ثبتت مع كراهتهم ثبات إخراج ربك إياك من بيتك وهم كارهون."(١)

ولعلي أرى أن خير ما قيل فيها —والله أعلم– هو كلام الزمخشري على الوجهين،والذي دعا للقول بترجيح رأي الزمخشري خاصة القائل بالتشبيه إذ الرأي الثاني لا خلاف فيـه ؛وهـو أن تشبيه كراهة تنفيل الغزاة بكراهة الخروج للحرب أعمق مقصدا من تشبيه مواقف المسلمين بعضـها بـبعض الـذي ذكـره الطـبري،لأن فيـه معنـى تحـريض المـؤمنين علـى طاعـة الله ورسوله،والإيماء بسوء الاختصـام على الأنفـال وسـوء الجدال علـى السـواء،وذلك لا نجـده مـن تشـبيه مواقـف المسلميـن بعضـها بـبعض ،وهـو أنسـب لموضـوع السـورة ،وخَـتْمُ الآيـة بالتأكيدات يعزز ذلك الإيماء؛لأنه نزّل السامع منزلـة المنكـر المبـالغ في الإنكـار لهـذا الخـبر فأكده بـ(إن)والجملة الاسمية ولام التأكيد فقال: ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ وهـو رمز تعليمي للمؤمنين لترسيخ عقيدة الإيمان الذي من أهم موجباته الرضـا،وهذا يعـني أنـه عرّض بكراهة فريق من المؤمنين سواء في تقسيم الأنفال أو في الخروج للقتـال،و إن اسـتقرت تلك الكراهة في القلب ولم يبرزها إلا الجدال .

وعلّـق ابـن عطيـة علـى أصـحاب هـذا الـرأي بإمكانيـة اعتبـار المقصـودين في قولـه بعدها: ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ الأنفـال (٦) هم الكفار" أي: يجادلونك في شريعة الإسلام من بعدما تبين الحق فيهـا كأنمـا يسـاقون إلى الموت في الدعاء إلى الإيمان ."(٢) وسببه أن تأويل الطبري يجعل المقصودين بالجـدال هـم المؤمنـين(٣) لأنـه شبـه أفعالهـم بعضها ببعض،و جعل تشبيه المعـاني القريبـة مـن بعضهـا أولى من تشبيهها بما بعد عن بعضـه. في حين يجعل ابن عطيـة الآيـة بعدها كلاما مستأنفا. ولم أجد في تفسير الزمخشري ما يـدل علـى أن المعنـى علـى تفسـيره يجعـل المقصـودين هـم

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٥٤ . و في رأيه الثاني تأييد لرأي الزجاج السابق ذكره .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٢ .

(٣) جامع البيان ١٨٣/٩ .

الكفار،حيث عاد وأكمل التفسير على أن المقصودين بالمجادلة هم المؤمنون ،ولعله الصواب —والله تعالى أعلم—

فبهذه الآية الكريمة انتقل البيان القرآني إلى موضوع السورة ،فافتتحت المعاني في سورة الأنفال،بذكر الغزوة التي غيّرت وجه العالم الإسلامي ابتداء بأهم أحداثها؛بيانا لقيمة ذلك الحدث في ترسيخ معنى اليقين بأن أسباب النصر و الهزيمة بيد الله. واتصف الانتقال بالحسن والملاءمة لموضوع السورة؛لربطه بين سابق الكلام ولاحقه بأسلوب التشبيه الذي يتميز بتنبيه العقول مع تحريكها،وتقريب المعاني للأذهان،وترسيخها في القلوب.

تظاهرت أصوات الحروف التي جمعت بين الجهر والهمس و الشدة والرخاوة في بيان حسن مطلع سورة الأنفال مع مقدمتها،كما أن المقاطع الممدودة تبين عن وفرة المعاني حيث قال: {الأنفال— لله— الرسول — اتقوا — أصلحوا —أ طيعوا— مؤمنين— إنما — المؤمنون ...} وأسهم أسلوب الشرط في مطلع السورة و مقدمتها في ارتباط الآي واعتناقها ،ولعل الشرط وجوابه يضفيان نغما مرتبا و توازنا بين الآيات،يساعده نغم صادر عن الإقفال بالنون والميم مع التنوين بالفتح حينا والضم حينا آخر في قوله: {إيمانا — حقا —درجاتٌ —مغفرةٌ—رزقٌ – كريمٌ } .ولعل تتابع الضم على حروف بعض الكلمات يلفت الانتباه إليها كما التفت إليها الذهن حين النطق بحروفها وذلك مثل قوله: {قُلُوبُهُمْ—آيَاتُهُ— هُمْ}.

ومطلع السورة خبري يؤازره أسلوب الإنشاء المتمثل في الأوامر الدالة على الاستعلاء،فقال: {قل— اتقوا الله — أصلحوا ذات بينكم — أطيعوا الله ورسوله } .و منه تتناسل معاني السورة ؛لأن في الرضا باختصاص الله و رسوله بالأنفال تسليما وانقيادا لأمر الله مع زهد و تعلق بالنعيم الأخروي ،و هو مقصود السورة . و افتتاح السورة بأسلوب السؤال و الجواب له فائدة ترسيخ المعنى في الأذهان ؛لأنه أول

مــايطــرقهــا من موضوعات،مع التشويــق إليها ،فإذا ما أتبع بالجواب ؛جاء والـنفس إليـه متطلعة فيكون آكد في النفس وأكثر استقرارا .

وكما أدى مطلع السورة وظيفته الإخباريـة أدى المقطـع الوظيفـة نفسـها فـأتى بالنتـائج بعـد المقدمات ،وأعلم عن مكان المؤمنين حقا من الولاية و من الأجر ،و بما استحقوا هـذه المنزلـة الرفيعة . و كما كان للجمع مع التفريق مكان في مقدمة السورة كان مثله في ختامها[1]فانطبق أول الكلام على آخره ،وآخره على أوله ،فكان غاية في التناسب البياني .

*   *   *

(١) ينظر لتفصيل القول في التناسب البياني بين مطلع السورة و خاتمتها في باب دلالة التراكيب (خواتيم سورة الأنفال .)

سادساً

المطلع في سورة التوبة وحسن الانتقال إلى موضوع السورة

وظائف المعاني في مطلع سورة التوبة :

افتتحت سورة التوبة بالتصريح بانقطاع عصمة الله ورسوله ﷺ عن المعاهدين والمشركين، وانقطاع العصمة هذا يبدو أنه عام لكل شيء يتعلق بالمشركين ،يدل عليه تنكير لفظ : ﴿ بَرَاءَةٌ ﴾المفيد التنويع ،أي شمول كل أنواع المعاملات بين المسلمين والمشركين . وهذه البراءة مسببة عن نقض العرب عهودها مع رسول الله ﷺ . فجاءت البراءة تحمل معنى الأمر بنبذ عهود المعاهدين الناقضين ."ودلّ سياق الكلام وما حواه من بديع الانتظام أن العهد إنما هو لأجل المؤمنين وأما الله ورسوله فغنيان عن ذلك ."([1]) وتفسير هذا الكلام يؤتى من وجوه، منها: أنه لما كان أصل الخطاب إلى المؤمنين ليحذروا المشركين قال: ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾التوبة(١) فنسب العهد إلى المسلمين مع أن الرسول ﷺ هو الذي تولى العهد و العقد، وفيه معنى رضا وموافقة المسلمين لأفعاله ﷺ ومنها: أن البدء بلفظ : ﴿ بَرَاءَةٌ ﴾ فيه معاني الشدة والغلظة ؛فهي تحمل معنى الغلظة على الكافرين لأن البراءة في أحد أصليها تعني التباعد من الشيء ومزايلته، أي إن عصمة الله تباعدت من المشركين وزالت عنهم، و الوجود ثم الزوال، والإلصاق ثم التباعد يعني التغير من حال إلى حال، والتغير من الحسن إلى السيء موجع ،وإعلانه يرفع وقع الألم الحاصل منه ،ويضفي معنى الترهيب كذلك .و" الإعلان بفسخ العهد براءة من التبعات التي كانت بحيث تنشأ عن إخلاف العهد، فلذلك كان لفظ {براءة}هنا مفيدا معنى فسخ العهد ونبذه؛ ليأخذ المعاهدون حذرهم ."([2])

ولما كان الحذر يشمل الطرفين، كان البدء بلفظ : ﴿ بَرَاءَةٌ ﴾ يحمل معنى تحذير المؤمنين بإعلان براءة الله ورسوله من كل عهود المشركين ،فعليهم الإذعان والانقياد تاليا كما انقادوا

---

(١) نظم الدرر ٢٦١/٣ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير. المجلد الخامس ١٠٣/١٠ .

أولا. والبدء بالخبر : ﴿ بَرَاءَةٌ ﴾ مع حذف المبتدأ المقدر يسهم في رفع قيمة معنى هذه البراءة لأنها أصبحت كأنها المبتدأ.(1) وعدم الاستفتاح بالبسملة –التي هي سبب الأمان و السلام– يؤثر في رفع قيمة التهديد و الوعيد هذا .

ومنها كذلك: أن الجارّين (من) للابتداء و(إلى) للانتهاء أسهما في تحديد توجيه الخطاب وتبليغه من فئة مخصوصة لفئة مخصوصة كذلك .

والعطف بين المفردين ﴿ اللّهِ ﴾ وَ﴿ رَسُولِهِ ﴾ مع نسبة الرسول إلى {الله} يسهم في قوة هذا الوعيد وذلك الترهيب ؛لأن فيه معنى الاجتماع والوحدة في الفعل فلا شفيع ولا نصير ولا رحيم .

فقوله تعالى: ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ التوبة(١)مطلع السورة،ومابعده تفريع على معنى البراءة حيث قال: ﴿ فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي . . . . ﴾ التوبة (٢) فذكر مدة إمهال المشركين،ورهبهم من الاستمرار على الكفر،ثم فتح باب التوبة ،ثم استثنى بعض المعاهدين الأوفياء .فبين المطلع والمتن إجمال وتفريع ،والظاهر أن مطلع سورة التوبة لا واسطة بينه وبين موضوع السورة،ومثل هذا لا يقال فيه بحسن التخلص أو الانتقال(2)و لما كان كل ماجاء بعد آية المطلع من باب التفريع على المعنى؛كانت آية المطلع تتناسل منها جميع معاني السورة .

ولما كان المقصود من حسن الانتقال تهيئة السامعين للإصغاء وتحريك أذهانهم للمتابعة باهتمام كان مطلع سورة براءة غنيا عن ذلك ؛ابتداء من ترك البسملة ،ومن صوت الباء الانفجاري الذي في أول كلمة في السورة ،مع تنكير هذه الكلمة وتحريكها بالتنوين بالضم الذي يقرع الآذان قرعا،يساعده تشديد لامي لفظ الجلالة ؛كل ذلك محفّز إلى الإصغاء والاستماع ؛فالذهن لم ينفك عن الاهتمام ،ولعله استغنى بذلك عنه ،ويعزره قول الفراهي عن

(١) فيما لو أعربت (براءة) خبر مبتدأ محذوف .

(٢) هذا قريب من مطلع سورة المائدة .

المطالع القرآنية :"ربما يُترك التمهيد حين...يلقى الأمر بالقهر و الغضب،فيهجم على المخاطب كالصاعقة كما ترى في سورة النور والبراءة ،و في كل ما خوطب النبي ﷺ وهذا الذي ذكرنا يتعلق بالتمهيد من جهة الترك لتعلم مقتضى الحكمة في الإتيان به والامتناع عنه."(1)

فالمطلع إخباري يتسم بالقوة والصدارة والجزالة ،ويسهم الاحتباك في الآية في جزالة المطلع ،قال عنه ابن عاشور:"على أن في الكلام احتباكا لما هو معروف من أن المسلمين لا يعملون عملا إلا على أمر من الله و رسوله ،فصار في قوة براءة من الله ورسوله ومنكم إلى الذين عاهدوا الله و رسولهم و عاهدتم ."(2) و هذا الاحتباك من شأنه تقوية نظم الآية وسبكها ،فحين ذكر صدور البراءة من الله ورسوله؛ حذف مقابله أي:صدور البراءة من المسلمين .و حين ذكر صدور العهد من المسلمين ؛قابله بحذف صدور العهد من الله ورسوله؛و إنما كان ذلك لدلالة كليهما على الآخر،واختير حذف براءة المسلمين لإبراز القوة والعظمة الكامنة في براءة الله ورسوله،واختير حذف إقامة العهد من الله ورسوله لإبراز انقياد المؤمنين و إذعانهم لأخبار الله القائمة مقام الأمر الصريح- والله أعلم بأسرار كتابه- .

وكما كان المطلع إخباريا؛كان الختام أيضا يؤدي وظيفته الإقناعية،فقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ . . .﴾التوبة (١٢٨)فلم يكن هناك عذاب وبراءة إلا وقد سبقا بالرحمة المسببة عن بعث الرسل .

(١) دلائل النظام صـ٧٣ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير . المجلد الخامس ١٠٥/١٠ .

وبعد البيان الكافي الذي جاءت بـه معـاني السـورة لم يبـق حجـة لمحـتج ولا عـذر لمعتـذر يواري خلفه توليه وإعراضه الـذي حُـذّر منـه علـى صـعيد السـورة .وكمـا قـام المطلـع علـى الاحتباك قام المقطع كذلك [١]، فانعكسـت أضـواء التعـانق بـين المطلـع والخاتمـة مـن جهـة التناسب المعنوي والبياني .

*   *   *

(١) ينظر لتفصيل القول في التناسب البياني بين مطلع السورة وخاتمتها في باب دلالة التراكيب (خاتمة سورة التوبة) .

الفصل الثاني :

براعة الاستهلال طريق إلى براعة المقطع في الطوال المدنية

عُني البلاغيون والنقاد منذ القدم بمطالع الكلام ،وطالبوا الناظم والناثر ببذل غاية الجهد في العناية بمطالع كلامهم وتضمينها دلائل البيان على مقاصدهم ،وفي جواب ابن المقفع ت(١٤٢هـ) لسائل عن ماهية البلاغة قال في جزء منها: "و ليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك ؛كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته ."(١) وفي جوابه ما يبين عن أن تضمين معنى الكلام يجب أن يلازم صدور المعاني لجريها على البلاغة،وهي لا تعني سفور المعاني إنما هي دلائل تنبّه إلى ما سيأتي عقيبه،وتشوّق إلى الاستزادة لجلاء الفكرة .

وهذا الكلام يثبت علاقة وطيدة بين صدر الكلام وعجزه (أي:طرفي المعنى؛المطلع والختام.) والمطالع والخواتم لهما أثر فعّال في النص من جهة ضرورة تناسبهما وتآلفهما مع مايسري في الوسط من المقاصد و الأغراض .ومن جهة أخرى يهيئ الأول منهما السامع للإقبال على المعنى أو يوصد قلبه دونه،ويرسخ الثاني المعنى في النفس،ويشفي نفس متلقيه منه.

ولما كان "الابتداء أول مايقع في السمع من كلامك،والمقطع آخر ما يبقى في النفس من قولك،فينبغي أن يكونا جميعا مؤنقين."(٢) وهذا أثر نفسي للأول والآخر من الكلام لا يستهان به،وهو ما ترجمه القرطاجنّي ت(٦٨٤هـ) حين قال عن الأثر النفسي للافتتاح: "فهي رائدة مابعدها إلى القلب،فإذا قبلتها النفس تحرّكت لقبول مابعدها وإن لم تقبلها كانت خليقة أن تنقبض عمابعدها ."(٣) وقال في الختام : "وإنما وجب الاعتناء بهذا الموضع ؛لأنه منقطع الكلام وخاتمته،فالإساءة فيه معفية على كثير من تأثير الإحسان المتقدّم

(١) البيان و التبيين ١٠٩/١ . وقال مثله ابن قتيبة ت(٢٧٦) : " فالمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافي وأراك في صدر بيته عجزه،وفي فاتحته قافيته " (الشعر و الشعراء.ابن قتيبة .تحقيق و شرح:أحمد محمد شاكر ٩٠/١ .بدون ط.١٩٦٦ . دار المعارف– مصر .)

(٢) الصناعتين . صـ٤٣٥

(٣) منهاج البلغاء. صـ٢٨٦ .

عليه في النفس ولا شيء أقبح من كدر بعد صفو و ترميد بعد إنضاج."[1] وهـذا تحليـل يـبين عن قيمة عالية للمطالع والخواتـم ،وحاصلـه يشـي بضـرورة أخـذ الحيطـة والحـذر مـن الاستهانة بمكان كليهما من النص،فلا يظن أنهما مكملان للعمود أو المقصد الـذي قـد يتـوهم أنه هو الركيزة و المحور؛فالمطلع مطية المقصد،والختام هو مايشد بـين الاثـنين حتـى يكونـا حلقتين تامتين يكملهما ختام النص ويكرس نتاجهما .

وإذا اجتمع في المطلع الدلالة على الغرض المقصود،وحصول الأثر النفسي الجيد،مع شدة تعلق المعاني بعده حتى لا يكون بينها دخيل أو أجنبي؛كان ذلك أدخل في الجودة و الحسن مماجعل البلاغيين والنقاد يسمونه براعة الاستهلال .

والبراعة في المعنى الوضعي:التبريز.[2] والاستهلال:من رَفْع الصَوت.[3]فتضمين صدور الكلام حاجة القائل تبريز للمعنى وإظهار له،وهذا حسـن بالكـلام لأن التعميـة والإغـلاق من العـيّ المستكره في القول.وهذا التبريز يتعاضد مع معنى رفع الصـوت لأن مـن رفـع صـوته بحـديث أبرزه عن غيره .و طريقه أن يكون متقنا، غير متكلف،ومطبوعا غير مصنوع .وهو فـن متفـرع عن الابتداءات .

ومطالع سور القرآن الكريم –على تمامها وكمالها – توصف ببراعة الاستهلال .ومن براعة استهلاله على الجملة افتتاحه في ترتيبه الترتيلـي بسـورة (الفاتحـة) الـتي هـي أم القـرآن فجميع معاني السور تتناسل منها وتتعلق بها . و هي لذلك لم تعدم المعـاني و المغـازي الـتي ترمي إليها أسماؤها التي سمّاها بها نبي الأمـة الصـادق الأمـين مثـل:(أم الكتـاب— فاتحـة الكتاب– السبع المثاني— القرآن العظيم) كما أنها حاوية لأنواع التوحيـد علـى الجملـة،وهو المقصد الأعظم للقرآن كله .و كما كان الافتتاح بسورة الفاتحـة مـن براعـة الاسـتهلال ؛كـان

(١) منهاج البلغاء. صـ٢٨٥.

(٢) مقاييس اللغة.مادة (برع)

(٣) السابق.مادة (هلّ) .

الاختتام بسورة (الناس) من براعة الختام ؛ فكما ذكر تعالى في (الفاتحة) أصل العقيدة الأول؛من معرفة الرب، و معرفة أسمائه و صفاته ،و أفعاله ؛ذكر في (الناس) ربوبيته وملكه و إلهيته لهم .(1) و هو من أصل العقيدة الأول كذلك ،فكان ختاما مناسبا لمفتتحه .

وإذا وصفت مطالع السور ببراعة الاستهلال كان ذلك ألزم بوصف ختامها بالبراعة أيضا "لأن الانتهاء قاعدة القصيدة،وآخر مايبقى منها في الأسماع،وسبيله أن يكون محكما لا يمكن الزيادة عليه،ولا يأتي بعده أحسن منه،وإذا كان أول الشعر مفتاحا له وجب أن يكون الآخر قفلا عليه."(2) وقول ابن رشيق :" وإذا كان أول الشعر مفتاحا له وجب أن يكون الآخر قفلا عليه." نفيس جدا فهو من جهة يعلم عن صلة وثيقة بين طرفي المعنى لا تسمح لأحدهما أن يكون أجود من الآخر ،و من جهة أخرى يرينا كيف يجب أن ينطبق الختام على المطلع حتى يكون هذا الختام هو الأليق بهذا الافتتاح و غيره لا يسد مسده،فيبدأ النص بالإشارة إلى المقاصد و المرامي في مطلعه ،و ما يلبث أن تتناسل هذه المعاني و تتفرع عنه،و تسير في وسطه كسريان الدم من الجسد ،ثم تتنامى وتتصاعد شيئا فشيئا سبيلها في ذلك التناسق وحسن الترتيب و التفريع و التآلف و التلاحظ والتصريف؛حتى يُدير المتدبر نظره فإذا كل معنى يُرد إلى فرعه إلى أن تتكافل الفروع في معانيها الكلية حتى تصل إلى الختام فتسلك طريق التقعيد و التكريس لأبرز ما ذكر من معاني السورة بحيث يلخص مجملها، و يشير إلى مواضع المفصل فيها،فيلفها و يعيدها تارتها الأولى بروابط دقيقة لا تبرز إلا لمتدبر و متأمل .

وإحكام النظر في هذا الفن؛أقصد هداية براعة المطلع إلى براعة المقطع لا يتم إلا بعد النظر في نواحٍ شتى من السورة ابتداء من المقاصد والافتتاحات والمقدمات والخروج ؛وحتى يقيم

---

(1) ينظر بدائع التفسير .الجامع لتفسير ابن القيم.جمعه يسري السيد محمد. ١ /١٠٩ -٥/٤٣٩ ط١ ١٤١٤هـ . دار ابن الجوزي.

(2) العمدة ١ / ٢٣٩ .

المتأمل في أنحاء السورة كلها من أولها لآخرها ؛يتتبع المعاني الموكل بها الافتتاح والمضمنة فيه،ينظر كيف تسير في السورة بين الظهور والانزواء،والانفراد والمصاحبة،وكيف تتحول مجاري الخطاب حسب الأحوال والمقامات،فيكون كالحال المرتحل في أنحائها،يضرب بنظره هنا وهناك حتى يستبصر معالم السورة كاملة. فيأتي للختام ويرى منه القفل بنفس براعة الافتتاح،فيبصر أثره في تقصيره المساحات وسط السورة ،وفي بيان وشائج القربى بين أطراف السورة ،وفي تضمين الختام معنى تاما يؤذن بأنه الغاية والمقصد،مع تكريس لما كان عمدة من المعاني في السورة ،كل ذلك في قوة وجزالة لا نلحظ فيه تكريرا للمعاني يملّ،أو تقصيرا عنها يخلّ،وإلى ذلك أشار العلوي حين قال:"فإن الله ختم كل سورة من سوره بأحسن ختام،وأتمها بأعجب إتمام ،ختاما يطابق مقصدها ،ويؤدي معناها ".(١)

ففي الختام تتلاقى الأطراف دون تواطؤ،وتستقر المعاني كاملة دون تشوّف أو رغبة في الاستزادة . (٢)

---

(١) الطراز ١٠٤/٢ .

(٢) من المصطلحات البلاغية الدالة على هذا الفن :التسهيم –التوشيح —التصدير —رد العجز على الصدر– تشابه الأطراف .

أولا /

براعة الاستهلال في سورة البقرة طريق إلى براعة المقطع

افتتاح سورة البقرة بقوله تعالى: {ألم} فيه تنبيه([1]) على الخبر الجليل الذي يُذكر بعده، وهو نفي الريب عن القرآن الكريم مع تضمّنه أثرا مخصوصا لفئة مخصوصة، فقال تعالى: ﴿ أَلَمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ البقرة (١-٢) وهذه الجملة فيها براعة استهلال؛ لأنها تضمنت المعنى المقصود من السورة؛ ومقصودها كما أُسلف الدعوة إلى توحيد الألوهية؛ بتقرير توحيد الربوبية، وأعظم دلائل الربوبية إنزال الكتاب المتفرد بمقاصده، الدال في مضمونه على الإيمان بالغيب .

فجملة الافتتاحية على درجة عالية من حسن المفهوم، والمعنى جزل قوي موجز والجمل يتعلق بعضها ببعض حتى لا يبدو دخيل أو أجنبي عنها؛ لأن الكتاب والهدى والتقوى معان بعضها من بعض لا افتراق بينها، فالكتاب له أثر الهدى في النفوس، والهدى مسبب عن الكتاب، وسبب في حصول التقوى، والتقوى لن تحصل إلا باتباع الكتاب .فهي أقطاب ثلاثة تسير من أول السورة إلى آخرها بأفانين وأساليب تقتضيها مقاماتها السياقية بين الظهور حينا والانزواء حينا، وبين التصريح مرة والإشارة أخرى، وبين البروز واللطف كذلك .

وعن علاقة هذه الأقطاب يقول الفراهي : " فالتدبر في الكتاب هو الوسيلة إلى الهدى والتقوى، فهما أصلان، فإن النفس بالهدى يستصبر وبالتقوى يتزكى، والإيمان مع شعبه العلمية يدخل في الهدى . والشرائع والأخلاق والأحوال تدخل في التقوى ، وقد بين الله ذلك في القرآن والتوراة والإنجيل ."([2]) هذه العلاقة تبرز براعة استهلال سورة البقرة خاصة، وبراعة استهلال سور القرآن عامة ؛ لأن الهدى و التقوى أصلان تدخل تحتهما كل مسائل الدين التي يقصد إليها .

جاء الحديث عن الكتاب وأثر الهدى الحاصل منه في مطلع السورة في قوله: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ فأشار إلى مكان الكتاب بوصفه بالتمام والكمال، وأردف بالإشارة

---

(١) سبق تفصيل القول في أثر الافتتاح بحروف التهجي في باب أنواع المطالع .

(٢) دلائل النظام صـ٩ .

العليا التي تبين عن بعد المكان والرتبة، واختارها لمناسبتها مع جلال و رفعة المشار إليه وهو القرآن الكريم- على رأي من رجح كون الإشارة عائدة إلى الكتاب - ويكون وقوع انتفاء الريب حينها تأكيدا لحقيقة الكتاب؛ من أنه تطمئن إليه النفوس، وتسكن به القلوب؛ لكماله و تمامه، مع كونه خبرا صادرا عن الرب، ويلزم منه صدقه وصدق ما تنزّل به، مع انتفاء النقص والعيب، فعدل عن الإشارة بالقريب إلى البعيد تعظيما لشأن القرآن وتفخيما لأمره. ومَنْ جعل الإشارة في { ذلك } إلى الحروف المقطعة {ألم} فإنه يرى أن نفي الريب خاص"وهو الريب الذي يعرض في كون هذا الكتاب مؤلفا من حروف كلامهم فكيف عجزوا عن مثله؟!". (١)

فأعلم عن مكان الكتاب، وجاء التفصيل في الهدى الذي هو مسبب عنه بذكر مواقف الناس تجاهه إيمانا وكفرا وتحيّرا، ولما كانت الهداية سببا في حصول التقوى جاء ذكرها قرين ذكر الهداية وما يتعلق بها ؛ فأعلم عن صفات المتقين حين ذكر الصنف الأول من المهديين، ثم ذكر الصنف الثاني، وأتبعه بالثالث ببيان بعدهم عن التقوى بالتعبير حينا بالختم على القلوب والسمع ، والغشاوة على الأبصار . وحينا آخر بالمرض في القلوب . وإنما كان التركيز على وصف القلوب في الأصناف الثلاثة لأنها محل التقوى المسببة عن الهداية، فحين قال مع الأولين: ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ البقرة (٤) ألمح إلى سلامة قلوبهم لأن الإيمان بالغيب يعمرها ، وحين صرّح مع الأخيرين بمرض قلوبهم والختم عليها بعدم نفاذ الهداية إليها؛ أومأ إلى كفرهم بالإيمان بالغيب . و لما عقّب على حال المؤمنين من التمكن من الهدى باستعلائهم إياه؛ قابله بذكر حال الكافرين من استبدالهم الضلالة بالهدى، و بالتالي عدم ربح تجارتهم .

(١) تفسير التحرير و التنوير. المجلد الأول ٢٢٢/١.

وهذا الحديث أصل في موضوع السورة لذلك كثّف ذكر الهداية بلفظها صراحة أو بمقتضياتها، و صرّف القول فيها ؛فحين ذكر المؤمنين وصفهم بالإيمان بالموصولية والمضارعة دلالة على تجدد واستمرار هدايتهم حينا بعد حين ،وتبع ذلك التعبير بالمضارعة بذكر تجانس العمل مع المعتقد فقال : {يقيمون – ينفقون} ولما كان الإيمان بالبعث ركيزة في الإيمان بالغيب خصص جنسهم في الإيقان بالآخرة بتقديم الجار والمجرور ،وأكده بالفصل بالضمير {هم} ثم صرّف الحديث عن هدايتهم بذكر لفظ (الهداية) صراحة بطريق الاستعارة.(١) و الإشارة إليهم ببعد كما هي منزلتهم ،والعطف بصفة الفلاح " فجعلت كل واحدة من الأثرتين في تمييزهم بالمثابة التي لو انفردت كفت مميزة على حيالها."(٢)فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ البقرة (٥)وكأن هؤلاء المؤمنين بوصفهم بالمصدر{هدى}كأنهم استحقوا طبع أثر هذا الكتاب عليهم؛فجانس وصفهم بالمصدر هنا وصف أثر الكتاب في المطلع،فكان من مراعاة النظير .

ولما أتبع بذكر نظيرهم صرّف ذكر انتفاء الهداية عنهم كذلك بنفي فعل الإيمان فقال: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ البقرة (٦)لبيان تجدد وقوع عدم الإيمان منهم مرة بعد مرة ،وكأنه يشاكل ماعليه فعل الإنذار من دخول الهمزة عليه الموهمة بتجدد حال الإنذار لهم حينا بعد حين .و لما كانت الهداية تحصل بطريق الإنذار اقتصر عليه دون البشارة ليُعلم أنه إذا"لم ينفع فيهم كانت البشارة بعدم النفع أولى ."(٣) ومن إيراد المعنى بطرق مختلفة ذكر الختم على القلوب والسمع والغشاوة على الأبصار؛ تأكيدا على انتفاء الهداية عن هذا الصنف من الناس. و أتبع هؤلاء بأشباههم وصرّف الحديث عن انتفاء الهداية عنهم أيضا بنفي إيمانهم ولكنه جاء بطريق الجملة الاسمية فقال: ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ البقرة (٨)فعدل عن

---

(١) ينظر القول في الاستعارة في باب أنواع المطلع (مطلع سورة البقرة)

(٢) الكشاف ١/١٦٠ .

(٣) تفسير البيضاوي ١/٢٢ .

قول: وماآمنوا مطابقة لقولهم في التصريح بالفعل حين قالوا: ﴿ آمَنَّا ﴾ إلى إيقاع التصريح على الفاعلين "تأكيدا أو مبالغة في التكذيب؛ لأن إخراج ذواتهم من عداد المؤمنين أبلغ من نفي الإيمان عنهم في ماضي الزمان ."(١) ومن تصريفه القول في انتفاء الهداية عنهم استعارة المرض لقلوبهم . ومن طرقه ردّ ما ادعوه من الإصلاح بالاستئناف به، وإثبات نقيضه من الفساد لهم بتصديره بالتأكيد و حصره فيهم .و رد ما اتهموا به المؤمنين من السفاهة بخلعها عليهم وحصرها فيهم كذلك .وعلّق على الحال بقوله: ﴿ أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ البقرة (١٦) و هذا تصريح ليس بعده تصريح؛ فأتى به أولابطريق الاستعارة أبان فيه استبدالهم الضلالة بالهدى فظهر ذكر (الهدى) صراحة مجاورا لنقيضه (الضلالة) مما زاد المعنى ظهورا، ثم رشح لاستبدال الضلالة بالهدى بنفي الربح، وأوقع انتفاء الهدى على أفرادهم بالختم بالجملة الاسمية فكان أبلغ في نفي هدايتهم؛ ولذلك توصف الفاصلة بالتمكن والاستقرار .

كل تلك الصور جاءت لتكثّف الحديث عن الهداية، وتبين الأثر الناجم عن الأخذ بالكتاب أو تركه، فترسخه في الذهن والقلب معا، فوردت الألفاظ المبينة لأثر الأخذ و الانتفاع به مثل: (الهدى–أضاءت (مرتين)–صيّب–البرق)وكثّف ما يدل على الخسران الناجم عن تركه، فقال: (الضلالة– ما ربحت– ما كانوا مهتدين –ذهب الله بنورهم — ظلمات(مرتين) – لا يبصرون– الصواعق — الموت – يخطف أبصارهم– أظلم – ذهب الله بسمعهم وأبصارهم) وكثّف الحديث عن الخسران ؛لإيقاع الترهيب من ترك الكتاب وعدم الانتفاع من هدايته، وكان قد قدّم ذكر نفع الكتاب و امتدحه في الاستهلال؛ فلم يتحدث عن ضرر عدم الأخذ به، وذلك يصب في معنى البراعة ؛لأنه قدّم بما يرغب النفوس ،وابتعد عما ينفّرها، وذلك أصل في غرض المدح. وإلى ذلك أشار الطيبي حين قال : "ولأمر ما تصدّر أولى

(١) تفسير البيضاوي ١/٢٥ .

الزهراوين بقوله: {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} بدل هدى للضالين الصائرين إلى الهدى بعد الضلال ."([1]) وكلامه هذا يحمل موضع الاستشهاد على المجاز،وسبق الحديث عن هذا المعنى .([2])

ولما دعا النظم الكريم جميع الناس إلى عبادة الله وذكّرهم بنعمه عليهم؛ظهر عنصر التقوى (الأصل الثاني) بارزا قويا مدعوا إليه،وطريقه التعقيب بالترجي لحدوث الفعل،قال الطبري: " فإن قال لنا قائل:فكيف قال جل ثناؤه: {لعلكم تتقون}...فأخرج الخبر عن عاقبة عبادتهم إياه مخرج الشك ؟ قيل له: ذلك على غير المعنى الذي توهمت؛ وإنما معنى ذلك: اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لتتقوه بطاعته وتوحيده وإفراده بالربوبية والعبادة ."([3]) وأقول: لعل إخراج الكلام مخرج الرجاء لغاية لا تحصل بغيرها؛وهي الترهيب من عذاب الله لعظم فضله على عباده الذين لن يقوموا بحق واحدة من نعمائه وإن كانوا مؤمنين .و لما كانت نعمة الخلق نعمة عظيمة كافية وافية عن غيرها من النعم في الاستدلال على أن هناك خالقا قادرا متصرفا عالما واحدا لا غير؛سبقت النعم الأخرى في الذكر مع ظهورها وجلائها ،ولذلك استقلت برجاء وقايتهم من العذاب .و من كمال التقوى توحيد الله وعدم جعل أنداد له تعالى .

والقرآن العظيم الذي قرر تعالى بخبر من لدنه كماله وانتفاء الريب عنه في الآية الثانية من السورة قولا فصلا؛جاء السياق بعد ذلك في الآية الثالثة والعشرين ليفتح باب محاجة

(١) كتاب التبيان صـ٤٦١ .

(٢) ينظر باب أنواع المطالع (مطلع سورة البقرة).

(٣) جامع البيان ١٦١/١ .وقال القرطبي :فيه تأويلات ثلاثة ؛الأول :أن (لعل) على بابها من الترجي والتوقع والترجي والتوقع إنما هو في حيز البشر،فكأنه قيل لهم:افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع أن تعقلوا وأن تذكروا وأن تتقوا. هذا قول سيبويه ورؤساء اللسان .الثاني :أن العرب استعملت (لعل) مجردة من الشك بمعنى لام كي. فالمعنى لتعقلوا ولتذكروا و لتتقوا .الثالث: أن تكون (لعل) بمعنى التعرض للشيء ،كأنه قيل:افعلوا متعرضين لأن تعقلوا،أو لأن تذكروا أو لأن تتقوا . (الجامع لأحكام القرآن ٢٢٧/١) .

المشركين المرتابين فيه فقال: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا . . . ﴾ البقرة (٢٣) وعاد أخرى لإقفال الباب بالتأكيد الأقوى ليثبت عجزهم في الحاضر و المستقبل عن الطعن فيه أو القدرة على الإتيان بمثله؛ مستنصرين بمن أرادوا ممن يشهدون لهم بالبراعة والبيان، فقال في ردف الآية السابقة مباشرة: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ البقرة(٢٣-٢٤) فكان ذلك تبكيتا لهم ،وغاية في الردع والزجر .

وهاتان الآيتان هما من نسل الآية الثانية من السورة التي قال فيها المولى: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ثم قال: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ . . . ﴾ وكأن ما بينهما اعتراض .

فتقوى النار تتحقق في اتباع الكتاب والتصديق به،وقد تلّون أسلوب الخطاب؛حيث كانت تلك الصفة الناشئة عن (التقوى) تنحى منحى الترغيب المضمن في معنى الآية الثانية ثم وردت في الآية الرابعة والعشرين بصيغة الأمر الصريح في قوله: ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ و هو من تلوين الخطاب بمايتناسب مع ذكر الكفار المرتابين حيث ذكره بطريق المجاز المرسل ذي العلاقة السببية ؛لأن تقوى عذاب الله سبب لتقواه تعالى،وهذه جزالة وقوة تتماشى مع مقام الترهيب من العذاب .

ولما قال: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴾ البقرة (٢٦) عاد ذكر الهداية والضلالة على وجه من التقابل،مع ذم الضلالة ،وتفريع الفسق عنها المسبب للخسران .ولما دلّل على توحيد الألوهية بتوحيد الربوبية في آية الدعوة إلى عبادة الله؛وأبان ما يجب أن ينجم عن ذلك من الاتقاء والهداية ؛أنكر عليهم عدم إيمانهم

بالتصريح بذكر كفرهم والاستدلال على توحيده بالخلق الأول والإماتة ثم البعث من القبور، وخلق الأرض وتسخيرها لهم، وتسوية السماء سبعا، و فيه تظهر صيغة الترهيب من الكفر الذي هو نتاج عدم التفكر فيما هو دال على تناهي علمه وحكمته وقدرته .ثم أردفه بما يلين تلك الشدة في الخطاب بالإشارة إلى نعمة التكريم الحاصلة من قصة آدم–عليه السلام – والتي ختمها بالتصريح بذكر الهداية، وتأكيد تبليغهم إياها بإنزال أو إرسال بقوله: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ البقرة (٣٨)"ولذلك حسن تأكيد الفعل بالنون وإن لم يكن فيه معنى الطلب ...وإتيان الهدى كائن لا محالة لأنه محتمل في نفسه غير واجب عقلا ."(١) وكرر ذكر الهداية ولم يضمر، ونسبها إلى الذات العلية على سبيل الشرط ؛تفخيما لجواب الشرط، وتأكيدا لوقوعه من باب آخر، وذلك حين قال: ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ وهذا من أعظم المعاني لتردده على نطاق السورة ؛ولأن أعظم ما يعتري المرء من الهم حالان: خوف من قادم ،أو ندم على فائت، وقد كفى الله المهديين شر هاتين الصفتين، وخصهم بهما دون غيرهم ،مع ضمان الأجر عنده تعالى . وإنما تقدّم نفي الخوف على نفي الحزن "لأن زوال الخوف يتضمن السلامة من جميع الآفات، وزوال الحزن يقتضي الوصول إلى كل اللذات والمرادات...وزوال مالا ينبغي مقدّم على طلب ما ينبغي ."(٢) ولما أتبعه بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ البقرة (٣٩) أبان عن أثر عدم اتباع هدى الله ، ومن هذا يُفهم أنه لما كان أصحاب الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؛كان

---

(١) تفسير البيضاوي ١/٥٥ .

(٢) التفسير الكبير.المجلد الثاني ٣/٢٦ .

أصحاب النار في خوف وحزن خالد مع خلودهم في النار .و هذا تصريف لأثرة الهدى على طريق الاحتباك .(1)

وعلى هذا الامتداد تسير معاني الهداية والتقوى متقاربة غير متباعدة .وهذا ظاهر من مطلع السورة .فبعد أن أجمل تعالى ذكر حال الكتاب من الكمال وحسن الأثر في مطلع السورة؛بيّن وجه كماله وحسن أثره ،وهو كونه مصدقا لما مع اليهود من بني إسرائيل من التوراة،ولذلك حسن الأمر بالإيمان بالكتاب بذكر صفته لا ذكره مباشرة؛وهذا يهيء لقبوله. وحسن الختم كذلك بالأمر بالتقوى لما تقدمه من الأمر بالرهبة .والتقديم مع تكرير المفعول في قوله: ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ وقوله: ﴿ وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ آكد في إفادة تخصيص الله بالرهبة والتقوى،ولما كانت النفس تتزكى بالتقوى أُتبع الأمر بها أوامر أخرى من جنسها من النهي عن خلط الحق بالباطل ،وعن كتمان الحق لأن فيهما تلبيسا بالضلالة وهذا انعطاف على معنى الهداية ،ومن الأمر بإقامة الصلاة و إيتاء الزكاة و الاستعانة بالصبر والصلاة ،وكلها تطهير للنفس وعود لموضوع التقوى ثانية .

وكما خلف نداء بني إسرائيل الأول الأمر بتقوى الله،خلف نداء بني إسرائيل الثاني الأمر بتقوى يوم الحساب الذي لا ينفع فيه شفاعة أو عدل ،وكان ذلك على سبيل التصريح،فنوّع بذكر اتقاء يوم القيامة ؛تصريفا للقول حتى يقع الترهيب من وصف اليوم بعده موقعه من القلب فلا شفاعة ولا فدية و لا نصرة .

وأردف بالتذكير بالنعم أولا استدرارا لعواطفهم و مكامن أحساسيهم لحصول الهداية ودلّ عليه بصريح اللفظ بتعليق نعمة إيتاء موسى الكتاب والفرقان برجاء الهداية لقومه فقال: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ البقرة (٥٣)ثم دلّهم على الطريق الذي يكونون به متقين بالأمر

(١) لأنه حذف من الأول خلودهم في الجنة ودلّ عليه بخلود الثاني في النار ،وحذف من الثاني وقوعهم في الخوف والحزن ودلّ عليه انتفاؤه من الأول .

الصريح بالتوبة فقال: ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ البقرة (٥٤) وبالأمر الصريح بالاستغفار بقوله: ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ البقرة (٥٨) "فجعل الامتثال توبة للمسيء وسببا في زيادة الثواب للمحسن ."([1]) أي امتثالهم بالقول والفعل وهذا تدرج وتساهل معهم للترغيب في تقواهم .و بالأمر بالاعتدال و النهي عن الفساد بقوله: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ البقرة(٦٠) ولما كان أصل العَيْث والعِثِيُّ: الفساد([2]) دلّ باتباعه قول: ﴿ مُفْسِدِينَ ﴾ "أن المعنى: لا تسرعوا إلى فعل ما يكون فسادا قاصدين به الفساد ."([3]) وهذا أصل كبير في التقوى ومن شأنه تطهير أفعالهم . وبالاستنكار عليهم في استبدالهم الدني مما تنبت الأرض بالعلي مما أنزل الله من المن والسلوى بالاستفهام الإنكاري .وبالأمر بدرس الكتاب (التوراة) بجد وعزيمة .

وبأخذ العظة والعبرة من أصحاب السبت ،وبرؤية الآيات عيانا على قدرة الله بإحيائهم بعد الصعق وإحياء الميت كماجاء في قصة البقرة . وبالترهيب من تبديل الكتاب ،والإنكار عليهم تأمينهم العذاب إلا أياما . واستنكار تحريف كلام الله بعد عقلانه،مع استنكار دسّ ما جاء من خبر محمد ﷺ عن طريق الحكاية عنهم ،وتأكيد إيقاعهم في النار خلودا دون خروج . واستنكار إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم بالآخر عن طريق الاستفهام ،واستنكار تكذيب فريق من الأنبياء وقتل الفريق الآخر عن طريق الاستفهام،و استنكار كفرهم بمحمد مع استنصارهم به على أعدائهم من العرب.واستنكار إيمانهم بالتوراة و كفرهم بغيره من الكتب،وبمحاجتهم في أقوالهم بأمرهم باشتهاء الموت تدليلا على صدقهم ،ثم استنكار اقتراح اليهود للآيات عن طريق الحكاية عنهم .

(١) التفسير الكبير.المجلد الثاني ٢٦/٣ .

(٢) المفردات .مادة(عثي).

(٣) نظم الدرر ١٤٦/١-١٤٧ .

كل تلك الأساليب التي تؤهلهم للتقوى تزامنت مع بيان عدم استجابتهم لكل السبل المقدمة لهم لتطهيرهم ،بل وبنقضهم للعهود و المواثيق المأخوذة عليهم ،أي تنكبهم عن طريق الهداية إلى الضلالة استكبارا وعتوا . ولذلك نجد تكثيفا لذكر ما يدل على انتفاء هدايتهم فورد الظلم (تسع مرات)، و ذكر ما يدل عليه من الإفساد، و ذكر الغضب (ثلاث مرات) والخسران (مرتين) ،والاعتداء (مرتين)، وذكر الإثم، وذكر الكفر (ثلاث عشرة مرة) وذكر الفسق ،وكل ذلك ليحقق القول في انتفاء هدايتهم لعدم أخذهم بأسبابها من الإيمان بما جاء في التوراة من خبر صدق الكتاب وصدق نبوة محمد،ومن نقضهم لجميع العهود المأخوذة عليهم .

ففي الآيات بروز لمجيء لفظ (الكتاب) ويقصد به التوراة ،وقصد منه القرآن حين أسنده فقال: (كتاب الله) حيث ورد ثلاث عشرة مرة،وجاء وصف القرآن، بالمصدّق أربع مرات،والخامسة وصف للنبي ﷺ وفيها عود إلى الكتاب،وزاد مرة وقال: هدى وبشرى،وجاء وصفه مرتين بالعلم .وإنما ركز على وصفه بالمصدّق رغبة في إقناع اليهود الذين يدّعون إيمانهم بالتوراة من جهة، ولمحاجتهم من جهة أخرى .

ولما كان ذكر الكتاب واردا على سبيل الإعلام عن مقاصده ؛لم يترك– تعالى ذكره – الناس دون بيان أثر الإيمان بالآيات،و أثر التقوى فجاء لفظ : { الهدى } بمشتقاته خمس مرات وبمدلولاته أو مستلزماته مثل: (الإيمان– الحق – الفرقان – عدم الخوف – عدم الحزن– البشرى – المثوبة الأجر – الجنة – اليقين) . ونجد تكثيفا لمجيء لفظ التقوى بمشتقاته حيث ورد ست مرات،و بالاستعاضة عنه بذكر بعض مدلولاته أونواتجه،مثل: (الصلاة – الزكاة – البر – الصبر – السجود – التوبة – الخشوع – الإحسان – العمل الصالح – الخشية – العبادة – العفو – الصفح – الخير – القنوت). فحقق القول في معاني الهداية والتقوى ؛ترغيبا و تحفيزا ،فعنصرا الهداية و التقوى ظهرا بشكل بارز في خطاب بني إسرائيل،ولا يخفى أن كل ذلك سار موازيا مع جدال أهل الكتاب في أعمالهم الشنيعة وعهودهم المنقوضة، و بيان حسدهم للمؤمنين، ورضاهم الذي لا

يُنال إلا باتباع ملتهم . ومضى الجدال مع أهل الكتاب حتى جاء القول الفصل في هذه الملل الزائفة : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ﴾ البقرة (١٢٠)فهدى الله الذي جاء به رسوله هو الهدى ولا غير ،فأفاد التعريف استغراق أفراد جنس الهداية كلها فيما جاء عن الله فقط،وحصر الهداية فيه عن طريق تعريف طرفي الإسناد مما جعله قولا فصلا،و حسن موقعه لأنه كان يهيئ لانتقال الحديث عن بني اسرائيل النموذج الفاشل للاستخلاف إلى الأنموذج في الخلافة السوية،وختم قصتهم بأمرهم بالتقوى كما افتتح خطابه لهم.

ولما كانت الأقطاب الثلاثة (الكتاب — الهداية— التقوى) يشد بعضها بعضا؛كان لا يغيب أحدها عن صفحة هذه السورة إلا بما يشير إليه الآخر ،وقد نرى إنزواء أحدها في طريق من طرقه ولكنه ليس انزواء كاملا ،ومن ذلك :تواري الحديث عن وصف الكتاب وعن الأمر بالتقوى في قصة إبراهيم — عليه السلام — مما كان يعلو هناك في قصة بني إسرائيل،وكان ذلك كذلك؛لكمال تحقق تقوى إبراهيم — عليه السلام — وبنيه،فلم تكن هناك حاجة إلى الإقناع به،ولكن كانت هناك حاجة لوصف ماكان عليه من الهدى والتقى مماتركه أثر إيمانه بالكتاب . في حين يبرز التقعيد و التأسيس لأمور قوامها الهداية والبعد عن الضلالة مثل قوله: ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ البقرة (١٢٤)"وفي ذلك أتم ترغيب في التخلق بوفائه لاسيما للذين دعوا قبلها إلى الوفاء بالعهد،وإشارة إلى أنهم إن شكروا أبقى رفعتهم كما أدام رفعته،وإن ظلموا لم تنلهم دعوته فضربت عليهم الذلة وما معها ."(١) ولما قصر تعالى عهده على المؤمنين في الآية السابقة؛قصر إبراهيم— عليه السلام— دعوته بالرزق على من آمن بالله واليوم الآخر في قوله : ﴿ وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ البقرة (١٢٦) وهذا تأسيس آخر لبيان حظ

(١) قاله الحرالي في نظم الدرر ٢٤١/١ .

المهديين من الدعاء والرضا، وحظ الكافرين من التمتع القليل في الدنيا، مع بيان قهر الله وجبره للكافر في الآخرة على عذاب النار، وساعد عليه مجيء لفظ : {اضطره} بما يُشعر من ثقل في نطقه يضاهي ثقل هذا الدفع الحاصل إلى العذاب على قلب الكافر .

ومن القاعدات كذلك قوله : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ البقرة(١٣٠)، وهذه عزة لإبراهيم –عليه السلام – تعود بعزة على المصطفى ﷺ أي هي على الجملة إعزاز لدين الله لا غير. ومنها كذلك قوله تعالى : ﴿ قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ ﴾ البقرة (١٣٦–١٣٧–١٣٨)، وهذه الآيات مفصلية ؛لأنها تنكر قول اليهود السابق من الهداية للمتهودين أو المتنصرين ،ولأنها تضع اليد على موضع الخلاف بين المسلمين وأهل الكتاب،ولأن فيها تبكيتا وإفحاما لغير المسلمين ؛و لأنها تبين عن أن طريق أهل الكتاب تنكب عن الفطرة وخالفها .

هذا الجدل في الهداية وضع الأطر،فكانت مرحلة مهمة من مراحل سورة البقرة ؛مرحلة تأسيسية عظيمة؛ وإن ظُن أنها مرحلة هادئة لا تعرض إلا شريحة راقية من الاستخلاف الناجح . فعلا بيان الهداية التي تحققت في إبراهيم –عليه السلام– بذكر (الإسلام) باشتقاقاته ،وعلو حسّ العبارات الدالّة على متعلقات الإسلام مثل: (إماما – البيت – مثابة – أمنا – مقام – مصلى – الطهارة – الطائفون – العاكفون – الركوع – السجود – التزكية – الملّة – الدين – الإله – الرب – الصالحون – الإيمان – الهداية – صبغة الله – العبادة – الإخلاص).

وعنصر التقوى يلازم الهداية على سبيل من الوصف والحكاية،ويظهر ذلك من دعاء إبراهيم -عليه السلام- ومن ذلك قول: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ البقرة(١٢٨-١٢٩) .

ولما كان أمر تحويل القبلة عظيما،وكان من أمر الغيب الذي يدل على الإيمان بالله؛ تصدّر الحديث عنها بيان هداية الله من أراد إلى الصراط المستقيم وفق ماتقتضيه حكمته تعالى،فقال مبتدرا: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ البقرة (١٤٢). ثم قال مبينا للعلة التي من أجلها غيّر القبلة وهو في جملته إنباء "بتقليب الأحكام ليكون تعلّق القلب بالله الحكيم لا بالعمل المحكم."(١) ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ ﴾ البقرة (١٤٣) فكان ركيزة في موضوع الهداية وعليه المعوّل،فتغيير القبلة ابتلاء يتمخض عنه نتيجتان لا غير،إما اتباع الرسول ﷺ أو عدم الاتباع .أي التصديق أو عدمه .

ودعا البيان القرآني إلى ترك الأهواء واتباع الحق ،ثم جاء الأمر بتغيير القبلة مرتين على سبيل من التشديد فقال: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ . . . وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ البقرة (١٤٩-١٥٠) فالختم برجاء حصول الهداية يلزم منه

(١) قاله الحرالي في نظم الدرر ٢٦٤/١ .

الاتبـاع ،ويؤيده وَصْلُ هذا الحديث بما يقصد إلى التزكية والتنقية من بعث الرسول الهـادي إلى مايصـيرون بـه أزكياء، القاصـد إلى تعلـيم الكتـاب والحكمـة. والأمر بالاسـتعانة بالصـبر والصلاة، وبيان فضل الموت في سبيل الله .

معـاني التقـوى هـذه أتـت ردف رجـاء حصـول الهدايـة ؛فـأتى مايزيـد مـن تلاحمهمـا فقال: ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ البقـرة (١٥٧) وهذه الآية تمد يدا إلى قوله تعالى في مطلع السورة : ﴿ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ البقرة (٥) فالإشارة ببعد منزلة السابق أوصافهم مع الحصر سبيل تحقيـق المعاني فيهما، فكما كان التمكن من الهدى طريق الفلاح ،كانـت التزكيـة بـالمغفرة الحاصـلة بسبب التقوى وسم المهتدين ،وكمـا اسـتعلى المتقـون الهدى، اسـتعلت الصـلوات و الرحمـة المتقين، فشملتهم من كل جانب حتى أحاطت بهم، ولـذلك حسـن موقـع الفاصـلة بعـد هـذا الوصف الروحي العميق .

ولما كانت قضية تحويل القبلة عظيمة ؛أُتبعت بدلائل التوحيـد ؛لتثبيت أركانهـا في نفـوس المتلقين .ثم أتبعها ببيان أسبـاب الضلالة والبعد عن الهداية من اتخاذ أنداد لله ،ومن اتبـاع خطـوات الشيطـان ،ومن ترك اتباع ماأنزل الله، والتمسك بما كان عليه الآبـاء والأجـداد ومن كتمان ماأنزل الله من الكتاب، ووصل بهذا المعنى إلى تقابل صريح ثالث بين الضلالة والهدى على مستوى السورة فقال: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ﴾ البقـرة (١٧٥) وفيها كلها يعبِّر بالشراء عـن الاسـتحباب أو الاسـتبدال[١] وهـو تعبيـر يتوافـق مـع

(١) شـراء الضلالة بالهدى استعـارة تصريحيـة تبعيـة ؛فشُبـه استبدال الضلالـة بالهدى والغي بالرشـاد بشـراء المشتـري ما يرغب فيه و يحبه، و تركه لما لا يحبه ولا يرغب فيه، و الجامع : (الرغبـة عما فيه نفـع إلى ما لا نفع فيه مع حصول الخسران) .ومن بلاغة الاستعارة تصوير المحب للضلالة على الهدى صورة المشتري بضاعة على أخرى لأن الشراء يكون لما يحبه الإنسان و يريده . وفائدة الاستعارة تصوير محبة المنافقين للضلالة صورة من يبذل الغالي والنفيس لينال شيئا لا خير فيه لرغبته فيه ؛للمبالغة في بيان استحبابهم للضلالة على الهدى .

مايتصف بـه أهل الكتاب من محبة المادة و تقديمها على كل شيء .وزاد في هذه الآية بـذكر متقـابلين آخـرين يتمخضـان عـن المتقـابلين الأولين ؛وهمـا العـذاب والمغفرة،فكـان تصـريحا بمنتجات كل منهما، لذلك حسن الإقفال بالتعجـب مـن حـال عـدم مبـالاتهم بمـا هـم إليـه صائرون .

كـل مـاتقـدّم من أسبـاب الغـوايـة و البـعد عـن الضـلالـة مهّـد للـرجـوع إلى الحـديـث عن الكتاب،فتوعـد الذين يكتمون أمر صدقه من أهل الكتاب بالعذاب الشديد،وأثبت أنه حق،وأثبت بعد المختلفين فيه عن جادة الصواب .ولما كـان صوت التقوى مضمنا في كل ذلك؛صّرح بها بتسميتها برّا في أول الآية ،وختمها بما يدل على أنه منها،فقال: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ . . . وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ البقرة (١٧٧).

وبانتقال الحديث إلى التشريعات كُثِّف ظهور عنصـر التقـوى بشـكل واضـح ؛لأن الالتـزام يحصل به وعن طريقه،وجاء الأمر أو الترغيب إليه بلفظه صراحـة حينـا، و بلفـظ مقتضـياته حينا آخر،فلما شـرع في الحديث عن القصـاص عبّـر بالعفو والمعـروف والإحسـان والرحمـة. ولـمـا فرض القصـاص عبـر صراحـة بلفـظ التقـوى،و أردف بذكـر فـرض الوصـية لـمن دنـا أجله،وفرض الصيام ،وعبّر معهما بلفظ التقـوى. ثم ربط شهر رمضـان بالقرآن الكريم ببيـان زمن النـزول،وببيـان الأثـر الذي يتركـه،فكـان عودا على الحديث عن الكتاب والهدى،وزاد من أثر القرآن فقـال: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ البقرة (١٨٥)."وأمـا قوله: {هدى للناس} فإنـه يعـني رشـادا للنـاس إلى سـبيل

==واستعرض عايد محمد عبدالله دلالة فعلي البيع و الشراء في القرآن الكريم ،وقسم الدلالات إلى أنواع ؛معجمية وصرفية و زمنية وأصلية(مباشرة) و ظنية (غير مباشرة) (ينظر دلالة فعلي البيع و الشراء في القرآن الكريم صـ١–٢٠. مركز دراسات الكوفة.العدد العاشر.٢٠٠٨)

الحق وقصد المنهج .و أما قوله: {وبينات} فإنه يعني وواضحات من الهدى يعني من البيان الدال على حدود الله و فرائضه و حلاله و حرامه.وقوله: {والفرقان} يعني والفصل بين الحق والباطل ."[1] وهذا تصاحب لذكر الهداية و الكتاب و التقوى معا .

ثم عاد الحديث أخرى عن التشريعات،فذكر التقوى بلفظها حين ذكر الرفث إلى النساء في رمضان،وزاوج بين الأسلوبين حين السؤال عن مواقيت الحج فذكر البر وذكر التقوى فقال: ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ البقرة (١٨٩) فكمال البر هو تقوى الله في المحارم والشهوات .

وحين أمر بالقتال ذكر التقوى بمقتضاها من عدم الاعتداء،ثم صرّح بها حين ذكر دخول الحرم في الشهر الحرام،وعظمها بذكر معية الله للمتقين وهذا علو لمعنى التقوى .

ولما أتبعه بالأمر بالإنفاق مما يعين على القتال؛ذكر الإحسان بدل التقوى ليتناسب مع الإنفاق في سبيل الله .ولما أرجع الحديث إلى الحج ،وكان قد مهّد له بسؤال الصحابة عن الأهلة ؛أمر بالتقوى صراحة،وقرن إليها الأمر بالعلم بأن الله شديد العقاب فقال: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ البقرة (١٩٦) أي: " لمن لم يتقه كي يصدكم للعلم به عن العصيان ."[2] وهذا تصريف للأمر بالتقوى على غير ما مرّ بنا في السورة .

وجعل التقوى خير زاد الحاج ترغيبا فيها،وعاد وذكر الهداية منة من الله بعد الضلال،وتفرّع منه إلى تفصيل الذاكرين من راغب في الدنيا ،متكالب عليها ،ومن جامع بين الدنيا و الآخرة بقصد،راغب في وقاية عذاب النار،مع الثناء على هذا الأخير ترغيبا في العمل لأجل الوقاية من العذاب .

---

(١) جامع البيان ٢/ ١٤٦ .

(٢) تفسير البيضاوي ١١١/١ .

وأقفل الكلام عن الحج بذكر التقوى صراحة والأمر بها مع قرن الأمر بالعلم بالحشر إليه تعالى، فقال: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ البقرة (٢٠٣) وهذا قرن بين التقى والهدى، أي بين الاستبصار بالإيمان بالبعث، والتزكي والتطهر في الشرائع . وهو من تصريف القول في معاني الهداية .

ولما ذكر صنفين من الناس جمع بين أضداد الهدى والتقى فقال: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ * وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ البقرة (٢٠٤- ٢٠٥-٢٠٦-٢٠٧) وهذا كله جمع بين الهدى والتقى. فالعنصران سارا معا سيرا متجاورا، ولما نادى الله المؤمنين وأمرهم بالإذعان عبّر عن الهدى بالسلم، وجمع إليها التقى بالعطف بالنهي عن اتباع خطوات الشيطان .ثم أتبع ذلك بنفي الهداية عن بني إسرائيل، وبيان سخرية الكافرين من المؤمنين، مع أن المؤمنين المصرّح بتقواهم أعلى منهم درجة يوم القيامة حيث وسمهم بالفوقية، وإنما غاير بين التعبيرين فقال: ﴿ وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ البقرة (٢١٢) "ليدل على أنهم متقون ،وأن استعلاءهم للتقوى ."(١)

ومضى تجاور التقى والهدى في معاني السورة بعدها ،وظهر معنى الكتاب يجاورهم ؛فلما ذكر البيان القرآني الهدف من بعث الأنبياء إلى الناس، وإنزال الكتاب معهم ،وهداية الله للمؤمنين لما اختلفوا فيه من الكتاب، وهدايته من يشاء للصراط المستقيم؛ أبرز العنصرين متجاورين مع ظهور معنى الكتاب معهم .

---

(١) تفسير البيضاوي ١/١١٤ .

وبانعطاف المعنى ثانية على التشريعات انزوى معنى الكتاب، وعاد الأثران معا على مستوى من البروز والتجاور ضمنا وصراحة. ومضى هذا التكثيف مترجما في الإجابات عن أسئلة الصحابة حين سألوا عن الإنفاق، وعن القتال في الشهر الحرام، وعن الخمر والميسر، وعن الإنفاق ثانية ،وعن اليتامى، وعن المحيض، فأول ما يدل على التقى تلك الاستفسارات التي اختلجت صدورهم ،التي تزيد من مستوى إيمانهم، إذ السؤال عن الشيء دليل اهتمام ورعاية .وإخبار النظم القرآني عن أسئلة الصحابة عن طريق الحكاية و الإلماح إلى أدبهم بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ (١)فرع من التقى . وصحب تلك المعاني ما يدل على أثر الهداية ،فجاء ذكر (الخير)حين السؤال عن الإنفاق ،وحين فرض القتال، وحين النهي عن نكاح المشركات، وزاوج بينه وبين (الإصلاح)حين السؤال عن اليتامى، في حين جاء ذكر نواتج التقى من (الرحمة و المغفرة)حين إثبات حق المؤمنين والمهاجرين والمجاهدين.

والملحوظ أن هناك بروزا لعنصر التقوى بلفظه الصريح وبمدلولاته حين الحديث عن العلاقة الأسرية؛ فأمر بتقوى الله في غشيان النساء ،وقرن إليه الأمر بملاقاته واستأنف بأمر النبي بتبشير المؤمنين، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ البقرة (٢٢٣)

وفي التعبير بملاقاة الله تصريف لمعنى البعث إلا أنه يصرف النظر عن البعث إلى الاستحياء من الله حين عدم الامتثال .

وفي ذكر الأيمان عطف بين البر و التقوى و الإصلاح بين الناس بما يبين عن تآخي تلك المعاني واندراجها في سلك واحد .

ولما كان (الطلاق) مما يجمل فيه الإحسان عبّر عن التقوى فيه بتكثيف ذكر المعروف وبذكر الإصلاح و الإحسان ؛لأنها معان بعضها من بعض . ولما حذّر من المراجعة في (الطلاق) لأجل الإضرار جمع بين التصريح بلفظ التقوى ؛وذكر المعروف تشديدا على المعنى، ولما كان معنى الإضرار عظيما رهب منه ونسبه إلى الاعتداء .

---

(١) تنظر الآيات : (١٨٩-٢١٥-٢١٧-٢١٩-٢٢٠-٢٢٢)من سورة البقرة .

وظهر الحديث عن الكتاب بمعنى القرآن بعد أن توارى قليلا في السابق ،وكان مقام ظهوره المنة بالهداية ببعث محمد ﷺ و بإنزال الكتاب. وعاد الازدواج بين معنى التقوى الصريح والضمني بلفظ المعروف إلى أن انتهى من موضوع الطلاق لأهمية الإحسان فيه كما سبق ذكره.

وذُكرت التقوى بلفظها الصريح في التشريعات إحدى عشرة مرة ،وبمدلولاتها مثل: (المعروف(أربع عشرة مرة)–الإصلاح(خمس مرات)–الإحسان(سبع مرات)–البر(مرتين)–التوبة(مرتين) الطهر (أربع مرات)–العفو (أربع مرات)–الرحمة(مرتين)– التخفيف – المغفرة– المرضاة) وذكرت الهداية بلفظها الصريح ست مرات،و بمدلولاتها مثل: (الخير (ثمان مرات)– البينات (أربع مرات) –الرشاد) وهذا كله غير ماضُمن في المعنى الذي يبرزه السياق ،فهو تكثيف ملحٌّ متناسب مع سياق التكاليف الشرعية التي هي فرع عن التقى وتأصيل للهداية .

فالمعاني الثلاثة المقصودة في الاستهلال سارت من أول السورة تشق طريقها إلى منتهاها متصرفة حسب الأحوال و المقامات و السياقات بنفس البراعة.ولما كان الهدى و التقى في مطلع السورة قريني الإيمان بالغيب حين قال: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ البقرة (٢–٣–٤) فكان براعة في الاستهلال،ولما كانت قضية البعث قضية غيبية صرفة،و مما يجب الإيمان بها ،وكان قد مهّد لها بإثبات القدرة لله تعالى على كل شيء؛على الإحياء بعد الموت ،والنصر على الأعداء كثيري العدد،وإتيان ملكه لمن يشاء من خلال ذكر قصة نبي الله طالوت مع قومه، وقتالهم جالوت وجنوده حتى وصل بها إلى آية الكرسي الدالة على الله تعالى أعظم الغيبيات ذي القدرة والعلم –لما كان كل ذلك؛عادت العناصر الثلاثة بعد أن تثنت بين أعطاف المعاني قائمة بوظائف مختلفة متعددة بين الترغيب والترهيب والتنفير والتبشير والوصف والمبالغة؛بين الظهور والانزواء والسير المتقارب

والمتجاور ؛عادت لتلتقي بقضية الغيب ثانية،وسار عنصرا التقوى و الهداية- بلفظيهما صراحة أو بمدلولاتهما- مع الإيمان بالغيب يعززانه و يشدان عليه،فمن أول التمهيد لقضية البعث نجد معنى التقوى بمدلوله وهو القرض الحسن لله يظهر ومعه بيان أثره من مضاعفة الثواب،مع ختم الآية بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾البقرة (٢٤٥) والهداية أصل في حصول القرض،في حين يبدو عنصر الهداية بمدلوله في قصة طالوت — عليه السلام- حين الاستدلال على ملكه فذكر (الآية) مع التعليق بالإيمان في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾البقرة (٢٤٨)،ثم ذكر ما يكون من أثر الهداية من السكينة والحكمة والحق والبينات،و جاء عنصر التقوى بمدلوله بمعنى الصبر والثبات في نفس القصة ،ثم بسببه من الإنفاق حتى وصل إلى آية الكرسي ،وكُثِّف مجيء معنى الهداية وصفا لحالها من ظهور نفعها دون خفائه ولذلك قال: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ . . . ﴾البقرة(٢٥٦) فذكر البيان والرشد والتمسك والعروة الوثقى والنور والولاية.

و لما كانت قصة الذي حاج إبراهيم في ربه تدل على الإشراك بالله والاستكبار ؛جاء التصريح بلفظ الهداية ونفاها عنه،ولما كانت قصة الذي مر على قرية تحوي دروسا وعبرا في إثبات القدرة الإلهية؛جاء ذكر الهداية بمدلولها من البيان و الآية ،ولما كان سؤال إبراهيم- عليه السلام- عن الكيفية وليس عن الشك في القدرة ؛ذكر أثر الهداية من اطمئنان القلب .

وسار بمدلول التقوى والهداية من الإنفاق حتى وصل إلى الدين ،وكان يذكر التقوى بلفظه ومدلوله مع أثره مثل: الأجر والمعروف والمغفرة والخير والوابل والجنة والربوة والأُكل والمضاعفة والطل والمغفرة والفضل . وأورد الهداية بلفظها و بمدلولها من الموعظة ،وعدم الخوف والحزن .وسار عنصر التقوى في بروزه أثناء بسط قضية المداينة فذكر بلفظه الصريح تغليظا للحقوق ،وسار معه عنصر الهداية بمدلوله من الحق والشهادة والقسط .

ولما كان الحديث عن الكتاب فرعا أوليا عن الغيب ،و يصب في معنى الألوهية ؛ابتدأ بـه السـورة سيرا مع الهدى والتقى بيـانا لأثـره .ولما كان الحديـث عن البعـث فرعـا آخـر عـن الغيب ،وهو دال على الانتهاء ناسب الختم بذكره في الوصول إلى ختام السورة إيـذانا بقـرب انتهائها سيرا مع معنى الهدى والتقى ،فكان فرعا من براعة اختتام السورة .

وبالنظر إلى ختـام سـورة البقرة نجد أصلا لتلك البـراعة؛ فكمـا أشار في مطلـع السـورة إلى كمال الكتاب الكريم ،وإلى حسن أثره الحاصـل لزمـرة المتقيــن؛افتتح خاتمـة السـورة ببيـان انطباق حسن أثره على الرسول ﷺ والمؤمنين معه، فكانوا من خيرة المـتقين المـذكورين في أول السورة حين قال: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ولما امتدح المـتقين في مطلـع السـورة بالإيمـان بالغيـب، وبما جاء عن الرب في السابق واللاحق على سبيل الإجمال ،وكان هذا المعنى يتردد في ثنايـا السورة بالإيمان مرة والإسلام أخرى؛فصّله في الختام فقـال: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ البقـرة (٢٨٥) فالعنايـة في آيـة الخاتمـة تنصـب علـى إثبـات الإيمـان للرسـول ﷺ و المـؤمنين إيمانـا مفصّـلا، إيمان بـالله وملائكتـه وكتبـه ورسـله، وهذا التفصـيل مـع الجمـع يـذكرنا بقـول الله تعـالى علـى لسـان إبـراهيم –عليـه السلام: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ البقرة (١٣٦)

ومن أهم ما اعتنت به خاتمة سورة البقرة تركيز المعنى المراد تحقيقه كما أشرنا في معاني السورة كلها، قال الفخر الرازي عن آية الختام: " فقوله: {آمن الرسول} إلى قوله: { لا نفرق بين أحد من رسله} إشارة إلى معرفة المبدأ، وقوله: {وقالوا سمعنا وأطعنا} إشارة إلى علم

الوسط ،وهو معرفة الأحـوال التي يجب أن يكون الإنسـان عالـما مشتغلا بها مادام يكون في هذه الحيـاة الدنيا،وقوله: {غفرانك ربنا وإليك المصير} إشارة إلى علم المعاد،والوقوف على هذه الأسرار ينوِّر القلب،ويجذبه من ضيق عالم الأجسام إلى فسحة عالم الأفلاك وأنوار بهجة السموات ."(1)

فالرازي أشار إلى نقطتين مهمتين؛الأولى: تركيز الخاتمة؛فعلم المبدأ الذي ذكره تكلمت فيه السورة حين ذكرت قصة خلق آدم- عليه السلام- وماتبعها من التعليم و الكرامة ثم الخطأ والتوبة. وعلم الوسط هو مانشأ عن هذا الخطأ من الهبوط للأرض والاستخلاف فيها،مع تكليفهم بالتكاليف،فكان الناس في ذلك قسمين: ضال ومهتدٍ .وعلم المعاد هو البعث والنشور الذي تكلمت السورة فيه وأثبتت تحققه .

أمـا الثانيـة فهي: الأثـر النفسـي لمعرفـة أسـرار خاتمـة السـورة،فالختم بالـدعاء مـؤذن بالانتهاء،ومن أحسن الأغراض التي تُختتم بها المقاطع، ولما كـان الـدعاء هـو العبـادة؛ قُـرن ذكره وتعليمه مع ذكر التشريع، وفي تأمله بيان حسن ترتيب المعاني بجوار أخواتها .

وختمت السورة بما يُريح النفس من التشوّف إلى مـا بعـد هـذا الكـلام ،وقـدّم لهـا الوسـائل الموصلة إلى الغايات، فأرشدها إلى هداها ؛لأنها استحقت الهداية باتباعهـا الكتاب،واتقائهـا أسباب العذاب،فرجع المعنى إلى أول السورة الذي يبيّن أثر الإيمان بالكتاب .

فكما ذكر في المطلع الهداية دل عليها في الختام بالثناء على إيمان الرسول والمؤمنين،وكمـا استصحب معنى التقى الهداية؛استصحبه في الختام بذكر حال المؤمنين من الامتثـال بالعمـل مع العقيدة والوجل المفسر من دعاء المغفرة المسوق بالمصدر مع الدعاء بعدم المؤاخـذة وتحميـل ما لا يكون في الطاقة،و الدعاء بالعفو و المغفرة و الرحمة. وكما ذكر أصناف النـاس في المطلـع وخلص إلى أنهما قسمان لا ثالث لهما ؛أشار في الخاتمة إلى القسم المـؤمن مـن خـلال عـرض

---

(1) التفسير الكبير .المجلد الرابع ١١٨/٧ .

إيمانه وتقواه ،وعرض للكافرين عرضا ،وانتقل إلى الحديث عنهم في براعة مطلقة حين انزلق إليهم من خلال دعاء المؤمنين بالنصرة عليهم ،وهذا ما أشار إليه الأصبهاني بقوله : "وافق آخرها أولها من ذكر أوصاف المؤمنين ،ثم الإشارة إلى وصف الكافرين ."([1]) وهذا هو التناسب النوعي أو قل الوظيفي و المعنوي بين مطلع سورة البقرة و خاتمتها،و هو من المناسبات الظاهرة الارتباط التي لا تُشكل .

* * *

(١) مراصد المطالع في تناسب المقاطع و المطالع .بحث في العلاقات بين مطالع سور القرآن و خواتيمها .جلال الدين السيوطي .قرأه وتممه :عبد المحسن عبد العزيز العسكر صـ٤٧-٤٨ .ط١ . ١٤٢٦هـ .مكتبة دار المنهاج /المملكة العربية السعودية- الرياض .

ثانيا /

براعة الاستهلال في سورة آل عمران طريق إلى براعة المقطع

يفتتح المولى مطلع سورة آل عمران بالأحرف المقطعة ﴿ الٓمٓ ﴾ التي ترمز إلى الإعجاز الذي يقتضيه مقام المحاجّة[1])فصدّر حديثه تعالى بالإخبار باسمه المعظم ﴿ اللَّهُ ﴾ الذي يُساق في مقام العزة و الجلال، وأبان بطريق القصر عن تفرده تعالى بالألوهية، أي أنه ليس ثمة إله سواه، ودلّ على ذلك التفرد بالوصف بقوله: ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾آل عمران (٢) لأنهما صفتان تقطعان أمل كل مؤمل بأن يكون هناك شريك مع الله في ألوهيته .

فابتدأت السورة بكلمة التوحيد القائمة على النفي و الإثبات؛ نفي شريك لله في ملكه وإثبات وحدانيته، ثم ساق أدلة تبين عن استحقاقه تعالى للتوحيد، فتغازرت الأدلة في مطلع السورة ومقدمتها، ومنها: أنه تعالى حيّ قيّوم، وغيره يموت ويفتقر إليه، فدلل تعالى من أول السورة على أنه واحد، وأشعر بمقصود السورة من أولها ،وهذا المعنى تتناسل منه معاني السورة وتعود إليه .

وتتابعت هذه الأدلة في مقدمة السورة بعدها من بيان القدرة على تنزيل الكتب السماوية الحاوية هداية البشرية. والقدرة على التعذيب والانتقام، مع الحكمة والعدل .وبيان الإحاطة العلمية .والقدرة على الإنشاء من العدم .وتنزيل الكتاب محكمه ومتشابهه، وقصر علم متشابهه عليه تعالى وحده دون سواه.

هذه الأفعال كلها داخلة في معنى الحياة و القيومية؛ لأنه لا يستطيع أن يقوم بتلك الأفعال من يغلبه موت أو فناء، ولا يقدر عليها إلا من هو قائم بنفسه وبكل من هم دونه، لذلك أتت الأفعال من تنزيل الكتاب، والتصوير في الأرحام، وابتلاء الخلق بالمتشابه من آياته، والجمع يوم الحساب. وأتت الصفات من الحياة، والقيومية، والعزة، والحكمة، وشمول العلم تعزز معاني الفخامة والجلال لله تعالى، وتمكّن معنى التوحيد في النفس، وتعرّف بالله المستحق للتفرد وحده دون سواه .

---

(١) لتفصيل القول في أثر حروف التهجي ينظر باب المطالع وعلاقتها بالمقصود (تأصيل الفصل الأول :أنواع المطالع) .

فكانت أول آية في السورة تثبت الألوهية الحقة لله تعالى ،وتنفي أن يشترك معه آخر،فأبطل بهذا المطلع قول القائلين من النصارى وغيرهم بألوهية عيسى–عليه السلام– وأكده تقدّم لفظ الجلالة(١) في قوله: ﴿ اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ كما كان للنفي والاستثناء أثر في تبديد إنكار النصارى لوحدانية الله تعالى،و توالي الصفتين ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ مع ترك الوصل بينهما ينبئ عن كمال اجتماعهما في الموصوف(٢) جلّ شأنه.

قال الرازي في ذلك:" اعلم أن مطلع هذه السورة له نظم لطيف عجيب ،وذلك لأن أولئك النصارى الذين نازعوا رسول الله ﷺ كأنه قيل لهم :إما أن تنازعوه في معرفة الإله،أو في النبوة ،فإن كان النزاع في معرفة الإله،وهو أنكم تثبتون له ولدا وأن محمدا لا يثبت له ولدا،فالحق معه بالدلائل العقلية القطعية،فإنه قد ثبت بالبرهان أنه حي قيوم،والحي القيوم يستحيل عقلا أن يكون له ولد ،وإن كان النزاع في النبوة فهذا أيضا باطل ،لأنه بالطريق الذي عرفتم أن الله تعالى أنزل التوراة والإنجيل على موسى وعيسى فهو بعينه قائم في محمد ﷺ ،و ما ذاك إلا بالمعجزة وهو حاصل ههنا ،فكيف يمكن منازعته في صحة النبوة ؟ فهذا هو وجه النظم وهو مضبوط حسن جدا ."(٣)

ولما كان التوحيد يقوم على المعرفة بالله،والمعرفة بالله تقوم على الفقه بمعاني أسمائه وصفاته؛جاءت الآية الأولى بعد الحروف المقطعة تبين عن صفاته العلا،وذلك يتناسب مع مقام ترسيخ عقيدة التوحيد؛لأنه حقق المعرفة بالله و العلم بذاته . فكانت تلك العزّة والجلال المفعمة في الآيات دالّة على تفرّد و وحدانية، وذلك أشعر بمقصود السورة الأعظم

---

(١) يقول تمام حسان ": فإذا اعترفنا بأن في إعلان العلم بالشيء والاهتمام به إعلاء لشأنه بالنسبة إلى المجهول والمطرح أو الأقل استدعاء للاهتمام ؛كان ذلك اعتدادا منا بأن التقديم نوع من التأكيد (البيان في روائع القرآن. تمام حسان ٢/ ١٣٤ . ط ٢ . ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠م عالم المكتبة – القاهرة.)

(٢) ينظر الكشاف ٢٤٦/٢. ومثله في علم المعاني.بسيوني فيّود ١٣٧/٢ .

(٣) التفسير الكبير .المجلد الرابع ١٣٥/٧ .

فاتصف المطلع بالبراعة، و كانت الآية الأولى منها مفتاح معاني العزّة التي نبّه عليها في السورة بأكملها.

ولما عرّف الله بنفسه في أول السورة ؛قطع عذر كل معتذر في عدم المعرفة، والعلم بالله يقتضي خشيته، والعلم بالله طريق إلى الانقياد والخضوع، فيدخل حينها العبد مرحلة المسلم المستسلم بكل معاني الاستسلام، بما في ذلك المحكم والمتشابه من الأقوال والأفعال، وإذا حصل منه الاستسلام وصل إلى المرحلة الثالثة، وهو أن يلحق به وصف الأبرار والمتقين والصابرين والأعلين .

ولما كانت صفة الحي تدل على كمال الصفات الذاتية لله تعالى، وكانت صفة القيوم تدل على كمال الصفات الفعلية له تعالى؛عزّ المطلع وعظم لأن ذلك يعني القسم بالتفرّد والتنزّه عن الشركة .

وصفتا (الحيّ- القيّوم) يلزم منهما صفات ثلاث: قدرة، و استغناء، وعزّة .و العزّة لا تثبت إلا مع إطلاق علم و إطلاق قدرة ،وهما من جانب آخر يقتضيان الوصف بالحكمة .و هذا المعنى يشيع صراحة وضمنا في آيات السورة كلها- ولاريب- لأن العزّة الكاملة تعني الغلبة والقهر، و تقتضي التفرّد ؛الذي جاءت السورة لتبيّن أسباب حصوله لله دون غيره، ومقتضيات انتفائه عن كل ما هو دونه، فتكرر قوله: ﴿ اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ أربع مرات، و اقترنت في كل أحوالها بصفتي العزّة و الحكمة متلازمتين . فلما كانت سورة آل عمران هي سورة التوحيد لاءم أن تضم عبارة التوحيد على قدر لايضاهيها في أي سورة أخرى من سور القرآن الكريم .

و سارت البراعة مصاحبة لمعاني السورة ؛فلما كانت آية المطلع تظهر وحدانية الله وتفرّده بالحياتية و القيوميّة ،و هو يعني عزّة شأنه؛أكد على هذا المعنى ببيان أنه تعالى يفيض من عزته على دينه، و على أتباع دينه، و بالمقابل فكل من يكفر به فسيكون حاله لزوم الذلة و المهانة.و هذا ملحوظ في السورة بشكل شائع؛فمن عزته لدينه تعالى توعده للكفار بالعذاب، و ذكر شيء من أخبارهم الآتية من الخزي و الغلبة عليهم من قبل

المؤمنين ،و الحشر إلى جهنم .ولما كان هذا حال الكفار من التدني ؛أردف مباشرة بذكر حال المؤمنين من العزة و الوعد بالجنات و الأزواج المطهرة،و أعلا درجة العزة بذكر الرضوان من الله .

ولما قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ آل عمران (١٨) عزّ الخطب،لأن الله تعالى هو الشاهد(١)فكانت في الأولى منها شهادة و في الثانية حكما لا ينبغي أن يتعدى عليه أحد ،لأن من لم يُذكر في هذه الآية غير معتد بشهادته .

و لما جادل وفد نجران النبي ﷺ في أمر عيسى و قالوا بألوهيته حينا،وببنوّته حينا آخر،وبأنه ثالث ثلاثة حينا ثالثا،دعاهم ﷺ إلى المباهلة،فخافوا على أنفسهم من الهلاك فأقروا النبيﷺ وثبتوا على دينهم شرط دفع الجزية فأخنسهم الله بقوله : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ﴾ آل عمران (٦٢)،ونفى جميع الآلهة،واستغرق جميع أصناف أصنامهم،وأثبت له الألوهية دون سواه،فأكد على معنى توحيده،وأكد على اتصافه بالعزة والحكمة التي تعتبران من مقتضيات ألوهيته تعالى.

وهذه الآيات من أقوى الدلالات المباشرة على الحياتية والقيومية التي تحقق معنى التوحيد.

وكما أفاض تعالى من عزته على كتابه وأتباعه ؛أعزّ دينه كذلك فقال: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ آل عمران (١٩)،و كما أعزّ دينه أعزّ رسله و المؤمنين من بعدهم ،فعلّمهم المحاجة التي تعزّهم وترفع شأنهم عند غيرهم. و لما ذكر العزة المستقاة من الإيمان بالله ذكر الذل الحاصل من عدم الإيمان بالله من البشارة بالعذاب وحبط الأعمال في الدنيا والآخرة وانتفاء النصرة .

---

(١) مذهب أهل السنة والجماعة عدم الخوض في أفعال الله أو صفاته بتأويل أو تشبيه أو تمثيل أو تكييف أو تعطيل.

ولما كان أسلوب القرآن على حال يقترن فيه الوعد والوعيد مع الآيات الدالة على القدرة الإلهية قال بعدها: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ آل عمران (٢٦)، وفيها من تنزيه الله ما لا يخفى و من الإقرار بتوحيده؛ وقد بلغ بالمعنى غاية في القوة والشدة حين عبر بلفظي: {الذّل و النزع} مقابل {العزّ و الإيتاء}. وأسهم التضاد بين الأفعال والأسماء في بيان العزة والقدرة المتناهيتين لله تعالى وعزّزه مجيء العكس والتبديل بين متعلقات فعل الإيلاج والإخراج لأنه يقصد إلى تأكيد القدرة المفضية إلى تأكيد العزة .([1]) وكمل ذلك التنزيه بقوله تعالى: ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ دلالة على اختصاصه تعالى بتصريف الأمور.وختم بما يؤكد على القدرة التي ابتدأها في أول الآيات ،ولذلك ترك العطف فقال: ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فكان من تشابه الأطراف في المعنى،لأنه إذا ثبت أنه الملك ثبت أنه القادر على كل شيء . ولما عقّب بقوله: ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ رد الأعجاز على صدورها من إيتاء الملك أو نزعه، فإذا ثبت أنه تعالى هو الملك المتصرف ثبت أنه ليس هناك من ينازعه ملكه،وذلك يقتضي أن ليس هناك من يحاسبه على عطائه أو منعه فزاد معنى التوحيد استقرارا ،لذلك توصف الفاصلة بتمكنها في الآية .ولما أتبعه بما يدل على واسع علمه الذي يدل بطريق التتبع على عظيم قدرته بقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ. . . ﴾ آل عمران (٢٩) ؛عزز معنى القدرة بالتصريح بمعنى طلاقة العلم لله تعالى .

---

(١) " نلحظ في الآيتين التدرج في إبراز القدرة ،فإذا كان في البشر من يستطيع بما له من وجاهة أن يعطي ويمنع وأن يعز ويذل على وجه من الوجوه فقد جاءت الآية الثانية بهذه المعاني المتضادة التي ينفرد بها المولى عز وجل، وهي إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل ،وإخراج الحي من الميت ،وإخراج الميت من الحي ...جاءت بطريقة (العكس والتبديل) لتتجلى قدرة الله تعالى وعظيم سلطانه وهيمنته على الأشياء " (من بلاغة النظم القرآني. دراسة بلاغية تحليلية لمسائل المعاني والبيان والبديع في آيات الذكر الحكيم .بسيوني عبد الفتاح فيّود صـ٣٣٤ .ط١ ١٤٣١هـ-٢٠١٠م .مؤسسة المختار للنشر والتوزيع – القاهرة .)

فالـدلالات المبـاشرة على العـزة في السـورة لا تكـاد تحصى، وتعد قصة ولادة المسيح عيسى بن مريم بجميع إرهاصاتهـا ودلالاتهـا ونتائجهـا من أقـوى الأدلـة والبـراهيـن على استحقاق الله للتوحيـد بما حوتـه من قـدرة وعـزة واستغنـاء .

ولما ذكر البيان القرآني دعوة أهل الكتاب إلى الكلمة السواء، وأتبعه بذكر أعمالهم على سبيل الاستنكار والتعجب من الحجاج في إبراهيم بغير علم ومن الكفر بآيات الله ومن إلباس الحق باطلا، وكتمان العلم ،والإيمان أول النهار والكفر آخره ؛ حصر الهداية فيمن هداه الله ثم ذكر اختصاص الفضـل والرحمـة بمـن دخل تحت مشيئـة الله . وكل ذلك يؤكد على العزة الكائنة للمؤمنين المكتسبة من عزة الله تعالى . ولذلك أردف بذكر الفئة المقابلة لهم فذكر حال الكفار، ونفى عنهم الحظ و النصيب من الجنة ،ونفى نظرة الرحمة والعطف من اللـه، و نفى الطهارة من الذنوب ،ثم أثبت لهم العذاب الأليم، و هذا كله يعني انتفاء العزة المكتسبة من الله تعالى، وإثبات المذلة بدلها .و هي دلالات مباشـرة على معنى العـزة المقررة للتوحيد .

ولما كانت العزة تنبئ عن حكمة أبـان أن الأنبيـاء هم أول الموحـدين، وأطهرهم فقال: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ. . . ﴾ آل عمران(٧٩-٨٠- ٨١) فلا مجال للريبة في تبليغهم الرسالات ،أو في اتهامهم بما لا ينبغي أن يصدر منهم ،وهم الذين أُخذ عليهم الإصر بالاتباع .

ولما كان الانقياد من مقتضيات القدرة؛ دلّ على قدرته بانقياد العالم بأسره ،المؤمن والكافر لله تعالى صراحة، فالمؤمن طائعا، و الكافر انقاد حين رؤية بأس الله فقـال: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. . . ﴾ آل عمران (٨٣) وهـذا يدل على تحقق التوحيـد لله تعـالى من الكون بأسره آجلا، و إنما يكون العاجل امتحانا وابتلاء. لذلك تعد من الدلالات المباشرة على التوحيد .

ولما جاء بيان القدرة صراحة ؛تبعه بيان الاستغناء صراحة كذلك حين قال: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ آل عمران (٩٧) .وهي دلالة مباشرة على العزة .

و لما كان من مظاهر العزة الإنعام على المؤمنين امتن عليهم بتذكيرهم بنعمة تأليف قلوبهم بعد أن كانت متفرقة ،و بنعمة إنقاذهم من النار بعد أن كادوا يقاربونها ؛ترهيبا من التنكس عن الهداية التي هي عمدة في العزة .

ثم ذكر لهم شيئا من نتائج تلك العزة في الآخرة بذكر بياض الوجه للمؤمن مع الخلود في الرحمة. و لما كانت العزة مستمدة من الله لا غير ؛أبان بذكر المقابل عن خزي الذين كفروا بذكر تفرقهم واختلافهم في الدنيا ثم بذكر سواد وجوههم في الآخرة مع العذاب العظيم .

ولما كان الإيمان بالله يضفي على المؤمنين شيئا من صفاته ؛أكسبهم الاستغناء ببعضهم عمن سواهم من الكفار ،فلا يتخذونهم بطانة ،ولا يوالونهم ،مع أمرهم بقرن الصبر و التقوى نظير الثبات في وجه الأعداء.

ولما كان النصر من أهم مقتضيات القدرة ؛امتن النظم الكريم على المؤمنين بالانتصارات ببدر ،و أمر بقرن التقوى و الصبر مفتاحا لنصر قادم ،ثم جُمعت القدرة والاستغناء والعزة في قوله: ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ آل عمران (١٢٦) و قوله: ﴿ وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ آل عمران (١٢٩) وهي دلالات مباشرة على توحيد الله تعالى .

ولما كانت العزة توهب للمؤمنين لأسباب ؛دلّهم عليها فأمرهم بالمسارعة إلى المغفرة بالإنفاق في السرّاء والضرّاء ،وبكظم الغيظ ،والعفو عن الناس، والتوبة عند الذنب ،والاتعاظ من حال الأمم الخالية ،ومجاهدة النفس ،والصبر عند المصائب ،والاستمرار على الدعاء بمغفرة الذنب وتثبيت الأقدام والنصرة على الكفار ،ولذلك قال بعدها: ﴿ فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ

ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ آل عمران (١٤٨) وهي من الدلالات المباشرة على معنى العزة المكتسبة من عزة الله تعالى .

ولما ذكر النظم الكريم مسببات العزة للمؤمنين أردفه بذكر مسببات نزع العزة منهم، فذكّر المؤمنين بولايته ونصرته لهم في غزوة أُحد كما نصرهم في بدر ،وذكّرهم أن إخلالهم بما يقيم لهم العزة من طاعة الله ورسوله في غزوة أُحد هو الذي أفقدهم تلك العزة .

ثم امتن عليهم بالعفو بسبب إيمانهم بالله،و قعّد لهم قاعدة بقوله : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ آل عمران (١٦٠)،ثم أعلمهم أن كل ما يصيب المؤمن تمحيص وابتلاء.فساق البيان القرآني قصة غزوة بدر وصوّرها حتى بدت مشهدا يُعرض كلما تلقّاها متلقّ،ولذلك نجد هذا المقطع مفعما بمعاني العزة و النصرة المستمدة من الله تعالى،و أسهمت أساليب القصر و التقديم في إبراز المعنى أكثر فقال:(والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون — و لقد نصركم الله ببدر – يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين – يمدكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين – وما جعله الله إلا بشرى و لتطمئن قلوبكم به و ما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم).

ولما كان من مقتضيات العزة أن يسمى المقتول في سبيل الله شهيدا ؛عبّر عن عزة المقتولين بنفي الموت عنهم وإثبات الحياة مع الفرح والاستبشار بمن خلفهم ؛تبكيتا للمنافقين الذين يخوفون المؤمنين من الموت .

ولما كانت العزة إضفاء من الله على عباده ؛أنعم عليهم بالتمييز بينهم وبين المنافقين فقال : ﴿ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾

آل عمران (١٧٩) والمعنى: "حتى يميز الخبيث و هو المنافق المتستر للكفر من الطيب وهو المؤمن المخلص الصادق الإيمان بالمحن والاختبار كما ميز بينهم يوم أحد عند لقاء العدو عند خروجهم إليه."([١]) و هذا أصل في معنى العزة .

ولما كان المنافقون وأهل الكتاب تتشابه أفعالهم و قلوبهم سلكهم في سلك واحد في رفع ضررهم عن المؤمنين،ونفي الحظ عنهم،مع إثبات العذاب العظيم لأفعالهم الشنيعة وأقوالهم السفيهة ،ووصل إلى ختام السورة بالوعيد والتهديد للكفار .

وكما اتصف الاستهلال بالبراعة فدلّ على معنى التوحيد اللازم لصفتي العزة مع الاستغناء والقدرة مع الحكمة ،وأشعر بمقصود السورة و غرضها الكلي؛فإن تلك البراعة سارت على طريق السورة بأكملها حتى وصلت إلى ختامها.

ولما كان التفكر في المخلوق دليلا على الصانع؛كان التفكر في المخلوقات من طرق معرفة الله،وأطلق عليه ابن قيم الجوزية النظر في مفعولاته فقال: " فأما المفعولات فإنها دالة على الأفعال،والأفعال دالة على الصفات،فإن المفعول يدل على فاعلٍ فَعَلَه،وذلك يستلزم وجوده وقدرته و مشيئته وعلمه ؛لاستحالة صدور الفعل الاختياري من معدوم أو موجود لا قدرة له ولا حياة ولا علم ولا إرادة ."([٢]) وعبارة ابن قيم الجوزية عليها المعوّل؛ذلك أنها تسوق إلى إظهار رابط بين مطلع السورة و ختامها،فكما دلّلّ النظم الكريم في مطلع السورة على قدرته وعلمه وعزته من خلال أفعال الله الدالة على صفاته المقتضية توحيده ؛أكد في الخاتمة على المعنى نفسه من خلال بيان قدرته وعلمه وعزته ،فاستوعب بذكر المفعولات في المطلع والخاتمة المعاني كلها لإبراز معنى توحيد الله بالألوهية .و لانتشار صفات الله الدالة على العزة أثر في تربية المهابة كذلك فقال: (الحيّ–القيّوم– العزيز –ذو انتقام–الحكيم– الوهاب–

---

(١) جامع البيان ١٨٧/٤ .

(٢) الفوائد .خرّج أحاديثه: سيد بن رجب.أشرف على تحقيقه وقدّم له: مصطفى العدوي صـ٢٨ .ط١. ١٤٢٢هـ.دار ابن رجب للنشر.

لا يخلف الميعاد–شديد العقاب) ووصفه سبحانه بالعزة والملكية والحكمة يرد حيث يراد معنى الاقتدار والاستيلاء والقهر وإحاطة العلم ،وإفراده سبحانه بالخلق والأمر والربوبية والتعالي وما يرجع إلى هذا،وكلها صلب في قضية التوحيد .

ويؤيد ما ذُكر قول السيوطي عن السورة : " افتتحت بذكر إنزال القرآن و التوراة و الإنجيل من قبل وختمت بذلك في قوله : {وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم} وفتحت بقوله : {إن الله لا يخلف الميعاد} وختمت بقوله : { إنك لا تخلف الميعاد} ."[1] و هذا تعانق في المعاني و الصور بين المطلع و الخاتمة .

*   *   *

(١) مراصد المطالع صـ ٤٨ .

ثالثا /

براعة الاستهلال في سورة النساء طريق إلى براعة الختام

تُعد افتتاحية سورة النساء من أحسن الافتتاحات ،لأنها تضمنت الدلالة على مقصود السورة،فقد تميز مطلعها ببراعة الاستهلال ،و أشاد به كثير من العلماء([1]) قال تعالى في مطلعها : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً . . . ﴾النساء(١) وكان المصطفى ﷺ يفتتح بهذه الآية بعضا من خطبه([2]) التي يقصد فيها إلى حث الناس على التراحم والتكافل فيما بينهم ،لما لها من أثر بالغ على النفوس لأنها تركّز على وحدة الأصل واتصال البشرية بروابط وثيقة . كما تركّز على لزوم التقوى التي هي أهم بواعث التراحم ،فالمعوّل في المطلع على ضرورة تقوى الله في العلاقات البشرية التي تربط بين الناس،و هذا معنى يسوق للاجتماع على توحيده تعالى ،و هو موجود على صعيد السورة كلها ضمنا و تصريحا؛فتميّز مطلع السورة ببراعته لقصده إلى هذا المعنى من البداية .

ولما كان مقصد السورة الاجتماع على التوحيد -كما ذكر البقاعي-([3]) و كانت التقوى صلاح هذا الاجتماع والحافظة له؛سار هذا المعنى من أول السورة إلى آخرها بين التصريح والتضمين؛ فجاء في أول آية من سورة النساء الأمر بالتقوى صراحة ،و كان ذلك بمقتضيين؛الأول : مقتضى التفضل و الإنعام،والثاني:مقتضى الجلال و العظمة،وختم

---

(١) ينظر التفسير الكبير. ١٢٨/٩.ومثله في البرهان في ترتيب سور القرآن .أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي.دراسة وتحقيق:محمد شعباني صـ٢٠٠. ١٤١٠هـ-١٩٩٠م . المملكة المغربية -وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. و مثله في أسرار ترتيب القرآن.السيوطي.دراسة وتحقيق:عبد القادر أحمد عطاصـ٧٧.ط١ . ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦٥م دار الاعتصام .و مثله في تفسير المنار.محمد رشيد رضا ٣٢٢/٤ .ط٢ .١٣٦٦هـ-١٩٤٧م .دار المنار -شارع الإنشاء بالقاهرة . ومثله في تفسير التحرير والتنوير ٢١٤/٤.و مثله في النظم الفني صـ ٧٩ .ومثله في التناسب البياني في القرآن صـ٦٠ .و مثله في حسن الابتداء في سور القرآن الكريم "دراسة تطبيقية"إعداد:عبد المجيد هنداوي جعفرصـ٥٠. بدون ط. ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.بدون د.

(٢) صحيح مسلم كتاب الزكاة.رقم الحديث(١٠١٧) باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار ٧٠٤/٢-٧٠٥ .

(٣) نظم الدرر ٢/ ٢٠٤ .

بمايتناسب مع الأمر بالتقوى فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ النساء (١)، ولما كانت الرقابة تقود إلى المحاسبة؛ تقدّم التوعد بصفة(الرقيب)لله تعالى على صفة (الحسيب) حيث قال بعد ذلك: ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً ﴾ النساء (٦) .

ولما كان معنى اتصال البشرية بعضها ببعض مع وحدة أصلها الوارد في مطلع السورة دالا على ضرورة تكافل المجتمع بأسره من جهة ،وضرورة وحدة المعتقد —و تشمل وحدة المعاد مع وحدة الثواب والعقاب – من جهة أخرى ؛جاءت مظاهر التقوى تحف ذلك التكافل وتلك الوحدة . وتلك أهم المعاني التي جاءت جملة المفتاح في السورة : ﴿ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ النساء (١) ساعية لتحقيقه و إبرازه .

فإذا كانت البشرية كلها ترجع إلى أصل واحد هو آدم — عليه السلام — و حواء مخلوقة من آدم في الأصل، فلابد أن يكون هذا الاجتماع بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان هو الغاية و الهدف من خلقهما .ومجيء ذكر النساء من أول آية في موضع انتساب البشرية إلى جنس واحد مشعر بمعان عظيمة؛ منها: بيان أن المتحدث عنه من جنس المخلوق الذكر، و هما مع بعضهما ركيزتان مهمتان لبناء المجتمع ،ويؤكد ذلك ما جاء بعدها من قول: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء ﴾ وتلك لفتة للرجل لإدرار عاطفته نحو المرأة ببيان أنها نصيفه و قرينه، بل لأنها قطعة منه .

وجاء التكافل الاجتماعي في السورة على صورة الأمر و النهي والتوجيه والوصية ؛يهيمن عليها عنصر التقوى الباعث على الرحمة مع الضعفاء و العدل مع الأشداء، وضرورة الإحسان وعدم الإضرار في كل المعاملات. وابتدأ الخطاب القرآني الوصايا بالضعفاء وخص من بينهم اليتامى والنساء، ولعل في التركيز على عنصر الضعف ما يحرك نحو التقوى ،ولذلك جاء ذكر المستضعفين خمس مرات في السورة ،أربع مرات [1] على صيغة

(١) تنظر الآيات (٧٥- ٩٧- ٩٨ -١٢٧) .

(المستضعفين) والخامسة بقوله: ضعافا ([1]) فجاء ذكر اليتامى ثماني مرات في السورة و جاء ذكر النساء إحدى وعشرين مرة ،و جاءت الأوامر بشأنهم وصايا أخذت طابع الترغيب والترهيب في لين وسعة .

و قد كان الأمر بتقوى الله صراحة بارزا في مقام الحديث عن اليتامى و النساء، و هو متناسب مع طابع السورة الداعية إلى الإحسان في التعامل ،مع ضرورة الإصلاح و عدم الإضرار .و من الدلالات المباشرة على ضرورة التقوى قوله بعد النهي عن تبدل الخبيث بالطيب والنهي عن أكل مال اليتيم : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً ﴾ النساء(٢)، فهو تذييل مقرر لحقيقة الآتي للمناهي في الآية على إفرادها من عظم الذنب و جسامته .

ولما كان الإحسان لا ينفك عن التقوى في التعامل مع الضعفاء ؛كان كل ماذكر من الأوامر والنواهي ومن التهديد و الوعيد و من الوصايا في حقهم يدل على مزيد العناية والإحسان ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ﴾ النساء(١٠)قال الرازي عنه: "وما أشد دلالة هذا الوعيد على سعة رحمته و كثرة عفوه و فضله !لأن اليتامى لما بلغوا في الضعف إلى الغاية القصوى بلغت عناية الله بهم إلى الغاية القصوى ."([2])

ولما كان الناس كلهم أقوياء و ضعفاء يرجعون إلى أصل واحد يلزم منه أن يكونوا على معتقد واحد، وذلك مما عالجته السورة ،و من أبرزه قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ النساء(١٣-١٤)فهي من الدلالات المباشرة على ضرورة تقوى الله في شرائعه. فلما تقدم ذكر الأحكام المتعلقة بالنساء واليتامى ؛جاء بعده التهديد و التنديد بمن يعصي الله في تلك الأحكام؛ لأن الطاعة مسببة

---

(١) تنظر آية (٩).

(٢) التفسير الكبير. المجلد الخامس ١٦٢/٩ .

عن التقوى .وتُحمل على العام في كل حدود الله ،وللتقابل بين الآيتين أثر في بيان ماتؤول إليه طرق تقوى الله من النعيم الخالد ،و ماتؤول إليه معصيته من العذاب الخالد أيضا .

ولما كانت التقوى سببا للتوبة دلّ عليها بقوله : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ . . . ﴾ النساء (١٧-١٨) فدل مباشرة على تأصيل مبدأ التقوى في العبادات و المعاملات. وقام المعنى في الآيتين على أساس من التقابل و التناظر كذلك مما حدد المعنى وزاده إفهاما،وكان للحصر أثره البارز في ذلك الإيضاح ،فكأن الكلام: ليست التوبة على الله إلا للذين يعملون السوء بجهالة .

ولما كان الأثر الناتج عن عدم التقوى يحل ضررا بالمجتمع بأسره؛قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ سورة النساء(٢٩)، "وظاهر الأمر أن المرء لا ينهى عن أكل مال نفسه ولا يسمى انتفاعه بماله أكلا ."[١] فشُبه أكل مال الغير من المسلمين بأكل الفرد مال نفسه،وشُبه قتل الغير من المسلمين بقاتل الفرد نفسه؛تصويرا للضرر الحاصل لأي مسلم بالضرر الحاصل للإنسان نفسه،أي المجتمع بأسره،للتنفير من أكل الأموال،وقتل النفس بغير حق ،لأن المال مال مشترك بالتداول ،والأنفس واحدة بوحدة الأصل .

وامتزجت ضرورة التكافل الاجتماعي الذي دعت إليه وحدة الأصل بوحدة المعتقد فقال تعالى: ﴿ وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى . . . ﴾النساء (٣٦)،وتلك من الدلالات المباشرة على الأمر بتقوى الله في التعامل،وقرن عبادة الله وطاعته بالإحسان إلى الوالدين، يدل على عظم حقهما حتى جاء ذكرهما مقترنا مع الأمر بسلامة العقيدة ،وشمل الأمر بالإحسان أصنافا من

---

(١) تفسير التحرير والتنوير.المجلد الثاني ٥/٢٣ .

المستضعفين لم تكن السورة قد فصّلت فيهم أو ذكرتهم،ولعله من القياس المنطقي الذي يجب على الإنسان التفكر فيه،وأخذه بعين الاعتبار .ولعله بـذكر هـذه الأصـناف قـد جمـع أنـواع المجتمع كله،وأمر بالإحسان إليهم ،لذلك فإن الإحسان في السورة ركيزة عظيمة وبارزة،وهو من مضامين التقوى .

وختمت الآيات بما يضاد هذا الإحسان من الكبر والفخـر فتمكنـت الفاصـلة في موقعهـا .لأن هاتين الصفتين تقدحان في العقيدة لذلك سلكتا مع الآيـة الداعيـة إلى وحـدة المعتقـد في سـلك واحد .

ولـما كانت وحدة الأصل دالـة بالضـرورة على وحـدة المعتقـد ؛جـاءت لتدل بطريـق التبع على وحدة المعـاد،ووحدة الثـواب و العقـاب مع صدق نبوة محمد ﷺ وهو مـا جـاء واردا في قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيداً ﴾ النسـاء (٤١) .

ومن المقامات التي كثر فيها التحريض على التقوى صراحة مقام المعـاملات وذلـك لضـمان التكافل الاجتماعي،ومنه قول الله تعـالى : ﴿ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ . . . ﴾ النسـاء (٥٨) .ولما ختم البيان القرآني الكلام عن أهل الكتاب ببيان مصير من كان مؤمنـا ومـن كـان صادا عن الإيمان، و بالأمر بأداء الأمانة إلى أهلها ،و الحكم بالعدل،و بيان أن تلك الصـفات من أفضل الأمور التي وعظ الله بها،مع التعريض بتضييع أهل الكتاب للأمانة بكتمانهم أمر رسول الله–لما أمر بكل ذلك؛وجه النداء بعدها إلى المؤمنين بأمرهم بطاعة الله وطاعة الرسـول وأولي الأمر،ورد الأمر المتنـازع فيـه إليهمـا،وكرر الأمـر بفعـل الطاعـة فقـال: ﴿ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ النساء (٥٩) ،ولما خاطب المنافقين أبان عن بعـدهم عن مقومات التقوى كلها من الصد عن الرسول والأيمان الكاذبة ؛ولذلك جاء الأمر بالإعراض

عنهم ،ووعظهم والتأثير عليهم بالقول البليغ .وفيه بروز لمعنى الإحسان مع المنافقين الذي لم يقف عند هذا الحد ،بل اتخذ طريق التحضيض على التوبة سبيلا في كل مقام مثل قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً *وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْراً عَظِيماً *وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ النساء(٦٦-٦٧-٦٨).

ولما قال: ﴿ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثاً ﴾النساء(٨٧)؛أبان عن وحدة المعاد وزاد من قوة العبارة تصديرها بلفظ الجلالة (الله) وفيه من الفخامة والجلال،مع إفادة معنى الثبات المستقى من الجملة الاسمية،ومجيء لام التأكيد مع فعل الجمع ،ثم إفادة نفي الريب عن الجمع ،و أخيرا تصديق الله على خبره،وذلك قمة التأكيد .

ولما قال تعالى حاثا على الجهاد : ﴿ لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُـلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً . . . فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ النساء (٩٥-٩٦-٩٧-٩٨-٩٩-١٠٠) ؛دلّ على التقوى إشارة لا صراحة ،و ذلك في مقام الحديث عن وحدة الثواب و العقاب.و في هذه الآية يتجلى إحسان الله تعالى في عدم المساواة في الأجر بين القاعدين من المؤمنين غير أولي الضرر، و المجاهدين في سبيل الله بأموالهم و أنفسهم،ففضّل الله الصنف الأخير على الأول،و فضل المجاهدين على القاعدين بالأجر العظيم .

ومن إحسانه تعالى عفوه عن المستضعفين من الرجال والولدان والنساء الذين لم يهاجروا من أرض الشرك إلى أرض الإسلام،ومن رحمته الداخلة في إحسانه إلى عبادة أن من ينوي الهجرة ويدركه الموت في الطريق حصل له الثواب على نيته ،ومن إحسانه كذلك بعباده ورحمته بهم أن شرع لهم قصر الصلاة في طريق الهجرة ". ومواضع إحسان الرب يطول

الحديث فيها ؛وذلك لأن السورة سورة الإحسان ،وعندما يتجسد الإحسان في الداعي إليه يكون ذلك أدعى للامتثال والقبول .

ولا نكاد نغالي في أن سورة النساء كلها تزخر بدلالات التقوى مع الإحسان ضمنا حتى صُرح بهما مقترنين فقال : ﴿ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ النساء (١٢٨)، ويتصاعد الأمر بالإحسان فيصبح إصلاحا فقال: ﴿ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ النساء (١٢٩).فالإحسان والإصلاح مسببان عن التقوى لذلك حث عليهما .

ومما كان دالا على وحدة المعتقد مع التصريح بلفظ التقوى و الإيصاء بها، بل و الأمر بها ماجاء في قوله تعالى: ﴿ وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ غَنِيّاً حَمِيداً ﴾ النساء(١٣١) فلما كانت التقوى من الأهمية بمكان، وهي التي عليها المعول على مدى تتابع الخلق ؛جاء الأمر بها مضمنا صلاحيتها لكل زمان ومكان، وجاءت الوصاية بها .

و لما كانت التقوى قوام المجتمع ؛أعلن النظم الكريم في صراحة الرغبة في قيام المجتمع المسلم على أساس من تقوى الله؛لتضمنها العدل في التعامل، الذي استعار له القسط، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا . . . ﴾ النساء (١٣٥) ؛وإنما كانت الاستعارة لتصوير الدقة والضبط التي يجب أن يكون عليها الناس في تعاملاتهم ؛ترغيبا في حصولها .

وكما تميز المطلع بالبراعة فشمل مقصود السورة ؛ فافتتح السورة بنداء عام للناس كلهم آمرا إياهم بتقوى الله صراحة مرتين فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ النساء (١) جاء في آخر مقطع من السورة ونادى الناس عامة مرة ثانية و ثالثة ،فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُواْ خَيْراً لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ النساء (١٧٠)،فكما دعا الناس كلهم في أول السورة إلى تقواه تعالى؛ خاطبهم مرة أخرى وألزمهم الحجة ببعث الرسول ،وعمم بذكر الإيمان ونقيضه الكفر، مع التحضيض على الإيمان فشمل معنى التقوى ،وختم بالتنبيه على غناه تعالى عن إيمان من آمن أو كفر من كفر .

ثم قال بعدها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴾ النساء (١٧٤)، فخاطب الناس عامة، وأقام بين ظهرانيهم دلائل العقل وشواهد النقل، وسمى القرآن نورا على سبيل الاستعارة التصريحية ؛تصويرا لحسن أثر القرآن الكريم على البشرية مع أهميته.وفيه تحضيض على الإيمان بالله بالتصوير البياني الذي له سمة ترسيخ المعنى واستقراره .

ثم أقفل السورة ببراعة كما افتتحها ببراعة ؛فكانت ركيزة لمجملات السورة ومقاصدها العظمى ؛فأبان تعالى في آخر آية عن ضرورة اتقائه ضمنا ،مع إحسانه و تفضله فقال: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء . . . ﴾ النساء (١٧٦)؛لأن الله –جل جلاله– بعظمته وهيبته

يفتي الناس، وهذا معناه أخذ الحكم من منبعه دون واسطة، وهو أرقى وأعلى من أن يكون بينهم وبين الله واسطة، وهو قمة الإحسان ،ويلزم من ذلك الطاعة والخضوع والانقياد مع الرضا على التفصيل، وتقوى الله على الجملة .

وختم بما يناسب الاتقاء بوصف الله بالعلم الشديد .قال الفخر الرازي عن براعة ختم سورة النساء : " واعلم أن في هذه السورة لطيفة عجيبة؛ وهي أن أولها مشتمل على بيان كمال قدرة الله تعالى، فإنه قال: {يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة} النساء(١) وهذا دال على سعة القدرة ،وآخرها مشتمل على بيان كمال العلم ،و هو قوله : {والله بكل شيء عليم} وهذان الوصفان هما اللذان بهما تثبت الربوبية والإلهية والجلالة والعزة وبهما يجب على العبد أن يكون مطيعا للأوامر والنواهي منقادا لكل التكاليف ."([1])

وبذلك يكون الكلام من رد الأعجاز على صدورها، ومناسب أوله آخره، بل تشعر أن آخر السورة قفلا جيدا لأولها، فكما ختمت الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ النساء(١) ختمت الآية الأخيرة بقوله: ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ وكما كان الإحسان قرين المعاني كلها في السورة ختم كذلك بما يعزز هذا الإحسان وذلك حين قال: ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ النساء (١٧٦)

وقال السيوطي: " افتتحت بذكر بدء الخلق و الولادة، وختمت بأحكام الوفاة ،و فتحت بآيات المواريث و الكلالة، و ختمت بمثل ذلك ."([2]) وهذا تناسب بين المعاني ومحلها من السورة .

وكما كان مطلع السورة إنشائيا، ذا وظيفة تنبيهية تعليمية نفسية ،يركّز فيه على العاطفة؛ كان الختم إخباريا، ذا وظيفة تعليمية نفسية مع التركيز على العاطفة كذلك، فغيّر الأسلوب إلى الإخباري بدل الطلبي؛ لإقامة الشواهد ونصب الأدلة على أهمية التقوى مع بيان استغناء الله عن العباد .

(١) التفسير الكبير .المجلد السادس ٩٦/١١ .

(٢) مراصد المطالع صـ٤٨ .

أو لعله للتنويع في أساليب الترغيب،فلما أمرهم البيان القرآني في المطلع،وأخبرهم بمكان الاجتماع على تقواه ،ومكان رعاية الرحم في المجتمعات بطريق الإجمال،ثم أتى تفصيل هذه المعاني في ثنايا السورة بأكملها — جاء في ختام السورة الحديث عن حكم من أحكام ميراث الكلالة كان قد أرجأه إلى آخر السورة مع تقدم نصيفه في أول السورة .

فبهذا الختام وذلك المطلع،صعد الخطاب القرآني بالناس رعاية و إحسانا،حتى وصل بهم في آخر السورة و في آخر حكم ذكره مما تجد النفس حرجا في تقبّله إلى ذروة الرضا،و كأنه من أول السورة إلى آخرها يمهد للرضوخ لأحكام الله مهما كانت شاقة على النفس .
وكما دل من أول السورة على أن قاعدة الأسرة لا تكون إلا باجتماع الجنسين الرجال والنساء فذكرهما ؛ختم كذلك بما ينظم حال تلك الأسرة إن مات لهم كلالة، فأتم الحكم .

وظاهر الأمر ضم الآيتين إحداهما إلى الأخرى حتى يكتمل موضوع الكلالة، ولكن لما كان توريث الأولاد مما جُبلت النفوس على تقبله، و كان توريث الإخوة مما يُشكل ؛جاء الحديث عن الميراث على مرحلتين ،الأولى في أول السورة ،و هي للأخوة لأم،وابتدأ بهم دون الثانية التي هي في آخر السورة وهي للأخوة لأب وأم ،أو لأب؛ وذلك لأن البيان القرآني يسير مع النفس البشرية في نوازله على سبيل من التدرج حتى تتقبله النفس وتقبل عليه .
وفي ذلك يقول البقاعي : " و الحاصل أن تأخير هذه الآية إلى هنا، لما تقدم من أن تفريق القول فيما تأباه النفوس، و إلقاءه شيئا فشيئا باللطف و التدرج أدعى لقبوله،و للإشارة إلى شدة الاهتمام بأمر الفرائض بجعل الكلام فيها في جميع السورة أولها وأثنائها وآخرها، و التخويف من أن يكون حالهم كحال المنافقين في إضلال أهل الكتاب لهم بإلقاء الشبهة و أخذهم من الموضع الذي تهواه نفوسهم ، ومضت عليه أوائلهم ،و أشربته قلوبهم

والترهيب من أن يكونوا مثلهم في الإيمان ببعض و الكفر ببعض ،فيؤديهم ذلك إلى إكمال الكفر ." (1)

و كما دعت السورة في مطلعها إلى قيم نفسية من الرحمة والحنو بين المجتمع ابتداء من الزوجين ؛عالجت الخاتمة النفسيات بتركيزها على جانب معضل من التوريث على سبيل من التدرج ،فانعطف الكلام في الختام على مثله في المطلع .

*   *   *

(١) نظم الدرر ٢/ ٣٨٢ .

رابعا /

براعة الاستهلال طريق إلى براعة الختام في سورة المائدة

تتصف سورة المائدة ببراعة الاستهلال؛لإيمائها إلى مقصود السورة من أول جملة فيها حيث افتتحت بنداء المؤمنين بصفة الإيمان ،وأمرهم بالوفاء بالعقود فقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾المائدة (١) فنادى الله تعالى خاصته بوصفهم بالإيمان،و هذا النداء من شأنه أن ينبّههم إلى المنادى و يذهب غفلة المنادين،و يعلي من شأنهم في نفس الوقت بتذكيرهم بصفتهم الملازمة لهم،التي تحضهم على الولاء والطاعة، وتنأى بهم عن العصيان. ولما كان النداء بهذه الصفة من الأهمية في هذه السورة جيء به لنداء المؤمنين وأمرهم أو نهيهم ،و هذه السورة تكثر فيها الأوامر والنواهي لكثرة التشريع. قال الطبري عن معنى قوله تعالى: ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ " يعني :أوفوا بالعهود التي عاهدتموها ربكم،والعقود التي عاقدتموها إياه، وأوجبتم بها على أنفسكم حقوقا، وألزمتم أنفسكم بها لله قروضا فأتمّوها بالوفاء والكمال والتمام منكم لله بما ألزمكم بها،و لمن عاقدتموه منكم بما أوجبتموه له بها على أنفسكم،و لا تنكثوها فتنقضوها بعد توكيدها." (١) فالظاهر من معنى الآية الإجمال والشمول لكل العقود المبرمة من العبد ،وهذا يدور حول مجمل معاني السورة مما جعلها من المطالع التي تومئ إلى مقصد السورة .و"حكى النقاش أن أصحاب الكندي قالوا للكندي:أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن فقال:نعم ،أعمل مثل بعضه،فاحتجب أياما كثيرة،ثم خرج فقال:والله ما أقدر عليه،ولا يطيق هذا أحد،إني فتحت المصحف فخرّجت سورة المائدة فنظرتُ فإذا هو قد أمر بالوفاء ونهى عن النكث،وحلّل تحليلا عاما، ثم استثنى استثناء بعد استثناء،ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين ،ولا يستطيع أن يأتي أحد بهذا إلا في أجلاد."(٢)فالتشريع و الحكم أصل في تقرير الألوهية لذلك افتتحت السورة به،وكانت من الفخامة بمكان .

(١) جامع البيان ٤٦/٦ .

(٢) التفسير الكبير .المجلد الأول ٣٨٥/٢ .

ولذلك قال ابن عاشورعن مطلع السورة :" ذلك براعة استهلال ."([1]) لأنه لما كان مقصود السورة تقرير حقيقة كمال العبودية لله تعالى دون منازع ،والمتحقق في (ألوهيته وربوبيته) وبيان ثمرة الخضوع والانقياد ،وعاقبة الكبر و العصيان؛ جاء الوصف بالإيمان تحقيقا لتلك العبودية .ولما كانت هذه السورة تحوي تكميل الشرائع وتتميمها جاء الأمر بالوفاء بالعقود التي تحمل معنى الانقياد و الطاعة للأوامر واجتناب النواهي التي سيتم تقريرها في السورة بأكملها،وإذا تحقق ذلك تحققت الألوهية والربوبية لله تعالى، فظهر مقصود السورة من أول جملة في أول آية في السورة ،وهذا مما يُوسم بالبراعة .

هذه البراعة شقت طريقها من أول السورة وصولا إلى منتهاها عن طريق نداء المؤمنين بصفة الإيمان وأمرهم أو زجرهم ،وتكرر ذكر النداء بصفة الإيمان في هذه السورة بصورة لم تتكرر في سورة أخرى،فوردت ست عشرة مرة،وكل نداء يقرر تشريعا فيأمر بفعل أو ينهى عن آخر؛ولما أتبع النداء الأول بالأمر بالوفاء بالعقود على إطلاقها؛أُردف بنداء آخر نهى المؤمنين عن إحلال شعائر الله،فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ المائدة(٢) وعمّم بذكر الشعائر،فشمل كل شعيرة قررها تعالى على عباده.و إضافة الشعائر إلى لفظ الجلالة {الله} يرفع من قيمتها لنسبتها إليه و يعظّم أمرها في نفوس المؤمنين،فهو تركيز على الجانب الإيماني من القلب لحصول التقوى عند المؤمن،و ليس عند أحد غيره .و تبع ذلك النداء بيان لما ذكره في الآية الأولى من تحريم للميتة و الدم ولحم الخنزير و غيره،و أُتبع بذكر ما حلل من طعام أهل الكتاب .

وكلها دلالات مباشرة على المواثيق المبرمة من قبل الله مع المؤمنين .

وجاء النداء الثالث يحث على التطهر حين القيام إلى الصلاة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ المائدة (٦)فدلّ دلالة مباشرة على عقد أبرمه الله مع عباده وهو الصلاة واشترط له الطهارة،وكان من الاهتمام بأمر الصلاة ذكر وصف التطهر لها على سبيل من

---

(١) تفسير التحرير والتنوير.المجلد الثالث ٧٤/٦ .

الإيجاز، وذلك حين قال: ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ . . . ﴾ وذكر البقاعي شيئا من تناسب إيراد النداءات بهذا التتابع فقال: " فافتتح هذه السورة بالأمر بالوفاء بحق الربوبية، وأتبعه التذكير بما وفي به سبحانه من حق الربوبية من نوع المنافع في لذة المطعم و توابعه، ولذة المنكح وتوابعه ...فلما أتم ما ألزمه نفسه الأقدس من عهد الربوبية فضلا منه، أتبعه الأمر بالوفاء بعهد العبودية ."(1) أو هو كما قال سيد قطب: "لفتة إلى نوع آخر من الطيبات... طيبات الروح الخالصة. "(2)

ولما كان النداء للمؤمنين خاصة فأمرهم بالطهر والتطهر، لم يحتج للنداء أخرى فعطف عليه أوامر أُخر دلّت دلالة صريحة على ضرورة الوفاء بالعقود و المواثيق، بذكر النعمة وإردافها بذكر الميثاق فقال: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ ﴾ المائدة (٧).

ثم كان النداء الرابع في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ ﴾ المائدة(٨). ولعله كان من الممكن أن يكمل الكلام بالعطف دون النداء فيقول على سبيل المثال: واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به وكونوا قوامين... ولكن لما كان معنى قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ . . . ﴾ المائدة (٧) عاما وشاملا وكالتعقيب على المعاني الأخرى، عُطفت الجملتان إحداهما على الأخرى، ولما كان الأمر بالقوامة معنى جديدا ؛نبّه إليه بالنداء بصفتهم الملازمة لهم لينبههم إليه من جديد لو دعا داع إلى الغفلة، أو ليدقّ على وتر الإحساس والوجدان بتذكيرهم بإيمانهم المقتضي سمعهم وطاعتهم، وكثّف هذا التأثير باستعمال صيغة المبالغة قوّامين ونسبتها إلى الله تعالى وإردافها

(١) نظم الدرر ٢/٤٠٠- ٤٠١ .

(٢) ينظر في ظلال القرآن ٢/٨٤٩ .

بما يزيد من ذلك القيام المستمر صفة أخرى تعزز الصفة الأولى، و تزيد من قيمتها وهي الشهادة بالقسط الذي هو العدل –والله أعلم بأسرار كتابه–

ثم ما لبث أن جاء النداء الخامس بعد ذكر متعلق الآية السابقة من مصير كل من المؤمنين والكافرين على سبيل من التقابل فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ . . . ﴾ المائدة (١١) واُختلف في هذه النعمة المسداة إلى المؤمنين (١)، وهي على عمومها تذكير لهم بنعمه تعالى وإنجائهم من أيدي عدوهم .

ونواجه نداءين لأهل الكتاب يتلوان نداءات المؤمنين، يذكران بنعمة إرسال الرسول محمد ﷺ وإنزال الكتاب فقال في الأول: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ. . . ﴾ المائدة (١٥) وقال في الثاني: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا . . . ﴾ المائدة (١٩) وهو من التناسب الموضوعي في الامتنان بالنعم على فريق المؤمنين و أهل الكتاب .

ولما كانت نداءات المؤمنين وأمرهم أو نهيهم تدل دلالة صريحة و مباشرة على ضرورة الوفاء بالعقود المبرمة بين العبد وربه، أو بين العبد وغيره، أو بين العبد ونفسه؛ جاءت بقية الآيات تدل دلالة إشارة إلى المعنى نفسه، و تذكر نماذج من الذين نقضوا مواثيق الله وعهوده فكان الخسران مآلهم ،وكأن الخطاب يوجه للمؤمنين بضرورة أخذ العظة والعبرة من سابقيهم وهذا يصب في المعنى الأول ويشدّ عليه.

ولما ذكر النظم الكريم موقف بني إسرائيل مع موسى – عليه السلام– حين طالبهم بالجهاد من الخذلان والتخلي ؛خاطب البيان القرآني المؤمنين آمرا إياهم بضرورة تقوى الله والتقرب إليه بالطاعة التي من أعظمها الجهاد في سبيله، فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ

---

(١) ينظر جامع البيان ٦/ ١٣٩ .

وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ المائدة (٣٥) وهي دلالة أقل صراحة من سابقاتها في ضرورة الوفاء بعقود الله وعهوده، حيث لا يكتمل ظهور معناها دون النظر إلى ما يقابلها من حال بني إسرائيل من التخلي والخذلان .

ويجيء الأمر بتقوى الله تاليا للأمر المقصود فيما سبق من الآيات ،لأنه يعزره و يحض عليه. ولما جاء النهي عن الاعتداء والفساد في الأرض– وهو أمر يقتضي تنمية مخافة الله في الصدور – سابقا لنداء المؤمنين؛ جاء الأمر بتقوى الله متصدرا في الآية التالية التي نادى الله فيها عباده، وكأنه أصل لنص الآية، ثم جاء التقرب والتنفّل والجهاد في سبيل الله في إثر التقوى؛ لأنها من مقتضياتها فكأنها فرع عنها ولن تحصل دونها .

والملحوظ أن الفاصلة في النداءات السابقة كانت تهديدا ووعيدا أو تجري مجراهما؛ فقال مرة: {إن الله يحكم ما يريد– و اتقوا الله إن الله شديد العقاب– و اتقو الله إن الله خبير بما تعملون– واتقوا الله و على الله فليتوكل المؤمنون }ولما ذكر النداء الذي وليه موضوع الطهارة في الصلاة ؛ختم بقوله: {لعلكم تشكرون} ،وحين ذكر الجهاد؛ ختم بقوله: {لعلكم تفلحون }وذلك لأنه لما ذكر تعالى نعمة التطهر، ونعمة التيمم، والتيسير، ورفع الحرج عن الناس؛ ذكر مايستلزم هذه النعمة من الشكر والعرفان. ولما كانت تقوى الله والتقرب إليه والجهاد في سبيله تقتضي الفلاح؛ ختم برجاء الفلاح لهم، فكان الختم بهاتين الفاصلتين تحضيضا على شكر النعمة المسداة ،وعلى طلب الفلاح .

ثم انزوى معنى الوفاء بالعقود بدلالاته المباشرة خلف معنى عظيم جدا، وهو ضرورة الحكم بما أنزل الله لا بما أنزل غيره ،ثم ضرورة الرضا بهذا الحكم ،وذلك يتضح من أول ذكر قصة ابني آدم، ثم في تقدير جزاء المفسدين في الأرض، وفي الانتقال من هذا كله إلى قصة اليهود الذين لم يرضوا بحكم رسول الله، حتى جاء الأمر للنبي ﷺ صريحا يدل على ضرورة الوفاء بعهد الله حين قال تعالى مخاطبا له: ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ المائدة (٤٢)، ثم توالت الدلالات المباشرة على ضرورة الوفاء

بعقود الله حين قال تعالى: ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً. . . ﴾ المائدة (٤٨-٤٩) .

ولما سبق الحديث عن قضية الولاية ؛ جاء نداء المؤمنين ونهيهم عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ، فكان بمثابة العهد الذي يجب أن يُنجز ويُوفى ، وأُتبع بالتهديد والوعيد كما أُتبعت بقية العهود ، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء . . . ﴾ المائدة (٥١). ولما كان مِنْ العرب مَنْ ارتد في أواخر عهد الرسول ، جاء نداء المؤمنين محذرا من الردة بعد الإيمان فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ المائدة(٥٤) فدخل موضوع الولاء تحت معنى أكبر وهو الوعيد لمن يرتد عن الدين الإسلامي ، فكان أيضا من الدلالات الصريحة للأمر بالوفاء بعقود الله التي أمر بها في بداية السورة ، والتي نلحظ سيرها في أغلب معاني السورة .

وهذا النداء في الآية اختلف في أسلوبه عن بقية نداءات السورة فلم يُتبع بأمر أو نهي صريحين ، إنما أتبع بجملة شرطية خرجت إلى معنى النهي ، وتقدير الكلام : ياأيها الذين آمنوا لا ترتدوا عن دينكم ، ولكنه استخدم الأسلوب الأبلغ في النهي والزجر عن الارتداد ، لأنه حمل مع النهي معنى آخر ، وهو بيان العقاب ، فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ، وفيه كذلك تعريض وذم لكل مؤمن يرتد عن الدين الإسلامي بصفات هي : نفي حب الله له ، ونفي حبهم له ، ونفي ولائهم للمؤمنين ، وإثبات حبهم للكافرين. هذا التعريض يشير إلى علو مكانهم عن هذا الفعل ولذلك لم يأتهم نهي صريح بعد النداء .

ولأهمية قضية الولاء هذه جاء النداء التاسع من السورة يؤكد على عدم اتخاذ أعداء الإسلام أولياء، فجاء بالنهي صراحة ،وبذكر القوم صراحة كذلك، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ . . . ﴾ المائدة (٥٧)، فجاء وصف القوم قبل ذكرهم تهييجا لمشاعر المسلمين وتحضيضا للاستجابة و تقوية لفعل النهي .

وتتوالى الآيات في هذا المعقد كذلك تدل دلالات صريحة على ضرورة الوفاء بالعقود ،ولم تقتصر تلك الدلالات على نداءات المؤمنين، بل كانت نداءات أهل الكتاب تخدم هذا الجانب من طريق صريح أيضا، فوردت ثلاثة نداءات لأهل الكتاب في قوله : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ . . . ﴾ المائدة (٥٩) وقوله : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ . . . ﴾ المائدة (٦٨) وقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا . . . ﴾ المائدة (٧٧)، و كلها محاجة لأهل الكتاب في عدم إيمانهم بما جاء به محمد ﷺ من طريق، ومن طريق آخر هي بيان أن الإيمان بما جاء به محمد ﷺ هو أوثق العقود وأعلاها ويليها مباشرة إقامة التوراة و الإنجيل . وهي محاجة مطوّلة ،و كلها منوطة بضرورة الإيمان بالله ،ولذلك جاء نداء محمد ﷺ يخدم هذا المعنى فتبليغ الرسالة وما أُنزل من الرب هو من مواثيق الله وعهوده التي يأخذها على رسله ويجب الوفاء بها دون التحسب للكافرين لحصول العصمة من الله تعالى لأولئك الرسل، و ذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ . . . ﴾ المائدة(٦٧) وكما كانت

نداءات المؤمنين تُختم بما يحذر من الإخلال بأمر أونهي ؛تخلل النداء للرسول بما يحذر من المخالفة،وذلك حين قال : ﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾وهو خاص للرسول ﷺ،ثم أردف بما يخوف الكافرين حين قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

وأما نداءات أهل الكتاب فالتهديد والوعيد لا يختص بالخاتمة،وهي آيات طوال تحكي أفعالهم من وجه،وتخرج إلى معنى التنديد بهم ،وفضحهم و أخذ العظة منهم ومن عقابهم وماحلّ بهم من وجه آخر .

ويستمر الحال كذلك إلى أن يوافينا النداء العاشر للمؤمنين ينهى المؤمنين –في ظاهر الكلام– عن تحريم الطيبات التي أُحلت لهم،و يومئ إلى نهيهم عن التدخل في التشريع لأنه من الاعتداء كما أوضح في ختام الآية حين قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ المائدة (٨٧) وتحريم شيء من الطيّبات الحلال معناه تدخّل في التشريع ،و اعتداء على أحقيّة المشرّع،لذلك كانت الفاصلة متمكنة في مكانها .

ثم إن الآية التالية متممة لتلك الدلالة الصريحة في ضرورة الوفاء بعقود الله حيث قال: ﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ المائدة (٨٨) فنهاهم في الأولى عن تحريم الطيبات ،و أردف بأمرهم بالأكل من الرزق الطيب ،فكان معنى الآية الثانية متمما من جهة،ومؤكدا من جهة أخرى معنى الآية الأولى وكأنها منها، لذلك لم يحتج إلى النداء مرة أخرى،ولكنه ذكر ما يقوي من العزيمة على هذا الفعل حيث ختم بقوله: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ فأينما ذكر نداء المؤمنين ذكر الأمر بالتقوى صريحا .

والملحوظ نسبة عمل التشريع إلى الله في الآيتين (ما أحل الله لكم – مما رزقكم الله حلالا طيبا) فالأعمال كلها متعلقة بالله .ولما كان التحليل و التحريم من شأن الله كان كل

مايحلّه طيبا نافعا، وكل ما يحرّمه خبيثا، و لذلك فالتركيز على صفة الإيمان حين قال في الخاتمة: ﴿الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ عائد على النداء في أول الآية الأولى ،ومؤكد على هذه الصفة الملازمة للمؤمنين، ومجيء الجملة الاسمية يساعد على بيان ثبات وصف المؤمنين بصفة الإيمان إذ لم يقل على سبيل المثال: الذي تؤمنون به .

ولما نادى الله تعالى المؤمنين ونهاهم عن تحريم ماأحلّه، وأمرهم بالأكل من الطيبات التي أحلّها؛ ناداهم أخرى على سبيل من التقابل فنهاهم عن الاقتراب من الخبائث ،فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ . . . ﴾ المائدة (٩٠)ولكنه لم يأت بالنهي الصريح ،بل أمر بالاجتناب، و الإخبار بكلمة {رجس }، ونسبة ذلك العمل إلى الشيطان على معنى النهي عن الخمر وعن شربه ، فجاء على الأسلوب الأبلغ أثرا من نهيهم مباشرة ؛لأنه لما كان العرب قد ألفوا شرب الخمر في الجاهلية، وكانت عزيزة عندهم، وجاء الإسلام وكان من مبادئه تحريم شرب الخمر؛ احتاج الأمر بالترك أو النهي عنها إلى إقناع، ولكنه تدرج في تحريمها حتى اكتمل المعنى والحكم في سورة المائدة متمّمة الشرائع و مكمّلتها، ولذلك ختم بما يناسب وسيلة الإقناع من قوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ يقول البقاعي عن هذه الفاصلة :" وهذا شامل لكل أمر بمعروف أو نهي عن منكر في أعلى درجاته وأدناها ." (1)

وتتوالى الدلالات المباشرة بعد آية الخمر و الميسر حتى جاء قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ المائدة (٩٣) فتكررت التقوى في هذه الآية ثلاث مرات، فقرنت مرة بالإيمان و العمل الصالح، ثم بالإيمان ثم بالإحسان، وهذا يفسر لنا جانبا من تلازم نداء المؤمنين مع الأمر بالتقوى صريحا أو ضمنا، إذ الإيمان سبب للتقوى، و كلما

---

(١) نظم الدرر ٤٥٢/٢ .

زاد تحري التقوى زادت درجة الإيمان، حتى تصل إلى درجة الإحسان التي يحبها الله ويفضّل أن يصل إليها جميع المؤمنين بدلالة التحضيض عليها حين قال: ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

ويوافينا النداء الثاني عشر ليخبر بأسلوب التأكيد عن ابتلاء الله واختباره لهؤلاء المؤمنين في مطاعمهم، وذلك ليميز الخبيث من الطيب وليميز المتقي من غيره، وهذا ما عبّر عنه بقوله: ﴿ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ﴾ أي: من يتقيه .فدلالة السياق تأمر باتقاء الله وتنهى عن الضعف أمام المغريات من الصيد الذي سيكون في متناول أيديهم، وهو عليهم حرام، وعبّر بالكناية في قوله تعالى: ﴿ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ عن صفة قرب المأخذ مع سهولته، وتلك دلالة صريحة على عقد آخر وعهد مع الله؛ لذلك ناسبه أن يختم بقوله: ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ المائدة(٩٤) حتى يأتي النداء الثالث عشر في السورة، حيث نهى فيه صراحة عن قتل الصيد حال الإحرام، وبيّن جزاء مَنْ فعل ذلك في تفصيل مبين حين قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ . . . ﴾ المائدة (٩٥) .

ولعل هذين النداءين أو الثلاث آيات التي تتكلم عن موضوع واحد هو حكم الصيد حال الإحرام تزيد في المعنى في كل آية؛ فالأولى دلّت بدلالة السياق على تحريم الصيد حال الإحرام، وإنما يجعله الله في متناول أيديهم ورماحهم ابتلاء و اختبارا ،والثانية دلّت على نهي صريح عن قتل الصيد حال الإحرام مع تفصيل الكفارة إن حصل هذا القتل عمدا مع وجوب التوبة ،والثالثة حرّمت نصا الصيد حال الإحرام ،فنصّت على صيد البرّ وذكرت في مقابله صيد البحر الذي أحلّه الله تعالى، فكأنه ذكر الحلال مقابل الحرام تذكيرا بالفضل

والنعمة المقتضية الوفاء بالعهود والمواثيق،ولذلك أقفل هذا الموضوع بالأمر بتقوى الله الذي نجده ملازما لنداء المؤمنين في هذه السورة .

ولما قال بعدها : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي . . . ﴾ المائدة (٩٧)؛رد الأعجاز على صدورها،ولذلك رصدها السيوطي في مراصده فقال: " بدأت بتحريم الصيد في الإحرام،و بالشهر الحرام والهدي والقلائد ،وختمت بذلك . "(١)

ثم يأتي النداء الرابع عشر في السورة ليؤسس بنيانا مهما يصب في معنى عدم الاعتداء على خواص الألوهية،وذلك حين قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ المائدة (١٠١) فالنهي عن السؤال عن الأشياء التي تركها الشارع الكريم رحمة بالعباد جاء صريحا إلا أننا نلمس منه اللين،ذلك اللين نلمسه من دلالة معنى الآية الكريمة، ثم في قوله تحديدا: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ﴾ و الختم بوضع المظهر موضع المضمر في قوله: ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

فهي ثلاث دلالات متلاحقة تكوّن منها سلسلة من معاني الرحمة يضفيها تعالى على عباده،و الآيات بعده أدل دليل على ذلك ،لأنه اتخذ طريق الإقناع بضرب المثل بالأقوام السابقة و ذلك حين قال: ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾ المائدة (١٠٢) فالعقود المبرمة من الله مع عباده ليس فيها كلفة ولا مشقة بل كلها رحمة و لين بالعباد،وهي تصعد بالبشرية وترقى بها لتكون في حال أفضل .

---

(١) مراصد المطالع ص٥١ .

ويتبع هذا النداء بنداء آخر يعالج أيضا كيفية التعامل مع الآخرين فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ المائدة (١٠٥) وهو استرسال لمعنى الآيات السابقة فالمؤمن يلزم نفسه، ويهتم بإيمانه لا يضره غيره من الضالين، وهذا عقد جديد، وهو كالقاعدة للمؤمنين إذا حاولوا إصلاح الآخرين ولم يجدوا منهم رجاء، وساعد على إيضاح هذا المعنى المقابلة بين الحالين متجاورين، فقال: ﴿ مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ و التأكيد على الحالين حين قال: ﴿ جَمِيعاً ﴾ مع مجيء الاسم الموصول للوصول لحال الكافر حين قال: ﴿ مَّن ضَلَّ ﴾ حيث يسهم في تقرير فعل الضلالة .

ومع بداية نهاية السورة يأتي النداء الأخير للمؤمنين ،النداء السادس عشر فيتحدث عن الوصية عند الموت، و هو موضوع مؤذن بانتهاء السورة ،ولذلك أُخّر ذكره في هذا الموضع .

فسار نداء المؤمنين من أول السورة إلى منتهاها، وسار الأمر بالوفاء بالعقود من أولها إلى منتهاها -كما أوضحنا – بين التصريح والتضمين ،وكانت البراعة في الاستهلال طريقا إلى البراعة في الختام ؛ولما كان ذكر الرسل وجمعهم يوم القيامة وسؤالهم من أوثق المواثيق خُتمت السورة بهذا الشأن .ولّما أراد الله أن يضرب مثلا من هؤلاء الرسل؛جيء بذكر عيسى – عليه السلام– الذي غالى فيه النصارى حتى جعلوه إلها، وإثبات بشرية عيسى– عليه السلام– صلب في قضية الألوهية، فكانت سهما في تحقيق مقصود السورة .

وتذكير عيسى– عليه السلام– بنعم الله يقتضي الوفاء بعهوده كلها ،هذا التذكير حمله البيان القرآني بأسلوب الخطاب من الله لعيسى، وكان لمجيء (كاف الخطاب) خمس مرات أثر في بيان تلك النعم حين قال :(عليك– والدتك — أيدتك – علمتك– عنك) وكان للتركيز على لفظ :(بإذني) دلالة المشيئة الربانية بما كان لعيسى – عليه السلام– من معجزات .

وهذا كله ينبئ عن براعة الختام لأنه يعود بنا على معاني السورة كلهـا،فشفى النفـس منهـا،دون تطلع لها إلى زيـادة معنى .

* * *

خامسا /

براعة الاستهلال في سورة الأنفال طريق إلى براعة الختام

تتصف سورة الأنفال ببراعة الاستهلال من أول آية، فهي تومئ إلى مقصود السورة الأعظم من التسليم بأن مقاليد النصر بيد الله لا غير مع ضرورة تزهيد القلب من الغنم الدنيوي وتعليقه بالغنم الأخروي ، حيث قال تعالى في مفتتحها : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ . . . ﴾ الأنفال (١) ولما كان هذا المقصود يحتاج إلى ترسيخ عقيدة الإيمان في القلب؛ جاء التركيز في السورة على القلوب بصفة مستمرة ، حتى أتبع الآية الأولى صفات المؤمنين التي أولها وجل قلوبهم من ذكر الله، مع حصول زيادة الإيمان من تلاوة آياته، وتوكلهم عليه تعالى في كل أعمالهم . وكلها صفات تستقر في القلب أو تنعدم منه لذلك جاء التحضيض على توافرها بربطها بالإيمان حين قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ الأنفال(٢). والصفات المذكورة تعدّ من بواطن الأعمال، والمعوّل عليها؛ لذلك قدّم ذكرها، ثم تأتي الأعمال الظاهرة كإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة، والإنفاق في سبيل الله تالية بطريقة التبع. واللافت أن كل تلك المعاني تدور حول الأمر الأول بعد الجواب عن الأنفال في مستهل السورة حين قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللَّهَ ﴾ الأنفال (١) فتقوى الله ركيزة في ترسيخ عقيدة الإيمان التي سيربطها بضرورة الجهاد في سبيل الله فيما بعد، وهذا يفسر لنا جانبا من جوانب تقديم الأمر بتقوى الله على الأوامر التالية، ولو قال: قل الأنفال لله ورسوله فأطيعوهما لأجزأ .ولكن المدخل للطاعة هو حصول التقوى .

ولما كانت القلوب ركيزة في التغيير؛ ذكر النظم الكريم ما انطوت عليه قلوب بعض المؤمنين من حال الكراهية للخروج لغزوة بدر، فقال: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ الأنفال (٥) فمهّد تعالى لذكر غزوة بدر الكبرى ببيان الحالة النفسية التي كان عليها المسلمون آنذاك، مع الإيماء إلى أن مثل ذلك لاينبغي أن يصدر من المؤمنين كما يُستنتج من سياق الآية. وكراهية فريق من المؤمنين للخروج تجسدت فى

جدالهم للنبي في هذا الحق المأمور بالخروج لأجله وهو القتال، وشنّع تعالى هذا الجدال حين صوّره بصورة تشبيهية؛ لتصوير قوة المانعة والكراهة التي كان عليها فريق من المؤمنين حينما أُمروا بالخروج إلى لقاء العدو، مع التنفير من هذه الصورة التي كانوا عليها والترغيب في السمع والطاعة وعدم الجدال. ورفع قيمة هذا التصوير الجملة الحالية: ﴿ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ لأن من يرى أهوال الموت ومصارعه أمامه، ويعرف حتمية وقوعه؛ يكون أعظم تأثرا وأبلغ ألما ممن يعرف حتمية الوقوع دون المعاينة.

وهي دلالات مباشرة على معالجة القلوب بتنفيرها من التردد في الطاعة.

وفي إيماءة لطيفة وتدرج خفي يعلق الله قلوب المؤمنين بما عنده عن طريق ذم اختيار المؤمنين للمغنم اليسير بدلالة السياق، وليس بالتصريح حين ذكر الطائفتين، وأبان عن رغبة المؤمنين في أضعفها فقال: ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ الأنفال (٧) وأسهمت الكناية عن المغنم الميسر في ذم اختيار المؤمنين للطائفة المرادة من قِبَلِهم.

وهذا كله يظهر من وجه آخر غير كراهية الخروج، يظهر عدم اجتماع الكلمة و عدم الإصلاح في الداخل، فظهر بهذا الحال ظلال الأمر الثاني بعد تقوى الله حين قال: ﴿ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ ولما كانت كراهة ذلك الفريق و جداله منبعهما الخوف من عدم الاستعداد للقاء العدو؛ أمّن تعالى قلوبهم بأسلوب القصّ والحكاية لغزوة بدر، والتقديم لها ابتداء من استعانة المؤمنين، واستجابة الله لهم، مع ذكر أهداف الاستجابة التي أجملها بقوله: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴾ الأنفال(١٠).

وتوّج الكلام كله حين ذكر مدار الأمور، فختم نفس الآية بقوله: ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ... ﴾ فالنصر مكفول لو حصلت عقيدة اليقين بالنتائج، والإصلاح، والرضا بالمأمور.

واليقين بالله ناصرا ومؤيدا أول باب يُطرق لتحقيق تعلّق القلوب بالآخرة، وهو أقواها، ولذلك عُزّز بالأدلة والبراهين، من تأمين قلوب المؤمنين بأمور معنوية، وأخرى مادية حرصا على تثبيت أقدامهم ، واجتماع كلمتهم .

وفي ذكر النعم المسداة إلى المؤمنين، والنقم المنهالة على الكافرين؛ تقابل بين حال قلوب المؤمنين من الراحة والطمأنينة والثبات المخلّف للاجتماع، والمنبعث من اليقين بالله، وبين حال قلوب الكافرين من الرعب والرهبة والخزي المسبب للتفرق، ومن العذاب الذي سينتظرهم في الآخرة الواقع عليهم بفعل الله .فهي لوحة متكاملة لحال قلوب الفريقين قبيل المعركة، وحين المعركة، والتركيز فيهما قائم على التثبيت؛ لأنه سبب الاجتماع و تحقق الإصلاح .وكأنه تعليم للأمر الثاني حين قال: ﴿ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ بل و تكفّل بتحققه عن طريق سوق النعم متتاليات .

ولما قال: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ الأنفال(١٧) دلّ دلالة مباشرة على تثبيت القلوب وطمأنتها .

ولما كان الاجتماع أصلا للثبات أمر بموجباته من طاعة الله ورسوله فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ الأنفال(٢٠)، وأكد أهمية الطاعة بإردافه بالأمر بالاستجابة، وصرّح بأن كل ما كان من أمر يدعونا إليه الرسول فيه إحياء للقلوب فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ الأنفال (٢٤)، وأكده أكثر بالنهي عن خيانة الله ورسوله، كل ذلك تحقيقا لمعنى الاجتماع الذي يسعى إلى تثبيت القلوب وطمأنتها .

ثم وافانا بأول دلالة مباشرة على التزهيد في المغانم الدنيوية بعد ذكر الأنفال في افتتاحية السورة، فقال محذرا من الاغترار بالأموال والأولاد، منقصا من قيمتها: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ الأنفال (٢٨) ثم انعطف الكلام كله على التقوى التي أمر بها في أول السورة ورغب فيها، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ الأنفال (٢٩) اعتبارا بأن التقوى هي أهم موجبات النجاة من العذاب، وعن طريقها يحصل تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وزيادة على ذلك فضل عظيم .

ولما ذكر البيان القرآني صدّ الكفار عن المسجد الحرام، وإحباط أعمالهم القلبية مثل: صلاتهم عند البيت يصفرون ويصفقون، وإحباط أعمالهم المالية مثل: إنفاقهم في سبيل الصد عن سبيل الله، وذكر مايعتريهم من الحسرة، ثم الحشر إلى جهنم ؛ ثبت قلوب المؤمنين بطريق غير مباشر .

ولما أسس لمعنى الزهد في المغنم الدنيوي، وكان قد أخرج النفل من قلوب المؤمنين من أول آية ؛ أعلم عن تقسيم الغنائم، ونصاب المؤمنين منها، و ماكان لله والرسول فقال تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ . . . ﴾ الأنفال(٤١) فانعطف الكلام على أول السورة حين ذكر السؤال عن الأنفال، وهي صريحة الدلالة على ربط العقيدة الراسخة بالجهاد في سبيل الله مع التزهيد في المغانم الدنيوية، فعلّقه بالإيمان بالله، كما كان في أول السورة، وكأنه بالتحذير من الافتتان بالأموال والأولاد هيّأ النفوس لقبول الزهد من ناحيتين، الأولى: أنه لما كان الزهد في الدنيا ناتجا عن التعلّق بالآخرة، وكان التعلّق بالآخرة سببا للزهد في الدنيا، ابتدأ بتعليق القلوب بالآخرة دون تصريح بالتزهيد في الدنيا، ومن ناحية ثانية: أنه تدرّج في هذا التزهيد فلم يكن هناك بتر وقطع مباشر، إنما كان عن طريق التعليم والتنفير بالتدرج .

ولما كان من موجبات الزهد في المغانم الدنيوية التذكير بأن هذه المغانم من تدبير الخالق؛ جاء بعدها ذكر قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ الأنفال (٤٢) وهي من الدلالات المباشرة على التزهيد في المغانم الدنيوية .

وتتوافد الدلالات المباشرة على تثبيت القلب ومعالجته؛ فذكر نعمة رؤيا النبي للأعداء في صورة قليلة، ورؤية الصحابة لأعدائهم قليلا على الحقيقة، مع رؤية أعدائهم لهم قليلا كذلك، وهما من أجلّ النعم التي تعنى بنفسياتهم ، مع التركيز في ذكر هذه النعم على القلب. ويتضح ذلك من دلالة السياق، فسياق النعمة يدل على أن هذه الرؤيا تريح النفس وتشجع القلب على الإقدام، مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ الأنفال (٤٣) .

ولما كان القلب عمدة في الإقدام والإحجام والثبات؛ جاء الأمر بعد هذه الآية بالثبات على أرض المعركة، مع ذكر الله لأن الذكر زاد الثبات، وجاء الأمر بطاعة الله ورسوله، والنهي عن التنازع، والأمر بالصبر، وكل ذلك من شأنه ترسيخ عقيدة الإيمان في النفوس .

ويتضح في الآيات التي يبين فيها تعالى أن الجزاء من جنس العمل سواء مع المشركين أو مع الأقوام السابقة من آل فرعون ومن قبلهم الدلالات المباشرة الصريحة على ضرورة التعلق بالآخرة، وأنه سبب للنجاة من العذاب كما أُسلف .

ولما أمر تعالى المؤمنين بإعداد العدة، أوضح أن التركيز على جانب القلب ذو أثر فعال في الانتصار، فقال: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ . . . ﴾ الأنفال(٦٠)، فإعداد العدة يرهب العدو ويرهب آخرين غيرهم. ولما أردف بالحديث عن النفقة في سبيل الله، أعلم عن أثرها في الإعداد ممالا يضيع وفاء عند الله. وهذه دلالات مباشرة على تثبيت قلوب المؤمنين، وحثهم على الإنفاق مما يزهدهم في التعلق بمغانم الدنيا ،و يطلعهم إلى مغانم الآخرة.

وقدم الأدلة والبراهين على التكفّل في الماضي، فذكر نعمة التأييد بالنصر ونعمة التأييد بالمؤمنين، ونعمة الاجتماع والإصلاح، فعاد بهذا المعنى الأخير على أول السورة، وأبان عن عدم حصوله دون إذنه تعالى، فقال: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ الأنفال (٦٣) وهذه دلالة مباشرة على نعمة الإصلاح والاجتماع من وجه، ومن وجه آخر على بيان أثر الجماعة الصالحة على تثبيت القلوب.

والحديث عن أهمية الجماعة المؤمنة لم ينته، حيث أمر الرسول ﷺ بتحريضهم على القتال بلفظ صريح، وتحريضهم على الصبر بلفظ غير صريح ،وكلها دلالات غير مباشرة على ضرورة التعلق بالمغانم الأخروية، ثم جاء غرض التزهيد في المغانم الدنيوية صريحا مرة أخرى في معرض خطاب الرسول ﷺ بسبب ماحصل من أخذ الفداء فيمن وقع بين يديه الشريفتين من الأسرى، فقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ الأنفال (٦٧) وبلغ غاية التعنيف مع بيان الرحمة حين قال: ﴿ لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ الأنفال (٦٨) .

ولما كان التزهيد في المغانم الدنيوية،لا يعني الشقّ على الأمة أو حرمانها؛جاء بيان قوله تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾الأنفال (٦٩) وهذا المعنى كان قد طرقه حين قسمة الأنفال بأسلوب غير مباشر فجاء هنا ودلّ على هذا المعنى دلالة صريحة للغاية؛لذلك قرنه هنا بالأمر باتقاء الله .

ثم توافينا آخر دلالة على التعلق بالمغانم الآخروية حين وصل إلى ختام السورة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾الأنفال(٧٠)،فالوعد بإتيان الأسرى خيرا مما أخذ منهم مع المغفرة من أعظم المغانم الآخروية،ولكنه مشروط بوجود خير يشابهه في قلوب الأسرى،وفيه تحضيض على الإيمان .

وكما افتتحت السورة بالبراعة،وسارت المعاني دالة دلالات مباشرة على صلاحية قلب المؤمن للتأثر؛ختمت السورة بالبراعة كذلك ،ووصل إلى ختام السورة حين قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ . . . إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾الأنفال(٧٢-٧٣-٧٤-٧٥)،فكما امتدح العصبة المؤمنة بصلاحية قلوبهم للتأثر،مع تحقق العمل الصالح لبلوغ درجة الإيمان الحقيقي في أول السورة؛عرّف في آخر السورة بعمل تلك العصبة الذين بلغوا درجة الإيمان الحقيقي،وأعلم أنهم فيها على منازل ومراتب،وإلى ذلك أشار السيوطي بقوله: "افتتحت بقوله: {أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ }واختتمت بقوله: {أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } ."[١]

---

(١) مراصد المطالع صـ٥٢ .

كما ضمّن هذا المعنى أثر الزهد في المغنم الدنيوي ،وأخرجه مخرج الحديث عن الولاء والبراء وحذر من عدم الاتباع ببيان أثر ذلك على الجماعة؛ممايحث على الانتساب إلى الإسلام واللحاق بالركب المؤمن،و ترك الكفر .فكان من رد الأعجاز على صدورها .

ولما كان حرمان أولي الأرحام من الإرث قد يولد فسادا وفتنة؛نسخ حكم الإرث – كما جاء عند ابن عباس– وختم السورة بولاية الأرحام فحقق لهم ولاية الإرث في دين الله وشرعه .

ولما كان المعوّل على القلوب ؛ذكر في الختام ما يتناسب من صفات الله المطلع على ماتضمر تلك القلوب من العقائد الصالحة و الفاسدة، فهو يفسر الختم بالإحاطة والعلم بمايصلح العباد وذلك يعود على مجمل معاني السورة .

فانطبق الكلام في الخاتمة على نظيره في فاتحة السورة ،و كانت علاقة الخاتمة بالفاتحة من العلاقات الجلية التي لاتشكل فهي من ذكر النتائج بعد المقدمات .

*   *   *

سادسا /

براعة الاستهلال في سورة التوبة طريق إلى براعة الختام

تتصف سورة التوبة ببراعة الاستهلال، فمطلع السورة متضمن لمقصودها، وهو إعلان وضع السيف حدا فاصلا بين المؤمنين والكافرين ، مع البراء من الكافرين، والوعيد والنذير لكل كافر معاند ولكل مؤمن متخاذل ، فقال تعالى: ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ التوبة (١)؛ لأن البراءة معناها انقطاع عصمة الله ورسوله معا عن المعاهدين، وانقطاع العصمة يتضمن معنى الغلظة، وكون البراءة هذه صادرة من الله ورسوله يعني الغلظة من الله ورسوله على الكفار و المشركين . وهي دلالة صريحة على ابتداء عهد جديد لم يعهد المشركون مثله من انقطاع العصمة .

وهذه البراعة في المطلع تسير مع معاني السورة من مطلعها حتى تصل إلى خاتمتها، ويتفرّع عنها أمور وتقتضي أخرى .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ التوبة (٣)إعلان بعد الإعلان بالبراءة في يوم الحج الأكبر، فشدّد عليه بذكر الزمن المقدس، وبتكرير الإسناد لله ولرسوله مرتين .وهي دلالة صريحة أخرى تعضد الأولى، وتؤكد معنى انقطاع العصمة ، وتفتح باب التوبة للراغب، وترهب المتولي .

ولما كانت البراءة تعني انقطاع العصمة، وتتضمن معنى الغلظة؛ كان الأمر بقتال المشركين في كل مكان، وحصرهم و الترصد بهم بأسلوب الأمر الصريح جزء من تلك الغلظة، فقال تعالى : ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ التوبة (٥) .

وتتضافر المعاني والصور البيانية في إيقاع الألم على نفسيات الكفار و الغلظة عليهم ؛ابتداء من انسلاخ الأشهر، والأمر بقتال الكفار،وأسرهم ،وحصارهم ،والترصد لهم في كل مكان. ولذلك جعل الباب مفتوحا بعدها للتوبة،فقال: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾ والمقام يغري بالتوبة والانسلاخ من الكفر بسهولة ويسر وبسرعة،والدخول في الإسلام بالقول والفعل معا .

ولما قال : ﴿ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ * أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ ﴾ التوبة(١٢-١٣)؛ حضّ على قتال رؤساء المشركين؛ بيانا لعظم أثرهم على أتباعهم . ورفع قيمة التحضيض ببيان أفعالهم ضد الإسلام ؛ من نكث الأيمان ،والهمّ بإخراج الرسول،والبدء بالمعاداة . وكذلك بتكرار ذكر الأيمان ،وإلصاق نكث الأيمان بهم تأكيد على مراوغاتهم،و لتركيز على نكث الأيمان يتلاءم مع موضوع السورة الذي هو البراءة من عهود المشركين ؛حيث لا عهد لهم .

ولما كان قتال الكفار جزءً من براءة المسلمين من الكفار؛وُعد المؤمنون بالتكفل إذا حصل منهم التوكل،فأمره تعالى بقتال المشركين يستلزم الامتثال والانقياد فقط ،أما النصر على العدو فهو بيده تعالى لا غير،ويُظهر هذا المعنى عطف الأفعال المتعددة على جواب الشرط حين قال : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ التوبة (١٤ -١٥) وكل ما مرّ يسجل من الدلالات المباشرة للغلظة على الكفار التي احتل فعل الأمر المرتبة الأولى فيها بيانا لتلك الغلظة من الأمر بقتالهم وأخذهم وحصارهم والجلوس لهم كل مرصد ،الأمر بقتالهم يتردد في كل مرة مع تنوّع ما يصاحبه من التحضيض و التثبيت .

ولما أغلظ الخطاب القرآني على مشركي العرب بطريق وعد المؤمنين بتعذيب الكفار وشفاء صدور أقوام من المؤمنين ،وإذهاب غيظ قلوبهم ؛شدد عليهم بقوله : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ التوبة (١٧-١٨) فعبر بنفي الشأن في هذا المقام لرفع قيمة النفي وإعلاء وقع شدته ،ومعناه: أن المشركين ليسوا أهلا لأن يعمروا مساجد الله بأي نوع من أنواع العمارة ،وليس من شأنهم أن يعمروها ،ولا أن يفكروا فيها ،أو يطمحوا إليها ،ولا يُعقل أن يعمروها ،و هذا يعني بعدها عنهم بعد السماوات عن الأرض ،كل تلك المعاني لا تتأتى إلا من نفي الشأن فنفيه أشد من نفي الفعل أو طلب الكف عنه ،لأنه نفي بالدليل ؛فنفى عنهم عمارة المسجد الحرام حال كونهم: ﴿ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ﴾ و عمارة المسجد لزومها بالعبادة أوالخدمة ،و هذا جمع بين ضدين ،فانتفت عنهم العمارة لعلة الكفر الصريح ،و لهذا كان مجيء نفي الشأن في هذا المقام متمكنا. و لما حصر العمارة فيمن آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ،قابل بين الحالين تعزيزا لنفي الشأن عن الكفار في عمارة مساجد الله ،وبيانا لوضاعة شأن الكفار بالكفر و علو شأن المؤمن أو سُمُوه بالإيمان . وهذا من الدلالات الصريحة للغلظة على المشركين .

ولما كان البيان القرآني قد مهّد لقطع صلة المؤمن مع الكافر في قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ التوبة (١٦) فكانت دلالة غير مباشرة للغلظة على المشركين عن طريق استعارة الوليجة للقرب المنهي عنه، لما كان كذلك؛ جاء في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ التوبة (٢٣ –٢٤) ليصرح بقطع هذه الصلة تماما حتى لو كانوا أقارب؛ آباء وأبناء وإخوانا وأزواجا، وعشيرة .وزاد الأموال والتجارة والمساكن مما يشتغل قلب الإنسان بحبه، ليجعل كل ذلك إلى زوال مقابل محبة الله ورسوله. ومع هذا التصريح بقطع الصلات ؛فإن فيها من الشدة على المؤمنين أكثر منها على الكافرين .

ولما مهّد البيان القرآني بإبعاد المشركين عن مساجد الله، ثم بقطع الصلات معهم ؛صرّح بإخراجهم من المسجد الحرام فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ التوبة (٢٨) ،وشدد عليهم بالنهي من عدم الاقتراب من المسجد

الحرام لأن نفي قربه أبلغ[1]من نفي دخوله ،فبنفي القرب يحصل نفي الدخول ،وفيه غلظة عليهم وشدة .

ثم إنه تعالى قرن بمشركي العرب أهل الكتاب،فأمر بقتالهم حتى يعطوا الجزية في ذل وصغار،وعبّر عن ذلك فقال: ﴿ قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾التوبة(٢٩) فأمر النظم الكريم بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد،ومعنى عن يد:" من يده إلى يد مَنْ يدفعه إليه،و كذلك تقول العرب لكل معط قاهرا له شيئا طائعا له أوكارها: أعطاه عن يده،و عن يد ."[2] والتعبير باليد تعبير على سبيل المجاز المرسل،وفيه تصوير قهر الكفار و إذلالهم . وقد يكون لقوله:عن يد وجه آخر:أي عن استطاعة،فلا تجب إلا على مستطيع .

وعلى المعنى الأول يكون قوله بعدها: ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾مؤكدا حصول مذلتهم وقهرهم،لأن الصغار هو الرضا بالمنزلة الدنيئة .[3] وذلك عين القهر والسطوة،وعلى المعنى الثاني يكون مؤسسا لمعنى المذلة والصغار ." والمقصود منه تعظيم أمر الحكم الإسلامي،وتحقير أهل الكفر ليكون ذلك ترغيبا لهم في الانخلاع عن دينهم الباطل واتباعهم دين الإسلام ."[4]

وهذا الذل والصغار جانب من الغلظة التي تعد من مستلزمات البراءة،فهي دلالة مباشرة عليها .

---

(١) أي أقوى مبالغة،وذلك يلفت الانتباه إلى أن المفاضلة في المبالغة لا في البلاغة وهذا مهم ؛دفعا لمن يقول بتفاوت البلاغة القرآنية .

(٢) جامع البيان ١٠٨/١٠ .

(٣) المفردات (صغر) .

(٤) تفسير التحرير والتنوير. المجلد الخامس ١٦٧/١٠ .

ولما كان تحديد التاريخ الزمني للنفير يؤول إلى معنى البراءة ؛لأن ما فعلوه من النسيء والزيادة في عدد الأشهر يعد زيادة في الكفر؛ جاء الأمر بقتال المشركين جميعا ،وفيه امتداد للقوة التي تحدث عنها في أخذهم الجزية من أهل الكتاب .

ولما كانت البراءة تقتضي القتال؛ وكان القتال يقتضي النفير والنصرة ؛وجّه الخطاب القرآني حديثه إلى المؤمنين يعاتبهم على تثاقلهم عن الخروج لغزوة تبوك، وعن رضاهم بالحياة الدنيا بدلا من الآخرة . فأمرهم بالنفير عن طريق التهديد مرة ،وأمرهم بالنصرة مع بيان الاستغناء عنهم مرة، ثم أمرهم بالنفير على كل حال عن طريق الترغيب وهذا يفضي – بطبيعة الحال– إلى الغلظة على الكافرين بدلالات غير مباشرة .

ولما ذكر النظم الكريم أحوال المشركين وأتبعها بأحوال أهل الكتاب، ثم فصّل في أحوال المنافقين ،وقرر سلكهم مع الكفار في سلك واحد ؛أردف مباشرة بنداء النبي وأمره بمجاهدة الكفار والمنافقين، والإغلاظ عليهم فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ التوبة (٧٣) و هذا أول موضع صريح بلفظ الإغلاظ دون معناه –كما سبق –، وهي غلظة من الرسول ﷺ غير تلك التي من الله تعالى أو من المؤمنين .

ولما كان من أعمال المنافقين عدم الوفاء بالعهود والبخل وعدم التصدق والتطاول على المتطوعين في الصدقات؛ كان استحقاقهم للنهي عن الاستغفار لهم أوجب، فقال تعالى مخاطبا نبيه : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ التوبة (٨٠) و النهي عن الاستغفار معناه: نفي المغفرة عنهم حتى لو كان الداعي لهم هو الرسول ﷺ و فيه إشارة إلى عظم رأفة الرسول ﷺ، وهو من وجه آخر تعريض بمعانديه، و استحقاقهم للعذاب لا محالة فيه. وهذا شكل من أشكال الغلظة عليهم الذي يصب في معنى البراءة .

ولما ذكر البيان القرآني فرح المخلّفين بمقعدهم ،وكرههم للجهاد في سبيل الله؛ أمر نبيه بحرمانهم من الخروج أبدا ،ومن قتال الأعداء أبدا،وفيه معنى الاستغناء عنهم ،وبيان عدم وجود قيمة لخروجهم ولقتالهم أصلا، وهو نوع من التعنيف الذي يفضي إلى تنامي معاني الشدة عليهم .

ولما كان تعالى قد نهى نبيه عن الاستغفار للمنافقين؛ أتبع بنهيه عن الصلاة عليهم بعد موتهم ،وعن القيام على قبرهم ،وهذا كله يحمل معنى خروجهم من زمرة المسلمين المستحقين للاستغفار والصلاة والقيام عند قبورهم ،و هو يفضي إلى البراءة من كونهم مسلمين، وإلى سلكهم مع السابقين من الكفار في أحكامهم بصورة صريحة قوامها أسلوب النهي .

ولما ذكر النظم الكريم الأحوال التي يصح فيها العذر عن الجهاد في سبيل الله ،وهي التي جاءت في معرض الحديث عن المؤمنين؛ انزوى معنى البراءة قليلا ،ونلمس منه تعريضا بالمنافقين وأفعالهم ؛فأشاد بالمعذّرين من الأعراب أصحاب الضعف والمرض والفقر،وعرّض بالقادرين .

ولما كان من مقتضيات البراءة ذكر الأعمال المستحق بها البراءة؛كان الفضح جزء من الغلظة والشدة على المنافقين،الذي أتبعه بالحكم عليهم بأنهم رجس يجب اجتنابه،فقال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ التوبة (٩٥) .فاستخدام الإعراض الأول بمعنى لتتركوهم ولا تلوموهم على تخلفهم ،أي: تعذروهم ،وهذا الإعراض مطلب المنافقين .وأتى بالإعراض الثاني بمعنى تجنبهم والبعد عنهم لسوء عملهم ،وهذا على غير مايرغب فيه المنافقون،و هو من باب المشاكلة .و توصل بهذا الأسلوب إلى معنى مستلزم من مستلزمات البراءة وهو قوله: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ وهذا يفضي إلى البراءة ،لأنه وضع حدا و فاصلا بين المنافقين و المؤمنين .

و من الغلظة على المنافقين توعدهم بعد ذكر مقصدهم و حالهم و مآلهم بالريبة التي لا تبرح قلوبهم، و قوبل هذا الوعيد بوعد المؤمنين بالربح ببيعهم أنفسهم، ثم ربط ذلك كله بالتوبة بذكر صفات المؤمنين التي جعل التوبة أول صفة تميّزهم .

ولما أبان الخطاب القرآني قبل ذلك عن ضرورة قطع الصلات مع الكافرين ولو كانوا أولي قربى، وأبان بعده عن عدم تقبل الاستغفار للمنافقين بأي حال من الأحوال؛ قرر قاعدة وهي أنه ليس من شأن المؤمنين أن يستغفروا للمشركين ، ولو كانوا أقرباء لهم، فهم ليسوا أهلا للاستغفار، خاصة وأنه قد تبين مآلهم ومصيرهم بسبب سوء أعمالهم، و عطف عليه مباشرة بنفي الشأن عن إبراهيم– عليه السلام –في استغفاره لأبيه، وأبان أنها عن سبب معين، وهو الوعد بالاستغفار، وحين حصول التبيين بالعداوة لله تبرأ إبراهيم من أبيه .
فالتركيز على وجوب البراءة حال حصول تبيّن الكفر، و لما كان من الممكن أن يقال: تبرؤه حاصل بسبب غلظته وجفوته؛ احترس بقوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ التوبة (١١٤) فالفاصلة متمكنة في محلها ؛لأنها أفادت تقرير كثرة تضرع إبراهيم– عليه السلام– و دعائه لربه مع الإشفاق و الحلم .

ولما كان القتال أصلا في البراءة، و كانت الغلظة أصلا في القتال لا يقوم إلا بها.وكانت الغلظة على المشركين لا تقل أهمية عن القتال فكلاهما مناطا البراءة ؛لما كان كل ذلك؛ جمع بين القتال والتصريح بالغلظة في موضع واحد ،فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ التوبة (١٢٣)
ولما كان الفضح بالآيات من الغلظة كذلك؛ بيّن أثرها على المؤمنين من زيادة الإيمان والاستبشار، وبيّن أثرها على غيرهم من زيادة الرجس على رجسهم، ومن موتهم على الكفر بسبب عدم توبتهم ،ومن ذيوع الإحساس بالخزي والعار الذي صوّره بقوله : ﴿ وَإِذَا مَا

أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُون ﴾ التوبة (١٢٧)وهذا نقيض الاستبشار الذي نسبه للمؤمنين في الآيات السابقة وهذا كله إبراز لمعنى البراءة ،وتأكيد له،و تركيز لمقتضياته .

و من أول السورة إلى منتهاها نلحظ معنى البراءة والغلظة يحتلان الصدارة بشكل بارز،فنجده إما بلفظ البراءة مثل :(براءة – بريء) أو بمعناه كما في قوله: {وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً }و{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء }و{ وَمَا هُم مِّنكُمْ }و{الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ }و {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ }.

كما نلحظ أن السورة يبرز فيها ما يدل على الغلظة بمعناها أكثر من لفظها،أما ما ورد بلفظها فمثل:(اغلظ – غلظة) وتعج السورة بما يدل على معناها من مثل :(مخزي –فاقتلوا – احصروهم –اقعدوا لهم –فقاتلوا – يخزهم –قاتلوا (مرتين)– قاتلهم الله – فثبطهم– ألا في الفتنة سقطوا –لن يتقبل منكم –جاهد الكفار –لا تصل على أحد –لا تقم على قبره).(1)

وبراعة الاستهلال سارت مع معاني السورة حتى و صلت إلى ختامها،و ذلك حين قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ التوبة (١٢٨) فكما افتتح السورة بالبراءة المقتضية معنى الغلظة،و الخاصة بالتعامل مع الكافرين؛ختم السورة بما يناظرها من الإشفاق و الرحمة الخاص بالتعامل مع المؤمنين ولا غير،و الختم بقوله: ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ تأكيد لمعنى الرأفة والرحمة المذكورة من قبل الحاصلة من الله تعالى لفريق من المؤمنين

(١) ومثل هذا يُعد عند المحدثين عاملا من عوامل التماسك النصي للخطاب .

خصوصا،وذلك حين قال قبل ذلك : ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ التوبة (١١٧)و هذا التخصيص حاصل لغرض الترغيب في الدخول في زمرة المؤمنين .و هذا كله يحقق الولاء بين المؤمنين .

وختم كذلك بما يحقق معنى الغلظة على الكافرين فقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ التوبة (١٢٩) وكأنه يحقق للرسول معنى التبرؤ من أفعال الكافرين،و هذا يقابل حال الولاء بين المؤمنين السابق،و كلا الحالين يفهمان من السياق،ولم يصرّح بلفظيهما ."و لما كان في سياق القهر و الكبرياء بالبراءة من الكفار،كان المقام بالعظمة أنسب ...فقال : { الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} ."[1] ولعل هذه الغلظة في آخر آية في السورة تعود على مثلها في أول السورة ،فكان من رد الأعجاز الصدور ،ولذلك قال السيوطي : "افتتحت بقوله : { وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ} وختمت بقوله : {فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ} ."[2]

فالخاتمة كثفت معاني البراءة وما تقتضيه من الغلظة،وما يقابلها من الولاية وما تقتضيه من معاني الرحمة والإشفاق . فانطبق آخر الكلام على أوله ،وأوله على آخره بما يحقق كون السورة شبيهة بالدائرة التي لا يعرف طرفاها .

*　　　*　　　*

(١) نظم الدرر ٣/٤٠٩-٤١٠ .

(٢) مراصد المطالع صـ٥٢ .

الباب الثالث/

السور الطوال (خاتمتها-مدنيتها) على مدرجة السياق الترتيلي للقرآن

الفصل الأول /

موقع الطوال المدنية من السياق الكلي للقرآن

فقه المعنى القرآني كما يحتاج إلى معرفة موقع الآية في سياقها ،فهو أحوج ما يكون إلى معرفة موقع السورة من سياقها الترتيلي ؛وكما أنه ذاته لا يقوم على تجاور الآيات فقط ؛فهو يرصد مداها و ارتدادها على نطاق تجاور السور كذلك ليمتد ويرى الأشباه و النظائر من السور إن في مطالعها ،وإن في خواتمها، وهذا كله يزيد من الاستبصار بمعنى السورة و يوضع اليد على محل اللبنة فيها ؛فتدرك المعاني معنى معنى و ينظر في مرامي كل منها فيعلم أسباب تقديم إحداها ،و تأخير الأخرى ،أو يدرك معنى قرن بعضها إلى بعض على أساس من التقابل أو التماثل أو التكميل أو التفصيل.

ولكل سورة من سور القرآن الكريم محل لا يصلح لها غيره،حيث تتناسل السور فيما بينها تناسلا يتناسب مع مقاصدها،وتصدير القرآن الكريم بسورة أم الكتاب خير دليل على ذلك إذ تتناسل منها جميع مقاصد القرآن الكريم .ويعزز ذلك نص السنة النبوية على بيان مواقع بعض السور أو الآيات(١)،وهذا يعزز القول بالتوقيف في ترتيب سور القرآن الكريم .

وموقع السورة الكليّ من القرآن له علاقة وطيدة بالمعنى القرآني،والأشباه و النظائر من مكملات فهم المعنى القرآني،وهي فرع عن التناسب ،فنظم الآيات المتشابهات في كل سورة لها من الصفات والخصائص البيانية ما تتناسب به مع جو السورة التي هي فيه من وجه، وما تتشابه به مع سورة أخرى من حيث السمات الكلية .

---

(١) " عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال :قال رسول الله ﷺ: إن لكل شيء سناما وإن سنام القرآن سورة البقرة ." (المستدرك على الصحيحين . كتاب التفسير .رقم الحديث (٣٠٢٧).تفسير سورة البقرة ٢/٢٨٥).

وعن أبي هريرة –رضي الله عنه– أن رسول الله ﷺ قال :" سورة البقرة فيها آية سيدة آي القرآن لا تقرأ في بيت وفيه شيطان إلا خرج منه آية الكرسي"(المستدرك على الصحيحين .كتاب التفسير .رقم الحديث(٣٠٢٦). تفسير سورة البقرة ٢/٢٨٥) .

وكل سورة من سور القرآن الكريم تعبّر عن معنى خاص لا تجده في سواها، وإن وجدت شيئا منه فهو تأكيد من وجه، وتأسيس من وجه آخر، أو هي تفصيل لإجمال، ومن هنا نعلم أن القرآن الكريم مكمّل بعضه لبعضه الآخر، بل إنه سبيل إلى إيضاح بعضه ببعض، ولذلك يقول الشاطبي عن القرآن: "إن كثيرا منه لا يُفهم معناه حق الفهم إلا بتفسير موضوع آخر، أو سورة أخرى، ولأن كل منصوص عليه فيه من أنواع الضروريات مثلا مقيّد بالحاجيات فإذا كان ذلك فبعضه متوقف على البعض في الفهم ."(١) والبيان بين السور لا يتقاطع إنما يتزايد ويتساير ويتصاعد .

والمتدبر في علاقات السور ينظر نظرة كليّة؛ تشتمل الفواتح، والمقاصد ، والخواتم ، واسم السورة ، ورقمها من القرآن؛ ليستبصر الأجواء الخاصة بالسورة ، فيعرف عمودها ، وملامح شخصيتها، ومعانيها الجزئية، وانعطافاتها، ثم معانيها الكلية، وبهذه المعرفة الأولية يستطيع إجراء المناظرات بين معاني السور، فينظر في المعنى وقرينه، والمعنى وأخيه والمعنى وابن عمه، فيستبصر طرق الجمع ، ونقاط الالتقاء، والاقتران، والافتراق، ويجمع إلى ذلك السياقات المقامية الخاصة بكل معنى، فتكتمل الرؤية ، ويُعرف وجه اختصاص كل سورة بمعنى وإن تقارب مع غيره أو تماثل . وهذه الخصوصية تصب في الدلالة الوضعية لمعنى (السورة) من الإحاطة والحدّ (٢)، كما يعرف رحمه الذي خرج منه ، فتتثنى معاني السور كما تثنت قبلها معاني الآيات؛ إما بتفصيل ما أُجمل، أو نشر مالُفّ ، أو تأكيد ، أو تكميل، وهذا يلوّح لما سبق ذكره من مجيء معنى السورة بالهمز بمعنى البقية.

---

(١) الموافقات ٣ / ٨٦٠ .

(٢) ينظر تفصيل الكلام على الدلالة الوضعية للفظ (السورة) في تمهيد البحث .

وتتصاعد مقاصد السور وتتحرك كما تصاعدت قبلها معاني الآيات وترتبت(1)؛ حتى لتبدو السور في سياقها القرآني كالآية من السورة، و كالجملة من الآية، و كالكلمة الواحدة في الجملة .

(1) يقول الأستاذ محمد أبو موسى عن بلاغة ترتيب سور القرآن: "إن أسرارها ليس لها أشباه في الشعر إلا إذا تمحّلنا لذلك تمحّلا، و رتبنا القصائد ترتيبا تاريخيا، و اعتبرنا الديوان قصيدة واحدة ... و بحثنا في الثانية عن علاقات تربطها بالأولى." (من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب .محمد محمد أبو موسى صـ ٢٨-٢٩ .ط٢ .١٤١٦ هـ ١٩٩٦ م .مكتبة وهبة – القاهرة) .

أولا : موقع سورة البقرة من السياق الكلي للقرآن

سورة البقرة أول السور المدنيّة و المؤمنون بعد هجرتهم إلى المدينة أحوج ما يكونون إلى الاستقرار، و لذلك حفلت سورة البقرة بالحديث عن مسئولية الاستخلاف في الأرض؛ فالسعيد مَنْ وُعظ بغيره ،فأبانت عن نموذجين استخلفهما الله في الأرض؛ أما الأول فهو: نموذج استخلاف فاشل؛ و هم اليهود من بني إسرائيل؛ كثرت اعتداءاتهم، وأخطاؤهم. و أما الثاني فهو: الأنموذج الذي يجب أن يُحتذى من قِبَل المؤمنين، لذلك كانت سورة البقرة أحق بالنزول الأوليّ في المدينة؛ حيث كان لها سبق التربية و التعليم ،كما حثت على المعاملات والعبادات والأحكام، والحدود، و ذلك لترتيب أنماط حياة المسلمين آنذاك و معيشتهم .

و سورة البقرة المدنية – على سبق المكي لها في النزول –ثاني سورة في الترتيب الترتيلي للقرآن الكريم ؛و في ذلك بيان تناسب مقاصدها و معانيها لأن تكون أولية في العلم و القراءة فالقرآن كتاب خالد لكل زمان و مكان .و هي الحاوية الشاملة، و أول الطوال التي أُعطيها الرسول ﷺ مكان التوراة ،و فيها آية الكرسي سيدة آي القرآن، و فيها الخواتم ،و هي كنز من تحت العرش .

سورة البقرة تبين عن قيمة الكتاب أثرا على الناس في أحد مقاصدها الكبرى .و هي تدعو الناس جميعا –على اختلاف مذاهبهم –إلى التوجه نحو ربهم توحيدا و عبادة في مقصودها الأعظم ؛مما يحقق غاية في وضعها أول سورة في الترتيب الترتيلي وإن لم تكن أولها نزولا . وتسميتها سنام القرآن([1]) تعزز مكانها من الترتيب الترتيلي للقرآن ؛لدلالة السنام على العلو والارتفاع([2])، فالسورة تحقق مقاصد أعلاها إثبات التوحيد وهو المقصود الأعظم من مقاصد القرآن الكريم كله، و هو في ذروته .وسورة البقرة هي فسطاط القرآن ،و لذلك كانت أول سورة تنزل بالمدينة يُثبّت الله بها قلوب المؤمنين بعد هجرتهم، و كانت ثاني سورة في ترتيب المصحف بعد الفاتحة ،و ترتبط معها برباط النسب .

---

(١) ينظر المستدرك على الصحيحين . كتاب التفسير .رقم الحديث (٣٠٢٧).تفسير سورة البقرة ٢/٢٨٥ .

(٢) مقاييس اللغة . مادة (سنم) .

و لما كانت(أم الكتاب) تتحدث عن الصراط المستقيم؛الذي هو صراط المنعم عليهم ،وهو غير صراط المغضوب عليهم ،و غير صراط الضالين؛جاءت سورة البقرة لتبيّن بتفصيل ما أُجمل سابقا من أمر الصراط المستقيم ،و ذلك في مطلع السورة حين قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ إذ التمسك بالكتاب هدى إلى الصراط المستقيم الذي كمل وصفه في الفاتحة بقوله: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ فجاءت سورة البقرة في مطلعها تتحدث عن حال المنعم عليهم ،و هم المتقون،و ذلك في خمس آيات، فأبانت عن أوصافهم ،و حالهم ،و مآلهم،ثم أبانت عن حال المغضوب عليهم،و هم اليهود .(1) و ذكرت أوصافهم التي استحقوا بها الغضب من العصيان ،و المعاندة ،و عدم الإيمان على صعيد السورة كلها ،فكان تفصيلا لما أُجمل في سورة الفاتحة.

و يرى الإمام الخويي(2)أن تصنيف أحوال الناس في الفاتحة ينطبق في مجال النظر على سورة البقرة،فقال :" ثم إنه ذكر في أوائل هذه السورة الطوائف الثلاث الذين ذكرهم في الفاتحة،فذكر الذين على هدى من ربهم،و هم المنعم عليهم،و الذين اشتروا الضلالة بالهدى،و هم الضالون،و الذين باؤوا بغضب من الله،و هم المغضوب عليهم ."(3) وماجاء عن النبي ﷺ هو الأولى بالصواب ، فينبغي على من رغب في سلك الطريق المستقيم أن يتدبر أحوال الناس المذكورة في البقرة و آل عمران ،فيُجانب الخطأ ،و ينضّم إلى زمرة المنعم عليهم من المهديين . " فحصل من هذه السورة بأسرها بيان الصراط المستقيم على الاستيفاء و الكمال؛أخذا ،و تركا،و بيان شرف من أخذ به،و سوء حال من تنكّب

---

(1) عن عدي بن حاتم أن النبي ﷺ قال:" المغضوب عليهم:اليهود والضالون :النصارى ." (صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان.ذكر الاستحباب للمرء استمالة قلب أخيه. رقم الحديث (٧٢٠٦) ذكر عدي بن حاتم الطائي ١٣٩/١٤ .

(2) هو أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر أبو العباس .توفي عام ٦٢٧ .شذرات الذهب ٢٥/٣ .

(3) أسرار ترتيب القرآن صـ٧٨ .

عنه ،وكأن العباد لما عُلّموا أن يقولوا : {اهدنا الصراط المستقيم} إلى آخر السورة قيل لهم: عليكم بالكتاب إجابة لسؤالهم . " (١)

وقارئ خاتمة سورة الفاتحة يتساءل: لِم استحق اليهود هذا الغضب ؟ فتأتي سورة البقرة شفاء لما في الصدور، و بيانا لما أجمل في الفاتحة ؛لتبين أن اليهود اصطفاهم الله على العالم الذي كانوا فيه ،وأنعم عليهم بنعم وافرة قابلوها بالكفر والاستكبار ،وتخلل ذكرهم بيان حلول الغضب عليهم،وسبيل البيان القرآني حين ذكر المسبب ذكر السبب حتى يتحقق البيان ، فقال : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ البقرة (٦١) وتعاظم الغضب عليهم بحلول غضب آخر حين كفروا بمحمد ﷺ بعد كفرهم بعيسى –عليه السلام– فقال تعالى: ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أنَزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ البقرة (٩٠) فما أُجمل في سورة الفاتحة فُصّل في سورة البقرة،ومن شأن التفصيل إذا اتبع المعنى المجمل؛أن يزيده استقرارا في النفس ،وتمكينا و ترسيخا؛لأنه أتى و النفس متشوقة ومتطلّعة إلى معرفة فضل حديث و تساؤلات فكر .

وربط الحرالّي بين ابتداء الفاتحة و ابتداء سورة البقرة فقال: "ولما ابتدئت الفاتحة أم القرآن بالسابع الجامع الموهوب؛ابتدئ القرآن بالحرف السادس المعجوز عنه،وهو حرف المتشابه لأنه عن إظهار العجز و محض الإيمان كانت الهبة والتأييد ،وليكون العبد يفتتح القرآن بالإيمان بغيب متشابه في قوله: {الم} فيكون أتم انقيادا لما دونه و بريئا من الدعوى في مستطاعه في سائر الحروف ."(٢) وهذا نظر قائم على التقابل في ابتداء

---

(١) نظم الدرر ٢٩/١ .

السورتين،لأن الحرف السابع الذي ذكره و هو (الحمد) من المحكم ؛والحروف المقطعة من المتشابه ،وهذا وجه من التقابل . والآخر أنه جعل السورتين كالنظيرتين فالفاتحة افتتاح للقرآن كله،فحسن افتتاحه بالمحكم . وسورة البقرة افتتاح لسور القرآن كله،فحسن افتتاحها بالمتشابه الذي يقتضي الإيمان بالغيب .

ووضع السيوطي وجوها من المناسبات ظهر فيها سر ارتباط البقرة بالفاتحة ،ففتح الطريق على مصراعيه للقائلين بالتناسب،وأصبح بعضها قاعدات يسار عليها، ومن ذلك :

- أن كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها ،وشرح له،و إطناب لإيجازه. (1)

- أن الحديث و الإجماع على تفسير المغضوب عليهم باليهود و الضالين بالنصارى،و قد ذكروا في سورة الفاتحة على حسب ترتيبهم في الزمان .

- أن سورة البقرة أجمع سور القرآن للأحكام و الأمثال...فناسب تقديمها على جميع سوره.

- أنها أطول سورة في القرآن ،وافتتح بها السبع الطوال فناسب البداءة بأطولها .

- أنها أول سورة نزلت بالمدينة،فناسب البداءة بها،فإن للأولية نوعا من الأولوية .

- أن سورة الفاتحة كما ختمت بالدعاء للمؤمنين بألا يسلك بهم طريق المغضوب عليهم ولا الضالين ؛ختمت سورة البقرة بألا يسلك بهم طريقهم في المؤاخذة بالخطأ،والنسيان،وحمل الإصر ،فتآخت السورتان وتشابهتا في المقطع.(2)

---

(١) وحاصل ماذكر منه بين سورتي الفاتحة والبقرة أن قول الله تعالى: { الحمد لله} تفصيله؛ما وقع من الأمر بالذكر والدعاء والشكر في البقرة.وفي قوله: {رب العالمين} يتجلى معنى الربوبية بالتربية بالنعم وهو شامل للسورة كلها، وقوله: {الرحمن الرحيم} فمن رحمته؛ الإنعام والحلم والإمهال وقبول التوبة ومحو الزلّة والإرشاد إلى الطريق المستقيم،ومن رحمته؛ تعليم العلم والنشور والخلق والإعادة .وقوله : {مالك يوم الدين} تفصيله ما وقع من ذكر يوم القيامة.وقوله: { إياك نعبد } بيانه: ذكر المفروضات من العبادات والأحكام والحدود والمعاملات والشرائع عامة، كما شملت سورة البقرة الحديث عن أركان الإسلام الخمس.وقوله: { إياك نستعين } فقد دلنا تعالى على طرق الاستعانة بالدعاء والذكر والشكر والتوبة والصبر والإنابة والخوف والرجاء .وقوله: { اهدنا الصراط المستقيم ،صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين } فيه بيان للذين اتبعوا الصراط المستقيم ولصفات متبعيه،وصفات الذين أضلوا الطريق .(بتصرف أسرار ترتيب القرآن صـ ٧٨ إلى ٨١).

(٢) ينظر السابق صـ ٨٠-٨١-٨٢-٨٣ .

وللمتأمل أن يتساءل لِم قُدّمت سورة البقرة على سورة السجدة في الترتيب الترتيلي للقرآن الكريم؛و الثنتان ابتدأتا بالحروف المقطعة { ألم } ثم بنفي الريب عن الكتاب؟ فقال المولى في السجدة: {الم * تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين} السجدة(١-٢)

والجواب أنه حين كان من مقصود سورة البقرة ؛الإيمان بأثر القرآن الكريم ،وكان قصد سورة السجدة الإخبار بصدق رسالة محمد؛كان الأنسب تقديم ذكر المنزَّل ،وبيان نفعه على ذكر المنزَّل عليه،وبيان صدقه؛لأن الأول يصير إلى الإيمان بالأصل الأول من أصول العقيدة،والثاني يصير إلى الإيمان بالأصل الثالث .فكان تقديم سورة البقرة أولى في الترتيب الترتيلي على سورة السجدة .

ثم إن هناك شيئا آخر؛ فإنه في سورة البقرة أعلم عن وصف الكتاب ونفعه ،وفي السجدة عرّف بصاحبه،ومعرفة أثر الكتاب مقدمة على معرفة صاحبه،و أوضح الرازي هذا المعنى بمثال ضربه فقال: "و ذلك لأن مَنْ يرى كتابا عند غيره،فأول ما تصير النفس طالبة تطلب ما في الكتاب،فيقول:ما هذا الكتاب ؟ فإذا قيل :هذا فقه أو تفسير، فيقول بعد ذلك:تصنيف مَنْ هو ؟ ولا يُقال أولا:هذا الكتاب تصنيف مَنْ ؟ ثم يُقال في ماذا هو ؟ إذا علم هذا، فقال أولا هذا الكتاب هدى ورحمة،ثم قال ههنا هو كتاب الله تعالى،و ذكره بلفظ (رب العالمين) لأن كتاب مَنْ يكون رب العالمين يكون فيه عجائب العالمين ،فتدعو النفس إلى مطالعته ."([1])

ولما كانت سورة البقرة أول السور المبدوءة بالحروف الهجائية{ ألم} خاصة كانت السجدة قفلا عليها؛لأنها آخر السور المبدوءة بـ{ ألم }،فكما افتتح الحديث في الأولى بنفي الريب في الكتاب الحكيم؛ناسب أن يكون الحديث في الأخيرة كذلك بنفي الريب؛تأكيدا و تقوية في الختام للمبدأ،وعودا عليه. وعزّزه أكثر ،وزاد عليه كونه من :{رب العالمين} لأنه لا يصدر شيء عنه تعالى إلا وصفه الكمال ،ومحله الرفعة .

---

(١) التفسير الكبير.المجلد الأول ١/١٤٥ .

ونظرٌ آخر في مقدمة سورة لقمان يبين عن تشابه بينها وبين مقدمة سورة البقرة من عدة وجوه، أولها: الابتداء بالحروف المقطعة نفسها {الم} . ثانيها :وصف الكتاب . ثالثها: ذكر أحوال الناس في تقبلهم الكتاب ،ومآل كل منهم ،فقال تعالى: ﴿ الم* تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ* هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ* الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ* أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ* وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ* إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ* خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ لقمان(١–١٠)

ولكن لم وُصف الكتاب في سورة البقرة بنفي الريب،و في سورة لقمان وُصف بالحكمة ؟ ولم قال في الأولى: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وفي الثانية: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾؟ ولم قدّم هناك وصف المؤمنين بالإيمان بالغيب ،وأخره في لقمان،وكلتا السورتين تحدثتا في جانب منها عن القدرة المطلقة المقتضية الإحاطة العلمية ،وعن الإحسان في الإسلام ،وعن وجوب اتقاء اليوم الذي لا ينفع نفس فيه إلا إيمانها ؟

والجواب والله أعلم: أنه لما كان الخطاب في سورة البقرة لأمة كفرت بالكتاب ولم تصدق به ؛كان من الأولى وصف الكتاب بالكمال مع قصر نفعه على نمط فئوي ،وهم المتقون . ولما كان الخطاب لأمة مادية لا تؤمن إلا بما تراه عينها، وقد لا يؤمنون – كما فعلوا في قصة البقرة– كان الأولى تقديم صفة الإيمان بالغيب حين ذكرت ضمن أوصاف المتقين .

أما الخطاب في سورة لقمان فكان لكفار قريش الذين فاتتهم حكمة الكتاب المبين و غفلوا عنها،فزعموا في سورة الروم تلاشي دعوة النبي ﷺ ،ورأوا في انتصار فارس على الروم (أصحاب الكتاب) ما يبعث هذا الأمل في نفوسهم ،وتأولوا ذلك النصر ،تمكينا لعقيدة الشرك على ملة الكتاب،وغاب عن عقولهم حكمة الإعجاز العيني في آيات (سورة الروم) التي تبين وعد الله للروم بالنصر بعد حين ،و هو نصر المؤمنين بمكة،فكان الأنسب وصف الآيات بالحكمة،تلك الحكمة لا يدركها إلا من ارتقى درجة في الإيمان فصار من المحسنين لذلك قال: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ ،فناسب أن تقدّم سورة البقرة على سورة لقمان .

هذه النظرات في السياق الترتيلي للقرآن تبين عن أن كل سورة لها مكان لا يصلح لها غيرها .

*　　　　*　　　　*

ثانيا :

موقع سورة آل عمران من السياق الكلي للقرآن

سورة آل عمران مدنية بالاتفاق، وهي الثانية بعد سورة البقرة ،فبعد أن أُسست القواعد والشرائع في سورة البقرة؛جاءت آل عمران لبث قنوات الثبات في الأمة المسلمة الجديدة في المدينة؛لتضمن صلابتها،وقوتها أمام التيارات المعادية؛أي تأهيلهم للجهاد القولي والفعلي معا،وكانت أهم قناة تنطلق منها تلك القوة،وذلك الثبات؛رسوخ العقيدة وقوتها. وكان التعرف على مَنْ يعاشر المسلمين ويشاطرهم حياتهم من المنافقين واليهود أصلا في انبعاث تلك القوة ،فأفصح البيان القرآني في سورة آل عمران عن ضمائرهم،ثم أعطى طرقا ووسائل لاتقائهم ،وحذّر من تبطنهم ،فكان في لهجته المحذرة من المنافقين — وإن سبقت في البقرة — أشد صراحة وبيانا ،وما كان ذلك إلا للثبات أمام التيارات المواجهة المعادية للإسلام والمسلمين .

ولما كانت سورة البقرة سنام القرآن وآل عمران متمّمة لها؛اُبتدئ بالتعريف بالكتاب وثُني بالتعريف بصاحب الكتاب"لأن علم الكتاب أقرب إلى المخاطبين من تلقي علن أمر الله،فكان في تعلم سورة البقرة،والعمل بها تهيؤ لتلقي ماتضمنته سورة آل عمران؛ليقع التدرج والتدرب بتلقي الكتاب حفظا،وبتلقيه على اللقن منزل الكتاب بما أبداه علنه في هذه السورة."(١) وهذا وجه في الحكمة من ترتيب السورتين.و لذلك قال السيوطي ماحاصله: لما تضمنت سورة البقرة قواعد الدين؛كانت آل عمران مكمّلة لمقصودها،ولما كانت البقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم؛جاءت آل عمران بمنزلة الجواب على حجج و شبهات الخصوم،وكان خطاب اليهود في البقرة كما أن خطاب النصارى في آل عمران أكثر؛لأن التوراة أصل،والإنجيل فرع .(٢)

ثم إن القرآن يسير في ترتيبه الترتيلي سيرا تدريجيا تصاعديا في المعاني من العالية إلى الأعلى؛ويؤكد ذلك تعليق الحرالي على سورة آل عمران حين قال: "ولما كانت إحاطة الكتاب،أي في البقرة ابتداء،وأعقبها أي في أول هذه السورة إحاطة إلهية؛جاء هذا الخطاب

(١) نظم الدرر ٢/٥ .

(٢) ينظر أسرار ترتيب القرآن صـ ٧٦ .

ردا عليها،فتنزّل من الإحاطة الإلهية إلى الإحاطة الكتابية بالتنزيل الذي هو تدريج من رتبة إلى رتبة دونها."(1)فهو يقصد أن المعاني في سورة البقرة تتصاعد مضيا بها في آل عمران،ثم ماتلبث أن تؤوب ثانية من آل عمران فترجع إلى البقرة ،وهذا يؤكد على تآخي السورتين وتشابههما.(2) وهو من وجه آخر يبين عن موقع سورة آل عمران ثاني السور المفتتحة بحروف الهجاء(الم) .

ومما يبين عن مكان السورتين من السياق الترتيلي أنه ذكر في سورة البقرة بعد الوعيد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ البقرة (١٦٤) وذكر في افتتاح خاتمة آل عمران قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ ﴾ آل عمران (١٩٠) فذكر ستة أدلة في سورة البقرة،واكتفى في آل عمران بدليلين؛ليتماشى مع الابتداء بالبقرة أولاً ثم بآل عمران " لأن السالك يفتقر في ابتداء السلوك إلى كثرة الأدلة فإذا استنار قلّت حاجته إلى ذلك ."(3)ثم إنه عبر في سورة البقرة بكون الآيات﴿ لقوم يعقلون ﴾(٤) وجاء في آل عمران فقال:﴿لأولي الألباب ﴾ لأن الوصف باللبّ " لمن تخلّص من وساوس الشيطان ،وشوائب هواجس الوهم المانعة من الوصول إلى حق اليقين بل إلى علم اليقين ."(5) فاللبّ خلاصة العقل و ثمرته و أعلى شيء

(١) نظم الدرر ٢/٧ .

(٢) ينظر فصل علاقة خاتمة السورة بمطلع ما بعدها .

(٣) السابق ٢ / ١٩٧.

(٤)" (عقل) العين والقاف واللام أصلٌ واحد منقاس مطرد، يدلُّ عُظْمُه على حُبْسة في الشَّيء أو ما يقارب الحُبْسة. من ذلك العَقْل، وهو الحابس عن ذَميم القَول والفِعل.قال الخليل: العَقل: نقيض الجهل. "(مقاييس اللغة مادة (عقل)) .

(٥) نظم الدرر ١٩٧/٢ .

فيه،وعليه ناسب الوصف باللب(١) مَنْ استنار عقله،وقلّت حاجته إلى كثرة الأدلة في آل عمران .

ولما كانت سور القرآن الكريم تتناسل من سورة الفاتحة؛كانت آل عمران تمد يدا لسورة الفاتحة،فالفاتحة ختمت بالدعاء للمؤمنين بالهداية إلى الصراط المستقيم متعوذين أن يكونوا من زمرة المغضوب عليهم،وهم اليهود الذين وردت سالفتهم في البقرة،ومتعوذين أن يكونوا من الضالين،وهم النصارى الذين وردت سالفتهم في سورة آل عمران على التوالي الزمني،وهذا يدعم ترتيب السورتين .

قال البقاعي عن سرّ توالي السورتين ،وعلاقة ذلك بفاتحة الكتاب:" فابتدئ بسورة الكتاب المحيط بأمر الدين،ثم بسورة التوحيد الذي هو سر حروف الحمد ،وأول حروف الفاتحة،لأن التوحيد هو الأمر الذي لا يقوم بناء إلا عليه."(٢)

والمتأمل في ترتيب سور القرآن يربط بين سورة آل عمران سورة التوحيد،ثالث سورة من سور القرآن على الترتيب الترتيلي،وما يقابلها بعكس الترتيب الترتيلي وهي السورة الثالثة كذلك؛سورة الإخلاص سورة التوحيد أيضا،بل أُشركت سورة (الكافرون) في القصد إلى التوحيد؛حيث قال شيخ الإسلام ابن تيمية :" التوحيد القولي مثل سورة الإخلاص {قل هو الله أحد}و التوحيد العملي{قل يا أيها الكافرون} ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ بهاتين السورتين في ركعتي الفجر،وركعتي الطواف،وغير ذلك ."(٣) وإذا كان ذلك كذلك فإن هاتين

---

(١) " اللُّب معروف من كلِّ شيء، وهو خالصه وما يُنتَقَى منه، ولذلك سمِّيَ العقلُ لُبّاً. ورجل لبيب، أي عاقل. وقد لَبَّ يلبُّ. وخالصُ كلِّ شيء لُبابُه(مقاييس اللغة.مادة(لبّ).

(٢) نظم الدرر ٣/٢ .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية.جمع وترتيب:عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي و ساعده ابنه محمد١/٣٦٧-٣٦٨ .حقوق الطبع محفوظة لهما .

السورتين وثيقتا الصلة بسورة آل عمران ؛لأنها حوت الإيمان القولي والفعلي معا عن طريق ترسيخ العقيدة وإثبات التوحيد. ولعل سورة الإخلاص أشد تناظرا لسورة آل عمران؛لأن كلتيهما تثبت توحيد الألوهية لله تعالى وحده دون سواه ،مع انتفاء الولد ،وصُرّح في الإخلاص بما جاء ضمنا في آل عمران من انتفاء الصاحبة و المكافئ لله عزّ شأنه . ولعل ماذكر في آل عمران عن طريق اللف نُشر في الكافرون والإخلاص —والله تعالى أعلم—

فموقع السورة القرآنية له نظر متعدد فمن حيث ترتيبها،ومن حيث اتصالها بأم الكتاب،ثم من حيث مايتصل بها بوجه من الوجوه من آخر القرآن،وذلك كله يثبت أن ترتيب سور القرآن توقيفي كما هو ترتيب الآيات داخلها .

*　　　　*　　　　*

ثالثا :

موقع سورة النساء من السياق الكلي للقرآن

سورة النساء هي السورة الرابعة في الترتيب الترتيلي للقرآن الكريم ،و لموقعها شأن عظيم ؛فبعد أن خوطب الإنسان ببيان أثر الكتاب فأقره ،و صدّق على نبوة محمد ﷺ،ثم خوطب بترسيخ توحيد الله في القلوب ؛خلص إلى سورة النساء لتقصد إلى ضرورة الاجتماع على الدين الحق بموجب أن أصل الإنسان واحد، وذلك يقود إلى وجوب الطاعة والانقياد .

وتلك حكمة الترتيب في السور،وبهاء التدرج في تحقيق المقاصد . قال ابن الزبير عن حكمة مجيء سورة النساء بعد سورتي البقرة ثم آل عمران :" لما تضمنت سورة البقرة ابتداء الخلق و إيجاد آدم – عليه السلام – من غير أب و لا أم ،وأعقبت بسورة آل عمران لتضمنها مع ما ذكر في صدرها أمر عيسى– عليه السلام — و أنه كمثل آدم في عدم الافتقار إلى الأب ،وعلم الموقنون من ذلك أنه تعالى لو شاء لكانت سنة فيمن بعد آدم – عليه السلام– ... ؛أعلم سبحانه أن من عدا المذكورين — عليهم السلام – من ذرية آدم سبيلهم سبيل الأبوين، فقال تعالى :{يا أيها الناس اتقوا ربكم }إلى قوله : {وبث منهما رجالا كثيرا ونساء }."[1]

وسورة النساء – كباقي سور القرآن – ترتبط بسورة الفاتحة (أم الكتاب) برابطة النسب؛فحين أجمل البيان القرآني المنعم عليهم في الفاتحة حين قال : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾الفاتحة (٧) فصّل في سورة النساء المنعم عليهم وأوضحهم فقال : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً ﴾النساء (٦٩) .

والملحوظ أن هناك موضوعات كثيرة في سورة النساء جاء ذكرها في سورة البقرة إما على سبيل الإيجاز أو الإجمال أو الإلماح،ثم جاء بيانها في النساء،أو لأن موضوع السورة ناسب أن

(١) البرهان في ترتيب سور القرآن صـ١٩٨–١٩٩ .

يذكر جزء منها في البقرة والجزء الآخر في النساء،ولعل ذلك يفسر لنا كيف تكون سورة البقرة فسطاط القرآن و سنامه، ويفسر لنا قراءة الرسولﷺ في بعض الروايات بسورة البقرة ثم النساء ثم آل عمران على التوالي .(١)

ويفسر لنا فكرة السيوطي التي تجعل سور القرآن شارحة لمجملات سورة البقرة (٢)و تبعه فيها سعيد حوى(٣) وتلك دقة في التناسب و التناغم و الانسجام والترتيب بين سور القرآن الثلاث المدنيات .

ويطالعنا موضوع التقوى كأول موضوع في سورة النساء، ويعتبر ركيزة مهمة في الآيات كلها،وموضوع التقوى في سورة البقرة موضوع من الأهمية بمكان حيث ورد في ثاني آية في السورة بعد الحروف المقطعة ،واستمر ذكر التقوى في السورة حتى وردت الكلمة باختلاف صيغها ثنتين وأربعين مرة . ففصلت النساء فيما ورد من الإيصاء باليتامى(٤)الوارد في سورة البقرة على سبيل الإجمال .

وكما أشار إلى المنافقين في أول سورة البقرة وذكر بعض أحوالهم في ثلاث عشرة آية ؛ فصّل القول في سورة النساء في أمر المنافقين (٥)،فذكر أصنافهم ،وأحوالهم ،وأقوالهم،وخداعهم للمسلمين وللرسول ﷺ ،ومصيرهم ،وحقهم من العذاب . فكانت العلاقة بين السورتين في شأن المنافقين علاقة تفصيل بعد إجمال .

---

(١) عن حذيفة قال :" صليت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة فافتتح سورة البقرة ، فقلت :يقرأ مئة آية ثم يركع ،فمضى فقلت يختمها في الركعتين ، فمضى فقلت يختمها ثم يركع : فمضى حتى قرأ سورة النساء ثم آل عمران،ثم ركع نحوا من قيامه ، يقول :سبحان ربي العظيم ، ثم رفع رأسه فقال :سمع الله لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ، فأطال القيام ثم سجد ، فأطال السجود ، ثم يقول في سجوده :سبحان ربي الأعلى ،لا يمر بآية تخويف أو تعظيم إلا ذكره " (صحيح ابن حبان .رقم الحدث (٢٦٠٩) ذكر إباحة التطويل في الركوع والقيام للتهجد بالليل ٦/ ٣٤٤).

(٢) أسرار ترتيب القرآن صـ٨٨-٨٩-٩٠ .

(٣) ينظر الأساس في التفسير صـ ١٥٦٧ .

(٤) تنظر سورة النساء آية (٢-٣-٤-٥-٦-١٢٧) .

(٥) تنظر سورة النساء آية (٣٧ -٣٨-٣٩-٦٠-٦١-٦٢-٦٣-٦٤-٦٥-٦٦-٦٧-٦٨-٧٢-٧٣-٧٧-٧٨-٨٢-٩٣-٨٩-٩١-١٠٨-١٠٩-١١٠-١١١-١١٢-١١٣-١١٥-١٣٧-١٣٨-١٣٩-١٤٠-١٤١-١٤٣-١٤٤-١٤٥-١٤٦-١٤٧).

وسورة النساء قد أفاضت في الحديث عن الإرث وفصّلت القول فيه ،و سورة البقرة تناولت جزء آخر منه ،وهو الوصية لمن لا يرث ،فجاءت سورة النساء حتى تفصّل في الجزء الثاني ،وهو الأكثر أهمية ، وتستوفي الحديث عن نصيب كل من الرجال والنساء ؛إخوة ،وأخوات لأب وأم ،أو لأب ،أو لأم . ([1]) فكانت العلاقة بين المعنيين في السورتين علاقة تتميم وتكميل .

ولما تكلم في سورة البقرة عن القتل العمد و القصاص فيه ؛جاء في سورة النساء و تحدّث عن الجزء الآخر، و هو القتل الخطأ. ([2]) فلذلك هي مكملة لما جاء في سورة البقرة .

وجاء في سورة البقرة ذكر النساء وتحريم نكاح المشركات منهن ،و الواجب في حقهن أثناء المحيض ،وملابسات طلاقهن ،ثم حق الأولاد في الرضاعة حين الطلاق ، وأخيرا حق الأرامل ،ولم تختص سورة النساء بالحديث عن النساء ،ولكنها توسعت في ذكرهن ،وبيان حقوقهن ،مع وجوب عشرتهن بالمعروف ،وتأديبهن ،وبيان ميراثهن ،وما يحل منهن ومايحرم ،وما يقيم الأسرة على أساس من التراحم والتواد .([3]) و لما كانت سورة النساء قائمة على الإحسان " لم يكن الطلاق ليناسب هذا فلم يقع هنا ذكر ولا إيماء ."([4])

وكما تخلل ذكر الطلاق في سورة البقرة الإشارة إلى قيمة الصلاة ،وخُصت الصلاة الوسطى بذلك ؛تخلل الحديث عن القتال الإشارة إلى أهمية الصلاة ،و قيمتها ،و ذكر قصر الصلاة وحكم السكر أثناء الصلاة ،و تقدير حكم التيمم في سورة النساء .([5]) و لعله من باب التماثل

(١) تنظر سورة النساء آية (١١-١٢-١٧٦) .

(٢) تنظر الآيات من سورة النساء (٩٢-٩٣) .

(٣) تنظر سورة النساء آية (١١-١٢-١٥-١٦-١٩-٢٠-٢١-٢٢-٢٣-٢٤-٢٥-٣٢-٣٤-١٢٧-١٢٨-١٢٩-١٣٠-١٧٦) .

(٤) البرهان في ترتيب سور القرآن صـ ٢٠٠ .

(٥) تنظر الآيات (٤٢-٤٣-١٠١-١٠٢-١٠٣) .

في طرق المعاني لبيان أن الصلاة دواء كل معضل في الصعاب إن على مستوى الأسرة ،و إن على مستوى الأمة.

ولما تحدث في سورة البقرة عن بعض النقاط التي تشير إلى وجوب الأمانة ،ثم ذكر آية الدين و أمر بأداء الأموال إلى أصحابها ؛شمل في سورة النساء كل المعاملات السابقة واللاحقة ،مايخص العامة ،والأيتام ،والنساء، وغيرهم بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ النساء (٥٨) .فكان من باب ذكر العام بعد الخاص .

ولما أفاض الحديث عن قصة موسى في سورة البقرة ؛بيانا لضلال بني إسرائيل واستنكافهم عن العبادة ؛نوّه في سورة النساء على قصتهم ،و ذلك في سياق الحديث عن تسلية الرسول ﷺ في عدم إيمان قومه ،فكانت الإشارة إلى ما فصّل كافية في هذا المقام .

وحسبنا فيما ذكر من مواضع الاتصال بين سورة النساء و البقرة التمثيل لا الحصر .

ولما كانت سورة النساء الرابعة من النصف الأول من الترتيب الترتيلي للقرآن ،وسورة الحج الرابعة من النصف الثاني من الترتيب نفسه،وكلتاهما مبدوءتان بنفس المطلع : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ﴾ لما كان كذلك؛وجب التفكر ؛لِمَ تقدّم ذكر سورة النساء على ذكر سورة الحج، والجواب :" أنه تعالى علل الأمر بالتقوى في هذه السورة بما يدل على معرفة المبدأ،وهو أنه تعالى خلق الخلق من نفس واحدة ،و هذا يدل على كمال قدرة الخالق،وكمال علمه،وكمال حكمته وجلاله .وعلل الأمر بالتقوى في سورة الحج بما يدل على

كمال معرفة المعاد...فجعل صدر هاتين السورتين دلالة على معرفة المبدأ ومعرفة المعاد، ثم قدّم السورة الدالة على المبدأ على السورة الدالة على المعاد ."(1)

وذلك رباط دقيق بين السورتين من التماثل و التقابل .و بالنظر إلى التقديم و التأخير بين السورتين،فسورة الحج أكملت ماجاء في سورة النساء ،وهي من باب رد الأعجاز على صدورها على نطاق السياق الكلي للقرآن الكريم .

ولترتيب سورة النساء على لاحب السياق القرآني في الترتيب الترتيلي،و ما يقابله من آخر المصحف نظر آخر،فسورة النساء تقابل سورة المسد،ولما كانت سورة النساء تتحدّث عن صلة الأرحام و طرق التواصل ؛جاءت سورة المسد لتبين أن بعضا من هذه الأرحام قد يكون نقمة وليس نعمة ،وقد يكون شرا و ليس خيرا ،ولم ينج من ذلك سيد البشرية محمد ﷺ،وفيه إلماحة إلى أن البذل و الإحسان ركيزة دون النظر إلى مَنْ يقدّم له فعل الإحسان،ومَنْ كان على مثل هذا الصنيع فهو على الهداية ،ومَنْ كان على نقيضه فلم يسلم من الضلالة ،وفي ذلك التناظر بين السورتين يقول البقاعي :"ومن أعظم مقاصد سورة النساء المناظرة لها في رد المقطع على المطلع التواصل ،والتقارب ،والإحسان ،لا سيما لذوي الأرحام، والعدل في جميع الأقوال والأفعال، فكان شرح حال الناصح الذي لا ينطق عن الهوى ،وحال الضال الذي إنما ينطق عن الهوى– قوله تعالى: {يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم}[النساء:٢٦] وختمها إشارة إلى التحذير من مثل حاله،فكأنه قيل: يبين الله لكم أن تضلوا فتكونوا كأبي لهب في البوار،وصلي النار– كما تبين لكم، ،فكونوا على حذر من كل ما يشابه حاله، وإن ظهر لكم خلاف ذلك، فأنا أعلم منكم– و الله بكل شيء عليم."(2)

---

(١) التفسير الكبير .المجلد الخامس ١٢٩/٩ .

(٢) نظم الدرر ٥٧٤/٨ .

وما ذكر من موقع السورة بعد البقرة و آل عمران ،ومن تناسل معاني سورة النساء من معاني سورة الفاتحة ،وعلاقات المعاني بين سورة النساء وسورة البقرة ؛ليدل بطريق التفكر والتأمل على تحقق الترابط الوثيق بين السور ،وهي علاقات مقصودة لذاتها تتناسب مع سياق السورة على صعيد معانيها ،و تتناسب مع سياق السورة على صعيد انتظامها في سياقها الكلي للقرآن.

*　　　*　　　*

رابعاً :

موقع سورة المائدة من السياق الكلّي للقرآن

سورة المائدة الرابعة من السور المدنية ،والخامسة من سور القرآن الكريم،فبعد أن تقرر أن الكتاب هدى في سورة البقرة ،وأن صاحب هذا الكتاب هو المستحق للتوحيد دون سواه في سورة آل عمران،وجاء في سورة النساء وقصد ضرورة تقواه،والاجتماع على هذه التقوى؛عمل في سورة المائدة على تأسيس قواعد الدين بإرساء بعض الأحكام المسهمة في تقوية المجتمع،مع فضح أعداء هذا المجتمع،وطرح وسائل اتقائهم ،وهذا يحقق ما كان يحتاج إليه المجتمع الإسلامي في المدينة بعد تأصيل الأولويات،فالمجتمع المسلم أصبح قويا؛بدليل قول الحق تعالى:﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ . . . ﴾
ولذلك يصف سيد قطب قوة اليهود حال نزول سورة المائدة بقوله : "فهذه القوة وهذا النفوذ كانا قد تضاءلا بعد وقعة بني قريظة،عقب غزوة الخندق،وقد تطهرت الأرض من القبائل الثلاث اليهودية القوية بني قينقاع، وبني النضير،وبني قريظة فلم يكن لهم بعد المدينة مايدعو إلى العناية بشأنهم إلى هذا الحدّ،ثم لقد كانت فترة المهادنة معهم ،والخطة السلمية قد انتهت ،ولم يعد لها موضع بعد الذي بدا منهم ." [1]
فكانت سورة المائدة قرينة سورة النساء في إرساء الأحكام ،ففي المائدة أحكام أخرى متعلقة بالأطعمة في ظاهرها،مقررة حكمة المشرِّع،هادفة إلى بيان شيء من خصائص الألوهية .

ولما كانت سورة الفاتحة هي أم الكتاب ،و كانت السور بعدها تنزل منها منزلة اللحمة و النسب؛ كانت سورة المائدة تتصل بها بوجه من الوجوه،ذكر ابن الزبير ماحاصله: إنه لما ذم النظم الكريم السابقين من المغضوب عليهم و الضالين ،وكان سبب ذمهم عدم وفائهم بالعهود المأخوذة عليهم ؛أقبل على المؤمنين آمرا لهم بالوفاء بالعقود محذرا إياهم من عدم الوفاء بها. [2]

---

(١) في ظلال القرآن ٨٣٢/٢ .

(٢) ينظر البرهان في ترتيب سور القرآن صـ٢٠٠-٢٠١-٢٠٢ .

ولعل سورة المائدة تتصل بسورة الفاتحة في معنى آخر من المعاني ،و هو أنه لما كانت سورة المائدة تركز على قضية ملك الله لما في السموات والأرض وما فيهن ؛لأنها عمدة في إثبات أحقية التصرف المفضية إلى الوحدانية، عاد الكلام في عجزه إلى صدره و أوله حين قال تعالى في الفاتحة: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ و تفسيره: " عن عبد الله بن عباس(يوم الدين) قال: يوم حساب الخلائق، هو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم ،إن خيرا فخير، و إن شرا فشر، إلا من عفا عنه فالأمر أمره ."(١)و قال في المائدة: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ . . . ﴾ (١٠٩) ثم قال: ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ (١١٩)إذ هو يوم القيامة.

وسورة المائدة تمد يدا كذلك إلى سورة البقرة و آل عمران و النساء،ولذلك يقول السيوطي:"فانظر إلى هذه السور الأربعة المدنيات،و حسن ترتيبها،و تلاحمها،و تناسقها وتلازمها،وقد افتتحت بالبقرة التي هي أول ما نزل بالمدينة،وختمت بالمائدة التي هي آخر ما نزل بها كما في حديث الترمذي ." (٢) .

وسورة المائدة هي سورة التكميل كما أطلق عليها السيوطي،فقد كملت بها الشرائع ،فجاء فيها تتميم أحكام الوضوء التي جاء ذكرها في البقرة فشرع التيمم، وفصّلت ذكر صلاة الخوف في الحروب والغزو الواردة في آل عمران . وفصّلت أحكام الطعام الطيب و الخبيث الوارد ذكرهما في البقرة، وتمّمت أحكامهما بذكر ماأُحلّ وحُرّم زمانا ومكانا .

وتممت فضح المنافقين و أهل الكتاب الوارد ذكرهم في السور الثلاث البقرة وآل عمران والنساء،ومحاجتهم كذلك .

وربط سيد قطب كذلك بين هذه السور الأربع بقوله: " ومن ثم نجد في هذه السورة –كما وجدنا في السور الثلاث الطوال قبلها –موضوعات شتى،الرابط بينها جميعا هو هذا الهدف

(١) جامع البيان ٦٨/١ .

(٢) أسرار ترتيب القرآن صـ٩٦ .

الأصيل الذي جاء القرآن كله لتحقيقه: إنشاء أمة،و إقامة دولة،و تنظيم مجتمع على أساس من عقيدة خاصة،و تصوّر معين،و بناء جديد . الأصل فيه إفراد الله سبحانه بالألوهية والربوبية و القوامة و السلطان،وتلقي منهج الحياة و شريعتها ونظامها وموازينها وقيمها منه وحده بلا شريك ... " .(1)

فموقع سورة المائدة على السياق الكلي للقرآن يبين عن تصاعد في مقاصد القرآن الكريم،وهذا يدل على انتظام سور القرآن على هيئة مخصوصة مقصودة .

*　　　　*　　　　*

(١) في ظلال القرآن ٢/٨٢٥ .

خامسا :

موقع سورة الأنفال من السياق الكلي للقرآن

سورة الأنفال هي الثامنة في الترتيب الترتيلي للقرآن الكريم ،والخامسة في السور المدنية ،نزلت حين تساءل الصحابة عن الأنفال،واختلفوا في استحقاقها؛فكانوا على ثلاثة أقسام:ثلث يقاتل العدو،وثلث يجمع الغنائم و يأخذ الأسرى،وثلث يحرس الرسول ﷺ وزعم كل قسم منهم أحقيته للأنفال .

وتعتبر غزوة بدر هي أولى الغزوات التي خاضها المسلمون ،وهذا يعني أن الجو الذي نزلت فيه السورة جو استقرار للإسلام وبداية التوسع،فبعد أن وضع الإسلام أقدامه على أرض المدينة،ولاقى إقبالا من الكثير؛اشتد عوده،وقويت شوكته عما كان في مكة،فلم يعد هناك محاربون للإسلام على نفس أرض المدينة إلا بعض ما يلقاه المسلمون من اليهود والمنافقين،وهذا يعني أنه قد آن الأوان بعد تقرير الألوهية،والربوبية،ومعرفة خصائصهما؛آن الأوان لربط الجهاد بتلك العقيدة السليمة تمشيا مع الحاجة إلى الفتوحات الإسلامية ،والحاجة إلى اتساع رقعة الإسلام ،بعد أن كان قد مهّد لهذا الجهاد في السور السابقة.

وكل الطوال الأربع السابقة للأنفال مدنية الطابع و الموضوع حتى جاءت سورتا الأنعام والأعراف،و هما مكيتان ،تبين الأولى منهما عما يجب أن يتوصل إليه العباد من الحمد والعبادة ،لأنهما ليسا قسرا،وإنما يحصلان عن طريق الاهتداء بما عند الله من عظمة الخلق وبهاء الصنع ،وجليل الفضل.و تبين الثانية عن عقاب من يعاند ويغفل عن هذا الاستدلال،مع ضرب الأمثلة بالأقوام السابقة ،وبيان أن العذاب لا يكون إلا بعد إرسال الرسل وحصول المعاندة.

ولما تأسس كل ذلك الأساس عن طريق السور المدنية الأربع،و كمّلت بيانها السور المكية؛جاءت الأنفال ترغب في الجهاد وتربطه بالعقيدة الراسخة .

وهذا التدرج في دعوة الإنسان إلى توحيد الله،ثم تأصيل ذلك التوحيد بالوصول به درجات الكمال هو المنهج الرباني الحكيم الذي اعتمده في كل تكاليفه لأنه أدعى للقبول والانقياد . وهذا هو تكامل المقاصد بين السور مدنيّها و مكيّها .

اتفق العلماء على أن ترتيب القرآن الكريم توقيفي عن الرسول ﷺ غير أنهم اختلفوا في سورتي الأنفال و التوبة، فذكروا أن وضعهما في هذا الموضع المعروف في المصحف كان باجتهاد عثمان –رضي الله عنه – استنادا إلى حديث يزيد الفارسي عن ابن عباس(١) وضعّف الألباني رواية يزيد الفارسي بناء على تضعيف البخاري والعسقلاني له، ومن حيث إن يزيد الفارسي لم تثبت عدالته ، وأنكر الحديث فقال: "ثم إن في الحديث نكارة، و هو قوله: " قُبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها " فإنه ينافي قوله بعد: " وكانت الأنفال من أول ما أُنزل عليه بالمدينة، وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن ."وقد صح عن ابن عباس: أن الأنفال نزلت في بدر، يعني: سنة أربع.(٢) "(٣) وذكر الألباني أن قول الحاكم: "صحيح على شرط الشيخين "وهم ظاهر لأن ابن هرمز لو كان هو صاحب هذا الحديث لم يخرّج له البخاري أصلا ." (٤)

---

(١) قال يزيد الفارسي: قال لنا ابن عباس –رضي الله عنهما–: قلت لعثمان بن عفان – رضي الله عنه: ماحملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني و إلى البراءة وهي من المئين فقرنتم بينهما، و لم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم و وضعتموهما في السبع الطوال ؟ ما حملكم على ذلك ؟ فقال عثمان –رضي الله عنه– : إن رسول الله ﷺ كان يأتي عليه الزمان تتنزل عليه السور ذوات عدد، فكان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من كان يكتبه فيقول: ضعوا هذه السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وتنزل عليه الآية فيقول : ضعوا هذه في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، فكانت الأنفال من أوائل مانزل بالمدينة وبراءة من آخر القرآن، فكانت قصتها شبيهة بقصتها فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن ثم قرنتُ بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ."(أخرجه النيسابوري ٢٤١/٢ كتاب التفسير رقم الحديث (٢٨٧٥) . وابن حبان ٢٣٠/١ كتاب الطهارة ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن أبا إسحاق السبيعي لم يسمع هذا الخبر من البراء رقم الحديث (٤٣) . والنسائي في سننه ٥ /١٠ رقم الحديث (٨٠٠٧) كتاب فضائل القرآن .باب السورة التي يذكر فيها كذا. و أبو داود (كتاب الصلاة) باب من جهر بها ٢٠٨/١ رقم الحديث (٧٨٦). و البيهقي في سننه ٤٢/٢ رقم الحديث (٢٢٠٤) باب الدليل على أن ما جمعته مصاحف الصحابة – رضي الله عنهم –كله قرآن وبسم الله الرحمن الرحيم في فواتح السور سوى براءة من جملته .) و أحمد في مسنده ٥٧/١ رقم الحديث (٣٩٩) مسند عثمان بن عفان – رضي الله –

(٢) كذا في أصل الشيخ و الصواب: اثنتين (الناشر).

(٣) ضعيف أبي داود–الأم ٣٠٨/١ محمد ناصر الدين الألباني .ط.١٤٢٣هـ .مؤسسة غراس للنشر والتوزيع– الكويت .

(٤)ضعيف أبي داود – الأم ٣٠٩/١ .

فالحديث على رأي الألباني لا يسلَّم به. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى؛ فإن قول الله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ المائدة (٣) يدل على أن كل ما في القرآن من ترتيب سوره أو آياته هو توقيفي، فلم يُترك مجال لأحد بعد ورود دلالة التتميم و التكميل لعمل أي شيء إلا بتوفيقه تعالى، و لو سلّمنا بالقول بالاجتهاد ؛ فإنه بتوفيق من الله تعالى؛ لأنه قال في كتابه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر (٩) ، وحديث الرسول ﷺ عن معارضة جبريل له في العام الذي توفي فيه مرتين(١) يعزّز كون ترتيب القرآن كله آيات وسور بتوقيف عن المصطفى ﷺ . ولو كانت الأنفال والتوبة سورة واحدة لما تفردت كل واحدة منهما باسم يدل عليها .

فوضع ترتيب المصحف على هذا الترتيب، هو الترتيب الذي عارض عليه جبريل – عليه السلام – محمدا ﷺ .قال الإمام مالك بن أنس: " إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعون من قراءة رسول الله ﷺ ."(٢) و تحزيب القرآن في عهد الرسول ﷺ من أقوى الأدلة على ترتيب سور القرآن .

ولكل ما سبق بيانه يترجح أن ترتيب سور القرآن توقيفي عن المصطفى ولا يُقطع به .

ولما كانت سور القرآن كلها تتناسل من رحم سورة الفاتحة ؛ جاءت سورة الأنفال تحمل معاني تعود على سورة الفاتحة من جوانب عدة؛ من أبرزها: أنه لما كان قوله: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الفاتحة (٥) دعاء تعليميا من الله ، و هو شامل لكل أنواع العون؛ عون على العبادة، و عون على النصرة، و عون على العمل، و عون على الحياة بأسرها، لما كان كل

(١) صحيح البخاري.كتاب فضائل القرآن .رقم الحديث (٤٧١١) باب كان جبريل يعرض على النبي ١٩١١/٤.

(٢) أخرجه الداني في المقنع بإسناد صحيح (المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار، مع كتاب النقط لأبي عمرو الداني .تحقيق: محمد أحمد الدهان صـ٨ . بدون ط .نشر مكتبة النجاح– طرابلس/ليبيا).

ذلك ؛كانت سورة الأنفال تجسيدا حيا لتلك الاستعانة ،وكان موضوع غزوة بدر والانتصارات التي تحققت فيها عمدة في بيان تأييد الله لعباده، وعونه و نصره، بل وتدبيره أولا وآخرا ؛ابتداء من خروج فريق من المؤمنين على كره، و استعانتهم بربهم، و استجابته لهم، وتهيئة نفسيتهم للقتال بالراحة و الطهارة وتثبيت الأقدام، ومرورا بالوعد بمعية الله، وتثبيت قلوب المؤمنين، و إلقاء الرعب في قلوب الكافرين ،وإضعاف كيد الكافرين، وقتلهم، ورمي الحصاة في وجوه كفار قريش، مع تدبير الله لزمان اللقاء و مكانه وتكليف الملائكة بمساندة المؤمنين بضرب الكفار، وثبات القلوب بتصوير الأعداء قليلا برؤيا المنام و رؤية البصر، و انتهاء بالنصر المؤزر العزيز حتى في التعامل مع الأسرى، كل ما تمّ في غزوة بدر كان بتدبير الله و تقديره ،و ليس للعباد دخل فيه ،لذلك فإن اليقين بأن الله هو المولى و النصير؛ هو من أهم مقاصد السورة ويصب في معنى قوله تعالى من سورة الفاتحة : ﴿ وإيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

ولما كان قوله تعالى: ﴿ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ الفاتحة (٦-٧) تعليما من الله لعباده كذلك، و كانت سورة الأنفال تدور حول ربط الجهاد بالعقيدة الراسخة ؛حذّر تعالى مما يوقع في غضبه مما هو من شأن الجهاد فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ * وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ الأنفال(١٥-١٦) فالانهزام الذي كُني عنه بتوليه الدبر يوقع في سخط الله و عدم رضاه إلا أن يكون الانهزام على نية الرجوع مكرا بالعدو، أو أن يكون لطلب المدد والعون ،فحينها يخرج المنهزم من دائرة المغضوب عليهم المذكورين في سورة الأنفال، و هو غضب يمد يدا إلى الغضب الذي أوقعه تعالى على اليهود المذكور في فاتحة الكتاب .

و لما كانت سورة الأنفال المدنية تتصل بالطوال قبلها بوجه من الوجوه ؛اتصلت بسابقاتها بالمتشابه الذي أوضح صنوفا من العلاقات؛منها: أنه قال في البقرة : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ البقرة(١٩٣) ،وقال في الأنفال: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ الأنفال (٣٩)،فتأكد كون الدين لله في الأنفال،ولم يتأكد في البقرة،و ختم في البقرة بقوله: ﴿ فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ و في الأنفال بقوله: ﴿ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ، قال الإسكافي في هذا الموضع من المتشابه: "إن الآية الأولى من سورة البقرة جاءت في قتال أهل مكة .. وهذا مختص بقتال قوم مخصوصين من أهل الشرك؛و هم نازلو الحرم ،فاقتصر على الدين من غير توكيد ...لأنه لا يحصل بقتل مشركي مكة الدين في كل البلاد ،و قوله: {فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين} أي: إن انتهوا عن كفرهم فلا عدوان عليهم؛إنما العدوان على من أقام على الضلالة،و ظلم نفسه بلزوم الجهالة. و أما في سورة الأنفال؛ فالأمر ورد عاما في قتال كل الكافرين... فإذا كان ذلك كذلك،و قال بعده: {و قاتلوهم حتى لا تكون فتنة }أي:لا يكون شرك و كفر، اقتضى أن يكون بعده: {و يكون الدين كله لله} فأمروا بإبطال كل كفر قدروا عليه، وأتبعه قوله: {فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} أي: إن انتهوا و انتقلوا إلى الإيمان ،وكفوكم عن قتالهم بما يظهرون من الإسلام فإن الله يعلم عملكم وعملهم ." (١)

وهذا نظر من حيث العام والخاص،وأخص منه أن يُقال: لما كانت سورة الأنفال هي سورة الفرقان،وكانت بداية السورة تتحدث عن مقاصد الحروب في الإسلام ،وأهمها إحقاق الحق،و إزهاق الباطل،وكانت غزوة بدر هي التي غيّرت وجه العالم الإسلامي،و هي أنموذج التغيير و التفريق بين الحق والباطل ؛جاء قبل الأمر بالقتال فذكر التمييز بين الخبيث

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ٣٣١/١-٣٣٣ .ومثله في البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ ٨٤ .و في ملاك التأويل ٢٦٢/١- ٢٦٣ .

والطيب،وناسب هذا التفريق و التمييز أن يكون التأكيد حليف طلب إظهار دين الله على كل ما سواه،و به سيتم تمييز الخبيث عن الطيب،و ختم بما يدل على المراقبة و الرصد فشمل المقاتِلين ،فيكون شحذا لهممهم، وحثا لأنفسهم على إعلاء كلمة الله على كل كلمة،وشمل المقاتَلين فيكون ذلك دلالة على العلم بسرائرهم، و رصد أعمالهم – والله أعلم بمراده — وهذا نظر سياقي في نظام الآيات .

و من المتشابه من سورة الأنفال ما جاء في سورة آل عمران من قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ آل عمران (١٢٦) و في الأنفال من قوله: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ الأنفال(١٠)،فذكر في آية آل عمران قوله: {لكم }و لم يذكرها في الأنفال ،و قدّم: { قلوبكم }و أخّر الجار والمجرور: {به} في آل عمران،في حين قدّم الجار والمجرور: { به } و أخّر: { قلوبكم } في الأنفال،وختم في آل عمران بالوصف بالعزة و الحكمة،و ختم في الأنفال بالخبر المؤكد فما السبب في ذلك ؟

قال الخطيب الإسكافي ماحاصله: الأولى جاءت على الأصل،والثانية قد تقدمها{لكم} ([1]) فأغنت عن إعادتها بلفظها و معناها .وأما تأخير{ به} بعد قوله: {قلوبكم} فتناسبا مع ماتقدمه([2]) في تقديم ماالكلام أحوج إليه ،و تأخير ما يستغنى عنه .

والثانية فإن المعوّل فيها على الإمداد بالملائكة،وهو ماأخبر عنه تعالى أنه لم يجعله إلا بشرى، فوجب أن يقدم في الكلام الثاني ؛وهو المضمر بعد الباء في قوله : {به}على الفاعل

(١) يقصد قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي . . . ﴾ الأنفال (٩) .

(٢) قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ ﴾ .

فقال : ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴾ . (١)

وعن ختم الآية قال: "و الآية التي في سورة آل عمران هي في قصة يوم أحد و هي بعد يوم بدر، و كان هذا البيان قد جعل خبرا عن النصر في اليوم الأول، فاقتصر من ذكر مثله في اليوم الثاني على خبر واحد يجري عليه معنى الخبر الثاني مجرى الوصف؛ لاختصار المعنى عن البسط؛ اعتمادا على ما فصّل في الخبر الأول، فكان الاختصار الثاني أليق، و كان الثاني له أجمل ."(٢) وهذا نظر مقامي لسياق قصة أحد .

وزاد ابن الزبير فقال: " إن آية الأنفال تقدّم فيها أوعاد جليلة، فهذه أوعاد عليه، لم يتقدّم إفصاح بمثلها في آية آل عمران، فناسبها تأكيد الوصفين العظيمين من قدرته جل و تعالى على كل شيء، وحكمته في أفعاله، فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ولما لم يقع في آية آل عمران إفصاح بما في آية الأنفال؛ وردت الصفتان تابعتين دون تأكيد، و جاء كل على مايناسب، و لم يكن عكس الوارد في تعقيب الآيتين ليناسب ."(٣)

ولعل اتصالهما من وجه آخر كذلك هو: أنه لما كان الخطاب في آل عمران للرسول ﷺ ومنه إلى أمته؛ نلمس فيه اللطف والخصّيصة لأهل أحد، فلذلك خصص البشرى بقوله: {لكم} ، ولما كان الضعف والخوف قد دبّا في جناحي العسكر الخارج لأحد، و هما بنو سلمه من الخزرج ، و بنو حارثة من الأوس؛ قدّم ذكر القلوب على متعلق الفعل الجار والمجرور اهتماما بشأنها .

ولما كانت تربية القلب محورا في سورة الأنفال، و كانت كراهية فريق من المؤمنين للخروج قد سبقت؛ قدّم الجار و المجرور {به} العائد على المدد كأول درس من دروس تربية القلوب

---

(١) ينظر درة التنزيل وغرة التأويل ١/٣٨٩ –٣٩٢ . و مثله قال الكرماني في أسرار التكرار في القرآن ص٩٣. ومثله عند ابن الزبير في ملاك التأويل ١/٣١٥ .

(٢) درة التزيل وغرة التأويل ١/٣٩٣–٣٩٥ .

(٣) ملاك التأويل ١/٣١٥.

الذي يقصد إلى اليقين بأن أسباب النصر بيد الله لا غير، لذلك كان التأكيد في فاصلة الآية يعزز ترسيخ هذا المعنى الذي يعد من أهم مقاصد السورة .

ومن المتشابه بين سورة الأنفال و سورة آل عمران، أنه قال في سورة آل عمران: ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ آل عمران (١١)، وقال في الأنفال: ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ الأنفال(٥٢) ثم قال: ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ الأنفال (٥٤) .

وفصّل الخطيب الإسكافي في موضوع التشابه بين الآيات فذكر ماحاصله: أنه قال في آية آل عمران: ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ فعدل عن المضمر إلى المظهر لأنه لما قال: { كذبوا بآياتنا } وقع الإخبار عن النفس كما يجب في مثله إذا أخبر المتكلم عن نفسه بفعل فعله، فأتى بلفظ المضمر دون المظهر، ثم خالف ذلك لأن في العدول عن النهج الأول فائدة تتضمنها اللفظة الظاهرة من الاحتجاج ،و ليست هذه الفائدة في الإضمار. و كانت الآية السابقة: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ آل عمران (٩) قد وقع فيها مثل هذا العدول، فبنيت الآية التالية على السابقة. ثم قال في الآية الأولى من سورة الأنفال: ﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ فأجرى الخبر كله على لفظة واحدة و هي لفظة {الله} لأن الآية التي تقدمت هذه الآية جرى الخبر فيها على اللفظ الظاهر فقال فيها: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ الأنفال (٤٩) ثم جاء بعدها: ﴿ وَلَوْ

﴿ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ ﴾ الأنفال (٥٠)، و لم يكن فيها خبر عن الله، و جاءت آية: ﴿ كدأب آل فرعون ﴾ ، و فيها إخبار عن الله تعالى ، فكان بناؤها على الآية التي قبلها أولى . و هذا نظر سياقي يسعى إلى التناسب البياني .

وزاد ابن الزبير فقال : " إن آية آل عمران لما تقدم قبلها ذكر تنزيل الكتب الثلاثة، و الإشارة إلى ما تضمنته من الهدى و الفرقان، وإنما أتي على من كفر بصده عنها و تكذيبه؛ ناسب ذلك قوله تعالى: { كذبوا بآياتنا } و لما لم يقع في سورة الأنفال من أولها إلى الآية الأولى من الآيتين ذكر شيء من الكتب المنزلة ولا ذكر إنزالها ، و إنما تضمنت حال المسلمين مع معاصريهم من كفار العرب ومعظم ذلك في قتالهم و حربهم ؛ ناسب ذلك التعبير بالكفر فقال: {كفروا بآيات الله} ."[1] و نظر ابن الزبير سياقي أوسع من سابقه .

و أزيد فأقول: لعله لما تقدم في الآية الرابعة من سورة آل عمران ذكر شدة عذاب الذين كفروا بآيات الله في قوله تعالى: ﴿ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ آل عمران (٤) ثم جاء في الآية العاشرة، و أكد على عذاب الكفار بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ آل عمران(١٠)؛ أتبعها بتشبيههم بآل فرعون و غاير فقال: ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ آل عمران (١١)، ولم يقل: ﴿ كفروا ﴾ ليشمل التهديد و الوعيد بالعذاب للمكذبين و الكافرين على السواء، فلا يظن أن التكذيب أقل شأنا من الكفر .

ولما تقدم ذكر تكذيب الكفار لآيات الله في سورة الأنفال حين قال: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ الأنفال (٣١) ثم تلاه ذكر

---

(١) ملاك التأويل ٢٩١/١.

أعمال الكفار الشنيعة من الصد عن سبيل الله، و الإنفاق في سبيل الشيطان، ثم الأمر بقتالهم، ثم ذكر التفصيل في أمر الأنفال، وأتبعه ذكر الكفار وخروجهم لقتال النبي في بطر وافتخار، فوصف فعلهم و فعل الملائكة بهم — لما كان كل ذلك وفصل بين التكذيب بآيات الله بموضوعات شتى آخرها خروجهم لقتال النبي في بطر و افتخار – وذلك أوضح الكفر – وانتصار الله لنبيه بمقاتلة الملائكة مع المؤمنين ، وانتزاعها أرواح الكافرين بقوله: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ الأنفال(٥٠)؛ ناسب أن يقدم ما يدل على الأقرب ذكرا ؛وهو الكفر بآيات الله، ثم أتبعه بذكر التكذيب نصا عليه، و رفعا من تهويله .

ولما كان مقاما آيتي آل عمران والأنفال متشابهين من بيان الشدة والعزة ؛وضع المظهر موضع المضمر فقال في الأولى: ﴿ والله شديد العقاب ﴾ وقال في الثانية: ﴿ إن الله قوي شديد العقاب ﴾ فزاد في الأنفال التأكيد ، وذكر صفة القوة ؛وذلك لأن المقام بعد ذكر خروج الكفار في قوة وافتخار، مع ذكر عذاب الله لهم في العاجل والآجل، يستدعي التأكيد على بيان القوة والهيمنة والقدرة التي يتصف بها المولى ، وهو صلب في تحقيق معنى اليقين بأن مقاليد النصر بيد الله وحده دون سواه — والله تعالى أعلم بمكنون كتابه –

و هذا التشابه بين المعاني وذاك التنامي بين المقاصد في السور يبين عن أن ترتيب سور القرآن الكريم توقيفي صادر عن جهة عليا لا يطيقها البشر .

سادساً :

موقع سورة التوبة على مدرجة السياق القرآني

سورة التوبة مدنية، وهي آخر ما نزل على الرسول ﷺ جملة واحدة كما ورد في بعض الروايات(١) و هي آخر السبع الطوال .(٢)

لما اُفتتح الحديث في القرآن الكريم–بعد الفاتحة– في سورة البقرة بالنهي عن الريب فيه، فنزّه الكتاب عن الريب والشك، وأردف بتنزيه الله عن الشريك في آل عمران، فنزّه صاحب الكتاب عن أن يساويه أحد، فذكر المنزِّل والمنزَّل؛ لما كان كل ذلك؛ ذكر المنزَّل عليهم وهم العباد وأصلهم، ثم ضمن لضعفائهم كرامة العيش وذلك في سورة النساء، وأردفها بسورة المائدة حتى يبين الرابطة بين المنزِل والمنزَل عليهم، وهي العهود والعقود ،فكما يتعهد الرب بالجنة لمن يؤمن به، يتعهد المربوب بالتوحيد و العبادة لربه .

ثم جاءت الأنفال والتوبة حتى تعلّم الأولى منها الجهاد في سبيل الله وتحضّ عليه، وتؤسس أن الغنم غنم الآخرة. وتضع الثانية الحدّ بالسيف بين المؤمنين والكافرين أقارب وغير أقارب، فألزمت النفير وقت الجهاد، وجعلته من صفات الإيمان وجرّمت التكاسل والتباطؤ عن الخروج، وجعلته من صفات المنافق ،فجعلت الجهاد واجبا و كان قبل ذلك يرغب فيه .
وفتح باب التوبة في معاني سورة براءة باستمرار لكل الفئات إلى أن تقوم الساعة، هو ماأوحى للعلماء بالقول بتناسب ختم السور الطوال بسورة التوبة .

---

(١) عن أبي بن كعب –رضي الله عنه– قال: آخر ما نزل من القرآن ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ (المستدرك على الصحيحين .كتاب التفسير. رقم الحديث(٣٢٩٦) باب تفسير سورة التوبة ٣٦٨/٢) .

(٢) وقد اختلف في السبع المثاني ما هي ؟ "فقال ابن مسعود وابن عمر وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم هي السبع الطول يعنون البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس نص عليه ابن عباس وسعيد بن جبير وقال سعيد: بين فيهن الفرائض والحدود والقصص والأحكام. وقال ابن عباس: بين الأمثال والخبر والعبر وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمر قال قال سفيان :المثاني المثين البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة سورة واحدة قال ابن عباس ولم يعطهن أحد إلا النبي صلى الله عليه وسلم وأعطى موسى منهن ثنتين رواه هشيم عن الحجاج عن الوليد بن العيزار عن سعيد بن جبير عنه."(تفسير القرآن العظيم ٥٥٨/٢) .

وصلة كل سورة في القرآن الكريم بسورة الفاتحة صلة قوية تبرز بالتأمل في موضوعات السورة ذاتها، فسورة التوبة تحث على التوكل لحصول التكفل، وهذا يعود بنا إلى قوله تعالى في الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة (٥) لأن العمل يكون دائما قرين الاستعانة. وسورة التوبة تتولى قضية البراء من الشرك وأهله، وآخر الفاتحة: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ الفاتحة (٦ - ٧)، وإن كان التفسير الخاص للمغضوب عليهم والضالين هو اليهود والنصارى؛ إلا أن المعنى العام لايغفل عنه لبيب؛ وهو تعليم الدعاء بافتراق الطريق بين المؤمن والضال، بين من يسلك الطريق المستقيم و من يسلك الطريق المتعرج، ويعنى وضع الحد الفاصل بينهما، وهذا مضمون معاني سورة التوية.

ولما كانت سورة التوبة هي التاسعة من سور القرآن والسابعة من الطوال؛ كان موقعها ذا أهمية بالغة؛ بها تكمل مسيرة الأهداف والمقاصد المراد ترسيخها في الصدور، فهي تشرّع بعض الأحكام؛ من مثل: تحريم دخول مكة على المشركين و تصنيف المستحقين للصدقات وتحريم الصلاة على الأموات المنافقين، أو القيام على قبورهم و تحريم الاستغفار للمنافقين والمشركين.

ولما كانت سورة التوبة تكمل المسيرة مع غيرها من الطوال المدنية؛ كان التشابه في الآيات واردا لا محالة، ولكل قصد وغاية، حيث قال تعالى في سورة التوبة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ التوبة (١٦).

وقال في البقرة : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ ﴾ البقرة (٢١٤) .

وقال في آل عمران: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ آل عمران (١٤٢) .

قال الخطيب الإسكافي في آية البقرة ما حاصله أن هذه الآية وردت عقيب قوله : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ البقرة (٢١٣) ، ثم قال: ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ ﴾ فكانت هذه الحال إخبارا عن حال النبي و المؤمنين فيما دُفعوا إليه من بغي المشركين ومقاتلتهم لهم مجاهدين ، فكان ذلك شحذا لبصائرهم في الجهاد ، و حملا على الاقتداء بفرق الصلاح و أمم الأنبياء قبلهم ، و تأنيسا لهم بالصبر على ما حلّ بهم حتى حمدوا عاقبة أمرهم . و حاصل كلامه عن آية آل عمران ؛ أنها خطاب للمسلمين الذين ذاقوا الجراحات من قتال المشركين ، فكان توجيه الآية أن جهاد الأعداء و الصبر على صبرهم ثمنه الجنة ، فيجب عليهم مع الجهاد الصبر ؛ لأن الصبر فوق صبر العدو ، هو سبب الظفر لأن الله تعالى قال قبل ذلك : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ ﴾ آل عمران (١٤٠). أما حاصل كلامه عن آية التوبة ، أنها خطاب للمجاهدين من المؤمنين ، و توعد من كان منهم يبقي على أقارب له عند الظفر بهم ، لقوله بعد ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء ﴾ [1] التوبة (٢٣) .

(١) ينظر درة التنزيل وغرة التأويل ١/ ٣٣٨ .

وهذا نظر إلى السياق في الآيات الثلاث([1])،و بمثله قال ابن الزبير.([2])

و لعله لما كان من أهم مقاصد سورة البقرة ؛ذكر النماذج التي استخلفها الله في الأرض،كل قوم وما فعلوا مع أنبيائهم،فكان أغلب اليهود و النصارى ممن فشلوا في عمارة الأرض،و كان المسلمون من أول عهد إبراهيم و إسماعيل إلى عهد محمد–عليه وعليهم الصلاة والسلام– ممن صلحوا في عمارتها. ثم ساق الأمثلة والقصص والعبر في عذاب الجماعات الكافرة،و نجاة الجماعات المؤمنة،لما كان كل ذلك؛أبان أن هذا النجاح و الفلاح لايكون إلا بتخطي الصعاب والشدائد التي سماها بأساء وضراء،و التي من شدتها شارك النبي قومه الدعاء بتعجيل النصر من الله،وهي ليست بدعا ؛إنما هي تمرّ عليهم كما مرت على الأقوام السابقة قبلهم ،وثمن الصبر عليها هو دخول الجنة .

والنظر في آية آل عمران يجعلنا نستحضر مقاصدها أيضا ؛فلما كان من مقاصد السورة بيان ثمرة طاعة الله و رسوله في كل حين ،وكان ما أصاب المسلمين في أُحد هو سبب العصيان والتعجل،و عدم الصبر؛جاء بيان أن ثمن الجنة الجهاد مع الصبر ،بل المصابرة التي ختم بها السورة حين قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾آل عمران(٢٠٠) .

أما آية التوبة فالفصل بين المؤمن والكافر من مقاصدها الكلية ؛فلما كان ذلك كذلك كان ذكر الابتلاء والتمحيص الواضح من قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا﴾يتناسب مع بيان المؤمن الخالص من غيره، لأن المحكّ في الجهاد هو قطع الصلات مع الكافرين وإن كانوا أقارب،ولأنها أمور تتعلق بالقلوب ،قفل بما يتناسب مع ذلك فقال : ﴿ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فالآيات الثلاث تحضيض على الجهاد،وآيتا البقرة وآل عمران ذُكر الثمن فيهما صراحة،وهو الجنة،أما آية التوبة فذكرت الجنة فيها بالإيماء،لأن المعول على التمحيص و الاختبار .

---

(١) لعل الكرماني لم ينصف حين قال عن الخطيب: " أطنب في هذه الآيات،و حاصل كلامه: أن الأول للنبي ﷺ والثاني للمؤمنين ،والثالث للمخاطبين جميعا "(البرهان في توجيه متشابه القران صـ ٨٤) .

(٢) ينظر ملاك التأويل ١/ ٢٦٣-٢٦٤-٢٦٥ .

فلكل آية موضعها من سورتها ،وكل آية لها حظ من سياقها ومقصودها، فالنظر في السياق دون ضم المقصود إليه غير كاف ؛لأن النظر في مقاصد السورة الكلية يزيد اختصاص كل آية بموضوعها من سورتها -كما سبق بيان ذلك- .

وكل ذلك ينبئ عن أن السورة القرآنية في القرآن الكريم لها مكان لا يصلح لها غيرها؛ويتحقق ذلك من جوانب عدة؛أولها: أن مقصد السورة يتنامى ويتصاعد بالنظر لمقصد السورة السابقة لها . ثانيها: أن السورة القرآنية تفصّل في معنى أجملته سورة الفاتحة . ثالثها: أن التشابه بين الآيات في السور يبين عن تواصل خاص بين سور القرآن الكريم غير ذلك التواصل الكائن من ترتيب سور القرآن متلاحقة .

* * *

الفصل الثاني /

علاقة خاتمة الطوال المدنية بالسورة التي تليها وموقع السورة بين المكي والمدني

تقسيم القرآن بين مكي ومدني من أعظم الدلائل على مقاصد السور؛لأن كل مرحلة من المرحلتين المكية والمدنية تتميز بمقاصد معينة تجتمع فيما بينها لتسير نحو تحقيق مقصود أعظم واحد يشار إليه من قبل سور القرآن كله على اختلاف مراحله وسياقاته ومقاماته وأهدافه الصغرى؛ألا وهو تحقيق العبودية لله تعالى دون سواه .

ولما كان ترتيب سور القرآن على غير ترتيب نزوله،كان لبعض السور المكيّة سبق النزول على نظائرها المدنيّة الموجودة في أول المصحف؛أمثال البقرة و آل عمرآن والنساء والمائدة،ومع ذلك رُتبت في أول المصحف للمقاصد العظمى المشار إليها سابقا. و مما هو بيّن أن المدنيّ من السور يقوم في أساسه على المكيّ،فهو إما مفصِّل لمجمل ورد في المكيّ،أو مكمّل لأصل كليّ،أو تجد آيات السورة حاوية لجزئيات من كليّات،أو خواص من عوام،لذلك فإن فهم المعنى القرآني يحتاج إلى فهم ترتيب نزوله أولا،و ترتيب بعضه على بعض،ثم سر ترتيب سوره ثانيا –كما هو في المصحف الترتيلي– فكل ما ورد في القرآن المدني من تشريع أو تكليف أو أمر أو نهي أو غير ذلك له نواة في القرآن المكي ؛لأن "المدنيّ من السور ينبغي أن يكون منزلا في الفهم على المكيّ،وكذلك المكيّ بعضه مع بعض،والمدنيّ بعضه مع بعض ... وذلك إنما يكون ببيان مجمل،أو تخصيص عموم،أو تقييد مطلق، أو تفصيل مالم يُفصّل،أو تكميل ما لم يظهر تكميله ."[1] فالقرآن الكريم وحدة متكاملة ؛إذ لا يصح عقلا أن يكون القرآن كله مع وصفه بوحدة المقاصد –أن يكون مقسما على مرحلتين لا تتصل إحداهما بالأخرى،أو لا تتعانق فيها المرامي و الأهداف،أو لا تنطبق فيها المعاني على بعض .و ليس من الصحيح أن تكون كل مرحلة خاصة بفئة معينة أو مرحلة مخصوصة ؛إنه بناء متكامل المقاصد متناميها متغازرها،هذا التكامل و التنامي و التغازر لا يتم إلا بتكامل قسميه المكي والمدني .وهذا التقسيم بين المرحلتين نافع لفحص السياقات المقامية ،ومعرفة السياقات الزمانية ،ووضع اليد على ناسخه و منسوخه .وهذا يقودنا إلى تقرير أن التناسب قائم بين السور في ترتيب النزول والترتيل معا،فمعرفة أحوال السور وأسباب النزول من أهم العُدَد

---

(١) الموافقات ٣ / ٨٥٠ .

لمعرفة أوجه التناسب.(١) والمقاصد بين المكي والمدني من السور تتآخى وتتآزر ولا تتقاطع،و سور القرآن مراتب و منازل مبنية بعضهاعلى بعض،و ترتيبها الترتيلي ترتيب تناسب وتناسق .

ولما كانت السور مبنية بعضها على بعض؛ كان لهذا البناء سبل وطرائق،و من أبرزها: معرفة موقع السورة على لاحب السياق القرآني عامة،ومعرفة علاقة خاتمة السورة بمطلع التي تليها،ومعرفة موقع السورة بين المكيّ و المدنيّ خاصة .

ووجوه التناسب بين خواتيم السور ومطالع ما بعدها متنوعة بين الخفاء والجلاء،فقد تكون مناسبة لفظية أو معنوية،وأحيانا تكون إيقاعية،وقد يجمع بينهما تلاؤم أو تناظر أو تجانس،ولا يعني ذلك تفرّد كل سورة برابط واحد، فقد يجمع بين السور أكثر من رابط .

وللجملة القرآنية في خاتمة السورة خصوصية بيانية؛لأنها تتناسب مع ماوردت فيه من السياق من نفس السورة .وهي من وجه آخر تمهد لنظام جديد من سورة جديدة لها سياقاتها الخاصة بها ،فتقترن بها ،وتأتلف حتى لا تجد بينهما نفورا أو انقطاعا .والمناط في استخراج العلاقات بين الخواتم ومطالع مابعدها؛طول النظر،وإدامة التأمل،مع الالتفات إلى الجزئيات وربطها،يعقبه استنتاج الكليّات المؤدية إلى فقه المعنى القرآني .(٢)

---

(١) و عن هذا المعنى قال دروزة :"فإذا أنعم النظر في القرآن المدني و أخذه كمجموعة يتم بعضها بعضا فإنه لا يوجد مندوحة عن التسليم بأنه ظل في حدود ما رسمه القرآن المكي لمهمة النبي و الدعوة النبوية ومبادئها و أسسها و توجيهاتها ،و يرى دلائل ذلك في صريح الآيات و مراميها و تلقيناتها و روحها فنواة كل ما ورد فيه من تشريع و أوامر و نواهٍ وتلقين و توجيه ،أو جلّه موجودة في القرآن المكي " (القرآن المجيد .تنزيله وأسلوبه و أثره وجمعه وتدوينه و ترتيبه و قراءاته ورسمه و محكمه ومتشابهه و قصصه وغيبياته و تعليقاته على مناهج مفسريه و الطريقة المثلى لفهمه و تفسيره .محمد عزة دروزة صـ٤٠ .بدون ط.بدون ت .منشورات المكتبة العصرية /صيدا- بيروت .

(٢) فتناسب سور القرآن كما يقول الدكتور محمد أبو موسى: " من أبواب البلاغة التي تروع من غير أن تكون داخلة تحت مصطلح من مصطلحات فنون علم البلاغة؛لأنها علاقات معان تتفق و تختلف و تتقارب و تتباعد،و لها في تقاربها و تباعدها درجات،كل ذلك بتدبير دقيق و سياقات و مقامات منها ظاهر و خفي" (من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب صـ ٢٤-٢٥) .

أولا :

علاقة خاتمة سـورة البقرة بمطلع السورة التي تليهـا (آل عمران) وموقع سورة البقرة بين المكي و المدني

سورة البقرة مدنية بالاتفاق، نزلت بعد المطففين ،وهي في ترتيبها الترتيلي تقع بعد سورة الفاتحة المكيّة .(١) وبما أن المدنيّ من السور منزل في الفهم على المكيّ، والمكيّ بعضه من بعض، والمدنيّ بعضه من بعض، فسورة البقرة ترتبط بصلات بين المكي من فاتحة الكتاب والمدني من آل عمران . فلما ذكرت(أم الكتاب) الصراط المستقيم؛ الذي هو صراط المنعم عليهم، وهو غير صراط المغضوب عليهم ،وغير صراط الضالين؛ جاءت سورة البقرة لتبيّن في تفصيل ما أُجمل سابقا من أمر المنعم عليهم، فقال في مطلع السورة : ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ البقرة(٢)إذ التمسك بالكتاب هدى إلى الصراط المستقيم الذي كمل وصفه في الفاتحة بقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فالهداية هي الإنعام و التفضل ،ولا يحظى بها إلا من كتبت له التقوى، و المتقون هم الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة ،ويؤتون الزكاة. وهم الذين يؤمنون بما أنزل إلى الرسول وماأُنزل من قبله وبالآخرة هم يوقنون . وسبقت الإشارة إلى تفصيل سورة البقرة في المغضوب عليهم من اليهود .

وقد يكون هناك نوع من التماثل بين السورتين المتجاورتين في الختام ،فختم الفاتحة بتعليم المؤمنين الدعاء مع الإشارة إلى وجوب عدم الخروج من زمرتهم إلى زمرة المغضوب عليهم، و ختم البقرة بتعليم المؤمنين الدعاء مع الإشارة إلى تحقق و حصول التميّز للمؤمنين عن الكفرة المغضوب عليهم، و تلك ميزة سعوا إلى تحصيلها من سؤالهم في خاتمة سورة الفاتحة . وهذا من التماثل بين المكي والمدني من السور، وهو باب عظيم من أبواب تآخي السور وتشابهها .

(١) وقيل: إنها نزلت مرة بمكة ومرة بالمدينة .

وترتبط خاتمة سورة البقرة بمطلع آل عمران بعلاقة وطيدة ؛فإنه لما ختم تعالى البقرة ببيان إيمان الرسول و المؤمنين بكل ما جاء من عنده — تعالى — مع تحقق السمع والطاعة ،وتوجه الأكف إليه بالرغائب و النصرة؛أبان في مطلع (آل عمران) أنه المستحق لكل ذلك ،وأنه القادر لا غير؛لأنه المتفرد بالألوهية ،هذا التفرد أتمّه بوصف الحياتية والقيومية ،وتلك الألوهية جاءت بها حقيقة الأديان الثلاثة كلها .

ونظر البقاعي إلى آية الكرسي أنها ختام سورة البقرة،وما بعدها بيان لها؛فقال عن علاقة ختام البقرة بمطلع آل عمران: "لما كان آخر البقرة في الحقيقة آية الكرسي،وما بعدها إنما هو بيان؛لأنها أوضحت أمر الدين ... ؛ناسب هذا الاختتام غاية المناسبة ابتداء هذه السورة بالذي وقع الإيمان به سبحانه ،و وجهت إليه الرغبات آخر تلك إليه."([1]) وهذا نظر يبين عن ركيزتين،الأولى: أن آية الكرسي كما أتمت في البقرة معنى توحيد الألوهية ووصلت به الذروة([2])؛مهدت لافتتاح (آل عمران) بتوحيد الألوهية التي أقرتها الأديان في سالف زمانها وفي قادمها،فهي جميعها في تآلف ،وتعانق لا انفصال بينها ،وهذا أصل في المعنى . وفيه من التماثل بين الصفات والأسماء الموجودة بين سورة البقرة وآل عمران ؛ وينشأ منه علاقة التماثل بين المعاني باعتبار آية الكرسي هي انتهاء السورة .

الثانية :أن آية الكرسي بما فيها من الإخبار على سبيل من النفي و الاستثناء و الوصف بالحيياتية و القيومية مهدت لمطلع سورة (آل عمران) حيث افتتحت بالجملة الأم والركيزة العظمى فقال: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ آل عمران(٢) فمكنت آية الكرسي المعنى في سياقها من سورتها ،و تداخلت مع سورة (آل عمران) ،فهيّأت لمعنى جديد ،وأشعرت برحم و نسب بين السورتين ،وصنعت ألفة لا تُعرف مصادرها إلا بالتأمل و التدبر .

---

(١) نظم الدرر ٢ / ٤ .

(٢) ينظر تآخي المعاني ونموها و انسجامها في سورة البقرة .

ثم قال البقاعي بعده :"و أحسن منه أنه لما نزّل إلينا كتابه فجمع مقاصده في الفاتحة... ؛عُلم أنه واحد لا شريك له،حيّ لا يموت، قيّوم لا يغفل ،وأن ما أنزل هو الحق."(1) وهذا نظر آخر في المقاصد يبين عن اتصال سورة البقرة و (آل عمران) المدنيتين بالفاتحة المكية ؛فيؤكد على أن المدني منزل في الفهم على المكي ومتصل به اتصالا وثيقا . وهو يوجه إلى الاستدلال من الأفعال على صفات الفاعل .

ثم قال عند شرحه لقوله تعالى من (آل عمران){ وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس} :"والحاصل: أن هذه الآية كالتعليل لآخر البقرة ،وكأنه قيل: كل آمن بالله لأنه متفرد بالألوهية،لأنه متفرد بالحياة ،لأنه متفرد بالقيومية ،و آمن برسله الذين جاؤوا بكتبه المنزّلة بالحق من عنده بواسطة ملائكته."(2) وهذا نظر آخر لنوع من أنواع المناسبات التي تقع بين السور المدنية ،وهو قائم على ذكر السبب بعد المسبب ،وما أشار إليه البقاعي من التناسب قبل هذا أعلى مقصدا و أبعد غاية .

ولمن يدير نظرا آخر في خواتيم سورة البقرة من الدعاء في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ البقرة (٢٨٦) يجد رحما و نسبا بين ما جاء في هذا الختام ،و ماجاء في مطلع آل عمران من الدعاء كذلك في قوله: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ * رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ آل عمران (٨-٩) ولعل ذلك الختام هيّأ لهذا المطلع ،فلما تحققت الهداية للمتقين في سورة البقرة ،وعلمهم الدعاء بطلب عدم المؤاخذة ،وعدم تحمّل ماليس في الطاقة ،مما

---

(١) نظم الدرر ٢ / ٤ .

(٢) السابق ٩/٢ .

ينغص على تلك الهداية .ثم علمهم ما يقتضي الحفاظ على هذه الهداية من طلب العفو والمغفرة والرحمة والنصرة على الأعداء، لما كان كل ذلك؛علمهم في مطلع آل عمران من الدعاء مايقتضي ديمومة الهداية ،فكان تكميلا للمعنى،وفيه بيان أن الهداية نعمة يرجى دوامها ويخاف محقها .

و لما أردف وصف المتقين في البقرة بالإيمان بالغيب و كان أخص شيء فيه الإيمان باليوم الآخر ؛أتبع في آل عمران الدعاء بعدم الزيغ بعد الهداية، و الإقرار باليوم الآخر .فكان تماثلا بين المعاني يفضي إلى بيان موقع المعنيين من السورتين معا .

و لجملة الخاتمة من السورة أهمية بالغة في القيام بوظيفة التعارف بين معاني السورتين؛من نداء الرب دون حرف نداء و إضافته إلى (ناء الدالة على الفاعلين) ومن طلب الكف عن الفعل دون استعلاء ،و من الإطناب في قوله: ﴿ لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ ومثله في قوله: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ فيتضافر التناسب المعنوي والبياني لإيجاد ألفة بين السورتين، والسورتان على قدر كبير من التماثل والتشابه بسبب آخر غير التجاور .([1])

* * *

(١) سيأتي بيانه في (علاقة خاتمة سورة آل عمران بما بعدها و موقعها بين المكي والمدني) من هذا الباب .

ثانيا :

علاقة خاتمة سورة آل عمران بالسورة التي تليها(النساء)

وموقع سورة آل عمران بين المكي والمدني

تتصل خاتمة سورة آل عمران بمطلع سورة النساء، و من أعظم ما يصلهما: أن آل عمران ختمت بقول الحق –تبارك وتعالى–: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ آل عمران (٢٠٠) وافتتحت النساء بذكر التقوى كذلك ، و الأمر بها حين قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ . . . ﴾ النساء(١) فلما خصّ في آخر آل عمران الخطاب بالمؤمنين ، و أمرهم بالتقوى ؛ عمم في سورة النساء الأمر بالتقوى ليشمل كل الناس، فكان من ذكر العام بعد الخاص . و هذا النوع من التناسب هو ما سماه السيوطي[١] "تشابه الأطراف "، و تبعه في ذلك محمد رشيد رضا .[٢]

فجملة الخاتمة في سورة آل عمران هيأت لمطلع السورة بعدها مما أنشأ ائتلافا بين السورتين، و كان الأمر بالتقوى في كل سورة منهما له تعلق بمعانيها خاصة .

ولعل لجملة الخاتمة في سورة آل عمران خصوصية في بيان ائتلافها مع ختام السورة السابقة لها كذلك ، فقد ذكر البقاعي عند قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ آل عمران(٢٠٠) : "و هذه الآية ...معلمة بشرط استجابة الدعاء بالنصرة على الكافرين ، المختتم به البقرة ."[٣] فرد المقطع على المقطع، و هذا يبين عن قوة العلاقة بين سورة البقرة و آل عمران. و لعل هذا ما أوحى للسيوطي أن يقول: "وأمر آخر استقرأته ؛ و هو: أنه إذا وردت سورتان بينهما تلازم و اتحاد ؛ فإن الثانية تكون خاتمتها مناسبة لفاتحة الأولى للدلالة على الاتحاد . و في السورة المستقلة عما بعدها يكون آخر السورة نفسها مناسبا لأولها ."[٤] فالبقرة افتتحت ببيان أن التقوى سبب في الفلاح، وختمت آل عمران بالأمر بالتقوى رجاء الفلاح . و كما عُلّم المؤمنون الدعاء آخر البقرة

---

(١) أسرار ترتيب القرآن صـ ٩٠ .

(٢) تفسير المنار ٣٢١/٤ .

(٣) نظم الدرر ٢/ ٢٠٣ .

(٤) ينظر أسرار ترتيب القرآن ٨٣–٨٨ .

بالنصرة ؛علموا الدعاء بالثبات ،و عدم الزيغ في مطلع آل عمران، فكأنه من باب رد المقطع على المطلع لو عدت السورتان واحدة بالنظر إلى تلازمهما و اتحادهما .

وسورة آل عمران اشتركت مع البقرة في اسم الزهراء وصفة الغمامة و الغياية([1]) وفيه مع بيان عظم فضلهما بيان تآخيهما و تشابههما ،حيث جُمعتا في سلك واحد من الخيرية والفضل و المكانة .وتدبر فاتحة السورتين ،وخاتمتهما ،ومقاصدهما يثبت تآخيهما .

أبدى العلماء أوجها من هذا الارتباط،و منهم صاحب المنار([2]) وذكره لتلك الأوجه يبين عن تكميل سورة آل عمران لما جاء في سورة البقرة ،و في الوقت ذاته يبين عن الحكمة في تقدم البقرة على آل عمران .

و كتب ابن الزبير الغرناطي ما حاصله أن اتصال آل عمران بسورة البقرة من وجوه عديدة:

---

(١) عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال:قال رسول اللهﷺ : " اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة يشفع لأصحابه، اقرؤوا الزهراوين؛سورة البقرة وآل عمران،فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان ، أو كأنهما فِرقان من طير صواف يحاجان عن أصحابهما .."(المسند المستخرج على صحيح مسلم. رقم الحديث(١٨٢٥)باب فضل سورة البقرة وآل عمران ٢/٤٠١) .والزهراوان :من زهر يدل على حسن وضياء وصفاء. و الغمامتان :من غمي يدل على تغطية و تغشية .و الغيايتان :من غيي إظلال الشيء لغيره.والفرقان:خلاف الجمع (ينظر مقاييس اللغة مادة (زهر — غيي — غمي — فرق) .

(٢) من هذه الأوجه:"أن كلا من السورتين بُدىء بذكر الكتاب وشأن الناس في الاهتداء به،ففي الأولى ذكر أصناف الناس من يؤمن به ومن لا يؤمن،والمناسب في ذلك التقديم؛لأنه كلام في أصل الدعوة،وفي الثانية ذكر الزائغين الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله،والراسخين في العلم الذين يؤمنون بمحكمة ومتشابهه،والمتناسب فيه التأخير. ومنها:أن كلا منهما قد حاج أهل الكتاب،ولكن الأولى أفاضت في محاجة اليهود واختصرت في محاجة النصارى،والثانية بالعكس.والنصارى متأخرون عن اليهود في الوجود وفي الخطاب بالدعوة إلى الإسلام؛فناسب أن تكون الإفاضة في محاجتهم في الثانية.

ومنها:أن في كل منهما أحكاما مشتركة لأحكام القتال ومن قابل بين هذه الأحكام رأى أن ما في الأول أحق بالتقديم وما في الثانية أجدر بالتأخير .ومنها: الدعاء في آخر كل منهما،فالدعاء في الأولى يناسب بدء الدين ؛لأن معظمه فيما يتعلق بالتكليف وطلب النصر على جاحدي الدعوة ومحاربي أهلها ،وفي الثانية يناسب ما بعد ذلك ؛لأنه يتضمن الكلام في قبول الدعوة وطلب الجزاء عليه في الآخرة (ينظر تفسير المنار ٣/ ٣٢٣) .

الأول : ماتبين في صدر السورة مما هو إحالة على ما ضُمّن في سورة البقرة بأسرها.
الثاني: الإشارة في صدر السورة إلى أن الصراط قد بُيّن شأنه لمن تقدّم في كتبهم،و أن هذا الكتاب جاء مصدقا لها .

الثالث: ابتداء أمر عيسى من غير أب نظير ابتداء آدم من غير أم و لا أب .(1)

فهو يشير في الأول إلى الاتصال بين السورتين في إثبات الوحدانية لله تعالى و استحقاقه لها،وعليه فما ورد في سورة آل عمران تصريح لما ضمن في البقرة .

والثاني فما ورد في آل عمران تأكيد لما ورد في البقرة .

أما الثالث: فما ورد في آل عمران من أمر عيسى يناظر ما ورد في البقرة من أمر آدم –عليهما السلام– و تعدد العلاقات بين السورتين يبين عن اتصال وثيق بين معانيهما .

ومما يدل على اتصال سورة آل عمران بالبقرة أنه تعالى لما ذكر في البقرة الكتاب وعلو مكانه عرّف بمُنزِله في آية الكرسي فقال: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . . . ﴾ البقرة(٢٥٥) "ولما كان من معنى القيّوم المدبر للمصالح اتصل به الإعلام بتنزيل ما يتضمن ذلك،و هو الكتاب المذكور في قوله: {بما أنزل إليه من ربه} [البقرة ٢٨٥]و الكتاب المذكور في أول البقرة : {بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك}و في آخرها بقوله: {وكتبه ورسله}[البقرة ٢٨٥] التي من جملتها:التوراة و الإنجيل ...ثم شرح بعده أمر التصوير في الأحشاء ."(2) فقدّم ذكر المصالح الروحانية على ذكر المصالح الجسمانية؛لأنها أشرف كما عبّر البقاعي .
وهذا من تتميم سورة آل عمران للمعاني المذكورة في البقرة .

ولما أوجز في البقرة زينة الحياة الدنيا ،و شهواتها ،و الحديث عن المتقين؛فصّل في الشهوات و في صفات المتقين في آل عمران فقال: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ

(١) ينظر البرهان في ترتيب سور القرآن صـ ١٩٥– ١٩٦.
(٢) نظم الدرر ٢/٧ .

وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ آل عمران(١٤-١٧)، فكان من التفصيل بعد الإجمال .

ومما يبين عن التآخي بين السورتين: خطاب اليهود والنصارى خطابا واحدا شاملا في سورة آل عمران، وذلك لأنه قد سبق تشابه قلوبهم فتشابهت أعمالهم، فقال: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران (٦٤) و ذلك لأن اليهود غالوا في عزير فقالوا :ابن الله ،و النصارى غالوا في عيسى — عليه السلام — فقالوا ابن الله كذلك، فجمعهم في سلك واحد ،و دعاهم إلى كلمة الحق .

ومن مواضع خطابهم خطابا واحد أنه قال في آل عمران :﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ آل عمران(٦٥) وقال بعد ذلك: ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ آل عمران(٦٩-٧١)؛ و ذلك أنه

سبق جدال اليهود في إبراهيم في سورة البقرة ،وسبق نهيهم عن الكفر بالله ،و نهيهم عن إلباس الحق بالباطل .

ومنه كذلك ذكر أعمال أهل الكتاب ،و فضح ما تنطوي عليه قلوبهم من السرائر التي تحمل غلا و حسدا للمؤمنين، فأجملها في سورة البقرة ،ثم فصّلها في حديث مطول في آل عمران،فكان من باب التفصيل بعد الإجمال .

ويعد المتشابه من الآيات بين السورتين من أبرز ما يوضح الصلات بينهما،ومن ذلك أنه تعالى قال في سورة البقرة: ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ البقرة (٨٠-٨١) ثم قال في آل عمران: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ * فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ آل عمران (٢٤-٢٥)؛فإنه تعالى لما أنكر في سورة البقرة على أهل الكتاب قولهم بأن النار لن تمسهم إلا مدة عبادتهم العجل ،و هي الأربعون يوما- لأنه لم يعطهم عهدا بذلك ،فضلا عن أنه لم يكن منه قول ذلك- ثم أكد على وجه العموم خلود كل صاحب إثم تحيط به خطيئته،و تثبت عليه في نار جهنم؛أكد في آل عمران إنكاره أن يكون قد وعد أهل الكتاب بشيء مما قالوه على طريق التهكم بهم حينا (1)بنسبة نصيب من العلم لهم دون العمل به، فهم إذا دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم انصرفوا وأعرضوا،وهذا يعني أنهم بلا عقل أصلا،و إنما كان سبب ذلك أنهم — من وجهة نظرهم — أمنوا العقوبة ،فقالوا: لن تمسنا النار إلا أياما،فكانت أوهامهم نقمة عليهم وخداعا لهم قبل

---

(١) بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوْتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللّهِ . . . ﴾ آل عمران (٢٣) .

أن تكون خداعا لأي أحد غيرهم . و على طريق التهديد و الترهيب حينا آخر؛ بذكر يوم القيامة و جمعهم فيه لينالوا عقابهم وافيا دون نقصان أو زيادة .و تحقق من التهكم و الوعيد هدفهما حين أتبعهما بما يدل على ملكوته وقدرته العظيمة على الإعزاز و الإذلال[1] فكان ذكر قولهم في آل عمران تأكيدا من وجه وتأسيسا من وجه آخر . وكان كما يقول ابن الزبير في آل عمران بسط لحالهم الحاصل على سوء مرتكبهم فأوجز في البقرة،وناسب الإيجاز إفراد قوله :(معدودة) وناسب الإسهاب الجمع في قوله :(معدودات) . وهذا من تآخي السورتين وتشابههما . [2]

ومن التشابه بين الغيايتين أن الله تعالى قال في البقرة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَـئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ البقرة (٢١٨) فنبّه إلى شأن المؤمنين بتكرار الاسم الموصول مرتين ،و نبّه كذلك إلى أنهم بقتلهم الخطأ كانوا يرجون الدخول في رحمة الله و عطائه ،ولم يُصرَّح بنيلهم ذلك ،إنما ختم بما يومئ إليه.ثم جاء في آل عمران وقال في خاتمة السورة: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ آل عمران(١٩٥)فصرّح تعالى على وجه من التأكيد المستفاد من مجيء القسم و نون التوكيد الثقيلة مع لام التأكيد- دخول المؤمنين في رحمته بدليل تكفير السيئات ،و دخولهم جنات تجري من تحتها الأنهار،فابتدأ بالإشارة إليهم ،وإلى أعمالهم التي تستحق الثواب المذكور، فكان بيانا لما طُوي في سورة البقرة .

(١) بقوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ . . . ﴾ آل عمران (٢٦).
(٢) ينظر ملاك التأويل ٢٢٦/١ .

ومن مواضع التشابه العديدة بين هاتين الغمامتين؛ أن الله تعالى قال في سورة البقرة: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ البقرة (١٢٩)وقال بعد ذلك في نفس السورة ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة(١٥١)ثم جاء في آل عمران وقال: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ آل عمران (١٦٤) فلما كانت آية البقرة الأولى دعوة إبراهيم–عليه السلام– لنبيّنا محمد ﷺ وكانت العرب على جهل بالكتاب و الإسلام؛ قدّم تعليم الكتاب و الحكمة على التزكية والتطهير؛ لأن تعليم الكتاب و اتباعه طريق إلى التزكية للأعمال، و ختم ذلك بتنزيه الله تعالى عن الزلل و الخلل في تدبيره. و لما كانت الآية الثانية في مقام الامتنان على المسلمين بتغيير القبلة ، و هدايتهم إلى قبلة إبراهيم ، و بيان تميّزهم عن غيرهم من أهل الكتاب؛ قدّم التزكية للأعمال لحصول الهداية قبل ذلك ، و ختم بما يناسبه فقال: ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ ثم جاء في آل عمران، و كان المقام مقام امتنان أيضا بعد انتهاء معركة أحد، فذكر أحداثها، و ذكر عتابهم على أخطائهم، ثم ذكر مغفرة الله لهم وأمره رسوله بالعفو عنهم، فصرّح بالمنّة في قوله: ﴿ قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ ﴾ وزاد في الامتنان حين أكد فقال: ﴿ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ و كان حالها من تقديم تزكية الأعمال و تأخير تعليم الكتاب كآية البقرة الثانية، و كان ختامها كذلك متناسبا مع تأخير تعليم الكتاب ، و وصلة له حين قال: ﴿ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ ؛ و لذلك قال ابن الزبير: "وأخر ... ذكر

السبب ليوصل بمسببه الأكيد هنا الذي كان قد وقع ؛و هو رفع ضلالهم من عظيم محنته،و لو أخر ذكر التزكية لما أحرز هذا المعنى المقصود هنا ."(١) و هذا نظر سياقي يبين عن اقتران و افتراق حسب المعاني الواردة،فتشابه المقامات يؤدي إلى تشابه الآيات،وتتميمها لمعنى بعض، وإن كانت في الأولى عامة ،و في الثانية خاصة و أشد صراحة .

هذا النظر يدل على سعة موضوع التناسب بين هاتين السورتين خصوصا،من حيث النظر في جملة الخاتمة ،و من حيث النظر في اتصال معاني السورتين معا ،و تكميل المدني للمدني من السور ،أو تفصيل أو نشر ما أُجمل أو طوي في الأولى ،و كله ينبئ في نهاية المطاف عن أن السورة المدنية لها مكانها الذي لا يصلح لها غيره ،وأن خاتمة السورة تؤيد هذا النظر من حيث اتصالها بما بعدها ،و قد يكون بما قبلها كما في هذه السورة .

*　　　　*　　　　*

(١) ملاك التأويل ١/ ٢٣٧ .

ثالثا :

علاقة خاتمة سورة النساء بمطلع السورة التي تليها(المائدة) وموقع سورة النساء بين المكي والمدني

سورة النساء،وثيقة الصلة بسورة المائدة ،وذكر ابن الزبير وجها من تلك الصلة فقال: " لما بين تعالى حالة أهل الصراط المستقيم ،ومن تنكب عن نهجهم ،ومآل الفريقين من المغضوب عليهم ولا الضالين ،وبين لعباده المتقين مافيه هداهم ،وبه خلاصهم ،أخذا وتركا،وجعل طي ذلك الأسهم الثمانية ... وقد تحصلت ،وتحصل مما سبق أن أسوأ حال المخالفين ؛حال من غضب الله عليه و لعنه،وأن ذلك ببغيهم ،و عداوتهم ،و،نقضهم العهود ...وكان النقض كل مخالفة ،قال الله تعالى لعباده المؤمنين: {يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود}لأن اليهود و النصارى إنما أتى عليهم من عدم الوفاء، ونقض العهود، فحذّر المؤمنين ."([1]) وهذا رباط للسور الثلاث المدنيات بسورة المائدة ،فالوفاء بالعهود المذكور في مطلع المائدة عمدة في عدم المخالفة،و به يتحقق كمال العبودية .

وكشف البقاعي وجها آخر عن صلة النساء بمطلع المائدة خصوصا فقال :" لما أخبر تعالى في آخر سورة النساء أن اليهود لما نقضوا المواثيق التي أخذها عليهم ؛حرم عليهم طيبات أحلت لهم...و استمر تعالى في هتك أسرارهم ،و بيان عوارهم إلى أن ختم بآية الإرث الذي افتتح آياته بالإيصاء ،و ختمها بأنه شامل العلم ؛ناسب افتتاح هذه بأمر المؤمنين الذين اشتد تحذيره لهم منهم بالوفاء...فقال مشيرا إلى أن الناس الذين خوطبوا أول تلك تأهلوا لأول أسنان الإيمان،و وصفوا بما هم محتاجون إليه ."([2]) وكلامه يشير إلى عموم نداء الناس وخصوص نداء المؤمنين،و بيان أن انتقال البيان القرآني في خطابه من العموم إلى الخصوص يشير إلى تصاعدهم في درجات الإيمان ،و تفسيره أنه حين ألقى إليهم الأحكام في النساء ألقاها على سبيل التدرج ،وأدل مافيها حكم الكلالة الذي ختم به السورة .و لما خاطب في سورة المائدة المؤمنين؛ألقى إليهم أمره بالإجمال،فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا

(١) البرهان في ترتيب سور القرآن صـ٢٠٠-٢٠١-٢٠٢ .

(٢) نظم الدرر ٢/٣٨٤-٣٨٥ .

بِالْعُقُودِ ﴾المائدة(١)وهذا كله يدل على ارتقائهم في تقبل التشريع ،ولذلك كانت خاتمة سورة النساء تهيئ لمطلع سورة المائدة .

وقال البقاعي عن صلة آخر النساء تحديدا بمطلع المائدة :"و في الأمر بالوفاء بالعقود بعد الإخبار بأنه بكل شيء عليم ؛غاية التحذير من تعمد الإخلال بشيء من ذلك و إن دق."([1])

و فيه بيان أن للجملة القرآنية في خاتمة السورة خصوصية بيانية؛فكان لقوله تعالى في آخر النساء: ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾النساء(١٧٦) تعلق بما جاء في مطلع المائدة من قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾فالجملة القرآنية في خاتمة السورة تتناسب مع ماوردت فيه من سياقها في سورتها ،و في الوقت نفسه تهيئ لنظام جديد ،فتقترن السورتان وتأتلفان بحيث لا تجد بينهما تنافرا .

و تتعلّق سورة النساء – بحكم موقعها ومدنيتها – بسورة آل عمران من وجوه عديدة، منها: إكمال المسيرة في جدال أهل الكتاب، و بيان خطأ معتقداتهم ،و محاجتهم وأخذهم إلى مصيرهم بالحوار الجاد، و البرهان القاطع ؛و لكنه في آل عمران سلّط الضوء على معتقدهم الفاسد في تأليه عيسى — عليه السلام — و في سورة النساء جمعهم مع المنافقين ،و ندد بأعمال كل منهما، و إن اشتركا في جعل الشيطان قرينا لهما ،حتى وصل في آخر السورة إلى مصيرهم المحتوم .

ومنها :أن البيان القرآني تناول في سورة النساء الجزء الآخر من قضية عيسى–عليه السلام– غير تأليهه، و هو قصة القول بقتله ،فأثبت البيان القرآني رفع الله له دون قتله، فكان طرق الموضوع من الجانب الآخر تكميلا واستيفاء، وكان أسلوب الحكاية أصلا في ذكر أحوالهم ومصائرهم .

---

(١) نظم الدرر ٣٨٦/٢ .

ومن صور التعلّق بين السورتين: أنه تعالى ذكر قصة أحد في سورة آل عمران، ونـدد كفايـة بالمنافقين، ولما كان الشيء بالشيء يُـذكر، وكان ذكـر المنـافقين وأعمـالهم وأحـوالهم مـع سـوء مصيرهم ركيزة في سورة النساء؛ رجع منددا بعملهم في غـزوة أحـد، فقال: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ النساء (٨٨) و حينما يذكر الشيء مرّة بعد مرّة ؛يكون فيه مزيد تعجب مـن فعلهم و حالهم، و مزيد تنديد و تشنيع .وفيه كذلك من التأكيد على ضلالهم ومحبـة إضـلال الناس .

ومن وجـوه التواصـل بيـن المدنيتيـن: أنه تعـالى كما امتدح الراسخيـن في العـلم في سـورة آل عمران لإيمانهم بما تشابه من القرآن، امتدحهم في سورة النساء كذلك بالإيمان بما جاء بـه النبي ﷺ ،وما جاء به الأنبياء قبلـه ؛بيانا لثبـات قـدمهم في الإسـلام. وهـذا تتمـيم لـدلالات رسوخ العلم عند المؤمنين .

وكمـا احتلـت الشـهادة جـزء كـبيرا مـن سـورة آل عمران، تناولـت سـورة النسـاء كـذلك الشهادة، والشهادة في آل عمران تتناسب مع ما سيقت لأجله من إثبات استحقاق الله للعبادة فركزت على شهادة التوحيد لله ،وعلى إشهاد الله على إسلام مَنْ أسـلم مـن الحواريين، مـع تناول جزء من الشهادة على أعمال أهل الكتاب. والشهادة في سـورة النسـاء[1] تتناسـب مـع سياق السورة، فكان التحذير من شهادة الرسـل علـى أممهم، ثـم شـهادة الرسـول علـى كـل أولئـك، ثم أمـر الله النـاس كلـهم أن يجنـدوا أنفسـهم للشـهادة في سـبيله، و لـو علـى النفس، أوالوالدين و الأقربين، ثم شهادة عيسى بن مريم على أعمال قومه و غدرهم، ثـم خـتم بخـير الشـهادات و أكفأهـا ؛وهـي شـهادة الله تعـالى ،وخـتم بقولـه: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ

(١) تنظر الآيات من سورة النساء : (٤١- ١٣٥- ١٥٩- ١٦٦) .

شَهِيداً ﴾النساء (١٦٦) ،و كل ذلك يسهم في بيان قيمة الشهادة ،فتمم المعنى في سورة النساء.

فسورة النساء مدنية سبقت بأختها المدنية كذلك، وكلتاهما مسبوقتان بثالثة مدنية ،كل منها لها دواعيها في النزول الزمني،وسبقت الإبانة عن وجوه التعلّق بينهم ،وصور التناسب كذلك،مما يؤكد الصلة الوثيقة بين ترتيبها الترتيلي وموضوعاتها ؛بل وموضوعات جاراتها .

*　　　　*　　　　*

رابعا :

علاقة خاتمة سورة المائدة بالسورة التي تليها(الأنعام)

وموقع سورة المائدة بين المدني والمكي

تتصل خاتمة سورة المائدة بمطلع سورة الأنعام التالية لها ،و بين البقاعي شيئا من ذلك فقال في شرحه لسورة الأنعام :" و عقبها سبحانه بالدليل الشهودي على ما ختم به تلك من الوصف بشمول القدرة بوصفه بقوله : {الذي خلق} ."(1) و هذا نظر في اتصال آخر جملة في خاتمة سورة المائدة بمطلع سورة الأنعام التالية لها ببيان مالجملة الخاتمة من أثر في الاقتران والتوافق بين السور .

و لهذا الاتصال وجه آخر كذلك: فلما ختم النظم الكريم سورة المائدة بقوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ المائدة (١٢٠) فكان أنهى ماتعقله مدارك البشر حجم السماوات و الأرض و تباعد ما بينهما ،و كثرة مافيهما ،فأعلم عن طريقهما عن شيء من قدرته و عظمته تعالى ،و ختم بما يلف المعنى السابق من القدرة بمعنى أشمل منه ولا يحد كثرة فقال: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لما كان كل ذلك —أعقبها ببيان الواجب في ذلك من استحقاق التمجيد بالتحميد للملك الديان خالق السماوات والأرض الذي على كل شيء قدير.

وللبقاعي نظر آخر من حيث اتصال خاتمة سورة المائدة بمقصود سورة الأنعام فقال:" فقد لاح أن مقصد السورة :الاستدلال على ما دعا إليه الكتاب الذي تبين أنه الهدى من توحيد الله ،والاجتماع عليه ، و الوفاء بعهوده بأنه سبحانه وحده الخالق الحائز لجميع الكمالات من القدرة على البعث و غيره ،و ما أنسب ذلك بختم المائدة بذكر يوم الجمع ،و أن لِمَلِكِه جميع الملك ،و هو على كل شيئ قدير ."(2) فكأن خاتمة سورة المائدة هيأت ومهدت الطريق لتشرع سورة الأنعام في بيان مقصودها على سبيل من التناسب .

ومن وجه آخر فهو يبين عن تصاعد المعاني بين السور مدنيها و مكيها ؛ابتداء من البقرة إلى الأنعام .

---

(١) نظم الدرر ٥٧٩/٢ .

(٢) السابق ٥٨٠/٢ .

وجاء عند السيوطي قوله : " قال بعضهم :مناسبة هذه السورة لآخر المائدة أنها افتتحت بالحمد، وتلك ختمت بفصل القضاء، وهما متلازمتان كما قال: {وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين } ... ولما ذكر في آخر المائدة : {لله ملك السموات والأرض ومافيهن} على سبيل الإجمال افتتح هذه السورة بشرح ذلك وتفصيله " (1). أي أن العلاقة بين السورتين علاقة إجمال و تفصيل .

وكما كانت هناك علاقة بين خاتمة السورة ومطلع التالية لها ؛كان هناك نظر لعلاقة سورة المائدة بسابقتها سورة النساء، حتى يتضح موقع السورة بين المكي والمدني .فسورة المائدة من السور التي جاء فيها بيان بعض الأحكام التي لم تبيَّن في سورة غيرها، وإذا كانت سورة النساء قد اهتمت بأحكام النساء و اليتامى من الإرث والنكاح والمعاملات، فسورة المائدة اهتمت بتحليل و تحريم أطعمة ،أو صيد حال الإحرام أو حال غيره . ولما كانت سورة المائدة رديفة سورة النساء ،وهما مدنيتان ؛كانت هناك وشائج تربط بينهما من قريب و من بعيد .

فكلتا السورتين كان ورود الأحكام فيهما وسيلة لا غاية ،فالنساء جاءت الأحكام فيها لتقرير وجوب تقوى الله في التعامل مع أفراد المجتمع بأسره وخاصة الضعفاء ؛لأن تكافل المجتمع يوصل إلى الاجتماع على توحيد الله. و سورة المائدة تسعى الأحكام فيها لتقرير بعض معاني الألوهية الذي يعد التشريع أبرز خصائصها .

وموضوعات السورتين يكمل بعضها بعضا ،ذكر الإمام السيوطي بعضا من صور العلاقة بين السورتين فقال: "وأما علاقتها بسورة النساء فقد ظهرلي فيه وجه بديع جدا، وذلك أن سورة النساء اشتملت على عدة عقود صريحا وضمنا ،فالصريح: عقود الأنكحة، وعقد الصداق، وعقد الحلف... وعقد الأيمان. والضمني: عقد الوصية، والوديعة، والوكالة، والعارية، والإجارة .

(1) أسرار ترتيب القرآن صـ ٩٧ .

فناسب أن يعقب بسورة مفتتحة بالأمر بالوفاء بالعقود ،فكان ذلك غاية التلاحم والتناسب والارتباط ."(1)

ولما تحدّث البيان القرآني عن التوحيد صراحة في سورة النساء،وجاء ذلك بدلالة الإفراد حينا في قوله: ﴿ وَاعْبُدُواْ اللّهَ ﴾ وبدلالة التركيب حينا آخر في قوله: ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ ؛أبان في سورة المائدة أن أخص خصائص الألوهية هي التشريع لا يشاركه فيها أحد،و ذلك مكمل للمعاني الواردة في سورة النساء لاحتوائها على التشريع كذلك،و يعد من ذكر الخاص بعد العام،فخصّ في سورة المائدة قصة عيسى – عليه السلام — وتأليهه،وكفّر القائلين بألوهيته (2) وناقش القضية مفصلّة بعد أن أجمل ذكرها في النساء.

ثم إنه لما ذكر في النساء شهادة كل رسول على أمته إجمالا(3)؛أعطى في سورة المائدة مثالا حيا لذلك في آخر السورة،من شهادة عيسى –عليه السلام – على قومه .

ومن أوجه التعلق كذلك إتمام حكم الخمر، فقد نزل تحريمه على وجه من التدرج كما هو معروف فكانت المرحلة الأولى في سورة البقرة ،و الثانية في النساء ،و الأخيرة في المائدة ،حين قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ المائدة (٩٠) وهذا الارتباط تكميل لما جاء في السور الثلاث .

(١) أسرار تريب القرآن صـ ٩٥ .

(٢) تنظر الآيات(٧٢-٧٣-٧٤-٧٥) من سورة المائدة .

(٣) تنظر الآيات (٤١-٤٢) من سورة النساء .

و لما حذر البيان القرآني في سورة النساء من اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين بأسلوب التنفير حينا(١)و أسلوب التحذير حينا آخر(٢)؛حذّر في المائدة منه كذلك ،و لكن الخطاب كان أشد لهجة منه في سورة النساء ،فقال في المائدة مرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ المائدة (٥١)،و قال أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ المائدة (٥٧)، فكان التحذير من الولاء لأهل الكتاب أو المنافقين على سبيل من التدرج من الشديد إلى ما هو أشد منه. وأتى بالتحذير من قضية الولاء في السورتين بعد فضح المنافقين وأهل الكتاب ليكون ألزم للترك ،و عدم الاتخاذ . فكان تماثلا بين المعاني من وجه،و تتميما من وجه آخر .

و جاء في سورة النساء ذكر القتال،و جاء نظيره في سورة المائدة،و لكن لما كانت سورة النساء تقصد إلى الرفق ؛جاء بيان أن الرفق يكون في القتال كذلك،فذكر جزء من أحكام القتال منوطا بالرفق . و لما كانت سورة المائدة تحرم الاعتداء من كل وجوهه؛تناولت الجزء المتبقي من أحكام القتال الذي يبين أثر هذا الاعتداء على المجتمع بأسره،فهو تناسب بين الموضوع ،و مقصده من السورة من وجه ،و تكميل للأحكام من وجه آخر .
و هذا التتميم و التكميل و الارتباط و التفضيل و الإجمال يفسر لنا قول السيوطي:"إن هاتين السورتين [النساء و المائدة] في التقديم و الاتحاد نظير البقرة و آل عمران، فتكلمتا في تقرير الأصول من الوحدانية والكتاب والنبوة،وهاتان في تقرير الفروع الحكمية ."(٣) و يفسر

---

(١) تنظر الآية(١٣٩) من سورة النساء .

(٢) تنظر الآية (١٤٤) من سورة النساء .

(٣) أسرار ترتيب القرآن صـ ٩٥ .

السيوطي ذلك التآخي بين السورتين أكثر ،فيقول :" و قد ختمت المائدة بصفة القدرة ،كما افتتحت النساء بذلك،و افتتحت النساء ببدء الخلق،و ختمت المائدة بالمنتهى من البعث والجزاء، فكأنهما سورة واحدة اشتملت على الأحكام من المبتدأ إلى المنتهى ." ([1]) و هذا نظر في تناسب فواتح سورة مع خواتم التالية لها ،والعكس مما يبين عن أن المطالع والخواتم لها أثر في الكشف عن المقاصد .

و ربط سعيد حوى سياق السورتين فقال:"إن سورة النساء تكلمت في الطريق إلى التقوى،وسورة المائدة تكلمت في الطريق إلى الفسوق ... فإذا كانت سورة النساء فصّلت فيما هو من التقوى ،فسورة المائدة تفصّل فيما ليس من التقوى لتعمق عندنا قضية التقوى، وتحققنا بها بتخليصنا من أضدادها ."([2]) و هذا تناظر بين معنيين مهمين،يسعى الثاني منهما لتعزيز الأول .

و للتشابه بين آيات السورتين أثر في بيان وشائج القربى بينهما،و من ذلك أنه قال في النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ. . . ﴾النساء (١٣٥)،و جاء في المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى. . . ﴾المائدة (٨)،فلما كانت سورة النساء قائمة على طلب العدل، و عدم الجور في التعامل بين أفراد المجتمع ؛قدّم ماحقّه التقديم من الأمر بالقوامة بالقسط ،و لما كانت سورة المائدة تقوم على ضرورة الوفاء بالعقود كلها التي تكون بين العبد و ربه،وبين العبد وغيره،و بين العبد و نفسه؛جاء تقديم القوامة لله ،و بنى الشهادة بالقسط عليها . فالأول فخّم أمر العدل بتقديمه ،و صب الاهتمام عليه ،والثاني فخم أمر العقود

(١) أسرار ترتيب القرآن ٩٥-٩٦ .

(٢) الأساس في التفسير٣/ ١٢٩٥- ١٢٩٧ .

المبرمة مع الذات العلية بتقديمه .و هذا الأمرأعم وأشمل من الأمر في سورة النساء،لأن العدل داخل في الوفاء بعقود الله وعهوده .

ويرى بعضهم أن مجيء قوله: {لله} بعد {شهداء} في النساء فلتعلّقه بالشهادة،و في المائدة منفصل ومتعلق بقوّامين،لأن الخطاب للولاة بدليل قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ﴾(١) و قال ابن الزبير عن الآيتين: " اعلم أن الآيات المتصلة بآية سورة النساء مبنية على الأمر بالعدل والقسط قال تعالى: {من يعمل سوءا يجز به ... }و قال بعد: {و يستفتونك في النساء}ثم قال: {وأن تقوموا لليتامى بالقسط }و توالت الآي بعد على هذا المعنى ،فقدّم قوله: {القسط} ليناسب ما ذكر،و أما آية المائدة فثبت قبلها الأمر بالطهارة،ثم تذكيره سبحانه بتذكر نعمه،و الوقوف مع ما عهد به إلى عباده، و الأمر بتقواه ،فناسبه قوله: {كونوا قوامين لله }ثم اتبع بما بني على ذلك من الشهادة بالقسط." (٢) و هذا نظر في سياق الآيتين مما يكشف عن تقديم و تأخير في كل حسب ما يقتضيه سياقه .

هذه العلائق بين السورتين تبين عن أن السورة في مكانها من السياق الكلي وثيقة الصلة بسابقتها و لاحقتها بعلاقات أبرزها التماثل و التكامل بين المعاني ،و التفصيل بعد الإجمال.

*　　　*　　　*

(١) ينظر درة التنزيل وغرة التأويل ١/٤١٩-٤٢٠ . و مثله في البرهان في توجيه متشابه القرآن صـ ٩٨ .

(٢) ملاك التأويل ١/ ٣٥٨ .

خامسا :

علاقة خاتمة سورة الأنفال بمطلع التي بعدها (التوبة)

وموقع سورة الأنفال بين المكي والمدني

سورة الأنفال وثيقة الصلة بسورة براءة من وجوه بيّنها ابن الزبير فقال: " اتصالها بالأنفال أوضح من أن يتكلف توجيهه... ذلك أن الأنفال قد تضمنت الأمر بالقتال ...وبيّن أحكام الغزو من الزحف ،وحكم النسبة المطلوبة فيها بالثبوت ،ولحوق التأثيم للفار،وأنها على الضعف،وحكم الأسرى، وحكم ولاية المؤمنين ،ومَنْ يدخل تحت هذه الولاية ،ومَنْ يخرج عنها ،ثم ذكر في السورة الأخرى مَنْ عهد إليه من المشركين ،والبراءة منهم إذا لم يوفوا،وحكم من استجار منهم إلى ما يتعلق بهذا ،و كله باب واحد ،وأحكام متواردة على قضية واحدة ،و هو تحرير حكم المخالف،فالتحمت السورتان أعظم التحام ثم عاد الكلام إلى حكم المنافقين وهتك أسرارهم. "(1)

وخاتمة سورة الأنفال خصوصا لها اتصال بمطلع سورة براءة- و هو المعني بالبحث- فقضية الولاء والبراء التي طُرحت بصراحة في آخر الأنفال؛جاءت افتتاحية التوبة تبيّن براءة الله ورسوله من المشركين،وتفصّل في القضية وتوضحها من كل جوانبها، وعليه يجب أن يكون المسلمون على نفس المنهاج،وعليه يتبين ولاء المؤمنين بعضهم لبعض دون غيرهم .ومع ذلك فإن هذه البراءة المنذرة لها ضوابط،و هي موسومة بالعدل، فناقشها النظم الكريم في سورة براءة في الآيات التالية للافتتاحية. و هذا يعني أن هذا المعنى قد كمل في سورة التوبة بعد أن كان قد ابتدأه هناك في الأنفال و من قبله في الأعراف. و هذا ماعناه البقاعي من قوله: " فكان ما ذكر في براءة من البراءة والتولي شرحا لآخر الأنفال ." (2)
وقال البقاعي في سورة الأنفال عند قوله تعالى :" {إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }فهو يعلم أن هذا هو الذي تدور عليه المصلحة."(3) ويستقى منه أن جملة الخاتمة في سورة الأنفال وصلة جيدة لما جاء في أول براءة ؛فلما كان الله تعالى عليما بكل شيء، يحقق مصلحة العباد؛كانت البراءة من المشركين فيها صلاح لمعاش المؤمنين و معادهم ؛ولذلك قررها وأعلن السيف حدا

(١) البرهان في ترتيب سور القرآن صـ ٢٢١ .
(٢) نظم الدرر ٣/٢٥٨ .
(٣) السابق ٣/٢٥٤ .

بين المؤمنين و الكافرين .وبذلك تكون جملة خاتمة سورة الأنفال ختما جيدا لما جاء من معاني السورة ،وفي الوقت ذاته هيّأت لنظام سورة جديدة فكان الائتلاف والاقتران بينهما.

ولما كانت السور الأربع الطوال المدنيات متتاليات ،وفصل بينها وبين سورة الأنفال بسورتين مكيتين هما: الأنعام الأعراف،وكانت كل سورة لها صلة بوجه من الوجوه بالسابقة لها؛كان ذلك أدعى للنظر في سورة الأنفال المدنية هل لها صلة بسابقتها المكية،فيكون لترتيب السور أثر في اتصال المعاني وتناسبها ورقيها ؟ أم أن القرآن على نصفين: مكي يعالج القضايا المكية،و مدني يعالج القضايا المدنية، وكل منهما يعتمد على قرينه ؟

قال ابن الزبير عن مناسبةسورة الأنفال للأعراف: " لما قص سبحانه على نبيه -عليه السلام- في سورة الأعراف أخبار الأمم وقطع المؤمنين من مجموع ذلك بأنه لا يكون الهدى إلا بسابقة السعادة؛لافتتاح السورة من ذكر الأشقياء بقصة إبليس وختمها بقصة بلعام،وكلاهما كفر على علم ولم ينفعه ما قد كان حصل عليه، ونبّه تعالى عباده على الباب الذي أتى منه على بلعام بقوله سبحانه: {ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه} (الأعراف: ١٧٦)،فأشار سبحانه إلى أن اتباع الأهواء أصل كل ضلال، نبهوا على ما فيه الحزم من ترك الأهواء جملة فقال تعالى: {يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول} "[١]، ومعنى هذا أن ما جاء في سورة الأنفال متمم لبيان أثر ترك الأهواء من الصلاح.

ومما يكون متمما لما جاء به ابن الزبير أنه لما ذكر في الأعراف اتباع الهوى الذي يزينه الشيطان،وبالمقابل ذكر التسلّح له من التقوى في نفس السورة فقال: ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ الأعراف (٢٦)،ثم قال: ﴿ فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الأعراف(٣٥) أتبع ذكر الأنفال المشير إلى التنازع في استهلال

---

(١) البرهان في ترتيب سور القرآن صـ ٢١٤-٢١٦ .

السورة بالأمر بتقوى الله والإصلاح كذلك وعلّقهما بالإيمان ،فكان تماثلا بين المعاني في السورتين .

ومن وجه آخر :أنه لما ذكر المعاني العامة في الأعراف من انقسام الناس مع رسلهم إلى فريقين: ضال اتبع هواه ومهتد اتبع نداء الرحمن ؛أبان في سورة الأنفال عن أن فتن الشيطان لا تقف عد حد ضلالة الضالين،بل إنها قد تدب بين المهتدين كذلك و كان قد مهّد لهذا المعنى في آخر سورة الأعراف حين ذكر أمر الرسول ﷺبالاستعاذة بالله حيال نزغ الشيطان له،ثم ذكر أن حال المتقين يقتضي التذكر لله وأوامره وآياته حين طوفان الشيطان عليهم بالوسوسة لتتم البصيرة ،فجاء في افتتاح سورة الأنفال مشيرا إلى حال التنازع الذي دبّ بين المؤمنين حين تقسيم الغنائم ،فأمر بالتقوى والإصلاح وطاعة الله ورسولهﷺ،وعلّق اتباع تلك الأوامر بالإيمان. فكان هذا من تتميم المعاني بين السورتين .

قال البقاعي :" لما ذكر الله تعالى قصص الأنبياء –عليهم السلام –مع أممهم في تلك ناسب أن يذكر قصة هذا النبي الكريم ﷺ مع قومه...ولما أطنب سبحانه في قصة موسى –عليه السلام –كان ذلك ربما أوهم تفضيله على الجميع فأتى بقصة المخاطب بهذا القرآن في سورتين كاملتين:الأنفال في أول أمره وأثنائه وبراءة في ختام أمره وانتهائه، وفرق بين القصتين ."(1) وهذا فيه من التماثل في المعاني بين السورتين ،وهو من وجه آخر يبين لنا نظرة البقاعي في اتصال موضوعات سورتي الأنفال والتوبة .

ثم قال البقاعي:" أما مناسبة أولها لآخر تلك فقد تبين أن آخر الأعراف قصة موسى –عليه السلام –المختتمة بقصة بلعام ،وأن ما بعد ذلك إنما هو تتمات لما تقدم لابد منها، وتتمات للتتمات ،حتى كان آخر ذلك مدح من أهّلهم لعنديته سبحانه بالإذعان وتمام الخضوع، فلما

---

(1) نظم الدرر ١٨٢/٣ .

أُضيفوا إلى تلك الحضرة العالية اقتضى ذلك سؤالا عن حال الذين عند المخاطب ﷺ فأجيب بقوله تعالى: {يسألونك}."[1]

وأوضح منه: أنه تعالى لما افتتح سورة الأعراف بذكر الأنبياء وابتدأ بآدم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى وختمهم بذكر محمد– صلى الله عليهم – وذكر مع كل نبي قصة قومه ونجاته مع آمن معه، وعذاب من كفر بالله؛ أشار إلى أصحاب محمد دون ذكر قصتهم بقوله: ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الأعراف(١٥٧)فجاء ذكرهم في سورة الأنفال مفصلا،فكان بين معاني السورتين تفصيل بعد إجمال .

ومن العلاقات بين السورتين أنه لما ذكر في نهاية سورة الأعراف تأكيد ولاية الله لرسولهﷺ،وإثبات تحققها للمؤمنين بطريق التبع؛جاء في سورة الأنفال وأثبت ولاية الله للمؤمنين،وأبان أن النصرة نوع من الولاية؛تأكيدا لتحققها،وتأسيسا لمعنى النصرة الذي يتناسب بدوره مع مقاصد سورة الأنفال ،وهذا من تماثل المعاني بين السورتين.

وإنما سيق هذا الاتصال بين السورتين وليس هو المقصود بالحديث؛ ليلمس عن كثب اتصال معاني القرآن بعضها ببعض مكيِّهِ ومدنيِّهِ ،فسورة الأنفال فصّلت معنى ذكرته الأعراف،ومطلعها أتمّ معنى آخر ذكر في ختام الأولى،وتماثل مع معنى ثالث كذلك .

ولعل معنى خطر الشيطان لم يكن ليكمل لولا معرفة تلك الصلات بين السورتين ،وذلك يعود بنا إلى قاعدة :أن السور المدنية تعتمد في فهمها على المكيّ من السور . وتلك العلاقات تضرب بسهم لتثبت أن مكان سورة الأنفال من الترتيب توقيفي ونرجّحه ولا نقطع به .

(١) نظم الدرر ٣ / ١٨٢– ١٨٣ .

ومن بيـان صـلة آخـر سـورة الأعـراف بـأول الأنفال؛أنـه لمـا ذكـر القـرآن في آخـر سـورة الأعراف،وأمر بالاستماع والإنصات له رجاء حصول الرحمة،ثم أردف بأمر الرسول ﷺ بذكر الله في كل الأحـوال،وثنى بامتـداح الملائكـة لعـدم استكبارهم عـن عبـادة الله مـع تسـبيحه والسجود له؛جاء في بداية سورة الأنفال وامتـدح المـؤمنين الـذين يَعْظُـم الله في قلـوبهم حـين ذكره،وعطف عليهم الذين تؤثر على قلوبهم تـلاوة آيـات الله فتزيـدها إيمانـا مـع إيمانهـا، فماثل بين معنيين ذكرا في خاتمة الأعراف وافتتاح الأنفال، وإن قدّم وأخّـر في ذكـر أحـدها على الآخر .وهذا من تماثل المعاني بين آخر السورة والتي تليها.

وهذا يعني اتصال السورتين بعضهما ببعض بعلائق عديدة ،فسورة الأنفال ترتبط مع الأعراف بعلاقة التماثل ،أو التكميل،أو التفصيل،وهذا يبين أصـل قـولهم أن المـدني يقـوم في معانيـه على المكي،و هذا يبين عن أن لكل سورة أثرا في موقعها من السياق الكلي للقرآن –كمـا جـاء في غير هذا الباب –وأثرا آخر في موقعها بين المكي أو المدني من السور .

*　　　*　　　*

سادسا :

علاقة خاتمة سورة التوبة بمطلع السورة التي تليها (يونس)
وموقع سورة التوبة بين المكي والمدني

سورة التوبة تتصل بمطلع سورة يونس من وجوه ،فلما ذكر النظم الكريم في انتهاء السورة استهزاء المنافقين بالقرآن بقوله: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً ﴾ التوبة (١٢٤)؛ ذكر موقف الكافرين في مطلع سورة يونس ،فقال: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ يونس (٢) ودلل على أن الخلل راجع إلى الفريقين بدلالة إعجاز القرآن بالحروف المقطعة المذكورة في أول سورة يونس،ثم بدلالة وصف الكتاب بالحكمة، حين قال: ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ يونس(١)

وأعاد البقاعي سورة يونس على الأعراف و الأنفال و التوبة ،فقال:"فكان فيما مضى أن كونه من عند الله كاف في وجوب اتباعه،وفيما هنا تأكيد الوجوب بكونه مع ذلك حكيما."([1])

وهذا تكامل في المعاني بين السور .

ولم يذكر السيوطي وجه تناسب سورة التوبة مع يونس، إنما أعاد يونس على الأعراف.([2])

ولجملة الخاتمة في سورة التوبة علاقة بمطلع سورة يونس؛فقال: ﴿ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ فلما أبان عن كفايته تعالى لعبده،وكان السياق لترهيب الكفار من التولي والإعراض ،فأقفل بما يتناسب مع الترهيب مما يبين عن عظمة المستعان به المفوّض إليه بذكر العرش ووصفه بالعظمة،لما كان ذلك ؛افتتح مطلع سورة يونس بما يحقق تلك الكفاية من وصف الكتاب بالحكمة،ومن إنكار تعجب الناس من إرسال رسول إليهم منهم يبشرهم وينذرهم ،ومن بيان ملكه وتدبيره تعالى،فقرر عظمته

---

(١) نظم الدرر ٤١٢/٣ .

(٢) ينظر أسرار ترتيب القرآن صـ١٠٧-١٠٨ .

واستدل عليها بذكر خلق السماوات والأرض والاستواء على العرش ...إلخ ،و هذا كله أصل في الكفاية .

ولما ذكر في خاتمة سورة التوبة المنة بإرسال رسول كمّله الله بصفات تقربه من المرسول إليهم؛من الحرص على من آمن به، و الرفق بهم مع الرأفة و الرحمة،مع تفويض الأمر لله فيمن لم يؤمن به حين قال: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾التوبة (١٢٩)؛لما كان ذلك رهّب من المفوض إليه الأمر في أول سورة يونس بالدلالة على عظمته تعالى بإنزال الكتاب المعجز من ناحية،و ببعث الرسول للنذارة والبشارة من ناحية أخرى،وبخلق أعظم الكائنات مع تسخيرها، وتدبير الأمور من ناحية ثالثة، فكان كالتحضيض على عدم التولي ،و الانضمام إلى فريق المؤمنين .
قال ابن الزبير عن هذا الموضع ما حاصله :أنه لما تضمنت سورة براءة ما شهد للرسول ﷺ من اختصاصه بمزايا السبق و القرب و الاختصاص و الملاطفة،مع ما انطوت عليه الأنفال من قهر أعدائه،وتأييده ونصره عليهم ؛كان كل ذلك مظنة لعجب المرتاب فقال في يونس: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ ﴾(١)،وهذا كله يبين عن أن آية الختام تهيئ للسورة بعدها،وتمهد للتآلف و التعارف بين السورتين .

وسورة التوبة تتصل بما قبلها من وجوه عديدة؛منها: أن الأنفال تعطي صورة عن الإسلام في بداية نشأته و نهوضه،و بداية مشروعية الجهاد،و بيان الحكمة منه مع التحضيض عليه،مع وجود الجماعة المسلمة القليلة . والثانية تعطي تصورا للإسلام بعد شدته وقوته،وتجعل النفير واجبا لا يتكاسل عنه إلا منافق،مع وجود طوائف شتى من المسلمين

---

(١) ينظر البرهان في ترتيب سور القرآن ١/ ٢٢١-٢٢٢ .

ولمنافقين، فكأنهما بتجاورهما و تآخيهما تعطيان موازنة و مقارنة بين حالي الإسلام في منشئه وبعد نهوضه .

ومنها :" أنه سبحانه في الأنفال تولى قسمة الغنائم ،وجعل خمسها خمسة أخماس، وفي براءة تولى قسمة الصدقات، وجعلها ثمانية أصناف."([1]) وهذا من التتميم للمعاني بين لسورتين .

والمتشابه بين آيات السورتين يثبت صلة وثيقة أيضا فقال تعالى في الأنفال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم... ﴾ الأنفال (٧٢) وقال في براءة: ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ التوبة(٢٠) قال الإسكافي ما حاصله: أن آية الأنفال جاءت عقيب ما أنكره تعالى على من قال: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ الأنفال (٦٧) ثم قال تعالى بعد ذلك: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً ﴾ الأنفال (٦٩) فعقب ذلك بهذه الآية التي مدح فيها من أنفق أمواله في سبيل الله لا من جاهد طلبا للنفع ،فكان تقديم قوله: ﴿ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ صرفا لهم عما حرصوا عليه من فائدة الفداء .أما في براءة فقد قدّم ذكر ما يوجب تقديم الجهاد في سبيل الله حيث ذكر سقاية الحاج وعمارة المسجد، فكان المندوب إليه في هذه الآية بعد الإيمان بالله الجهاد

(١) أسرار ترتيب القرآن صـ١٠٧ .

في سبيل الله فقال مادحا لمن تلقى بالطاعة أمره: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ (١) .

والتناسب السياقي يكشف كثيرا من المعاني ويتممه تناسب المقاصد مع الآيات، فلما كانت سورة الأنفال تقعّد لفضيلة الجهاد، مع الزهد في المغانم الدنيوية، والتعلق بالمغانم الآخروية؛ قدّم الجهاد في سبيل الله بالأموال على الأنفس. و لما كانت سورة التوبة تؤصل لمحبة الجهاد، وتحضض على سرعة النفير والاستجابة لداعي الرحمن مع قطع الصلات بالكفار حتى لو كانوا أقارب ؛كان ذلك فيه من مجاهدة النفس وترويضها ،فكان تقديم الجهاد بالأنفس في سورة التوبة أولى .

وهذا يبين في جانبه العام عن أن الأنفال و التوبة سورتان لا سورة واحدة وإن اتفقتا في محور الموضوع، والعلاقات بين السورتين تبين عن تكميل السورة المدنية لما جاء في قرينتها المدنية، أو تأكيد ماورد في معاني إحداها .وتشكل جملة الختام أهمية عظمى فهي همزة وصل بين السورتين تهيئ للتعارف والتآلف، فلا يكون بينهما تناكر أو تنافر .

* * *

(١) ينظر درة التنزيل وغرة التأويل ٢/٦٩٦-٦٩٧-٦٩٨ . ومثله في البرهان في متشابه القرآن صـ ١٣٢-١٣٣ .و في ملاك التاويل ١/٥٨١-٥٨٢ .

الباب الرابع : دلالات التراكيب في خواتيم الطوال المدنية

تتراص الألفاظ لتدل على دلالات تختلف في تأثيرها من تركيب لتركيب،وقد يختلف تراصها في نفسها فتكون لنا معنى جديدا ألبتة .

والجملة في القرآن الكريم قد تكون آية،أو نصف آية،أو ربع آية ،تتماسك تلك الجمل فيما بينها لتكوّن نصا متماسكا متآلفا دالا على دلالات و معان أعلى قيمة من دلالة الجملة في سياقها .

وأصل الدلالة وارد في القرآن الكريم بصيغة (دلّ) و باشتقاقات مختلفة في مواضع(1) من سوره؛تشير هذه المواضع إلى معان متقاربة من الإعلام و الإرشاد و الإشارة ،وكلها معان لا تخرج عما توصل إليه العلم الحديث في مجال الدلالة .(2) "وعلماء الفقه والأصوليون من أوائل من احتضنوا الدراسات التي تدور حول الألفاظ و معانيها."(3)و من أهمهم الإمام الشافعي في كتابه الرسالة. (4)

والدلالة في المعاجم اللغوية(5)هي:إبانة و تعريف و إيضاح تحصل بإمارة أو إشارة،و هي لا تبعد عن معاني الدلالة في القرآن الكريم.

---

(1) مثل قوله : ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ ﴾ طه(40)و قوله : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ . . . ﴾ طه(120)و قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴾ الفرقان(45) .

(2) هو ما اصطلح العلماء المحدثون على تسميته بـ (السيمياء) يرجع لعلم الدلالة .أحمد مختار عمر .ط1 .1402 هـ . مكتبة دار العروبة للنشر و التوزيع. و مثله في علم الدلالة تأصيلا و دراسة و تطبيقا .عثمان محمد أحمد الحاوي .بدون طبعة .مكتبة المتنبي .المملكة العربية السعودية – الدمام .و مثله في علم الدلالة دراسة نظرية و تطبيقية .فريد عوض حيدر.ط1 .1426–2005 م مكتبة الآداب – القاهرة .

(3) ينظر الدلالة اللغوية عند العرب .عبد الكريم مجاهد صـ9 .بدون ط.1985دار الضياء .

(4) الرسالة.الشافعي .تحقيق: أحمد محمد شاكر .ط2 .1399هـ .دار التراث – القاهرة .

(5) ينظر مقاييس اللغة مادة (دلّ) . وينظر المفردات مادة (دلل)) وينظر عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ "معجم لغوي لألفاظ القرآن الكريم"أحمد بن يوسف بن عبد الدائم.تحقيق: محمد باسل عيون السود .ط1. 1417هـ–1996م.دار الكتب العلمية –بيروت/لبنان .

ويعد الجاحظ ت(٢٥٥) من أهم المتكلمين من علماء البلاغة في علم الدلالة، وبوضعه للدلالات الخمس ([1]) ولتقديم دلالة اللفظ على الدلالات الباقية مزيد اهتمام بها ؛لأنها أعلى الدلالات وأظهرها و أبلغها .ولعله من أوائل من تكلم عن أثر الدلالة الواضحة على ظهور المعنى، ووسمه بالبيان، فوضوح الدلالة عنده يعني وصول المعنى إلى القلب مع وصول اللفظ إلى السمع مباشرة، فلا يسبق أحدهما الآخر ،ويعد أول رافد من الروافد الأربعة لإظهار المعنى، ويلزم لوضوح الدلالة الرافد الثاني وهو صواب الإشارة ،فمتى كان الدال صائبا لا يحتمل تأويلا مغايرا للمقصود كان المدلول أوضح وأجلى .ثم إن إحكام العبارة و إيجازها لازم للدلالة كذلك، ومعرفة طريق جيد يُدخل به إلى المعنى ذلك هو الرابع. وكلما كان المعنى خفيا، والدلالة تطلبه من خبئه فتظهره وتوضحه؛كان الكلام موسوما بالبيان .

وعبد القاهر الجرجاني ت(٤٧١) من أبرز العلماء المؤثرين في البلاغة العربية، أسهم في إرساء الدلالة بتفصيله لقضية النظم المنبثقة عنها؛بما لم يجعل لأحد بعده أثرا بالغا، فما زالت قضية النظم بأطرها التي بيّنها في كتابه (دلائل الإعجاز) ؛محل اهتمام يبين عن قيمتها ([2])، فحسن الدلالة عنده يتحقق بأمرين ،الأول: وضوح الدلالة ،أي ترتيب الكلام على أقدار المعاني ،كما كان عند الجاحظ . والثاني :تمامها ؛أي وفاء المعنى و استفراغه بحيث لا يمكن الزيادة عليه.

ثم إن إحكام العبارة و قوتها بحيث لا يمكن أن تحتمل دلالة أخرى فيدخل الوهن عليها؛يتمم الأمرين الأولين ويشد عليهما .فيختار للعبارة صورة تقوم في نعوتها على فاعليتها في المعنى الذي يقتضي فاعلية في المتلقي كذلك .

فحسن الدلالة الذي ذكره عبد القاهر يفوق وضوحها المذكور عند الجاحظ . فتجاوز عبد القاهر المفاهيم الأولية للدلالة ليضع أسسها و يرسم تصوّرا مازالت معانيه تتغازر إلى يومنا هذا .

---

(١) البيان و التبيين ١/٧٧ .

(٢) دلائل الأعجاز صـ ٤٣ .

والملحوظ فيما ذكره عبد القاهر هو التصاعد في صفات الدلالة؛لأن صفة التبرج في المعنى لا تتحقق في كل كلام ،و لا تتحقق في كلام البليغ كله ،غير كلام الله تعالى ؛لذلك كان ذروة في صفات حسن الدلالة و وضوحها .

والدلالة لا تُنتج إلا بالدال و المدلول،فهي الوسيط بينهما. و لعل أوضح ما قيل عن الدلالة في عصرنا الحديث بعيدا عن الفلسفة هو أنها : "عمل المتكلم في المعنى ليخرج لنا الكلام المراد إخراجه شعرا أو نثرا أو كلاما ...يعني القدرة المبينة التي غرسها الله في كل ولد آدم ،و التي بها يبينون عما في ضمائرهم ، وعملها هو الربط المتقن المحكم بين اللغة والمعاني التي في الصدور ." (1)

و لما كان لفظ التركيب واردا في القرآن الكريم،و دلالته لا تخرج عن دلالة المعاجم اللغوية(2)؛كان التركيب يحمل معنى علو المعاني وتكاثرها و تغازرها دون الألفاظ المفردة .

فالتركيب يكوّن لنا معنى لا تقوم به اللفظة المفردة بمفردها،لأن اللفظة المفردة لا تحقق فائدة التركيب،فدلالات التراكيب تفضل دلالات الألفاظ في أن الأولى تعطي فوائد لا تعطيها الثانية،لأن دلالة الألفاظ لا تتعدى دلالتها على معناها الذي وضعت له لا غير؛يدل على ذلك قول عبد القاهر:"والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف،ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب و الترتيب ."(3) وهو بهذا القول يتعدى مرحلة التركيب الذي مناطه الإسناد إلى تركيب الجمل بعضها فوق بعض وترتيبها وتأليفها حتى تكون نصا متماسك النسج متلاحم الأجزاء،وتلك مراتب عالية من الفوائد لا تحصّل من الألفاظ مفردة .

والقصد هو سبب وجود التركيب،فلا تتكون الجمل أو مجموع الجمل إلا ويكون هناك قصد من تكوينها، فالعلاقة بين القصد والتركيب علاقة السبب بالمسبب .

---

(1) مراجعات في أصول الدرس البلاغي. محمد محمد أبو موسى صـ ٤٣- ٤٤ .الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.مكتبة وهبة ١٤شارع الجمهورية/عابدين .

(2)في قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ﴾الانشقاق (١٩) يعني:" حالا بعد حال "(جامع البيان ١٢٢/٣٠).

(3) أسرار البلاغة صـ ٥ .

وعليه قول ابن سنان ت(٤٦٦) : " المواضعة تجري مجرى شحذ السكين و تقويم الآلات ، والقصد يجري مجرى استعمال الآلات بحسب ذلك الإعداد ."(١) فالقصد كذلك من خصائص التركيب التي قال عنها عبدالقاهر : " ليت شعري كيف يتصور وقوع قصد منك إلى معنى كلمة من دون أن تريد تعليقها بمعنى كلمة أخرى ؟!"(٢)

وتأتي التراكيب على أصلها الموضوعة له ،وتخرج حينا عن سياقاتها إلى سياق آخر، تختلف حينها المعاني باختلاف المساقات التي سارت فيها ،و قد يتصرف في العبارة فيتغير المعنى ،أو يتزايد و يتغازر .

وتركّب التركيب بعضه فوق بعض يعني ترتب المعاني كذلك و تراكب بعضها فوق بعض، وكلما علا التركيب علت الدلالة تبعا له .و لذلك تعتبر دراسة دلالات التراكيب جزء من دراسة معنى النص أو دراسة السياق الذي أصبح علما قائما بذاته ،(٣) يقوم على أساس ارتباط الكلام أو له بآخره ،وا ئتلاف بعضه ببعض حتى تكون الجمل في النص كالكلمات في الجملة، و تكون الكلمات في الجملة كالحروف في الكلمة الواحدة من التناسب والتوافق والتناسل و التلاؤم .

---

(١) سر الفصاحة صـ٣٣ .

(٢) دلائل الإعجاز صـ٣١٥ .

(٣) ينظر مفهوم النص.دراسة في علوم القرآن .نصر حامد أبو زيد .ط٦ ٢٠٠٥ المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء /المغرب . و ينظر المعنى في البلاغة العربية . حسن طبل .بدون ط.١٩٩٨ دار الفكر العربي – القاهرة .و ينظر دلالة السياق . ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي .ط١. ١٤٢٣ هـ جامعة أم القرى – مكة المكرمة .و ينظر منهج السياق في فهم النص .عبد الرحمن بودرع .ط١. ١٤٢٧هـ.و زارة الأوقاف و الشئون الإسلامية – قطر . و ينظر الخطاب القرآني .دراسة في العلاقة بين النص و السياق .خلود العموش .ط١ .١٤٢٦هـ عالم الكتب الحديث /أربد– الأردن .

أولا /

دراسة دلالات التراكيب في خاتمة سورة البقرة

خاتمة سورة البقرة:

قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ* لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ البقرة (٢٨٥-٢٨٦).

بيان دلالات التراكيب :

لما اُفتتحت سورة البقرة بما يبين عن تنزيه الكتاب عن الريب ،مع بيان حسن الأثر لفئة مخصوصة نعتت بالتقوى في قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ البقرة (٢)ثم بيّن صفات هؤلاء المتقين؛ خُتم بما يدل على تحقق أركان الإيمان المذكورة في أول السورة في فئة معينة ،مع كمال تقواهم،فقال: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ... ﴾ فقدّم بذكر فعل الإيمان في زمنه الماضي الدال على كمال التحقق ،و بدأ بذكر فاعله الأول -الرسول ﷺ- ابتداء شرف وكرامة،وفيه من الإشادة والتعظيم مايُشعر بكمال المدح والثناء والاختصاص ويساعد على بيان ذلك ؛تعريفه ﷺ بنعت الرسالة و بـ(أل)،أي الرسول الكامل في الرسالة. و لعل الإتيان بفعل الإنزال بمالم يسم فاعله حتى لا ينصرف الذهن إلى الوحي(جبريل — عليه السلام-) الذي ينزل بالقرآن .

ومجيء {إلى} دون {على} في هذا التعبير المبارك ؛ لأن حرف الجر (إلى) لايختص بجهة واحدة كما يختص حرف (على)([1]) فكأنه أراد بهذا التعبير شمول إيمانه ﷺ بكل ما جاء عن ربه ، و هذا يتطابق مع سياق الآية من الإشادة بإيمانهﷺ ثم إيمان المومنين بعده .

وذكر متعلق الفعل –الجار والمجرور– قبل العطف بالمعطوف الدال على الاشتراك في فعل الإيمان ، مع تكرر ذكر الفعل مرة أخرى في قوله : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ ﴾ يدل على تحقق حصول الفعل في المعطوف و المعطوف عليه .

و(الواو)في قوله : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ . . . وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ قدتكون عاطفة ، و ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ معطوف على ﴿ الرَّسُولُ ﴾ مرفوع مثله ، و يقصد من خلال واو العطف هذه إشراك الجملة الثانية مع الجملة الأولى في حصول الإيمان. و قد تكون الواو استئنافية ، و ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ مبتدأ أول و ﴿ كُلٌّ ﴾ مبتدأ ثان ، وجملة ﴿ آمَنَ ﴾ خبره ، والجملة الاسمية خبر المبتدأ الأول ، فتكون جملة : ﴿ كُلٌّ آمَنَ ﴾ مستأنفة ، و المحذوف المعوّض عنه بالتنوين تقديره : كل واحد منهم([2]) و للمعنيين السابقين جاز أن تحمل(الواو)على العطف و الاستئناف .

(١) لأن " (على) موضوعة لكون الشيء فوق الشيء ، و مجيئه من علوّ ، فهي مختصة من الجهات الست بجهة واحدة. و (إلى)للمنتهى من الجهات الست كلها " (درة التنزيل و غرة التأويل .الخطيب الإسكافي ١/٢٩٩).
و " كل موضع قيل فيه : {أنزلنا إليك} فقد شدّد فيه التكليف عليه ، ونزله منزلة أمته فيما يجب على عالِمهم تبيينه لمتعلمهم" (من أسرار التعبير في القرآن .حروف القرآن .عبد الفتاح لاشين صـ١٠٥ .بدون ط.بدون ت.مكتبات عكاظ للنشر و التوزيع).
(٢) ينظر الكشاف ٥١٩/١ .و مثله في إعراب القرآن وبيانه ١/ ٤٤٨ .

والعطف بين المفردات في قول الله: ﴿ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ يدل على الإيمان بكل المتعاطفات، والعلاقة بين المتعاطفات علاقة اللازمية؛ إذ يلزم من الإيمان بالله الإيمان بملائكته والإيمان بكتبه والإيمان برسله، ولعل قراءة هذه المفردات بإشباع الحركات فيها من ضم وكسر تامّين كاملين تؤدي وظيفة في التنبيه على معنى كل منها. ثم إن القراءة الواردة عن ابن عباس وحمزة والكسائي بإفراد لفظ: {الكتاب} فقالوا: {وكتابه} ([1]) بدل قوله: ﴿ وَكُتُبِهِ ﴾ إن هذه القراءة تساير المعاني الواردة في أول السورة في قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ لأن الكتاب قد يُقصد به القرآن الكريم إذا كانت (أل) التعريف للعهد الذهني، و يقصد به كل كتاب إن كانت لاستغراق الجنس. ([2]) ولعل قراءة الإفراد تشير إلى أن القصد من قوله: {كتابه} القرآن الكريم " لأن أهل الأديان المتقدمة قد اعترف بعضهم لبعض بكتبهم وآمنوا بها إلا القرآن فإنهم أنكروه." ([3]) و لعل قراءة الجمع تشير إلى المشاكلة اللفظية و المعنوية مع جاراتها من الكلمات.

ولما كان من مقاصد سورة البقرة محاجة أهل الكتاب في إثبات أن محمدا ﷺ هو الرسول المنتظر المحكي عندهم في التوراة، و يجب الإيمان به كباقي الرسل، ورد تكذيبهم به ﷺ؛ جاء إلحاق نفي التفريق بين الرسل فقال: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ تأكيدا على ضرورة حصول الإيمان بجميع الرسل، وعزز هذا المعنى ترك العطف بين الجملتين لكمال الاتصال؛ لأنه نزّل الجملة الثانية منزلة المؤكد من متبوعه. ومعنى الآية: " لا يفرق أحد من

---

(١) النشر في القراءات العشر. للحافظ أبي الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري. أشرف على تصحيحه ومراجعته: علي محمد الضباع ٢٧٠/٢ بدون ط. بدون ت. دار الكتب العلمية-بيروت/لبنان.

(٢) مسألة كثرة (الجنس) على (الجمع) محل خلاف بين العلماء، غير أن أقرب الأقوال إلى الصواب-والله أعلم-أن الجمع المضاف والمفرد المضاف قد يؤديان الدور نفسه للاستغراق.

(٣) الحجة في القراءات السبع. ابن خالويه ١٠٥/١.

رسله وبين غيره في النبوة ." ([1]) وهذا التفسير يبيّن و يعزّز معنى قراءة يعقوب([2]) {لايفرق} بالياء دون النون .

فأُثبت مدح المؤمنين بتفصيل أسبابه،حيث عُدّت أفعالهم القلبية؛ فحصل منهم الاعتقاد الجازم بالله و ملائكته و كتبه و رسله؛ترتيبا و ترتبا. و في العبارة إيجاز قصر؛ لتضمنها: ولا نفرق بين الملائكة الذين نزلوا بالوحي على هؤلاء الرسل؛حيث قال اليهود ما قالوا على جبريل –عليه السلام– ولا بين الكتب التي جاء بها هؤلاء المرسلون،حيث ارتاب اليهود في القرآن الكريم .

وقوله: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ فيه من إشارة الانتباه مع قوة العبارة في معناها ومبناها؛ فلأول وهلة نلمس التعريض باليهود والنصارى في تفريقهم بين الرسل،و عدم تصديقهم بمحمد ﷺ ،وطعنهم فيه مما ذُكر على صعيد السورة كلها. كما أفاد الفعل المضارع حصول استمرار نفي التفريق بين الرسل في الإيمان،و هذه منقبة،و العدول عن الغيبة إلى الخطاب؛تصريف للعبارة مفاده التأكيد على معنى عدم تفريق المؤمنين بين أحد من الرسل ،وكأنهم يلهجون بهذا القول على قلب رجل واحد .وأفاد مجيء لفظ :(أحد) زيادة معنى تأكيد نفي التفريق بين آحاد الرسل ،وهذه مبالغة في نفي تفريقهم بين الرسل،ولعل حذف (الواو) مع معطوفها:(و أحد) لدلالة المعطوف عليه؛لأن " التفريق لا يكون إلا بين اثنين فصاعدا."([3])– لعله يسهم في قوة العبارة و إحكامها .

ولما كان هذا المعنى قد أُسس له في ثنايا السورة ،فورد تفصيلا حين قال: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى

---

(١) تفسير البحر المحيط ٣٨٠/٢.

(٢) النشر في القراءات العشر ٢٧٠/٢.

(٣) تأويل مشكل القرآن صـ٢٨٤ .

وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ البقرة (١٣٦)؛كان وروده هنا مؤكدا على أهميته فاكتفى بالإجمال عن التفصيل ،وكان من رد الأعجاز على صدورها تنبيها؛إلى قيمة معنى الإيمان بجميع الرسل على السواء من مقصود السورة .

واستأنف البيان القرآني فقال: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ فكنى عن صفة حصول الرضا والقبول والامتثال،وقُدمت الكناية مع برهانها ،وهو السمع لما يُقال من الأوامر والنواهي وتنفيذها ،أي الطاعة. (١) وهذا هو التطبيق الفعلي للإيمان،ويساعد على بلوغ الكناية معناها الوصل بين جملتي: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ للاشتراك في الحكم الإعرابي . وحذف مفعولي الفعلين " أولى؛لأنك إذا جعلت التقدير: سمعنا وأطعنا أمره،فإذن ههنا قول آخر غير قوله ،وأمر آخر يطاع سوى أمره ،فإذا لم يقدّر فيه ذلك المفعول أفاد أنه ليس في الوجود قول يجب سمعه إلا قوله ،و ليس في الوجود أمر يُقال في مقابلته أطعنا إلا أمره."(٢)و على هذا المعنى يقصد التركيب في معانيه الثانية إلى تمجيد الله تعالى وتعظيمه،فالقصد في حذف المفعول – لا محالة – إلى إثبات المعنى في نفسه للفاعل على الإطلاق ،أي من غير اعتبار عمومه و خصوصه ،ولا تعلقه بمن وقع عليه "فلا يذكر له مفعول لئلا يتوهم السامع أن الغرض الإخبار به باعتبار تعلقه بالمفعول و لا يقدر أيضا لأن المقدر في حكم المذكور."(٣)

وفيه تعريض بالمنافقين الذين إذا لقوا المؤمنين قالوا :آمنا ،وأفعالهم تكذّب أقوالهم، وفيه أيضا عود إلى التعريض – السالف الذكر– ببني إسرائيل الذين قالوا :سمعنا وعصينا .

---

(١) يجوز أن تكون "كناية عن الإدراك و الفهم ؛لأن السمع بلا إدراك كلا سمع " (البلاغة القرآنية في آيات صفات المؤمنين .هند جميل نايتة ٢٨٩/١ ط١. ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨ م داركنوز إشبيلية – الرياض).

(٢) التفسير الكبير .المجلد الرابع ٧/ ١١٨-١١٩ .

(٣) بغية الإيضاح . صـ١٦٥ .

فدلالة تركيب الكلام الإخبار عن تحقق إيمان النبي ﷺ والمؤمنين معه .وحسن هذا الإيمان لحصول الامتثال بالقول والعمل . ولعله أفرد حين الحديث عن معتقد المؤمنين ،وجمع في وصفهم بالسمع والطاعة؛لأن كمال المعتقد أن يوسم كل فرد به منفردا،وكمال الامتثال أن يجتمعوا عليه و يتضافروا. وفيه معنى آخر كذلك فالأول خفي،والثاني دليل عليه،فكأنه بجمع الثاني أشار إلى توافر الإيمان في المؤمنين منفردين بدلالة التعبير الأول ،و مجتمعين بدلالة عود الثاني على الأول — والله أعلم بأسرار كتابه –

والعبارة بأكملها تدل في معانيها الكلية على تكريم شأن المؤمنين،وشأن أقوالهم التي تطابقت مع أفعالهم دون نفاق،و ذلك معناه حصول التقوى التي نُبّه عليها في مطلع السورة،و يتبعه – بلا شك – حصول الفلاح الذي خُتم به الحديث عن الطائفة الأولى في مطلع السورة كذلك.

ولما عطف البيان القرآني الطاعة على السمع ،ترك العطف بعد ذلك بذكر دعائهم وهو طلب المغفرة،فقال: ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ﴾ للاستئناف البياني(١)على تقدير سؤال:و لماذا كان امتثالهم و انقيادهم ؟فيكون الجواب: طلبا للمغفرة على الدوام ،وذلك مستقى من مجيء المصدر {غفرانك} دون فعله .وفي تقديم بيان السمع و الطاعة على طلب المغفرة تقديم للوسيلة على الغرض .وتوجيه النداء إليه تعالى بلفظ (ربنا) ،و إضافة ضميرهم إليه سبحانه يتوافق مع مقام التذلل والتحبب إلى مولاهم ،وامتداد الصوت بالمدّ في قوله: ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ﴾ يسهم في بيان مدى الرغبة في مغفرة الذنوب على الدوام،ويضفي نغما هادئا ،وجوّا رائقا من الهدوء والطمأنينة ،وذلك كلّه من شأنه أن يتناسب مع مقام الدعاء و التضرع .

ولما كان من أهم مقاصد سورة البقرة الإيمان بالبعث والنشور ،وكان قد تقدّم بيان تحقق إيمان المؤمنين بالله و ملائكته و كتبه و رسله؛أردف بما يبين عن إقرارهم باختصاص الله

---

(١) هو من كمال الانقطاع من حيث النسبة لاختلاف الجملتين خبرا و إنشاء معنى لا لفظا .

ببعثهم ونشورهم، فاستأنف وقال: ﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ فبتقديم الجار والمجرور ﴿ إِلَيْكَ ﴾ قُصرت صفة النشور على الله تعالى قصرا حقيقيا تحقيقيا .ومدلول هذا التركيب المذكور يرمي في معانيه الثانية إلى الثناء على الله بقدرته على البعث و النشور .

ولما كان سير المعاني في سورة البقرة يسعى إلى تحقيق الإيمان بما أُنزل من الرب في كل زمان، وتصديق كل ما جاء عن الرسل دون تفريق ،وحآج الكفار في ذلك كثيرا ،ثم كان إثبات قدرة الله على البعث والنشور يأتي بطريق التتبع لهذه المعاني –لما كان كل ذلك؛ روعي في الختام هذا الترتيب كذلك ،فأثبت تحقق إيمان المؤمنين بكل ما جاء من الرب و عنه ،ثم جاء إثبات إيمانهم بالبعث و النشور تاليا، وهذا من التناسب في طرق المعاني بين ثنايا السورة و خاتمتها .

ولما كان ذاك حال المؤمنين من ثبات الاعتقاد و ترجمته بالطاعة ،مع لزوم الاستغفار اتقاء العذاب؛ بيّن لهم الله تعالى عدله و إنصافه، فكان مسك الختام في الختام فقال: ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾، فأول جملة في هذه الآية: ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ قاعدة إسلامية فلا تُؤاخذ نفس إلا بعملها من خير أو شر، فنفى تعالى عن نفسه تكليف الأنفس بما لا تطيق في الحال والاستقبال، و تلك دلالة الفعل المضارع: ﴿ يُكَلِّفُ ﴾. ولما كان التكليف و التشريع من الأمور العظيمة ؛جاء التعبير بلفظ الجلالة: ﴿ اللّهُ ﴾ الدال على العظمة أنسب من لفظ غيره في هذا المقام ،مع أنه يقتضي

الرحمة المستقاة من مجيء التعبير بـ(نفس– وسع) و ذلك حتى يجمع معنيي الجلال مع الرحمة في آن معا. وجاء المعنى مقتضيا التحقق و التأكيد ؛لوروده بأسلوب النفي و الإثبات الذي يفيد قصر تكليف النفس على الوسع قصرا حقيقيا تحقيقيا . وأبان أن الله هو الأعلم بما يتناسب مع مقدور البشر ،" فلا يتعبدها إلا بما يسعها ،فلا يضيق عليها ولا يجهدها."(١) ومن هنا حسن المجيء بالوسع بدل الطاقة ؛ لأن الوسع ما يكون في مقدور البشر و يسهل عليهم،و هو دون الطاقة ،فالطاقة تسع أكثر ،(٢) ولكن التشريع لا ينفذ تلك الطاقة،وتنكير لفظ :﴿ نَفْسًا ﴾ يسهم في عموم عدم تكليف العباد إلا بما في وسعهم .

فمدلول التركيب هذا يشير في معانيه البعيدة إلى أن من صفات الجليل القادر:الرحمة بالضعيف،و إلا لن يكون العظيم عظيما،لذلك كثر الإقفال بما يدل على كمال القدرة والعظمة لله تعالى، وبما يدل على كمال الرحمة في فواصل سورة البقرة .

ولما كان معنى عدم التكليف إلا بما يطاق واسعا ،و يشمل معاني كثيرة؛ فصل بين هذه الجملة والتي تليها فقال: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ لكمال اتصالها بها؛لأنه نزّل هذه الجملة منزلة عطف البيان من متبوعه في البيان و الإفهام ،فمحاسبة كل نفس بما كسبت و اكتسبت هو أصل التكليف،ومما يدعو إلى هذا الإيضاح ؛أنه لما جاء في ثنايا السورة أن اليهود كانوا يعلّقون أعمالهم على العمل الصالح لإبراهيم– عليه السلام– وكان معنى محاسبة كل نفس بما عملت ركيزة في الدين ؛نصّ عليه لفتا لمعناه ،و ترسيخا له،وساعد على بلوغ هذا المعنى تقديم الجار والمجرور ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ لإفادتهما معنى القصر ،قصرا حقيقيا تحقيقيا ،فكل نفس لا تحاسب إلا بعملها فقط . وأسهم في ترسيخه الطباق بين الجارين (لها – عليها)مع مجيء الكسب مع

---

(١) جامع البيان ٣/ ١٥٤ .

(٢)" أصل الطوق ما يجعل في العنق...و الطاقة اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة" و "الوسع من القدرة مايفضل عن قدر المكلّف " (المفردات. مادة(طوق – وسع).

(اللام)، والاكتساب مع (على) . وتخصيص الخير بالكسب و الشر بالاكتساب"لأن الاكتساب اعتمال، فلما كان الشر مما تشتهيه الأنفس ،وهي منجذبة إليه وأمّارة بـه؛كانت في تحصيله أعمل و أجد، فجعلت لذلك مكتسبة فيه. ولما لم تكن كـذلك في بـاب الخـير وصـفت بمـالا دلالة فيه من الاعتمال."(١) ويسـهم العطف بـين الجملـتين: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ في بيـان الفـارق بـين الكسـب و الاكتسـاب، والعلاقة بـين المتعـاطفين علاقـة تغاير، وأدى الجرس الصوتي في الجنـاس بـين لفظـي: ﴿ كَسَبَتْ // اكْتَسَبَتْ ﴾ مـع حسن التقسيم في الجملتين إلى التنبيه على هذا المعنى و إبرازه .

ولما كان هذا المعنى قد سبق وروده في ثنايا السورة؛(٢)كان ذكره في ختـام السـورة من باب رد الأعجاز على صدورها .

ولما قعّد البيان القرآني قاعدة الحساب؛ علّمهم ما يعينهم عليه من الدعاء، فترك العطف للاستئناف البياني؛ لأن التكليف سبب في الدعاء بعدم المؤاخذة (٣)فقال: ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ فصدرت الجمل الثلاث بقوله: ﴿ رَبَّنَا ﴾ مع حذف الياء لبيان القرب في المناجاة ،"ولم

---

(١) الكشاف ١/٥٢٠ .

(٢) حين قال : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ . . . ﴾ البقرة (١٤١-١٣٤) و حين قال: ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ البقرة (٢٨١) و حين قال: ﴿ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ البقرة (٢٣٣) .

(٣) هو من كمال الانقطاع من حيث النسبة لاختلاف الجملتين خبرا وإنشاء .

يجر الله سبحانه و تعالى على ألسنة المؤمنين في كتابه العزيز نداء بعد قط ."(١) وابتدأها بطلب عدم المؤاخذة على الذنوب ،ولم يطلق طلب عدم المؤاخذة ؛حتى يكون أدعى للحرص والعمل الصالح ،وحتى لا يظن بهم التفريط والتضييع،فقيده بشرط النسيان أو الخطأ فقط،وذكر الخطأ و النسيان مجاز مرسل علاقته السببية،إذ المراد ما هما مسببان عنهما من التفريط .ولعله قدّم النسيان على الخطأ لوقوعه أكثر. وورد فعل المؤاخذة بصيغة المضارع حتى يكون ذلك على سبيل التجدد والاستمرار،و يعززه مجيء (إنْ) الدالة على الشك في حصول الفعل(٢) بدلا من (إذا) أي إن وقع منا خطأ أو نسيان فلا تؤاخذنا،وحذف جواب الشرط لتقدم معناه.ويؤخذ منهما بيان الحاجة المستمرة لعدم المؤاخذة،وهو دعاء يرجى تحققه بالتضرع ؛و ليس على سبيل التأكيد الجازم .

وعطف دعاء آخر سيق بطريق التشبيه ،فشبه حمل الإصر على الأمة المحمدية؛ بحملها على الأمم السابقة على سبيل التشبيه المرسل،والجامع (العنت و المشقة)،وأسهم في بلوغ هذا التشبيه مقصده بناؤه على الاستعارة .فاستعير الحِمْل للتكليف؛لأن التكليف يثقل على نفس الإنسان كما الحِمْل يثقل على كاهله،فشبه حبس الإنسان نفسه بالتكاليف الشرعية في الدنيا بتحميله ثقلا على كاهله طوال حياته ،على سبيل الاستعارة التصريحية ،والجامع (المشقةو الثقل) ويرشح للاستعارة قوله:(إصرا) ؛لأن أصل الإصر:عقد الشيء وحبسه بقهره(٣) وجاءت الاستعارة ؛تصويرا لحال التكليف مع النفس البشرية؛من الحبس والمنع والثقل،وبيانا لأثر التكاليف على البشرية . ومعنى الآية :"و لا تحمل علينا عهدا فنعجز عن القيام به ولا نستطيعه."(٤) وفيه رجوع بالتأكيد على معنى قوله تعالى في بداية

---

(١) قاله الحرالي في نظم الدرر ١/٥٥٥ .

(٢) وذلك لأن" (إن) إنما مخرجها الظن و التوقع فيما يخبر به المخبر"(المقتضب لأبي العباس المبرد.تحقيق :محمد عبد الخالق عضيمة ٢/ ٥٦ عالم الكتب – بيروت .)

(٣) المفردات .مادة(أصر) .

(٤) جامع البيان ٣/ ١٥٦ .

الآية: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ،ولكنه لما كان من مقاصد سورة البقرة بيان تميّز الأمة المحمدية على كل الأمم ؛جاء تعليم هذا الدعاء مشتملا على بيان التمييز كذلك حين تضرع على لسان المؤمنين بعدم تحميلهم ما يشقّ عليهم من التكاليف كما(١) حُمّل السابقون من الأمم .(٢) وعزّز تقديم متعلق الفعل الجار و المجرور (علينا) على المفعول به معنى طلب التمييز في التكليف ،وهو من بلاغة تقديم متعلقات الفعل بعضها على بعض .

ولما كان الدعاء في الجملة السابقة بعدم المشقة في التكليف خاصا بعدم الإعنات مثل السابقين ؛عممّ بطلب عدم الإعنات في كل الأمور غير المستطاعة فقال: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ ومجيء الأفعال في زمنها المضارع في الجمل الثلاث يحسن الوصل بينها ،ويحمل معنى تجدد واستمرار الطلب على أمل الإجابة ؛للحاجة إليها حين الحساب المقرّ به في نهاية الفاصلة السابقة . وجاء التشديد في الفعل ﴿ وَلَا تُحَمِّلْنَا ﴾ مساعدا لمعنى تكرار الطلب أملا في الإجابة ،ثم إن (ما) الموصولة أدت معنى تفخيم الشيء الذي لا يطيقه الإنسان مما يبين عن أثر الألفاظ مع جاراتها في تركيب الجملة للخروج بالمعنى الذي يصيب المراد و يحققه ،فكمّل الدلالة بهذا العموم.

وغاير فجاء التعبير من جانب الله بالوسع في أول الآية و من جانب العباد بالطاقة للسبب المذكور سابقا ؛ فكان التعبير بالوسع من قبل الله كرامة و فضلا ،و بالطاقة من قبل البشر تأدبا — و الله تعالى أعلم–

---

(١) إذا دخلت الكاف على (ما) المصدرية " تفيد التساوي بين الطرفين "وهذا يسهم في بلوغ التشبيه غايته .(خصائص التعبير القرآني و سماته البلاغية . عبد العظيم المطعني ٢٨٢/٢ .ط١ .١٤١٣هـ –١٩٩٢م .مكتبة وهبة /عابدين– القاهرة .)

(٢) مثل: ذبح النفس في التوبة ،وقطع موضع النجاسة، وخمسين صلاة في يوم وليلة، وصرف ربع المال في الزكاة وغير ذلك من الآصار التي كانت محمولة على بني إسرائيل .

وإذا كانت الفاصلة التي تسبق هذه الآية تقول: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ فإن مايقرب من الفاصلة في هذه الآية يزيد ويؤكد على ضرورة طلب العفو والمغفرة وستر الذنوب مع نزول الرحمة من الله تعالى، فأعاد الكلام إلى مدار الأمر كله من الاستعداد للبعث بالاعتقاد الجازم مع الفعل وطلب الغفران، فقال: ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ و فيه بيان قيمة الاستغفار من نفس المؤمن، ففي الآية الأولى من الخاتمة وردت في مقام تعداد صفات المؤمنين من لزوم الاستغفار، وفي الآية الثانية وردت في مقام التوصية بها "ولم يأت في هذه الجمل الثلاث بلفظ {ربنا} لأنها نتائج ما تقدم من الجمل التي افتتحت بذلك، فجاء قوله: {وَاعْفُ عَنَّا} مقابلا لقوله تعالى: { لاَ تُؤَاخِذْنَا} وقوله: { وَاغْفِرْ لَنَا} لقوله سبحانه: {وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً } وقوله: { وَارْحَمْنَا} لقوله عز شأنه: {وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ}."(1)

ولمّا علّم السبك الكريم المؤمنين ما يليق من الدعاء الذي يأملون به إلى المغفرة، وناقش في ثنايا السورة قضية الولاية وأنها نتاج المحبة ؛علّمهم ما يليق من الثناء الذي يسبق الدعاء الذي يأملون به تحقيق النصرة و الولاية فقال: ﴿أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وفصل بين جملة ﴿أَنتَ مَوْلاَنَا﴾ وما قبلها للاستئناف البياني على تقدير أن ما تقدّم من الدعاء مسبب عن الولاية .ثم وصل بفاء التعقيب والترتيب لطلب النصرة دلالة على أن النصرة نتاج للولاية كما أُسلف ذكره ،وحقّر الكافرين بمجيء لفظ: (القوم) ونعتهم بالكفر .

ولما كان المقصود الأعظم من سورة البقرة الدعوة إلى توحيد الألوهية والاستدلال عليه بتوحيد الربوبية؛ جاءت آيات الخاتمة تسهم في تركيز هذا المعنى، فحققت الآية الأولى معنى الألوهية من الاعتقاد المصحوب بالعمل، مع الإقرار بالغيب علاوة على الإيمان به، وحققت

---

(1) تفسير البحر المحيط ٣٨٢/٢ .

الآية الثانية معاني الربوبية بنعمة تعلّم ما يليق من الدعاء،و تحقق الولاية التي هي أصل في النعم .

ويظهر التوازن والتقسيم في آيات الختام كذلك بشكل لافت؛مما يعطي إيقاعا موسيقيا منظما و معتدلا عند قراءة الآيات، إيقاعا يؤثر على المتلقي،فيعمل على تحضيضه للإيمان بما جاءت السورة من أجل إثباته . ويتجلى في الآيات نوعان من التوازن،الأول: توازن جزئي؛ويظهر ذلك في استعمال الطباق و التقسيم في قوله: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ وفي تكرار الروي كما في الفاصلة: ﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ والجناس مثل قوله:(آمن — المؤمنون) و(سمعنا — أطعنا) و(كسبت — اكتسبت) و(تحمل — حملته — تُحمّلنا) و هذا التوازن الجزئي من شأنه أن يبين عن تناسب في مقدار العبارات؛فيعطي استراحة في النفس، ويهيئ للقارئ فرصة لتدبر ما يقرأ ،مع التأثير على السامع،حيث يُحدث التوازن إيقاعا مرتبا ،ينشرح له الصدر ،فيعين على الفهم والاستيعاب ثم حصول التأثر .

ويتجلى التوازن الكلي في الآيات في مؤاخاة الأقسام والمعاني؛مثل مؤاخاته بين إيمان الرسول وإيمان المؤمنين مؤاخاة تماثل في قوله: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾ .ومؤاخاته بين السمع والطاعة في قوله: ﴿ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ مؤاخاة تماثل . ومؤاخاته بين الكسب و الاكتساب مؤاخاة تقابل .وبين الخطأ و النسيان في قوله: ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ مؤاخاة تماثل. وبين الوسع و الإصر و الطاقة في قوله: ﴿ وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ مؤاخاة

تماثل. و بين العفو والمغفرة والرحمة في قوله : ﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ﴾ مؤاخاة مراعاة نظير .

فالتوفيق بين المعاني والأقسام داخل نطاق واحد يجمعها من شأنه أن يرتبها ،ويرتب نظامها الإيقاعي الصادر منها .

كما نلحظ أن جميع أصوات حروف آيات الخاتمة معتدلة ومتناسبة ؛ أي أنها تخلو من التنافر أو التقارب غير المحدود،وذلك يسهم في نقل ذبذبات تتميز بالهدوء والوضوح، مع ماتتمتع به الآيات من مقاطع مفتوحة أصابت الغرض في موضعها مثل : (آمن — الرسول — المؤمنون — سمعنا — أطعنا — ربنا — المصير- تؤاخذنا — نسينا — أخطأنا — قبلنا — تحملنا — عنا — لنا — ارحمنا — مولانا — انصرنا — الكافرين) وذلك من شأنه أن يعطي مجالا واسعا في جرس الكلام حيث تساعد حروف اللين و المد على بث جو اللين الذي تتمتع به معاني الآيات الدالة على الثناء و المدح و المناجاة بالدعاء . و المقاطع المفتوحة إنما تجيء في مقام الإشادة والثناء كما في الآية الأولى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ . . . ﴾ وفي مقام الدعاءأو المناجاة كما في الآية الثانية من الخاتمة : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا . . . ﴾ ،والمقامان إنما شأنهما شأن التراخي و اللين في الخطاب ؛لذلك كان لحروف المد والمقاطع المفتوحة مع حركات الأحرف من الفتحة إلى الضمة والكسرة حظ كبير في الاستعمال من هذه الخاتمة .

وأثر الفاصلة في حسن الإيقاع وجماله كبير ؛ويقوم الحرف الذي قبل الروي بأثر كبير في حسن الأداء وتنظيم الإيقاع ،ولا نكاد نغالي إن قلنا : إن الحرف الذي يسبق الروي هو الذي

يهيئ الروي لأداء وظيفته الإيقاعية و الدلالية(١)،حيث إن حرف الراء في فاصلة الآية الأولى متكرر،مما يعطي إيقاعا قويا ومنبّها على الأصح،ولعل هذا يتناسب مع قوة معنى إقرارهم بعودة المصير إلى الله تعالى و تكرره مع كل العباد،ولعل حرف الياء قبل الراء يمهد لتقوية نبر حرف الراء فيقع موقعه من العلو و البروز .ثم إن ختم الآية الثانية بحرف النون الصادر من الخيشوم يعطي صوت غنة فيه شيء من النغم مما يتناسب مع مقام المناجاة والدعاء،وزاده نغما المد بالياء قبله لتهيئة هذا النغم واستطالته –و الله أعلم بأسرار كتابه –

اتسمت الآيات بحسن الدلالة حيث يتضح التآخي بين المعاني ؛فجمع بين إيمان الرسول وإيمان المؤمنين بإيمانهم جميعا بما جاء عن الرب ،حيث أُجمل الحديث بالإيمان بكل ماأُنزل من لدنه تعالى حين الحديث عن الرسول ﷺ إجلالا لذكره ،ثم فصّل بعد ذلك حين الحديث عن المؤمنين،فذكر المعاني مرتبة من الإيمان بالله والملائكة و الكتب والرسل،وأصاب بالتصريح بقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ بعد ذكر الرسل،فاكتفى بذكر عدم التفريق بين الرسل،وبنى عليه ضمنا عدم التفريق بين الملائكة والكتب تبعا لذلك فوفّى بالمعنى وأتمّه .

ومن حسن الدلالة: المؤاخاة بين المعاني المتصلة بعضها ببعض مثل :مؤاخاته بين السمع والطاعة،والكسب و الاكتساب،و بين الوسع والطاقة والإصر ،و بين الخطأ و النسيان ،وبين العفو و المغفرة و الرحمة،و بين الولاية و النصرة .

ومن حسن الدلالة :أنه لما كانت الآيات كالقاعدة الإسلامية كانت دلالة العموم بارزة بشكل واضح، و يظهر ذلك جيدا في قوله: ﴿كُلٌّ آمَنَ﴾ فالمراد تعميم إيمان كل فرد من المؤمنين .

(١) يقول نعيم الباقي في ذلك:" أو علينا جناح في أن نزعم أن حروف ما قبل الروي سواء اُعتبرت رديفة أو دخيلة أو توجيها ربما كانت عند تحليلنا لحركة الإيقاع – أهم من حرف الروي ذاته؟!(مجلة التراث العربي عدد ١٥ – ١٦صـ ٩٩ السنة الرابعة –رجب وشوال.١٤٠٤ –نيسان"ابريل"وتموز"يوليو" ١٩٨٤ .اتحاد الكتاب العرب –دمشق .)

ومنه قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ فلفظ أحد أفاد معنى تعميم الإيمان بكل أحد من الرسل سابقا أو لاحقا .و تنكير لفظ (نفسا) أفاد تعميم أن عدم الإعنات والمشقة ليس خاصا بأناس معينين، إنما هو لكل نفس بشرية،يؤازره تنكير لفظ (إصرا) لأنه شمل كل عنت حتى لو كان قليلا،ثم (ما) في قوله : ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ شملت كل ما لا يطيقه الإنسان .و هذا الشمول يؤازر بعضه بعضا للخروج بمعنى أن الإيمان بكل الكتب والملائكة و الرسل الذين من قِبَل الله دون تفريق واجب على كل أحد،و إذا تحقق هذا المعنى من قبل العبد قوبل برفع العنت و الإصر عن كل نفس دون تفريق .

وتتسم الدلالة بتمامها و وفائها بالمعنى مثل قوله : ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ ثم قوله بعد ذلك: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ﴾ فاستفرغ المعنى كله بشمول كل عنت ومشقة ،فلا تمكن الزيادة عليه .

كما تتسم هذه الخاتمة بدقة مدخلها(١)؛لأن نصبة الكلام وهيأته ليست قائمة على الإخبار بإيمان الرسول ﷺ والمؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر،فهذا أمر لا ينازع،ولكنها قائمة على إثبات أن الامتثال و الانقياد المأمور بهما الناس و المتضمن الإيمان بالله و جميع رسله و جميع كتبه و ملائكته ليس من الإعنات لهم أو المشقة عليهم،إنما هو في وسعهم ،بل و بهما يتحقق للمؤمن مكاسب عظيمة ،منها:عدم المؤاخذة على الخطأ أو

(١)قال محمد محمد أبوموسى:" إن كلمة (دقة المدخل) التي جاءت في كلام العارفين بصنعة البيان،عبّر عنها عبدالقاهر ...بقوله:أن يأتي المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته "(مراجعات في أصول الدرس البلاغي صـ٤٦ .ط١ .١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م. مكتبة وهبة –القاهرة .)و نص عبد القاهر موجود في الدلائل صـ٤٣ .ومفاده أن كل معنى يؤتى له من عدة طرق ،والبصير هو من يأتي المعنى بالطريق الذي هو أخص به .

النسيان،مع إمكان العفو و المغفرة و الرحمة،و تحقق الولاية و النصرة .فمن اليسير أن يكون الإنسان من زمرة المتقين الذين امتدحهم النظم الكريم و أثنى عليهم في مطلع السورة .

ولكل ذلك كان الدخول للموضوع بصورة الفعل الماضي الدال على ثبات حصوله أبلغ أثرا وأوقع في معنى السياق ؛فعبّر به للإشادة والمدح و الثناء لتلك الفئة المرادة للدلالة على ثبات إيمانها الذي ابتدأه بالقدوة ،فلم يحتج إلى تفصيل ما آمن به. ولم يحتج إلى جعل الجملة في ضربها الطلبي أو الإنكاري،إنما أتى بها خلوا من التأكيد ليخدم معنى الثناء من جهة،ومعنى أن ذلك الإيمان لا يحتاج إلى تعنت وتكلف يؤكد لأجله .

وحسن الدلالة وتمامها وتبرجها ودقة مدخلها يقوم به صور تنهض بأركانها ،وتؤثر في النصّ و المتلقي معا.و لعل اللف و النشر هو العمدة في نهج خاتمة سورة البقرة ،فلما قال: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ كان قوله: ﴿ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ ﴾ متعددا على جهة الإجمال فلفّ معنى إيمان الرسول و المؤمنين ولم يفصّل،ثم نشر بعد ذلك فقال: ﴿ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ البقرة(٢٨٥) وذلك يرجح كون الواو عاطفة و ليست على الاستئناف .ثم إنه لفّ متعددا على طريق الإجمال أيضا فقال: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ونشر بعدها فقال: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ ذلك أن ذكر المعنى مطوي فيه حكمه يهيئ النفوس لتلقي ما يذكر بعده من النشر ،فإذا ما ذكر تقرر في النفس لأن النشر جاء والنفوس إليه متطلعة .

كما يمكن عدّ العدول من الأساليب التي كثرت في الخاتمة ؛و منه ما يرجع إلى الألفاظ،وذلك أنه حين عبرالبيان القرآني بنفي التكليف إلا بما في وسع الإنسان؛جاء تعليم الدعاء بطلب

عدم التحميل إلا بما في طاقة الإنسان ،ولعله عدول يلقي دروسا من الأدب في خطاب المولى لما تبين سابقا من الفرق بين الدلالة الوضعية للفظي(الوسع —الطاقة).

ومنه مايرجع إلى الجمل الاسمية والفعلية ؛فلما كان الدعاء متغازرا بصورأفعال الأمر والنهي أي بالجمل الفعلية ،فقال: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ﴾ ؛فصل بجملة اسمية فقال: ﴿ أَنتَ مَوْلَانَا ﴾ وعاد فقال: ﴿ فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ فعدل عن قول: كن مولانا ،مثلا ،إلى الجملة الاسمية لدلالتها على الثبات الذي لا تفيده الجملة الفعلية ،وصيغة الدعاء خاصة ،وفيه إيماء إلى تحقق الإجابة لمن توافرت فيهم الصفات المذكورة في الآية السابقة دون التصريح به.

والإيجاز سمة صور الكلام في خاتمة السورة وهو "تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى."(١) ومن بلاغته: "تهذيب الكلام بما يحسن به البيان ... وتصفية الألفاظ من الكدر و تخليصها من الدرن."(٢) و يقوم به عدد من الأساليب تنصهر داخل نسيج النص لتجعل منه نصا محكما متآلفا شديد التماسك " لا إخلال فيه بالمعنى المدلول عليه ."(٣)وهو مع ذلك شديد الفاعلية في نفس المتلقي لأنه يركز المعنى ،و يكثّفه، ويفخمه ،كما أنه يحرك الذهن ،وينشطه ،ويحفزّه لإدراك المعاني المطوية داخله . ومن هذه الأساليب التي كانت طريقا من طرق الإيجاز:

إيجاز الحذف والقصر، فمن إيجاز الحذف ماوقع في خاتمة السورة في تقدير قول: كل واحد منهم آمن بالله ،عائدا على الرسول ﷺ والمؤمنين .ومنه كذلك ما جاء في تقدير قول: لا نفرق

---

(١) قاله الرماني في النُّكت في إعجاز القرآن من كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن صـ٧٦ .

(٢) السابق صـ٧٨ .

(٣)السابق صـ٧٨ .

بين أحد وأحد من رسله .وهما من النوع (المفرد).ومن إيجاز الحذف أيضا؛ تقدير قول:ولا نفرق بين أحد من كتبه،ولا نفرق بين أحد من ملائكته .ونوعه (أكثر من جملة).

ومنه حذف المفاعيل([1]) كما في قوله:(سمعنا — أطعنا — كسبت — اكتسبت) لأن " القصد فيه أن تثبت المعنى في نفسه فعلا للشيء،وأن تخبر بأن من شأنه أن يكون منه،أولا يكون إلا منه،فإن الفعل لا يعدى هناك لأن تعديته تنقض الغرض وتغيّر المعنى ."([2]) يعني ذكره منفردا يجعل الاهتمام منصبا عليه؛لا نافذا إلى غيره .

وإيجاز القصر ورد في خاتمة سورة البقرة كذلك في قوله: ﴿ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ ﴾ لأن تقديره:"إيمانا تفصيليا متعلقا بجميع مافيه من الشرائع والأحكام والقصص والمواعظ وأحوال الرسل والكتب ،وغير ذلك من حيث إنه منزّل منه تعالى ."([3]) ولعل هذا النوع من الإيجاز هو ما يكون لإظهار النكتة بعد الفهم لشرح الجملة .

وأسلوب القصر كذلك يوسم الكلام بالإيجاز كما في قوله: ﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾وقوله: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾وطريقه التقديم الذي يصاحب التخصيص غالبا .

والجمل الدعائية من أهم ما توسم الكلام بالإيجاز الشديد،لأنها خليط من مشاعر نفسية ومظاهر اجتماعية،و أحوال مقامية تختلط في نفس الداعي فتنطلق بصورة جمل متعاطفة تحمل معاني كثيرة بين ثناياها،لذلك حسن الختم بها حيث تكون آخر مايقع في نفس المتلقي،فيسهل التأثير عليه بوساطتها للقصد إلى الإقناع بالمعنى المراد من السورة .وأغلب صورها صورة الأمر و النهي،و لكن البيان القرآني حين أراد أن يبين حال المؤمنين من

---

(١)عدّ ابن أبي الإصبع حذف المفعولات من إيجاز الحذف (بديع القرآن صـ١٨٥) .

(٢) دلائل الإعجاز صـ ١٥٥ .

(٣) تفسير أبي السعود ١/ ٣٢٤ .

استمرار طلب المغفرة عبّر بالمصدر بقوله: ﴿ غُفْرَانَكَ ﴾ قال سيبويه : "واعلم أن الدعاء بمنزلة الأمر والنهي وإنما قيل (دعاء) لأنه استعظم أن يقال : أمر ونهي ."(1)

ولعله حين قال: ﴿ وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا ﴾ وقال بعدها: ﴿ وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ كان هناك نوع من الإطناب، ولكن لما كان المقام يستدعي هذا النص خصوصا بغية عدم حصوله من جهة، وبغية بيان التميز عن الأقوام السابقة من جهة أخرى؛ فصّل فاقتضى المقام هذا الإطناب، وعندما يقتضي المقام إطنابا فهو قمة الإيجاز فقد "يطول الكلام في البيان عن المعاني المختلفة، وهو مع ذلك في نهاية الإيجاز."(2)

وإذا كانت المعاني في خاتمة السورة تنعطف على مثلها في مطلع السورة ؛فإن صورها الحاملة لها تتقارب وتتشاكل كذلك ،فمناط فاتحة سورة البقرة وخاتمتها قائم على الثناء والمدح والإشادة بفريق تكاملت فيه صفات الإيمان المسبَّب عن الهداية ،والمسبِّب للفلاح والولاية والنصرة، والملحوظ أن البنى التركيبية التي توافرت على إنتاج هذه الدلالة محصّلة من ائتلاف وظائفها في نسيج النص. وما سبق ذكره من أسلوب اللف والنشر في الخاتمة ينطبق على مثله في مطلع السورة (3)فإنه لما قال: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ البقرة(٢) ؛ ذكر متعددا

(١) الكتاب.كتاب سيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر.تحقيق:عبد السلام محمد هارون ١٤٢/١ .دار الكتب العلمية– بيروت .مكتبة الخانجي –القاهرة .

(٢) قاله الرماني في النُّكت في إعجاز القرآن من كتاب ثلاث رسائل في إعجاز صـ٨٠ . وهو ماأشار إليه البيومي بقوله: " مقتضى الحال هو الذي يميل بالقول إلى سوائه بسطا و اختصارا ،و لمحا و إفاضة." (البيان القرآني .محمد رجب البيومي صـ١٠٣ .ط٣ . ١٣٩١–١٩٧١م مجمع البحوث الإسلامية –الأزهر) .

(٣) ولعل هذا يدعم القول بأن قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ البقرة(١٦) عائد على فريق الكافرين والمنافقين معا.

على طريق الإجمال، ثم فصّل في صفاتهم فقال: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ* وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ البقرة(٣-٤) وعاد ولف مصيرهم فقال: ﴿ أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ البقرة (٥) وهذا كله يسهم في ترسيخ المعنى وتقريره ،وإتمام فائدته .

ولما كان الخطاب الإخباري في فاتحة السورة قائما على الإعلام عن الكتاب مكانة وأثرا، وتناسل من هذا الأثر مجموع صفات المؤمنين المستحقين للهداية ؛ جاءت الأفعال المضارعة في قوله: (يؤمنون- يقيمون- ينفقون- يوقنون) دالة على أن أثر هذا الكتاب العظيم المخصوص لفئة معينة يجب أن يكون من صفاتهم الاستمرار على الإيمان بالله، والاستمرار على إقامة الصلاة، والاستمرار على إنفاق الزكاة .ولما كانت الخاتمة نتاج ما تقدّم في الفاتحة ،وكان الخطاب الإخباري نمطها كذلك ؛حملت الأفعال الماضية الشهادة لفئة مخصوصة حازت على أثر هذا الكتاب من الهداية المذكورة آنفا ،والتي تبلورت فيما هو أخص من ذكر الفلاح عموما ،فكانت الأفعال الماضية الدالة على الثبات أبلغ أثرا ،وأوقع في معنى السياق كما سبق بيانه في الكلام على دقة المدخل . وابتدأ بذكر الرسول ﷺ رفعا لقدره وتشريفا لمكانه، وثنّى بالمؤمنين بعده ،وفصّل في إيمانهم بأركان الإيمان كلها بتعدادها:(بالله- بملائكته- كتبه- رسله) وترك الإيمان باليوم الآخر وأتى به فاصلة للآية فقال: ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ البقرة (٢٨٥) تنبيها على مكانه من مقصود السورة، وتعريضا بغيرهم من أهل الكتاب، وهذا المعنى جاء في مطلع السورة بالصورة نفسها من التقديم لغرض القصر حيث قال: ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ البقرة (٤)؛ ولكنه زاده تأكيدا بتقديم المسند إليه على المسند الفعلي، والآية في مطلع السورة ليست وصفا للمتقين فحسب، بل هي "تعريض بأهل

الكتاب، وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته ."[1] كل ذلك يشير – في وضوح – إلى محور الإيمان بالبعث و النشور في سورة البقرة الذي هو طرف من الإيمان بالغيبيات العظمى .

ولما تكلّم عن صفات المؤمنين في مطلع السورة عرّفهم بالاسم الموصول فقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ . . . وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ البقرة (٣– ٤) فهم " حائزون لأثري الهدى والفلاح من غير تعيين لهم بخصوصهم ،ولا تصريح بتحقق اتصافهم بها إذ ليس فيما يذكر في حيز الصلة حكم بالفعل ."[2]؛ لذلك حسن تعريفهم في خاتمة السورة بـ(أل) التعريف للعهد الذهني لأنها نتاج ما تقدّم ،ولإفادتها إصدار حكم بالإيمان، وهذا يفضي بنا إلى القول بعموم الكلام على المؤمنين في مطلع السورة من حيث إفادة صفاتهم الواجب الاتصاف بها ليبلغ هذا الوصف مكانه من المتصِف به، وخصوص الكلام على المؤمنين في خاتمة السورة من حيث إفادة تخصيصهم بتحقق الإيمان مع تحقق الامتثال، فجمعوا اعتقادا وعملا .

والخطاب القرآني للنبي أجمل في المطلع والخاتمة بقوله: ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ و ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ غير أنه بنى الأولى على الخطاب الموجه بـ(كاف الخطاب) والثانية على الغيبة بـ(هاء الغيبة)؛ لأن مقام الشهادة و الثناء أبلغ في عدم الخطاب بالمدح ،وإلى ذلك أشار

---

(١) الكشاف .الزمخشري ١/١٥٧.

(٢) تفسير أبي السعود ١/٣٢٤ . ويبدو أن السبحاني بنى على قول أبي السعود هذا فقال :"و لا يفوتنا التنبيه إلى أن السياق قد فرق هنا بنظمه بين (الذين آمنوا)و بين (المؤمنين) {فالذين آمنوا} يطلق على كل من المؤمن الصادق و المنافق المرائي ،و يطلق على كل من ادعى الإيمان سواء دخل الإيمان قلبه أو بقي كلمة بلا روح على لسانه ،بينما (المؤمنون) يطلق على الذين خلصت نياتهم و صدق إيمانهم و ظهرت دلائله في سلوكهم و تصرفاتهم . (البرهان في نظام القرآن في الفاتحة و البقرة و آل عمران صـ٤٢٥) و لعل كلام السبحاني عن أن وصف الإيمان بحيز الصلة قد يطلق على المنافق المرائي فيه جرأة ،لأن البيان القرآني وصف في مواضع عدة المؤمنين بحيز الصلة ،و لم يكن يقصد المنافقين المرائين –والله أعلم –

أبـوالسعود بقوله: " وذكره ﷺ بطريق الغيبة مع ذكره هنـاك بطريـق الخطـاب ؛لمـا أن حـق الشهادة الباقية على مرّ الدهور ألا يخاطب بها المشهود له ."(١)

وعمم بذكر حالهم ومآلهم من الهداية والفلاح في مطلع السورة فقال: ﴿ أُوْلَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ البقرة (٥) باستعارة الاستعلاء لهم ،والإشـارة إلـيهم إشـارة بعد،والتأكيد على فلاحهم ،وكـل ذلـك ترغيـب و تحضـيض للتمسـك بتلـك الصـفات . ثـم خصص في خاتمة السورة حالهم و مآلهم بالتعريض بتميزهم برفع المشقة عـنهم بقولـه: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ،والملحوظ أنها جملة فعلية توسطت مجموعة جمل مـن قـول المؤمنين وكأنها جملة معترضة،وإنما أسرع بها في هذا المقام ليعـرّض برضـا الله عـن المـؤمنين حينما قالوا قبلها: ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ ،ثم كان من نتاج التميز أن علمهم الدعاء المنجي لهم والمميز لهم عن غيرهم ،وهذا الدعاء قائم على جمل دعائية تمتـزج فيهـا دلالات الأمر والنهي .وذكر تحقق الولاية بالبيان بالجملة الاسميـة بقـول: ﴿ أَنتَ مَوْلَانَا ﴾ للدلالـة على تحقق الحصول،ثم فرّع تعليم الدعاء بطلب النصـرة علـى الولايـة،واختتم بهـا و كأنهـا الثمرة المرجوة من كل ما تقدّم .

فصور التراكيب تتقارب حينا و تتشاكل حينا آخر بين مطلع السورة وخاتمتها ،وهذا إن دل فإنما يدل على التمـاسك النصي ،والتآلف بين معاني السـورة ،وصورها القائمة بها .

والنظر في معاني خاتمة السورة لم يكن ليتضح لولا استبصار معاني السورة كلها ؛فلم يكن يتضح مكان الإشادة والثناء بإيمان الرسول مع صحبته الأخيار،وأنها من ذكر النتائج بعد المقدمات لولا النظر في قوله تعالى من مطلع السورة: ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى

(١) تفسير أبي السعود ٣٢٤/١ .

لِّلْمُتَّقِينَ ﴾البقرة (٢) وكذلك لم يكن ليظهر موقع الإشادة بامتثال المؤمنين بالسمع والطاعة من الأهمية والبيان والتقابل مع غير المؤمنين لولا معرفة أحوال المنافقين التي منها: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ البقرة (١٤) ومعرفة أحوال الكافرين المبثوثة في ثنايا السورة كلها التي منها قوله تعالى : ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ البقرة (٩٣) .

كما أن الصلات القوية بين المعاني كلها كما في قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ لم تكن لتقع موقعها لولا أن سُبقت بتمهيدات لها -كما سبق بيانه- ونفي لما هو موروث بين اليهود من تعليق أعمالهم بعمل إبراهيم —عليه السلام- وردّ الأعجاز على الصدور التي سبق بيانه لم يكن يظهر لولا استبصار آيات السورة كلها كذلك .

فالجملة التركيبية الصغرى في خاتمة سورة البقرة أدت المعنى المطلوب في سياقها،وأتمت المعنى مع جملتها التركيبية الكبرى؛وكمل معناها بمعرفة سياقها الكلي من السورة كلها،حيث يُكوِّن نسيج النص فيعطي الإيحاءات والدلالات الكبرى التي لا تظهر من غيره،فيبين عن تميّز في تكوين المعاني لا تقوم به الجمل مفردة أو متراصّة ،إنما ينهض به نص السورة كله .

*　　　*　　　*

ثانيا :

دراسة دلالات التراكيب في خاتمة سورة آل عمران

خاتمة سورة آل عمران:

قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ * فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ * لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللّهِ وَمَا عِندَ اللّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ * وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ آل عمران (١٩٠-٢٠٠) .

بيان دلالات التراكيب :

لما كانت سورة آل عمران يكثر فيها الجدل، و كان المخاطب بها في افتتاح خاتمتها منكرا وغير منكر؛ نُزّل غير المنكرين منزلة المنكرين المبالغين في إنكار وحدانية الله تعالى ، ويشير الطبري إلى مسوّغ تكثيف عناصر التأكيد في هذه الجملة بقوله : " و هذا احتجاج من الله – تعالى ذكره – على قائل ذلك[1] وعلى سائر خلقه بأنه المدبر المصرف الأشياء ، والمسخر ماأحب ، وإن الإغناء والإفقار إليه و بيده ."[2] فأُكد الخبر بـ(إن) مع الجملة الاسمية ولام التوكيد، فجاء قوله : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ مما جعل له قرارا ثابتا في نفوس المؤمنين أصحاب الألباب، وكان لتقديم متعلق الخبر: ﴿ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أثر في التشويق إلى المسند إليه: ﴿ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ خاصة أنه تضمن شرط الحسن الذي ذكره السكاكي[3] وهو تطويل الكلام ، ولعله قدّم ذكر خلق السماوات والأرض على اختلاف الليل والنهار ؛لأن حدوث الليل والنهار تابع للسماوات و الأرض . ومجيء التعبير بلفظ :(اختلاف) أدل من لفظ:(تعاقب) مثلا في هذا المقام؛لأن المعنى الوضعي للاختلاف[4] يشمل معنى خلف كل واحد للآخر بمعنى التعاقب الزمني و المكاني، و يشمل معنى التغيّر الزمني من زيادة الليل

---

(١) يعود الكلام على قول الكفار: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ آل عمران(١٨١) .

(٢) جامع البيان ٢٠٩/٤.

(٣) مفتاح العلوم صـ٣٢٤ .

(٤) الخاء واللام والفاء أصولٌ ثلاثة: أحدُها أن يجيءَ شيءٌ بعدَ شيءٍ يقومُ مقامَه، والثاني خِلاف قُدَّام، والثالث التغيُّر. (مقاييس اللغة .مادة (خلف) .

أو النهار أو نقصانهما كذلك ،و هو أشمل من دلالة التعاقب الوضعية ؛لذلك وقع موقعه من السياق .([1])

وجمع البيان القرآني في سبكه بين التفكر في خلق السماوات و الأرض ،و التفكر في اختلاف الليل والنهار بالعطف بين الجملتين لإشراكهما في الدلالة على ظهور الآيات حال التفكر فيهما من جهة ،وللاشتراك في الحكم الإعرابي من جهة أخرى ،وكان يجزئ لو ذكر أحدهما ،ولعل الجمع بينهما يُحمل على معنى آخر غير تطويل الكلام المذكور آنفا ؛وهو أن خلق السماوات والأرض مما ظهرت عظمتهما لكل ناظر ،واختلاف الليل والنهار مما لطفت عظمتهما بسبب جريان العادة بها ،فجمع الأظهر مع الأخفى لجلاء كل منهما بالاقتران بالآخر ،لأن الأضداد تتضح بالمجاورة .و للدلالة على أن الآيات منها الظاهر والخفي ،وبينهما درجات تبين عن أثر التفكر في إيمان الفرد . ويسهم الطباق بين لفظي(السماوات–الأرض) و (الليل — النهار)في إيضاح هذا المعنى .

وصُرف التفكر إلى الخلق ،لأن التفكر في المخلوق يسوق حتما إلى معرفة الخالق. و لعل جمع القلة (آيات) أنسب من جمع الكثرة في هذا المقام ،فنقل الألوسي :" وقيل :و في ذلك رمز إلى أن الآيات الظاهرة وإن كانت كثيرة في نفسها ،إلا أنها قليلة في جنب ما خفي منها في خزائن العلم ،و مكامن الغيب ،و لم يظهر بعد ."([2]) ومكانها من التركيب يكمل دلالتها ؛حيث شُوّق إليها بتأخيرها فكان ذلك أرسخ للمعنى ،وزاده رسوخا إدخال(اللام المزحلقة) على الكلمة ،إضافة إلى تصدير الجملة بـ (إن) ،ثم تخصيص ظهور تلك الآيات بمتعلق الصفة المحذوفة من (آيات)أي :لآيات قائمات لأصحاب الألباب دون غيرهم .

---

(١) العين والقاف والباء أصلانِ صحيحان: أحدُهما يدلُّ على تأخير شيء([٢٧]) وإتيانِه بعد غيره. والأصل الآخَر يدلُّ على ارتفاعٍ وشدّة وصُعوبة.(السابق .مادة (عقب))

(٢) روح المعاني ٢/٣٧٦

و التعبير بـ(اللب)أدلّ من (العقل) على أصحابها؛"لأن العقل له ظاهر و له لـب ،ففـي أول الأمر يكون عقلا،و في كمال الحال يكون لبا."([1]) و هذه منقبة للمتفكرين في مخلوقات الله . ولعل في جَمع لفظ :(اللبّ) توافقا و تلاؤما مع جمع لفظ:(الآيات) .

ولما أجمل قوله : ﴿ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ فصّل في بيان صفاتهم ،فترك العطف لكمـال الاتصـال([2]) فقال : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ ﴾ فنُزّلت هذه الجملة منزلة البيـان لجملة : ﴿ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ في إفـادة الإيضـاح،فأولو الألبـاب هـم المتصـفون بـذكر الله حـال قيامهم و قعودهم و اضطجاعهم ،وهم كذلك المتصفون بالتفكر في مخلوقات الله .

وعلى السواء إن كان المقصود من قوله : ﴿يَذْكُرُونَ ﴾ ذكر الله باللسان ،مع حضور القلب أو الصلاة ،فإن في الإتيان بهذا الوصف ([3]) بتلك الأحوال فائدتين :

الأولى:أنه كُني بهذه الأحوال عن صفة استمرار ارتباط المؤمن بربه عقلا و قلبا في كل أوضاع حياته ؛لأن الإنسان لا يخلو أن يكون على واحدة من هذه الأحوال الثلاثة ،وإلى ذلك أشار النحاس بقوله :"إنهم موحدون الله في كل حال ."([4]) والعطف بـ(الواو)يسهم في بيان اشتراك تلك الأحوال التي يكون عليها الإنسان– اشتراكها في ذكر الله .و مجيء الأفعال المضارعة (يذكرون– يتفكرون) يسهم في بيان تلك الاستمرارية و ذلك اللزوم .

---

(١) التفسير الكبير .المجلد الخامس ١١٠/٩ .

(٢) يجوز أن يحمل الفصل على الاستئناف البياني .

(٣) تسميته وصفا لأن الجملة في موضع خفض على النعت لأولي الألباب .(إعراب القرآن . أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي .وضع حواشيه وعلق عليه:عبد المنعم خليل إبراهيم ١٩٤/١. ١٤٢١هـ– منشورات محمد علي بيضون –دار الكتب العلمية /بيروت .) "ومعنى الآية إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذاكرين الله قياما وقعودا..." (جامع البيان ٢١٠/٤)

(٤) إعراب القرآن ١٩٤/١ .

والثانية: أن في ورود الذكر في تلك الأحوال (القيام- القعود- الاضطجاع على الجنب) بيانا لتغلغل اليقين في قلب المؤمن، حتى إنه كلما غير هيأة مقامه تذكر فضل الله عليه بتيسير الحركة والتقلّب في النعمة فذكر الله . ولعل الكناية في قوله : ﴿ وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ تخدم هذا المعنى، لأنه لو قال: مضطجعين لأدى معنى الحالة الثالثة، ولكن " الاضطجاع على الجنب يمنع من النوم المغرق، فكان هذا الوضع أولى لكونه أقرب إلى اليقظة، وإلى الاشتغال بالذكر."([1]) ولعل الثقل في النطق بلفظ (الاضطجاع)بسبب الاستعلاء المصاحب لحرفي (الطاء —الضاد) يسهم في هذا العدول .

ولما ذكر الصفة الثانية وهي قوله: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ عطف بين الجملتين بالواو لقصد إشراك الجملة الثانية مع الأولى ليكون من صفات أولي الألباب (الذكر والتفكر)مع الاشتراك في الحكم الإعرابي ،وسواء اعتبرنا الواو (واو العطف)أو (واو الحال)([2])فإن ذلك يشير إلى ضرورة اجتماع الصفتين للموصوفين بذوي الألباب المشاد بهم، المذكورين على سبيل المدح لأن القصد إذا كانت حالية: يذكرون الله متفكرين .

وإنما خُصّ (الذكر) و (التفكر) بالثناء لأنهما سبيلان إلى تقوية الإيمان و ترسيخه ،و هذا يمد يدا إلى مقصود السورة الكريمة الذي يقصد إلى ترسيخ عقيدة التوحيد .

واكتفى النظم الكريم بذكر السماوات والأرض عن ذكر اختلاف الليل والنهار في هذه الآية؛ لدلالة المذكور على المحذوف ،و يجوز أن يحمل على معنى أن التفكر فيما ظهر كاف ودال على الآيات، و فيه تلويح إلى تعنيف كل من يدرك آلاء الله ونعمه الظاهرة و لا يوحده.

ويجوز أن يكون المجيء بحرف الجر (في) يفيد معنى استغراق الفكر في السماوات والأرض وما بينهما، و ذلك يفسر لنا دخول (في) على السماوات والأرض، ودخول عملها على اختلاف الليل و النهار .

(١) التفسير الكبير .المجلد الخامس ١١١/٩ .

(٢) إعراب القرآن .النحاس ١٩٤/١ .

وترك العطف بين الجملتين على الاستئناف البياني؛ لأن التقدير: قائلين: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ ﴾ وأفادت جملة: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ ﴾ تأكيد نفي العبث عن أفعال الله تعالى، مع التنبيه إلى الإقرار بذلك، ومقول القول هذا لازم للتفكر في مخلوقات الله تعالى في كل الأحوال و الأزمان، وعزّز معنى نفي العبث عن أفعال الله تعالى؛ الإرداف بالمصدر المنصوب بالفعل المحذوف: ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ .

والعدول باسم الإشارة (هذا) عن هذه أو هؤلاء مثلا ؛ يعزز ماذكر سابقا من دخول حرف الجر (في) على التفكر في خلق السماوات والأرض لأن المقصود ما بينهما و ليس هما ، " ولو كان المعني بقوله : ما خلقت هذا باطلا؛ السماوات والأرض ، لما كان لقوله عقيب ذلك : فقنا عذاب النار معنى مفهوم ؛ لأن السماوات والأرض أدلة على بارئها ، لا على الثواب والعقاب، و إنما الدليل على الثواب و العقاب الأمر و النهي، وإنما وصف جل ثناؤه أولي الألباب الذين ذكرهم في هذه الآية أنهم إذا رأوا المأمورين المنهيين قالوا: يا ربنا لم تخلق هؤلاء باطلا عبثا سبحانك ، يعني: تنزيها لك من أن تفعل شيئا عبثا؛ و لكنك خلقتهم لعظيم من الأمر لجنة أو نار."(1) ويعزز هذا الرأي الإتيان بالفاء في بداية تعقيب الآية فقال: ﴿ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ آل عمران (١٩١)؛ لأن مجيئها يحمل" الدلالة على أن علمهم بما لأجله خلقت السماوات والأرض حملهم على الاستعاذة ." (2)

ولو قيل: لم كثر استخدام الوعيد بالعذاب خاصة مع التنويع في وصفه دون استخدام لفظ آخر في سورة آل عمران ؟ لكان الجواب : هو أن العذاب مأخوذ من المنع و الفطم معا(3)، فهو على مرحلتين ، الأولى : المنع من كل ما يلائم الجسد. و الثانية: العطاء لكل مالا يلائم الجسد؛ فإذا مُنعوا الماء عطشوا فأعطوا حميما ، و إذا مُنعوا الطعام جاعوا فأعطوا غسلينا، فدل

(١) جامع البيان ٢١٠/٤ .

(٢) تفسير البيضاوي ١٩٦/١ .

(٣) المفردات (عذب) .

هذا العذاب الجسيم على عظمة القائم به، فمن الأحرى بكل ذي لب الإيمان بالله للوقاية من العذاب – والله أعلم–

ولما كان قولهم : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾ آل عمران(١٩٢) تعليلا لطلب الوقاية من العذاب فصل بين هذه الجملة وسابقتها لأنها بمنزلة المتصلة بها، للاستئناف البياني .و من كمال الضراعة و الخضوع أن صدرت الجملة بالنداء بـ﴿ رَبَّنَا ﴾ مع حذف النداء لدلالة القرب ،مع المجيء بـ(إن) ،ويرى ابن عاشور أن ورود (إن) في هذا المقام؛ "لإرادة الاهتمام إذ لا مقام للتأكيد هنا ."([1])

ويسهم الالتفات من الغائب إلى الخطاب في التنبيه إلى جلال الله "وذكر الإدخال في مورد العذاب لتعيين كيفيته، وتبيين غاية فظاعته ."([2])

ولعل النظم الكريم بعد أن قرر معنى العذاب، أراد أن يقرر معنى آخر يضاف إليه و هو إدخال النار، وأقول: إدخال وليس دخول ،لأن النص على الإدخال فيه مع قمة الإخزاء والإهانة، فيه ترهيب و تخويف أن يكون الجليل هو المدخل له، أي: الآمر بذلك، فالإدخال هذا يعني أن العذاب اللاحق بهم لا مفرّ منه و لا مخرج إلى غيره فهو عذاب مقيم .و مما يعلي نبرة التخويف و التهديد مجيء فعل الإدخال في زمنه المضارع ،و الإخزاء في زمنه الماضي، و هذا يعني تجدد العذاب و تحقق حصول الخزي و الفضيحة، فجمع لهم بين العذاب الجسماني و العذاب الروحاني، ورتب العذاب الروحاني على العذاب الجسماني "وجعل الثاني شرطا و الأول جزاء، و المراد من الجملة الشرطية الجزاء، والشرط قيد له، فيُشعر أنه أقوى و أفظع و إلا لعكس ."([3]) و في أسلوب الآية تلويح بالاستعاذة من الخزي و العار، و من زمرة المخزيين الذين يتمنى المؤمنون أن لا يكونوا منهم .

(١) تفسير التحرير و التنوير .المجلد الثاني ١٩٨/٣ .

(٢) روح المعاني ٣٧٢/٢ .

(٣) السابق ٣٧٢/٢ .

و لما كان مدلول تركيب الجملة في معانيها الأولى هو الإقرار بعزة الله على كل الأصعدة، وإخزاء كل من عاداه و لم يخضع له، وكان مدلولها في معانيها الثانية إلحاق الترهيب و الوعيد لكل من لا يتقي عذاب النار عموما؛ ختم بما يتناسب مع ذلك التهديد بقوله: ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ فتمكن معنى الإخزاء في الآية بتمكن موقع فاصلتها منها، لأن انتفاء النصرة لدرجة العدم قمة الإخزاء .

ولما ذكر البيان القرآني الدليل العقلي على التوحيد من الذكر والتفكر ؛ أردفه بالدليل الحسي، فجاء التأكيد من المؤمنين بسماع نداء المنادي للإيمان؛ وفيه اعتراف بالنعمة. ولعل حصول الاستجابة للمنادي على وجه السرعة بدلالة العطف بالفاء فيه إقرار بصون تلك النعمة، فقال تعالى: ﴿ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا . . . ﴾ آل عمران(١٩٣) و هذه الآية فيها من التركيز و الإيجاز الكثير، فبالنظر إلى تنكير لفظ ﴿ مُنَادِياً ﴾ يتضح لنا معنى أن الله لم يترك قوما دون هداية، فأرسل الرسل و الأنبياء إلى كل الناس ومعهم الكتب، ويؤيد ذلك حذف مفعول الفعل ﴿ يُنَادِي ﴾ لعموم النداء لكل أحد و" ذكر النداء مطلقا ثم مقيدا بالإيمان تفخيما لشأن المنادي."(١) فجملة الصفة: ﴿ يُنَادِي لِلإِيمَانِ ﴾ أكسبت المعنى شرفا على شرفه، فلو قال: إننا سمعنا منادي الإيمان، لم تكن بمثابة ماجاء في القرآن من العلو و السمو ، لأنه لما أطلق ﴿ مُنَادِياً ﴾ تُوهم أي نداء إلى أمر ما، ثم قيّده بالنداء إلى الإيمان فأكسبه علوا ورقيا .والجملة نفسها تبين عن قيام المبعوث من الله بمهمته على أكمل وجه من تجدد النداء و الاستمرار فيه ، سواء فُسر المنادي بالرسول أو القرآن .(٢) وهذا يعود إلى تعظيم المنادي الذي ذكره الرازي .

---

(١) التفسير الكبير. المجلد الخامس ٩/ ١١٨ .

(٢) جامع البيان ٢١٢/٤ .

والدلالة الوضعية للفعل : ﴿ يُنَادِي ﴾ دون داعٍ مثلا، تسهم في هذا التعظيم كذلك ؛لأن في النداء علوا وظهورا أكثر من الدعوة ،وهذا يتناسب مع مقام إيصال الأنبياء والرسل لدعوتهم المكلفين بها على الوجه الأمثل .

ويتضح لنا معنى آخر من تركيب الجملة في الآية الكريمة ؛وهو أن مقتضى دعوة كل الأنبياء والرسل واحدة وعلى السواء، ويؤيد ذلك الفصل بين الجملتين لكمال الاتصال ،فلما كانت الجملة الأولى غير وافية بالمراد؛ نُزلت الجملة الثانية منزلة البيان للأولى ،ففصل بينهما .

وتشير الآية في معانيها الثانية إلى ضرورة الإيمان بمحمد ﷺ كباقي الرسل، وبالكتاب (القرآن الكريم) كبقية الكتب .

ثم إن العبارة تحوي معنى آخر يعود على سابقه في ثنايا السورة، وهو الإقرار من الأقوام بصلاح رسلهم ،مع النأي بهم أن يأمروا باتخاذ أنفسهم أربابا من دون الله ،مع إقرار رسل الله أنفسهم بعبوديتهم لله تعالى كما قال في جزء من السورة: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ * وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ . . . ﴾ آل عمران (٧٩-٨٠-٨١)فكان من رد الأعجاز على الصدور.

ثم علّم البيان القرآني المؤمنين ما يجلبون به النفع لأنفسهم بعد أن درؤوا عنها الضرر، فقال: ﴿ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ آل عمران (١٩٣) فكررالنداء بقوله: ﴿ رَبَّنَا ﴾ لإظهار كمال التضرع و الخضوع، ورتّب طلب مغفرة

الذنوب وتكفير السيئات([1]) والوفاة مع الأبرار على الإيمان بالله ،" وغفران الذنوب ،وتكفير السيئات أمر قريب بعضه من بعض ،لكنه كرر للتأكيد ،ولأنها مناح من الستر ،وإزالة حكم الذنب بعد حصوله."([2]) وفي ذكر الجارّين: (لنا– عنا) مزيد عناية بطلب اختصاص المغفرة والتكفير بمن تحقق منه الإيمان .

فعلمهم النظم القرآني الدعاء بمايضمن لهم النجاة من العذاب من ستر الخطايا ومحو السيئات ،ثم ختم بما يدل على ثباتهم على الهداية من الوفاة على الدين التي كُني عنها بالمعية مع الأبرار؛لأن الوفاة في زمرة الأتقياء معناها الثبات على الدين ،فدعوا "بأن يلازمهم البرّ إلى الممات،و أن لا يرتدوا على أدبارهم،فإذا ماتوا كذلك ؛ماتوا من جملة الأبرار،فالمعيّة هنا معيّة اعتبارية ."([3]) أي موت على صفة البرّ ،وهذا يعني تحقق الهداية والإيمان .وهو يمدّ يدا ليلوّح إلى معنى قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾آل عمران (٨) في مطلع السورة فيعد من رد الأعجاز على صدورها .

ولما كان الدعاء في الآيات يراد منه الخبر؛ علّمهم الدعاء بما يجلب المنافع بعد درء المفاسد؛من إنجاز الوعد بالخيرات التي جاءت على ألسنة الرسل،فقال: ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ آل عمران(١٩٤) و هذه الآية خاصة في صحابة رسول الله على رأي الطبري،ويقول في تفسيرها :" أولى الأقوال بالصواب –في ذلك عندي– أن هذه الصفة صفة من هاجر من أصحاب رسول الله ﷺ من وطنه وداره مفارقا لأهل الشرك بالله إلى الله و رسوله وغيرهم ؛من تباع رسول الله ﷺ،الذين رغبوا إلى الله في تعجيل نصرتهم على أعداء الله و أعدائهم ،... يدل على صحة ذلك آخر الآية الأخرى،وهو قوله : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من

(١) الكلام حول تفسير معنى الذنوب و السيئات كثير جمعه الرازي في تفسيره الكبير ١١٩/٩ .

(٢) المحرر الوجيز ٥٥٦/٢ .

(٣) تفسير التحرير و التنوير.المجلد الثاني ٢٠٠/٤ .

ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا . . . ﴾"(1)و جعل الرازي مقصودها : " التوفيق على الطاعة و العصمة عن المعصية ."(2) يعني أنها عامة و ليست خاصة . و استدل بهذا المعنى على حسن نظم القرآن الكريم في تقديم طلب الثواب وتأخير ترك العقاب الحاصل من قوله تعالى بعدها : ﴿ ولا تخزنا ﴾ فكأنه قيل : "وفقنا للطاعات ، وإذا وفقتنا لها فاعصمنا عما يبطلها ويزيلها ويوقعنا في الخزي و الهلاك ."(3)

وفي تركيب الجملة : ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ﴾ ما لا يخفى من العظمة والأبّهة ؛ فأول ماتظهر تلك العظمة في مجيء لفظ (الرب) الذي يتناسب مع مقام الإنعام ببعث الرسل ، مع إضافة (ناء الفاعلين) التي تبين عن تقربهم في الضراعة. وفي الوصل بدل الفصل ، حيث عطف بـ(الواو) إيتاء الوعد على المعطوف عليه (الوفاة مع الأبرار) وقصد تشريك الجملة الثانية مع الأولى ،وجاء بـ(الواو) دون (الفاء) "إذ جعلوه دعوة مستقلة لتحقق سببها ،ولم يجعلوها نتيجة فعل مقطوع بحصوله ."(4) وفيه إظهار كمال الانكسار و الذلة ما لا يكون في غيره من حروف العطف أو في الفصل بين الجملتين– والله أعلم بأسرار كتابه– وجاءت (ما) الموصولة التي تفيد تعظيم ما جاء من الوعد على ألسنة الرسل تعضد تلك الفخامة . ويسهم في الفخامة المضفاة على التركيب التعبير بالمجاز المرسل ذي العلاقة الكلية ؛ حيث ذكر الكل(الرسل) وأراد الجزء وهي : (ألسنتهم) وفي هذا التعبير تصوير الرسل صورة مَنْ يُعمل كل ما فيه من جوارح فداء لتبليغ الدعوة و التحضيض عليها .وإضافة الرسل لله إضافة نسبة أدت إلى تشريفهم و تفخيم شأنهم .

---

(1) جامع البيان ٢١٤/٤ .

(2) التفسير الكبير . المجلد الخامس ١٢٠/٩ .

(3) السابق .المجلد الخامس ١٢٠/٩ .

(4) تفسير التحرير و التنوير .المجلد الثاني ٢٠٠/٤ .

ولما كان وعد الله عزيزا؛جاء وعيده عزيزا أيضا ،فذكر ما يقابلـه مـن الوعيـد بقولـه: ﴿ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَامَةِ ﴾ آل عمران(١٩٤) والمعنى: " فتفضحنا بذنوبنا التي سلكت منا ."(١) وهذه تمد يدا إلى قوله تعالى في بداية خاتمة السورة: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ ﴾ آل عمران (١٩٢) فالأولى- حسب ترتيب الآيات- فيها اعتراف من المؤمنين بعظمة الله وجلالـه وعذابه المسبب للإهلاك،والمقتضي انعدام النصرة،مع إشمام معنى الاستعاذة من الإخزاء،وهذا يتناسب مع مقتضى مقام التفكر في خلـق الله .والثانيـة تصريح بطلـب الوقايـة مـن الإخـزاء المسبب للإهلاك والمذلة ،وهذا يتناسب مع مقام الدعاء،وفيه تأكيد على إقـرارهم بعظمـة الله وعبوديتهم له ،وإقرارهم لمعنى الإيمان بالبعث والحساب،ولا يخفى مافي الحديث من البسط للذة " المنادمة بالمخاطبة ."(٢) ولذلك حسن الختم بقوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ فتوصف الفاصلة بالتمكن في محلها ،وساعد عليه ترك العطف بينها وبين الجملـة قبلـها للاستئناف البياني فقوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ "تعليل لتحقيق ما نظموا في سلك الدعاء."(٣) وتعـد الآية من تشابه الأطراف لذكر الوعد و الميعاد،وهي كذلك من باب رد الأعجاز علـى الصـدور لأنه قال في مطلع السورة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ آل عمـران (٩) فخـتم بمـا يمتـد إلى المطلع بسبيل حيث قال في المطلع: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٍ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ آل عمـران (٩) وقـال في الخاتمـة : ﴿ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ آل عمـران (١٩٤) وشمـل بقولـه: ﴿ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ الوعـد و الوعيد،فالوعـد حـق عليـه تعـالى أوجبـه علـى نفسـه،والوعيد حق له إن شاء وفى به،أو تنازل عنه في ذلك الميعاد الذي هو يوم القيامة .

---

(١) جامع البيان ٤/ ٢١٤ .

(٢) نظم الدرر ٢/١٩٩ .

(٣) تفسير أبي السعود ٢/٨٦ .

فجمعت الفاصلة بين ما اشتاقوا إليه من الوعد الذي جاء على ألسنة الرسل، و بين ماستعاذوا منه من الخزي والعار الحاصلين بالعذاب الجسماني والروحاني على سبيل من التأكيد .

ولما ذكر البيان القرآني سرعة استجابة المؤمنين لداعي الإيمان في قوله: ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ ،ماثل بها سرعة استجابة الله لدعاء عباده المؤمنين حيث قال: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ بالعطف بالفاء لدلالة التعقيب .وفي هذا التركيب ما لا يخفى من العناية والاهتمام بشأن المؤمنين ،فمع دلالة السرعة في الاستجابة، عبّر بالفعل (استجاب) بدل قال مثلا،لأنه يدل على القول مع الترفق و اللين و القبول للطلب،و لأن الإجابة هي :" التحري للجواب و التهيؤ له ."(1) وصيغة الاستفعال تخدم هذا المعنى فهو "أخص من أجاب ويعدى بنفسه وباللام ."(2)

وفي التركيب أيضا معنى تحقق سؤلهم أو قربه، ويساعد عليه الزمن الماضي للفعل .وذكر متعلق الفعل: ﴿لَهُمْ﴾ يفيد النص على المؤمنين خصوصا والاهتمام والعناية بشأنهم في الاستجابة،وفي إسناد الربوبية إلى ضمير المؤمنين بقوله: ﴿رَبُّهُمْ﴾ تشريف وتفخيم للمؤمنين،لنسبتهم إليه تعالى . وفي التركيب أيضا معنى التفات الجليل إليهم التفاتة رحمة وهذه منقبة عظيمة لهم .

ولما كان تأكيد حصول الأجر يسهم في ثبات نفسيات المتلقين ،نزّل المخاطبين منزلة المترددين فيه،فأكده بـ(أن) و وقع البيان بعد الإجمال بقوله: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ وقع موقعه من الحسن لحصول التشويق إلى ماهية

---

(1) المفردات مادة (جوب) .

(2) تفسير البيضاوي 1/196 .

الاستجابة، وساعد عليه الفصل بين الجملتين لكمال الاتصال؛ لأنه نزّل جملة: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ﴾ منزلة عطف البيان مع متبوعه في إفادة الإيضاح و التفسير للجملة قبلها: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وتنكير لفظ: ﴿عَمَلَ﴾ و تخصيصه بإضافة: ﴿عَامِلٍ﴾ و إردافهما بذكر الجار والمجرور: ﴿مِّنكُم﴾ تخصيص للمؤمنين بعدم إضاعة الأعمال.(١) ومعنى عدم ضياع الأعمال هذا يلوح إلى ضياع أعمال الكفار المذكور في ثنايا السورة حينما ذكر الحبط و الريح ،فكان من باب التناظر بين الحالين عن طريق ذكر طرف والرمز إلى آخر .

ولما ذكر قوله: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ نصّ على أن الذكر و الأنثى في ثبات الأجر وعدم ضياع الأعمال على السواء (٢)ويسهم تنكير كليهما في بيان دلالة العموم .

وهذا المعنى يلوّح من بعيد إلى تقبّل الله مريم لخدمة المسجد، مع كونها أنثى في أول السورة .

وقوله: ﴿بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ يشير إلى رابطة الإيمان بينهم التي هي أقوى من رابطة النسب.قال الفخر الرازي عن قوله: ﴿بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾: "ففيه وجوه: أحسنها أن يقال: (من) بمعنى (الكاف)أي: بعضكم كبعض، و مثل بعض في الثواب على الطاعة، والعقاب على المعصية ."(٣) وهذا يذكرنا بما ورد في السورة حين اصطفاء آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران فقال الحق: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ آل عمران(٣٤)

---

(١) أفعال الله لا تشبيه فيها و لا تمثيل و لا تأويل ولا تكييف و لا تعطيل .

(٢) عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله عز وجل فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض(المستدرك على الصحيحين. كتاب التفسير .رقم الحديث (٣١٧٤) باب تفسير سورة آل عمران . ٣٢٨/٢ .

(٣) التفسير الكبير .المجلد الخامس ١٢٢/٩ .

"و لما كان قد تقدّم ذكر الأنصار عموما([1]) ...خصّ المهاجرين بيانا لفضلهم ،و زيادة شرفهم بتحقيقهم لكونهم معه."([2]) فقال مستأنفا: ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُوا ﴾ و ذكر ما كتبه الله على نفسه حقا لهم، فذكر فعل الهجرة بالبناء للفاعل، ثم ذكر فعل الإخراج و الإيذاء ولم يسم فاعلهما ،وختم تلك الأفعال بفعل القتل المبني للفاعل ولغير الفاعل؛ ولعله ذكَر تلك الأفعال ولم يسم فاعلها ؛بيانا لكثرة إيذاء المؤمنين، و أن الأطراف المشتركة في إيقاعه كثيرة . ولعل قراءة ابن كثير وعامر بقولهم: (قُتِّلُوا) بتاء مشددة ([3]) تسهم في بيان كثرة الإيذاء في ساحة المعركة خاصة، فبالغ فيه بالتشديد الواقع على التاء المهموسة، وعطف بين تلك الجمل حتى يبين اجتماع كل من حصلت لهم تلك الأحوال– على انفرادها و ليس على تراتبها– اجتماعهم في تحقق القَسَم الذي أخذه تعالى على نفسه حين قال: ﴿ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ ،فاكتسب الجزاء فخامة من جوانب عدة :

أولا: التوكيد بلام القسم، ونون التوكيد الثقيلة، والمصدر المؤكد، وكلها دلالات تحقق الحصول، وإنما نزّل المؤمنين منزلة المبالغين في الإنكار؛ تحقيقا لحصول ذلك الثواب المذكور. و كون المقسم هو الله عز وجل، يعني صدق القول و تحقق وقوعه دون أدنى شك ولو كان الكلام عاريا عن القسم .

---

(١) في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ آل عمران (١٧٠)

(٢) نظم الدرر ٢/٢٠٠ .

(٣) المبسوط في القراءات العشر. الأصبهاني .تحقيق: سبيع حمزة حاكمي صـ١٧٣.بدون ط. بدون ت. مطبوعات مجمع اللغة العربية –دمشق .

ثانيا: تنكير لفظ ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ و جمعها للتنويع، ثم وصفها بقوله: ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ وفيه "تعريف بدوام تنوعها، وزهرتها، وعظيم بهجتها."(١) وفي التركيب مجاز عقلي لعلاقة المحلية؛ لأنه ذكر المحل وهي الأنهار، وأراد الحالّ بها من المياه الجارية فيها، و بلاغته تكمن في تصوير النهر صورة المتحرك الجاري بنفسه لسرعة وكثرة مافيه من مياه جارية. ولذلك أثر في إبراز جمال الجنة الموصوفة، وأثر كذلك في التشويق إليها، والتحضيض على العمل لأجلها.

ثالثا: تأكيد استحقاقهم هذا الثواب بترك الوصل للاستئناف البياني على تقدير قائل: ولم كل ذلك؟ فقال: ﴿ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللّهِ ﴾ فالجزاء مرتّب على الأوصاف الخمسة منفردة وغير مجتمعة.

رابعا: أنه قال: ﴿ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللّهِ ﴾ وأتبع بقوله: ﴿ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ فنكّر ذكر الثواب في الأول تنكير تكثير، ثم عرّفه بعد ذلك بيانا لوصفه بالحسن مع كثرته، فزاده فخامة على فخامته، و كرر ذكر العندية، و تلك منزلة عالية لأنها تعني القرب والجوار، وذكر اسم الجلالة المفخم (الله) مع أن المقام مقام إنعام؛ تناسبا مع الفخامة الحاصلة من النعيم، وذلك من تآخي الألفاظ في السياق. ولما كانت تلك الدلالات تسعى لتأكيد حصول الثواب للمذكورين مع تفخيم ذلك الجزاء؛ تمكنت الفاصلة من محلها حين قال: ﴿ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾.

ولما ذكر البيان القرآني المؤمنين وما لهم من ثواب؛ ذكر المقابل لهم وهم الكفار بتوجيه الخطاب بنهي الرسول ﷺ وكل من يصح خطابه – على سبيل من التأكيد– بنهيهم عن الاغترار بإمهال الله للكفار في تقلبهم في البلاد فقال: ﴿ لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي

---

(١) نظم الدرر ٢/٢٠٠.

الْبِلَادِ ﴾آل عمران (١٩٦) و" نزلت {لا يغرنك} في هذه الآية منزلة لا تظن أن حال الكفار حسنة فتهتم لذلك،وذلك أن المغترّ فارح بالشيء الذي يغتر به،فالكفار مغترون بتقلبهم والمؤمنون مهتمون به،لكنه ربما يقع في نفس مؤمن أن هذا الإملاء للكفار إنما هو لخير لهم فيجيء هذا جنوحا إلى حالهم،ونوعا من الاغترار،فلذلك حسنت{ لا يغرنك} ."(١) فاستعير التقلب للتصرف؛وشبه تصرف الكفار وكثرة ضربهم في البلاد والأسفار لقضاء الأعمال والتجارة بالتقلّب والتحوّل من حال إلى آخر،على سبيل الاستعارة التصريحية.(٢) والجامع : (السعي في الأرض و الاستفادة من خيراتها) وفي الاستعارة تصوير تدبير الكفار لأمورهم،وأخذهم مما شاؤوا وتركهم لما شاؤوا، أي استفادتهم من البلاد بحرية وراحة. ورشح لهذه الاستعارة قوله : ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ لأن " الغرور وهو من غرّه يغرّه بمعنى: خدعه وأطمعه بالباطل كما قال اللحياني. وهو ما اُغترّ به من متاع الدنيا... وقال الأصمعي:الغرور الذي يغرّك،والغُرور بالضم الأباطيل."(٣) ومجيء الفعلين بالمضارعة يجدد هذا النهي ويضفي عليهما معنى استمرارية النهي عن الغرور بحال الكفار في تصرفهما في البلاد بحرية على مدى الأزمان . ومدلول التركيب في معانيه الأولى يشير إلى تسلية المؤمنين وتصبيرهم وتثبيتهم. وفي معانيه الثانية إلى إمهال الكافرين في النعيم ليزداد العذاب . ولعل قراءة الجمهور بالتشديد في الراء والنون(٤) تسهم في التنبيه إلى هذا المعنى،وإعقابها بلفظ: ﴿ تَقَلُّبُ﴾ بضمتين متواليتين تبين عن تكلف في النطق يضاهي تكلف هؤلاء الكفار في ضربهم في الأرض . وإنما ذكر تقلّب الكفار في البلاد،ونصّ عليه خصوصا؛تناسبا مع كونهم أمة مادية تحب الأموال،وتسعى إليها بشتى الطرق،وذلك يلوح للمتشابه المذكور في أول

(١) المحرر الوجيز ٢/٥٥٨ .

(٢) يجوز أن تكون كناية عن صفة التصرف في الأرض والاستفادة من نعائمها و خيراتها بحرية وراحة .

(٣) لسان العرب.مادة (غرر) .

(٤) المبسوط في القراءات العشر صـ١٧٣ .

السورة (١) وقبل انتهائها.(٢) ويمد يدا إلى استلال طائفة من مؤمني أهل الكتاب والنص على وفائهم وأمانتهم على الأموال(٣) في منتصف السورة .(٤) ويعمل التوصل إلى الكفار بالاسم الموصول ﴿ الَّذِينَ ﴾ على تنبيه المخاطب إلى سوء عملهم بالنص على كفرهم .

ولما كان النهي عن عدم الاغترار بحال الكفار يثير سؤالا ؛ نزّلت جملة ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ آل عمران (١٩٧) منزلة الجواب من السؤال للاستئناف البياني ؛ على تقدير سؤال: لماذا لا يغتر المؤمن بتقلب الكافر في البلاد؟ وإنما كان هذا الاستئناف ؛ لإغناء السامع من أن يسأل . وجوابه: لما كان تصرفهم في البلاد إمهالا من الله وليس تنعيما ؛ كان ذلك الإمهال محدودا بوقت معين سينقضي لذلك عبّر بقوله: ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ وتنكير لفظ ﴿ مَتَاعٌ ﴾ ثم وصفه بالقلة بيان لنوعية هذا المتاع المذكور، فهو ليس مما يُفرح به، بل هو سريع الزوال لا خير فيه، وحذف المسند إليه في هذا المقام للاختصار والاحتراز عن العبث بناء على الظاهر، للانقطاع بالذم وتقديره : متاعهم متاع قليل، بمعنى فانٍ، يؤول إلى العدم، وفيه إشمام معنى التهديد و الوعيد . ثم صُرّح بهذا التهديد حين عُطف عليه مايبين عن الإمهال بقوله: ﴿ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ وأكد على حقارة حالهم وسوئه

---

(١) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا . . . ﴾ آل عمران (١٠) .

(٢) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا . . . ﴾ آل عمران (١١٦) .

(٣) في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ . . . ﴾ آل عمران (٧٥).

(٤) لكل تلك المعاني الممتدة على صعيد السورة فإني لا أؤيد قول السبحاني عن عدم تلاؤم هذا المعنى المذكور مع السياق، وأن معنى الآية كما يقول: "لا تظن أن تقلب هؤلاء الكافرين في البلاد وسعيهم لوقف تيار الإسلام سيعرقل مسيره، فإنه سينمو ويزدهر على الرغم من معارضة الأعداء "ففضلا عن تفسير ابن عباس ترجمان القرآن فماذكر في تفسير الآية عند المفسرين يتواءم تواؤما شديدا مع تناول هذه السورة للأموال في المواضع المشار إليها في المتن ؛ فهذا المعنى وثيق الصلة بمعاني السورة ويرجع لهذا الموضوع مفصلا في فصل (تآخي معاني سورة آل عمران و انسجامها) .(ينظر كتاب البرهان في نظام القرآن.السبحاني صـ٦١٩-٦٢٢) .

حين استأنف فقال: ﴿ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ "والمخصوص بالذم محذوف أي: بئس ما مهدوا لأنفسهم جهنم ."(١) واستعير المهاد للطريق الموصل إلى جهنم ؛وشبه بسط الطريق لدخول الكفار إلى نار جهنم ،ببسط كل مامن شأنه إيجاد الراحة للباحث عن الراحة على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية. والجامع (التيسير لسلك الطريق المرغوب فيه) وهذا يعني أن الله سهل لهم مهادا يطؤونه،ولكنه خرج بذمه عن كونه وثيرا إلى كونه عاريا مما يريح الأبدان،مفتقرا إلى معنى الراحة والانبساط . وهذا يعود بنا إلى نظيرهم من المؤمنين حين ذكر ثوابهم وكثّره وحسّنه،وأكّد وقوعه وحقّق حصوله،فمتاعهم متاع كثير دائم،ومتاع الكافرين متاع قليل منقطع إلى عذاب .وهذا من تناظر المعاني و تقابلها .

ولما عطف بـ﴿ ثُمَّ ﴾ أبان أنها مرحلة تخلفها مرحلة أخرى،ليست على سبيل السرعة،وهي مرحلة العذاب،وتلك دلالة استخدام﴿ ثُمَّ ﴾ الدالة على الترتيب مع التراخي،ودلالة لفظ ﴿ الْمِهَادُ ﴾ لأن المهاد هو ما يُهيّأ أو يُسوّى،وإذا كانت جهنم تُهيّأ للكافرين وتُسوّى فمعنى ذلك أن العذاب المنتظر عذاب شديد،ويساعد على هذا المعنى ذمها بقوله: ﴿ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ ونلمس من الكلام السابق ما يدل على التجريد فكأنه اشتق من جهنم التي هي مأوى الكافرين جهنم أخرى معدة ومهيأة للكافرين أشد بأسا من جهنم الأولى،فصح أن ينتزع من جهنم موصوف آخر متصف بصفة التسوية ،وفيه تهديد و وعيد من أن يكون هذا الجزاء هو الجزاء المنتظر .

ولما ذكر النظم الكريم هذا العذاب وذاك المتاع؛ذكر نظيرهما فقال: ﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللّهِ وَمَا عِندَ اللّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ ﴾ آل عمران (١٩٨) فذكر مآل المؤمنين في الجنة،من الخلود في الجنان التي تجري

(١) تفسير أبي السعود ٨٩/٢ .

من تحتها الأنهار "وفيه بيان لكمال حسن حال المؤمنين غبّ بيان ،و تكرير له إثر تقرير مع زيادة خلودهم في الجنات ليتم بذلك سرورهم ."([1]) وابتدأ بالاستدراك لتكون المقابلة في أشد حالاتها من الوضوح .وكأن هذه الآية من نسل الآية التي في أول السورة التي تقول: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ آل عمران (١٥) وفيهما الإشادة بالتقوى والمتقين .

ومن بيان عظم المنزلة ذكر العندية للمتقين حيث قال: ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ فكأنهم ضيوف للرحمان، فكيف سيكون نزلهم والمنزل هو الله جلت عظمته! فلابد أنه نعيم عظيم اكتسب تلك الصفة من نسبته إلى عظيم لا تدرك عظمته، وأكد تحققه بمجيء المصدر عاريا عن زمان بعينه .

وزاد وصفهم مع التقوى بوصفهم بالبر فقال: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ و إنما كان الوعد بالعندية ؛ بيانا لعلو مكانهم، وكون منزلتهم لا ينالها إلا الأتقياء الأبرار الذين سأل المؤمنون ربهم في بداية الختام أن يكونوا من زمرتهم .فأُسندت العندية لله فكان النعيم من العظمة والجلال مايليق بلفظ الجلالة المنسوب إليه. وساعد على بيان عظمته التعبير بـ﴿مَا﴾ الموصولة الدالة على عظم ما عند الله من الثواب، ودلّ على فضله بالتعبير بلفظ: ﴿خَيْرٌ﴾ لأنه اسم جامع لكل بر. وكأن هناك تقابلا بين نُزُل الكافرين المهد لدخول النار ،وبين نُزُل المؤمنين المهد بكل ما من شأنه العلو بمنزلة المؤمنين في الجنة .

---

(١) تفسير أبي السعود ٨٩/٢ .

ولما ذكر المتقين ؛نصّ على مؤمني أهل الكتاب(1) فقال : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ آل عمران (١٩٩) ولعل مجيء الفعل ﴿ أُنزِلَ ﴾ بدون تسمية فاعله يسهم في بيان الإيمان بكل . ثم إن إردافه بالحال ﴿ خَاشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ يؤكد على حقيقة إيمان بعض من أهل الكتاب ،فإيمانهم ليس عرضيا أو تقية إنما هو ثابت مستقر في نفوسهم .

وأكد هذا المعنى بتنزيل الجملة الثانية منزلة التأكيد من متبوعه في إفادة التقرير،ففصل بين الجملتين دفعا لتوهم الغلط ،لكمال الاتصال فقال : ﴿ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ فنفى عنهم رضاهم بالخسيس من ثمن الدنيا نظير استبدال آيات الله ،و ذكر فعلهم على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ،فشبه عدم رضا مؤمني أهل الكتاب عن استبدال العرض الحقير من أعراض الدنيا بآيات الله ،بعدم رضا البائع عن استبدال الثمن القليل بالبضاعة الجيدة العالية ،و الجامع : (عدم استبدال الوضيع الحقير بالغالي الثمين) وإنما ذكر الشراء والثمن تناسبا مع ما يشتهون من الأموال؛حتى يبيّن أن هذه الفئة المستلة لم تكن على منهج الكفار في أفعالهم .وفيه تعريض بأهل الكتاب الموسومين بالكبر لادعائهم أنهم الأحبار والرهبان،الذين يحرفون ما في الكتاب من خبر محمد ﷺ لعرض خسيس من أعراض الدنيا.

---

(1) نزلت هذه الآية في النجاشي ، فعن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال نزل بالنجاشي عدو من أرضهم فجاءه المهاجرون فقالوا : إنا نحب أن نخرج إليهم حتى نقاتل معك وترى جرأتنا ونجزيك بما صنعت معنا ،فقال: لا دواء بنصرة الله خير من دواء بنصرة الناس ،قال : وفيه نزلت وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله(المستدرك على الصحيحين.كتاب التفسير .رقم الحديث(٣١٧٥) باب تفسير سورة آل عمران ٣٢٩/٢)

ولما تأكد حال إيمانهم بما سبق من جملة عدم رضاهم بالخسيس من أعراض الدنيا ؛نزّل الجملة الثانية منزلة الجواب من السؤال، ففصل للاستئناف البياني على تقدير سؤال: وماجزاؤهم ؟ فقال: ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ فقصد إلى تكثير المعنى بقليل اللفظ ،وأشار إليهم بالبعيد لبعد مكانتهم و منزلتهم ،وخصهم بالأجر بدلالة تقديم متعلق الخبر المحذوف . و لما كان المقام مقام إنعام ؛عبّر بلفظ { الرب }تناسبا مع مقام الإنعام .

والتركيز على العندية في هذه الآية و سابقاتها فيه معان عظيمة؛ فلعل العندية هذه تترجم عن معنى الجوار في ملكوت الله .(1) كما أنها تبين عن علو المنزلة، أو الفوقية مع حصول النعيم، يعني نعيما روحيا ،و نعيما ماديا .(2)

فلما كان نعيم الدنيا على قدر تصورات البشر وإمكاناتهم ؛كان نعيما زائلا ،فأشار إليه بقوله: ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ .ولما كان نعيم الآخرة كما يريده رب البشر كان نعيما هائلا ،دائما لا قدرة للبشر على تخيّله، أو تصوّر جزء منه، لذلك كُثِّف مجيء العندية في خاتمة السورة، حيث وردت خمس مرات، للتأكيد على النعيم الهائل الذي لا يتصور و المعد للمؤمنين خاصة .

وترك العطف في فاصلة الآية فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ لكمال الاتصال ؛لأن هذه الجملة نُزّلت منزلة التأكيد من متبوعه في إفادة تقرير تحقق حصول الأجر لمؤمني أهل الكتاب ،لسرعة إحصاء الله لأعمال عباده ،و مجازاتهم عليها ، فلا حاجة للإبطاء أوالتأخير في حسابهم ،و زاد معنى التأكيد تأكيدا ؛تركيب الجملة من(إن) و الجملة

---

(1) مثل قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ التحريم (11) .

(2) مثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ آل عمران (15) .

الاسمية. مع وضع المظهر موضع المضمر فخامة وجلالا، و تنبيها إلى أن الله هو الذي يتولى الجزاء على الأعمال، وأسهم لفظ الجلالة: ﴿ اللَّهَ ﴾ في بيان هذا المعنى . وفيه تسلية لمؤمني أهل الكتاب ومن يجري مجراهم .

وهذا التعقيب في الآية السابقة وإن كان محمولا على الثواب إلا أنه يصح أن يحمل على معنيي الثواب و العقاب .والسياق هو الذي يحملنا على القول بالمعنى المراد .(1)

وخُتمت السورة بجماع الأمر كله وبما يضمن للمؤمنين الفوز والفلاح فيُنصرون على خصومهم، ويعيشون آمنين مستقرين في الدنيا، وفي الآخرة بأخذ حظهم من النعيم الموعود، فناداهم النظم الكريم بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ آل عمران(٢٠٠) فلما كان الصبر جماع الأمور كلها، حيث إن في الأوامر صبرا على تنفيذها وفي النواهي صبرا على اتقائها، ابتدر بأمرهم بالصبر، وهو ما يتعلق بالإنسان مع نفسه وأموره .

وثنى بالمصابرة المقتضية وجود صبر فوق صبر أو هو الصبر في وجه الصابر كما عبّر عنه ابن عاشور .(2) ولعل هذا التعبير الأخير يحتاج إلى تكافل المجتمع بأسره .(3)

(١) ذلك مثل قوله في بداية السورة : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ آل عمران (١٩) فكلتا الآيتين في أهل الكتاب إلا أن الأخيرة في المختلفين منهم في الإسلام والأولى في المؤمنين من أهل الكتاب ،فجاءت فاصلة الآية في قوله: ﴿ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ مقتضية معنى سرعة العقاب، و ذلك مستقى من سياقها ،إلا أنها تحمل على الوجهين كذلك، أي: سرعة حساب المسيء والمحسن .

(٢) ينظر التحرير والتنوير .المجلد الثاني ٢٠٨/٤ .

(٣) لقوله تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ العصر(١-٢-٣) .

وعطف البيان القرآني بالأمر بالمرابطة على المصابرة .والمدلول الحاصل من الرباط (1) أوسع من جعل الخيول مربوطة استعدادا للجهاد، إنه إشعار الأعداء بعدم الغفلة عنهم،وأن المؤمن مستعد للقائهم،والظاهر أن المرابطة كناية عن لزوم إظهار القوة والعزم على ملاقاة العدو والمواظبة على ذلك،ولعل المواظبة هذه مستفادة من" قول الشَّيبانيّ: ماءٌ مترابط، أي دائمٌ لا يَبرح ."(2) مما يفيد في إيقاع الرهبة في قلوب الأعداء وقلوب غيرهم أيضا.(3)

وقد تحتمل المرابطة وجها آخر صرّح به الرسول في الحديث المروي عن أبي هريرة– رضي الله عنه– حين قال:" ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ قالوا:بلى يارسول الله .قال:إسباغ الوضوء على المكاره،وكثرة الخطا إلى المساجد،وانتظار الصلاة بعد الصلاة،فذلكم الرباط ."(4)؛لأن فيها لزوم الطاعة،وذلك يستلزم قوة العزيمة النابعة عن رسوخ الإيمان .

وختم البيان القرآني تلك الصفات بما يعين عليها ويلفها تحت نسجه وهو الأمر بتقوى الله،أي أن يجعل العبد بينه وبين ربه وقاية،وكل تلك الأوامر وصل بعضها ببعض بالعطف وأشركها في حكم واحد في الإعراب و في حصول الفلاح،وكأن الأوامر الأربعة أسباب تحقق الفلاح المطلق أي الشامل في الدنيا و الآخرة ؛لذلك ترك العطف للاستئناف البياني،فقال: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ فنُزلت هذه الجملة منزلة الجواب عن سؤال اقتضته

(1) مقاييس اللغة .مادة (ربط).

(2) السابق .مادة (ربط) .

(3) استنادا إلى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ . . . ﴾ الأنفال(٦٠) .

(4) صحيح مسلم.كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.رقم الحديث(٢٥١) باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره ٢١٩/١ وصحيح ابن حبّان.باب فضل الوضوء.رقم الحديث(١٠٣٨)ذكر حط الخطايا و رفع الدرجات بإسباغ الوضوء على المكاره٣/ ٣١٣ .

الجملة الأولى ،لأن تقدير الكلام: ولماذا خصت هذه الأوامر للأمر بها ؟فيكون الجواب :لأنها أسباب للنجاح . فبالفصل أغنى السامع عن أن يسأل.

ويتجلى التوازن النغمي في ختام سورة آل عمران مما يساعد على إبراز المعاني وإيضاحها؛فالتوازن الجزئي يظهر لنا في التقسيم مثل قوله: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ //وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ آل عمران (١٩٠)، وقوله: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً //وَقُعُوداً //وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾ آل عمران (١٩١)، وقوله: ﴿ فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا //وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا //وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾ آل عمران(١٩٣)، وقوله: ﴿ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ //وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ آل عمران (١٩٩) .

والطباق مثل قوله :(السماوات —الأرض) مرتين(الليل —النهار)(قياما —قعودا)(ذكر– أنثى)
والجناس مثل قوله:(يذكرون — يتفكرون) (أخزيته — تخزنا) (مناديا– ينادي)
(الإيمان —آمنوا– آمنا — يؤمن) (عمل — عامل) (قاتلوا — قتلوا) (ربهم — لهم) مرتين
(إليكم —إليهم) (اصبروا– صابروا)

وعمل التنوين – فتحا و ضما و كسرا– على التنبيه لبعض المعاني مثل قوله :(قياماً– قعوداً – باطلاً– منادياً – جناتٍ– ثواباً — متاعٌ — قليلٌ – جناتٌ – نزلاً– خيرٌ — ثمناً – قليلاً)و على إيجاد نوع من الإيقاع القوي في الآيات؛يسانده التشديد اللافت في بعض المعاني مثل :(كفِّر– عنّا سيّاتنا — توفَّنا – وعدتَّنا — لأكفّرنّ– لأدخلنَّهم — يغرَّنَّك — تقلُّب — جهنَّم) ثم إن الإتيان بالضم متواليا يسهم كذلك في زيادة مصدر القوة في الإيقاع مثل قوله:(رُسُلك – نُزُلا — تقلُّبُ) .

ولحرف الروي أثر في التنبيه على المعاني المرادة ،فالروي بين الراء والباء والدال،والراء حرف متكرر يتردد في السمع،والباء والدال حرفان شديدان انفجاريان،وكلاهما

ينبهان السمع والقلب معا ،وهذا يتناسب مع مقام الإقرار بالملك والقدرة والنصرة من جانب الله ولا غير. ويتناسب كذلك مع مقام الوعد والإيعاد كذلك .
ولعل الحرف الذي قبل الروي وهو الألف يؤثر بشكل فعال في وضوح المعاني ،ويوحي بثبات المعاني المذكورة المستمدة من ثبات الامتداد بحرف الألف،ولعله كماأُسلف ذكره(١)يتناسب مع مقام الدعاء و الطلب .

ونلقى التوازن الكلي في الآيات،حيث المؤاخاة بين المعاني والتوفيق،فآخى البيان القرآني بين السماوات والأرض وبين الليل والنهار،وبين إنجاز الوعد والاستعاذة من الوعيد مؤاخاة قائمة على التناظر .وآخى بين الذكر والتفكر،وبين غفران الذنوب وتكفير السيئات والوفاة مع الأبرار، وبين الهجرة والإخراج من الديار و الإيذاء في سبيله والمقاتلة لأجله ،وبين الصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى مؤاخاة قائمة على التقارب .هذا التآخي من شأنه أن يرتب المعاني وينسقها وبالتالي يرتب نغمها و إيقاعها .

وتتسم خاتمة سورة آل عمران بحسن الدلالة و وضوحها،حيث أُصيبت المعاني ورُتبت على أقدار الكلام فلا تدافع بينها،فأول ما ذكر البيان القرآني الثناء على أولي الألباب،ثم فصّل في صفاتهم بذكر صفتين تدل عليهما خاصة؛الأولى: ذكر الله في كل الأحوال،والثانية: التفكر في مخلوقاته .
والملحوظ أن الذكر لا يحصل إلا بالتذكر،والتذكر والتفكر عمليتان عقليتان؛لذلك جمعا تحت لواء أولي الألباب. وإنما سبق الذكر التفكر لأن التذكر سابق على التفكر،ولا يحصل إلا به فروعي ترتيب الحدوث .
وعاد وشمل الصفتين معا بذكر الفكرة الناتجة عن العمليتين لزوما؛من تنزيه أفعال الله عن العبث الذي يقتضي في نهاية الأمر الإقرار بوحدانية الله وخشيته،وهذا ظاهر من طلب وقاية

(١) كما جاء في خاتمة سورة البقرة .

العذاب، ومغفرة الذنوب ، وتكفير السيئات ، والوفاة مع الأبرار، والطمع فيما عند الله من الثواب .

وكما جمع بين العمليتين ، وأصحابهما بذكر نتائجها الصادرة من قبل المفكِّر ذاته؛ جمع بين أصحابهما بذكر النتائج الصادرة من قبل المفكَّر فيه من الاستجابة للدعاء والمجازاة بالأعمال. فأجمل وعمم بقوله : ﴿ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم ﴾ ثم فصّل بقوله : ﴿ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى ﴾ وخصص بقوله : ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا . . . ﴾ .

ولما ذكر النظم القرآني أولي الألباب وفصّل في صفاتهم وبيان حالهم وجزائهم؛ قابله بذكر نظرائهم؛ وهم الكفار الذين انشغلوا عن إعمال العقول بالتقلّب في الأعمال لأجل الربح المادي، وذكر مآلهم وذمّه، و طوى ذكرهم سريعا؛ ليعود لذكر من يستحق الذكر، وأسهم الاستدراك المفيد معنى القلب في طي ذكرهم .ولما ذكر تمهيد الطريق للكافرين لدخول النار قابلهم بذكر إكرام المؤمنين بدخول الجنة ضيوفا عند الرحمان .

ولما أكد تحقق تكفير السيئات ودخول الجنات التي تجري من تحتها الأنهار؛ للذين هاجروا، والذين أخرجوا من ديارهم، وأوذوا في سبيله، وقاتلوا ، وقتلوا؛ عاد وعمّم الجزاء بدخول الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، مع الخلود فيها للمتقين عامة، ونصّ على مؤمني أهل الكتاب خصوصا ؛ رفعا لتوهم من ظن أن أهل الكتاب قد خُرّجوا عامتهم من المآل الحسن .

ثم لمّ شمل كل من آمن بالنداء ؛ للأمر بالصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى. والملحوظ هو الترقي في هذه الأوامر؛ إذ المصابرة أشد من الصبر لأنها تحتاج إلى مفاعلة، ولزوم الطاعة أعلى من المصابرة، والتقوى هي السمو ذاته. وجمع كل تلك الأوامر وأدخلها تحت نطاق تحقق الفلاح .

وتمام الدلالة كذلك من أبرز مايميز خاتمة آل عمران؛لأنه لما ذكر حال أولي الألباب من استمرارية ذكر الله وتجدده بدلالة الفعل المضارع أتمّ المعنى بذكر الأحوال الثلاثة التي يكون عليها الإنسان ولا ينقطع فيها عن ذكر الله .ولما ذكر حال المؤمنين من تجدد التفكر واستمراريته بدلالة الفعل المضارع كذلك؛أتم المعنى بذكر نتيجة التفكر من الإقرار بوجود الحكمة من الخلق .

ولما عمم بقوله: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم﴾ أتمه بذكر الجنسين (الذكر — الأنثى) ولما خصص تحقق التكفير ودخول الجنات للمهاجرين ،والمخرجين من ديارهم، ومن أُوذي في سبيل الله،والمقاتلين (قاتل و مقتول)؛عمم بذكر جزاء المتقين لربهم عامة سواء كانوا من السابقين،أو لم يكونوا منهم . ولما ذكر الكفار استل المؤمنين من أهل الكتاب،فاحترس أن يكونوا في زمرتهم فكمّل المعنى ،ولم يمكن الزيادة عليه .

كما اتسمت الخاتمة بدقة المدخل؛لأن نصبة الكلام وهيأته ليست قائمة لإثبات أن في المخلوقات آيات للمتفكرين،فذلك معلوم لا يسعى لإثباته أحد؛إنما هي قائمة لإثبات أن إعمال العقل فيما هو قريب جلي يدل على وحدانية الله ،وأن إعمال العقل أصلا منقبة وشرف لتحقيقه نتيجة واحدة حتمية ؛فلا داعي للجدال و المراء،وأن ما مرّ من جدال أهل الكتاب والنصارى على مدى السورة لإثبات وحدانية الله؛إنما هو لإقامة الحجة والبرهان عليهم لا غير،فوحدانيته تعالى قائمة في خلق الأنفس قبل أي خلق،فهي لا تحتاج إلى إثبات. والحاجة إليه تعالى قائمة في كل شيء لأنه المصرّف والمدبر،وبيده مقاليد الأمور . فكان الدخول بالتأكيد بـ(إن) مع تقديم متعلق الخبر وتأخير المبتدأ للتشويق إليه ،مع إدخال اللام المزحلقة على المبتدأ المتأخر أدل على معنى الثناء والإشادة بالمتفكرين في خلق الله،ممالو قال: آيات في خلق السماوات و الأرض .

ولما كان مقام الآيات مقام ترسيخ للعقيدة؛كان أسلوب التأكيد أصلا في هذا الترسيخ والتمكين؛لأن المقام مقام تربية جدلية،والخطاب فيها موجه إلى المنكرين المبالغين في إنكارهم – وإن كان خطابا لكل من يصح خطابه– فالتأكيد هو محور صور التراكيب ،وله طرق منها:

طريق الجمل الاسمية،فصورة الاسم تفيد ثبات المعنى به للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئا بعد شيء(1) لذلك ذخرت خاتمة السورة بصور الجمل الاسمية،من مثل قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ و﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً﴾ و﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ﴾ و﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ و﴿ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ﴾و ﴿إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ و﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ﴾و﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾و﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ ﴾و﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ﴾و﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾و﴿ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾فكل تلك التراكيب أسهمت بدلالة الجملة الاسمية على ثبات المعنى المسوق،وأحيانا كانت أساليب أخرى تعضد الجملة الاسمية من مثل التأكيد بـ(إن) والتقديم والقسم،فتزداد قيمة التمكين للمعنى درجة فوق درجة .

وحفلت خاتمة السورة بصور القصر بطريق التقديم،مثل قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ﴾ وقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ وقوله: ﴿وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّ

(1) ينظر دلائل الإعجاز صـ174 .ومثله في دلالة الجملة الاسمية في القرآن الكريم .شكر محمود عبد الله صـ56 ط1 .2009 .دار دجلة /المملكة الأردنية الهاشمية – عمّان .

مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّه ﴾ و قوله : ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ و القصر يرمي إلى التأكيد ،و للتقديم نصيب منه.

وطريق أدوات التأكيد مجتمعة: ومنها (إن) وهي الأصل في التأكيد ،وهي التي "ترى الجملة إذا هي دخلت ترتبط بما قبلها و تأتلف معه، وتتحد به حتى كأن الكلامين قد أفرغا إفراغا واحدا وكأن أحدهما قد سبك في الآخر ."(١) كما في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

وتأتي (إن) مع (اللام المزحلقة) : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ ﴾ و قوله : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ ﴾ و تأتي (إن) مع (قد) كما في قوله : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾ .

ومنها التأكيد بـ(أن) التي يُقصد فيها إلى الجواب(٢) كما في قوله : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ ﴾ ومنها التأكيد بـ (نون التوكيد الثقيلة)مع(لام القسم) كما في قوله : ﴿ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ ﴾ أو نون التوكيد الثقيلة مفردة مثل قوله : ﴿ لاَ يَغُرَّنَّكَ ﴾ .

والتعبير بالمصادر فيه دلالة على التأكيد لتجرده عن الزمن من مثل المفعول المطلق في قوله: {ثوابا – نزلا – تقلب }و الأحوال المفردة (٣) في قوله : { خالدين – خاشعين }

---

(١) ينظر دلائل الإعجاز صـ٣١٦ .

(٢) ينظر السابق صـ٣٢٤ .

(٣) هناك من جوّز كون قوله: {ثوابا– نزلا } أحوالا (ينظر إعراب القرآن و بيانه ١٤١/٢–١٤٤) .

والتشديد في الصيغة مفيد للتأكيد فمن منطلق أن الزيادة في المبنى زيادة في المعنى نجد أن التضعيف في الأفعال الثلاثية قد أدى معنى التأكيد على حصوله وذلك مثل: {توفّنا – يغرّنك– تقلّب }.

فكل تلك الطرق أوجدت نصا شديد التماسك والتلاحم قائما في بنيته على تثبيت معانيه وتمكينها في الصدور، مما جعل لها أثرا في النفس واستقرارا ورسوخا؛ خاصة أنها آخر مايقرع الآذان بموقعها من خاتمة السورة .

وإذا كانت معاني خاتمة السورة تنعطف على مثلها في مطلع السورة فإن صورهما تتقارب وتتشاكل كذلك ؛فلما كان المقام في مطلع السورة مقام إثبات الوحدانية لله وحده دون سواه؛كانت الجمل الاسمية من أهم القوالب التي تعمل على تحقيق هذا الإثبات مثل قوله: ﴿ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ آل عمران(٢) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ آل عمران(٤) ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَخْفَىَ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء ﴾ آل عمران(٥) ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ آل عمران(٦) ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ آل عمران(٧) ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ آل عمران(٧) ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ آل عمران(٩) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئاً وَأُولَـئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ آل عمران(١٠) وهذا التكثيف في مجيء الجمل الاسمية يذكرنا بقرينه في خاتمة السورة المذكور سالفا؛ غير أن مجيء الخبر بعد الخبر يميز بعض الجمل الاسمية في مطلع السورة ،فمجيء الصفتين متواليتين مثل: ﴿ الْحَيُّ

﴿ الْقَيُّومُ ﴾ و ﴿ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ و ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ يعزز المعنى و يقويه ،وموقع الصفتين من الخبرية يدعم هذا المعنى ،وهذا الحضور للصفتين متواليتين استدعاه داعي إثبات ألوهية الله تعالى ،وهو مالم تحتج إليه معاني خاتمة السورة .

والتأكيد بـ(إن) كذلك كان له نصيب من مطلع السورة في آيات عدة، مثل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ آل عمران(٤) ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ ﴾ آل عمران(٥) ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ آل عمران(٨) ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ آل عمران(٩) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم ﴾ آل عمران(١٠) ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾ آل عمران (١٣) ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ آل عمران(١٧) .

واستعمال مجال السماوات والأرض في إثبات معنى معين وارد في مطلع السورة وخاتمتها، فلما كانت نسبة صفة مطلق العلم لله تعالى من مقتضيات الألوهية؛ عبّر النظم القرآني عن هذا المعنى بتأكيد نفي خفاء شيء في الأرض والسماء بتكرير إسناد (لا) مرتين، على السماء مرة وعلى الأرض مرة؛ للدلالة على عموم العلم بما فيهما على السواء دون إفراد أحدهما عن الآخر . ولما كان المقام في خاتمة السورة قائما على إثبات أن ألوهية الخالق يُستدل عليها من خلقه؛ كان مجال السماوات والأرض مفيدا في تحقيق إثبات أنها علامات قائمات على وجود آيات عظيمة، ولكن هذه العلامات لا تكون إلا لفئة مخصوصة.

والنظم الكريم أفرد ذكر السماء في مطلع السورة ،في حين جمعها في خاتمة السورة فاختلفت صورتهما ،وإن كان المجال واحدا؛ وذلك أنه لما كان المقام في مطلع السورة يقتضي بيان مطلق العلم لما في السماء والأرض دون القصد إلى السماء ذاتها، فقُصد بها الجهة، أي أن علمه شامل لكل ما كان من جهة السماء، وكل ماكان من جهة الأرض؛ فانطبق الكون كله تحت

علمه تعالى – لما كان ذلك ؛أفرد السماء ولم يجمعها .ولما كان المقام في خاتمة السورة مقام تفكر في السماوات والأرض،أي القصد إلى التفكر في ذوات السماوات والأرض وليس جهتها؛جاء بها مجموعة،فحرف الجر أفاد استغراق التفكر في ذواتهما،وهذا هو المطلوب للاستدلال على ألوهية الخالق،وتلك عادة القرآن في جمعه وإفراده لهذه اللفظة(١)،كما قدّم ذكر الأرض في مطلع السورة وأخرها في خاتمة السورة " لإظهار الاعتناء بشأن أحوال أهلها."(٢)

وأسلوب القصر كما هو متوافر في خاتمة السورة ؛هو أصل في مطلع السورة كذلك ،خاصة أن المقام مقام إثبات ألوهية ؛واحتل القصر بطريق النفي والاستثناء الصدارة في المطلع من مثل قوله : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ آل عمران(٢) وقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ آل عمران (٦) وقوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ . . . وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ آل عمران (٧) .

والثناء على أولي الألباب ورد في مطلع السورة وخاتمتها،ولكن صورها الحاملة له اختلفت ؛فلما كان المقام في مطلع السورة مقام تأسيس للثناء على المؤمنين الراسخين في العلم،المقرّين بالإيمان ؛قصر التذكر على أولي الألباب – أي : "حق التذكر."(٣) –بطريق النفي والاستثناء،فأعلم عن مكانهم وفضلهم بقصر النفع والتذكر على المؤمنين قصرا حقيقيا ادعائيا،فعمل بأسلوب القصر على تأكيد تلك المكانة والفضل .

---

(١) يرجع لتتبع ذلك إلى كتاب من أسرار القرآن .صفاء الكلمة .عبد الفتاح لاشين .صـ١٢١إلى ١٢٦ .بدون ط .١٤٠٣– ١٩٨٣ دار المريخ / الرياض .

(٢) تفسير أبي السعود ٣٣٥/١ .

(٣) السابق ٣٣٧/١ .

ولما كان المقام في خاتمة السورة قائما كذلك على الثناء على أولي الألباب ،وكان قد أسس لرفعة مكانهم،وتميّزهم عن غيرهم ،وأكده في مطلع السورة ؛لم يكن للتأكيد على رفعة مكانهم محل في خاتمة السورة،فعمل على تأكيد معنى آخر من نسل المعنى الأول،وهو أن الاستدلال بالخلق على الخالق من التفكرالذي لا يكون لغير الألباب ،وطريق هذا التأكيد استعمال (إن) مع الجملة الاسمية ولام الابتداء -كما أسلف ذكره – ثم فصّل في صفاتهم .

ومن الصور المستعملة في مطلع السورة وخاتمتها ؛الدعاء بطلب الوقاية من عذاب النار،ففي خاتمة السورة تصدّر هذا الدعاء كل الأدعية ،وكان طلبه تفريعا على تنزيه الله عن انعدام الحكمة في أفعاله تعالى ،وصورته فعل الأمر الذي خرج من معنى الاستعلاء إلى معنى الضراعة،وكانت فاصلة الآية متمكنة في محلها لما قررنا سابقا من المعاني .أما وروده في مطلع السورة فكان على سبيل الثناء والإشادة بالمتقين الذين من صفاتهم كيت وكيت حيث قال: ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . . . ﴾ آل عمران (١٥-١٦) ففرّع طلب الوقاية من عذاب النار على إقرارهم بالإيمان و طلب الغفران ،وكأنه يحضضهم على قول هذا الدعاء قرين اعتقادهم،وصورته هي نفسها التي في خاتمة السورة ،وهذا من التوافق التام بين الصورتين.

ومن الصور المتقاربة كثيرا والمستعملة في كلا المقطعين الثناء على الله بعدم إخلاف الميعاد ؛فأتى ذكره في مطلع السورة بعد دعاء المؤمنين لربهم بعدم زيغ قلوبهم ،وطلبهم وهب الرحمة،ثم إقرارهم بالبعث و النشور،حيث قال: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ آل عمران (٩) فكان يظهر فيه معنى الخوف والاحتراس من ذلك اليوم ،فنبه إلى هذا المعنى من خلال قول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ آل عمران (٩) .

وجاء هذا التعبير في خاتمة السورة بعد الإقرار بتحقق الخزي لمن كُتب عليه دخول النار مع انتفاء النصرة عنهم ،والإقرار بنعمة بعث الرسل واستجابة المؤمنين لهم ،وطلب مغفرة الذنوب وتكفير السيئات و الوفاة مع الأبرار ،وإيتاء الموعود على ألسنة الرسل فقال: ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ آل عمران (١٩٤) .وجاء بها في المطلع بالالتفات من المخاطب إلى الغائب،وبوضع المظهر موضع المضمر للتنبيه إلى جلال هذا المعنى ،وأنه يوم مهيب.ولم يحتج في خاتمة السورة أن يلفت أو ينبه إلى معنى بعينه؛ لأن المقام مقام إنعام،فكان حاملا معنى الثناء المحضّ عليه سبحانه؛مع ظهور القرب و المناجاة ،مع جواز أن يحمل المعنى على الإيعاد لمن يوجه إليه الإيعاد .

ومن الصور الحاملة للمعنى و المتشابهة بين الطرفين (المطلع – الخاتمة): ذم مآل المشركين بقوله: ﴿ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ فلما ذكر الكفار في مطلع السورة ،أكد على نفي إغناء الأموال والأولاد عنهم بتكرار الإسناد مرتين،مرة على الأموال ومرة على الأولاد،وبالغ في إيقاع الترهيب بهم بتشبيههم بوقود النار،وقصر هذا الوصف عليهم بالفصل بالضمير بين المسند و المسند إليه،ثم أكد على سوء مآل الكفار بالتوعد بالغلبة و الحشر إلى جهنم،ووسم المحل المحشورين إليه بالذم بقوله: ﴿ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ و هي صورة مستخدمة بذاتها في خاتمة السورة،فبعد أن وجّه النظم الكريم النهي إلى الرسول — وقصد به كل من يصح خطابه — بعدم الاغترار بتقلب الكفار في البلاد،توعدهم بزوال متعهم والإيواء إلى جهنم وأقفل بنفس الفاصلة،فاستعار المهاد في التركيبين للكافرين،وكان تشابها تاما بين الصورتين وإنما كان ذلك كذلك ؛لتشابه المعنيين،فكأنه يرسخ المعنى ويقرره في الصدور .

ومن المعاني التي توحي بشيء من التواصل بين الصور ؛مجيء الصفات الخمس في مطلع السورة و خاتمتها ؛ففي مطلع السورة جاءت الصفات([1]) على صورة الاسم ،وقد هيمن الكمال على كل صفة فيها بتعريفها بأل المفيدة استغراق الجنس فقال : ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ آل عمران (١٧) وما جاء في خاتمة السورة اتخذ صورة الفعل الذي عُرّف فاعلوه بحيّز الصلة فقال: ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ ﴾ آل عمران (١٩٥) وإنما كان ذلك كذلك لأن الصفات التي في المطلع سبقت بقوله: ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ آل عمران (١٦) فعرّفوا بأفعالهم في حيز الصلة ،فوقعت الصفات الدالة على كمال الموصوفين بها موقعها بعد هذه الآية ،وعلم عن طريقها أنها تفريع على هذا الوصف الأول .([2]) وجاءت الصفات الخمس بالأفعال مباشرة في خاتمة السورة ؛لأنه قال قبلها: ﴿ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم ﴾ فكان من التناسب أن يبين ما هو العمل ،فذكرت في حيز الأفعال .

و الحسن و العندية وردا في كلا المقطعين فقال في مطلع السورة : ﴿ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ آل عمران (١٤) فأضيف المآب في المطلع ،وأضيف الثواب في المقطع فقال: ﴿ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ آل عمران (١٩٥). وسبق الحديث عن فضل العندية هذه .

ومعلوم أن المعاني لا تتضح في جملتها التركيبية الصغرى إلا إذا اعتبرنا مكانها من جملتها التركيبية الكبرى ؛بل إن المعنى لا يدرك مداه و لا يعرف تمامه إلا إذا اعتبرنا

---

(١) هي صفات قُطعت عن الوصفية (إعراب القرآن و بيانه ٤٧٣/١) .

(٢) يجوز إعرابه على الجرّ على أنه بدل من الاسم الموصول في الآية السابقة. (إعراب القرآن و بيانه ٤٧٣/١) .

مكانه من نصّ السورة كلها ،و هذا هو ما يدعم رجوع المعاني بعضها على بعض حتـى يُـرى المعنى في أكمل صورته، لولا ذلك لم نصل إلى معرفة عود الآيات على بعضها كما أُسلف ذكره حين دراسة تراكيب خاتمة السورة .

*　　　　*　　　　*

ثالثا :

دراسة دلالات التراكيب في خاتمة سورة النساء

خاتمة سورة النساء:

قال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ النساء (١٧٦).

بيان دلالات التراكيب:

ابتدأت آية الختام المسمّاة بآية الكلالة (١) بالجملة الفعلية: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ وفيها من إثارة الانتباه مع التشويق للخبر التالي للفعل ما لا يخفى ،فدلالته تحمل بين جوانبها بيان استشكال حكم على المسلمين و التردد فيه مرة بعد مرة . و يعزز ذلك استخدام الفعل ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ في زمنه المضارع ،مع الدلالة الوضعية للفعل بدلا من: {يسألونك} مثلا؛لأن الاستفتاء أخص في الاستخدام من السؤال ،فالفتيا :" الجواب عما يشكل من الأحكام ." (٢)

(١) سبب نزول الآية : " عن محمد بن المنكدر سمع جابر بن عبدالله قال: مرضت فأتاني رسول الله – ﷺ – وأبو بكر يعودان ماشيان فأغمي علي فتوضأ ، ثم صب علي من وضوئه فأفقت و قلت : يا رسول الله ، كيف أقضي في مالي ،فلم يرد علي شيئاً حتى نزلت آية الميراث يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة " (صحيح مسلم . كتاب الفرائض. رقم الحديث (١٦١٦) باب ميراث الكلالة ١٢٣٤/٣).

(٢)المفردات .مادة (فتي) والسؤال كما ورد في القرآن الكريم يكون عن الحكم وعن غيره، فسأل الناس عن الأهلة والنفقة والقتال والشهر الحرام والنفقة واليتامى والساعة والأنفال والروح وعن ذي القرنين وعن الجبال (ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (سأل) .

أما الاستفتاء فيكون فيما أُشكل على الناس من الأحكام وغيرها ،فالفتيا في القرآن كانت عن عدد النساء وعن الكلالة وعن رؤيا عزيز مصر ورؤيا الفتيين اللذين مع يوسف في السجن(ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة (فتيا)).

وحذف متعلق الفعل: (الكلالة) لأنه أريد ذكره ثانيا على وجه يتضمن إيقاع الفعل على صريح لفظه؛ إظهارا لكمال العناية بوقوعه عليه .

ويسهم ترك العطف بين جملة ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ والتي تليها –للاستئناف البياني[1] على تقدير سؤال: عن ماذا يستفتون ؟– يسهم في تقوية عنصر العناية المفضي إلى تركيز المعنى، حيث قال بعدها: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ . وأثّر الجناس بين الفعلين: {يستفتونك– يفتيكم } بنغمه الموسيقي بشكل بارز في إثارة الانتباه إلى ما سيتلوه، وفي إشباع النفس البشرية وشفائها بعد تطلعها إلى الإجابة.

وأفاد تركيب الجملة بتقديم المسند إليه على المسند الفعلي في قوله: ﴿اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ تقوي حكم الفتيا وتقرره في ذهن السامع وتمكنه، وهو المراد في هذا المقام .وعُرّفت الكلالة بـ(لام العهد) لأنها أصبحت معهودة في الذهن بعد أن ذكرها في آية الشتاء في أول السورة.[2]

و لما كان قوله تعالى: ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ . . .﴾ إيضاحا للكلالة المذكورة قبله في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ نزّل جملة: ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ . . .﴾ منزلة عطف البيان مع متبوعه في إفادة الإيضاح ،فترك العطف بين الجملتين لكمال الاتصال، فأزالت الخفاء في الآية السابقة ،و فصّل بعد الإجمال حتى تبدأ النفس في معرفة ماتطلعت إليه وتشوفت إلى معرفته من حكم الكلالة، فقال: ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ

(١) لأول وهلة يمكن الحكم بأن الجملتين تختلفان خبرا و إنشاء،و أن هذا الموضع من باب كمال الانقطاع ،ولكن الأعلى هو عده من الاستئناف البياني .

(٢) أي قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ . . .﴾ النساء (١٢) .

أُخْتٌ ﴾ فجاءت(إن)الشرطية لبيان الحكم حال الحاجة إليه ،وهو هلاك امرئ ليس له ولد وله أخت .ووقع الاسم بعدها فاعلا لفعل محذوف يفسره ما بعده،وتقديره: إن هلك امرؤ(١)غير ذي ولد،و الفعل الظاهر : ﴿ هَلَكَ ﴾ فعل فاعله محذوف دلّ عليه ما قبله وتقديره : إن هلك امرؤ هلك امرؤ ،فكان بمثابة التكرار و هو منشأ تقوي الحكم .

وأسهم وصف النكرة: ﴿ امْرُؤٌ ﴾ بجملة : ﴿ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ ﴾ في تخصيص حكم الكلالة بـ(امرؤ هلك) وفصل بين النعت ومنعوته بجملة : ﴿ هَلَكَ ﴾ فأشبهت التأكيد للمعنى من جهة التركيب،ومن جهة دلالة اللفظ أيضا ؛لأن الهلاك في كل معانيه دال على الافتقاد والعدم والفناء(٢)،بعكس الموت مثلا ؛لأن الموت –في أغلب أحيانه– يصير شيئا فشيئا من زوال القوة النامية،فالقوة الحاسة ،فالقوة العاقلة.(٣) فلفظ (الهلاك) أدل على الموت رأسا من لفظ (الموت) نفسه،لذلك كان فعل: {هلك} مذموما في نفسه،وكان آكد في حدوث الموت المقتضي تقسيم الإرث،وهو أحق بالمعنى من فعل الموت .
وتنكير الألفاظ (امرؤ – ولد – أخت)يدل على أنها " عامة مقصود منها أجناس مدلولاتها."(٤) فتطابق الحكم والأحوال هما المهيئان لخصوص الحكم .

---

(١)ينظر معاني القرآن وإعرابه.الزجاج أبو اسحاق إبراهيم السري.شرح وتحقيق:عبد الجليل عبده شلبي ٢٩/١ .عالم الكتب.ومثله في إعراب القرآن .النحاس ٢٥٤/١ .

(٢) الهلاك على ثلاثة أوجه:افتقاد الشيء عنك وهو عند غيرك موجود. وهلاك الشيء باستحالة وفساد: الموت . وبطلان الشيء من العال وعدمه رأسا .(ينظر المفردات. مادة (هلك) .

(٣) أنواع الموت بحسب أنواع الحياة ؛فمنه ماهو بإزاء القوة النامية، ومنها ما هو بإزاء القوة الحاسة،وزوال القوة العاقلة،والحزن المكدر للحياة ،والمنام (ينظر المفردات .مادة (موت).

(٤) تفسير التحرير والتنوير .المجلد الثالث ٦٦/٦ .

ولما كان الكلالة هو الميت ليس له والد و لا ولد؛ طوى ذكر الوالد واكتفى بالولد اختصارا. "قال الجرجاني: لفظ الولد ينطلق على الوالد والمولود ، فالوالد يسمى والدا لأنه ولد، والمولود يسمى ولدا لأنه ولد."([1]) يريد أن ذكر أحدهما دال على الآخر .

أو لأن الإشكال أكثر مايقع مع الأولاد وليس مع الآباء .أو أنه" بيّن حكم انتفاء الولد، ووكّل حكم انتفاء الوالد إلى بيان السنة، وهو قوله ﷺ : " ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى عصبة ذكر ." "([2])

ولما قال: ﴿ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ ﴾ خصص المسألة أكثر، فالحكم مخصص لامرئ هلك ليس له ولد وله أخت . و الأخت المقصودة في هذه الآية هي التي لأب و أم، أو لأب واستدل العلماء على ذلك بأمرين، الأول: أن الأخت التي لأم وردت في الآية الأولى في أول السورة . الثاني: ورود جملة: ﴿ وَهُوَ يَرِثُهَآ ﴾ لأن الأخ لأم لا يرث جميع المال .([3])

ولما قال: ﴿ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَ ﴾ بنى الجواب على الشرط السابق، و حذف مفعول الترك لدلالة العموم والشمول للنصيب المتروك دون تقييد ،وساعد على عموم الفعل المجيء بـ(ما) الموصولة تسنده .

ولما كان المتبادر إلى الأذهان هو السؤال عن النصف الآخر كانت هناك إشارة إلى محذوف، فحذف النصف الآخر من التركة ؛لأن تقدير الكلام: والنصف الباقي للعصبة، ولعله لم يذكرها لأن السنّة تولت الكشف عن هذه النقطة التي لا تعتبر ركيزة في موضوع الكلالة .

ووصل للتوسط بين الكمالين فقال: ﴿ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞ ﴾ لاتفاق الجملتين خبرا، فقرر مال الأخت كله للأخ إن لم يكن لها ولد .وليكون في أوضح حالاته قابل هذا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٨/٦ .

(٢) الكشاف ١٨٨/٢- ١٨٩ . والحديث عند البخاري .كتاب الفرائض .رقم الحديث (١٦١٥)باب ألحقوا الفرائض بأهلها ١٢٣٣/٣ .

(٣) ينظر المحرر الوجيز .المجلد الثاني ١٤٢/٣ .

المعنى بسابقه بدون استعمال التركيب نفسه أو ما يشبهه، فأقام جملة: ﴿ وَهُوَ يَرِثُهَآ ﴾ من المبتدأ وخبره مقام جواب الشرط بمعناه لا بمحله، أو كما قال أبو البقاء: "سدّت مسد جواب الشرط." (١) وأقام جملة: ﴿ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ﴾ مقام فعل الشرط. ووصف ابن عاشور رشاقة العبارات مع وضوحها وبلاغتها في إيصال المعنى، فقال: " وعُلم معنى الإخوة من قوله: { وله أخت } وهذا إيجاز بديع، ومع غاية إيجازه، فهو في غاية الوضوح فلا يشكل بأن الأخت كانت وارثة لأخيها، فكيف عاد عليها الضمير بأن يرثها أخوها الموروث وتصير هي موروثة! لأن هذا لا يفرضه عالم بالعربية، إنما يتوهم ذلك لو وقع الهلك وصفا لامرئ بأن قيل: المرء الهالك يرثه وارثه وهو يرث وارثه إن مات وارثه قبله. والفرق بين الاستعمالين رشيق في العربية." (٢) فوصف العبارات برشاقتها، و ذلك لحسن الانتقال من الكلام في ورثة الأخت لأخيها الموصوف بالكلالة إلى ورثته هو منها بغاية السلاسة مع الوضوح؛ ومما هيّأ لذلك؛ بناء الشرط و وقوع قوله: ﴿ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ ﴾ وصفا لـ ﴿ امْرُؤٌ ﴾ ثم إقامة جواب الشرط عليه في الحالة الأولى، ثم قيام الشرط في الثانية على أسس الأولى دون ذكر شيء من تركيبه.

ولما كان حال ذكر الأحكام يوجب الوضوح مع شمول الأحوال؛ تدرج البيان القرآني في بيان حكم الكلالة، فترقى بذكر حال المثنى بعد حال الإفراد وتلاه الجمع فاستأنف وقال: ﴿ إِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ﴾

واستشكل في تركيب جملة: ﴿ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ ﴾ الإخبار عن ضمير التثنية بـ ﴿ اثْنَتَيْنِ ﴾ إذ الخبر لم يفد غير ماأفاد المبتدأ، و رُوي أن " مروان بن سعد المهلّبي سأل أبا الحسن الأخفش، فقال: ما الفائدة في هذا الخبر؟ أراد مروان أن لفظ { كانتا } تفيد التثنية، فما فائدة تفسيره الضمير المسمّى باثنتين مع أنه لا يجوز { فإن كانتا ثلاثا} ولا فوق ذلك، فلم يفضل

(١) روح المعاني ٢١٨/٣.

(٢) تفسير التحرير والتنوير. المجلد الثالث ٦٦/٦.

الخبر الاسم في شيء ؟ فأجاب أبو الحسن ؛بأنه أفاد العدد المحض مجردا عن الصفة،أي قد كان يجوز أن يقال :فإن كانتا صغيرتين فلهما كذا،أوكبيرتين فلهما كذا ،أو صالحتين،أو غير ذلك من الصفات ،فلما قال: {اثنتين} أفهم أن فرض الثلثين للأختين تعلق بمجرد كونهما اثنتين فقط على أي صفة،وهي فائدة لا تحصل من ضمير المثنى ."(١) وهو تعليل حسن نستطيع أن نبني عليه أن قوله: ﴿ اثْنَتَيْنِ ﴾ احتراس عن أن يفهم إرادة غير العدد المحض .

وذكر أبو حيان في تخريج ضمير التثنية وجهين" الأول: أن الضمير في: { كانتا } لا يعود على أختين، إنما هو يعود على الوارثين،ويكون ثم صفة محذوفة و: {اثنتين} بصفته هو الخبر،والتقدير: فإن كانت الوارثتان اثنتين من الأخوات فلهما الثلثان مما ترك ...والوجه الثاني: أن يكون الضمير عائدا على الأختين ...ويكون خبر (كان) محذوفا لدلالة المعنى عليه،وإن كان حذفه قليلا ،ويكون {اثنتين} حالا مؤكدة،والتقدير: فإن كانت أختان له."(٢) فعلى الوجه الأول عند أبي حيان يكون في الكلام إيجاز حذف مما يوسم العبارة بالجزالة . وعلى الوجه الثاني:الكلام موسوم بالجزالة من حيث تأكيده على معنى تثنية المؤنث،أي أنه يقصد العدد المحض لا غيره،فوافق رأي الأخفش .

ولما أقام النظم القرآني الشرط بنى الجزاء عليه،فقال: ﴿ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ﴾ وقدّم المسند على المسند إليه لاختصاص المسند بالمسند إليه . وحذف مفعول الفعل ﴿ تَرَكَ ﴾ لاقتضاء فرض الثلثين في عموم ماترك المتوفى خلفه،وأسهمت (ما) الموصولة في بيان هذا المعنى . والتقدير: فلهما الثلثان ،وباقي التركة للعصبة كما أوضحت السنة النبوية .

ولما أبان الخطاب القرآني حكم الكلالة لو كان للميت أختان؛ترقّى في بيان الحكم لو كان للميت إخوة رجالا ونساء،فوصل بين الجملتين ؛للتوسط بين الكمالين لاتفاق الجملتين

(١) البرهان في علوم القرآن ٢/٤٤٩– ٤٥٠ .

(٢) تفسير البحر المحيط . ٣/ ٤٢٤.

خبرا، و قال: ﴿ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ و أقام شرطا وبنى عليه جوابه، و كان للتمييز أثر في إيضاح المراد من قوله: ﴿ إِخْوَةً ﴾ و العطف بين لفظي: ﴿ رِّجَالاً وَنِسَآءً ﴾ للاشتراك في الحكم الإعرابي يسهم في إيضاح المراد من قوله: ﴿ إِخْوَةً ﴾ .و لعله قدّم ذكر الرجال على النساء؛ ليدل على فضل الرجال الذي صرّح به في بداية السورة حين قال: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ ﴾ النساء (٣٤) ولعل نصّه على لفظي: ﴿ رِّجَالاً وَنِسَآءً ﴾ يومئ إلى أهميتهما جميعا، ويذكرنا بمجيئهما معا في مطلع السورة كذلك حين قال: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ النساء (١) وكأنها ترتبط بها فترد الأعجاز على الصدور، فكما اشترك الرجال والنساء في المنشأ فهما يشتركان في أمور الإرث الدالة على نهاية الإنسان ومعاده. وذلك يومئ إلى أنهما يسيران مقترنين؛لأنهما أساس الأسرة التي ستخلّف من يعمر الأرض على أساس من العدل والرحمة .

وقوله تعالى : ﴿ فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ وإن كان مبنيا على شرط قبله ؛إلا أنه عمدة في الجملة، وهو تركيب شديد الإحكام و يمتاز بالإيجاز ؛وكان من الممكن أن يتم المعنى لو قال: للأنثى نصف حظ الذكر، ولكنه أراد أن يجعل الأصل في الميراث للإناث، ويبني عليه نصيب الرجال، وإنما كان ذلك كذلك عناية بشأن النساء وميراثهن، وإشارة إلى أن الإسلام ضمن لهن حقا من الميراث، على غير ماكان عهدهم، فأعلا مكانتهن بجعل حقهن هو الأصل الذي يُبنى عليه مقدار ميراث الرجل .

وأقام البيان القرآني جواب الشرط على التصوير؛فشبه نصيب الذكر من الميراث بنصيب اثنتين من الإناث تشبيها مرسلا، والجامع (بيان المقدار) . ويؤثر مجيء لفظ ﴿حَظِّ﴾ دون لفظ: نصيب، مثلا، في إبراز هذا المعنى؛لأن الحظ هو " النصيب المقدّر."(١) والنصيب هو : " الحظ المنصوب أي المعين ."(٢) فالملحوظ على تفسير كليهما أن لا فرق بينهما، إذ كل منهما يفسر بالآخر؛ بيد أن هناك ما يلفت النظر، وهو أن الحظ مقدّر، والنصيب معيّن، والمقدّر يحمل معنى المقدار الكمي المخصص أكثر من المعين، فالحظ أدلّ من النصيب في حساب الأضعاف والأنصاف (٣)؛ فلعله كان أنسب لحساب المواريث من لفظ: النصيب .

فأدى التشبيه المعنى بإيضاح شديد ورسخه، ووقع موقعه من المعنى .فكان هذا الجزء الصغير من الآية قاعدة في تقسيم الميراث فيما يتعلق بالرجال و النساء على مر الأزمان، وبأي مقدار من الإرث إن قليلا وإن كثيرا .

و لعل هذه الآية تمد يدا لقوله تعالى في آية الميراث في بداية السورة : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ . . . ﴾النساء (١١) فهذا المعنى تأسس قبل ذلك أثناء ذكر الميراث و دعت الحاجة إليه في هذا المقام ،فكان مجيئه من باب رد الأعجاز على الصدور .

---

(١) المفردات مادة (حظ) .

(٢) السابق مادة (نصب) .

(٣) يعزز هذا الرأي ما ذهب إليه الأستاذ فاضل السامرائي حين دراسته لاستعمالات الكفل و النصيب ،فالكفل بمعنى المثل أما النصيب فقد يكون قليلا أو كثيرا (من أسرار البيان القرآني صـ٦١ .ط٢ .٢٠١٠ –١٤٣١ دار الفكر . الأردن/عمان).

ولما كان قوله تعالى: ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ﴾ تعليلا لذكر تلك الأحكام؛ نزّل هذه الجملة منزلة الجواب من السؤال، فترك العطف بينها وبين ما قبلها للاستئناف البياني على تقدير سؤال: ولم كان تعليم حكم الكلالة ؟ فكان ترك العطف اعتناء بمعناه، وتنبيها للسامع على موقعه؛ مما أكسب الجملة فخامة. وكملت هذه الفخامة بالتعبير بفعل التبيين؛ لأن البيّن لا يحتاج لمبيّن، فوضح من ذلك أن هذا الحكم مما يشكل، فلما بيّن الله هذا الحكم كفى الناس الضلالة بعد هذا التبيين، و حين أخبر الله في بداية الخاتمة عن تكفله بالفتيا ساق ذلك إلى معنى انتفاء الضلالة بعد فتواه سبحانه، و لعل المشاكلة بين زمني الفعلين {يفتيكم – يبين } فيه شيء من دعم هذا المعنى .وفي التعبير بلفظ الجلالة: ﴿ ٱللَّهُ ﴾ مايؤكد على جلال المبيّن و عظمته، وذلك يؤول إلى بيان أهمية المبيَّن من حكم الكلالة .وحذف مفعول التبيين يفيد عمومه، والمعنى المدلول عليه من هذا التركيب هو تحقق الإبانة من الله في أحكام المواريث بصفة خاصة وفي أمور الدين عامة ،وزمن المضارعة يفيد حصول هذا التبيين مرة بعد مرة متى دعت الحاجة إليه .قال الطبري عن معنى هذا الجزء من الآية: "يعني بذلك – جل ثناؤه –يبين الله لكم قسمة مواريثكم وحكم الكلالة وكيف فرائضهم .أن تضلوا بمعنى لئلا تضلوا في أمر المواريث وقسمتها أي لئلا تجوروا عن الحق في ذلك وتخطئوا الحكم فيه فتضلوا عن قصد السبيل."(1)

ولعل الإتيان بفعل الضلالة في زمنه المضارع {تضلوا } مناسبة للفعلين السابقين {يفتيكم – يبين } فيفيد تزامن الإبانة لنفي الضلالة على الدوام، وهذا من معاني الإحسان والرحمة المخيّمة على جو السورة – والله أعلم بأسرار كتابه –

---

(1) جامع البيان ٦/٤٥ .

ولما ظهرت الحكمة من التبيين؛وضع المظهر موضع المضمر،فقال: ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فصرّح بلفظ الجلالة ،لتربية المهابة ،وتقوية الداعي إلى الامتثال،وفصل بين المبتدأ و خبره بالجار و المجرور: ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ للاعتناء به،وجاء تقرير صفة العلم فاصلة متمكنة في موضعها،مناسبة لمعنى الآية،فمن يملك التشريع وإطلاق الأحكام لا بد أن يتصف بطلاقة العلم .

والنغم الموسيقي في خاتمة السورة يتجلى في التوازن الجزئي للآيات،فأضفى الجناس في قوله: (يستفتونك —يفتيكم)جرسا صوتيا منبها إلى المعنى،وقام الشرط بالتأثير على النغم الموسيقي في الآية حيث رتبّه،فغدت فقرا قصيرة متساوقة،فقال: ﴿ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ// وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ //فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ//وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ﴾

وعمل الطباق في قوله: {رجالا– نساء}مع تنوين اللفظين ،وقوله : {الذكر – الأنثيين }مع تشديد الأول ،و توالي يائي الثاني في بيان هذا النغم المرتب . ويسهم التنوين في قوله: {امرؤٌ–ولدٌ (مرتين)–أختٌ– إخوةً–رجالاً– نساءً– شيءٍ} مع توالي الفتحات في قوله: {الكَلاَلَةَ – هَلَكَ – تَرَكَ } وتوالي الضمتين في قوله : { امرُؤٌ– الثُلُثان } في إيقاع هذا الترتيب النغمي،وإن كان التنوين بغنته،وتوالي الضمتين بثقلها يعملان أيضا على علو الجرس الصوتي للتنبيه إلى المراد .

ومن التوازن الكلي للآيات ما يسهم في إيقاع هذا النغم المرتب من المقابلة بين حالة المرء الأولى و عكسها .ومن تماثل المعاني و رقيها من الإفراد إلى التثنية ثم الجمع .

واتسمت خاتمة السورة بحسن الدلالة،فترتبت المعاني ترتيبا لا يجعلها تتدافع أو تتزاحم،فكانت كالسلسال يأخذ بعضه بأعناق بعض بتميّز . وأسلوب الشرط المعتمد في الآية أصل في هذا الترتيب؛لأنه يقيم المعاني ويبني عليها أجوبتها دون خفاء .والوضوح سمة مميزة في الأحكام في آيات القرآن الكريم عامة ،وهذه الآية خاصة .

فطرق معنى الكلالة قائم على أسلوب الشرط لوجود تفريعات تقتضيه،فكل حال يقتضي حكما،فبدأ بحال الإفراد من الكلالة من الذكر والأنثى،وقدم ذكر الرجل الذي يورث كلالة على المرأة التي تورث كلالة تقديم تمييز و تفضيل ،وأقام الأول منهما على الشرط فقال: ﴿ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ ﴾ وبنى جوابه عليه فقال: ﴿ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ﴾ وأضمر في الثاني جواب الشرط ،وقدّمه بالمعنى لا بالمحل فقال مباشرة : ﴿ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ﴾ ليكون التقابل مع الإيجاز الشديد سمة في هذه العبارة .

ثم ترقى في الخطاب و أقام شرطا ثالثا قائما على تثنية الوارثتين و بنى جوابه عليه مباشرة فقال: ﴿ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ﴾ .

ثم ترقى أكثر و أقام شرطا رابعا قائما على الجمع ، وبنى جوابه عليه حاملا بين جوانبه تشبيها يضفي الكثير من الوضوح فقال: ﴿ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ فجمع فقال : ﴿ إخوة ﴾ ثم فصّل فقال: ﴿ رِّجَالًا وَنِسَاءً ﴾ للنص عليهما معا و للإيضاح.

و تسم خاتمة سورة النساء كذلك بتمام الدلالة،حيث أتمت المعنى من جانبين :

الأول: من جانب جزئي،فإنه استوفى جوانب الكلالة بذكر حال الوارث للكلالة إن كان مفردا (ذكرا أو أنثى) ثم ذكر حال الوارث إن كان مثنى مؤنثا،ثم ذكر حال الوارث إن كان جمعا (ذكرا أو أنثى) فتمم المعنى في موضعه،واستوفى جزئيات القضية كلها .

الثاني : من ناحية كلية ،وهي أنه لما ابتدأ بذكر حكم الكلالة في أول السورة في آية الشتاء([1]) وكانت تذكر حكم الكلالة فيما يتعلق بالأخ و الأخت لأم،ثم جاء في هذه الآية وأتم حكم الكلالة فيما يتعلق بالأخ و الأخت الأشقاء،الذين هم لأب؛كانت هذه الخاتمة مكمّلة لحكم الكلالة لا يمكن الزيادة عليها .

وتتسم الخاتمة بدقة المدخل؛فنصبة الكلام ليست قائمة على بيان أن الاستشكال وقع من الصحابة في أمر الكلالة،وأن الأمر قد أتى من الله برفع هذا الإشكال،وبيان الحكم فيها،فهذا أمر مفروغ منه؛إنما نصبة الكلام وهيأته قائمة على بيان العناية الإلهية والرعاية الربانية بأمر الإرث عامة،والكلالة خاصة،وذلك يتضح من تكفل الله بأمر الفتيا بنفسه،ومن جعل هذا الاستفتاء في هذا الموقع من السورة ؛إذ خواتم السور آخر مايقع في الأسماع،وغالبا تكون مركزة حتى تقع موقعها من القلب .وليس هناك أدل على تلك العناية الربانية من الاستفتاح بالفعل المضارع الذي يبين وقوع الإشكال مرة بعد مرة،مع تأخير ذكر متعلقه،ثم ترك العطف للاستئناف البياني لتهيئة العبارة و تنبيه السامع للآتي،وصرف الذهن من المستفتى عنه إلى المفتي بتقديم فاعل الإفتاء (لفظ الجلالة) وإيقاع فعل فتيا الله على صريح لفظ الكلالة رفعا لشأنها .فأضمر ثم صرّح ،ولو عكس فصّرح ثم أضمر؛لم يكن شيئا من ذلك .

---

(١) سميت آية الخاتمةبـ(آية الصيف)" عن أبي هريرة – ﷺ – أن رجلا قال : يارسول الله ما الكلالة. قال:أما سمعت الآية التي نزلت في الصيف . يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة النساء. والكلالة: من لم يترك ولدا ولا والدا " (المستدرك على الصحيحين . كتاب الفرائض . رقم الحديث (٧٩٦٦) ٤/ ٣٧٣) .

والتي قبلها آية الشتاء وهي قوله تعالى :﴿ إِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ النساء (١٢) .

والملحوظ أن خاتمة السورة تتميز بالتركيز الشديد و الحبكة، و تلك سمة السورة كلها .([1]) والذي هيّأ لهذه الحبكة استعمال صور من التراكيب تقوم بخصائص تقوي الحبكة والتماسك في النص ،ومنها مايلي :

أولا : تقوي الحكم وتأكيده بصور عدة منها: تقديم المسند إليه على المسند الفعلي في قوله تعالى : ﴿اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ وتفسير حيثية تأكيده أن السبك الكريم حين ابتدأ بقوله : ﴿اللهُ﴾ أشعر القلب بإرادة الحديث عنه فكان تمهيدا وتوطيدا، ثم أتى بالخبر فأُدخل على القلب دخول المأنوس له فكان أشد لثبوته؛ لأنه ليس "إعلامك الشيء بغتة غفلا مثل إعلامك له بعد التنبيه عليه والتقدمة له؛ لأن ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام ."([2]) أو كأنه كرر الإسناد مرتين مرة في الفاعل (هو)ومرة في الجملة: ﴿يُفْتِيكُمْ﴾ فكان بمثابة التكرار ،وهو منشأ التوكيد و تقوية الحكم على رأي السكاكي . ([3])

ومن صوره الإضمار ثم التصريح كما في قوله تعالى : ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ فحذف متعلق الفعل: (الكلالة) في الأول لأنه أراد ذكره ثانيا على وجه يتضمن إيقاع فعل الفتيا على صريح لفظه؛ إظهارا لكمال العناية بوقوعه عليه .وهذا من شأنه تهيئة العبارة لوقوع فعل الفتيا على صريح لفظ الكلالة ،وهذا أبلغ و آكد في بيان شأن الكلالة من الأهمية و المكانة .

---

(١) الآيات الثلاث في السورة التي تتحدث عن المواريث هي أساس علم الفرائض ، وذلك يدل على الإيجاز البليغ الذي تتصف به الآيات " عن قتادة أن أبا بكر الصديق – رضي الله عنه – قال في خطبته :ألا إن هذه الآية التي في أول سورة النساء في بيان الفرائض أنزلها الله في الولد والوالد . والآية الثانية من سورة النساء أنزلها الله في الزوج والزوجة والأخوة من الأم. والآية التي ختم بها سورة النساء أنزلها الله في الإخوة من الأم والأب ." (سنن البيهقي الكبرى . كتاب الفرائض) رقم الحديث (١٢١٠٣) باب فرض الأخوة والأخوات للأم ٢٣١/٦ .

(٢) دلائل الإعجاز صـ١٣٢ .

(٣) مفتاح العلوم صـ ٣٢٥

ومنه كذلك قوله: ﴿ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ ﴾ فأضمر فعل الشرط {هلك} وتقديره: إن هلك امرؤ، ثم فسره بفعل بعده أضمر فاعله، فكان كأنه كرر الإسناد مرتين فقال: إن هلك امرؤ هلك امرؤ، وهو منشأ تقوي الحكم و تقرره في الأذهان .أو لعل منشأ تقرر المعنى في الذهن التصريح بعد الإبهام، فعندما أبهم بالإضمار ثم صرّح بعد ذلك؛ أتى المعنى والنفس متطلعة إليه فكان آكد في النفس .

ومنه الفصل بين النعت ومنعوته بما هو ليس أجنبيا عنه مثل قوله: ﴿ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ ﴾ فجملة: ﴿ هَلَكَ ﴾ مفسرة لفعل محذوف لا محل لها ([1])فصلت بين جملة النعت: ﴿ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ ﴾ و منعوته : ﴿ امرؤ ﴾ فأشبهت الجملة المؤكدة ؛لأنه لو قيل: إن امرؤ هلك امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت ،تكون جملة :ليس له ولد و له أخت نعت امرؤ الأولى لا الاسم المكرر في الجملة الثانية التي جاءت تأكيدا ؛لأن الجملة الأولى هي المقصودة بالحديث .([2])

ثانيا :أسلوب الشرط :

تقوم آية الكلالة على أسلوب الشرط ؛لاحتوائها على الأحكام ،ومن شأن جملة الشرط أن تشد نسيج النص ،و تحكم ربط خيوطه بعضها ببعض؛لأن الجملة الشرطية لابد فيها من تكامل ركنيها الذي أشار إليه ابن السراج بقوله: "لابد للشرط من جواب ،وإلا لم يترك الكلام."([3]) هذا الترابط بين جملة فعل الشرط وجوابه يحيل الجملتين إلى واحدة ؛مما يعني

---

(١) إعراب القرآن و بيانه ٢/٣٩٥ .

(٢) وذلك مثل قوله: ضربت زيدا ضربت زيدا الفاضل فـ(الفاضل)صفة (زيدا) الأول، لا (زيدا) الثاني الذي جاء في جملة التأكيد لأنه المقصود بالإخبار (حاشية الكشاف ٢/١٨٨) .

(٣) الأصول في النحو .أبو بكر محمد بن سهل بن السرَّاج .تحقيق :عبد الحسين الفتلي ٢/١٦٤ .ط١ .١٩٨٥ مؤسسة الرسالة — بيروت .

استقرار الجملة الشرطية في النص، الذي يهيئ صحة المعنى .([1])كل ذلك من شأنه أن يوسم الكلام بالحبكة .

وآية الكلالة قائمة على حرف الشرط (إن) وهي أصل أدوات الشرط ،ولما كانت (إنْ) "إنما مخرجها الظن والتوقع فيما يخبر به المخبر "([2])؛نشأ إثره سؤال و هو كيف تأتي (إنْ) مع أن الهلاك محقق الوقوع في قوله تعالى: ﴿ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ ﴾؟ وأجاب ابن القيم عليه فقال :" التعليق ليس على مطلق الهلاك،بل على هلاك مخصوص ،وهو هلاك لا عن ولد ."([3]) ويقصد أن مسوغ مجيء (إنْ) أن هلاك امرئ كلالة قليل الوقوع .([4])

والترتيب النابع عن الجملة الشرطية من شأنه أن يحبك النص ويقوي نسيجه؛لأنها لا تقبل الامتداد .([5]) فآية الكلالة ترتيب المعاني فيها ناشئ عن الجملة الشرطية الأولى، ثم ترقي تلك الجملة من الإفراد إلى التثنية والجمع ،وهي معانٍ مخصوصة لا تقبل الامتداد.

وكما تنعطف معاني خاتمة السورة على مطلعها ؛فإن صور تلك المعاني تتقارب وتتشابه؛فالتفريع بالشرط في خاتمة السورة من أهم صور معانيها ،وأثرت تأثيرا واضحا على ترتيب معنى الآيات وترتيب نغمها كذلك،و بإلقاء نظرة على مطلع السورة نجد التفريع

---

(١) "فليس للإخلال بالنتائج فيه سبيل " التراكيب الإسنادية .الجمل "الظرفية –الوصفية– الشرطية".علي أبو المكارم صـ٢٠٨ .ط١ .١٤٢٨هـ–٢٠٠٧م مؤسسة المختار –القاهرة .

(٢)المقتضب ٢/ ٥٦ .

(٣) بدائع الفوائد .أبو عبد الله بن أبي بكر بن أيوب .ابن قيم الجوزية . تحقيق :علي بن محمد العمران إشراف:بكر ابن عبد الله أبو زيد ١/٨٣–٨٤ .ون ط. بدون ت .مؤسسة الراجحي الخيرية – دار عالم الفوائد للنشر و التوزيع – مجمع الفقه الإسلامي –جدة .

(٤) يرى عبد الفتاح لاشين أن الهلاك متحقق لكن زمنه جُهل وقته،لذلك جيء بـ(إنْ) (من أسرار التعبير في القرآن . حروف القرآن صـ١٦٨).

(٥) التراكيب الإسنادية صـ٢١٠ .و لكن طرفي الإسناد في الجملة الشرطية يقبل كل منهما الامتداد منفردا .

كذلك يقوم بالمعنى حيث قال : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ النساء (١) ولكن الفعل الماضي مع العطف بـ(الواو)هي الصورة القائمة بهذا التفريع ،ففرع من خلق النفس الواحدة خلق زوج لها ،ثم فرع من الاثنين معا(النفس و زوجها)بث جميع الرجال و النساء على وجه المعمورة،و لمجيء فعل (البث) أثر في تعزيز معنى التفريع من جهة دلالته الوضعية، و من جهة أصوات حروفه.

وإعادة الضمير في قوله: ﴿ زَوْجَهَا ﴾ يوحي بالانسجام التام و الالتحام ،وهي تذكرنا بقوله:تعالى في ختام السورة : ﴿ وَهُوَ يَرِثُهَا ﴾ فإعادة الضمير في مطلع السورة أفاد معنى الجزئية ،أي أن هذا الزوج المخلوق هو جزء من النفس الواحدة لا ينفك عنها،فحواء خُلقت من ضلع آدم — عليه السلام – أي جزء منه .فيما أعطت إعادة الضمير في خاتمة السورة معنى الكلية،أي الأخ يرث كل مال أخته عموما وشمولا ،فتشابهت الصورة و إن كان المعنى الصادر عنهما متناظرا .

والعدد مذكور في خاتمة السورة و مطلعها ،وجاء في خاتمتها بصورته الصريحة مثل قوله: ﴿ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ﴾ وقوله: ﴿ فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ وكذلك كان العدد في مطلع السورة بصورته الصريحة حين قال: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ .

ومن الصور المتطابقة بين المقطعين ما جاء مذكورا بصيغة الجمع مثل قوله في الخاتمة: ﴿ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً ﴾ وقوله في المطلع: ﴿ رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ والنص على الصنفين معا فيه مزيد اهتمام باجتماعهما مع تفضيل المذكورين أولا .

فدراسة تركيب الجملة دون اعتبار سياقها الواردة فيه لا تعطي تصورا كاملا لدلالته،والنظر في سياق التركيب دون استبصار مداه وظلاله من معاني السورة كلها لا يغني البحث الدلالي،لذلك كان النظر في انعكاسات صور التراكيب بين المطلع والخاتمة يكمل الدلالة ويبرزها .

*　　　*　　　*

رابعا :

دراسة دلالات التراكيب في خاتمة سورة المائدة

خاتمة سورة المائدة :

قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ* إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ* إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ* قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ* قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ *قَالَ اللّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ * وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ *مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ *إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن

تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ سورة المائدة (١٠٩-١٢٠) .

بيان دلالات التراكيب :

ابتدأت آيات خاتمة سورة المائدة بالقيد الزمني بقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ ﴾ واختلف في ناصب لفظ ﴿ يوم ﴾ على وجوه ([1])لعل أقربها أن يقدر الناصب لكلمة يوم بقولهم: احذروا أو اتقوا، ورشح لهذا الاختيار العامل المعنوي، فالمقام في الآية مقام نذارة وتخويف، ويؤيده قول ابن عطية : "ورصف الآية وبراعتها إنما هو أن يكون هذا الكلام مستأنفا ، والعامل مقدر؛ إما : اذكروا ، وإما :تذكروا ، وإما : احذروا ، ونحو هذا مما حسن اختصاره لعلم السامع ، والإشارة بهذا اليوم إلى يوم القيامة ." ([2])

وتركيب الجملة يبين عن عظمة هذا المشهد ابتداء من تنكير لفظ : ﴿ يَوْمَ ﴾ الذي أفاد تفخيم شأنه، ورشح لهذه الفخامة جملة: ﴿ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ ﴾ لأنه أسند فعل الجمع إلى الله، فالتصريح بلفظ الجلالة المفخم فاعلا يضفي الجلال والهيبة للمقام، وكان يُجزئ لو قيل: يوم يُجمع الرسل، ولكن لما كان في ذكر لفظ الجلالة ترهيب وتخويف وبيان لجلل

---

(١) منها :أن يكون (يوم) بدلا من المفعول في قوله قبله :(واتقوا الله) وهو من بدل اشتمال .أو ظرف زمان لقوله قبله:(لا يهدي) أو يكون منصوبا على إضمار : اذكر أو يوم يجمع الله الرسل كان كيت وكيت (ينظر الكشاف ٣١٠/٢) .

(٢) المحرر الوجيز ٢ /٢٥٦ .

الموقف وعظمته؛بنى الفعل للفاعل . والدلالة الوضعية للفعل (يجمع)(١) تخدم معنى الترهيب والتخويف مالو قال: يحضر، مثلا، فهو يجلي للمتلقي صورة الملك الذي يجمع عماله لينبههم على أمر ما، وهو معنى شامل للجمع و الحضور معا. وفيه كذلك إيماء إلى وحدة الرسالة ،وإن تفرق الرسل، ففي فعل الجمع بيان الائتلاف بعد فرقة، أي لو كان الرسل كثير، وكان أقوامهم مختلفين، فالرسالة واحدة، لأن ربهم واحد .وفي تعريف لفظ: ﴿ الرُّسُلَ ﴾ بـ(أل التعريف) معنى العموم والشمول و ذلك يرجع إلى جلال الموقف وهيبته .

وقوله : ﴿ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ يسهم في بيان جلل ذلك الموقف، فالتعبير بـ(فاء التعقيب) يدل على تتابع الأحداث دون تراخ، أي سرعة ذلك الجمع وأنه بأمر آمر وقدرة قادر، وسؤالهم هذا يسهم في بيان رفعة مكانة الرسل؛لأن البيان القرآني عدل عن قوله: ماذا أجابكم أقوامكم إلى قوله: ﴿ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ ففيه إهمال لأقوامهم وتعظيم للرسل، ثم إن السؤال خرج من معنى الاستفهام عن حقيقة الإجابة إلى تعنيف وتبكيت الذين لم يستجيبوا لرسلهم ؛لأنه" لو أريد الجواب لقيل: بماذا أجبتم ؟ فإن قلت: ما معنى سؤالهم ؟ قلت: توبيخ قومهم، كما كان سؤال الموؤودة توبيخا للوائد ."(٢)ومما يعزز هذا المعنى إجابة الرسل حين قالوا تأدبا مع خالقهم: ﴿ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ فترك العطف بين هذه الجملة وسابقتها للاستئناف البياني، على تقدير سؤال: ماكان ردهم ؟ لإغناء المتلقي عن أن يسأل .وتكلم العلماء في معنى هذه الآية على أقوال ومعان كثيرة ،نذكر أولاها بالصواب على رأي الإمام الطبري حيث قال: "وأولى الأقوال بالصواب: قول من قال: معناه: لا علم لنا إ لا علم أنت أعلم به منا؛لأنه تعالى ذكره أخبر عنهم أنهم قالوا: لا علم لنا إلا

(١) جمع " الجيم والميم والعين أصل واحد ، يدل على تضامّ الشيء " (مقاييس اللغة (جمع) .
(٢) الكشاف ٣١٠/٢ .

ماعلمتنا إنك أنت علام الغيوب،أي إنك لا يخفى عليك ما عندنا من علم ذلك ولا غيره من خفي العلوم وجليها ." ([1]) وجاء فعل القول في زمنه الماضي دلالة على تحقق حدوث الفعل مع أنه حكاية عن مستقبل،ثم جاء نفي العلم عن الرسل شاملا كل أنواعه بدلالة تنكيره حيث قالوا: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ وأجلى المعنى إردافه بقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ لأنه أبان عن كامل أدبهم مع خالقهم في نسبة الجهل إليهم بما فعل أقوامهم ؛لبيان أن سؤال الله لهم ليس عن جهل منه سبحانه،فكان قوله: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ تعليلا لسابق كلامهم،وهو مسوغ ترك العطف بين الجملتين للاستئناف البياني .قال البيضاوي: "{إنك أنت علام الغيوب} تقرير للجملتين باعتبار منطوقه ومفهومه."([2]) ففي صورة هذا التركيب مزيد تأكيد لعلم الله تعالى الذي يقتضي نفي كل علم للرسل؛من حيث تصديره بـ (إن) مع الجملة الاسمية الدالة على ثبات هذا الوصف لله تعالى،ومن حيث تعريف الطرفين مع الفصل بالضمير مما يدل على قصر صفة العلم على الله تعالى قصرا (حقيقيا تحقيقيا)،وقابل بوصف ﴿ عَلَّامُ ﴾([3]) لفظ: ﴿ الْغُيُوبِ ﴾ بجمع الغيب([4]) فأفاد شمول كل غيب مهما كانت درجة ظهوره أو خفائه أو توغله في الخفاء. وفي توالي الضمتين على قراءة أبي جعفر والبصريَيْن ورش وحفص(٥) ما يخدم فخامة المعنى وعظمته؛لأن في

---

(١) جامع البيان ١٢٥/٧ .

(٢) تفسير البيضاوي ٢٩٠/١ .

(٣) صفات الله متناهية في الكمال لا مبالغة فيها .

(٤) هذا مطرد في القرآن الكريم فكل موضع جمع الغيوب فيه ؛جاء وصف علاّم يقابله،و مواضعها غير هذا الموضع ثلاثة،قوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ المائدة(١١٦)و قوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ التوبة(٧٨) وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ سبأ (٤٨).(المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . مادة (غيب))

(٥) النشر في القراءات العشر ٢٥٨/٢ . وقرأ حمزة وأبو بكر بالكسر .

النطق بهما ثقلا خفيفا ينبه إلى عظمة تلك الغيوب .ومعنى هذه الفاصلة من المعاني المفتاحية للسورة التي ستكون حجة عيسى — عليه السلام – في قضيته .

ولما كان مقصود السورة تقرير كمال العبودية ،وكان عيسى — عليه السلام — من جملة الرسل،وكانت مغالاة النصارى فيه مما يقدح في الألوهية ؛أتى ذكر عيسى — عليه السلام— خصوصا من بين الرسل؛تبكيتا لهم ،واحتجاجا عليهم ،فذكر البيان القرآني حدثا آخر من أحداث يوم القيامة،فعبر بالماضي عن المستقبل فقال: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ للدلالة على تحقق الفعل،فناداه نداء قريبا دلالة على عظمة المنادِي وخضوع المنادَى فقال: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ وفي نسبته إلى أمه ما يخدم إثبات بشريته،ونزوله عن منزلة الألوهية إشارة إلى انتمائه إلى خصائص البشرية من الحمل و الولادة ،وهو يصب في معنى عبوديته لله تعالى .
ولما قال بعدها: ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ جاء الأمر من جهة الاستعلاء بتذكر النعمة المسداة إليه – عليه السلام — وعلى والدته، وهي التأييد بروح القدس جبريل –عليه السلام — والمراد: "إظهار أمره — عليه السلام– بتعداد تلك النعم حسبما بينه الله تعالى؛اعتدادا بها ،وتلذذا بذكرها على رؤوس الأشهاد؛لتكون حكاية ذلك على ما أنبأ عنه النظم الكريم توبيخا ومزجرة للكفرة المختلفين في شأنه — عليه السلام– إفراطا و تفريطا ،وإبطالا لقولهما جميعا ."(١) والتشديد في فعل التأييد (٢)يدل على تكرار التأييد مرة بعد مرة، وهي قراءة الجمهور .(٣)

---

(١) تفسير أبي السعود ٣٣٧/٢ .

(٢) أفعال الله لا تشبيه فيها و لا تمثيل و لا تأويل و لا تعطيل و لا تكييف .

(٣) قرأ مجاهد و ابن محيصن آيدتك على وزن فاعلتك (ينظرالمحرر الوجيز ٢. /٤٠٤ . و مثله في روح المعاني ٥٤/٤). ولم أجدها في كتب القراءات .

ولما كانت جملة : ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ تحتاج إلى بيان ؛ترك الوصل بينها وبين الجملة بعدها،ونزّل جملة : ﴿ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً ﴾ منزلة عطف البيان مع متبوعه في إفادة الإيضاح؛ لكمال الاتصال وقوة الرابطة. وذكر الحالين ﴿ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً ﴾ يعزز معنى استمرار تأييد الله لعيسى – عليه السلام- بالوحي إليه في كلتا الفترتين وما بينهما .

ولعله عدل من قوله :صغيرا وكبيرا إلى قوله : ﴿ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً ﴾ لأن فيه بيان عظم المعجزة ؛لأن التكلم ابتدأ حال كونه (في المهد) أي في المكان المهيئ للصبي،([1]) أي وهو في الفراش،وتلك دقة في تحديد بداية زمن التكلم لا تكون في قوله :صغيرا أو طفلا أوصبيا؛لأنها كلمات عامة تشمل أعمارا عديدة متفاوتة .ومن الإعجاز البيّن تكلّم عيسى –عليه السلام– في مهده .قال البقاعي بعد تفسيره قوله : ﴿ فِي الْمَهْدِ ﴾ :" ولما ذكر هذا الفضل العظيم؛أتبعه خارقا آخر،وهو إحياؤه نفسه،وحفظه جسده أكثر من ألف سنة لم يدركه الهرم،فإنه رُفع شابا،وينزل على مارفع عليه،ويبقى حتى يصير كهلاً ." ([2]) يقصد أنه ليس من الإعجاز تكلمه في الكهولة،ولكن البيان القرآني رمز إلى معجزة حفظ الله لعيسى – عليه السلام – على مدى الأزمان دون هرم،لأنه حين رُفع لم يكن كهلا .والطباق بين الحالين﴿ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً ﴾ يسهم في بيان فترة كل منهما وما بينهما،لأن المعنى :"يكلمهم طفلا وكهلا من غير تفاوت كلامه في هذين الوقتين ."([3]) ويعزز العطف بين الحالين هذا المعنى،ولا تخفى المناسبة بين الحالين من التضاد مع مراعاة الترتيب الزمني في الذكر .

(١) المفردات (مهد) .

(٢) نظم الدرر ٥٦٣/٢ .

(٣) التفسير الكبير.المجلد الخامس ١٠٤/١٢

ولما قال : ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ امتن الله بنعمة أخرى على عيسى – عليه السلام – والمعنى :علمتك " الكتاب و هو الخط ،والحكمة وهي الفهم بمعاني الكتاب الذي أنزلته إليك و هو الإنجيل ." (١)

ثم كانت النعمة الثالثة و هي أن عيسى – عليه السلام – يخلق من الطين كهيئة الطير، حيث قال : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾وفي تركيب الجملة سر عظيم، فلم يقل: تخلق من الطين طيرا، و فيه دلالة على أن الخلق من اختصاص الله تعالى، وإنما قد يستطيع أن يصنع الإنسان كهيئة المخلوق أي: صورته وشكله، واختص عيسى – عليه السلام – بتشكيل الطير و النفخ فيه حتى يكون طيرا حقيقيا بقدرة الله .والتشبيه المرسل في تركيب الجملة معزز لهذا المعنى فشبه خلق عيسى – عليه السلام – من الطين أشكالا و صورا بشكل وهيئة الطير حقيقة على الهيئة التي خلقه الله عليها، والجامع : (التطابق في الشكل و الهيئة والصورة) . وهذا التشبيه مهما – في سياقاته من جملته الصغرى والكبرى، وتمتد أهميته إلى معاقد السورة لاتصاله اتصالا مباشرا بمقاصدها – لبيان مقدار هذه الصفة عند عيسى – عليه السلام – فهي قدرة لا ترقى إلى قدرة الخالق ،ويعزز ذلك اتباع عملية التشكيل بقوله تعالى: ﴿ بِإِذْنِي ﴾ وكذلك الفصل بها بين عملية التشكيل وعملية النفخ ،فقال: ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ وكان يجزئ لو قال: وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني ،ولكنه لما كان التصوير و التشكيل من الطين معجزة مستقلة ،وكان النفخ معجزة مستقلة ؛أتبع كلا منهما بقوله: ﴿ بِإِذْنِي ﴾ ، ثم إنه لما كان النفخ واليا للتشكيل دون تراخ ؛عطف بالفاء، فقال : ﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ و كله يسعى

---

(١) جامع البيان ١٢٦/٧ .

إلى بيان تسخير عمليتي التشكيل و النفخ لعيسى — عليه السلام– ولعل السر في كون عيسى — عليه السلام — يخلق من الطين ،ولم يقل :من تراب ،مثلا،لأن في الطين سهولة لا تكون في التراب،و ذلك فيه إشارة إلى الدونية في قدرة عيسى — عليه السلام — و يعزز ذلك أن النفخ في قوله : ﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا ﴾ "عائد على الهيئة وليس على الطير ."([1]) فأبان عن أن خلقه كالهيئة ،وليس خلقا من أصل .ويسهم الجناس بين قوله : (الطين — الطير) في إضفاء نغم موسيقي عال مستوحى من الإطباق بحرف الطاء ينبه إلى المعنى .كما يبين توالي الضمتين في قوله : (تخلُقُ — تنفُخُ)عن ثقل غير مستقبح ينبه إلى المعنى المسوق .

ومن النعم كذلك قدرته —عليه السلام — على إبراء الأعمى والأبرص ،فاتبعت تلك المعجزتين بقوله : ﴿ بِإِذْنِي ﴾ ،وهذا يبرز التصريح بمعنى المشيئة الإلهية في هذين الفعلين كذلك،وهذا يُجمع إلى الأول فيعني تصرف الله في ملكوته كيف شاء ،وكل ذلك يصب في القدرة الإلهية ،والعظمة الربانية .

والملحوظ في ذكر المعجزات ترقيها وترتيبها درجة فوق أخرى ، حتى وصل إلى معجزة عظيمة وهي إخراج الموتى من قبورهم أحياء بإذن الله .و كان للمجاز المرسل نصيب في بيان عظمة هذه المعجزة فحين قال : ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى ﴾ أطلق اللازم وأراد الملزوم،لأن الإخراج لازم للإحياء والعلاقة اللازمية ، و هو أو جز من قول : وتحيي الموتى الذي يلزم منه إخراجهم من قبورهم قبل إحيائهم. ([2]) و لذلك كان إسناد فعل الإخراج للموتى أبلغ من فعل الإحياء في هذا المقام .و لعله تفرّد بالجمع دون الأفعال قبله ؛ترقيا في المعجزات التي

---

(١) جامع البيان ٢٧٥/٣ . ويرى الزمخشري أن الضمير للكاف ؛لأنها صفة الهيئة التي كان يخلقها عيسى – عليه السلام — ولا يرجع إلى الهيئة المضاف إليها ؛لأنها ليست في خلقه ولا من نفخه في شيء .(الكشاف ٣١٢/٢).

(٢) وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ ق (١١) إذ المعنى : " كذلك نخرجكم يوم القيامة أحياء من قبوركم " (جامع البيان .الطبري ١٥٤/٢٦).

أوتيها عيسى – عليه السلام – فإخراج جموع من الموتى على الجملة أشد من إخراج ميت واحد – و الله أعلم بأسرار كتابه –

و ترقى البيان القرآني في ذكر النعم أكثر، حتى ذكر النعمة العظمى ،وهي كفّ بني إسرائيل عن عيسى – عليه السلام – مدة دعوته لهم ومدة ظهور المعجزات " وقد دل على جميع هذه المدة الظرف في قوله : { إذ جئتهم بالبينات } ". (١)

و في ذكر تلك النعم متتالية مراعاة للترتيب والمراتب في التعلم ،و يؤيد العطف بين الجمل: ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ ﴾ ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ﴾ ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ للاشتراك في الحكم الإعرابي هذا الترتيب .

وبعد كل تلك الحجج والمعجزات كان هناك من غطى الضلال قلبه فكذب بعيسى – عليه السلام – ونعت معجزاته بالسحر المبين أي البيّن ،قال تعالى : ﴿ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ و عُرف الكفار بالموصولية ؛إشارة إلى ذمهم . وقوله : ﴿ مِنْهُمْ ﴾ بيانية ،قال ابن عاشور معلقا على نعتهم: " واقتصر من دعاوي تكذيبهم إياه على قولهم: { إن هذا إلا سحر مبين } ؛لأن ذلك الادعاء قصدوا به التوسل إلى قتله."(٢)

---

(١) تفسير التحرير والتنوير .المجلد الثالث ١٠٣/٦ .

(٢) السابق ١٠٣/٦ .

وعُرّف المسند إليه بالإشارة للقريب بقولهم: ﴿ هَـٰذَا ﴾ تحقيرا لشأن عيسى— عليه السلام — وشأن ما جاء به من الآيات .وحُصر كل ما جاء به في كونه سحرا لا يخرج إلى غيره ،وهذا كله يرجع لتعظيم نعمة كفّ بني إسرائيل عن عيسى — عليه السلام — ([1])

فالنظم الكريم في جملته يدل في هذه الآية المتراصة على تحقيق إثبات بشرية عيسى – عليه السلام— وبعده عن الألوهية،وإثبات أن معجزاته مكتسبة من الله تعالى بدلالة تكرير قوله: ﴿ بِإِذْنِي ﴾ عقب كل معجزة عظيمة قد تبهر أو تُتخذ ذريعة لنسبة الألوهية إليه،أي أن فيها احتراسا يسد كل باب للوقوع في الخطأ ،ومع تكررها أربع مرات إلا أن هذا التكرير وقع موقعا حسنا من الآية ولم يفسدها ؛لأنه يؤدي معنى "التمكين مع العلم بما يصنع وما يقصد من دعاء الناس إلى الإيمان."([2]) ويؤكد عليه كذلك،فقدرة عيسى — عليه السلام — على الخلق والشفاء والإحياء لا تكون إلا بإذنه تعالى وبتقديره .

ولما كان المقام مقام امتنان بالنعمة،وخطاب يبرز فيه اللطف؛جاء تكرار (كاف الخطاب) خمس مرات في الآية .وأثّر التفصيل بعد الإجمال في الآية في وقوع الكلام موقعه من القلب بترسيخ المعنى فيه .

ولما امتن تعالى على عيسى — عليه السلام — بنعمه التي تقتضي الوفاء بعقوده ؛ذكر الحواريين تمهيدا لذكر قصتهم مع عيسى — عليه السلام —و تعديهم على خصائص الألوهية بطلب الآيات،فقال: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا

---

(١) هذا المعنى يذكرنا بعصمة الله لمحمد ﷺ في قوله تعالى في منتصف السورة: ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ المائدة (٦٧) فالعصمة و الكفاية من أجل النعم على الرسل إذ المولى لم يتركهم دون رعاية وعناية .

(٢) المحرر الوجيز ٢/٢٥٨ .

مُسْلِمُونَ ﴾المائدة (١١١) والمعنى: "وإذ ألقيت إلى الحواريين أن صدقوا بي وبرسولي عيسى، فقالوا: آمنا، أي: صدقنا بما أمرتنا أن نؤمن يا ربنا ."(١)

ولما كان الوحي يقتضي معنى الإخبار؛ جاء بـ (أن) التفسيرية بعدها(٢)، وهي بمنزلة (أي) على اعتبار أن معنى فعل: ﴿ أَوْحَيْتُ ﴾أمرت، فيكون التقدير: أوحيت إلى الحواريين بأن آمنوا بي وبرسولي، و لعله لم يقل: أمرت مثلا، لأن الوحي يتضمن معنى الإشارة السريعة(٣) أما أمرت فيتضمن معنى التكليف .(٤) و الحواريون تكفيهم الإشارة و ليسوا بحاجة إلى تكليف، و تلك منقبة لهم –و الله أعلم بأسرار كتابه –

والحواريون نعمة أخرى امتن بها الله تعالى على عيسى – عليه السلام – لأنهم أنصاره، وأتى بمتعلق الفعل: ﴿ وَبِرَسُولِي ﴾دون قول: و بعيسى ؛بيانا لمكان عيسى – عليه السلام – من الرسالة ،وهو يتضمن معنى بشريته .و نسبة الرسول إلى الله تعالى بإضافة (ياء المتكلم)العائدة على لفظ الجلالة، وعطفه على الجار والمجرور { بي } الدال على الله تعالى تشريف و تكريم لعيسى –عليه السلام–

ولما كان قوله: ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴾ مُنزَّلة مَنزِلة جواب عن سؤال مقدّر اقتضته الجملة قبله، ترك العطف بين الجملتين للاستئناف البياني لإغناء المتلقي عن أن يسأل، وتقديره: هل امتثل الحواريون لذلك الوحي ؟

ولما كان الأمر بالإيمان بالله و برسوله عن طريق الوحي ؛ جاءت الإجابة بقولهم: ﴿ ءَامَنَّا ﴾مبينة مدى امتثالهم لما أوحي إليهم، و أسهم الجناس بين قوله (آمنوا– آمنا) في التنبيه إلى هذا المعنى كذلك .و مجيء الفعل بالمضي يفيد ثبات إيمانهم .

---

(١) جامع البيان ١٢٨/٧ .

(٢) يجوز أن تكون مصدرية .

(٣) المفردات. مادة (وحي) .

(٤) السابق. مادة (أمر) .

ولما قالوا بعده : ﴿ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ خرج فعل الأمر ﴿ اشْهَدْ ﴾ من معناه الأصلي وهو الطلب باستعلاء إلى الطلب بخضوع ووجل؛ لأنه طلب من الأدنى إلى الأعلى بالشهادة على إسلامهم ، ومجيء (أن) فيه تأكيد على تحقق انقيادهم لله تعالى، والتعبير بقوله : ﴿ مُسْلِمُونَ ﴾ يسهم في بيان هذا الانقياد إذ الإسلام يعني الاستسلام والخضوع .

ولما هيّأ السبك الكريم لذكر الحواريين؛ ذكر قصتهم مع عيسى – عليه السلام – فقال : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ المائدة (١١٢) وقوله : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ على معنى : واذكر، وقولهم : يا عيسى بن مريم بمجيء (ياء النداء) يشير إلى قربه – عليه السلام – منهم، ونسبة عيسى إلى أمه فيها دلالة على أنهم يقرون ببشريته ، وقولهم: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ تأولها العلماء بقولهم: " هل يطيعك ربك؟ أوهل يستجيب لك ربك ؟ أو هو كما يقول الرجل لصاحبه: أتستطيع أن تنهض ."(١) بياء الغيبة، ورفع باء (ربك) وهي قراءة الجمهور، وقرأ الكسائي (٢):(هل تستطيع ربك ؟) بتاء الخطاب، ونصب باء (ربك)أي: هل تستطيع أن تسأل ربك ؟ وهي القراءة التي قرأ بها الرسول ﷺ كما قال معاذ بن جبل .(٣) فتأويل القراءات يسوّغ لسؤال الحواريين

(١) ينظر جامع البيان ١٢٩/٧ .

(٢) ينظر النشر في القراءات العشر ٢٨٩/٢ .

(٣) " عن عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال :سألت معاذ بن جبل – رضي الله عنه – عن قول الحواريين :هل يستطيع ربك ، أو هل تستطيع ربك فقال : أقرأني رسول الله ﷺ هل تستطيع بالتاء "(المستدرك على الصحيحين . رقم الحديث (٢٩٣٥)(كتاب التفسير) ٢٦٠/٢ .

بالاستطاعة، ويجوز أن تحمل على تأويل من المجاز المرسل فتكون العبارة "من التعبير عن المسبب بالسبب إذ هي من أسباب الإيجاد."(١) يعني أن الاستطاعة سبب لإيجاد الشيء .

ولما كان الاهتمام بتنزيل المائدة على الحواريين خصوصاً أكبر من تنزيل المائدة بشكل محض؛ قدّم متعلق الفعل (علينا) على معموله (مائدة) فهم يريدون معاينة نزولها من السماء، وليس إيجادها لمجرد الإيجاد، و لعل التشديد في قوله: (ينزّل) يخدم هذا المعنى لأن ذلك يقتضي التدرج في الإنزال ، و عليه تتم المعاينة .

والاستفهام بـ (هل) يقتضي التصديق بنعم أولا، ولكن لما كان طلب الآيات يمثل تعديا وتدخلا في شئون الإلهية؛ عُدل عن الجواب بالتصديق بقول: ﴿ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فنزّل هذه الجملة منزلة جواب تقتضيه الجملة الأولى، فترك العطف بينهما للاستئناف البياني، على تقدير سؤال: ماذا كان ردّ عيسى — عليه السلام — على قومه؟

ومدلول التركيب من مجيئ الفعل بصيغة الأمر وإسناده إلى اسم الجلالة المعظم ، ومن تعليق الإيمان على تقوى الله يبين عن ترهيب وتخويف الحواريين من اقتراح الآيات، ومدلوله في معانيه الثانية يشير إلى عدم رضا عيسى — عليه السلام — عن طلب الحواريين للمائدة – والله تعالى أعلم–

ولما قال بعد ذلك: ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ المائدة (١١٣) ترك العطف بين هذه الجملة وما قبلها للاستئناف البياني؛ لأن هذه الجملة نُزلت منزلة جواب لسؤال مقدر اقتضته الجملة الأولى وهو : هل ارتدع الحواريون ورجعوا عن طلبهم المائدة بعد تخويف عيسى —عليه السلام– لهم ؟

فبرر الحواريون لطلبهم ولم يرتدعوا ، وذكروا أسباب طلبهم المائدة متراتبة ابتداء من الأسباب الحسّية، وصعودا بها إلى المعنوية. والملحوظ أن الأفعال جاءت على صيغتها المضارعة التي

(١) روح المعاني ٥٦/٤ .

تفيـد التجـدد والاسـتمرار،فقال:(نأكـل – تطمـئن – نعلـم – نكـون) فالأكـل مـن المائدة،واطمئنان قلوبهم ،والعلم بصـدق عيسـى — عليـه السـلام — واكتسـاب شـرف رؤيـة المائدة وهي تتنزّل،كلها أهداف ابتغاها الحواريون من وراء طلبهم هذه الآية العظيمة .

ولعل الإتيان بمتعلق الفعل﴿ مِنْهَا ﴾في قوله:﴿أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾يـبين أن "لـيس غرضـهم من الأكل دفع الجوع،بل الغرض التشرف بأكل شيء نازل من السماء . "([1]) وهـذا يؤيـد أن (من) هنا بيانية وليست تبعيضـية . وفيـه دلالـة علـى أن الأمـور الماديـة أو الحسـية طريـق للوصول للأمور المعنوية عندهم .

وعطف بقوله تعالى: ﴿ وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ فالعلم هنا بمعنى علـم المشـاهدة والحـسّ لا الخبر،فليس راء كمن سمع ،فالمشاهدة تقوم برؤية نزول المائدة من السماء،والحسّ يقوم بالأكل من طعام هذه المائدة .فأفاد تركيب الجملة من (أن)مع حرف التحقيق (قد) ومجيئ(الصـدق) فعلا ماضيا –أفاد الدلالة على حاجة الحواريين إلى تأكيد صدقه —عليه السلام– و لعل اسـم (أن) المحذوف ([2]) يفخم هـذا المعنـى وتقـديره:ونعلم أن الأمـر والشـأن أن صـدقتنا. فوقـوع التصديق في قلوب الحواريين بعد رؤية الآية،والتذوق منها ،يعـني حصـول عـين الـيقين في قلـوب الحـواريين،والختم بقولـه : ﴿ وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ يعـزز معنـى حصـول إيمانهم؛لأن المعنى:" ممن يشهد أن الله أنزلها حجة لنفسه،عليما في توحيده وقدرتـه علـى ما شاء،ولك على صدقك في نبوتك ."([3]) وأسهم في بيان هذا المعنى النص على حصـول هـذه الآية (نزول المائـدة) بـذكر متعلـق الفعـل ﴿عليها ﴾وذكـر ﴿من﴾ البيانيـة مـع تعريـف

(١) تفسير التحرير والتنوير.المجلد الثالث ١٠٧/٧ .

(٢) إعراب القرآن و بيانه ٤٥/٣ .

(٣) جامع البيان ١٣٢/٧ .

قوله: ﴿ الشاهدين ﴾ بلام العهد ،و المعنى الوضعي للفظ: (الشهادة) لأنها تعني "الحضور مع المشاهدة إما بالبصر أو البصيرة ."(١) و رؤية المائدة شهادة بصر تقود إلى شهادة بصيرة .

ولما قال تعالى: ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ المائدة (١١٤)ترك العطف بين هذه الجملة وماقبلها للاستئناف البياني، فنُزّل قوله تعالى: ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ . . . ﴾ منزلة جواب عن سؤال مقدّر اقتضته الجملة الأولى، وتقديره :ماكان رد عيسى –عليه السلام– ؟ فأغنى بترك العطف عن إيقاع السؤال.

ولما كان اقتراح الآيات من عظائم الأمور ؛توجه عيسى –عليه السلام – على سبيل من الخضوع والتذلل و التوسل إلى الله قائلا : ﴿ اللَّهُمَّ رَبَّنَا ﴾ واللفظان كلاهما للنداء، وتعاقبهما يدل على أمرين، الأول: كمال خضوع عيسى –عليه السلام– و تذلله وتوسله لله تعالى، لأنه توجه لله بالدعاء بندائه بما يدل على قربه دون استخدام أداة نداء. ويعزز معنى كمال الخضوع والتذلل قول عيسى –عليه السلام– حين طلب المائدة: ﴿ أَنزِلْ ﴾ فلم يقل نزّل، لأن التنزّل يقتضي الحدوث مرة بعد مرة أو التدرج في الإنزال، وكان طلبه هذا أدبا مع ربه .
الثاني : كمال تصريح عيسى –عليه السلام– بالألوهية والربوبية معا .

ولعل النص على اسم عيسى – عليه السلام– بنسبته إلى أمه مرة ثالثة في خاتمة السورة يشير إلى بيان مكانه من البشرية ،وأنه من البداهة بمكان فلا داعي أن يرتاب في ذلك النصارى. ولعل تقديم متعلق الفعل: ﴿ عَلَيْنَا ﴾ على المفعول ﴿ مَائِدَةً ﴾ فيه مزيد بيان لتنزل

(١) المفردات مادة (شهد) .

المائدة على الحواريين خصوصا ،وإنزال المائدة (1)من السماء تفخيم لشأنها؛لفخامة المصدر،وتنكير قوله : ﴿ مَآئِدَةً ﴾ يسهم في بيان تلك الفخامة،فلعلها مائدة تحمل العديد من صنوف الطعام الذي له أول و ليس له آخر،فهذا التنوع الهائل دال على عظمة وفخامة تلك المائدة .

ومما يعزز عظمة تلك المائدة وصفها مرتين ،الأولى :بالجار و المجرور ﴿ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ ؛لأنه متعلق بصفة محذوفة.(2)والثانية :بجملة ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيداً ﴾ .ومجيء لفظ: ﴿ عِيداً ﴾ يبين من حيث تنكيره،ومن حيث دلالته الوضعية عن فخامة ذلك اليوم،لأن العيد مستعمل في كل يوم فيه مسرة ،وفيه كذلك تقرب إلى الله؛لأن معنى الآية " تكون لنا عيدا نعبد ربنا في اليوم الذي تنزل فيه،ونصلي فيه،كما يعيد الناس في أعيادهم ."(3) ويعزز مجيء الفعل: ﴿ تَكُونُ ﴾ في زمنه المضارع هذا المعنى؛لأنه دال على التجددو الاستمرار،فالعود مستقى من التركيب كله . ولعل عيسى – عليه السلام – حينما قال: ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيداً ﴾ استحقر أن يكون الإيمان بهذه الآية العظيمة التي تجرأ قومه بطلبها – أن يكون صادرا من هذه الفئة القليلة من الناس،فاستدرك بدون حرف استدراك،وقال مباشرة: ﴿ لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴾ فهي بدل اشتمال من الجار و المجرور،وهي أوسع مدلولا وأشمل؛لأن معنى الآية :"للأحياء منا اليوم و من يجيء بعدنا منا ."(4) فقامت العبارة مقام تأكيد حصول الإيمان من الجميع،فلا يوجد بعد ذلك من يطلب شيئا من الآيات؛لأن الإيمان وقع في قلوب

---

(1) اختلف أهل التأويل هل نزلت المائدة أم لم تنزل ،وما أصناف الطعام التي كانت عليها (ينظر جامع البيان الطبري ٧/ ١٣٣-١٣٤).

(2) إعراب القرآن و بيانه ٤٧/٣ .

(3) روح المعاني ٥٩/٤ .

(4) جامع البيان ٧/ ١٣٢ .

الأولين والآخرين ،"وأعيد الجار والمجرور؛لأن البدل في قوة تكرير العامل ." ([1]) وعطف قوله : ﴿ وَآيَةً مِّنكَ ﴾على قوله : {عيدا }لبيان الغاية من طلب الحواريين للمائدة،فهي أيضا علامة بارزة من عند الله تعالى على صحة ما جاء به عيسى — عليه السلام –.

وعطف بقوله : ﴿ وَارْزُقْنَا ﴾على قوله : ﴿ أَنزِلْ عَلَيْنَا ﴾ وعقب بفاصلة مناسبة جاء فيها فعل الأمر دالا على الدعاء؛لخروجه عن اقتضاء الاستعلاء لدنو الجهة المصدرة لهذا الفعل،وأتبع بالثناء على الله بما هو أهل له فأخبر بتفضيل جهة الرزق الصادرة عن الله تعالى على الإطلاق،فقال : ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ .

ولعل حديث عيسى — عليه السلام– بصيغة الجمع بدلالة إسناد (ناء الدالة على الفاعلين) في قوله :(ربنا – علينا – لنا —لأولنا – آخرنا – ارزقنا)فيه بيان تشفعه لقومه وعدم البراءة منهم،وإلا لقال :اللهم ربي أنزل عليهم مائدة من السماء،وفرق بين التعبيرين .

ولما نزّل قوله تعالى : ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾المائدة (١١٥) منزلة جواب لسؤال مقدر اقتضته الجملة قبله تقديره :بماذا أجابه ربه ؟ ترك العطف بين هذه الجملة وبين قوله قبلها : ﴿ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾لإغنائه عن أن يسأل .

وفي التعبير فخامة وجلال لا تخفيا،ابتداء من إسناد القول إلى الله تعالى،ومن مجيء لفظ الجلالة(الله) الدال على المهابة مع التوكيد بـ (إن)،ومن التعبير عن التنزيل بالاسم دون الفعل بقوله : ﴿ مُنَزِّلُهَا ﴾إذ لم يقل :سأنزلها مثلا، لأن فيه بيان تحقق حصول إنزال المائدة على المدى القريب ،ولعل الإشارة إلى المائدة بضمير الغيبة دون الاسم الظاهر فيه تحقير لشأن إنزالها .

(١) روح المعاني ٤ / ٥٩ .

فحقق الله ماطلب الحواريون،وليس ماطلب عيسى – عليه السلام– و ذلك يظهر من تشديد قوله: ﴿ مُنَزِّلُهَا ﴾ لأنهم قالوا: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا . . . ﴾ وفي ذلك بيان لكمال القدرة على التنزيل والإنزال معا،فمن كان قادرا على التنزيل؛كان قادرا على الإنزال،وفيه أيضا " كمال اللطف و الإحسان مع مافيه من مراعاة ماوقع في عبارة السائلين."(١)

ثم إنه تعالى اشترط الإيمان بعد نزول المائدة ،فقال: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ المائدة (١١٥) وجاء الفعل (يكفر)بصيغة المضارعة دلالة على أن هذا الشرط يشمل كل من يكفر بعد نزول هذه الآية ويستمر على كفره،وخصص بقوله: ﴿ مِنكُمْ ﴾ الذين طلبوا المائدة، فهو يؤكد هذا المعنى؛لأنه قال قبل ذلك: ﴿ مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ و انقطاع ظرف الزمان ﴿ بَعْدُ ﴾ عن الإضافة يوحي بانقطاع كامل لأي آية أو رجاء أو استدراك بعد نزول هذه الآية،فهو تركيب مشوب بتهديد ،ولو لم يقع جواب الشرط بعد،ولما ذكر جواب الشرط : ﴿ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ وقع موقعه من القلب،فأصاب معنى الترهيب من الكفر بعد نزول المائدة،بله أكّد عليه بـ (إن)مع إسنادفعل التعذيب إلى حضرته تعالى،وأثر مجيء المفعول المطلق في هذا التأكيد فشدد عليه. ووصف العذاب بقوله: ﴿ لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً ﴾ يرفع قيمة التهديد والوعيد؛لأنه قطع كل نظير للعذاب من حيث نوعه أو بأسه أو مقداره،وغير ذلك ممالايُحد كثرة . وذلك كله حصل بالوصف بالجملة ،ولو أنه وصفه بالمفرد و قال:عذابا عظيما مثلا،ماأدى كل تلك المعاني الوافرة التي لا نهاية لها . ويسهم جناس الاشتقاق ﴿ أُعَذِّبُهُ عَذَاباً ﴾ في التنبيه إلى معنى التأكيد، وذكر المتعلق: ﴿ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ يبين عن انفرادهم

---

(١) روح المعاني ٥٩/٤ .

بعذاب معين، مما يؤكد انقطاع نظير هذا العذاب لأحد غيرهم، ومعنى الآية يومئ إلى أن تخصيص الحواريين بنعمة تنزيل المائدة يقتضي تخصيصهم بالعذاب الموسوم بقطع نظائره حين الكفر بهذه النعمة .

ولما كانت قضية اتخاذ عيسى – عليه السلام – إلها عمدة في خرم عقيدة التوحيد و في التعدي على خصائص الألوهية ؛ تناولها البيان القرآني بالتفصيل إيضاحا وتبيينا وتوبيخا وتبكيتا للكافرين، فكأنه بعد ذكر تعدي المؤمنين بطلب الآيات ؛ قرنه بتعدي الكافرين فقال : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ المائدة (١١٦) فافتتحت الآية بمقام العظمة والجلال لنسبة القول إلى الله تعالى ،ثم لندائه عيسى– عليه السلام — باسمه مع نسبته إلى أمه التي تؤكد بشريته، ولو قال :وإذ قال الله لنبيه لأجزأ ،ولكنه عدل عن ذلك لأن نسبته —عليه السلام — لأمه فيها تبكيت كل من يدعي بنوة عيسى – عليه السلام –

وخاطب تعالى نبيه بتوجيه سؤال له فقال: ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ فلما كان دخول همزة الاستفهام على المسند إليه ﴿ أَأَنتَ ﴾ دون المسند الفعلي يفيد الشك في المسند إليه الذي هو الفاعل في المعنى، ويفيد معنى آخر هو تحقق حصول الفعل(١) قدّم المسند إليه وأدخل عليه الاستفهام ،وهذا يعني أن القول صادر لا محالة، ولكن الشك في الفاعل عيسى–عليه السلام – أم غيره ،ومدلول التركيب في معانيه الثانية ؛ هو ترهيب الفاعل الحقيقي لأن الله أعلم بمن قال ومن لم يقل، فهو ليس بحاجة إلى سؤال وجواب .

---

(١) ينظر دلائل الإعجاز صـ١٢٤ .

وقوله تعالى تفصيلا : ﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ فيه تعريض بتوبيخ الكفرة على قولهم مالا يليق عن الله تعالى، وعن رسوله –عليه السلام–

والعطف على ضمير المتكلم بلفظ ﴿ أُمِّيَ ﴾ و إشراكها مع عيسى في التأليه مع عدم تأليهها حقيقة، يدل على تعظيمهم لها حتى أنزلوها منزلة عالية ليست لها فقارفوا ذنبين وليس واحدا .

ولما كانت جملة : ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ . . . ﴾ منزّلة منزلة جواب عن سؤال واقع في الجملة الأولى؛ ترك العطف للاستئناف البياني؛ ليتنبه السامع على موقعه. وقول عيسى– عليه السلام–: ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ يعني: "تنزيها لك ."(1) فيه عدول عن الجواب بنعم أو لا، وذلك لكمال أدبه وخضوعه وتذلله في خطاب الرب، وفيه إشارة إلى الجواب، ويقدر بقوله: أنزهك يارب عن هذا القول فكيف أقوله ؟ !"وفيه من المبالغة في التنزيه من حيث الاشتقاق من السبح ،وهو الإبعاد في الأرض والذهاب، ومن جهة النقل إلى صيغة التفعيل، والعدول عن المصدر إلى الاسم الموضوع له خاصة المشير إلى الحقيقة الحاضرة في الذهن وإقامته مقام المصدر مع الفعل مالا يخفى ."(2)

وقوله : ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ . . . ﴾ تأكيد على معنى التنزيه، فمجيء نفي الشأن في هذا المقام يرفع قيمة النفي، ويزيد من شدته؛ لأن المعنى: إني لست بأهل أن أقول شيئا ليس حقا لي، و ليس من شأني أن أفكر فيه، ولا يعقل أن أقوله، فضلا عن كوني لا أستطعيه أو لا أقدر عليه .

ونفي الشأن أشد من نفي الفعل؛ لأنه نفي بالدليل، فنفى عيسى–عليه السلام– عن نفسه هذا القول حال كون الله عالما بما ينطق به وما يكون خافيا في النفس، فانتفى عنه هذا القول لعلة إحاطة علم الله بكل شيء، أي لعلة تقواه في نفس عيسى –عليه السلام– فأوجز هذه المعاني

---

(1) جامع البيان ٢١٠/٤ . و مثله في المحرر الوجيز ٤١١/٢ .

(2) روح المعاني ٦٣/٤ .

كلها بهذه العبارة .ويعزز هذه المعاني مجيء الفعل (يكون – أقول) بصيغة المضارعة التي تفيد استمرارية نفي الشأن عن عيسى – عليه السلام– أن ينطق بما ليس هو أهلا له.

وتكرار ذكر الجار و المجرور﴿ لِي ﴾العائد على عيسى – عليه السلام– و كان يجزئ لوقال: ما يكون أن أقول ما ليس لي بحق – في تكراره بيان إقصاء نفسه خصوصا عن مثل هذا القول الذي لا يحق له. وقوله: ﴿ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ يفيد ثبات معنى عدم الحقية في هذا القول، وهذا يقابل التعبير بالجملة الفعلية في أولها ﴿ مَا يَكُونُ لِي ﴾التي تنفي الشأن عنه أن يقول هذا القول، مما زاد الكلام وقعا وأثرا وتأكيدا .

ولما كانت جملة: ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ منزّلة منزلة السبب من المسبب؛ترك العطف للاستئناف البياني،وهذا داعٍ عظيم لعدم قوله،فالخشية والتقوى هما المعوّل عليهما من قوله المبني على الشرط .

وفي التعبير من الضراعة والتذلل والأدب ما لا يخفى ،وساعد عليه مجيء الشرط بـ (إن) بدلا من (إذا) لأن(إن) مخرجها مخرج الظن فيما يخبر به وليس اليقين. وعيسى –عليه السلام – يعلم مكانه من ربه،ويعلم أن الله سأله وهو أعلم بالجواب،ومدلول تركيب الجملة: أن صدور هذا القول عن عيسى –عليه السلام – مستلزم لعلمه تعالى به،وانتفاء علم الله به يستلزم انتفاء صدوره أصلا .

ولما كانت جملة: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ﴾ منزّلة منزلة التأكيد من متبوعه،ترك العطف بين هذه الجملة والسابقة؛لكمال الاتصال وقوة الارتباط،ولعل قوله بعد ذلك: ﴿ وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ بالعطف يعزز هذا المعنى؛لأنه يبين عن علم الله للخافي قبل الظاهر،وتسهم المقابلة بين الجملتين في تقرير علم الله لما في نفس عيسى –عليه السلام – وانتفاء علم عيسى – عليه السلام– لما عند الله ،وتؤثر الأفعال في زمنها المضارع في بيان تحقق هذا الانتفاء على

التجدد والاستمرار؛ مما يبين عن العلم المطلق لله تعالى الذي لا يقابله علم، فضلا عن أنه لا يقرب منه.

ومدلول تركيب العبارات هو إقرار عيسى – عليه السلام – بالقصور دون رتبة الألوهية التي وضعها النصارى له، وفيه من الأدب الجم في تخاطب عيسى – عليه السلام – مع الرب مالا يخفى .

ولما كان قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ يجري مجرى التعليل للجملة السابقة، ترك العطف للاستئناف البياني .وتكرار هذه الفاصلة ([1]) من رد الأعجاز على صدورها ،ومن ذكر الخاص بعد العام؛ لأنها مقول الرسل يوم القيامة، ومقول عيسى –عليه السلام– في هذا المقام.

ولما كان قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ المائدة (١١٧) جوابا عن سؤال واقع تضمنته الجملة السابقة في قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ المائدة (١١٦) ترك العطف للاستئناف البياني؛ لتنبيه السامع على موقعه. وقوله بعدها : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ تصريح بالجواب بعد أن ضمنه في التنزيه السابق . وفيه قصر مبني على النفي والإثبات، فقصر عيسى – عليه السلام – مقولته لقومه على ماأمره الله به قصرا إضافيا (قلبا)؛ لأنه قاله في مقام أنك لم تقل للناس ماأمرتك فليس المعنى" إنني لم أزد على ماأمرتني به شيئا، ولكن

(١) ما قيل في تحليل هذا التركيب في أول الخاتمة يقال في هذه الفاصلة أيضا.

المعنى: إني لم أدع ما أمرتني أن أقوله لهم و قلت خلافه. "(1) فتنافي الصفتين هو شرط قصر القلب كما وضح من معنى القصر .

ومن بلاغة العبارة أنه لم يقل: ما أمرتهم إلا بما أمرتني به مثلا ،وذلك لكمال خضوعه وأدبه —عليه السلام— فلم ينسب إلى نفسه أمرهم لأن الآمر يأمر وهو على جهة من الاستعلاء، و لما كان عيسى – عليه السلام – يخاطب ربه عدل عن قوله: ماأمرتهم، مثلا، إلى قول: ما قلت لهم ؛تذللا وخضوعا وتأدبا .

ومن أدبه كذلك أنه لم يقل :ما قلت لهم إلا ما قلت لي، مثلا ؛إذ جاء بمعنى الأمر ونسبه إلى الله؛ بيانا لمكان الآمر من المأمور، وتضمينا لمعنى الطاعة الواجبة في الأمر، وهذا كله يصب في معنى إقرار عيسى — عليه السلام – بعبوديته لله تعالى .ولما كانت جملة: ﴿أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ مفسرة للجملة السابقة(2)؛ ترك العطف بينهما لكمال الاتصال ،لأنه نزّل هذه الجملة منزلة عطف البيان من متبوعه في إزالة الخفاء الحاصل من الجملة قبلها: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ .

ومدلول تركيب الجملة المفسرَة هو تقرير الألوهية والربوبية معا، ومجيء لفظ الجلالة المفخم: ﴿اللَّهَ﴾ وبعده مباشرة لفظ الجلالة الدال على الإنعام ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ مع نسبته إلى عيسى تارة وإلى قومه تارة يفيد في إثبات إقرار عيسى – عليه السلام –ببشريته التي تسهم في نفي المقولة عنه .

ولما كان ترك العطف قد يوهم أن قوله تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ داخل فيما أمر الله به عيسى — عليه السلام — ليبلغه قومه عطف بالواو لدفع هذا

---

(1) دلائل الإعجاز صـ٣٣٧ .

(2) يعززه اعتبار (أن) مفسرة (إعراب القرآن .النحاس ٢٩٠/١).

التوهم (١)، ثم إنه لما قال: ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ وكّل الأمر كله لله بعد وفاته، فقصر الرقابة على الله تعالى دون غيره قصرا حقيقيا تحقيقيا ، وطريقه تعريف طرفي الإسناد، والفصل بينهما بالضمير المنفصل ﴿ أَنتَ ﴾ فتأكد المعنى بذلك . وأفادت (أل) التعريف للاستغراق الكمال في صفة الرقابة الصادرة من الله تعالى ، وذلك يدل على كمال علمه وإحاطته تعالى بالعباد وبشئونهم.

ولما كان معنى ﴿ الرَّقِيبَ ﴾ يدل على العلم مع المراعاة والحفظ (٢)، ومعنى الشهيد يدل على الحضور والعلم فقط (٣)؛ غاير النظم الكريم على لسان عيسى — عليه السلام — فنسب إلى نفسه الشهادة، مقيدا بالظرفية، وإلى ربه الرقابة. وجاءت الفاصلة لتضيف لله الشهادة والرقابة معا. فلما خصص بنسبة الرقابة لله على قومه؛ عمّم بنسبة الشهادة إلى الله تعالى في كل شيء في الوجود، فقال: ﴿ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ولعل تقديم متعلق الخبر (الجار والمجرور) يفيد في بيان درجة الشمول و العموم لشهادة الله على ما في الكون .

ولما كانت رقابة الله لعباده و شهادته عليهم تقتضي العلم المطلق، وعلمه المطلق يبين عن قدرته تعالى المقتضية تصرفه في الكون كله حسب ما يشاء قال بعدها : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ المائدة (١١٨) فترك العطف بين هذه الجملة والسابقة لشبه كمال الاتصال؛ لأن هذه الجملة نُزّلت منزلة المسبب من سببه فعذاب الله للعباد أو مغفرته لهم مسببة عن شهادته على أفعالهم و معرفته بما يستحقون .

---

(١) هذه الواو عند المقعدين للبلاغة للوصل وتسمى هذه الحالة بكمال الانقطاع مع الإيهام . و لكن القول بكمال الانقطاع غير وارد في كلام الله إلا في النسبة فقط . و الواو للعطف أصح في مثل هذا المقام .

(٢) مقاييس اللغة . مادة (شهد).

(٣) مقاييس اللغة . مادة(رقب).

وبُني الكلام كله على الشرط ،وأسهم العطف بين حالي عذاب العباد و مغفرة ذنوبهم للاشتراك في الحكم الإعرابي –أسهم مع الطباق الخفي بين العذاب والمغفرة في إيضاح المعنى،وفي بيان أن الحالين في جنب العباد على السواء عند خالقهم .

ولما كان الأمر كله لله يعذب أو يغفر ،و لا دخل للمخلوق في شيء من ذلك ؛حسن دخول (إن) لأنها لا تخرج خبرها مخرج اليقين بل تبنيه على الشك ،وحسن كذلك مجيئ الأفعال في زمنها المضارع دون المضي مثلا .

ومن بلاغة العبارة أن قام جوابا الشرط على التأكيد بـ(إنّ) فقال في الأول: ﴿ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾وقال في الثاني: ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ومجيء لفظ: ﴿ عِبَادُكَ ﴾ ينص ويقرر عبودية الناس لله تعالى،وأسهمت إضافة (كاف الخطاب) في بيان عظمة المولى تعالى وتحقير عباده،وتعريف المسند إليه بالإضمار بالغيبة،ووصله بالمؤكد يبرز معنى العبودية أكثر،فكأن لفظ ﴿ عِبَادُكَ ﴾ مؤكد معنوي يؤازر المؤكدات الأخرى. وتعريف المسند إليه بالإضمار بالخطاب ،ووصله بالمؤكد في جواب الشرط الثاني يعزز مقام التفخيم لله تعالى،ويؤكد الفصل بين المسند والمسند إليه بالضمير المنفصل ﴿ أَنتَ ﴾ معنى التفخيم هذا .

وتعريف طرفي الإسناد في فاصلة السورة يفيد قصر الحكمة والعزة على الله تعالى وحده دون سواه ،وتعريف صفتي العزة و الحكمة بلام الاستغراق يفيد كمال العزة والحكمة الموصوف بها تعالى لاستغراقه جميع أفراد العزة و الحكمة . ومجيء (إن) والجملة الاسمية ينبئ عن تأكيد قصر تلك الصفتين على الله وحده دون سواه قصرا حقيقيا تحقيقيا .

وكثر الكلام حول فاصلة الآية : ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ومدى مناسبتها للآية،فجاء في الإتقان:"من مشكلات الفواصل قوله تعالى : {إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم } فإن قوله: { وإن تغفر لهم } يقتضي أن تكون

الفاصلة: الغفور الرحيم ."(1)

ولكن فاصلة الآية متمكنة في محلها، متناسبة مع الآية كلها؛ من جهة تعلقها بالشرطين معا، أي :" {وإن تغفر لهم} فإنك أنت العزيز القوي القادر على الثواب والعقاب، {الحكيم} الذي لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب ." (2)

ومن جهة أخرى فإن المقام الذي قيلت فيه الآية مقام تسليم من عيسى – عليه السلام – لله، وإقرار بتصرفه تعالى في عباده كيفما شاء مغفرة أو مؤاخذة ،ولو ختم بقوله :الغفور الرحيم ؛لاقتضى ذلك أن يكون المقام مقام تعريض بطلب العفو للكافرين ،وذلك لا يحسن قال القرطبي :"ولم يقل: فإنك أنت الغفور الرحيم على ما تقتضيه القصة من التسليم لأمره والتفويض لحكمه، ولو قال: فإنك أنت الغفور الرحيم لأوهم الدعاء بالمغفرة لمن مات على شركه وذلك مستحيل ."(3)

ويحسن الختم بما يدل على العزة و الغلبة والحكمة في هذه الآية ؛لأنه من باب الاحتراس، أي: "فلا عجز ولا استقباح ."(4) فلا يُظن بمغفرته تعالى عدم القدرة على عباده، أي: عجزا عنهم ،ولا يظن بعذابه جبروت و ظلم، أي: استقباحا. فمن كان عزيزا ؛كان قادرا، والعزة تستلزم الحكمة، ومن يستحق الألوهية لا ينبغي أن يكون قويا قادرا وتخلو أفعاله من الحكمة و الصواب ،و إلا لاتصفت أفعاله بالظلم ؛ولذلك حسن الإقفال بقوله: ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ولم يحسن بقوله: الغفور الرحيم (5) وهذا مايسمى عند البلاغيين بتشابه الأطراف .

---

(1) الإتقان ٢/٢٨٤ .

(2) الكشاف ٢/٣١٨ .

(3) الجامع لأحكام القرآن ٧/٣٧٨ .

(4) تفسير البيضاوي ١/٢٩٠ .

(5) جمع هذه الآراء السامرائي وقابلها بآيات أخر بنفس الفاصلة حتى يكون المعنى أكثر جلاء ووضوحا (ينظر لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ،فاضل السامر ائي ص٥٦-٦٢ .ط١. ١٩٩٨ .دار الشؤون الثقافية العامة –بغداد).

وشيء آخر يُضاف غير بيان أن العذاب صادر عن حكمة ،والمغفرة كذلك،وهو أنه لو ختم بقوله :الغفور الرحيم ؛لكان إغراء عليه تعالى بفعل الذنوب لأنه سيغفرها ،وهذا لا ينبغي أن يكون مقصودا من معنى الآية .

ولما قال بعدها : ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ المائدة (١١٩) ترك العطف بين هذه الجملة والسابقة للاستئناف البياني لأنه نزّل هذه الجملة منزلة الجواب لسؤال مقدر اقتضته الجملة السابقة ،وتقديره :ماذا ردّ الله عليه ؟ لتنبيه السامع على موقعه .والظاهر أن هذا الكلام يقوله الله تعالى يوم القيامة بدلالة حكايته من أول الخاتمة بقوله : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ . . . ﴾ ونهاية الخاتمة : ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ . . . ﴾ ويؤيد هذا المعنى القراءة بنصب لفظ (اليوم)([1]) في حين قرأ الجمهور برفع لفظ (يوم)([2]) ويكون المعنى حينها :هذا اليوم يوم منفعة الصادقين صدقهم.

وتنكير لفظ : ﴿ يَوْمُ ﴾ يفيد تعظيمه ،و مجيء الفعل ﴿ يَنفَعُ ﴾ في زمنه المضارع دال على استمرارية نفع الصدق لأصحابه ،و قُدّم المفعول ﴿ الصَّادِقِينَ ﴾ على الفاعل ﴿ صِدْقُهُمْ ﴾ اهتماما بشأن من يقع عليهم فعل النفع وهم الصادقون ،حتى اشتق الفاعل من مفعوله فقال : ﴿ صِدْقُهُمْ ﴾ ولم يقل :قولهم أو كلامهم ،فأثر الجناس بجرسه الصوتي في تنبيه العقول ،و إيقاظ ذهن الغافلين لمعنى قيمة الصدق للصادقين .

---

(١) بها قرأ نافع و تفرّد .(حجة القراءات .عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة أبو زرعة.تحقيق : سعيد الأفغاني ٢٤٢/١ .ط٢ . ١٤٠٢–١٩٨٢ . مؤسسة الرسالة –بيروت .)

(٢) السابق ٢٤٢/١ .

ولما كان قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ ﴾ مبينا لهذا النفع المذكور؛ترك العطف بين الجملتين لكمال الاتصال وقوة الرابطة،ونزّل الجملة الثانية منزلة عطف البيان من متبوعه في إزالة خفاء هذا النفع الذي هو الجزاء بالجنات،وقدم المسند على المسند إليه للتشويق إلى ذكر المسند إليه،أي إلى ذكر النعيم المعدّ لأهل الصدق .

ووَصَفَ البيان القرآني الجنات وجعلها لوحة تصويرية حية تنبض بالحركة بمجيء الفعل المضارع ﴿ تَجْرِي ﴾ الدال على استمرار جريان الأنهار،وبالفصل بالجار والمجرور ﴿ مِن تَحْتِهَا ﴾ بين المسند الفعلي والمسند إليه؛لأنه يبين عن أن جريان الأنهار على سبيل من التدفق غير الغزير،وهذا يوحي بالراحة والطمأنينة مع الجمال،فكان الوعد به أليق .
ولما أبان البيان القرآني عن خلود المؤمنين في هذا النعيم ؛أكّد ذلك بظرف الزمان (أبدا)فقال: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾ و لما كان قوله: ﴿ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ تأكيدا على النعيم الوارد في الجملة السابقة؛فصل بين الجملتين لكمال الاتصال و قوة الرابطة ،و نزّل الجملة الثانية منزلة المؤكد من متبوعه،لأن رضا الله –حتما– نعيم خالد . والملحوظ أنه أتى بفعل الرضا في زمن المضي مع أن الوعد لم يتحقق بعد ؛دلالة على ثبات وقوع الرضا من الله على الصادقين، وثبات وقوع رضا الصادقين عن ثواب الله لهم . وقوله: ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ من باب المشاكلة لأن المعنى: "رضي الله عن هؤلاء الصادقين الذين صدقوا في الوفاء له بما وعده من العلم بطاعته واجتناب معاصيه، {ورضوا عنه} يقول: ورضوا هم عن الله تعالى في وفائه لهم بما وعدهم على طاعتهم إياه فيما أمرهم ونهاهم عن جزيل ثوابه."(١) فلما كان العباد لا يملكون الحق في الرضا عن الله أو عدمه،و كان الرضا عن الله مقصودا به الرضا بثوابه وبما قسم لعباده من النعيم ؛عبّر بالرضا عنه مشاكلة لرضا الله تعالى

(١) جامع البيان ١٤٢/٧. ومثله في الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٣٨١ .

عنهم .وهو من باب ذكر المعنى بلفظ غيره .والعطف بين الجملتين ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ لغرض إشراك الجملة الثانية مع الأولى يؤثر في بيان أن الرضا حاصل ومتبادل من الطرفين، وبلاغة المشاكلة تظهر في المبالغة في بيان مكان الصادقين من الله تعالى حتى رفع أقدارهم بعظيم ثوابه الذي لا يملكون أمامه إلا الرضا، ومنها كذلك الترغيب في الصدق لنيل الثواب العظيم المرضي .

ولما كان قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ مسببا عن النعيم السابق ؛ ترك العطف لشبه كمال الاتصال.و تعريف المسند إليه بالإشارة للبعيد فيه تفخيم للمشار إليه من النعيم السابق على الجملة .

والإخبار عن المبتدأ المقدّر بقوله: ﴿ الْفَوْزُ ﴾ يعظم شأن النعيم لأن الفوز هو: " الظفر بالخبر مع حصول السلامة."(1) وتعريفه بـ (أل)التعريف يفيد كماله باستغراق جميع أفراده .وزاد فخامة الفوز بوصفه بالعظمة حين قال: ﴿ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

ولما كان التخصيص لازما للتقديم، تقدم الخبر على المبتدأ ؛ ليفيد اختصاص الله تعالى دون سواه بملك السماوات والأرض وما فيهن ،وقامت الإضافة ببيان مقدار هذا الملك، فهو ملك واسع لا يحدّ، فالسموات سبع والأرضين مثلهن وساعد على بيان هذا المقدار العطف بين قوله: ﴿ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ وعطف فقال: ﴿ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ فزاد مقدار هذه الكمية بالعطف ومجيء (ما) الموصولة التي تفيد عموم ملكية كل ما في السماوات والأرض لدلالتها على العاقل وغيره، وساعد على معنى الشمول مجيء حرف الجر (في) المفيد الظرفية .

ولما كانت آيات السورة تتحدث عن تقرير الألوهية واختصاصه تعالى بها دون سواه، وكان من دلائل هذا الاختصاص الملكية مع القدرة ؛ جاء الختم بتقرير هاتين الصفتين لله تعالى، وساعد على بيان الملكية وصفه بالقدرة المطلقة، فقال: ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

---

(1) المفردات (فوز) .

وتمتاز خاتمة السورة بالتوازن بين عباراتها، توازنا جزئيا وكليا ، فالتوازن الجزئي يظهر في التقسيم بعد الإجمال، في قوله : ﴿ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً // وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ // وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي // فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي // وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي //وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي //وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ .

وتسهم إقامة الشرط و جوابه في تقسيم العبارات مثل قوله : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ // فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ ﴾ وقوله : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ // فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ و قوله : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ // فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ //فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

وترفد المشاكلة التقسيم والشرط في إضفاء تناغم على العبارات يرتبها مثل قوله : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ وقوله : ﴿ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾

ويسهم الجناس بين قوله : (والدتك — أيدتك)و (الطين — الطير) و(آمنوا —مؤمنين)و(الرسل — برسلي) و (اشهد– شهيد — الشاهدين)و (ارزقنا — الرازقين) و (أعذبه — عذابا–) و(أقول — قلته) و(علمته– تعلم –علّام) و(الصادقين — صدقهم) يسهم مع السجع بين قوله : (والدتك —أيدتك– علمتك) في إبراز نغم صوتي ينبّه إلى معاني القصة، والحوار وسياقاته داخلها.

وأثّر طباق الإيجاب في قوله : (المهد– كهلا) و(السماوات — الأرض) و(أولنا —آخرنا). وطباق السلب بين قوله : (أعذبه — لا أعذبه)و (تعلم — لا أعلم) في التنبيه إلى المعاني وإيضاحها .

ولما كان تسكين وسط الكلمة دالا على خفتها و رقتها ؛كانت الألفاظ في الامتنان على عيسى –عليه السلام– غاية في الاعتدال و اللطف مثل قوله :(المهْد – كهْلا –الكتاب – الحكْمة – التوْراة – الإنْجيل –بإذْني– الأكْمه – الأبْرص – تخْرج –الموْتى) .

في حين يعلو الجرس ويرتفع حجم التنبيه في بقية المعاني عن طريق توالي حركتين متشابهتين قويتين مثل الضمة و ذلك مثل قوله:(الغُيُوب (مرتين)– القُدُس –تخلُقُ – تنفُخُ – قُلُوبنا –أعذبُهُ – اعبُدُوا –قلتُهُ – صدقُهُم).

وعن طريق كثرة القلقلة مثل قوله:(يجْمع –أُجبْتم – تبْرئ – اشهدْ– تطْمئن –قدْ– صدقْتنا – ابْن (أربع مرات)–سبْحانك –فقدْ– تعذبْهم –صدْقهم)و في فاصلة السورة أووسطها حين الوقف:(الغيوب (مرتين) –بحق – شهيد) .

وعن طريق التنوين مثل قوله:(كهلاً– طيراً – سحرٌ – مبينٌ – مائدةً (مرتين)– عيداً – آيةً – عذاباً – أحداً – بحقٍ – شيءٍ (مرتين)– شهيدٌ – جناتٌ – أبداً – قديرٌ).

وعن طريق التشديد كذلك مثل قوله : (علّام (مرتين)– أيّدتّك – تكلّم – علّمتك –الطّين – الطّير– البيّنات – آمنّا – ينزّل– تطمئنّ – اللهمّ – ربّنا – لأوّلنا – منزّلها – أعذّبه).

والتوازن الكلي في الخاتمة له أثر في إظهار نغمها؛مثل المؤاخاة بين المعاني بالتناظر بين حالي المهد والكهولة التي يكلم عيسى –عليه السلام– الناس .

والمؤاخاة بالتماثل بين العلوم التي علمها الله لعيسى – عليه السلام – من الكتاب والحكمة والتوراة و الإنجيل .

والمؤاخاة بالتماثل بين إيتاء عيسى –عليه السلام – معجزة إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى .

والمؤاخاة بالتماثل بين أسباب طلب الحواريين للمائدة من الأكل من المائدة واطمئنان القلب بها والعلم بصدق عيسى –عليه السلام –

والمؤاخاة بالتماثل بين طلب إنزال المائدة على الحواريين وطلب الرزق . وهذا المعنى بداخله مؤاخاة أخرى قائمة على التماثل بين أسباب طلب المائدة التي ذكرها عيسى –عليه

السلام– من كونها عيدا و آية .و كون نزول المائدة عيدا قائم على معنى المؤاخاة بالتناظر بين الأول و الآخر من الحواريين .

و المؤاخاة بالتناظر بين علم الله لما في نفس عيسى –عليه السلام – و عدم علم عيسى –عليه السلام– لما في نفس الله .

والمؤاخاة بالتناظر بين تعذيب الله لعباده ومغفرته لهم .

والمؤاخاة بالتماثل بين رضا الله عن الصادقين ورضاهم عن ربهم .

والمؤاخاة بالتماثل بين ملك الله لما في السماوات وما في الأرض و ما بينهن ،وهو قائم كذلك على المؤاخاة بالتناظر بين السماوات و الأرض .

وهذه المؤاخاة بين المعاني من شأنها أن ترتب الكلام في سياقه فتضفي عليه نغما خاصا مرتبا يريح النفس و يبث الهدوء،ويضفي ألفة بين المعاني المتآخية .

وتتسم خاتمة سورة المائدة بحسن الدلالة ،وإصابة المعاني أقدارها ،فوضع في بداية الخاتمة الركيزة والقاعدة ،وبنى الآية الأولى على الحوار الهادف بين الله تعالى ورسله الأفاضل الكمّل في الرسالة،ومجمله أن الرسل على كمالهم يفوضون الأمر لله ،ويقصرون العلم عليه وحده دون سواه ؛لأنه المستحق لذلك دون سواه .

ثم استل من بين الرسل عيسى –عليه السلام– لأنه الرسول الذي وضعه قومه في درجة تساوي الألوهية،وهذا يخدم مقصود سورة المائدة ،وهو الداعي لاختصاصه بالذكر في هذا المقام. وقدم لذكر عيسى –عليه السلام – بالامتنان عليه بالنعم الواحدة تلو الأخرى؛فأجمل ذكر النعم بقوله : ﴿ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ ﴾ ثم فصّل في ذكر النعم تصاعدا في علوها وإشكالها . وأسهم تكرار لفظ ﴿ بِإِذْنِي ﴾ في بيان القدرة الإلهية والعظمة الربانية التي لا تساويها عظمة فضلا عن أنها لا تقرب منها .

ومن حسن الدلالة :أنه بعد ذكر عيسى – عليه السلام – ذكر قومه ليبين عن مواقفهم التي تبين أثر التعدي على خصائص الألوهية ،مع بيان أن هذا الأمر لا هوادة فيه سواء صدر من مؤمن أوكافر. وقدّم بذكر المؤمنين منهم – وهم الحواريون – وعرّض بتعديهم على خصائص الألوهية بطلب الآيات مع إيمانهم ؛بطريق حوار ساقه بين الحواريين و عيسى –عليه السلام– يبين عن تمسكهم بطلب تنزيل مائدة من السماء ،و عدم رضا عيسى –عليه السلام– عن هذا الطلب .ثم محاولة إقناعهم لنبيهم بطلب هذه الآية من الرب لأهداف وغايات ترقّى البيان القرآني في ذكرها على لسانهم ،وأسهم العطف بالواو في بيان تصاعدها ورقيها.

وأقفل موضوعهم بذكر الشرط بعد تنزيل المائدة فقال: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ المائدة (١١٥)و بنى جوابه عليه .

ثم ذكر السبك القرآني الفريق الآخر المناظر،وهم الكافرون و أبان عن تعديهم على خصائص الألوهية باتخاذ عيسى – عليه السلام– وأمه إلهين ،مع بيان كذبهم على عيسى –عليه السلام– كل ذلك سيق بطريق الحوار بأسلوب محبوك،أسهم الشرط مع الاستفهام والنفي والقصر في تحقيقه ،وقُرر بواسطته كمال عبودية عيسى –عليه السلام– لربه و براءته ممانسب إليه .

ثم قفل الموضوع بقاعدة كما افتتحه بقاعدة كذلك،فختم السورة بما يصلح أن يكون ختما لمعاني السورة كلها،ومعاني القصة على السواء من تقرير ملك الله لما في السماوات وما في الأرض وما بينهما،وهذا من شأنه أن يقرر تصرف الله في ملكه كيف شاء،وتلك براعة في الختام سبق الحديث عنها .([1])

---

(١) ينظر باب براعة الاستهلال طريق إلى براعة الختام (سورة المائدة) .

وكما اتسمت الخاتمة بحسن الدلالة ؛اتسمت كذلك بتمامها ،فلم يذكر معنى من معاني الاستفهام إلا أورد الرد عليه ،مثل سؤال الله– وهو أعلم بالجواب – لرسله عن أقوامهم،وسؤال الحواريين لعيسى بطلب المائدة ،وسؤال الله تعالى — وهو أعلم بالجواب – لعيسى — عليه السلام– في مقالته المنسوبة إليه .

كما أنه حينما أورد نفي عيسى —عليه السلام — مقولة النصارى المضمّن في تنزيهه لله تعالى،ونفي الشأن عنه أن يقول شيئا ليس حقا له،وإقراره بعلم الله لكل خاف ؛أتبعه بإيراد نفي صريح لتلك المقولة المنسوبة إليه،فوقع النفي الصريح موقعه من التكميل للمعنى والتمكين له .

ومن تمام العبارة أنه لم يورد طلبا أو أمرا على وجه الاستعلاء أو المساواة أو الدونية إلا وجاء الرد شافيا متمكنا في موقعه،مثل أمر الله للحواريين بالإيمان،وأمر عيسى —عليه السلام— للحواريين بتقوى الله(1)،وطلب عيسى من الله إنزال المائدة .

ومن تمامها كذلك إيراد النتائج والاستخلاصات من القصص الواردة في خاتمة السورة ،فهي وإن تعددت فإن خيطا يشدها و يكتنفها جميعا،وهو تحقيق معنى العبودية لله تعالى وحده دون سواه بالاعتراف بقدرته الهائلة وعظمته التي تمكنه من التصرف في الكون أجمع دون شريك أو ما يقرب من منزلة الشريك .وهذه النتيجة في آخر القصة وقعت من القلب موقعها لأن القصة من شأنها شدّ المتلقي لها ،فكأنها بعد أن أخذت به من التمهيد إلى العقدة وصلت به إلى الحلّ فشفى النفس بعد تطلعها، واستقرت المعاني فيها .

---

(١) لعل إجابتهم بعد هذا الأمر بقولهم : ﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ تبين عن تقواهم الله ،و لكنهم أحبوا أن يقع في قلبهم عين اليقين بعد اليقين ،فيكون أرسخ لإيمانهم.

وخاتمة سورة المائدة تتسم بدقة المدخل كذلك ؛فنصبة الكلام و هيأته ليست قائمة على ذكر أخبار يوم القيامة من جمع الرسل واستجوابهم ،ثم استجواب عيسى –عليه السلام – وبيان صدقه في عدم أمره للنصارى باتخاذه وأمه إلهين،فهذا أمر مفروغ منه،إنما هي قائمة على بيان القدرة و الغلبة والحكمة و العلم المطلق لله تعالى وحده دون سواه ،تلك الصفات لقيت تقديرا من الرسل لأنهم أعرف بالله من أقوامهم، ويلزم من ذلك أن تلقى تقديرا من أقوام الرسل،أي الناس أجمع،لأن الإيمان بتفرد الله تعالى بتلك الصفات يحقق كمال العبودية وهو المقصود الأعظم من السورة –والله أعلم بأسرار كتابه – لكل ذلك حسن الدخول للخاتمة بقوله : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾المائدة (١٠٩)أي بالظرف النكرة الذي يبين عن عظمة هذا اليوم المهيب،ومع أنه ظرف زمان لكنه خلا من توضيح الزمان ،ثم بنى أفكار الخاتمة على ذلك اليوم ،ولو أنه عكس وقال :يجمع الله الرسل يوم القيامة لانصرف الذهن إلى الجمع دون اليوم ،ولبني الكلام على الجمع و ليس على اليوم الرامز إلى المعاد ،وذلك غير المراد .

والقصّ القائم على الحوار الوصفي التصويري هو الأسلوب العمدة في خاتمة السورة ،وهذا من شأنه شدّ المتلقي للنص القرآني ودمجه داخل حلقات المشاهد لإمتاعه و التأثير عليه،ثم حمله على اتخاذ موقف سليم وصحيح ؛لأن: "التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن...فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل ،فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظّارة،و حتى ينقلهم نقلا إلى مسرح الحوادث الأول الذي وقعت فيه أو ستقع؛حيث تتوالى المناظر وتتجدد الحركات،وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى،ومثل يضرب،ويتخيل أنه منظر يعرض،وحادث يقع،فهذه شخوص تروح على المسرح و تغدو ."(١)

(١) مشاهد القيامة في القرآن .سيد قطب صـ٨ .ط١٤ .١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م دار الشروق –القاهرة .

ولما كان من منهج القصة في القرآن الكريم البدء بأعجب شيء فيها (1)؛كان البدء بجمع الله للرسل و استجوابهم عن حال أممهم آخذا بلب المستمع واهتمامه . ولما كان من منهجها كذلك الاقتصار على المشاهد المهمة للغرض طوى مواقف عديدة ،وصفحات كثيرة لا يؤثر طيّها في مسار القصة من مثل: معجزات عيسى –عليه السلام– فلم يتعرض لكيفيتها إلا بمايتناسب مع غرضه المطلوب . ولما كانت قضية الخلق متلبِّسة بالخالق ومما تشكل؛جاء تفصيل الكلام في كيفيتها عند عيسى –عليه السلام – دون غيرها من المعجزات، متخذا من التشبيه وسيلة لإيصال معناه كما سبق ذكره، فقال: ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ في حين اكتفى بما بعدها من النعم بالفعل دون الكيفية فقال: ﴿ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي ﴾ ومنها: الوقوف عند طلب الحواريين للمائدة فحسب ،دون سرد هل نزلت حقا أم لم تنزل ،وهل أحجموا بعد معرفة التهديد والوعيد، ولم تسرد القصة أوصافها و ما عليها من طعوم و أصناف(2) إنما كان الذكر لما يخدم معنى الألوهية ،ويبين عن وجوب عدم التعدي بأي حال من الأحوال .

وأسهم في طي تلك المشاهد و الانتقال من مشهد إلى آخر بسلاسة دون ترك فجوات تشعر المتلقي بقطع الأفكار(3) مجيء (إذ) الظرفية التي من شأنها أن تطوي أزمنة عديدة ومواقف مديدة.كما أثر ترك العطف لكمال الاتصال وشبهه في تماسك النص والتحام نسيجه .

(1) ينظر من روائع القرآن .تأملات علمية و أدبية في كتاب الله عز وجل .محمد سعيد البوطي صـ191-210 .بدون ط.1424هـ- 2003م .مكتبة الفارابي –دمشق /سوريا .

(2) هذا ما سماه سيد قطب: الاختصار في الحلقات الوسطى للقصة (التصوير الفني في القرآن صـ165 .ط8 . 1403هـ- 1983م. دار الشروق –القاهرة .

(3) هذا شبيه بإنزال الستار مما يؤديه المسرح الحديث كما ذكر سيد قطب (السابق صـ187).

وختمت القصة ببيان قيمة فضيلة، والحث عليها حين قال: ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ وذلك نهج القرآن في قصصه، فغالبا يضمن قصصه العظات و النصائح .

ومجيء الرمز في القصة يسهم في التشويق و إثارة الانتباه والاختصار، وقصة المائدة رمزية، تسعى إلى بيان جانب خفي من التعدي الممقوت على خصائص الألوهية تعدٍ كان من المؤمنين لا يشفع فيه إيمانهم .

ومن صور التركيب التي أثرت بشكل فاعل في النهوض بمعنى القصة وبتشكيل الحوار وتقرير النتائج المرادة من سوق القصة؛ القصر بتعريف الطرفين كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ (١٠٩-١١٦) و قوله: ﴿ كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ (١١٧) وقوله: ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١١٨)

وبالنفي والاستثناء كما في قوله : ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ المائدة (١١٠) ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ (١١٧) ووقع القصر موقعه من معاني خاتمة السورة حيث حقق في معانيه بطريق مباشر أو ضمني قصر الألوهية على الله تعالى دون سواه دون تعد على شيء من خصائصه .

ومن صور التركيب الفاعلة في النص كذلك الشرط كما في قوله: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً ﴾ المائدة (١١٥) ، ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ (١١٦) ، ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ المائدة (١١٨).

وكما تنعطف المعاني في خاتمة السورة على مثلها في مطلع السورة ،تنعطف صور تلك المعاني على بعضها بشكل من الأشكال؛فكما أجمل في ابتداء الخاتمة موقف قيام الساعة وجمع الناس وغيرهم وما يكون في ذلك اليوم العظيم بذكر جمع الرسل وسؤالهم ،وعقّبه بتفصيل الحديث الذي دار بين الرب وعيسى –عيه السلام–؛أجمل في مطلع السورة القول بالأمر بالوفاء بالعقود فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ المائدة(١) وفصّل بعدها في بيانها و كيفية الوفاء بها وذكر صور منها وعواقب الرغبة عنها .

ولما جعل البيان القرآني قصة الحواريين وطلبهم للمائدة في خاتمة السورة رمزا للتعدي على خصائص الألوهية؛جعل حكم الصيد من بهيمة الأنعام في الحرم المكي وتحليل بعض الأطعمة،وبيان حكم طعام أهل الكتاب،والزواج منهم رمزا لبيان حدود الله التي يجب أن لا يتعدى عليها أحد،مع التصريح بلفظ التعدي في المطلع حين حديثه عن الكفار،فقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ المائدة (٢) .

والرمز في خاتمة السورة قامت به صور من أبرزها الابتداء بنداء عيسى بن مريم ،وإلقاء الاستفهام عليه مع مجيء الأفعال المضارعة،مثل :(يستطيع–ينزّل– نريد –نأكل –تطمئن– نعلم–نكون) و هذا كله مفاده الرغبة في حصول الشيء مرة بعد مرة . بينما قام الرمز في المطلع بالابتداء بنداء المؤمنين نداء كرامة بحيّز الصلة،ثم أمرهم بفعل الأمر،أمر شامل بالوفاء بالعقود على كل المستويات والأصعدة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ المائدة (١) ثم ألمح إلى الأسلوب المستحب في الرغبة في الشيء حين ذكر سؤال الصحابة عما أُحل لهم فقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ المائدة (٤)فكان هناك تباين في الصور القائمة بالرمز في المقطعين يضاهي التمايز بين التعدي و عدم التعدي ،ولكل ذلك كانت إجابة المولى للحواريين في المقطع قائمة على الترهيب و التهديد من إنزال الآية ثم

مقابلتها بالجحود،وقام أسلوب الشرط بهذا الترهيب يعضده التأكيد بـ(إن) ،مع الإتيان بالفعل يعقبه مصدره ،ثم نفيه نفسه عن غيرهم من العالمين،و هذا يعني أنه عذاب من الشدة بمكان فقال: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ المائدة (١١٥) في حين كان الختم بقوله: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ المائدة (٤)بعد سؤال الصحابة عما أحل لهم قائما على التعليم بفعل الأمر (كلوا– اذكروا–اتقوا)و بالإقفال بخاتمة تحمل على الترهيب و الترغيب معا ،كل حسب امتثاله أو إعراضه .

وابتدأت خاتمة سورة المائدة بذكر لفظ (يوم) ظرفا للزمان ،وكان نكرة،فقال مرة: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ ﴾ المائدة(١٠٩) وقال أخرى: ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ ﴾ المائدة (١١٩) والاعتناء بلفظ (اليوم) في شكله الظرفي قائم في الخاتمة،وفي أول السورة ؛ففي أول الخاتمة بنى كل المعاني و المشاهد على ذلك اليوم الذي جاء به نكرة،و عملت الجملة المضافة إليه على تخصيصه ،ومعرفة المقصود من ورائه ،وهو يوم القيامة،وأقفلت خاتمة السورة بذكر لفظ (يوم) أيضا والإشارة إليه بتعظيمه حيث يتم فيه الفصل بين الصادقين وغيرهم .و لفظ (اليوم) ورد في أول السورة كذلك بصورة المعرفة فقال: ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ . . . الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ المائدة (٣) وقال: ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾ المائدة (٥) واختلفوا في يوم يئس الكفار و إكمال الدين؛بين من يرى وقتا معلوما من يوم عرفة من عام حجة الوداع وبين من يرى أن المقصود بها الزمان الحاضر.[1] فعلى المعنى الأول يكون تعريفه بلام العهد العلمي،وعلى المعنى الثاني تكون اللام للحقيقة .وإنما نكره في خاتمة السورة لقصده ليوم معلوم هو يوم القيامة الذي صرّح بذكره على مدى السورة ،وذلك تناسبا مع إبهام وقت مجيئه مع عظمته .وفيه يتجلى معنى

(١) ينظر جامع البيان ٧٨/٦ .

الترهيب فكان التنكير أوفق وأبلغ .في حين عرفه في مطلع السورة تعريف تمكين للإسلام والمسلمين ،والتعريف أوفق لهذا الغرض .

وهذا نظر في تركيب الجملة باعتبار سياقها القريب ،يكمله معرفة موقعها في سياقها من السورة كلها .والبصر بأفانين القول في خاتمة السورة يبين عن انعكاساته في مطلعها ؛ليدل على أن التناسب البياني ذو أثر بالغ في التناسب المعنوي بين أجزاء السورة .

*		*		*

خامسا :

دلالات التراكيب في خاتمة سورة الأنفال

خاتمة سورة الأنفال :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ * وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ الأنفال (٧٢-٧٣-٧٤-٧٥) .

بيان دلالات التراكيب :

لما افتتح تعالى سورة الأنفال بذكر الصحابة بدلالة الغائب فقال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ ﴾ فطوى معاني كثيرة دون ذكر السائلين؛ ذكرهم في بداية خاتمة السورة بالإشارة إلى عملهم وقصدهم فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ . . . ﴾ فالعمل كائن في الإيمان والهجرة والجهاد و الإيواء والنصرة، و المقصد حاصل من قوله: ﴿ فِي سَبِيلِ اللّهِ ﴾ .

فذكر أول ما ذكر أصحاب المنزلة الأولى العالية، وهم المهاجرون (1)، وعرّفهم بالموصولية للإيماء إلى وجه بناء الخبر من كونهم أولياء لبعض . وأبان عن عمل الفريق الأول وهو الجمع بين الإيمان والهجرة والمجاهدة بالأموال والأنفس، وتلك دلالة العطف بين الجمل بالواو . وقدّم ذكر الجهاد بالأموال على الأنفس؛ تناسبا مع مقصود سورة الأنفال الذي يسعى إلى تعليق القلوب بالمغانم الأخروية، وتزهيدها في المغانم الدنيوية، ولأن الجهاد بالأموال سبق الجهاد بالأنفس عندهم ؛فالهجرة جعلتهم يتركون ما ملكوا خلف ظهورهم في مكة احتسابا فكان ذلك من باب الجهاد بالمال في سبيل الله .

ثم عطف على المذكورين الأوائل(المهاجرين)الآخرين وهم الأنصار الذين آووا ونصروا، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا ﴾ فجمع لهم بين إيواء المؤمنين وبين نصرتهم بواو العطف الدالة على الاشتراك في الحكم ،وحذف فعل الإيمان لوجود القرينة الدالة عليه وهو حصول الإيواء والنصرة، إذ لا يتحقق ذلك إلا من مؤمن .وطوى ذكر القيد ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ المقصود بالدلالة تبعا لطي فعل الإيمان .

وأفاد بذكر خبر المبتدأ فقال: ﴿ أُوْلَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ فأشار إلى المهاجرين والأنصار إشارة بعد بقوله: ﴿ أُوْلَٰئِكَ ﴾ ؛بيانا لبعد مكانهم وعلوه، فالولاية واجبة بينهم على إطلاقها أي: عموم كل ما يمكن أن تحصل الولاية به من نصرة وصحبة وإرث ...وغير ذلك، وتلك دلالة تنكير كلمة: ﴿ أَوْلِيَاءُ ﴾ .

وسيق هذا الخبر بطريق التأكيد، فنزّل السامعين منزلة المنكرين لخبر مكان المهاجرين والأنصار من بعضهم فأكده بـ(إن) و الجملة الاسمية، ولعل مجيء الأفعال: (آمنوا –هاجروا

---

(١) مما يدل على علو مكان الهجرة قول النبي ﷺ:" لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً من الْأَنْصَارِ وَلَوْ سَلَكَ الناس وَادِيًا وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ وَادِيًا أو شِعْبًا لَسَلَكْتُ وَادِيَ الْأَنْصَارِ أو شِعْبَ الْأَنْصَارِ... "(صحيح البخاري .كتاب التمني .باب ما يجوز من اللو .رقم الحديث (٦٨١٧) ٦/٢٦٤٦) و قوله ﷺ:" لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ... " (السابق . كتاب الجهاد والسير .باب فضل الجهاد والسير .رقم الحديث (٢٦٣٠) ٣/١٠٢٥) .

-جاهدوا — آووا- ونصروا) بصيغة الماضي يسهم في هذا التأكيد لأنه يشير إلى ثبات صدور تلك الأفعال منهم، تلك الأفعال هي التي ضمنت لهم هذا المكان، ويسهم الإخبار بالجملة الاسمية بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ في ثبات الولاية بين المهاجرين والأنصار .

ولما كان قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ آكد وأبلغ في الولاية للصحابة المذكورين بين بعضهم خصوصا؛ لم يقل: أولئك أولياء بعض، مع صحته لأنه قد يفوّت معنى الولاء المخصوص للفئة المخصوصة ولا يدرك؛ خاصة مع ذكر قسم ثالث من المؤمنين غير المهاجرين والأنصار تفوتهم هذه الولاية فيما يتلو .

والعطف بين الجملتين الرئيستين : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ للقصد إلى الاشتراك في الحكم الإعرابي، وجمع الصنفين في حكم الولاية المخصوصة .

ولما كان الصنف الثالث المتحدث غير الأولين قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ فالواو إن عاطفة ، وإن استئنافية؛ تتواءم مع فصل الحديث عن أصحاب الولاية الأولى من التالية، وتتوافق مع فصل أولئك المؤمنين عن غيرهم في المكان والولاية، فهي على معنى العطف تشترك مع الجملة الأولى والثانية في حكم الإيمان على معنى أن الصنف الثالث لا يخرج عن دائرة الإيمان أيضا . وعلى معنى الاستئناف تحمل على أنهم صنف آخر غير الأولين الماضيين .(1) ولعل المقصودين من هذه

(١) يكون قوله : ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ ، و جملة : ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾ خبره .

الآية هم المؤمنون الذين أخفوا إسلامهم وظلوا في ديارهم أمثال :العباس عم الرسول ﷺ .([1])

ومع بداية الحديث عن الصنف الثالث، ذكر فعل الإيمان لأنه لا قرينة للحذف، وعطف عليه عدم الهجرة ،فقال: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا ﴾ فعرّف المسند إليه بالاسم الموصول للإيماء إلى وجه بناء الخبر من نفي الولاية عنهم، فقال: ﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ و عبّرعنه بالجملة الاسمية لدلالة ثبات نفي الولاية عنهم .و حصر ابن عباس وغيره الولاية في الإرث([2])، في حين جعلها الطبري في النصرة و المعونة دون الإرث.([3]) ولعل حملها على العموم أولى، فتكون في النصرة و المحبة و الإرث و الأخوة و معان كثيرة لا حصر لها، وتنكير لفظ: (شيء) و دخول حرف الجر (من) عليه يفيد نفي أي جزء من الولاية، ويعزز هذا الرأي جواز القراءة بقوله: (وَلايتهم) بفتح الواو ،وقوله: (وِلايتهم) بكسر الواو" فالحجة لمن فتح أنه أراد ولاية الدين ،والحجة لمن كسر أنه أراد ولاية الإمرة، وقيل: هما لغتان والفتح أقرب."([4]) و جوّز الزمخشري الفتح و الكسر على أن يوجه

---

(١) " قال العباس يا رسول الله إني كنت مسلما فقال رسول الله ﷺ أعلم بإسلامك فإن يكن كما تقول فالله يجزيك فافد نفسك وابني أخويك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب وحليفك عتبة بن عمرو بن جحدم أخا بني الحارث بن فهر فقال ما ذاك عندي يا رسول الله قال فأين المال الذي دفنت أنت وأم الفضل فقلت لها إن أصبت فهذا المال لبني الفضل وعبد الله وقثم فقال والله يا رسول الله إني أشهد أنك رسول الله إن هذا لشيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل فاحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معي فقال رسول الله ﷺ أفعل ففدى العباس نفسه وابني أخويه وحليفه وأنزل الله عز وجل: يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا..."(المستدرك على الصحيحين. ذكر إسلام العباس عم الرسول . رقم الحديث (٥٤٠٧) ٣ / ٣٦٦) .

(٢) تفسير القرآن الكريم عن ابن عباس صـ٢٥٧ .

(٣) جامع البيان ١٠/٥٦ .

(٤) الحجة في القراءات.ابن خالويه صـ٢٢ .

الكسر بمعنى: أن تولي بعضهم بعضا شُبّه بالعمل و الصناعة ، " كأنه بتوليه صاحبه يُزاول أمرا ، ويباشر عملا ."(1)

ولعله بهذا التخريج يشير إلى شمول الولاية بكل أنواعها، دون حصرها في إرث، فتُحمل القراءتان على معنى عموم الولاية بكل ما تحمل من معان ، وهذا أولى بالمعنى، و يحمل تفسير ابن عباس على السبب الخاص من مؤاخاة المهاجرين والأنصار. أما إن حُصرت الولاية في النصرة والمعونة، فكيف يأمر بالنصرة بعدها فيقول: ﴿فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ — والله أعلم بأسرار كتابه—

ولما رسخ هذا المعنى علّق الولاية بقوله: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ فدلالة التركيب تبين عن الغاية الواجب الانتهاء إليها من الهجرة في سبيل الله، وذلك ظاهر من مجيء (حتى) والفعل المضارع، وكان من الممكن أن يقول: إلا إذا هاجروا ، مثلا، ولكنه يفوّت معنى الحض على الهجرة . فتعليق الولاية بالهجرة بـ(حتى) يحمل معنى الحث على المسارعة في الهجرة أكثر من حمله معنى بيان سبب استحقاقهم الحرمان من الولاية، وأكثر من حمله معنى نبذ قعودهم عن الهجرة ، وكل ذلك حتى يحضهم على الهجرة فيدخلهم بطريق التبع مع المؤمنين الأوائل في الولاية .

ومما يؤيد أن الولاية المنفية عن هذا الصنف الثالث عامة في كل شيء دلالة الشرط وجوابه اللذين تقتضيان وجوب النصرة في أمور الدين فقط – كما سبق ذكره–و ذلك حين قال: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ فبنى الجواب على الشرط ؛ولزمت النصرة حال كونها في الدين فقط ، قال الطاهر ابن عاشور: " وذلك واجب عليهم سواء استنصرهم الناس، أو لم يستنصروهم إذا توفر داعي القتال ."(2) وكلامه يفتّق معنى في الذهن ، وهو أنه لما كانت النصرة لأجل الدين واجبة على المسلمين سواء استنصرهم الآخرون أو لم يستنصروهم

---

(1) الكشاف ٢/ ٣٠٦ .

(2) تفسير التحرير والتنوير .المجلد الخامس ٨٦/١٠ .

جاء التعبير بحرف الشرط (إنْ) الدال على أن الشرط ليس متحقق الوقوع دون (إذا) فنصر هذه الفئة لا يترتب على طلبها النصرة فقط ،إنما في كل حال يتعدى فيه على الدين .

وساعد على بيان هذا المعنى مجيء جواب الشرط شبه جملة فقال: ﴿ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ﴾ أي: "واجب عليكم نصرهم ."(١) فالجار والمجرور أفاد بتقديمه تأكيد استحقاق نصرهم . وساعدت (أل) التعريف الدالة على العهدية على تقرير معنى أن النصرة لهذه الفئة لا يكون إلا نصرا متعلقا بالدين ،وأسهم الجرس الصوتي المستفاد من الجناس بين قوله: (استنصروكم — النصر) في التنبيه إلى هذا المعنى للاعتناء به .

ومدلول تركيب قوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ﴾ أن الصنفين الأولين غير هذا الثالث الذي سيذكر،وإن جمعهم الإيمان؛لاختلاف جهد كل منهما، فولاية الصنفين الأولين لهذا الثالث براء إلا ولاية تتعلق بالدين، فالنصرة في ذاك الحين واجبة لأنها نصرة للدين لا للإخوة سواء استنصر الصنف الأخير بالأولَين أو لم يستنصروا .

ولما كان البيان القرآني قد شدّد على عدم الخيانة في ثنايا السورة، وأمر بالوفاء بالعهود وندّد بالناقضين عهودهم وتوعدهم ،وعلّم رسوله التعامل مع من يتوجس منهم خيانة (٢) لما كان كل ذلك ؛جاء ذكر استثناء استنصار الأعراب من المسلمين على من كان بينهم وبين المسلمين المهاجرين ميثاق بالأمان من الكافرين،فعندها يراعى ميثاق الكافر على المسلم،فقال: ﴿ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ الأنفال (٧٢) فعظّم الميثاق بتنكيره،وبجعله ميثاقا محترما من حيث اتصاله بالمسلمين من جهة أخرى،ويساعد على سلك هذا البيان تقديم الجار والمجرور﴿ بَيْنَكُمْ ﴾ المتعلق بالخبر

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٣٠/٢ .

(٢) ينظر فصل تآخي المعاني في سورة الأنفال .

المحذوف، وعطف قوله: ﴿ وَبَيْنَهُم ﴾ عليه كذلك، وأسهم في تعظيمه أنه بهذا المعنى كمّل ماورد في ثنايا السورة من قضية المواثيق مع الكفار، فعالج قضية الولاء من كل زاوية و قِرْنة فلا تمكن زيادة عليه بعد ذلك .

وختم الآية بما يتناسب مع ذلك التصنيف في الولاء و البراء فقال: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فجرت الفاصلة مجرى التحذير من عدم الالتزام بتقنين العلاقات، ولما كانت الولاية ظاهرة وخفية نصّ تعالى على البصر بأعمال العباد فقدّم متعلق المسند إليه للعناية به والنصّ عليه خصوصا، وهذا مع مجيء لفظ الجلالة المعظّم يسهم في جريان معنى التحذير على الوجه الأعلى .

والمحور في الآية منصب على ولاء المسلمين من الصنف الأول والثاني المرموقين بعملهم وقصدهم ،مع براء هذين الصنفين العاليين من كل ولاية للصنف الثالث غير ولاية الدين، وإنما كان ذلك توطئة لذكر المنازل و المراتب التي أومأ إليها البيان القرآني ولم يقصدها قصدا، وفيه من التحضيض على الهجرة ما لا يُحدّ معناه ولا يقصر .فالتقسيم في الآية أبرز هذه المعاني، وعملت المقابلة بين الصنفين الأولين والثالث على بيان أقسام المؤمنين وحقهم في الولاية .

ولما ذكر المؤمنين وأقسامهم وأعلم عن كيفية الولاء بينهم ذكر الكفار على سبيل من التناظر والمقابلة فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ الأنفال (٧٣) فاستأنف البيان القرآني وعرّف المسند إليه بالاسم الموصول للإيماء إلى وجه بناء الخبر من جعل ولاية بعضهم لبعض مما يقتضي نفي ولاية المؤمنين عنهم، فقال : ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ ولم يفصّل في ذكر الكفار مع أن منهم مسالمين

ومحاربين لأنهم من حيث الولاية واحد في نظر الإسلام،فلا وجه لتفصيله "و هو خبر محض مشير إلى نهي المسلم عن موالاتهم ."(1)

وعدّ ابن عاشور هذا الموضع من الأخبار المستعملة في مدلولها المجازي فقال:" ليس المراد تكليف المسلمين بأن ينفذوا ولاية الذين كفروا بعضهم بعضا ،لولا أن المقصود لازم ذلك وهو عدم موالاة المسلمين إياهم ."(2) وإنما وردت المعاني الأولى التي تتحدث عن الولاء بأسلوب الخبر،وجاء هذا المعنى بالإخبار أيضا،ولكنه قائم على الكناية عن صفة عدم ولائهم للمؤمنين،إذ يلزم من ولاء الكفار بعضا؛عدم ولائهم للمؤمنين . وذلك حتى يرسخ المعنى ويحققه بعبارة موجزة،فالمسلمون منهيون عن ولاية الكافرين؛لأن الكافرين لا يوالون إلا بعضهم بعضا فكيف يكون المسلمون أولياء لهم ؟ ولعل هذا المعنى مسوغ للفصل بين هذه الجملة وقوله بعدها: ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ ﴾ فتكون هذه الجملة منزّلة منزلة التأكيد من متبوعه في إفادة تقرير وجوب براء المؤمنين من الكافرين،وهي صيغة دالة على التحذير مع التهديد،ولعل التشديد الحاصل من الإدغام يرفع من صوت التهديد ،إذ الأصل (إن لا تفعلوه) ولعل معنى التحذير عائد على قضية الولاء و البراء برمتها دون استثناء؛مما جاء في ثنايا الآيتين من أوامر و نواه على صورة الخبر ،فالهاء عائدة على الآيتين معا،ويعززه قول الطبري: "إذ كان مبتدأ الآية من قوله: { إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله} بالحث على الموالاة على الدين و التناصر جاء؛ وكذلك الواجب أن يكون خاتمتها به ."(3) فالطبري يشير إلى أن الآية الأولى مع تمام معناها إلا أن المعنى كمل مع الآية الثانية ،وفرق بين التمام والكمال،فالتحذير شامل لمعنى الآيتين .

ونظرته هذه تعد من شذرات المناسبة المكنونة في تفسيره ،وذلك يعني التفاته لهذا العلم دون إفراده بالحديث ،أو دون التصريح باسمه.

---

(1) نظم الدرر ٢٥٢/٣.

(2) تفسير التحرير و التنوير.المجلد الخامس ٨٧/١٠ .

(3) جامع البيان ٥٦/١٠ .

وأسهمت المقابلة بين المؤمنين على الجملة ،والكافرين على الجملة كذلك في بيان حق الولاء والبراء فيما بينهما .

وهذا الرأي —التمام و الكمال— يعزز معنى شمول الولاية لكل ولاية مادية أو معنوية في الآيتين معا— والله تعالى أعلم —

ولما جاء فعل الشرط في قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ بنى جوابه بعده فقال: ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ الأنفال (٧٣) وتنكير (فتنة) يبين عن عظمة و هول شديدين، والتقييد بقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ فيه دلالة على تمكن الفتنة والفساد فيها ،وعلى عمومها الأرض . والعطف بقوله: ﴿وَفَسَادٌ﴾ وبنعت هذا الفساد بأنه كبير يعظم أثر عدم الانقياد لأمر الله، ولعل مجيء هذا المعنى تعقيبا أو فاصلة للآية يمكّن معناها ويصل به الغاية.

وترتب الفتنة والفساد على العصيان في خاتمة السورة يذكرنا بترتب الإصلاح على الانقياد والطاعة في مقدمة السورة [1]؛ ولذلك يعد هذا المعنى من باب رد الأعجاز على صدورها، أو تلاحظ المعاني كما يسميه الزمخشري .ليس ذلك فحسب بل إن السورة زخرت بمعاني الفضل والمنة بالتأليف والاجتماع ،و بمعاني النهي عن التنازع المسبب للضعف . فانعطف المعنى في الخاتمة على مثله من السورة كلها فزاد استقرارا و كمالا .

ولما أشار البيان القرآني إلى مكان المهاجرين والأنصار تلميحا في افتتاح الخاتمة في معرض حديثه عن الولاء والبراء؛ أورد مكانهم صراحة فاستأنف، وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ

(١) في قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الأنفال(١) .

﴿ كَرِيمٌ ﴾الأنفال (٧٤) فنص على ذكر الإيمان والهجرة والجهاد في سبيله وعطف بينهم للاشتراك في الحكم الإعرابي، وحذف قوله: ﴿ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾لأن الغرض في هذا المقام اختلف عن الأول، فالمقام الأول مقام تقرير الولاية، أي العلاقة القائمة بين المسلمين وبين الكافرين، ومن أدوات تحقيق تلك الولاية بذل المال و النفس . أما هذا المقام فهو مقام نعت المهاجرين بكمال الإيمان المتحقق لهم لتحقق عوامله، فلا حاجة لذكر الجهاد بالمال والنفس .

ولما قال: ﴿ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا ﴾ أفاد بذكر الخبر بعده بقوله: ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ أي: "حققوا إيمانهم بالهجرة والنصرة. وحقق الله إيمانهم بالبشارة ."(١) فامتدح هذين الفريقين خصوصا بالإشارة إليهم إشارة بُعد بقوله: ﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ وبحصر الإيمان الكامل فيهم عن طريق تعريف طرفي الإسناد، وأكدالتخصيص بالفصل بالضمير﴿ هُمُ ﴾ وأكد تحقق كمال إيمانهم بقوله: ﴿ حَقًّا ﴾ .ولما كانت جملة: ﴿ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ مُنزّلة مَنْزلة جواب عن سؤال مقدّر اقتضته الجملة الأولى وهو قول :وما جزاؤهم ؟ فصل بين هذه الجملة وبين ما قبلها؛ للاستئناف البياني، فيكون الجواب بمعنى: أولئك اختصوا بعمل ومقصد في نمط حياتهم كله أدى إلى تحقق كمال إيمانهم ،فاستحقوا أن يخصصوا بمغفرة ورزق كريم لا يحدّ كثرة و شرفا .

وتنكير قوله: ﴿ مَّغْفِرَةٌ ﴾ تكثير لها، ووصف الرزق بقوله: ﴿ كَرِيمٌ ﴾ أي: " ثواب عظيم في الجنة ."(٢) ولعله جعل الرزق الكريم خصوصا جزاء مع المغفرة دون قول: ثواب كريم، أوجزاء كريم ،مثلا ؛ليتناسب مع مقصد سورة الأنفال من تعليق القلوب في المغانم الأخروية الكثيرة الدائمة غير المنقطعة التي لا مشقة في الحصول عليها ولا مذلة، و تزهيدها في المغانم الدنيوية القليلة الزائلة المُذِلّة .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٥٨/٨ .

(٢) السابق ٥٧/٨ .

وقوله: ﴿ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ كلام مجمل عن الأجر، وإنما كان ذلك كذلك لأن الإجمال في ذكر النعيم أبلغ من التفصيل فيه المنصوص عليه، فسلك هذا المسلك وترك تفصيله لعدم إدراك العقول البشرية مقدار كنهه– و الله تعالى أعلم–

وهذا المعنى في الخاتمة، ينعطف على مثله في استهلال السورة حين قال: ﴿ أُوْلَـٰئِكَ هُـمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُـمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِـمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ الأنفال(٤) ويحقق معنى التناسب التام بين مطلع السورة وخاتمتها ،فيرد الأعجاز على صدورها ،ويعود بنا عند نقطة الانطلاق وهي الإيمان الحقيقي المدعوم بالعمل و المقصد، فهو من باب ذكر النتائج بعد المقدمات .

ولما ذكر البيان القرآني الفريقين المخصوصين بالمعالي وألحق بهما ماهم منهم وليسوا منهم، ثم قابلهم بنظيرهم، أنهى الكلام عن الولاء والبراء بذكر مايلحق بأصحاب المعالي الأولين على امتداد الأزمان، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُـمْ فَأُوْلَـٰئِكَ مِنكُـمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُـمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيـمٌ ﴾ الأنفال (٧٥) وهذا هو القسم الرابع من المؤمنين، فألحق التابعين بالسابقين من المهاجرين و الأنصار في الفضل بدلالة أمور منها:

أولها :تعليق ظرف الزمان ﴿ مِن بَعْدُ ﴾ بالإيمان، سواء قصد بمعناه :بعد تبياني (١) أو قصد به: من بعد الحديبية والرضوان (٢) .

---

(١) على رأي الطبري في جامع البيان ٥٧/١٠ .

(٢)على رأي ابن عطية في المحرر الوجيز ٥٥٧/٣.و القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٥٨/٨ .

ثانيها: المصاحبة و المعيّة لهم في الهجرة والجهاد حين قال: ﴿ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ ﴾ و حين أفاد بالجملة الاسمية حين قال: ﴿ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ ﴾ فأشار إليهم إشارة بعد تفيد علو مكانهم و توحي بأنهم مثل السابقين الأولين و إن تأخروا .

ثالثها :سوق الكلام بطريق الالتفات من الغائب إلى المتكلم ،لأن الحديث عن هذه الفئة يقتضي الالتفات لهم والتنبيه إليهم ،فلا يُظن بتأخر ذكرهم عن الأولين تأخر في المكان أيضا. وفيه من تنبيه الصنف الثالث السابق الذكر إلى أن الفضل و الالتحاق بالمؤمنين حقا يمكن إدراكه و ليس بفائت ،و هذا يصب في معنى تحضيض الصنف الثالث على الهجرة .

ثم استأنف البيان القرآني فقال: ﴿ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ الأنفال (٧٥) وعلى معنى عموم الولاية السابق الذكر تكون هذه الآية ناسخة لسابقتها ،و هو يشابه قول ابن عباس في تفسيره .فالأرحام بعضهم أولى ببعض في الميراث من الأجانب في شرع الله .

ولما كانت خواتيم السور تتلمس الجوانب النفسية فتعالج نتوءاتها؛كان الختم بذكر الولاية في الميراث بين الأرحام مما يُعزز الإيمان في النفوس ويرسخه،فعالج النفوس بعد حرمانها،ولكنه هذّبها . وأسلوب المنع ثم المنح بتقنين يمد يدا إلى أول السورة حين منع الله المسلمين من الأنفال بقوله: ﴿ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ ثم منحهم إياها بتقنين في الآية الحادية والأربعين(١) حين قال: ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ الأنفال (٤١) والقضيتان–الولاية في الميراث وتقسيم الأنفال– تتعلقان بالأمور المادية على وجه الخصوص لذلك يحسن هذا الطريق في تربية القلوب على الزهد في المغانم الدنيوية و تعليقها

(١)على رأي من قال :إن الغنيمة والنفل واحد .

بالمغانم الأخروية. ولما كان المولى -عزّ وجل- هو الأعلم بعباده وبما يستقر في قلوبهم كان عطاؤه من المغانم الدنيوية هو الشفاء لها من المعاطب ،ولكن المعوّل فيها على عدم التعلق أولا،وعلى عدم الافتتان ثانيا .

وهذا كله يفيد في ترجيح القول بالنسخ -والله تعالى أعلم-

ولما كانت قضية الولاية بجملتها،و قضية الإيمان بمراتبها مما يخفى في الصدور ولا يُعلم؛كان الختم بتأكيد علم الله لكل شيء مناسبا للآية خصوصا،و للسورة عموما؛لأن الأعمال فيهما معلّقة على القصد،والقصد محله القلب،وتركيز البيان القرآني على القلب لا يخفى في ثنايا السورة، ولا يعلم ما خفي إلا من كان بكل شيء عليما .

وكانت الفاصلة بالتأكيد بـ(إن) والجملة الاسمية تبين عن علم الله الشامل لكل ما يمكن تصوره وما لا يمكن،و هي تؤكد من جهة أخرى على صلاح كل ما يحكم به تعالى دون أدنى شك،و تزيد من قوة المعنى بارتباط الجملة بما قبلها و ائتلافها معها "حتى كأن الكلامين قد أُفرغا إفراغا واحدا ،وكأن أحدهما قد سُبك في الآخر. "(1) ولعل ترك العطف بين قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ وبين الجملة قبله لشبه كمال الاتصال؛إذ الجملة بمثابة التعليل لما قبلها -لعل ترك العطف هذا يسهم في تمكين الفاصلة ،ومجيء (إن) وتقديم متعلق الخبر يساعد على بلوغ هذا المعنى مع تنكير لفظ (شيء) .ثم إن مدلول الفاصلة يجري مجرى التحذير من عدم تلقي الأوامر أو من خيانتها ،وساعد عليه وضع المظهر موضع المضمر لأن ذكر لفظ الجلالة الدال على الهيبة و الجلال يسهم في رفع قيمة التحذير .

---

(1) دلائل الإعجاز صـ ٣١٦ .

النغم الصوتي في خاتمة سورة الأنفال متسم بالتوازن الجزئي والكلي،فالتوازن الجزئي يظهر في تنبيه الجناس في قوله:(استنصروكم –النصر) لمعنى أهمية نصر المؤمنين غير المهاجرين نصرة لأجل الدين .كما يُلفت طباق السلب في قوله:(هاجروا – لم يهاجروا) السمع إلى بيان الفرق بين الفعلين وإيضاح أحوال أصحابهما بتجاورهما .

ولعل التنوين كذلك يوقع في النفس أثرا جيدا من حيث التنبيه إلى المعاني و الوقوف عندها مثل قوله :(ميثاقٌ – بصيرٌ–فتنةٌ– فسادٌ – كبيرٌ – حقًّا – مغفرةٌ –رزقٌ –كريمٌ – شيءٍ)

والتوازن الكلي في الآيات يظهر في تآخي المعاني من (الإيمان – الهجرة – الجهاد – الإيواء – النصرة) وضمها كلها في مقام الرفعة والسمو لفاعليها. ومن تآخي معنى الإيمان مع عدم الهجرة بالجمع بينهما، ونسبتهما لأصحاب القسم الثاني من المؤمنين،ثم تناظر هذا القسم مع الأول المؤمن المهاجر .

ومن تآخي معنى الفتنة في الأرض والفساد الكبير كمسببات عن عدم الطاعة والانقياد في مسألة الولاء والبراء بين المؤمنين بعضهم لبعض ،وبين المؤمنين والكافرين .

والمعاني في خاتمة السورة تمتاز بإصابتها أقدار الكلام ،أي بحسن دلالتها ووضوحها كما هي معاني السورة كلها ،ومما يدل على ذلك ما ورد من الإشارة إلى الصنفين الأولين من المؤمنين –المهاجرين والأنصار–بما يدل على رفعة المكان والسّورة بقوله : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ (٧٢)ثم سكوته عن الإشارة للصنف الثالث من المؤمنين،وإخراج الكلام مخرج نفي فضلهم،ثم حذف الإشارة أثناء الحديث عن الكافرين حين قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ ﴾ (٧٣)ثم في إعادة الثناء بالإشارة بالبعد بقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ

وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ ﴾ (٧٥) لمن سلك مسلك الصنفين الأولين بأسلوب رشيق لا يثقل حين قال: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ ﴾.

ومن حسن الدلالة كذلك أن رتب البيان القرآني ذكر الأصناف المتكلم عنها بالتصريح بعمل وبقصد الصنفين الأولين من المهاجرين و الأنصار، ثم ذكر صنف من المؤمنين آمن ولم يهاجر، فالمعتقد متوافر، و العمل متقاعس عنه، وبنى علاقاتهم في الولاية على معتقدهم وعملهم.

وجمع هؤلاء الثلاثة فألّف بينهم بنصرة الدين، ثم ذكر مَنْ يقابل هذا الجمع من جمع الكافرين .فأثبت قضية الولاء وفرّعها، ثم بنى عليها قضية البراء.

كل ذلك ليوصل المتلقي إلى النتيجة بنفسه، وهي استحقاق الصنفين الأولين للامتداح والثناء بالإيمان الحقيقي الذي أجره مغفرة و رزق كريم .

ومما يدل على حسن الدلالة لّمه شعث كل مَنْ آمن و هاجر و جاهد بعد ذلك الزمان بقطع الإضافة عن الجار والمجرور بقوله: ﴿ مِنۢ بَعْدُ ﴾ فأشار إلى عملهم ،كما أشار إلى عمل الصنفين الأولين، وإذا تحقق فيهم ما تحقق من الصنفين الأولين ؛تحقق لهم ما للأولين من الأجر، ويبقى فضل السبق، فكأنه ماثل بين هذه الاية و الآية الأولى في خاتمة السورة .

واتسمت دلالة خاتمة السورة بتمامها ،فذكر أول ما ذكر الصنفين الأولين اللذين لهما حق الولاية الكاملة بسبب الإيمان والهجرة و الجهاد ،أو بسبب الإيمان والإيواء والنصرة، ثم ذكر مَنْ يقابلهم ممن آمن ولكنه لم يهاجر ،و أعلم عن نقص ولايتهم .

ثم ذكر من يقابل المؤمنين في العمل والمقصد و هم الكفار ،وقطع عنهم الولاية كاملة بطريق الكناية .

ولما كان هناك من تأخر إيمانه عن المهاجرين والأنصار وكان حريا بأن يُسأل عن مكانهم من الولاية؛ذكرهم في ختام الختام ،فألحقهم بالأولين عملا وقصدا ومكانا، وبنى الولاية الكاملة على ذلك .ثم جاء ذكر ولاية القرابة في الميراث خصوصا .

فقسّم أصناف المؤمنين فيما بينهم،وشملهم ،ثم ذكر من يقابلهم من الكفار،وبنى الولاية على تلك الأصناف بما يتناسب مع كل صنف من الكمال والنقصان ،ثم الانقطاع ،فتمم المعاني ثم كمّلها ،لأنه حوى أقسام المؤمنين كلها بالحديث فلم يمكن الزيادة عليه بعد ذلك.

واتصفت الخاتمة بدقة المدخل ؛فافتتح الخطاب القرآني خاتمة السورة بالتأكيد على تحقق العمل و المقصد في صنفي المهاجرين و الأنصار .

وهذا المدخل يعني أن تقرير العمل والمقصد اللذين استحق الصنفان الأولان ومن تبعهما الوصول بهما لدرجة الإيمان الحقيقي- أن تقريره أمرٌ مفروغ منه وليس مما يُنازَع ،ونصبة الكلام وهيأته ليست قائمة على تقرير عملهم ومقصدهم ،ولكن على بيان منزلتهم التي بلغوها رفعة وعلوا؛أي على امتداحهم ،وليس هناك طريق أفضل من التأكيد بـ(إن) والتعبير بالاسم الموصول عن أحوالهم المختصة بهم ليس لإثبات مناقبهم،فهي أرفع من أن تحتاج إلى ذلك،ولكن لإعلام المتلقي بأسباب بلوغهم تلك المكانة العلية،وأسباب تحصيلهم ذلك الأجر الذي لا يحدّ .

ولعل النظر في حكمة ترتيب قوله تعالى: ﴿ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ (٧٢) وتناسبه مع مقصد السورة ،و استيفاء الكلام عن قضية المواثيق مع الكفار في قوله: ﴿ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ﴾ واستبصار ترتب الفتنة والفساد على العصيان ،وعدم الطاعة في قوله: ﴿ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ الأنفال (٧٣) كما

ترتب الصلاح على الانقياد والطاعة ،وبيان أن ما ذُكر من بلوغ المهاجرين والأنصار منزلة الإيمان الحقيقي حين قال: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ من باب ذكر النتائج بعد المقدمات –لعل كل ذلك لم يكن ليظهر من مدلول التركيب في نظمه أو حتى في ترتيبه ؛لو لم تكن هناك نظرة لتأليف الكلام وتركيب النص .

والتفريق ثم الجمع مع التقسيم (١)هو الأسلوب المحور في خاتمة سورة الأنفال ،ويظهر التفريق في الآيات من ذكر أحوال الصنف الأول من المهاجرين ثم ذكر أحوال الصنف الثاني من الأنصار،ثم يظهر الجمع بضمهما إلى بعض في قضية الولاية ،ثم ذكر الصنف الثاني وهم المؤمنون الذين لم يهاجروا،وتقييد ولايتهم في الدين،فضم الثلاثة أصناف تحت لواء نصرة الدين .وكأنه قسم المؤمنين إلى ثلاثة أقسام ؛قسمين يلتحق بعضهما ببعض بسبب سلامة المعتقد والعمل،وإن كان للأول منهما فضل السبق،وقسم ثالث لا يقربهما في الفضل ،وإنما له سلامة المعتقد .ثم طويت هذه الصفحة لذكر صنف ثانٍ يقابل المؤمنين ،وهم الكافرون وحرمانهم من الولاية بكل أشكالها .فقسم الولاء و البراء على الإيمان و الكفر .

ثم أعاد الكلام مرة أخرى على المؤمنين ،وذكر الصنفين الأولين (المهاجرين- الأنصار) مفترقين بأعمالهم،ثم جمعهما سويا،وأثبت استحقاقهما للاتصاف بالإيمان الكامل،والمغفرة والرزق اللامحدودين .

ثم ألحق قسما من المؤمنين لحقوا بالصنفين الأولين- إلا أنهم تأخروا عنهم زمنا — ألحقهم في المكانة والأجر .

(١)" الجمع مع التفريق :و هو أن يدخل شيئين في معنى ،و يفرق بين جهتي الإدخال " و "الجمع مع التقسيم :و هو جمع متعدد تحت حكم ثم تقسيمه أو العكس ." (المطول صـ٦٥٨ .)

ويوصف هذا النوع من التقسيم بالصحة لأنه استوفى جميع عقائد الفئات التي يتعامل معها المسلمون ؛من مؤمنين وكافرين ،فدلّهم على حدود الولاية مع كلٍ و حذرهم بعد هذا البيان من تعدي حدودهم .

ومن بديع هذا الأسلوب –أعني التفريق ثم الجمع مع التقسيم –أنه يلفت النظر إلى الحكم المخصوص بالحديث،بأي شيءحصل الافتراق،وبأي شيء حصل الاجتماع تحت حكمه،وكيف كان هذا الحكم محور التقسيم ،فمع كل مرحلة " يزداد التأمل و الحث على التدبر ."([1]) ويعمل هذا الأسلوب كذلك على ترتيب المعاني و تنسيقها،فيسهل استقبال الذهن لها ،ومن ثم يسهل ترسيخها في القلب كما ترتبت في الذهن قبله .

وكما كان أسلوب التفريق ثم الجمع مع التقسيم عمدة في خاتمة سورة الأنفال؛كان الجمع([2])عمدة في مقدمة السورة،فجمع تحت وصف الإيمان الكامل كل من تخشع قلوبهم لذكر الله،وكل من يزدادون إيمانا بتلاوة آيات الله،وكل من يتوكلون على ربهم،وكل من يقيمون الصلاة ،وكل من ينفقون في سبيل الله .ثم عاد بعد تعداد الصفات وجمع ثانية أصحاب تلك الأعمال تحت لواء تحقق الإيمان الكامل،وأكد هذا الوصف تأكيدا بالغا عن طريق المصدر (حقا)،والفصل بالضمير المنفصل بين المسند والمسند إليه . وساعد الحصر بـ(إنما) أسلوب الجمع على أداء وظيفته بدقة وإتقان؛لأنه حصر المؤمنين الكاملي الإيمان في المتقدمة صفاتهم ،وكان ذكره في هذا الموضع متمكنا ؛لأنه ذُكر بعد قضية الاختلاف على الأنفال،فعمل بهذا الحصر على تمكين ردع المؤمنين عن العود لمثل ذاك الاختلاف؛لأنه يخرجهم عن دائرة كمال الإيمان،وعمل كذلك على تمكين ترغيب المؤمنين أن يكونوا في زمرة الكاملي الإيمان حقا .

---

(١) من بلاغة النظم القرآني صـ٣٦١ .

(٢) الجمع من البديع المعنوي و هو:أن يجمع بين متعدد في حكم"(المطول ٢/٤٠٧) .

وإنما جاء الجمع مفردا في مقدمة السورة دون التفريق والتقسيم ؛لأن الغرض هو الاجتماع على الإيمان الكامل الذي يستتبعه فضل الولاية والأجر الذي لا يحدّ كثرة وعظمة،فكان ذكر صفات وجمعها تحت حكم واحد أنفع في هذا المقام .

ولما كان آخر السورة قد اتضح فيه ما تمخّض عن غرضي الترهيب والترغيب من تنوع درجات إيمان المؤمنين،وتبعا لهذا التنوع ستختلف الميزات المعطاة لهم و الأجر كذلك؛احتاج إلى التفريق لذكر كل وعمله،و إلى الجمع لجمعهم تحت حكم واحد ،وإلى التقسيم لبيان التناظر والتماثل بين الفِرَق نفسها،ثم بينها و بين من يقابلهم من الكافرين .

فكانت خاتمة السورة من باب ذكر النتائج بعد المقدمات،وكان التناسب بين مقدمة السورة وخاتمتها لا يقتصر على المعنى دون صورته،فكما تقاربت الدلالات تقاربت صورها الموضوعة لها .

ولعل أسلوب التفريق ثم الجمع مع التقسيم له حظ وافر من تبرج الدلالة وعصمتها فلا يدخل على معنى الآيات الوهن أو الضعف،أي لا يمكن الزيادة عليها،أو تأولها بتأويل يفسد المعنى أو يشكك في صحته. وهي كذلك تتسم بالبهاء والزينة ،وللنغم حظ وافر منهما . ثم هي تثير في النفس معاني الرغبة بالالتحاق بدرجة المؤمنين الأوائل ،فيكون الإنسان له حظ الأجر والولاية المتمخضة عن توافر العمل و المقصد سويا ،وهي تعالج معاطب النفس من حق الإرث بين الأرحام قبل آخر جملة في الخاتمة حين قال: ﴿وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ﴾ و إلى ذلك أشار ابن عاشور في قوله: "إنما اعتبرت تلك الأولوية في الولاية لأن الله قد علم أن لآصرة الرحم حقا في الولاية هو ثابت مالم يمانعه مانع معتبر في الشرع ؛لأن الله بكل شيء عليم،وهذا الحكم مما علم أن إثباته رفق ورأفة بالأمة."(١)

تلك المعالجات النفسية تبين عن أن الدلالة أعجب ما تكون حين تكون لها فاعلية في النفس مرتبة على فاعليتها في المعنى .

---

(١) تفسير التحرير و التنوير .المجلد الخامس ٩٣/١٠ .

سادساً :

دلالات التراكيب في خاتمة سورة التوبة

خاتمة سورة التوبة:

قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ التوبة (١٢٨ –١٢٩) .

بيان دلالات التراكيب :

لما كانت سورة التوبة مفتتحة بالبراءة التي هي جزء من العذاب ؛كان اختتام السورة ببيان أن تلك البراءة وذاك العذاب لم يكونا ظلماً ،ولم يكونا إلا بعد إرسال الرسل الذين هم رحمة لرعاياهم ،وقوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ "الخطاب للعرب في قول الجمهور ،وهذا على جهة تعديد النعمة عليهم في ذلك ؛إذ جاء بلسانهم وبما يفهمونه ،وشرفوا به غابر الأيام . وقال الزجاج :هي مخاطبة لجميع العالم ،والمعنى :لقد جاءكم رسول من البشر ؛والأول أصوب."(١) ولعله قال بصوابه تناسبا مع ماجاء في افتتاح السورة من خطاب المشركين .

افتتحت الخاتمة بالتأكيد بـ (اللام)و(قد) لجلال المعنى وهيبته. وعمل التأكيد المستفتح به الآية على بيان تحقق حصول الرحمة قبل العذاب ،و التعبير بالفعل في زمنه الماضي :(جاءكم) يعزز هذا المعنى ،و لعل العدول من فعل الإتيان إلى المجيء لتناسبه مع مقام الرسالة ،فالتعبير بالمجيء(٢) يستلزم الحصول من الذات بالأمر و القصد فقط ،ولعله يحتاج إلى وقت لتحققه ،ويسند المجيء إلى المعاني والذوات أو الأعيان ،أما التعبير بالإتيان فلا يستلزم الحصول ويكون سريعا ،ويصدر من الذات وبالأمر و التدبير ،ويسند إلى الأعيان والأعراض . فالمجيء يتناسب مع مقام حمل الرسالة وتبليغها ؛لأنه متحقق الوقوع ،ويتم على فترات

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٨ /٣٠١ .

(٢) ينظر المفردات. مادة (أتى — جاء) .

ومراحل أي إنه ليس حاصلا بسهولة .([1]) وهذا المعنى يتصل بالسياق من جهة أخرى إذ هو يعزز معنى لفظ ﴿ رَسُولٌ ﴾ لأن " أصل الرِّسل الانبعاث على التؤدة ." ([2])

فالتؤدة تتناسب مع فعل المجيء من حيث إن حصوله ليس بسهولة ،وذلك يتضمن معنى عدم السرعة ،وكل تلك المعاني تسعى مع تنكير لفظ ﴿ رَسُولٌ ﴾ إلى تفخيم شأن الآتي وتعظيم مكانته ﷺ، وفيه المنة بإرسال محمد ﷺ لأمته .

وقوله : ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ بضم الفاء أو فتحها([3]) من النفاسة "يقتضي مدحا لنسب النبي ﷺ وأنه من صميم العرب وخالصها ."([4]) والآية خاصة بالعرب من هذا الوجه ،أي رسول يحمل صفات تتواءم مع قومه المرسل إليهم، وهي عامة من وجه آخر لأنها تحمل معنى أن كل رسول أرسله الله تعالى إلى قوم تتواءم صفاته مع القوم المرسل إليهم .

وقوله بعدها : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ " أي عزيز عليه عنتكم وهو دخول المشقة عليهم والمكروه والأذى.حريص عليكم،يقول:حريص على هدى ضلالكم وتوبتهم ورجوعهم إلى الحق ."([5]) والعزيز:الغالب و إذا عُدي بعلى كان بمعنى صعب .([6])

---

(١) استقرأ محمود موسى حمدان مواضع استخدام كل من الفعلين (جاء – أتى) وأبان عن وجه دلالة كل منهما واستعمالاتها بتفصيل جيد مبين (ينظر من المعجم البياني لألفاظ القرآن الكريم "الكتاب الأول" الإتيان و المجيء فقه دلالتهما و استعمالهما في القرآن .ط١ .١٤١٨هـ-١٩٩٨م .مكتبة وهبة –القاهرة .

(٢) المفردات .مادة (رسل) .

(٣) هي قراءة عبد الله بن قسيط المكي (الكشاف .الزمخشري ٣ /١١٠-١١١ .ومثله في الجامع لأحكام القرآن ٣٠١/٨ . و في المحرر الوجيز ١٠٠/٣ .و في تفسير البحر المحيط ١٢١/٥).و لم أجد هذه القراءة في كتب القراءات .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٣٠١/٨ .

(٥) جامع البيان ٧٦/١١ .

(٦) ينظر المفردات مادة (عزّ) .

والعنت: المشقة. ([1]) ومعنى ذلك أن هذا الرسول يحمل من الصفات ما يكون رحمة مسداة إلى قومه، فهو يصعب عليه مشقتهم، وهذا يعني إشفاقه عليهم من كل ما أعنتهم، ولعل (ما) الموصولة تبين عن هذا التنويع المفيد للعموم، ويسهم التشديد في لفظ (عنتّم) المسبب لثقل النطق بالكلمة في التنبيه إلى العنت الذي يصعب على الرسول ﷺ أن يرى أمته واقعة فيه . ولعل العدول عن الإتيان بالمصدر إلى المجيء بالفعل في زمنه الماضي ليبين أن العنت المقصود قد مضى" تنبيها على أن ما لقوه من الشدة إنما هو لاستصلاح حالهم ."([2])

وقوله: ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ الحرص: فَرْط الشره، وفرط الإرادة([3])، ويحمل على معنى: أن الرسول الكريم عظيم الإرادة في الحفاظ على قومه. ويعزز هذا المعنى مجيء النعت على صيغة المبالغة (فعيل)، ولعل تعلق الجار والمجرور بالنعت يبين عن مطلق حرصه ﷺ على قومه في كل ما يصلح شأنهم ." وأحسن ما قيل في هذا المعنى مما هو موافق لكلام العرب ... يقول: سمعت عبد الله بن داود الجريبيّ يقول في قول الله -جلّ وعزّ- لقد جاءكم رسول مِنْ أنفسكم عزيز عليه ما عنتم قال: إن تدخلوا النار .حريص عليكم، قال: إن تدخلوا الجنة."([4]) وعلى هذا المعنى يكون بين الصفتين طباق خفي، حيث جعل متعلق كل صفة تضاد الأخرى .

وكون النبي ﷺ عزيزا عليه مايشق على قومه، وحريصا على إيمانهم أو هدايتهم هو من المناسبة في النتائج كما ذكر الزمخشري ([5])أي من نتائج الرسالة ومستلزماتها .

وتُوّجت هذه الآية بقوله: ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ من ذكر الصفتين، ونعت الرسول

---

(١)ينظر مقاييس اللغة مادة (عنت) .

(٢) تفسير التحرير و التنوير .المجلد الخامس ١١/ ٧٢ .

(٣) المفردات .مادة (حرص) .

(٤) إعراب القرآن .النحاس ١٣٨/٢ .

(٥) الكشاف ١١٠/٣ . ومثله في البحر المحيط ١٢٠/٥ .

ﷺ بهما متواليتين يبين عن فرق في دلالة كل منهما .(1) "وقيل: لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله ﷺ ."(2)

ولعل الرأفة والرحمة تقتضيان محبة وعطفا، وهذا لا يكون لغير المؤمنين؛ لذلك وجههما إليهم وبالغ فيهما، فقال: ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ . فالرسول ﷺ " بالنسبة لغير المؤمنين رائف وراحم ."(3) وهي صيغ لا تقتضي المبالغة، ولعلها من الرحمة العامة التي تعد من لوازم الرسالة .

ولما كانت النفس البشرية تقبل على من يظهر رأفته بها من أن يصيبها أذى أكثر من إقبالها على من يحسن إليها؛ قدّم قوله: ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ﴾ وثنى بعد ذلك بالإحسان بعده .

وإذا كان الأمر كذلك فتكون الفاصلة في قوله تعالى: ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ متمكنة في محلها، ولعلها من باب ذكر الخاص بعد العام . والصفتان من نتائج التبعية كما قال أبو حيّان .(4)

ومعنى الرأفة والرحمة أصل في صلب معنى السورة؛ لأن مفاد معاني السورة الغلظة والشدة على من كان غير مؤمن، وذلك ينعطف على المعاني الواردة في ثنايا السورة، فجاء بيان أن تلك الغلظة مرهونة بالآخرين ، وأن الرأفة و الرحمة مرهونة بأقوام معنيين، وهم المؤمنون، وفيه إلماح إلى أن الرحمة والرأفة من الولاء بين المؤمنين .

وترك العطف بين الصفات في قوله: ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ يعني كمال اجتماعها في الموصوف ﷺ .

---

(1) " الرأفة : الرحمة " الرحمة :رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم ...و إذا وُصف به الباري فليس يُراد إلا الإحسان المجرد دون الرقة " (المفردات .مادة رأف-رحم) و سيأتي بيان الفرق بينهما .

(2) الكشاف ٣/ ١١١ .

(3) تفسير التحرير و التنوير .المجلد الخامس ٧٣/١١

(4) روح المعاني ٥٢/٦ .

ولما كان من منتجات إرسال الرسل استجابة الأقوام أو إعراضها، و كان قد اكتفى بالإلماح إلى الاستجابة بقوله: ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ فطوى ذلك سريعاً؛ صرّح بذكر الإعراض والصد، وفصّل، فقال: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ فاستعار التولي للإعراض عن الرسول ﷺ في دعوته التي جاء بها، فشُبه صد الكفار عن الدعوة ،وإعراضهم عن قبولها؛ بتولية الإنسان دبره للمكان حين لا يريد المكوث فيه. و في الاستعارة بلاغة تصوير المكابرين والمعاندين للدعوة صورة المعرض عن الشيء، فكانت الاستعارة قادرة على ترسيخ المعنى أكثر، وذلك مطلوب مع ختام السورة لأن الختام آخر ما يبقى في الأذهان .

ومن حسن الاستعارة أن قابل بالتولي مجيء الرسول ﷺ ؛لأن المجيء إقبال والتولي إدبار، وكلاهما يرسمان صورة حسية حركية، فتمكنت الاستعارة في محلها مصورة الإعراض من الأقوام مع أن الرسل قد أقبلوا عليهم .

ولما كان من مقتضيات معاني السورة ترتب التكفل على حصول التوكل، خوطب الرسول في خاتمة السورة بقوله: ﴿ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ وهو خطاب لكل من يصح خطابه، ومعناه :" أي اعتمدت ،وإليه فوضت جميع أموري."(1) والتصريح بكلمة التوحيد بعدها فيه كمال الخضوع والانقياد لله تعالى، فهو يؤكد قوله: ﴿ حَسْبِيَ اللّهُ ﴾ فنُزّلت جملة ﴿ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ منزلة التأكيد من متبوعه، فإن قوله: ﴿ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ تقرير لمعنى الاعتماد على الله وتفويض الأمر إليه في الجملة قبله، و يساعد القصر بطريق النفي و الاستثناء على تأدية التأكيد لوظيفته، وللفصل بين الجملتين لكمال الاتصال أثر في بيان هذا المعنى، وهذا ماأشار إليه أبو السعود بقوله:"{لا إله إلا الله } استئناف مقرر لمضمون ما

---

(1) الجامع لأحكام القرآن ٣٠٢/٨ .

قبله."(1) وفيه بيان أن الإيمان بالله طريق لتحقيق التوكل عليه . وفيه تضمين لتحقق التكفل بعد حصول التوكل ،وهو ليس توكلا على الله فقط ،إنما هو قصر التوكل عليه دون غيره،وصورته:ما توكلت إلا عليه . ويسهم الفعل الماضي في الدلالة على ثبات حصول التوكل من الرسول ﷺ توكلا موجها لله دون سواه .وفيه إشارة إلى أن هذا المعنى هو المقصود بالتعليم .

وهذا المعنى تأكيد على معان سابقة في السورة مماثلة من جهة ،وتأسيس لمعان أخرى من جهة أخرى .فكان من رد الأعجاز على صدورها .

ولما كان تعالى حريا بالتوكل عليه وحصول التكفل منه ؛أبان عن عظمته فاستأنف وقال: ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ ومعناه :"الذي يملك كل ما دونه والملوك كلهم مماليكه وعبيده ."(2) وهذه الفاصلة متمكنة في محلها من خاتمة الخاتمة لأنها تبين عن جلال الله وعظمته المقتضية إذعان كل العباد له تعالى دون أدنى منافسة،مع بيان عدم حاجة هذا الإله إلى عبادة عباده،ومجيء العرش بالذات؛لأنه " لما كان أعظم الأجسام هو العرش ؛كان المقصود من ذكره تعظيم جلال الله سبحانه ."(3) وهذا من التناسب المعنوي في سياق الآية .

وهذه الفاصلة متمكنة في محلها من حيث إنها ختام السورة كلها؛لأنها تبين كذلك عن أن هذا الإله إن رحم عباده بإرسال الرسل، أو إن عذبهم و تبرأ منهم بسبب توليهم وعنادهم؛فلن يضره و لن ينفعه أي منهما؛لأنهما لا يساويان شيئا في ملكوته،وكل ماحذرهم منه وماحثهم عليه صائر نفعه ومضرته إليهم دون غيرهم .

وآيتا الخاتمة تبينان عن الولاء و البراء الذين تحدثت عنهما معاني آيات السورة كلها،فكانت تركيزا و تكثيفا للمعاني في السورة كلها .

---

(١) تفسير أبي السعود ٣/٢٠٤ .

(٢) جامع البيان ١١/ ٧٧ .

(٣) التفسير الكبير .المجلد الثامن ١٨٨/١٦ .

والنغم في آيتي الخاتمة يتسم بالتوازن الجزئي و هو موسوم بالقوة كذلك،ابتداء من قوله:(لقد) فحرف القاف مجهور يخرج من أقصى اللسان و (الدال)الساكنة معه تعطيان صوت القلقلة الذي ينبه السمع ويحثه على الإصغاء،ولذلك حسن افتتاح الخاتمة بهما حيث أشعرا بأهمية الخبر بعدهما وهو مجيء الرسل رحمة لرعاياهم .

وللسجع أثر في التنبيه إلى المعنى حين قال :{جاءكم- أنفسكم- عليكم } والطباق بين المجيء و التولي في قوله:{جاءكم- تولوا } يسهم في التنبيه إلى المعاني المتضادة،و يزيد المعنى جلاء .

وتسهم المقاطع المتقابلة في قوله:{ رسولٌ- عزيزٌ — حريصٌ —رؤوفٌ- رحيمٌ } في إيجاد إيقاع منظم يزيد الانتباه ،والتنوين على تلك الألفاظ يزيد في وضوح إيقاعها المتولد عن النغم الحاصل من التنوين على الحرف الأخير .

كما أن المقاطع المفتوحة في الآية حين قال:{ جاءكم- رسول — عزيز — ما — حريص — بالمؤمنين — رؤوف — رحيم- الله — لا — إله- العظيم} وطول النفس أثناء النطق بها يبين عن كثرة المعاني التي تعبّر عنها .

ودلالة تركيب آيات خاتمة السورة تتصف بالحسن لأن لها وقعا في القلوب،فهي توقع الألفة بين الرسول والمرسل إليهم،تزداد هذه الألفة بالمعنى قدما،فبالإيمان يشتد التأثير والتأثر معا؛و تزداد الألفة والرحمة . ولعل الخطاب بكاف الخطاب يسهم في بيان هذا التلطف والترقق مع المخاطبين،حين قال:(جاءكم — أنفسكم — عليكم)،وهذه الزيادة في التأثير تظهر في ترتيب الصفات الموصوف بها الرسول ﷺ ،لأن الإشفاق على القوم أول درجات رحمته ﷺ وهي تقوم مقام تخلية القوم من كل ما يعنتهم ،والدرجة الثانية هي الحرص عليهم أي : على هدى ضلالهم .

ثم تتزايد الرحمة حتى تصل إلى أعلى درجة وهي الرأفة والرحمة مجتمعتين، ولكنهما مخصوصتان لفئة معينة ،ولا تصرف هاتان الصفتان إلا للمؤمنين فقط .

وذكر منتجات الرسالة من الإيمان أو التولي والمعاندة هو من تمام الدلالة الذي يمنع دخول الوهن إلى الكلام،وهذه المنتجات تتناسب مع معاني السورة التي سلكت المنافقين مع الكافرين في سلك واحد،فلا مجال إلا إلى إيمان أو كفر ولا ثالث . فالتقسيم في الآيتين ملمح إلى القسم المؤمن،مصرّح بالآخر المعاند .

وخاتمة السورة تتسم بدقة المدخل؛إذ الآيات لم تكن لإثبات بعث الرسول إلى قومه بصفات تتناسب مع هؤلاء القوم ،وتأكيد هذا المعنى؛فبعثهم على هذا الحال أمر مفروغ منه وهو من مقتضيات الرسالة،ونصبة الكلام قائمة لبيان تحقق معنى آخر؛هو أن رحمة الله المودعة في إرسال رسل تتناسب صفاتهم مع أقوامهم قدسبقت عذابه المودع في براءته من الكافرين،وإذا ثبت ذلك ثبت استحقاق الكافرين للعذاب ،وثبت تكفل الله بالمؤمنين به خصّيصة لهم .

والملحوظ أنه ليس هناك طريق أحسن من دخول التأكيد على الفعل الماضي لبيان هذا المعنى؛فافتتاح الخاتمة مفعم بالتلطف والترقق من جهة ذكر النعمة ،وهي إرسال الرسل،ومن جهة اتصافهم بصفات ينبغي أن تؤلف بينهم و بين أقوامهم،فسياق الامتنان يتناسب مع الافتتاح بتحقيق حصول فعل مجيئ الرسل بالفعل الماضي المتضمن عملهم على التبشير والإنذار قبل إحاقة العذاب بهم ،ولو أدخلت (إن) مثلا بدل (لقد) لدخلت على الاسم ولصب الاهتمام على الرسول دون فعل الإرسال ،و المقصود بالتأكيد هو الفعل،ليس لإثبات حصول النعمة فالمنعم أجل من أن يحتاج إلى إثبات ذلك ،إنما هو للتذكير بها .

ولما كانت النتيجة من بعضهم هي العناد والاستكبار ؛كان ذكر حالهم والنص عليه بصورة حسية من وسائل تبشيع فعلهم .

والتضاد هو الأسلوب المحور في خاتمة السورة ؛حيث أقيمت المعاني على التضاد الذي يعمل على وضوح المعاني ؛لأن الضد يظهر حسنه الضد ،بله يساعد على إدراك الفروق بين المعاني المرادة، فعلى نطاق الجمل الرئيسة في خاتمة السورة قابل بين المجيء و صورته الفعل الماضي الدال على ثباته،و التولي و صورته الشرط لعدم حصوله من القوم أجمع ؛قابل بينهما وكان التولي مستعارا للإعراض فخرج إلى إيهام التضاد و ليس التضاد أصلا .
كما كافأ بين صفتين هما في قوله : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ // حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ و قال الألوسي: "{بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ} يدفع عنهم ما يؤذيهم ، {رَّحِيمٌ } يجلب لهم ما ينفعهم."(١) أي تخلية ثم تحلية ،فهو تضاد بين متعلق كل صفة –و الله أعلم– أي طباق خفي .و عليه يستفاد من كلام الألوسي أن قوله : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ يقتضي معنى الرأفة ؛لأن الرأفة رقة تصاحب حدوث ضر للمرؤوف به فتعمل على دفعه. وقوله : ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ يقتضي معنى الرحمة ؛لأن الرحمة رقة تقتضي إحسانا للمرحوم . فيكون متعلق تلك الصفتين أيضا من باب الطباق الخفي .

وكما تنعطف معاني خاتمة سورة التوبة على مثلها في الفاتحة فإن صورها تتقارب وتتشابه ؛فكما أقام الاحتباك في خاتمة السورة فقال: ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ *فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ ﴾ فحذف الإقبال بالإيمان من الأول لدلالة التولي عليه من الثاني ،وحذف

(١) روح المعاني ٥٢/٦ .

الغلظة من الثاني لدلالة الرأفة والرحمة من الأول؛أقام الاحتباك في مطلع السورة فقال: ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ فحذف البراءة الصادرة من المسلمين من الأول ؛لدلالة صدور العهد من المسلمين في الثاني ،وحذف صدور العهد من الله ورسوله من الثاني لدلالة صدور البراءة من الله ورسوله في الأول ،وهذا من شأنه تقوية نظم الآية وسبكها .

والتضاد قائم بالمطلع والمقطع كذلك، فقال في المطلع: ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ التوبة(١)فأتى بمضاد البراءة ،فالبراءة تقتضي عهدا نُقض،وقوله: ﴿ عَاهَدتُّم ﴾ يقتضي عهدا أُنجز ،فطابق بين متعلق اللفظين فكان طباقا معنويا .

وقابل كذلك بين متعلق الشرطين في قوله : ﴿ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ لأن متعلق التوبة الإيمان و متعلق التولي الكفر،فكان طباقا معنويا . وسبقت الإشارة إلى ماورد من مثله في ختام السورة في قوله: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾

وطابق كذلك بين جواب شرط التوبة و جواب شرط التولي فقال : ﴿ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ التوبة (٣)فطابق بين الخير و متعلق جواب شرط التولي أي :شر لكم وقامت صورة الأول على الجملة الاسمية المفيدة معنى ثبات تحقق الخير للتوابين ،في حين قام فعل الأمر مع التأكيد على القدرة على الكفار ،والاستعارة التهكمية بصورة التركيب الثاني؛ رفعا لقيمة

التهديد و الوعيد ،و هو على نفس نمط قوله في الخاتمة : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ التوبة(١٢٩).

والنظر في خاتمة السورة لم يكن ليظهر لولا النظرة الكلية لمعاني السورة كلها ،لأن المعاني المتفرعة ترتد إلى مساقطها لتؤكد تارة ،وتؤسس أخرى،فتتلاقى المعاني وتتكاتف لتكوين الصورة العظمى التي تجلو العلاقات وتفسرها . واستبصار العلاقات بين المعاني يجيب عن التساؤلات الكامنة وغير المعبر عنها .

* * *

خاتمة البحث

الحمد لله الذي تتم بحمده الصالحات ،والصلاة والسلام على نبي الأمة وداعيها وعلى آله وأصحابه أجمعين ...وبعد

فتتضمن هذه الدراسة التناسبية مجموعة الصلات الرابطة بين خاتمة الطوال المدنية وبين السورة نفسها؛ابتداء من اسم السورة ،ومطلعها ،ومقصودها ،ومطلع السورة التالية لها،وهي دراسة سياقية خلصت إلى نتائج عديدة ؛من أهمها :

– التناسب محور أصيل في الإعجاز البياني للقرآن الكريم .

– تتقارب المعاني وتتجاور منسجمة في السورة الواحدة ،هذا التقارب هيأ له وحدة سياقية للسورة كلها،وهو قائم على علاقات من التماثل والتناظر والتتميم والتكميل والترتيب والتدرج.

– تعد دراسة المتشابه بين الآيات في السورة الواحدة ،أو بين السور المتعددة دراسة في أحوال السياق الذي هو باب من أبواب التناسب .وهو يسهم في إظهار العلاقات والصلات سواء بين المعاني الجزئية في المعنى الكلي الواحد،أو بين المعاني الكلية الكبرى .

– الطوال المدنية تتصف بوحدة المقصد التي تهدف إلى كلية من الكليات الكبرى ونجوم السورة ،أو معاقدها مرتبطة بهذه الكلية، ومشتقة منها ،وموصولة بها.

– تتضافر السورة من المطلع والخاتمة والوسط والاسم للدلالة على مقصود السورة الأعظم،ولإبراز محورها التي تجري إليه كل معانيها .

– المطلع في الطوال المدنية قد يطول ويقصر ،ومن الممكن أن يكون آية،أو جزءً من آية . والمعاني فيه لها وظيفة التمهيد والتصدير لموضوع السورة ،ومنه تتناسل معاني السورة .

– الانتقال من المطلع إلى الموضوع في الطوال المدنية يتميز بالحسن والملاءمة دون اقتضاب،ويقوم بالتنشيط لسماع مابعده ،وهذا الانتقال ليس قائما في كل تمهيد ؛فقد يُقصد

إلى الموضوع مباشرة إذا كانت العلاقة بين المطلع والمتن علاقة إجمال وتفصيل، أوإجمال وتفريع .

– المطالع والأوساط واسم السورة كلها مقدمات لفقه المعنى القرآني في خاتمة الطوال المدنية.

– التناسب بين الطوال المدنية تناسب مقاصد، والسور المدنية تعتمد في معانيها على المكية، فهي إما مفصلة لما أجمل في المكي ، أو مكملة لها ، أو مبينة لها بوجه من الوجوه .

– التناسب بين الآيات ليس جمعا بين المعاني المتقاربة المتوافقة فقط ، بل هو جمع بين المعاني التي في ظاهرها يظن الاختلاف والتباعد .

– بيان أثر الجهود التفسيرية والبلاغية في دراسة النصوص ، و تفوق الجهود التفسيرية في تطور البلاغة القرآنية خاصة .

– تتسع الفنون البلاغية ذات الأثر في تنظيم المعنى وترتيبه مثل: رد الأعجاز على الصدور، وتشابه الأطراف، والإرصاد ، والتسهيم ، و اللف والنشر لتنتقل من دائرة الجملة أومجموعها إلى دائرة النص أو السياق الكلي للقرآن .

– خاتمة السورة المدنية مركزية في السورة إذ هي مكرسة ومحصلة لما ورد في معاني السورة كلها ، وهي قائمة على استكمال بناء الصورة للموضوع المطروح في السورة ، وهي مرتبطة بمقصود السورة وعائدة عليه .

– الجملة القرآنية في خاتمة السورة همزة وصل للسورة بعدها ؛ إذ تقوم بوظيفة التهيئة والتمهيد لاستقبال المعاني في مطلع السورة التالية .

– دلالة التراكيب والخصائص البيانية في خاتمة الطوال المدنية لا يتضح مداها ولا يتكامل بيانها باعتبار موقعها من جملتها الصغرى أو الكبرى ما لم يكن هناك اعتبار لموقعها من النص كله .

– تتميز خاتمة الطوال المدنية بحسن الدلالة وتمامها، وهما صفتان راجعتان إلى العلاقات القائمة بين المعاني فيها، وعلى قدر إحكام تلك العلاقات تكون إصابة المعاني .

– بيان أثر خاتمة الطوال المدنية في اختيار الخصائص التركيبية والتصويرية المناسبة لما جاء في مطلعها مع اختلاف موقع كل ووظيفته من الإخبارية و الإقناعية .

– تتضمن خواتيم الطوال المدنية قيما نفسية باعتبارها آخر ما يتلقاه المتلقي من السورة ،وهي تتسم بالتمام والكمال فلا ينتهي المتلقي منها وفي نفسه تطلع إلى المزيد .

وتوصي الباحثة بدراسة أوجه التناسب في سورتي الأنعام والأعراف تتميما لدراسة الطوال في القرآن الكريم ؛لأن ذلك يسهم في معرفة نظام القرآن القائم عليه في ترتيبه و تتابعه .

كما أن في دراسة المثين المدنية ويليها المفصّل تكميلا لمعرفة الخصائص الأسلوبية والسياقية للسور المدنية في القرآن الكريم كله ؛وهذا من شأنه إثراء مكتبة الدراسات القرآنية التناسبية .

الفهارس

فهرس الآيات

الآية	اسم السورة	رقم الصفحة
وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ	آل عمران:١٦٧	١١٣
وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ	آل عمران:١٦٦	١١٣
وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَ	آل عمران: ١٢٦	٤٧١
وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ رَبَّنَا	آل عمران: ١٤٧	١١١
وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ	آل عمران:١٦١	١١٣
وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ	آل عمران:١٤٤	١٠١
وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ	آل عمران: ١٢٦	١٠٨-٣٨٦
وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن	آل عمران:١١٥	١٠٤
وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ	آل عمران: ٧٥	٩٦
وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ	آل عمران: ٨٥	٩٧
وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ	آل عمران: ٢٨	٨٨
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي	آل عمران: ٦٥	٩٤-٤٩٣
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ	آل عمران:٧٠	٤٩٣
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ	آل عمران:٧١	٤٩٣
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ	آل عمران: ٢٠٠	٢٦٨-٤٨٠-٤٩٠-٥٧٤
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ	آل عمران: ١٠٢	١٠١
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا	آل عمران: ١٠٠	١٠٠

الآية	اسم السورة	رقم الصفحة
وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ	المائدة: ١١٦	٦٢٤–٦٢٨
وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ	المائدة: ٩٢	١٨٢
وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم	المائدة: ٤٩	٤٠٩
وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ	المائدة: ٤٢	٤٠٨
وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ	المائدة: ٤٨	٤٠٨–٤٠٩
وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ	المائدة: ٨٨	٤١١
وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى	المائدة: ١٨	١٦٧
وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ	المائدة: ١٢	١٦٥–١٦٦
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ	المائدة: ٦٥	١٧٨
وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ	المائدة: ٦٦	١٧٩
وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ	المائدة: ٤٧	١٧٣
وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ	المائدة: ٥١	١٧٦
وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى	المائدة: ١٤	١٦٦
وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ	المائدة: ٤٥	١٧٣
وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ	المائدة: ٤٧	١٧٣
وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ	المائدة: ٤٤	١٧٣
وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ	المائدة: ٥٦	١٧٧

الآية	اسم السورة	رقم الصفحة
وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ	التوبة: ٦	٢١٩
وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ	التوبة: ٢٨	٢٢٧
وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ	التوبة: ١٢٥	٢٤٧
وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ	التوبة: ٩٠	٢٤٣
وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ	التوبة: ١٠٠	٢٤٥
وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ	التوبة: ٨٥	٢٤١
وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ	التوبة: ٣٤	٢٣٠
وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ	التوبة: ١٦	٢٢٦
وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ	التوبة: ٤٦	٢٣٦
وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً	التوبة: ١٢٢	٢٤٦
وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ	التوبة: ٥٤	٢٣٧
وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ	التوبة: ١٥	٢٢٢-٤٢٩
وَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ	التوبة: ٥٦	٢٣٨
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ	التوبة: ٢٨	٢٢٦-٤٢٩
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم	التوبة: ١٢٣	٢٤٧-٤٣٣
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ	التوبة: ٢٣	٢٢٥-٤٢٩-٤٧٩

فهرس الأحاديث

فهرس الموضوعات

المصادر و المراجع

– أبجد العلوم .الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم . صديق بن حسن القنّوجي . أعده للطبع و وضع فهارسه :عبد الجبار زكار . بدون ط. ١٩٧٨م . منشورات وزارة الثقافة و الإرشاد القومي – دمشق.

– الإتقان في علوم القرآن. تأليف جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. قدم له وعلق عليه محمد شريف سكر .راجعه: مصطفى القصاص .جزءان .الطبعة الثانية. ١٤١٦ هـ –١٩٩٦ م. مكتبة المعارف –الرياض .

– الأساس في التفسير .سعيد حوى .ط١ . ١٤١٤ هـ ١٩٩٣م دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع –الغورية .

– أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين.قيس اسماعيل الأوسي. بدون ط .١٩٨٨م. المكتبة الوطنية – بغداد .

– الأساليب الإنشائية في النحو العربي عبد السلام هارون . ط٥. ١٤١٢ هـ – ٢٠٠١ م الناشر المكتبة الخانجي –القاهرة .

– أسرار البلاغة.عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي .قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر.ط١ .١٤١٢هـ –١٩٩١م .مطبعة المدني – جدة . دار المدني – جدة .

– أسرار التأويل. القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي ط١ ١٤٢٤ هـ–٢٠٠٣ م دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان .

– إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز. بديع الزمان سعيد النورسي .تحقيق :إحسان قاسم الصالحي . ط٣ . ٢٠٠٢ م. شركة سوزلر للنشر – القاهرة.

- الأصول في النحو .أبو بكر محمد بن سهل بن السرَّاج .تحقيق :عبد الحسين الفتلي ١٦٤/٢ .ط١ .١٩٨٥ مؤسسة الرسالة — بيروت .

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن .محمد الأمين بن محمد المختار الجكي الشنقيطي . إشراف :بكر عبد الله أبو زيد ٥٥/١ . ط٦ . ١٤٢٦ هـ دار عالم الفوائد–مكة المكرمة .

- الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره .أحمد القاسم .ط١ .١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م

- إعجاز القرآن أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني .قدّم له و شرحه و علق عليه:محمد شريف سكر . ٤ط٣. ١٤١٥ هـ –١٩٩٤ م .دار إحياء العلوم —بيروت .

- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : تأليف مصطفى صادق الرافعي، بدون طبعة ١٤١٦ هـ – ١٩٩٥ م — دار الفكر العربي — القاهرة .

- إعراب القرآن .أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي وضع حواشيه وعلق عليه:عبد المنعم خليل إبراهيم . ١٤٢١هـ– منشورات محمد علي بيضون —دار الكتب العلمية /بيروت .

- الإمام البقاعي.جهاده و منهاج تأويله بلاغة القرآن الكريم.محمود توفيق . ط١ . ١٤٢٤ هـ.بدون دار .

- إمعان النظر في نظام الآي و السور .محمد عناية الله أسد سبحاني. بدون ط . دار عمار .

- الإيضاح في علوم البلاغة .الخطيب القزويني .شرح وتعليق وتنقيح : محمد عبد المنعم خفاجي . ط ٣– ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م — دار الجيل — بيروت .

– بابة البلاغة والبيان.نمو المعاني دراسة تحليلية لسورة آل عمران.عادل حسني شكري شرف. قدم له د. محمد خير البقاعي . .ط١ .١٤٢٤هـ–٢٠٠٤م .مكتبة ودار ابن حزم للنشر والتوزيع –المملكة العربية السعودية /الرياض .

– بدائع التفسير الجامع لتفسير ابن القيم .جمعه يسري السيد محمد. ط١ .دار ابن الجوزي

– بدائع الفوائد. أبو عبد اله بن أبي بكر بن أيوب .ابن قيم الجوزية .تحقيق :علي بن محمد العمران . إشراف : بكر بن عبد الله أبو زيد .بدون ط . بدون ت. مؤسسة الراجحي الخيرية – دار علم الفوائد للنشر والتوزيع –مجمع الفقه الإسلامي –بجده .

– بديع القرآن .ابن أبي الاصبع المصري .تقديم و تحقيق :حفني محمد شرف . ط٢ .دار طباعة مصر للطبع و النشر / الفجالة –القاهرة .

– البرهان في علوم القرآن :للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي .شرح حديثه وقدم وعلق عليه :مصطفى عبد القادر عطا .أربعة أجزاء .بدون طبعة. ١٤٢٢ هـ –٢٠٠١ م. دار الكتب العلمية–بيروت/لبنان.

– البرهان في متشابه القرآن. الإمام محمود بن حمزة الكرماني.ط١ .١٤١١ هـ– ١٩٩١ م .دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع –المنصورة.

– البرهان في نظام القرآن في الفاتحة والبقرة وآل عمران. محمد السبحاني .قدّم له : محمد أديب الصالح. وأبو الحسن علي الحسني .ومصطفى مسلم .ط١. ١٤٢٦ هـ–٢٠٠٥ م.دار عمار للنشر–عمان.

– بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز . مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي تحقيق الأستاذ: محمد علي البخار. المكتبة العلمية بيروت/لبنان.

- بلاغة الخطاب وعلم النص .صلاح فضل . بدون ط. بدون تاريخ — مكتبة لبنان. الشركة المصرية العالمية للنشر — لو نجمان .

- بلاغة السرد. الدكتور محمد عبدا لمطلب الهيئة العامة للثقافة .

- بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم .محمد بن علي بن محمد الصامل .ط١. ١٤٢٢ هـ-٢٠٠١ م دار اشبيليا-المملكة العربية السعودية/الرياض.

- البيان في روائع القرآن : تمام حسان . ط ٢ . ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م عالم الكتب - القاهرة.

- البيان القرآني.محمد رجب البيومي. ط ٣. ١٣٩١ هـ- ١٩٧١ م مجمع البحوث الإسلامية - الأزهر.

- البيان والتبيين .أبو عثمان الجاحظ . حققه وشرحه:حسن السندوي . ثلاثة أجزاء.بدون ط . ١٩٩٠ م .دار المعارف - تونس.

- تاريخ جرجان .حمزة بن يوسف أبو القاسم الجرجاني .تحقيق :محمد عبد المعين خان .ط٣ ١٤٠١-١٩٨١ عالم الكتب —بيروت.

- تأملات في سورة البقرة. حسن محمد باجودة .بدون ط. ١٤١٠ هـ.دار مصر للطباعة .

- تأويل مشكل القرآن .أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري .شرحه ونشره:السيد أحمد صقر. المكتبة العلمية .

- التبيان في علم المعاني و البديع و البيان .شرف الدين حسين بن محمد الطيبي . تحقيق وتقديم : هادي عطية مطر الهلالي .ط١ .١٤٠٧-١٩٨٧ م .عالم الكتب — بيروت

- تذكرة الحفاظ .أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي ط١ .دار الكتب العلمية-بيروت.

- تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي في التفسير .من سلسلة تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي .تصدير:محمد بن شريفة .تقديم و تحقيق :محمادي بن عبد السلام الخياطي .ط١ .١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م .بدون دار .

- التصوير الفني في القرآن . سيد قطب .ط ٨ ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣ م. دار الشروق -القاهرة .

-تفسير أبي السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. القاضي أبي السعود وضع حواشيه:عبد اللطيف عبد الرحمن . ط ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م دار الكتب العلمية - بيروت/ لبنان

- تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التنزيل . تأليف إمام المحققين وقدوة المدققين القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي . ط١ .١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م دار الكتب علمية بيروت/لبنان.

- تفسير التحرير والتنوير :تأليف الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور. بدون طبعه. ١٩٨٤ م .دار سحنون للنشر - تونس .

- تفسير القرآن العظيم .إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء .أربعة أجزاء بدون ط . ١٤٠١ هـ .دار الفكر - بيروت.

- التفسير الكبير .تفسير فخر الدين الرازي . الإمام محمد الرازي فخر الدين بن العلامة ضياء الدين الشهير بخطيب الري. بدون ط. ١٣٩٨ هـ-١٩٧٨ م دار الفكر - بيروت .

- تفسير القرآن الكريم :(الأجزاء العشرة الأولى). محمود شلتوت ط١٢. ١٤١٤ هـ - ٢٠٠٤ م . دار الشروق - القاهرة.

- تلخيص البيان في مجازات القرآن .للشريف الرضي .ط ١. ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦م . عالم الكتب .مكتبة النهضة العربية .

- التناسب البياني في القرآن دراسة في النظم المعنوي والصوتي .أحمد أبو زيد . بدون ط . بدون ت. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط .

- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم .الرماني و الخطابي و عبد القاهر الجرجاني .حققها و علّق عليها: محمد خلف الله أحمد و محمد زغلول سلام .ط٤ .بدون ت .دار المعارف – القاهرة .

- الجامع لأحكام القرآن. محمد بن أحمد بكر بن فرج القرطبي.أبو عبد الله .تحقيق: أحمد عبد المنعم البردوني. عشرون جزءا. الطبعة الثالثة. دار الشعب- القاهرة.

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن. محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر . ١٤٠٥ هـ – بدون ط . دار الفكر – بيروت.

- الحجة في القراءات السبع .الحسين بن أحمد بن خالويه أبو عبد الله.تحقيق: عبد العال سالم مكرم. ط٤ .١٤٠١ هـ . دار الشروق – بيروت .

- حجة القراءات .عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة أبو زرعة.تحقيق: سعيد الأفغاني ٢٤٢/١ .ط٢ . ١٤٠٢-١٩٨٢ . مؤسسة الرسالة –بيروت .

- حسن الابتداء في سور القرآن الكريم "دراسة تطبيقية "إعداد :عبد المجيد عبد المجيد هنداوي جعفر . بدون ط. ١٤٢٠ هـ-١٩٩٩ م.بدون د.

-خصائص التعبير القرآني و سماته البلاغية . عبد العظيم المطعني ٢٨٢/٢ .ط١ .١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .مكتبة وهبة /عابدين- القاهرة .

-الخطاب القرآني. دراسة في العلاقة بين النص و السياق. خلود العموش . ط١. ١٤٢٦هـ عالم الكتب الحديث / أربد – الأردن.

- خواطر قرآنيه. نظرات في أهداف سور القرآن. عمرو خالد ط١ . ١٤٢٥ هـ -٢٠٠٤ م. أريج للنشر والتوزيع-الدقي .

- درة التنزيل وغرة التأويل . أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني .المعروف بالخطيب الإسكافي .دراسة وتحقيق وتعليق : محمد مصطفى آيدين . ط١. ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م . المملكة العربية السعودية /جامعة أم القرى .

- دلائل الإعجاز أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي .قرأه وعلّق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر .ط٣. ١٤١٣ هـ-١٩٩٢ م . مكتبة الخانجي - القاهرة .مطبعة المدني -جدة .

-دلائل النظام .عبد الحميد الفراهي الهندي .قدّم له :بدر الدين الإصلاحي.ط١ . ١٣٨٨ هـ .المطبعة الحميدية .

- دلالة الجملة الاسمية في القرآن الكريم. شكر محمود عبد الله . ط١ . ٢٠٠٩ م. دار دجلة / المملكة الأردنية الهاشمية - عمّان.

- دلالة السياق. ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي. ط١. ١٤٢٣ هـ جامعة أم القرى - مكة المكرمة.

- دلالة فعلي البيع و الشراء في القرآن الكريم .مركز دراسات الكوفة.العدد العاشر.٢٠٠٨ م .

- الدلالة اللغوية عند العرب. عبد الكريم مجاهد . بدون ط. ١٩٨٥ دار الضياء.

- الرسالة للشافعي. تحقيق أحمد محمد شاكر. ط ٢. ١٣٩٩ هـ. دار التراث-القاهرة.

- زاد المعاد في هدي خير العباد .ابن قيم الجوزية .حقق نصوصه و خرج أحاديثه وعلّق عليه: شعيب الأرنؤوط - عبد القادر الأرنؤوط . ط ١٥. ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .مؤسسة الرسالة / بيروت -لبنان .مكتبة المنار الإسلامية - الكويت .

- سر صناعة الإعراب .أبو الفتح عثمان بن جني دراسة وتحقيق :حسن هنداوي .ط٢ .١٤١٣ هـ-١٩٩٣ م .دار القلم /دمشق - بيروت .

- سنن الدارمي.عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي .تحقيق: فواز أحمد زمرلي . خالد السبع العلمي. ط١ .١٤٠٧هـ . دار الكتاب العربي-بيروت .

- سير أعلام النبلاء .محمد أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي .أبو عبد الله .تحقيق: شعيب الأرناؤوط و محمد نعيم العرقسوسي .ط٩ . ١٤١٣ هـ مؤسسة الرسالة -بيروت .

- شرح الثلاثة الأصول للإمام محمد بن عبد الوهاب.شرح أصحاب الفضيلة:عبد العزيز بن عبد الله بن باز و عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ومحمد بن صالح العثيمين وصالح بن فوزان الفوزان وصالح بن عبد العزيز آل الشيخ. وبهامشه تعليقات للشيخ:محمد منير الدمشقي.ط١. ١٤٢٨ هـ- ٢٠٠٧م.دار ابن حزم.جمهورية مصر العربية-القاهرة .

- الشعر والشعراء ابن قتيبة .أبو عبد الله بن محمد .تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر بدون ط . ١٩٦٦م .دار المعارف المصرية.

- صحيح البخاري .محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي.تحقيق :مصطفى ديب البغا.ط٣ . ١٤٠٧-١٩٨٧ .دار ابن كثير -اليمامة/بيروت .

- صحيح ابن حبان .محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي .تحقيق:شعيب الأرنؤوط . ط٢ . ١٤١٤-١٩٩٣ .مؤسسة الرسالة -بيروت .

- صحيح ابن خزيمة: محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري . تحقيق:محمد مصطفى الأعظمي بدون ط .١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م - المكتب الإسلامي - بيروت.

- صحيح مسلم . مسلم بن الحجاج . أبو الحسن القشيري النيسابوري .تحقيق:محمد فؤاد عبد الباقي . خمسة أجزاء . الطبعة الثالثة. ١٤٠٧ هـ-١٩٨٧ م. دار ابن كثير- اليمامة / بيروت.

- صحيفة علي بن أبي طلحة في تفسير القرآن الكريم عن ابن عباس اعتنى بها وحققها وخرجها راشد عبد المنعم الرجال .

- طبقات الشافعية.أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة .تحقيق :د.الحافظ عبد العليم خان .ط١ .١٤٠٧ هـ . عالم الكتب - بيروت.

- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للإمام يحي بن حمزه بن على بن إبراهيم العلوي اليمني ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي. ط١ ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م المكتبة العصرية صيدا — بيروت .

- العزف على أنوار الذكر .معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآني في سياق السورة ط١. ١٤٢٤ هـ .الحقوق محفوظة للمؤلف .

- علم الدلالة. أحمد مختار عمر. ط١. ١٤٠٢ هـ . مكتبة دار العروبة للنشر و التوزيع.

- علم الدلالة تأصيلا و دراسة و تطبيقا. عثمان محمد أحمد الحاوي. بدون طبعة. مكتبة المتنبي. المملكة العربية السعودية —الدمام .

- علم الدلالة دراسة نظرية و تطبيقية . فريد عوض حيدر. ط١. ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م مكتبة الآداب- القاهرة .

- علم المعاني .دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني. بسيوني عبد الفتاح فيّود .ط١ .١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م .مؤسسة المختار-القاهرة /دار المعالم الثقافية-الهفوف .

- عمدة الحافظ في تفسير أشرف الألفاظ "معجم لغوي لألفاظ القرآن الكريم" أحمد بن يوسف ابن عبد الدايم . تحقيق :محمد باسل عيون السود. ط١. ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م. دا ر الكتب العلمية — بيروت / لبنان.

- العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي .محمد فكري الجزار .الهيئة العامة للكتاب.

- الفوائد.ابن قيم الجوزية.خرّج أحاديثه:سيد بن رجب . أشرف على تحقيقه وقدّم له/مصطفى العدوي .ط١. ١٤٢٢ هـ.دار ابن رجب للنشر.

- فيض القدير بشرح الجامع القدير. عبد الرؤوف المناوي . ستة أجزاء. ط ١ . ١٣٥٦ هـ المكتبة التجارية الكبرى —مصر .

– في ظلال القرآن .سيد قطب المجلد الثالث.١٢٤٣/٨ .ط٩. ١٤٠٠هـ –١٩٨٠م.دار الشروق — بيروت .

– القرآن المجيد .تنزيله وأسلوبه و أثره وجمعه وتدوينه و ترتيبه و قراءاته ورسمه و محكمه ومتشابهه و قصصه وغيبياته و تعليقاته على مناهج مفسريه و الطريقة المثلى لفهمه و تفسيره .محمد عزة دروزة .بدون ط .بدون ت .منشورات المكتبة العصرية /صيدا– بيروت .

– كتاب الصناعتين .الكتابة والشعر .تصنيف أبي هلال بن عبد الله بن سهل العسكري تحقيق:علي محمد البجاوي .محمد أبو الفضل إبراهيم . بدون ط . ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م المكتبة العصرية / صيدا — بيروت .

– كتاب معاني القراءات.تصنيف:أبي منصور الأزهري محمد بن أحمد . تحقيق ودراسة:عبيد مصطفى درويش و د. عوض بن محمد القوزي. ط٢ . ١٤١٧هـ– ١٩٩٦م. دار المعارف .

– الكشاف عن غوامض التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل .جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري .تحقيق و تعليق و دراسة /عادل أحمد عبد الموجود .و علي محمد معوض . ط١ .١٤١٨ هـ – ١٩٩٨ م مكتبة العبيكان —الرياض .

– لسان العرب.أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم.ابن منظور الأفريقي المصري.ط٣ .١٤١٤ هـ–١٩٩٤ م .دار صادر لبنان – بيروت .

– لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ،فاضل السامرائي. ط١ . ١٩٩٨ م .دار الشؤون الثقافية العامة — بغداد.

– المبسوط في القراءات العشر . الأصبهاني .تحقيق : سبيع حمزة حاكمي . بدون ط. بدون ت. مطبوعات مجمع اللغة العربية —دمشق .

- المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر .ابن الأثير .تحقيق:محمد محي الدين عبد الحميد.بدون ط .١٤١٦ هـ- ١٩٩٥ م.المكتبة العصرية /صيدا - بيروت .
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية.جمع وترتيب:عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي و ساعده ابنه محمد .حقوق الطبع محفوظة لهما .
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز.أبو محمد عبد الحق غالب بن عطية الأندلسي .تحقيق:عبد السلام شافي محمد .ط١ .١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م .دار الكتب العلمية -لبنان.
- مراجعات في أصول الدرس البلاغي .محمد محمد أبوموسى .ط١. ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م .
- مراصد المطالع في تناسب المقاطع و المطالع .بحث في العلاقات بين مطالع سور القرآن وخواتيمها.جلال الدين السيوطي.قرأه وتممه:عبد المحسن عبد العزيز العسكر.ط١. ١٤٢٦هـ.مكتبة دار المنهاج / المملكة العربية السعودية- الرياض.

- المستدرك على الصحيحين محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النسابوري تحقيق:مصطفى عبد القادر عطا .. ط ١ ١٤١١هـ - ١٩٩٠ م - دار الكتاب العلمية - بيروت .

- مشاهد القيامة في القرآن .سيد قطب . ط١٤ . ١٤٢٣ هـ -٢٠٠٢ م دار الشروق -القاهرة.

- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور.برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي الشافعي .قدّم له وحققه و علق عليه و خرّج أحاديثه : عبد السميع محمد أحمد حسنين ط١. ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م .مكتبة المعارف -الرياض.

- المطالب العلية .ابن حجر العسقلاني.بدون ط .بدون ت. دار العاصمة.دار الغيث .

- المطوّل شرح تلخيص مفتاح العلوم .سعد الدين التفتازاني.تحقيق:عبد الحميد هنداوي .ط١. ١٤٢٢ هـ-٢٠٠١ م. دار الكتب العلمية / بيروت - لبنان.

- معاني القرآن و إعرابه .الزجاج أبو اسحاق إبراهيم السري.شرح وتحقيق :عبد الجليل عبده شلبي . عالم الكتب .
- المعجم الكبير. الطبراني تحقيق :حمدي عبد المجيد السلفي .ط٢ .١٤٠٤ -١٩٨٣م.مكتبة الزهراء -الموصل .

- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.محمد فؤاد عبد الباقي .مؤسسة جمال للنشر . بيروت-لبنان .
- المعنى في البلاغة العربية. حسن طبل. بدون ط. ١٩٩٨م دار الفكر العربي- القاهرة.
- مفهوم النص .دراسة في علوم القرآن .نصر حامد أبو زيد .ط٦ ٢٠٠٥ المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء /المغرب .
- مقاييس اللغة،أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا ،تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون ، بدون ط. دار الجيل - بيروت .
- المقتضب لأبي العباس محمد بن المبرد. تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة عالم الكتب- بيروت.
- مقدمتان في علوم القرآن وهما مقدمة كتاب المباني و مقدمة ابن عطية.نشرها من المخطوطات المحفوظة في دار الكتب ببرلين ،و دار الكتب المصرية .ووقف على تصحيحها وطبعها آرثر جفري .١٩٥٤م. مكتبة الخانجي -مصر.و مكتبة المثنى ببغداد.و مطبعة السنة المحمدية .
- المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار،مع كتاب النقط لأبي عمرو الداني تحقيق: محمد أحمد الدهان. بدون ط .نشر مكتبة النجاح- طرابلس/ليبيا .
- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل . الإمام الحافظ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي .تحقيق: سعيد الفلاّح ط١ .١٤٠٣ هـ-١٩٨٣م .دار المغرب الإسلامي -بيروت -لبنان.

– من أسرار البيان القرآني. فاضل السامرائي .ط٢. ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م دار الفكر. الأردن / عمّان.

– من أسرار التعبير في القرآن. حروف القرآن. عبد الفتاح لاشين . بدون ط. بدون ت. مكتبات عكاظ للنشر و التوزيع .

– من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب .محمد محمد أبو موسى .ط٢ .١٤١٦ هـ –١٩٩٦ م .مكتبة وهبة — القاهرة

– من أسرار القرآن .صفاء الكلمة .عبد الفتاح لاشين .بدون ط .١٤٠٣–١٩٨٣ دار المريخ / الرياض .

– من بلاغة النظم القرآني. دراسة بلاغية تحليلية لمسائل المعاني والبيان والبديع في آيات الذكر الحكيم .بسيوني عبد الفتاح فيّود .ط١. ١٤٣١ هـ– ٢٠١٠ م .مؤسسة المختار للنشر والتوزيع — القاهرة .

– من روائع القرآن .تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل . محمد سعيد البوطي بدون ط . ١٤٢٤ هـ–٢٠٠٣ م. مكتبة الفارابي —دمشق /سوريا.

– من المعجم البياني لألفاظ القرآن الكريم "الكتاب الأول" الإتيان و المجيء فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن .ط١ .١٤١٨هـ–١٩٩٨م .مكتبة وهبة —القاهرة .

– منهاج البلغاء وسراج الآدباء .صنعه:أبو الحسن حازم الفرطاحني .بدون ط بدون ت . بدون د .

– منهج السياق في فهم النص .عبد الرحمن بودرع .ط١. ١٤٢٧هـ.و زارة الأوقاف و الشئون الإسلامية — قطر.

–الموافقات في أصول الشريعة .أبو اسحاق الشاطبي تحقيق:عبد المنعم إبراهيم . ط١. ١٤١٨ هـ –١٩٩٧م المملكة العربية السعودية / مكتبة نزار مصطفى الباز – مكة المكرمة .

- النبأ العظيم .نظرات جديدة في القرآن .محمد عبد الله دراز . بدون ط .بدون ت.بدون دار.

- نظم الدرر نظم الدرر في تناسب الآيات و السور.برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي .خرّج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه :عبد الرزاق غالب المهدي . ط٢ .٢٠٠٣م-١٤٢٤هـ .دار الكتب العلمية /بيروت- لبنان .

- نظم العقيان في أعيان الأعيان .جلال الدين السيوطي .تحقيق:فيليب حتي المكتبة العلمية — بيروت .

- النظم الفني في القرآن .عبد المتعال الصعيدي . بدون ط.بدون ت.مكتبة الآداب-القاهرة.

- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع .الإمام جلال الدين السيوطي. بدون ت. بدون دار.

الرسائل الجامعية

- البلاغة القرآنية في آيات صفات المؤمنين. هند جميل نايته ط١. ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م .
رسالة دكتوراه .إشراف الدكتور: محمد بن سعد الدبل .دار كنوز إشبيلية -الرياض.

- التناسب في تفسير الإمام الرازي .دراسة في أسرار الاقتران منال مبطي المسعودي .ط١. ١٤٣١هـ-٢٠١-م .رسالة دكتوراة .إشراف الدكتور :محمد محمد أبوموسى. مكتبة وهبة — القاهرة.)

المجلات والندوات

المجلات :

– قواعد تشكل النغم في موسيقى القرآن .نعيم عبد الباقي .مجلة التراث العربي عدد ١٥ – ١٦صـ ٩٩ السنة الرابعة –رجب وشوال.١٤٠٤ –نيسان "ابريل " وتموز " يوليو " ١٩٨٤ . اتحاد الكتاب العرب –دمشق.

– مفهـوم التناسب عند نقاد القرن الرابع الهجري . محمد الحـافظ الروسي .مجلة الدارة . السنة العـاشرة .شوال ١٤٠٤ هـ–رجب ١٤٠٥ هـ /يونيه ١٩٨٤ – مارس ١٩٨٥م .

– وظيفة العنوان في الشعر العربي الحديث.قراءة تأويلية في نماذج منتخبة.عثمان بدري. المجلة العربية للعلوم الإنسانية .العدد الواحد والثمانون .شتاء ٢٠٠٣ .السنة الواحد والعشرون . مجلس النشر العلمي .جامعة الكويت .

الندوات :

– الختم والطبع ودلالتهما البلاغية في القرآن الكريم. السيد محمد السيد .بحوث ندوة الدراسات البلاغية. الواقع و المأمول . ١٤٣٢ هـ . الرياض .

– عنوان المقال بـين التحليـل البلاغـي وجماليـات النص.طـارق سـعد شـلبي .بحـوث نـدوة الدراسات البلاغية .الواقع والمأمول .١٤٣٢ هـ .الرياض .